الدعوة الإسلامية

إبراهيم أبو عواد

بسم اللّه الرحمن الرحيم

مقدمة

الحَمْدُ للّهِ رَبِّ العَالَمِين، والصَّلاةُ والسَّلام على النبيِّ مُحمَّد وإخوته الأنبياء الكِرام، وآلِ كُلٍّ ، وصَحْبِ كُلٍّ .

إنَّ الدَّعوة الإسلامية (الدَّعوة إلى اللّه) هي طريق الأنبياء الكِرَام _عليهم الصلاة والسلام_ . والأنبياءُ دِينهم واحد،وهو الإسلام،لكن شرائعهم تختلف باختلاف الزمان والمكان وطبيعة الناس . وجَوهر الدَّعوة يتَّضح في إرشاد الناس إلى تَوحيد اللّه (عِبادته وَحْدَه بلا شريك ولا نِد ولا صاحبة ولا ولد). وقد قام الأنبياءُ بترسيخ الدَّعوة الإسلامية على أرض الواقع مِنْهَاجًا حياتيًّا لا مَحِيد عنه، وذلك امتثالًا لأمر اللّه بالتَّبليغ عنه_ دُون زِيادة أوْ نُقْصَان_ لإخراج الناس من ظُلُمَات الجَهْل والكُفْر إلى نُور العِلْم والإيمان ، ونشرِ تعاليم الإيمان والأخلاق الفاضلة ، واجتثات القيم السلبية المُعتمدة على عِبادة العباد للعباد.وهُنا تتجلى أهمية الدَّعوة وضَرورتها المصيرية وفائدتها الوجودية.

والدَّعوةُ طَرِيقٌ طويل وشاق ، والسَّير فيه مُستمر بلا توقُّف، ولا أحد يستطيع إلغاءَ هذا الطريق أوْ طَمْس معالمه. والتَّقصيرُ في أداء الدَّعوة أمر شديد الخُطورة ، ويُدمِّر قِيَمَ الفَرْدِ والجماعة ، ويَقْضِي على طُموحات المُجتمع في الحرية والتحرُّر مِن ثِقل العناصر المادية الدُّنيوية .

وكُلُّ فَرْد يجب عَلَيه أن يكون داعيةً وَفْق مُستواه العقلي وقُدرته العِلْمِيَّة واستعداده النَّفْسِي . ولا يُشْتَرَط في الدَّاعية أن يكون فقيهًا أوْ عَالِمًا أوْ إمامًا . والمَرْءُ يتحدَّث فِيما يَفْهَم ، ويَنصَح في نِطاق معرفته.أمَّا الأُمُور التي لا يُتقِنها فلا يتحدَّث فيها،ولا يَهْرِف بما لا يَعْرِف.وقد صَنَعَ النَّبِيُّ ﷺ هذا المَنْهَجَ الدَّعَوِي المُتماسك حِين قال: ((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً))[صحيح البخاري]. ("بَلِّغُوا" : تَكليف . " عَنِّي " : تَشريف . " وَلَوْ آيَةً " : تَخفيف) .

والدَّعوةُ لها أركان واضحة، ولَيست مشروعًا عاطفيًّا أوْ كلامًا ارتجاليًّا . ينبغي أن تكون الدَّعوةُ باللغة التي يَفهمها المُخَاطَبُون دُون الخَوْض في المَسائل الصعبة على الفَهْم أو التي قد تُثير الفِتَن. ويكون أسلوبُ الدَّعوة سَلِسًا هادئًا جَذَّابًا ، لا يُؤَدِّي إلى التَّنفير أوْ بَعْث اليأس في النُّفُوس . والخِطَابُ الدَّعَوي ينبغي أن يتحلَّى بالوسطية لَفْظًا ومَعْنًى، بلا إفراط (تشديد) أوْ تفريط (تَمييع). والدَّاعيةُ عَلَيه أن يُنَقِّيَ قَلْبَه مِن الرِّيَاء وحُظُوظِ النَّفْس ، ويَجعل نِيَّتَهُ خالصةً لوجه اللّه تعالى ، ويَدفع السَّيئةَ بالحسنة ، ويصبر على أذى الناس ، ويُراعي الفروقات الفردية بَينهم في المُستوى

الفكري والاجتماعي . وعندئذ ستكون الدَّعوةُ مَشروعًا حياتيًّا مُتواصلًا مبنيًّا على قواعد راسخة ، فتظهر النتائجُ باهرةً ، ويَظهر التأثيرُ الإيجابي على السُّلوك الفردي والجماعي لِمَا فيه مصلحة الجميع ، وسعادة البشرية . والجدير بالذِّكْر أنَّ الدَّعوة لها جناحان : الأمر بالمَعروف والنَّهْي عن المُنكَر ، وبِدُونهما تَفقد الدَّعوةُ مَعناها وشرعيتها وتأثيرها .

إنَّ هذا الكتاب يتكوَّن مِن ثلاثة فُصول . الفصلُ الأوَّل (وُجوب الدَّعوة) يتحدَّث عن أهمية نَشْرها في كُل زمان ومكان ، لأنَّها الخَلاص والنَّجَاة في الدُّنيا والآخرة . ووصولُ الدَّعوة إلى أكبر شريحة مُمكنة من الناس ، سَيُؤَدِّي إلى استئصال الشَّر ونشر الخَير ، فيعيش الفردُ في مُجتمع نظيف قائم على الإيمان والأخلاق الحميدة . وهذه هي البيئة المُناسبة للإبداع والتَّقَدُّم والتنمية . وبما أن الدَّعوة خُطَّة إنقاذ شاملة ، فيجب أخذها عَلى مَحْمَل الجِد ، وعدم التقصير في نشرها ، وهي مُهمة الرُّسُل الذين قاموا بها على أكمل وَجْه ، وهُم المَثَل الأعلى والقُدوة السَّامِيَة .

والفصلُ الثاني (الحِكمة في الدَّعوة) يتحدَّث عن وُجوب الدَّعوة بحِكمة وهُدوء وعقلانية ، وبلغة واضحة سهلة تصل إلى قلوب جميع الناس ، بلا تعقيد ولا تَشَدُّق . معَ ضَرورة أن تكون المُجَادَلَة قائمة على الدليل النقلي والحُجَّة العقلية والكلام الطَّيب ، والأسلوب الهادئ . ولا بُد مِن الصَّبر على مَشَاق الدَّعوة ، وتحمُّل هذه المسؤولية الجسيمة ، ومُقابلة الإساءة بالإحسان ، ودَفْع السَّيئة بالحسنة ، وتقريب الأفكار إلى أذهان الناس بضرب الأمثلة والتشبيهات ، ومُحاولة استقطاب الخُصُوم وجَذبهم إلى الحَق ، والامتناع عن إثارتهم أو استفزازهم أو التَّكَبُّر عليهم .

والفصلُ الثالث (حُدود الدَّعوة) يتحدَّث عن أهمية الاقتناع الذاتي (القناعة القلبية) بالدِّين، وعدم الإكراه ، لأنَّ العقيدة والإكراه لا يَجتمعان في قلب العبد ، والعبادةُ والإجبارُ لا يَلتقيان في حياته . ويجب اعتماد المنهج الوَسَطي القائم على الحق بلا تفريط ، والتسامح بلا تعصُّب ، والمحبَّة بلا كراهية ، والدليل بلا تقليد . والحَقُّ أحقُّ أن يُتَّبع ، والرَّأي يُؤْخَذ بالحُجَّة القوية ، ولَيس بالأغلبية . ولا يَخفى أنَّ هُناك أشخاصًا يَرفُضون الحِوَارَ ، ولا يَعترفون بِقُوَّة المنطق ، وإنَّما يؤمنون بمنطق القُوَّة فقط لا غَيْر ، وهؤلاء لا فائدة مِن التعامل معهم ، ولا جَدوى مِن مُناقشتهم . وهذا يُشير إلى وُجوب وَضْع الأُمُور في نِصَابها الصحيح ، حَيث يكون التَّشَدُّد في مَوضعه ، والتسامح في مَوضعه . وسُلُوكُ الإنسان يُحدِّد طريقةَ التعامل معه ، وأسلوبُ الدَّعوة يَختلف باختلاف الزمان والمكان وطبيعة الناس . وإنْ وَجَدْتَ أخي القارئ خَيْرًا في هذا الكتاب فهو مِنَ اللَّه وَحْدَه ، وإنْ وَجَدْتَ غَيْرَ ذلك، فَمِن نَفْسِي والشَّيطان. والحمدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِين دائمًا وأبدًا .

الفصل الأوَّل
وُجوب الدَّعوة

تمهيد

الدَّعوةُ الإسلامية هي مشروع حياتي ومِنهاج وجودي وعملية نشر وتبليغ للإسلام في كُل زمان ومكان ، ولَيست وظيفةً حكومية ، أوْ مُهمة خاصَّة ببعض الأفراد دُون بعض . والدَّعوةُ الإسلامية قائمة على تَوحيد اللَّه تعالى ، لذلك كانت الدَّعوة الإسلامية هي الطَّريق الوحيد المُوصِل إلى اللَّه تعالى. والدَّعوةُ الإسلامية _ في جَوهرها ومَظهَرها _ هي دَعوة إلى اللَّه، وعبادته وَحْدَه بلا شريك.

قُوَّةُ الدَّعوة الإسلامية تتجلَّى في حركتها الدائمة في كُل الاتجاهات ، ونشاطها المُستمر في كُل زمان ومكان . وَتَوَقُّفُ هذه الدَّعوة يَسلُب مِنها الشرعيةَ ، وانتهاؤها يُلْغي مَاهِيَّتَهَا . لذلك ، يجب أن تظل الدَّعوةُ مشروعًا كَوْنيًّا دائمًا ومُستمرًّا ، وطريقَ خلاصٍ عالميًّا لا يَنتهي ولا يُطمَس .

يجب تَبليغ الإسلامُ للناس ، وتعليمهم مَعناه وأحكامه وشرائعه ، وتطبيقه على أرض الواقع ، كَي يَصير حياةً مُعَاشة. ولا نَجَاة إلا في الإسلام ، لأنَّه الدِّين الذي ارتضاه اللَّهُ لعباده ، وهو الدِّين السَّماوي الوحيد ، ودِين جميع الأنبياء بلا استثناء ، وكُل ما سِوَاه مِن الأديان أرضية وضعية باطلة.

وإذا استقرَّت هذه المعاني في النُّفُوس ، وتَمَّ تطبيقها في الواقع ، فإنَّ الدَّعوة ستترسَّخ ، وتُصبح نظامًا اجتماعيًّا كاملًا ، يَدعو إلى فِعْل الخَير واجتناب الشَّر ، ويأمر بالمعروف ، ويَنهَى عَن المُنكَر ، ويحثُّ على التزام الفضائل ، والابتعاد عن الرذائل .

إنَّ الدَّعوة الإسلامية _ معنويًّا وماديًّا _ تَهدف إلى تطبيق منهج اللَّه في الأرض قَوْلًا وفِعْلًا . وينبغي أن يكون القائمون عليها صَفوة الناس ونُخبة المجتمع ، كَي يُقْنِعُوا الآخرين بضرورة الدَّعوة، وأهمية عبادة اللَّه وَحْدَه لا شريك له ، وَفْق سُنَّة النبيِّ مُحَمَّد ﷺ ، حَيث يتم السَّير على خُطَاه ، واقتفاء أثره ، والاقتداء به فِكْرًا وسُلوكًا ، والتَّأسِّي به قَوْلًا وعملًا .

ولا بُد مِن إيصال الدَّعوة الإسلامية إلى جميع الناس ، بلا تقصير ولا تهاوُن ، وذلك باختيار الأساليب الرائعة والوسائل النافعة التي تتناسب مع الزمان والمكان وطبيعة الناس. والخطرُ الحقيقي يَكمُن في المُحامي الفاشل الذي يُدافع عن القضية الناجحة . وهذا يدلُّ على أهمية إعداد الدُّعَاة مِن كُل الجوانب،وإيجاد الكَيْفِيَّات المُناسبة التي يَجذبون بها الناسَ إلى الإسلام . والدَّاعِي مُشْفِق على الناس،ورحيم بهم،وعَطُوف عَلَيهم، وحريص على إنقاذهم مِن الضَّلال، وإرشادهم إلى الهُدى. والدَّعوةُ عَالَم واسع، ولها تعاريف كثيرة وجوانب مُتعدِّدة وأشكال مُتنوِّعة . والاختلاف بينها هو اختلاف التَّنَوُّع لا اختلاف التَّضَاد.وبما أن الدَّعوة مُهمة الرُّسُل،فينبغي الاقتداء بهم والتَّعَلُّم مِنهُم.

أوَّلًا : أهمية نَشر الدَّعْوَة في كُلِّ زمان ومكان

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِنكُم أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الخَيْرِ ويَأمُرُونَ بالمَعروفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وأُولئكَ هُمُ المُفْلِحُون ﴾ [آل عِمران : ١٠٤] .

وَلْتَقُمْ مِنكُم أيها المؤمنون جَمَاعة ، يَدْعُون الناسَ إلى الإسلام ، ويأمرون بكُل مَعروف ، ويَنْهَوْنَ عَن كُل مُنكر [١] ، وأُولئكَ الدَّاعُون الآمِرُون النَّاهُون هُم المُخْتَصُّون بالفلاح الكامل ، الفائزون بسعادة الدُّنيا ونعيمِ الآخرة .

وتَوجيهُ الخِطاب القُرآني إلى الجميع معَ إسناد الدَّعوة إلى البَعْض لبيان أنها فَرْض كِفاية . والآيةُ تُوضِّح أنَّ الأمرَ بالمعروف والنَّهْيَ عَن المُنكر فَرْضٌ ، وهو مِن فُروض الكِفاية ، إذا قامَ به بعضُ الناس سَقَطَ عن الآخرين ، وإذا لَمْ يَقُمْ به الجميعُ أثِمُوا جميعًا .

و" مِن " في قَوله تعالى : ﴿ مِنكُم ﴾ اخْتُلِفَ في معناها على وَجْهَيْن: إنَّها لبيان الجِنس ، والمعنى : لِتَكونوا كُلكم دُعاة إلى الخَير ، والأمر بالمَعروف ، والنَّهْي عن المُنكَر . وهذا يعني أنَّ الآية تَحْمِل أمرًا إلهيًّا للأُمَّة كُلِّها بأن يَدْعُوا جميعَ العَالَم إلى الخَير ، فَيَدْعُوا الكُفَّارَ إلى الإسلام ، ويَدْعُوا العُصَاةَ إلى الطاعة ، ويَكون كُلُّ شخص في هذه الأُمور على مَنزلته في العِلْمِ والقُدرة .

والوجهُ الثاني : للتَّبعيض ، ومعناه أنَّ الآمِرين بالمعروف والناهين عن المُنكَر، ينبغي أن يكونوا عَالِمين بما يَأمُرون به ، وما يَنْهَوْنَ عنه ، وَلَدَيهم القُدرة على الحِوَار الهادئ وإقامة الأُمور بشكل مُرتَّب ، والبَدْءَ بالسَّهْل ، فإنْ لَم يَنفَع انتقلَ إلى الصَّعْب . ولَيس كُلُّ الناس عُلماء ، وهذا يدلُّ على أنَّ الأمر بالمعروف والنَّهْي عن المُنكَر مِن فُروض الكِفَاية .

وقد رجَّح القرطبي أنها للتبعيض ، وقال في تفسيره (٤/ ١٦٢) : ((فإنَّه يدلُّ على أن الأمر بالمَعروف والنَّهْي عن المُنكَر فَرْض على الكِفَاية)) .

إنَّ الدَّعوة لَيست مِهنةً حُكومية ذات دَوامٍ محدود . إنها مشروع كَوْني شامل لإنقاذ الذات والآخرين ، وصناعةِ مجتمع الإيمان والطُّمأنينة والفضائل . وهي تثبيت للإيجابيات وتعميمها في كل مناحي الحياة ، ونَفْي للسلبيات واجتثاثها من كل الجوانب الحياتية .

---

١ المعروف : ما استحسنه الشرعُ والعقلُ ، والْمُنكَر : ما استقبحه الشرعُ والعقلُ . أو المعروف : ما وافقَ القُرآنَ والسُّنَّةَ ، والْمُنكَر : ما خالفَ القُرآنَ والسُّنَّةَ . أو المعروف : الطاعة ، والْمُنكَر : المعصية .

ولا بُدَّ من وجود الدَّعوة إلى الخَير والأمر بالمَعروف والنَّهْي عن المُنكَر ، لكي تستقيم حالُ الإنسان ، ويَصلُح المجتمعُ بكل تفاصيله. ولا يُمكن ترك الحبل على الغارب ، فعندئذ سوف تنهار القيمُ الأخلاقية في النفوس ، وتنتشر المعاصي على أرض الواقع ، وتصبح المفاسدُ نظامًا حياتيًّا للجميع، وهذا هو السُّقوط الأخلاقي المُريع ، ونهايةُ الحضارة الإنسانية ، وانهيار التاريخ البشري.

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٣٨٥) : ((﴿ وَلْتَكُن مِنكُم ﴾ أيُّها المُؤمنون ﴿ أُمَّةٌ ﴾ ، يقول: جماعة ﴿ يَدْعُونَ ﴾ الناسَ ﴿ إلى الخَيْرِ ﴾ يعني : إلى الإسلام وشرائعه التي شَرَعَهَا اللَّهُ لعباده ، ﴿ ويَأمُرُونَ بالمَعروفِ ﴾ ، يقول : يَأمرون الناسَ باتِّبَاع مُحَمَّد ﷺ ودِينه الذي جاء به مِن عِند اللَّه ، ﴿ ويَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ ﴾ ، يعني : ويَنْهَوْنَ عَن الكُفر باللَّه ، والتَّكذيب بِمُحَمَّد ، وبما جاء به من عِند اللَّه،بجهادهم بالأيدي والجوارح حتى يَنقادوا لكم بالطاعة. وقَوله: ﴿ وأُولئكَ هُمُ المُفْلِحُون ﴾ يعني : المُنْجِحُون عِند اللَّه ، الباقون في جَنَّاته ونَعيمه)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٧٤) : ((﴿ وَلْتَكُن مِنكُم أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الخَيْرِ ويَأمُرُونَ بالمَعروفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ ﴾ ، " مِن " للتَّبعيض ، لأنَّ الأمر بالمعروف والنَّهْي عن المُنكَر ، مِن فُروض الكِفَاية ، ولأنَّه لا يَصْلُح له كُل أحد ، إذ للمُتَصَدِّي له شُروط لا يشترك فيها جميع الأُمَّة ، كالعِلْم بالأحكام ، ومراتب الاحتساب ، وكيفية إقامتها ، والتمكن مِن القيام بها . خَاطَبَ الجميعَ ، وطَلَبَ فِعْلَ بَعْضهم لِيَدُلَّ على أنَّه واجب على الكُل ، حتَّى لَوْ تَركوه رأسًا أَثِمُوا جميعًا ، ولكن يَسقُط بِفِعْل بعضهم، وهكذا كُل ما هو فَرْض كِفَاية. أوْ للتَّبيين ، بمعنى: وكُونوا أُمَّةً يَدْعُون، كَقَوله تعالى : ﴿ كُنتم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ تأمُرُونَ بالمعروفِ ﴾ [آل عِمران : ١١٠] . والدُّعاء إلى الخَير يَعُمُّ الدُّعاءَ إلى ما فيه صلاح دِينيٍّ أوْ دُنيويٍّ . وعَطَفَ الأمرَ بالمَعروف والنَّهْي عن المُنكَر عَلَيه، عطف الخاص على العام للإيذان بفضله ﴿وأُولئكَ هُمُ المُفْلِحُون﴾ المَخصوصون بكمال الفلاح . ورُوِيَ أنَّه عليه السلام سُئِلَ : مَن خَير الناس ؟ ، فقال : " آمَرهم بالمعروف ، وأنهاهم عن المُنكَر ، وأتقاهم للَّه ، وأوصلهم للرَّحِم " . والأمر بالمعروف يكون واجبًا ومَندوبًا على حَسَب ما يُؤْمَر به . والنَّهْي عن المُنكَر واجب كُلُّه ، لأنَّ جميع ما أنكره الشَّرْعُ حرام ، والأظهر أنَّ العاصي يجب عليه أن يَنهى عَمَّا يَرتكبه ، لأنَّه يجب عليه تَركه وإنكاره ، فلا يَسقُط بترك أحدهما وُجوب الآخَر)) .

والمقصودُ بالآية أن تكون فِرْقَة مِن الأُمَّة المُحمَّدية الإسلامية ، تَحْمِل مسؤوليةَ الدَّعوة ، ومُتَصَدِّية لهذا الشأن ، وإنْ كان ذلك واجبًا على كُل مُسلِم ، بِحَسَب مَنزلته في العِلْم والقُدرة .

وفي صحيح مسلم(١/ ٦٩) عن أبي سعيد الخُدري_رضي اللَّهُ عنه_قال: قال رسول اللَّه ﷺ: ((مَن رأى مِنكُم مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بيده ، فإنْ لَم يَستطع فَبِلِسانه ، ومَن لَم يَستطع فَبِقَلْبه ، وذلك أضعفُ الإيمانِ)) .

هذا أمرٌ نبويٌّ جليل بتغيير المُنكَر. وهذا التغيير يكون باليد لِمَن يمتلك سُلطة التغيير كالحاكم وغَيره، وباللسان للعَالِم بالحُكْم الشرعيِّ. والمرحلةُ الأخيرة تكون بالقلب، وهذا أضعف الإيمان ، وهي أدنى المراتب. وهذا التصنيف المراحلي يشير إلى رفع الحَرَج عن الناس ، وعدم تحميلهم فَوق طاقتهم .

جَعَلَ اللَّهُ الأُمَّةَ المُحمَّدية الإسلامية خَيْرَ أُمَّةٍ ، وشرَّفها ، وفضَّلها على سائر الأُمَم ، لأنَّها تَدعُو إلى الخَير ، وتأمر بالمعروف ، وتَنهى عن المُنكَر ، وتَنصَح بِرِفْق ولِين . وإذا تحقَّقت هذه الصِّفات في الواقع قَوْلًا وفِعْلًا ، ولَيس مُجرَّد شِعارات ، فإنَّ المجتمع سيُصبح فاضلًا نقيًّا مُتَقَدِّمًا.

مَن عَلِمَ وعَرَفَ مِنكُم أيُّها المُسلمون مُنْكَرًا (ما يُنكِره الشَّرْعُ والعقلُ) ، فَلْيُزِلْ ذلك المُنْكَرَ إنْ قَدَرَ على إزالته بيده، وهذا يعني أن يَكون له قُوَّة وسُلطة . فإنْ لَم يَستطع بيده ، فَلْيُزِل المُنْكَرَ بلسانه ، بالوَعْظ والتَّذكير والكلام الطَّيب والأسلوب الهادئ ، فإنْ لَم يَستطع إزالةَ المُنكَر بالقَول واللسان ، فَلْيُنْكِرْهُ وَلْيَكْرَهْهُ بقلبه ، وذلك بأن يَعْزِمَ أنَّه لَوْ قَدَرَ على إزالته لَفَعَلَ . والتَّغييرُ بالقلب هو أدنى خِصَال الإيمان في إزالة المُنكَر .

والحديثُ يُوضِّح أهميةَ التَّدَرُّج في الأمر بالمَعروف والنَّهْي عَن المُنكَر ، كُلٌّ بِحَسَب قُدرته .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢/ ٢٢ و٢٣): ((وأمَّا قَوْلُه ﷺ : " فَلْيُغَيِّرْهُ " فهو أمر إيجاب بإجماع الأُمَّة ، وقد تطابقَ على وجوب الأمر بالمعروف والنَّهْي عن المُنكَر ، الكِتابُ والسُّنَّةُ وإجماعُ الأُمَّة ، وهو أيضًا مِن النصيحة التي هي الدِّين ، ولَم يُخالِف في ذلك إلا بعض الرافضة ، ولا يُعْتَد بِخِلافهم ، كما قال الإمام أبو المعالي إمام الحَرَمَيْن : لا يُكْتَرَث بِخِلافهم في هذا ، فقد أجمعَ المسلمون عَلَيه قبل أن يَنْبُغ هؤلاء ، ووُجوبه بالشَّرع لا بالعقل ، خِلافًا للمُعتزلة . ... . ثُمَّ إنَّ الأمر بالمعروف والنَّهْي عن المُنكَر فَرْض كِفَاية ، إذا قام به بعضُ الناس، سَقَطَ الحَرَجُ عن الباقين ، واذا تركه الجميع أَثِمَ كُلُّ مَن تَمَكَّنَ مِنه ، بلا عُذر ولا خَوف)).

ينبغي أن يَأمُر الشخصُ بالمَعروف ، ويَنهى عَن المُنكَر ، في حُدود ما يَعْلَم ويَعْرِف . وحتَّى لَوْ كان الشَّخْصُ مُقَصِّرًا في أداء الطاعات،ومُتَلَبِّسًا بالمعاصي، فعليه أن يَأمر نَفْسَه وغَيْرَه بالمعروف، ويَنهَى نَفْسَه وغَيْرَه عَن المُنكَر. وهناك أشياء واضحة يَعْلَم الجميعُ أنَّها مُنكَر كَتَرْك الصَّلاةِ

والصِّيامِ ، والكذب ، والغِش ... إلخ ، وهذه الأمور كُل المسلمين هُم عُلماء فيها . وهناك أُمورٌ دقيقة لا يَعْلَمها إلا العُلماء ، فلا شأن للعَوَام بها ، وعَلَيهم أن يَبتعدوا عنها . والمُنكَر هو ما تَمَّ الإجماع على أنَّه مُنكَر ، أمَّا الأمور الخِلافية فلا إنكار فيها .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٦ / ١٣٠ و١٣١) : (((مَن رأى) يعني عَلِمَ (مِنكُم) مَعْشَر المُسلمين المُكلَّفين القادرين ، فالخِطَاب لجميع الأُمَّة ، حَاضِرها بالمُشَافَهَة، وغائبها بطريق التَّبَع ، أوْ لأنَّ حُكمه على الواحد حُكْمه على الجَمَاعة (مُنْكَرًا) أي شيئًا قبَّحه الشَّرْعُ فِعْلًا أوْ قَوْلًا ، وَلَوْ صغيرة (فَلْيُغَيِّرْهُ) أي : فَلْيُزِلْهُ وُجوبًا شرعًا . وقال المُعتزلة : عقلًا، ثُمَّ إنْ عَلِمَ أكثر من واحد فكِفَاية ، وإلا فَعَيْن ، لِقَوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِنكُم أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الخَيْرِ ﴾ ، والواجب أن يُزيله (بيده) حيث كان مِمَّا يُزال بها كَكَسْر آلة لَهْو وآنِيَة خَمْر (فإن لَم يَستطيع) الإنكارَ بيده بأن ظَنَّ لُحُوقَ ضَرَر به لِكَوْن فاعله أقوى منه (فـ) الواجب تَغييره (بلسانه) أي بالقَول، كاستغاثة أوْ تَوبيخ أوْ تَذكير باللَّه أو إغلاظ ، بِشَرْط أن لا يَغلِب ظَن أنَّ المَنهيَّ يزيد عِنَادًا ، ... ، ثُمَّ إنْ كان المأمور ظاهرًا كصلاة وصَوم لَم يختص بالعلماء ، وإلا اخْتُصَّ بهم ، أوْ بِمَن عَلِمَه مِنهم، وأن يكون المُنكَر مُجْمَعًا عَلَيه، أوْ يعتقد فاعلُه تحريمَه أوْ حِلَّه ، وضَعُفَتْ شُبهته جِدًّا كَنِكَاح مُتعة، ولا يُناقِض الخَبَرَ ﴿ عَلَيْكُم أنفُسَكُم ﴾ [المائدة : ١٠٥] ، لأنَّ مَعناه إذا كُلِّفْتُم ما أُمِرْتُم به ، لا يَضُرُّكُم تَقصير غَيركم (فإن لَم يَستطع) ذلك بلسانه لوجود مانع كَخَوف فِتنة ، أوْ خَوف على نَفْس أوْ عُضْو أوْ مال مُحترم أوْ شَهْر سِلاح (فَبِقَلْبِه) يُنكِره وُجوبًا بأن يَكرهه به ، ويَعْزِم أنَّه لَوْ قَدَرَ بِقَول أوْ فِعْل فَعَلَ ، وهذا واجب عَيْنًا على كُل أحد ، بِخِلاف الذي قَبْله، فأفاد الخَبَرُ وُجُوبَ تَغيير المُنكَر بكُل طريق مُمكن ، فلا يَكفي الوَعْظ لِمَن يُمكنه إزالته بيده ، ولا القَلْب لِمَن يُمكنه باللسان (وذلك) أي الإنكار بالقَلْب (أضعف الإيمان) أي : خِصَاله ، فالمُراد به الإسلام ، أو آثاره وثَمَرَاته ، فالمُراد به حقيقةً مِن التصديق ، ولَيس وراء ذلك مِن الإيمان حَبَّة خَرْدَل . وصلاح الإيمان وجَرَيَان شرائع الأنبياء الكِرَام ، إنَّما يَستمر عِند استحكام هذه القاعدة في الإسلام . قال القيصري : الأمر بالمعروف والنَّهْي عن المُنكَر أقوى شُعَب الإيمان بِوَجْه ، وأضعفها بِوَجْه ، فَتَغييره باليد واللسان أقوى ، وتَغييره بالقلب أضعف الإيمان)) .

وقال الثعالبي في تفسيره (١/ ٢٩٧و٢٩٨) : ((والناس في الأمر بالمَعروف وتَغيير المُنكَر على مَرَاتب ، فَفَرْض العُلماء فيه تَنبيه الوُلاة ، وحَمْلهم على جَادَّة العِلْم . وفَرْضُ الوُلاة تَغييره بِقُوَّتهم وسُلطانهم ، وَلَهُم هي اليَد . وفَرْض سائر الناس رَفْعه إلى الوُلاة والحُكَّام بَعد النَّهْي عَنه

قَوْلًا ، وهذا في المُنكَر الذي له دوام ، وأمَّا إن رأى أحدٌ نازلةً بديهية مِن المُنكَر، كالسَّلْب والزِّنا، ونَحْوه ، فَيُغيِّرها بِنَفْسِه بِحَسَب الحال والقُدرة ، ويَحْسُن لكُل مُؤمن أن يَعتمل في تَغيير المُنكَر ، وإنْ ناله بعض الأذى)) .

وعن حُذَيفة بن اليَمَان _ رضي اللَّهُ عنه _ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((والذي نَفْسِي بِيَدِه لَتَأمُرُنَّ بالمَعروف ، وَلَتَنْهَوُنَّ عن المُنكَر ، أوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أن يَبعَث عَلَيكُم عِقَابًا مِنه ، ثُمَّ تَدْعُونه فلا يُستجاب لكم)) [٢] .

إنَّ الأمر بالمَعروف والنَّهْي عَن المُنكَر ، لَيْسَ تَرَفًا اجتماعيًّا ، أوْ رَفاهيةً هامشية . إنَّه مَنهجٌ إيمانيٌّ متكامل ، يُؤَدِّي تَرْكُه إلى تدمير الفرد نَفْسِيًّا وماديًّا ، وتَفتيتِ المُجتمع باستئصال جهاز المَنَاعة فيه ، والقضاء على مُنجَزاته الحضارية عَبْر تجريدها مِن وسائل الحماية .

وغِيابُ هذا المنهج الدَّعَوي يُعرِّض الفردَ والمجتمع للعُقوبة الإلهية ، ومَحْقِ البَرَكَة ، وغِيابِ التوفيق ، وانتشارِ الرذيلة الاجتماعية، وتَفَشِّي العناصر السَّلْبِيَّة التي لا تَستثني أحَدًا ، ولا تُبقي ولا تَذَر . وهذا هو الانهيار الشامل الذي لا يُفَرِّق بين الفرد والجماعة .

لقد مَدَحَ اللَّهُ في كِتابه الأُمَّةَ المُحمَّدية الإسلامية ، وجَعَلَ لها الخَيْرِيَّةَ ، وفضَّلها على الأُمَم ، وعلَّل ذلك بأمرهم بالمَعروف ، ونَهْيِهم عَن المُنكَر .

إذا لَم تقوموا بالأمر بالمَعروف (الخَير) والنَّهْيِ عن المُنكَر (الشَّر) ، فقد اقتربتم مِن أن يُرسِلَ اللَّهُ عَلَيكم عذابًا مِن عِنده ، عِقابًا لكم على ذلك ، ثُمَّ إذا دَعَوْتُم اللَّهَ أن يَرفع عنكم العذابَ فَلَن يستجيب لكم ، وهذا مُبَالَغَة في العُقوبة .

وفي الحديث تحذيرٌ شديدٌ وتَرهيبٌ أكيدٌ مِن تَرْكِ الأمر بالمعروف والنَّهْيِ عَن المُنكَر ، وهذا التَّرْك يُؤَدِّي إلى انهيار الفرد وتفكُّك المجتمع .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٥/ ٢٦٠) : ((واللَّهِ إنَّ أحد الأمْرَيْن كائن ، إمَّا لِيَكُن مِنكُم الأمر بالمعروف ، ونَهْيكم عن المُنكَر ، أوْ إنزال عذاب عظيم مِن عِند اللَّه ، ثُمَّ بعد ذلك الخَيبة في الدُّعاء . وصَلاحُ النِّظام وجَرَيَان شَرَائع الأنبياء إنَّما يستمر عِند استحكام هذه القاعدة في الإسلام ، فيجب الأمر والنَّهْي حتى على مَن تَلَبَّسَ بِمِثْلِه . ... . وفيه تهديد بليغ لتارك الإنكار ، وأنَّ عذابه لا يُدفَع ، ودُعاءَه لا يُسمَع. وفي أدنى مِن ذلك ما يَزْجُر اللبيبَ)) .

---

٢ رواه التِّرمذي في سُننه (٤/ ٤٦٨) برقم (٢١٦٩) وحسَّنه .

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿ كُنتم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ تأمُرُونَ بالمَعروفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ باللَّهِ ﴾ [آل عِمران : ١١٠] [٣].

إنَّ الأُمَّة المُحمَّدية هي خَير الناس ، وأعظم الأُمَم ، وهي أكثر الأمم استجابةً للإسلام . وقد أُخْرِجَت لمصلحة الناس ونفعهم وإرشادهم وهِدايتهم،وهذا ليس غُرورًا ولا تكَبُّرًا. فالأُمَّةُ المُحمَّدية حَمَلَت الدَّعوةَ الإسلامية، وأَخْرَجَت الخَلْقَ مِن الظُّلُمات إلى النُّور ، وذلك بهدايتهم إلى الإسلام .

والمقصودُ بالأُمَّة المُحمَّدية الصالحون مِنها والأتقياء والأولياء وأهل الفضل ، وهُم الشُّهداء على الناس يوم القيامة . وخَيريةُ الأُمَّة المُحمَّدية وأفضليتها مُقيَّدة بثلاثة شروط :

الشَّرْط الأول _ الأمر بالمعروف:الأمر بِتَوحيدِ اللَّهِ والتَّصديقِ بِنُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ والعمل بأحكام الشريعة الإسلامية وتعاليمها .

الشَّرْط الثاني _ النَّهْي عن المُنكَر : النَّهْي عن الشِّرْك باللَّهِ وتكذيبِ النبيِّ ﷺ .

الشَّرْط الثالث_ الإيمان باللَّه : التَّصديق باللَّه وعبادته وَحْدَه بلا شِريك ولا نِد .

والجديرُ بالذِّكْر أنَّ (الواو) في الآية ، يُفيد العَطْفَ ، ولا يُفيد الترتيبَ . ومعَ أنَّ التَّرتيب في الآية : الأمر بالمعروف ، والنَّهْي عَن المُنكَر ، والإيمان باللَّه ، إلا أنَّ الإيمان باللَّه أعظم مِنهما .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٣٨٩) : ((وأصل المعروف : كُل ما كان معروفًا فِعْلُه ، جميلًا مُسْتَحْسَنًا غير مُسْتَقْبَح في أهل الإيمان باللَّه ، وإنَّما سُمِّيَتْ طاعة اللَّه معروفًا ، لأنَّه مِمَّا يَعرفه أهلُ الإيمان، ولا يَستنكرون فِعْلَه. وأصل المُنكَر : ما أنكره اللَّهُ ، ورَأَوْهُ قبيحًا فِعْلُه ، ولذلك سُمِّيَتْ معصية اللَّه مُنكَرًا ، لأن أهل الإيمان باللَّه يَستنكرون فِعْلَها ، ويَستعظمون رُكوبَها)).

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٧٨) : ((﴿ وَتُؤْمِنُونَ باللَّهِ ﴾ يَتضمَّن الإيمان بكل ما يجب أن يُؤْمَن بِهِ ، لأن الإيمان به إنَّما يَحِق ويُعْتَد به إذا حصل الإيمان بكل ما أَمَرَ أن يُؤْمَن به ، وإنَّما أخَّره وحَقُّه أن يُقَدَّم ، لأنه قصد بِذِكْره الدَّلالة على أنهم أُمِرُوا بالمعروف ، ونُهُوا عن المُنكَر ، إيمانًا باللَّه وتصديقًا به ، وإظهارًا لِدِينه . واستدل بهذه الآية على أنَّ الإجماع حُجَّة، لأنها تقتضي كَوْنهم آمِرين بِكُل معروف ، وناهين عن كُل مُنكَر ، إذْ اللام فِيهما _ يعني المعروف والمُنكَر _ للاستغراق ، فَلَوْ أجمعوا على باطل كان أمرهم على خِلاف ذلك)) .

---

٣ قال ابن عبد البَر في الاستيعاب (١/ ٤) : ((وقال بعض أهل العِلْم : ﴿ كُنتم ﴾ بمعنى أنتم ، والكاف صِلَة . وقال آخرون : كُنتم في اللوح المحفوظ ، وهو الذِّكْر ، وأُم الكتاب)) .

كانت الأُمَّةُ المُحمَّديةُ أعظمَ أُمَّة عند اللَّه في اللوح المحفوظ ، أخرجها اللَّهُ للناسِ لهدايتهم وإرشادهم ، ولا يُوجد أُمَّة أفضل مِنها ، وقد مدحها اللَّهُ تعالى ، لأنَّها تتحلى بالصِّفات الثلاث : الأمر بالمعروف، والنَّهْي عن المُنكَر، والإيمان باللَّه. وهذا المدحُ الإلهيُّ تشريفٌ للأُمَّة المُحمَّدية، وتثبيتٌ لها على منهج الحق ، ورفعٌ لمعنوياتها في سبيل نشر الدَّعوة الإسلامية .

و﴿كُنتم ﴾ تُشير إلى تَحَقُّق الشيء في الزمن الماضي ، ولا تَنفي تَحَقُّقَه في الحاضر أو المُستقبَل ،كما في قَول اللَّه تعالى : ﴿ وكانَ اللَّهُ عَليمًا حَكيمًا ﴾ . فاللَّهُ كانَ عليمًا حكيمًا ، وما زالَ عليمًا حكيمًا ، ويَبقى عليمًا حكيمًا .

وأخرج ابن جرير عن قَتادة قال:قرأ عُمر بن الخطاب_ رضي اللَّهُ عنه_: ﴿ كُنتم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ ﴾، ثُمَّ قال: يا أيها الناس مَن سَرَّه أن يكون مِن تِلك الأُمَّةِ فَلْيُؤَدِّ شَرْطَ اللَّه مِنها [٤] .

إنَّ أفضلية الأُمَّة المُحمَّدية مُقيَّدة بتحقيق الشروط الإلهية ، فهي لا تَملِك صُكوكَ غُفران حتى تنام وتنتظر دخول الجنة . بل عليها العمل بالعِلْم النافع ، والمُثابَرة في تحقيق المُراد الإلهيِّ ، حتى تنال شرفَ الصدارة بين الأُمَم ، والرِّفعة في الدارَيْن . وإذا لَم تُحقِّق شروطَ الرِّفعة فلا بد أن تُلاقيَ نفْسَ مصير الأُمَم الغابرة التي ذهبت إلى الهاوية مع خِزْي الدنيا والآخرة .

وفي صحيح البخاري(١٦٦٠/٤):عن أبي هريرة_ رضي اللَّهُ عنه_: ﴿كُنتم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ ﴾، قال : خَيْرَ الناسِ للناس. تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يَدخلوا في الإسلام .

والمعنى : تأتون بِهم أسرى مُقيَّدين ، فَيَعرِفون الإسلامَ ، ويَعتنقونه طَوْعًا ، فيكون أسْرُكم لهم سبب إسلامهم ، وثباتهم عليه ، وهكذا يَحصلون على سعادة الدنيا ونعيمِ الآخرة الأبديِّ .

وقال الحافظ في الفتح (٦/ ١٤٥) : ((قال ابن الجَوزي : معناه أنهم أُسِرُوا وقُيِّدُوا ، فلمَّا عَرَفُوا صِحَّةَ الإسلام دَخلوا طَوْعًا فدخلوا الجَنَّةَ ، فكان الإكراهُ على الأسْر والتقييد هو السبب الأول ، وكأنَّه أطلق على الإكراه التَّسلسل ، ولَمَّا كان هو السَّبب في دخول الجنة ، أقامَ المُسبَّب مَقَام السَّبب)) اهـ . وقال ابن الجَوزي في زاد المسير(٤٤٠/١):((في قَوله تعالى: ﴿ تأمُرُونَ بالمَعروفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ ﴾ قَولان : أحدهما أنَّه شَرْط في الخَيْرِيَّة ، وهذا المعنى مرويٌّ عن عُمر بن الخطاب ومُجاهد والزَّجَّاج . والثاني أنَّه ثَناء مِن اللَّه عليهم ، قاله الربيع بن أنس . قال أبو العالية : والمَعروف التَّوحيد ، والمُنكَر الشِّرْك)) .

---

٤ تفسير الطبري (٣٨٩/٣). وانظر تفسير ابن كثير(٥١٩/١)، والعُجاب في بيان الأسباب(٢/ ٧٣٤).

وعن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ : في قَوْله ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ : ﴿ كُنتم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ ﴾ ، قال : ((هُم الذين هاجروا مع رسول اللَّه ﷺ من مكة إلى المدينة)) [٥].

وعن بَهْز بن حَكِيم عن أبيه عن جَدِّه: أنَّه سمع النبيَّ ﷺ في قَوْل اللَّه ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ: ﴿ كُنتم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ ﴾ ، قال : ((أنتم تُتِمُّونَ سَبعينَ أُمَّةً ، أنتم خَيْرُها وأكرمُها على اللَّه ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ)) [٦].

شرَّف اللَّهُ الأُمَّةَ المُحمَّدية الإسلامية بأُمُور كثيرة ، وكرَّمها بأشياء مُتعدِّدة ، لَم تَكُن للأُمَم السابقة . وهذا يدلُّ على فضل هذه الأُمَّة العظيمة ، وأنَّها ذات منزلة رفيعة ومكانة جليلة ، بسبب انتمائها إلى نَبِيِّها مُحمَّد ﷺ أعظم مَخلوقات اللَّه على الإطلاق .

ومعنى " تُتِمُّونَ " ، أي : يَكتمل العدد بكم " سبعينَ أُمَّة " ، مِن الأُمَم الكِبَار ، أو المُراد الأُمَم التي آمَنَتْ بِرُسُلِها . وقِيل : العدد هُنا لا يُقْصَد لذاته ، بَلْ مِن باب التكثير لا التَّحديد . والأُمَّةُ المُحمَّدية هي أفضل الأُمَم وأكرمها على اللَّه تعالى ، بما أعطاها مِن مَنزلة ، وفضائل ، وشرائع ، وأحكام خاصَّة بها دُون مَنْ سَبَقَهَا . وأفضل جِيل في هذه الأُمَّة هُم الصَّحَابَة الكِرَام ــ رضي اللَّهُ عنهم ــ .

و " تُتِمُّون " عِلَّة للخَيرية ، لأنَّ المُراد به الخَتْم ، وكما أنَّ نَبِيَّكُم مُحَمَّدًا ﷺ خَاتَمُ الأنبياء ، وجَامِعُ ما تفرَّق مِن الفضائل والكمالات والأمجاد ، كذلك أنتم معَ الأُمَم السابقة .

ومعَ أنَّ الأُمَّة المُحمَّدية مُتَأخِّرة عن باقي الأُمَم زَمَانًا في الدُّنيا ، إلا أنَّها المُتَقَدِّمة في الآخِرة على الأُمَم وأهل الأديان منزلةً وكرامةً، وفي الحَشْر، والقضاء لها قبل الخلائق، وفي دُخول الجَنَّة .

إنَّ الأُمَّة المُحمَّدية الإسلامية لها مكانة خاصة بين الأُمَم ، باعتبارها الأُمَّة الحاملة لميراث الأنبياء كُلِّهم ــ عليهم الصلاة والسلام ــ. لذلك كانت الشريعةُ المُحمَّديةُ ناسخةً وخَاتِمَةً .

---

٥ رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٢٣) برقم (٣١٦٠) وصَحَّحه ، ووافقه الذهبي . وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٢٥): ((وعن أُبَي بن كَعْب قال: [لَم تَكُنْ أُمَّةٌ أكثرَ استجابةً في الإسلام مِن هذه الأُمَّة]. أخرجه الطبري بإسناد حسن عنه.وهذا كُلُّه يقتضي حَمْلها ــ أي حمل ﴿ كُنتم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ ﴾ ــ على عُموم الأُمَّة ، وبه جَزَمَ الفرَّاء ... وقال غَيْرُه : المراد بقوله : ﴿ كُنتم ﴾ في اللوح المحفوظ ، أو في عِلْم اللَّه تعالى ، ورجَّح الطبري أيضًا حمل الآية على عُموم الأُمَّة)) .

٦ رواه الحاكم في المستدرَك (٤/ ٩٤) برقم (٦٩٨٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وبالتالي فإنَّ الأُمَّة المُحمَّدية هي التي ستضطلع بمسؤولية المُحافظة على الشريعة الإلهية حتى يوم القيامة . وهذا تشريفٌ عظيم ، وتكليفٌ عالي الشأن . وبدون هذه الأُمَّة فإن نور اللَّه تعالى سيختفي على الأرض ، وتتلاشى الشريعة السماوية ، ولن يُعبَد اللَّه في الأرض . ومِن هُنا تَنبُع أهمية هذه الأُمَّة الخاتمة الحاملة لمسؤولية الأمانة السماوية إلى قيام الساعة . إنَّها الأُمَّة الوحيدة التي تَعبد اللَّهَ وَحْدَه لا شريك له ، وتُؤمن بالأنبياء كُلِّهم بلا استثناء . وهذا يدلُّ على شرفها وفضلها وكرامتها .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٢/ ٥٥٣) : (((إنكم تُتِمُّون سَبعينَ أُمَّةً) أي : يَتِم العدد بكم سَبعين (أنتم خَيْرُها وأكرمها على اللَّه) ويظهر هذا الإكرام في أعمالهم ، وأخلاقهم ، وتَوحيدهم ، ومنازلهم في الجَنَّة ، ومُقَامهم في المَوقِف ، ووقوفهم على تَل يُشْرِفون عليهم ، إلى غَير ذلك ، ومِمَّا فُضِّلُوا به الذكاء ، وقُوَّة الفَهْم ، ودِقَّة النظر، وحُسْن الاستنباط ، فإنَّهُم أُوتُوا مِن ذلك ما لَم يَنَلْهُ أحد مِمَّن قَبْلَهم . ألا ترى إلى أنَّ بني إسرائيل عَايَنوا من الآيات المُلْجِئة إلى العِلْم بوجود الصانع الحكيم ، وتَصديقِ الكَلِيم ، كانفجار البَحْر ، ونَتْقِ الجبل ، وغَير ذلك ، ثُمَّ اتَّخَذُوا بَعده العِجْلَ ، وقالوا : ﴿ لَن نؤمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة : ٥٥] . وما تواترَ مِن مُعجِزات المُصطفى ﷺ أُمُور نظرية كالقُرآن ، والتَّحَدِّي به ، والفضائل المُجتمعة فيه الشاهدة بِنُبُوَّته دقيقة يُدركها الأذكياء)) .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٣) أنَّ النبيَّ ﷺ قال يوم بَدْر : ((اللهُمَّ إنْ تَهْلِكْ هذه العُصَابَةُ مِن أهل الإسلام ، لا تُعْبَدْ في الأرض)) .

إنْ تُهْزَمْ هذه الجماعة من أهل الإسلام ، لا يُعْبَد اللَّه في الأرض ، لأنَّ النبيَّ مُحَمَّدًا ﷺ هو خَاتَم الأنبياء ، وهؤلاء خَاتَم الأُمَم ، فإذا هَلَكُوا لا يَبقى مَن يَعْبُد اللَّهَ تعالى .

وقال الحافظ في الفتح (٧/ ٢٨٩) : ((وإنَّما قال ذلك لأنَّه عَلِمَ أنَّه خَاتَم النَّبيين ، فَلَوْ هَلَكَ هو ومَن معه حينئذ ، لَم يُبعَث أحد مِمَّن يَدعو إلى الإيمان ، ولاستمرَّ المشركون يَعبدون غَيْرَ اللَّه ، فالمَعنى لا يُعبَد في الأرض بهذه الشريعة)) .

والأُمَّةُ المُحمَّدية الإسلامية هي الوحيدة التي تَعْبُد اللَّهَ وَحْدَه لا شريك له . واليهودُ والنصارى يَعْبُدون الشَّيطانَ والأهواءَ الذاتية والمصالحَ الشخصية ، ضِمن غِلاف دِينيٍّ مَنسوب_ زُورًا _ إلى اللَّه تعالى . فَلَوْ هَلَكَت الأُمَّةُ المُحمَّدية ، فهذا يعني أن كوكب الأرض سَيَخْلُو من الإسلام الدِّينِ الوحيد المَقبول عند اللَّه تعالى ، ولا يُوجَد دِين سماوي إلا الإسلام . وعِندئذ تفقد المفاهيم

الشرعية معناها ، وتغيب الشريعة السماوية عن الأرض ، وتفقد ماهيَّةُ الخِلافةِ وإعمارِ الأرض معناها،ويُصبح العَالَم _بالكامل_ مُسَيْطَرًا عليه مِن قِبَل الشَّيطان والكافرين ، ولا مكان فيه لِتَوحيد اللَّه تعالى . وهذا مُحَالٌ نَقْلًا وعَقْلًا .

وفي مُسند أحمد(١/ ٩٨) عن عليِّ بن أبي طالب_رضي اللَّهُ عنه_قال : قال رسول اللَّه ﷺ: ((وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرَ الأُمَم)) [٧].

جُعِلَتْ أُمَّةُ الإجابة خَيْرَ الأُمَم ، كما قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ كُنتم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ ﴾ ، وهُم الشُّهَداء على الأُمَم يَوم القِيامة ، ويُزَكِّيهم النبيُّ مُحَمَّد ﷺ .

وهذا يدلُّ على أنَّ الأُمَّة المُحمَّدية أعظم الأُمَم وأشرفها وأكرمها، وأنَّها أفضل مِن باقي الأُمَم، وذلك بسبب إنجازاتها الدَّعَوِيَّة المُهمة ، وأدائها الثابت في تطبيق الشريعة الإلهية كاملةً غير مَنقوصة ، والمُحافظة على المَنهج الإسلاميِّ الوسطي بدون إفراط أو تفريط ، والمُوازَنة الدقيقة بين حاجات الروح وغرائز الجسد ، والتأسيس المنهجي العِلْمي لمجتمع العدالة والفضيلة والأُخُوَّة .

وقال المُناوي في فَيض القدير (١/ ٥٦٤) : ((وشَرَف أُمَّته مِن شَرَفه ﷺ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يُؤْمِنُونَ باللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ ويَأمُرُونَ بالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ في الخَيْرَاتِ وأُولئكَ مِنَ الصالحين ﴾ [آل عِمران : ١١٤] .

هذا مَدْحٌ إلهيٌّ عظيم للمؤمنين مِن أهل الكِتَاب. يُصدِّقون بِوَحدانية اللَّه ، ونُبُوَّةِ مُحَمَّد ﷺ ، وَيَوْمِ القِيامة (يَوم الحِسَاب) حَيث يُجازي اللَّهُ المُحْسِنَ بإحسانه ، والمُسِيءَ بإساءته ، ويَدْعُونَ إلى الطاعة ، ويَنْهَوْنَ عَن المعصية ، ويُبادرون إلى فِعل الخَيرات بِلا تكاسُل ولا تثاقُل ولا تباطؤ ، لمعرفتهم بالثَّوَاب الجزيل الذي ينتظرهم. وهذه المُسَارَعَة تعكس قُوَّةَ الإيمان ، والصِّدق في القَول والفِعل ، والمُثابرة في تحصيل الأجر ، وقُوَّة الوازع الديني ، والدافعية إلى التحدي والإنجاز . فهُم في سباق مع الزمن ، يَعملون الخيراتِ دون تأخير لئلا يَدهمهم الموتُ فَيُنْهِيَ حياتهم ، فتنقطع بذلك أعمالُهم. أي إنَّهم يُبادرون بالعمل قبل فَوَات الأوان . وهُم مِن جُمْلَة عِباد اللَّه الصالحين الذين استحقوا رضاه وثناءه . وقِيل : " مِن " بمعنى " مع " ، أي : مَعَ الصالحين ، وهُم الصَّحابة _ رضي اللَّهُ عنهم _ . والظاهر أن المُراد كُل صالح .

والإشارةُ بالبعيد ﴿ وأُولئكَ ﴾ لبيان عُلُوِّ درجتهم ، ورِفْعَةِ قَدْرِهم ، وسُمُوِّ منزلتهم في الفَضْل .

---

٧ حسَّنه الحافظ في الفتح (٨/ ٢٢٥) .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٤٠٢) : ((يَعني بِقَوله جَلَّ وَعَزَّ : ﴿ يُؤْمِنُونَ باللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ ﴾ ، يُصَدِّقُون باللَّهِ وبالبَعْثِ بَعد المَمَات ، ويَعْلَمُون أنَّ اللَّه مُجَازيهم بأعمالهم ، ولَيسوا كالمُشركين الذين يَجْحَدُون وَحدانيةَ اللَّه ، ويَعْبُدون معه غَيْرَه ، ويُكذِّبون بالبَعْث بعد المَمَات ، ويُنكِرون المُجَازَاةَ على الأعمال والثواب والعقاب . وقَوله : ﴿ ويَأمُرُونَ بالمَعْرُوفِ ﴾ ، يقول : يَأمرون الناسَ بالإيمان باللَّهِ ورُسُلِه وتَصْديقِ مُحَمَّد ﷺ وما جاءهم به ، ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ ﴾ ، يقول : ويَنْهَوْنَ الناسَ عن الكُفْر باللَّهِ وتكذيبِ مُحَمَّد ، وما جاءهم به مِن عِند اللَّه . يعني بذلك : أنَّهم لَيسوا كاليهود والنصارى الذين يأمرون الناسَ بالكُفْر وتكذيبِ مُحَمَّد فيما جاءهم به ، ويَنْهَوْنَهم عن المعروف من الأعمال ، وهو تصديق مُحَمَّد فيما أتاهم به مِن عِند اللَّه ﴿ وَيُسَارِعُونَ في الخَيْرَاتِ ﴾ ، يقول: ويَبتدرون فِعْلَ الخَيرات خَشية أن يَفُوتهم ذلك قَبل مُعالجتهم مَنَاياهم)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٨١) : ((﴿ يُؤْمِنُونَ باللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ ويَأمُرُونَ بالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ في الخَيْرَاتِ ﴾ ، صِفَات أُخَر لأُمَّة وَصَفَهم بخصائص ما كانت في اليهود ، فإنَّهم مُنحرفون عن الحق ، غَير مُتَعَبِّدِين في الليل ، مُشْرِكون باللَّه ، مُلْحِدُون في صِفاته، واصفون اليوم الآخِر بِخِلاف صِفَته ، مُدَاهِنون في الاحتساب ، مُتباطئون عن الخَيرات ، ﴿ وأُولَئِكَ مِنَ الصالحين ﴾ ، أي : المَوصوفون بتلك الصِّفات مِمَّن صَلَحَتْ أحوالُهم عِند اللَّه ، واستحقوا رِضَاه وثَنَاءه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ لا خَيْرَ في كَثِيرٍ مِن نَجْوَاهُم إلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إصلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النِّساء : ١١٤] .

لا خَيْرَ في كثير مِمَّا يُسِرُّه القَوْمُ ، ويتحدَّثون به في الخَفاء . والنَّجْوَى (الكلام بين اثنين فأكثر سِرًّا) ، إلا نَجْوَى مِن أَمَرَ بِصَدَقَة لِيُعْطِيَها سِرًّا ، أوْ أَمَرَ بطاعة اللَّه، أوْ إصلاح شؤون الناس، وجَمْعهم على كلمة الحَق، ونَزْع المُشكلاتِ فِيما بَينهم، وجَعْلهم إخْوَةً مُتحابين مُتَّحدين. ولا شَكَّ أنَّ هذه القِيَم النبيلة تُؤَدِّي إلى نَشْرِ الوئام في المُجتمع، وبَثِّ رُوح التَّسامح والأُلْفَة ، واجتماعِ الكَلِمة . والجدير بالذِّكر أنَّ المَعروف هو كُلُّ ما حَثَّ اللَّهُ عليه من الطاعات وأعمال البِر والخَير .

ومَن يَفعل البِرَّ والمَعروف والإصلاح طالبًا لرضا اللَّه وَحْدَه ، بِدُون رِيَاء ولا سُمعة ، ولا حِرْصًا على شيء مِن أغراض الدُّنيا ، فَسَوْفَ يُعطيه اللَّهُ ثوابًا جزيلًا ، وهو الجَنَّة .

وقال القُرطبي في تفسيره (٥/ ٣٦٣) : ((﴿ أوْ إصلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ عام في الدِّماء والأموال والأعراض ، وفي كُل شيء يقع التداعي والاختلاف فيه بين المسلمين)) .

والتَّعبير بِ ﴿ فَسَوْفَ ﴾ إشارة إلى أنَّ جزاء العبادات والطاعات والأعمال الصالحة في الآخِرة (دار الجَزَاء) ، ولَيس في الدُّنيا ، لأنَّها دار عمل واختبار وابتلاء ، ولَيْسَتْ دَارَ جَزَاء .

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٢٧٦) : ((يَعْني جَلَّ ثناؤه بِقَوله : ﴿ لا خَيْرَ في كَثِيرٍ مِن نَجْوَاهُم ﴾ . لا خَيْر في كثير مِن نَجْوَى الناس جميعًا ، ﴿ إلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أوْ مَعْرُوفٍ ﴾ ، والمعروف هو كُل ما أَمَرَ اللَّهُ به، أوْ نَدَبَ إلَيه مِن أعمال البِر والخَيْر، ﴿ أوْ إصلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ ، وهو الإصلاح بَيْن المُتبايِنَيْن أو المُختصمَيْن بما أباحَ اللَّهُ الإصلاحَ بَينهما ليتراجعا إلى ما فيه الأُلْفَة واجتماع الكَلِمة على ما أَذِنَ اللَّهُ ، وأَمَرَ به . ثُمَّ أخبرَ جَلَّ ثناؤه بما وَعَدَ مَن فَعَلَ ذلك ، فقال: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أجْرًا عَظِيمًا ﴾، يقول : وَمَن يَأمر بِصَدَقَة ، أوْ مَعروف مِن الأمر ، أوْ يُصْلِح بين الناس ﴿ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ ﴾ ، يعني : طَلَبَ رِضَى اللَّه بِفِعْله ذلك ، ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أجْرًا عَظِيمًا ﴾ ، يَقول : فَسَوْفَ نُعْطِيه جَزَاءً لِمَا فَعَلَ مِن ذلك عَظِيمًا)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٥١): ((﴿ لا خَيْرَ في كَثِيرٍ مِن نَجْوَاهُم ﴾ مِن مُتناجيهم، كَقَوله تعالى : ﴿ وإذْ هُمْ نَجْوَى ﴾ [الإسراء : ٤٧] ، أوْ مِن تَنَاجيهم ، فَقَوله : ﴿ إلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أوْ مَعْرُوفٍ ﴾ ، عَلى حَذف مُضَاف أي : إلا نَجْوَى مَن أَمَرَ ، أوْ على الانقطاع، بمعنى: ولكن مَن أَمَرَ بِصَدَقَة ، ففي نَجْوَاه الخَير . والمَعروف كُل ما يَستحسنه الشَّرْعُ ، ولا يُنكِره العَقْلُ. وفسَّرها هُنا بالقَرْض ، وإغاثةِ المَلهوف ، وصَدَقَةِ التَّطَوُّع ، وسائر ما فَسَّرَ به ، ﴿ أوْ إصلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾، أوْ إصلاح ذات البَيْن، ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أجْرًا عَظِيمًا ﴾، بُنِيَ الكلام على الأمر، ورتَّب الجَزَاءَ على الفِعْل ، ليدلَّ على أنَّه لمَّا دخل الآمِر في زُمرة الخَيِّرين ، كان الفاعل أدخل فيهم، وأن العُمدة والغرض هو الفِعل ، واعتبار الأمر من حيث إنَّه وَصلة إليه ، وقَيَّد الفِعْلَ بأن يقول لطلب مرضاة اللَّه سُبحانَه وتعالى ، لأنَّ الأعمال بالنِّيات ، وأنَّ كُلَّ مَن فَعَلَ خَيْرًا رِيَاءً وسُمْعَةً لَم يَستحق به مِن اللَّه أجْرًا ، ووَصْفُ الأجر بالعِظَم تنبيهًا على حَقَارة ما فات في جَنْبه مِن أعراض الدُّنيا)) .

وما أجملَ قَول الشَّاعر :

مَنْ يَفْعَلِ الخَيْرَ لا يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ ... لا يَذْهَبُ العُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

مَن يَفعل الأعمالَ الصالحة فلا بُدَّ أن يُلاقي حُسْنَ الجَزَاء في الآخرة ، والسعادة والهناء والتقدير والفائدة المعنوية والمادية في الدُّنيا . واللَّهُ لا يُضِيع أجْرَه ، بَلْ يَحفظه عِنده ، ويُثيبه ، ويَمنحه نعيمَ الجَنَّة الدائم .

وعن أُمِّ كُلْثُوم بنت عُقْبَة _ رضي اللَّهُ عنها _ أنَّها سَمِعَت النبيَّ ﷺ يقول : ((لَيْسَ الكَذَّابُ الذي يُصلِح بين الناس ، فَيَنْمِي خَيْرًا ، أوْ يَقُولُ خَيْرًا)) [8] .

هذا الشخص الذي يُصلِح بين الناس ذاكرًا الخِصَال الطَّيبة لا يُعتبَر كاذبًا مَذمومًا ، وإنَّما هو مُحْسِن ، يَذكُر الأشياءَ الجميلة والصِّفات الرائعة ومحاسن الأُمُور مِن أجل رَأب الصَّدْع بَين المُتخاصِمين والمُتنازعين، وتَنقيةِ الأجواء، ونَزْعِ الحِقد مِن الصُّدور، وتقوية الروابط الاجتماعية بين الناس.وعملُه هذا لا ينطوي على تغيير الحقائق أوْ تزييفها،أو التلاعب بالأحداث الجارية، أوْ خِداع الناس وإسقاطهم في مِصْيدة الوَهْم ، فهو يتحدَّثُ بما رآه، ولا يخترع الوقائع مِن بنات أفكاره .

لقد حَثَّت الشريعةُ الإسلامية على تقوية الروابط الاجتماعية والإصلاح بين الناس ، حتى وإنْ تَحَقَّقَ ذلك بالكذب ، لأنَّه يَعُود بالفائدة والمنفعة والمصلحة على المُتباغضين والمُتخاصمين ، وإزالة العداوة والكراهية والحِقْد . والحديثُ يُوضِّح أنَّ الكَذَّاب المَذموم المُتحقِّق فيه الوعيد لَيس الذي يَقصِد بكذبه الصُّلْحَ بين الناس بالنصيحة التي تَقتضي الخَيْرَ ، بَلْ هذا مُحْسِن وفاضل ، ويقوم بأداء طاعة . إنَّه يَنْمِي خَيْرًا (يَنقل كلامًا) أوْ يَقُول خَيْرًا للإصلاح بين المُتخاصمين ، بأنه يَقول لأحدهما إنَّ صاحبه يَمدحه ويُثْني عليه_ وصاحبه لَم يَفعل _، وما أشبه ذلك مِن الكلمات . وهذا لا بأس به . وهذه أُمُور قد يُضْطَر الإنسان فيها إلى زيادة القَول، ومُجاوزة الصِّدْق، على وجه الإصلاح وطلب الخَيْر . ولَيس المُراد في الحديث نَفْي ذات الكذب ، بَلْ نَفْي إثمه ، فالكَذِب كَذِب ، سواءٌ كان للإصلاح أوْ لِغَيره . وقد يُرَخَّص أحيانًا في الفساد القليل الذي يُؤَمَّل فيه الصلاح الكثير . وقال الحافظ في الفتح (٥/ ٢٩٩و٣٠٠) : ((قال العُلماء : المُراد هُنا أنَّه يُخبِر بما عَلِمَه مِن الخَير ، ويَسكُت عَمَّا عَلِمَه مِن الشَّر ، ولا يكون ذلك كَذِبًا ، لأن الكَذِب الإخبار بالشيء على خِلاف ما هو به ، وهذا ساكت ولا يُنسَب لساكت قَول، ولا حُجَّة فيه لمن قال : يُشْتَرَط في الكذب القَصْد إليه ، لأن هذا ساكت)) .

إنَّ المُؤمن يَستر العُيوبَ ، ويَنشر الفضائلَ ، ولا يُلاحق سَقَطَاتِ الناس وأخطاءهم وخطاياهم ، ولا يتصيَّد عثراتهم ، بَلْ يَلتمس لهم عُذرًا ، ويتذكر محاسنهم. فإن ظَهرَ منهم أمرٌ قبيح ، تَذَكَّرَ الأمورَ الجميلة التي قاموا بها. وكُلُّ الناس لهم ذُنُوب وآثام ، ولهم كذلك فضائل طَيِّبة ، وصِفات حَسَنَة ، فينبغي تعميم الجانب الإيجابي ، ورؤية النِّصْف المَلآن مِن الكأس لا النِّصْف الفارغ .

---

٨ متفق عليه. البخاري (٢/ ٩٥٨) برقم (٢٥٤٦) ، ومسلم (٤/ ٢٠١١) برقم (٢٦٠٥) .

وعن أبي الدَّرداء عن رسول اللَّه ﷺ قال: ((ألا أُخْبِرُكُم بأفضلَ مِن دَرَجَةِ الصِّيَامِ والقِيَامِ ؟))، قالوا : بلى يا رسول اللَّه ، قال : ((إصلاحُ ذَاتِ البَيْنِ ، وفَسَادُ ذَاتِ البَيْنِ هي الحَالِقَةُ)) [٩].

معنى سؤال النبيِّ ﷺ : ألا أُخْبِرُكُم بعمل أعظم أجرًا وأعلى دَرَجَةً مِن دَرَجَة الصِّيَام والقِيَام ؟ . وقد طلب الصحابةُ أن يُخْبِرَهم بذلك ، فبيَّن النبيُّ ﷺ أنَّ السَّعْي في إصلاح العلاقات بين الناس ، وإزالة الخُصُومات والنزاعات ، ونَشْر المحبة والأُلْفة بَينهم ، هو الأمر الأفضل في المَنفعة بين الناس، حيث إنَّه يُقَوِّي الفَرْدَ، ويُؤَدِّي إلى تماسك المجتمع. وتَرْكُ السَّعْي في الإصلاح بين الناس، يُؤَدِّي إلى الهلاك والدمار والضياع والاقتتال .

والحَالِقَةُ هي التي تَحْلِق الدِّينَ وتستأصله، وتَجعله أَثَرًا إِثْرَ عَيْن في النَّفْس البشرية. والإصلاحُ بين الناس تقوية للمجتمع الإسلامي ، وإشاعة للأمن والأمان والسِّلْم الاجتماعي والتصالح مع الذات والآخرين ، وهذا من شأنه إعطاء زَخْم حقيقي للفرد والجماعة . أمَّا الفسادُ بين الناس فإنَّه يقضي على تماسك المجتمع ، مِمَّا يجعل عقيدةَ الفرد في مهب الرِّيح ، فتنهار القِيَم المُجتمعية ، وتسقط المُنْجَزَاتُ الحضارية، وهذا يُؤَدِّي إلى إعطاء صورة سلبية عن الإسلام ، وتصوير المسلمين على أنهم أُمَم مُتناحرة لا رابط بينها ، وجماعات همجية فوضوية دموية لا أخلاق لها . وهذا أمرٌ شديد الخطورة لأنه يُهدِّد وجودَ الفرد والجماعة على حَدٍّ سَواء،ويُحطِّم الحاضرَ، ويُدمِّر المُستقبل.

وقد أقام الإسلامُ العلاقاتِ بين المسلمين على المحبة والتعاون والتعارف والتواصل والنصيحة. وإذا انتشرت العداوةُ والبَغضاء والكراهية ، فإنَّ هذا يُؤَدِّي إلى خراب المُجتمعات وضَيَاع الدِّين .

وفي الحديث حَث على إصلاح العلاقات بين الناس ، وتَرغيب في نشر المحبة والأُلْفَة بينهم، وبيان أنَّ إفساد العلاقات بين الناس يَهدِم الدِّينَ والدُّنيا معًا .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٣/ ١٠٦) _ عن رواية أُخرى للحديث _ : (((ألا أُخْبِركم بأفضل) أي بِدَرَجَة هي أفضل (مِن دَرَجَة الصِّيام والصَّلاة والصَّدَقَة؟) أي:المُستمرات أو الكثيرات، قالوا : أَخْبِرْنا به، قال : (إصلاح ذَات البَيْن) أي إصلاح أحوال البَيْن ، حتى تكون أحوالكم أحوال صُحبة وأُلْفَة ، أوْ هو إصلاح الفساد والفِتنة التي بَين القَوم (فإن فساد ذات البَيْن هي الحالقة) أي الخَصْلَة التي شأنها أن تَحْلِق ، أي : تُهلِك وتَستأصل الدِّينَ ، كما يَستأصل المُوسَى الشَّعْرَ ، أو المُراد : المُزيلة لِمَن وَقَعَ فيها ، لِمَا يترتَّب عليه من الفساد والضغائن ، وذلك لِمَا فيه

٩ رواه ابن حِبَّان في صحيحه (١١/ ٤٨٩) ، والتِّرمذي في سُننه (٤/ ٦٦٣) وصحَّحه .

مِن عُموم المنافع الدِّينية والدُّنيوية مِن التعاون والتناصر والأُلْفَة والاجتماع على الخَير، حتى أُبِيحَ فيه الكذب . وكثرة ما يندفع مِن المَضَرَّة في الدُّنيا والدِّين بتشتُّت القلوب وَوَهْنِ الأديان ، مِن العداوات وتَسليط الأعداء وشَمَاتة الحُسَّاد ، فلذلك صارت أفْضَلَ الصَّدَقَات)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ لَوْلا يَنهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة : ٦٣] .

هَلَّا يَنهاهم أئمةُ بني إسرائيل وأحبارهم وعُلَماؤهم ويَزجرونهم عن المعاصي والآثام والذُّنُوب وأكل الحرام . وبِئْسَ صَنيع وفِعْل العلماء الذين تَركوا النَّهْيَ عن المُنكَر ، ولم يُحذِّروا الناسَ مِن ارتكاب المعاصي واقتراف الآثام . وفي هذه الآية توبيخٌ شديد للعلماء والعُبَّاد الذين تركوا الأمرَ بالمعروف والنَّهْيَ عن المُنكَر ، واكْتَفَوْا بالمُشَاهَدَة ، ولَم يقوموا بزجر أصحاب المعاصي .

والآيةُ تدل على أن إثم تارك النَّهْي عَن المُنكر ، مِثْل إثم مُرتكِب المُنكَر . وقد جَمَعَ اللَّهُ بينهما في الذَّم والوعيد . ((وكان العلماء يقولون : ما في القُرآن آية أشد توبيخًا للعُلَماء من هذه الآية ، ولا أخْوَف عليهم مِنها)) [١٠].

والعُلَماءُ ينبغي أن يكونوا في طليعة الآمِرين بالمعروف والناهين عن المُنكَر ، لعِلْمهم الشرعي، وكَوْنهم أصحابَ مكانة اجتماعية رفيعة ، وهُم قُدوةُ الناس والمَثَل الأعلى في كُل زمان ومكان .

وكما قال ابن المُبَارَك :

وهل أفسدَ الدِّينَ إلا المُلُوكُ ... وأحبارُ سَوْءٍ ورُهبانُها
فباعُوا النُّفوسَ وَلَم يَرْبَحُوا ... وَلَم تَغْلُ في البَيعِ أثمانُها

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٦٣٨) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : هَلَّا يَنهى هؤلاء الذين يُسارعون في الإثم والعُدوان وأكل الرِّشى في الحُكم من اليهود مِن بني إسرائيل ، رَبَّانِيُّوهم ــ وهُم أئمتهم المؤمنون وساستهم العلماء بسياستهم ــ وأحبارُهم وهُم عُلماؤهم وقُوَّادهم ﴿ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ ﴾ يعني : عن قَول الكذب والزُّور ، وذلك أنهم كانوا يَحْكمون فيهم بغير حُكم اللَّه ، ويكتبون كُتُبًا بأيديهم ، ثم يقولون : هذا مِن حُكم اللَّه ، وهذا مِن كُتبه . يقول اللَّهُ : ﴿ فَوَيْلٌ لَهُم

١٠ تفسير الطبري (٦/ ٢٩٨) . وانظر تفسير ابن كثير (٢/ ٧٥) ، والدُّر المنثور (٣/ ١١٢) .

مِمَّا كَتَبَتْ أيديهم وَوَيْلٌ لهم مِمَّا يَكْسِبُون ﴾ [البقرة: ٧٩] [11]. وأمَّا قَوله:﴿ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ﴾ فإنَّه يَعْني به الرِّشوة التي كانوا يأخذونها على حُكمهم بِغَير كتاب اللَّه لِمَن حَكَمُوا له به... ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ . وهذا قَسَم مِن اللَّه أقسمَ به . يقول تعالى ذِكْرُه : أُقْسِم : لَبِئْسَ الصَّنيع كان يَصنع هؤلاء الرَّبَّانِيُّون والأحبار ، في تَركهم نَهْي الذين يُسارعون مِنهم في الإثم والعدوان ، وأكل السُّحْت ، عمَّا كانوا يَفْعَلُون من ذلك)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٤٤) : ((﴿ لَوْلا يَنهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ﴾ تَحضيض لعلمائهم على النَّهْي عن ذلك ، فإن " لَوْلا " إذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ ، وإذا دخل على المستقبل أفاد التحضيض . ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ أبْلَغ مِن قَوله : لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُون ، مِن حَيث إن الصُّنع عمل الإنسان بعد تَدَرُّب فيه ، وترَوٍّ وتَحَرِّي إجادة ، ولذلك ذَم به خَوَاصَّهم ، ولأن ترك الحسنة أقبح مِن مُواقعة المعصية ، لأن النَّفْس تلتذ بها وتميل إليها ، ولا كذلك ترك الإنكار عليها ، فكان جديرًا بأبلغ الذَّم)) .

وعن أبي بكر الصِّديق_ رضي اللَّهُ عنه_ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: ((إنَّ الناس إذا رَأَوا الظالمَ فَلَم يَأخذوا على يَدَيه ، أَوْشَكَ أن يَعُمَّهم اللَّهُ بِعِقَاب مِنه)) [12].

إنَّ الناس إذا استمرؤوا الظلمَ ، ولَم يقوموا بمُقاومة الظالم والتَّصدي له ، فهم مُعرَّضون للعقوبة الإلهية جزاءَ تقاعسهم ، وابتعادهم عن الدعوة المشتملة على الأمر بالمعروف والنَّهْي عن المُنكَر.

---

١١ حرَّف اليهودُ التَّوراةَ ، وبدَّلوها ، وأضافوا فيها ، وحذفوا مِنها ، وأزالوا اسم النبيِّ " مُحَمَّد " مِنها ، وقد غضبَ اللَّهُ عليهم ، ولعنهم ، وأعدَّ لهم عذابًا عظيمًا . والعذابُ على الذين كَتبوا الكذبَ والافتراءَ ، ونسَبوه إلى اللَّه تعالى زُورًا وبُهتانًا ، والعذابَ عليهم بسبب أكلهم الدُّنيا بالدِّين ، وأخذ الرِّشى في الأحكام. وقال ابن الجوزي في زاد المسير(١/ ١٠٦) : ((هذه الآية نزلت في أهل الكتاب الذين بدَّلوا التَّوراةَ ، وغيَّروا صِفةَ النبيِّ ﷺ فيها. وهذا قول ابن عباس وقَتادة وابن زَيد وسُفيان. فأمَّا الوَيْل فروى أبو سعيد الخُدْرِيُّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال : " وَيْل واد في جهنم، يَهْوي الكافر فيه أربعين خريفًا قبل أن يَبلُغ قَعْرَه" . وقال الزَّجَّاج : الوَيْل كلمة تقولها العرب لكل مَن وَقع في هَلَكَة ... والكتاب هاهُنا التَّوراة. وذِكْر الأيدي توكيد ، والثمن القليل ما يَفنى مِن الدُّنيا . وفِيما يَكسِبون قَولان : أحدهما أنَّه عِوَض ما كَتبوا ، والثاني إثم ما فَعلوا)) .

١٢ رواه التِّرمذي في سُنَنه (٤/ ٤٦٧) وصحَّحه ، وابن حِبَّان في صحيحه (١/ ٥٣٩) .

وانتشارُ الظلم دون نكير أو مُقاومة من شأنه إحالة الحياة إلى جحيم لا يُطاق ، وتضييع كُل المُكتسبات الإنسانية ، وتَحطيم الإنجازات البشرية ، وإبادة المعاني البشرية الراقية . مِمَّا يدفع باتجاه إفساد الدُّنيا ، وفقدانِ معنى إعمارها بالفضائل ، وهذا يُؤثِّر سَلْبًا على الفرد والجماعة ، فيضعف الإيمانُ في النُّفوس ، وتفقد الحياةُ معناها .

والظالمُ مهما كان سفَّاحًا وقاسيًا وطاغيةً، فهو شخص ضعيف مهزوز، مُنهار مِن الداخل، وخائف مِمَّن حَوْله ، ويَشُك في الجميع . وهو يَحرِق نَفْسَه بِنَفْسِه ، ويَلعب بمصيره ، ويُقَامِر بوجوده ومُستقبله،وبِذرة الضَّعْف كامنة فيه،ومُسيطرة عليه،وعُقْدَةُ الشُّعور بالنَّقْص تُحَاصِره مِن كُلِّ الجهات.

وقال المُناوي في فَيض القدير (٢/ ٣٩٩) : (((إن الناس) المُطيقين لإزالة الظُّلم مع سلامة العافية (إذا رَأَوا الظالم) أي عَلِموا بظُلمه (فَلَم يَأخذوا على يَدَيه) أي لَم يَمنعوه مِن الظُّلم بفِعل أوْ قَول . قال ابن جرير : وخُصَّ الأيدي لأن أكثر الظلم بها كقتل وجرح وغَصْب ، (أَوْشَكَ) بفتح الهمزة والشِّين ، أي: قَارَبَ أو أسرعَ (أن يَعُمَّهم اللَّهُ بِعِقَاب مِنه) إمَّا في الدُّنيا أو الأُخْرَى ، أوْ فيهما ، لِتَضييع فَرْض اللَّه بِغَير عُذر)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ لُعِنَ الذينَ كَفَرُوا مِن بَني إسرائيلَ عَلى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وكانوا يَعْتَدُون ﴾ [المائدة : ٧٨] .

لَعَنَ اللَّهُ الكافرين مِن بني إسرائيل في الزَّبُور والإنجيل ، بسبب عِصيانهم لأوامر اللَّه تعالى ، واعتدائهم على خَلْقِه . واليهودُ لَمَّا اعْتَدَوْا في السَّبْت دعا عليهم النبيُّ داود ﷺ ، فَمَسَخَهُم اللَّهُ قِرَدَةً . وأصحابُ المائدة لَمَّا كَفَرُوا بالنبيِّ عِيسى ﷺ ، دعا عليهم ، فَمَسَخَهُم اللَّهُ خنازير .

والآيةُ تدلُّ على جَوَاز لَعْن الكافرين، وإنْ كانوا من أولاد الأنبياء ، وأنَّ شَرَف النَّسَب لا يَمْنَع إطلاق اللعنة في حَقِّهم .

وفي تفسير الطبري (٤/ ٦٥٦) عن ابن عباس أنَّه قال : ((لُعِنُوا بِكُلِّ لِسَان : لُعِنُوا على عهد مُوسى في التَّوراة ، ولُعِنُوا على عهد داود في الزَّبُور ، ولُعِنُوا على عهد عِيسى في الإنجيل ، ولُعِنُوا على عهد مُحَمَّد ﷺ في القُرآن)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٢/ ٤٠٥ و ٤٠٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ لُعِنَ الذينَ كَفَرُوا مِن بَني إسرائيلَ ﴾ ، في لَعْنِهم قَولان : أحدهما أنَّه نَفْس اللعن ، ومَعناه المُبَاعَدَة مِن الرَّحمة . قال ابن عباس : لُعِنُوا على لسان داود فصاروا قِرَدَةً ، ولُعِنُوا على لِسان عِيسى في الإنجيل . قال الزَّجَّاج : وجائز أن يكون داود وعيسى أُعْلِمَا أنَّ مُحَمَّدًا نبيٌّ ، وَلَعَنَا مَن كَفَرَ به . والثاني أنَّه

المَسْخ ، قاله مُجاهد . لُعِنُوا على لِسان داود فصاروا قِرَدَةً ، وعلى لِسان عِيسى فصاروا خنازير . وقال الحسن وقَتادة : لُعِنَ أصحابُ السَّبْت على لِسان داود ، فإنَّهم لمَّا اعْتَدَوْا ، قال داود : اللهُمَّ العنهم ، واجعلهم آيةً ، فَمُسِخُوا قِرَدَةً ، ولُعِنَ أصحاب المائدة على لِسان عِيسى ، فإنَّهم لمَّا أَكَلُوا مِنها ولَم يؤمنوا ، قال عِيسى : اللهُمَّ العنهم كما لَعَنْتَ أصحابَ السَّبْت، فَجُعِلُوا خنازير. قَوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا ﴾ ، أي: ذلك اللعن بمعصيتهم للَّه تعالى في مُخَالفتهم أَمْرَه ونَهْيَه، وباعتدائهم في مُجَاوَزَة ما حَدَّه لهم)) .

وروى أبو داود في سُنَنه (٢/ ٥٢٤) : عن عبد اللَّه بن مسعود قال : قال رسول اللَّه ﷺ : ((إنَّ أَوَّلَ ما دَخَلَ النقصُ على بني إسرائيلَ ، كان الرَّجُلُ يَلقَى الرَّجُلَ ، فيقول : يا هذا ، اتَّقِ اللَّهَ، وَدَعْ ما تَصْنَعُ ، فإنَّه لا يَحِلُّ لَك ، ثُمَّ يَلْقَاه مِن الغد ، فلا يَمْنَعُهُ ذلك أن يَكُون أَكِيلَهُ وشَرِيبَهُ وقَعِيدَه ، فلمَّا فَعَلُوا ذلك ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِم بِبَعْض)) ، ثُمَّ قال : ((﴿ لُعِنَ الذينَ كَفَرُوا مِن بَني إسرائيلَ عَلى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ ــ إلى قَوله : ــ ﴿ فاسقون ﴾)) ، ثُمَّ قال : ((كَلَّا واللَّهِ لَتَأمُرُنَّ بالمعروف ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَن المُنكر ، وَلَتَأخُذُنَّ على يَدَي الظالم ، وَلَتَأطُرُنَّهُ عَلى الحَقِّ أَطْرًا ، وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلى الحَقِّ قَصْرًا)) [١٣].

يجب على المسلمين أن يَأمروا بالمعروف ، ويَنْهَوْا عَن المُنكَر ، وأن يَحذروا أن تُصيبهم الكارثة التي أصابت بني إسرائيل ، فإنَّ بني إسرائيل (أتباع مُوسى وأتباع عِيسى بعد ذلك) ، لمَّا وَقَعَتْ فيهم المعاصي، وانتشرتْ فيهم الذُّنُوب والآثام، نهاهم عُلماؤهم، فَلَم يَنتهوا ، فجالسوهم ، وواكلوهم ، وشاربوهم ، فلمَّا رأى اللَّهُ ذلك مِنهُم ضَرَبَ قلوبَ بعضهم ببعض ، ثُمَّ لَعَنَهم على لسان داود وعِيسى ابن مريم .

والمَرْءُ إذا أَمَرَ بالمَعروف ونَهَى عَن المُنكَر، ولَم يَستجب المأمورُ، لا يكون جَلِيسَه، ولا أكِيلَه حتى يَستجيب . إذا كان المُنكَر باقيًا يُشاهده الناس فالواجب إنكاره، وعدم مُجالسة صاحبه ، فلا تَكُن صاحبًا له ، وأكِيلًا له ، وشَرِيبًا له ، لأنَّك إذا فَعَلْتَ هذا كأنَّك لَم تُنكِر ، لكن يجب الإنكار والهَجْر عِند الحاجة إذا لَم يمتثل ، لأنَّ هذا أردع ، وأقوى تأثيرًا .

---

١٣ في الدُّر المنثور للسُّيوطي(١٢٤/٣): أخرجه عبد الرَّزاق، وأحمد، وعَبْد بن حُمَيد، وأبو داود، والتِّرمذي وحسَّنه، وابن ماجة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مَرْدَوَيْه،والبَيهقي في شُعَب الإيمان عن ابن مسعود. اهـ . [والحديث ضعيف ، لانقطاعه بين أبي عُبَيدة وأبيه عبد اللَّه بن مسعود] .

فإمَّا أن تَأمُروا بالمعروف، وتَنْهَوْا عَن المُنكَر ، وتَمنعوا الظالمَ باليد ، وإن عَجَزْتُم فباللسان ، وتَرُدُّوه إلى الحَق رَدًّا ، وتَحْبِسُوه عَلَيه حَبْسًا ، وتَمنعوه مِن مُجاوزته ، أوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بقلوب بعضكم على بعض ، ثُمَّ يَطردكم مِن رحمته كما طردهم . والقضيةُ لَيست حُرِّية شخصية، يَعبَث كما يشاء،ويُظهِر المُنكَرات والمعاصي في المجتمع،ثُمَّ يقول: هذه أشياء تَخُصُّني. إنها لا تَخُصُّه، ولكنَّها تَخُصُّ المُجتمعَ جميعًا ، لأنَّ الجميع سَيُعَذَّبُون ، والعذاب إذا نَزَلَ فإنَّه يَعُم .

وفي عَون المَعبود (١١/ ٣٢٧) : (((فلا يَمنعه ذلك) أي : ما رآه مِن ذلك أَمْس (أن يكون أكِيلَه وشَرِيبَه وقَعِيدَه) أي : مِن أن يكون أكِيلَه وشَرِيبَه وقَعِيدَه ، والكُل على وَزْن فَعِيل ، بمعنى فاعل ، هو مَن يُصاحبك في الأكل والشُّرْب والقُعُود (ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِم بِبَعْض). يُقَال : ضَرَبَ اللبنَ بَعْضَه ببعض ، أي : خَلَطَه ، ذَكَرَه الراغب . وقال ابن المَلِك رَحِمه اللَّهُ : الباء للسَّببية ، أي : سوَّد اللَّهُ قَلْبَ مَن لَم يَعْصِ بِشُؤم مَن عَصَى ، فصارت قلوبُ جميعهم قاسيةً بعيدةً عن قَبول الحَق والخير أو الرحمة بسبب المعاصي ، ومُخالطة بعضهم بعضًا . انتهى . قال القاري: وقَوله : " قَلْب مَن لَم يَعْصِ "، لَيس على إطلاقه ، لأنَّ مُؤاكلتهم ومُشاربتهم مِن غَير إكراه وإلجاء بعد عدم انتهائهم عن معاصيهم معصية ظاهرة ، لأنَّ مُقتضى البُغْض في اللَّه أن يَبْعُدوا عنهم ويُهاجروهم. انتهى. قُلْتُ: ما قال القاري حَق صُرَاح. ... . (ثُمَّ قال) أي النبي ﷺ (بالمعروف) المعروف ما عُرِفَ في الشَّرع ، يعني : أمر معروف بين الناس ، يَعرِفونه ولا يُنكِرونه إذا رَأَوْهُ . والمُنكَر أمر لا يُعرَف في الشَّرْع ، بَل مُنكَر يُنكِره مَن رآه ، كالشخص الذي لا يَعرِفه الناسُ ، ويُنكِرونه إذا رَأَوْهُ (وَلَتَأطُرُنَّهُ عَلى الحَقِّ أَطْرًا). قال الخَطَّابي: أي لَتَرُدَّنَّهُ على الحَق ، وأصل الأَطْر العَطْف والتَّثَنِّي. وقال في النهاية : وتَأطُروه على الحَق أَطْرًا ، تَعطِفوه عَلَيه، (وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلى الحَقِّ قَصْرًا) أي لَتَحْبِسُنَّهُ عَلَيه وتُلْزِمُنَّهُ إيَّاه، كذا في مِرقاة الصُّعود.وفي النِّهاية يُقَال:قَصَرْتُ نَفْسِي على الشَّيء، إذا حَبَسْتُهَا عَلَيه ، وأَلْزَمْتُهَا إيَّاه ، ومِنه الحديث (وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلى الحَقِّ قَصْرًا))) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿كانوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ ما كانوا يَفْعَلُون﴾ [المائدة: ٧٩].

تُوضِّح الآيةُ حالَ اليهود السَّيئة ، فقد كانوا لا يَنهَى بعضُهم بَعْضًا عَن قَبيح فَعَلُوه . والمَقصود بالمُنكَر المعاصي والذُّنُوب والآثام . ثُمَّ ذَمَّهُم اللَّهُ على ذلك ، مِن أجل أخذ الحَيطة والحَذَر ، وعدم ارتكاب مِثْل الذي ارتكبوه ، لَبِئْسَ الفِعْل كانوا يَفعلون في تَركهم الانتهاء عن معاصي اللَّه .

والآيةُ تُشير إلى اشتراكهم في الفِعْل ، وقد تَمَّ توبيخهم على تَرْك النَّهْي عن المُنكَر ، كما أنَّ في الآية دليلًا على وُجوب تَرْك المُجرمين ، والابتعاد عنهم .

لقد تَركوا الدَّعْوَةَ، وتقاعسوا عن تبليغها.وهذا عملٌ قبيح سَيِّئ،قادهم إلى عواقب خطيرة كَقَسوة القلب ، وانتشار الذُّنُوب والمعاصي بلا نَكِير ولا مُعَارَضَة ، فاستحقوا غَضَبَ اللَّه تعالى .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٥٥) : ((أي : لا يَنهَى بعضُهم بعضًا عَن مُعَاوَدَة مُنكَر فَعَلُوه ، أوْ عَن مِثْل مُنكَر فَعَلُوه ، أوْ عَن مُنكَر أرادوا فِعْلَه وتَهَيَّؤُوا له ، أوْ لا يَنْتَهُون عَنه ، مِن قَولهم : تناهى عن الأمر وانتهى عنه ، إذا امتنع)) .

والآيةُ ﴿ لَبِئْسَ ما كانوا يَفْعَلُون ﴾ تَقبيح لِسُوء أعمالهم،وتَعجيب مِنه،بالتَّوكيد معَ القَسَم . وفيه دليل على أنَّ تَرْك النَّهْي عَن المُنكَر مِن العظائم ، وللأسف الشديد فقد أعرضَ عَنه المُسلمون .

وقال الزمخشري في الكَشَّاف (١/ ٥١٩) : ((تَعجيب مِن سُوء فِعْلهم مُؤَكَّد بالقَسَم ، فيا حَسْرَتا على المُسلمين في إعراضهم عن التَّنَاهي عن المُنكَر ، كأنَّه لَيس مِن الإسلام في شَيء ، مَعَ ما يَتْلُون مِن كِتاب اللَّه مِن المُبَالَغَات في هذا الباب)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٢/ ٤٠٦): ((قَولُه تعالى : ﴿كانوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ ، التَّنَاهي تَفَاعُل مِن النَّهْي،أي: كانوا لا يَنهَى بعضُهم بعضًا عَن المُنكَر. وذَكَرَ المُفسِّرون في هذا المُنكَر ثلاثة أقوال : أحدها صَيْد السَّمَك يَوم السَّبْت ، والثاني أخذ الرِّشوة في الحُكْم . والثالث أكل الرِّبا وأثمان الشُّحُوم.وَذِكْر المُنكَر مُنكَرًا يدلُّ على الإطلاق،ويَمنع هذا الحَصْر))[١٤] .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٩٦) : ((بيَّن سُبحانَه المعصيةَ والاعتداءَ بِقَولِه : ﴿كانوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ ، فأسندَ الفِعْلَ إليهم لِكَوْن فاعله مِن جُملتهم وإنْ لَم يَفعلوه جميعًا . والمعنى : أنَّهم كانوا لا يَنْهَوْنَ العاصي عَن مُعَاوَدَة مَعصية قد فَعَلَها ، أوْ تهيَّأ لِفِعْلها . ويُحْتَمَل أن يكون وَصفهم بأنَّهُم قد فَعَلُوا المُنكَرَ باعتبار حالة النُّزول لا حالة تَرْك الإنكار، وبيان العِصيان والاعتداء بِتَرْك التناهي عن المُنكَر،لأنَّ مَن أَخَلَّ بواجب النَّهْي عَن المُنكَر فقد عصى اللَّهَ

---

١٤ في تفسير القرطبي (٦/ ٢٣٧): ((قال ابن عطية: والإجماع مُنعقد على أنَّ النَّهْي عن الْمُنكَر فَرْض لمن أطاقه وأَمِنَ الضَّرَرَ على نَفْسِه وعلى المسلمين، فإنْ خاف فَيُنكِر بقلبه ويَهْجُر ذا الْمُنكَر ولا يُخالطه. وقال حُذَّاق أهل العِلْم : ولَيس مِن شَرْط النَّاهي أن يكون سليمًا عَن معصية، بَلْ يَنهَى العُصَاةُ بَعْضُهم بعضًا . وقال بعضُ الأُصُوليين : فُرِضَ على الذين يَتَعَاطَوْنَ الكُؤوسَ أن يَنهَى بعضُهم بعضًا . واستدلوا بهذه الآية ، قالوا : لأنَّ قَوله : ﴿كانوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ يَقتضي اشتراكهم في الفِعْل ، وذَمَّهم على تَرْك التناهي . وفي الآية دليل على النَّهْي عن مجالسة المجرمين ، وأمر بتركهم وهِجْرانهم)) .

سُبحانَه ، وتعدَّى حُدُودَه . والأمرُ بالمعروف والنَّهْي عَن المُنكَر مِن أهم القواعد الإسلامية ، وأجَلِّ الفرائض الشرعية ، ولهذا كان تاركُه شريكًا لفاعل المعصية ، ومُسْتَحِقًّا لغضب اللَّه وانتقامه ، كما وَقَعَ لأهل السَّبْت ، فإنَّ اللَّه سُبحانَه مَسَخَ مَن لَم يُشاركهم في الفِعْل ، ولكن تَرَكَ الإنكارَ عليهم ، كَمَا مَسَخَ المُعتدين فصاروا جميعًا قِرَدَةً وخنازير ، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيد ﴾ [ق : ٣٧] ، ثُمَّ إنَّ اللَّه سُبحانَه قال مُقَبِّحًا لعدم التَّناهي عن المُنكَر : ﴿ لَبِئْسَ ما كانوا يَفْعَلُون ﴾ ، أي : مِن تَركهم لإنكار ما يَجِب عليهم إنكاره)) .

لقد جَمَعُوا بين فِعْل المُنكَر ، والمُجَاهَرَةِ به ، وعدم النَّهْي عنه . والمَعصيةُ إذا فُعِلَتْ يَنبغي إخفاؤها وعدم إظهارها ، لِقَول النبيِّ ﷺ : ((اجْتَنِبُوا هذه القَاذُورَةَ التي نَهَى اللَّهُ عَنها ، فَمَن أَلَمَّ فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللَّه ، وَلْيَتُبْ إلى اللَّه ، فإنَّه مَن يُبْدِ لنا صَفْحَتَهُ نُقِمْ عليه كِتابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)) [١٥] .

أمرَ اللَّهُ بالسَّتْر على الذُّنُوب والآثام والمعاصي ، ومِن ذلك سَتْر العبد على نَفْسِه ، إذا أتى معصيةً، أو ارتكبَ ذنبًا، لعلَّ اللَّه أن يَستُره في الدُّنيا والآخرة ، ويَغفرها له معَ التَّوبة ، فإنَّ ارتكاب المعصية معَ سَتْرها أهْوَن وأخف مِن إعلانها والمُجَاهَرَة بها. والمقصود بالقاذورة في الحديث الزِّنا.

وفي رواية أُخرى للحديث ، وردت كلمة " القاذورات " بالجَمْع ، وهي الأفعال القبيحة والسَّيئة التي نَهى عنها الشرعُ ، ومِنها الزِّنا ، فَمَن وقع فيها وفعلها ، فلا يتحدَّث بذلك ، ولا يُخبِر أحدًا ، ولا يَفضح نَفْسَه . وفي مَعناه قَول العَامَّة : إذا بُليتم فاستتروا .

وَلْيُسَارِعْ في التَّوبة مِن ذَنْبِه الذي أذنبه . ومعنى " فإنَّه مَن يُبْدِ لنا صَفْحَتَهُ نُقِمْ عليه كِتابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ " ، أي : مَن يُظهِر لنا ويُطلِعنا على فَعْلته وذَنْبه ، نَحكُم عليه بِحُكْم اللَّه عَزَّ وَجَلَّ ونُقِم عليه الحَدَّ الذي ذَكَرَه اللَّهُ في كتابه .

والحديثُ يُبيِّن أنَّ العبد يُؤَاخَذ في الدُّنيا بما يُظهِره ، وأمَّا ما خَفِيَ فأمْرُه إلى اللَّه تعالى .

وقال المُناوي في فَيض القدير (١/ ١٥٥) : (((اجْتَنِبُوا هذه القاذورات) جَمْع قاذورة ، وهي كُل قَوْل أوْ فِعْل يُسْتَفْحَش أوْ يُسْتَقْبَح ، لكن المُراد هُنا الفاحشة ، يعني الزِّنا ، لأنَّه لمَّا رَجَمَ ماعزًا ذَكَرَه.سُمِّيَتْ قاذورة لأنَّ حَقَّها أن تُتَقَذَّر، فوُصِفَتْ بما يُوصَف به صاحبها، أفاده الزمخشري (التي نَهى اللَّهُ عنها) أي حرَّمها (فَمَن أَلَمَّ) بالتشديد ، أي : نزل به . والإلمام كما في الصِّحَاح مُقَارَبَة المعصية مِن غَير مُوَاقَعَة ، وهذا المعنى له لُطْف هُنا يُدرَك بالذَّوْق (بِشَيء مِنها فَلْيَسْتَتِرْ

١٥ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٧٢) برقم (٧٦١٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

بِسِتْرِ اللَّه وَلْيَتُبْ إلى اللَّه) بالنَّدَم والإقلاع والعَزْم على عدم العَوْد (فإنَّه) أي الشأن (مَن يُبْدِ) بِضَم المُثَنَّاة تَحْت وسُكُون المُوَحَّدَة (لنا صَفْحَتَه) أي: يُظهِر لنا فِعْلَه الذي حَقُّه الإخفاء والسَّتْر، وصَفحة كُل شيء جانبه ووجهه وناحيته ، كَنَّى به عن ثُبوت مُوجِب الحَد عِند الحاكم (نُقِم) نحن مَعْشَر الحُكَّام (عليه كِتابَ اللَّه) أي : الحَد الذي حَدَّه اللَّهُ في كِتابه ، والسُّنَّة مِن الكِتاب ، فَيَجَب على المُكَلَّف إذا ارتكب ما يُوجِب للَّه حَدًّا السَّتْر على نَفْسِه والتَّوبة ، فإنْ أَقَرَّ عند حاكم أُقِيم عليه الحَد أو التعزير . وعُلِمَ مِن الحديث أنَّ مَن وَاقَعَ شيئًا مِن المعاصي يَنبغي أن يَستتر ، وحِينئذ فَيمتنع التَّجَسُّس عليه لأدائه إلى هَتْك السَّتْر . قال الغَزَالي : وَحَدُّ الاستتار أن يُغلِق بابَ داره، ويَستتر بحيطانه، قال: فلا يَجُوز استراق السَّمْع على داره ليسمع صوت الأوتار، ولا الدُّخول عليه لرؤية المعصية ، إلا أن يَظهر عليه ظُهورًا يَعرِفه مَن هو خارج الدَّار كَصَوت آلة اللهو والسُّكَارى ، ولا يجوز أن يَستنشق لِيُدرِك رائحة الخَمْر ، ولا أن يَستخبر جِيرانَه لِيُخبروه بما جرى في داره ، وقد أنشدَ في معناه :

لا تَلْتَمِسْ مِن مَسَاوِي الناسِ مُسْتَتَرًا ... فَيَكشِف اللَّهُ سَتْرًا عَن مَسَاوِيكا
واذْكُرْ مَحَاسِنَ ما فِيهِم إذا ذُكِرُوا ... ولا تُعِبْ أحَدًا مِنهُم بِما فِيكا)) .

إنَّ المَرْءَ إذا ارتكبَ ذَنْبًا أو اقترفَ معصيةً ، يجب عليه أن يَستُر الأمرَ ، ولا يتحدَّث به ، ولا يُخبِر أحدًا ، ولا يُعلِن الذَّنْب ، ولا يُجَاهِر بالمعصية ، فالمُجَاهَرَةُ بالمعصية وانتشارها في المجتمع بلا نَكير ولا مُقاومة ، دليل على اشتراك الناس كُلِّهم في المعصية ، وهذا يَجعل مِن المُجتمع بيئةً مَوبوءةً مُعرَّضةً للغضب الإلهيِّ . وإذا فُعِلَت المعصية جِهَارًا ، وبشكل علني ، وتواطأ الناس على عدم الإنكار ، كان ذلك تحريضًا على فِعْلها ، وسببًا مُثيرًا لانتشارها وزيادتها .

وعن أبي هُرَيرة ــ رضي اللَّهُ عنه ــ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((كُلُّ أُمَّتي مُعَافًى إلا المُجَاهِرِين ، وإنَّ مِنَ المُجَاهَرَةِ أن يَعْمَلَ الرَّجُلُ بالليل عَمَلًا ثُمَّ يُصبح وقد سَتَرَه اللَّهُ ، فيقول : يا فُلان ، عَمِلْتُ البارحةَ كذا وكذا ، وقد باتَ يَسْتُرُهُ رَبُّه ، ويُصبح يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنه)) [١٦] .

كُلُّ واحد مِن الأُمَّة المُحمَّدية الإسلامية إذا ارتكبَ ذَنْبًا ، أو اقترفَ معصيةً ، يُرجَى له عَفْو اللَّه ومغفرته ، والنَّجاة مِن النار ، إلا المُجَاهِرِين بالمعاصي ، المُعْلِنُون بالذُّنُوب ، فلا يُعَافَوْن .

---

١٦ متفق عليه. البخاري (٥/ ٢٢٥٤) برقم (٥٧٢١) ، ومسلم (٤/ ٢٢٩١) برقم (٢٩٩٠) .

والمُجَاهِر: الفاسق المُعلِن بِفِسْقِه، الذي يَرتكب الذَّنْبَ ثُمَّ يُشيعه بين الناس تَفَاخُرًا وتَهَوُّرًا ووقاحةً. وإنَّ مِن المُجَاهَرَة (الوقاحة والاستهتار بالدِّين والاستخفاف بِحُدود اللَّه) أن يَعمل الرَّجُلُ بالليل معصيةً ، ثُمَّ يُصبح وقد سَتَرَه اللَّهُ ، فيُحدِّث إخوانَ السَّوْءِ مِن أصدقائه بأنَّه فَعَلَ المعصيةَ الفُلانيَّة أمْسِ، وقد بات يَسْتُرُه رَبُّه ، ويُصبح يَكشِف سِتْرَ اللَّه عنه ، ويَفضَح نَفْسَه بِنَفْسِه . وهذا المُجَاهِر لا يُريد السَّتْرَ ، وإنَّما يُريد الفضيحةَ ، حيث يراها في نظره مَفخرةً ومُباهاةً ، والعِياذ باللَّه تعالى .

والحديث يُبيِّن أنَّ مَن ابْتُلِيَ بمعصية يجب أن يَستُر على نَفْسِه ، وأنَّ ارتكاب المعصية مَعَ سَتْرِها أهْوَن وأخف مِن المُجَاهَرَة بها ، وأنَّ المُجَاهَرَة بالمعصية وقاحة وانتهاك لِحُدود اللَّه تعالى .

وهؤلاء المُجَاهِرُون يَسْرُدُون حِكاياتِ مَعاصيهم على شكل مُغامرات بلا فائدة ولا ضرورة ، فَيَهْتِكُون سِتْرَ اللَّه عنهم ، ويقومون بفضح أنفسهم بأنفسهم ، وتقديم ذَوَاتهم إلى الناس على أنَّهُم فاسقون وعُصَاة ومُنحرفون أخلاقيًّا ، فيفقدون ثقتهم بأنفسهم ، ويَفقد المُجتمعُ ثِقَتَه بهم .

والبعضُ يفتخر بالمعصية وما يترتَّب عليها مِن إثم ، فهو يراها من باب الرُّجولة أو الجُرأة أو الذكاء . وهذا أعمى البصيرة ينبغي تحذيره وإرشاده إلى أن المعاصي خِزْيٌ وعارٌ ، ولَيست شجاعةً أوْ بُطولة . وعلى الجانب الآخَر نجد أن المُلتزمين بالمنهج الدَّعَوي في التَّصَدِّي للمُنكَرات والمعاصي يَحصلون على النَّجَاة مِن العذاب، والفَوز بنعيم الجَنَّة ، بسبب امتثالهم للأوامر الإلهية ، وثباتهم على طريق الأنبياء في الدَّعْوَة بِلا كَلَل أوْ مَلَل .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٨/ ١١٩) : ((باب النَّهْي عَن هَتْك الإنسانِ سِتْرَ نَفْسِه ... . وقَوله : " إلا المُجَاهِرِين " ، هُم الذين جاهروا بمعاصيهم ، وأظهروها ، وكَشفوا ما سَتَرَ اللَّهُ تعالى عليهم ، فيتحدَّثون بِها لِغَير ضَرورة ولا حَاجة)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٥/ ١١) : (((كُلُّ أُمَّتي مُعَافًى) بفتح الفاء مَقصورًا اسم مفعول ، مِن عافاه اللَّهُ ، إذا أعفاه . ... . (إلا المُجَاهِرِين) أي : لكن المُجَاهِرِين بالمعاصي لا يُعَافَوْن ، مِن جَاهَرَ بِكَذا ، بمعنى جَهَرَ به ، وعبَّر بفاعل للمُبَالَغَة ، أوْ هو على ظاهر المُفَاعَلَة . والمُراد الذي يُجَاهِر بعضُهم بعضًا بالتَّحَدُّث بالمعاصي . وجَعل مِنه ابنُ جَمَاعة إفشاءَ ما يكون بَيْن الزَّوجين مِن المُبَاح ، ويُؤَيِّده الخبر المشهور في الوعيد عليه (وإنَّ مِنَ الجِهَار) أي: الإظهار والإذاعة (أن يَعمل الرَّجُلُ بالليل عَمَلًا) مُسِيئًا (ثُمَّ يُصبح) أي يَدخل في الصباح (وقد سَتَرَه اللَّهُ فيقول: عَمِلْتُ البارحةَ) هي أقرب لَيْلة مَضَتْ مِن وقت القَول مِن بَرِحَ زَالَ (كذا وكذا وقد باتَ يَسْتُرُه رَبُّه ويُصبح يَكشِف سِتْرَ اللَّهِ عَنه) بإشهار ذَنْبه في الملأ ، وذلك خِيانة مِنه على سِتْر اللَّه

الذي أسدله عليه ، وتحريك لرغبة الشَّر فِيمَن أسمعه أوْ أشهده ، فَهُما جِنايتان انضمَّتا إلى جِنايته، فتغلَّظتْ به ، فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغَير فيه ، والحَمْل عليه ، صارت جِنايةً رابعة ، وتَفَاحَشَ الأمر)) اهـ . وفي نَفْس المرجع (٥/ ١٢) : (((كُلُّ أُمَّتي مُعَافًى) اسم مفعول من العافية ، وهو إمَّا بمعنى عَفَى اللَّهُ عنه ، وإمَّا سلَّمه اللَّهُ وَسَلَّمَ مِنه (إلا المُجَاهِرِين) أي المُعْلِنِين بالمعاصي ، المُشتهرين بإظهارها الذين كَشفوا سِتْرَ اللَّهِ عَنهُم. ... . ثُمَّ فسَّر المُجَاهِر بأنَّه (الذي يَعمل العملَ بالليل فَيَسْتُرُه رَبُّه ، فيقول : يا فُلان ، إنِّي عَمِلْتُ البارحةَ كَذَا وكَذَا ، فَيَكشِف سِتْرَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ) عنه ، فَيُؤَاخَذ به في الدُّنيا بإقامة الحَد ، وهذا لأنَّ مِن صِفات اللَّه ونِعَمه إظهار الجميل ، وسَتْر القبيح ، فالإظهار كُفْران لهذه النِّعْمَة ، وتهاوُن بِسِتْر اللَّه . قال النووي:فَيُكْرَه لِمَن ابْتُلِيَ بمعصية أن يُخبِر غَيْرَه بها، بَل يُقْلِع ويَندَم ويَعْزِم أن لا يَعُود ، فإنْ أخبرَ بها شَيْخَه أوْ نَحْوَه مِمَّا يَرجو بإخباره أن يُعَلِّمَه مَخْرَجًا مِنها ، أوْ ما يَسْلَم به من الوقوع في مِثلها ، أوْ يُعرِّفه السبب الذي أوقعه فيها،أوْ يَدعو له،أوْ نَحْو ذلك،فهو حسن، وإنَّما يُكْرَه لانتفاء المصلحة. وقال الغَزَالي: الكشف المذموم إذا وقع على وجه المُجَاهَرَة والاستهزاء ، لا على السؤال والاستفتاء ، بدليل خَبَر مَن وَاقَعَ امرأته في رَمَضَان ، فجاءَ فأخبرَ المُصْطَفَى ﷺ ، فَلَم يُنْكِرْ عَلَيه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وما عَلى الذينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُم يَتَّقُون ﴾ [الأنعام : ٦٩] .

ليس على المؤمنين شيء مِن حِساب الكافرين على ضلالهم وتَكذيبهم وسُخريتهم واستهزائهم، إذا تَجَنَّبُوهم ، فَلَم يَجلسوا معهم ، ولكنْ عَلَيهم أن يُذكِّروهم ويَعِظُوهم بالقُرآن الكريم ، ويُحاولوا إبعادَهم عن الذُّنُوب والآثام والمعاصي والقبائح ، وَفْق القُدرة ، وحَسَب المُستطاع ، ويُظهِروا لهم الكراهةَ لعلَّهم يَجتنبون الخَوْضَ في القُرآن حَيَاءً مِن المؤمنين إذا رَأَوْهُم قَد تَركوا مُجالستهم ، فرخَّص اللَّهُ للمؤمنين في مُجالستهم بشرط التَّذكير والوَعْظ والإرشاد ، لَعَلَّهُم يَتركون الخَوْضَ حَيَاءً أوْ كراهةً لِمَسَاءتهم . وإنْ رَفَضُوا الوَعْظَ ، فإنَّ حِسابهم على اللَّه تعالى .

ويجب على المؤمنين الالتزام بِحُكْم هذه الآية الكريمة معَ الكافرين الغارقين في السُّخرية والاستهزاء ، والمُجَادِلِين بالباطل .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٣/ ٦٢ و٦٣): ((قَوله تعالى : ﴿ وما عَلى الذينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِن شَيْءٍ ﴾ ، في سبب نُزولها ثلاثة أقوال : أحدها أنَّ المُسلمين قالوا: لَئِن كُنَّا كُلَّما استهزأ المُشركون بالقُرآن وخاضوا فيه فمنعناهم ، لَم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام،ولا أن

نَطُوف بالبَيت ، فنزلت هذه الآية . والثاني أنَّ المُسلمين قالوا : إنَّا نخاف الإثمَ إنْ لَم نَنْهَهُم عَن الخَوْض ، فنزلت هذه الآية . والثالث أنَّ المُسلمين قالوا : لَوْ قُمْنَا عَنهم إذا خاضوا ، فإنَّا نَخشى الإثمَ في مُجالستهم، فنزلت هذه الآية، هذا عن مُقاتل، والأوَّلان عن ابن عباس. قَوله تعالى: ﴿ وما عَلى الذينَ يَتَّقُونَ ﴾ ، فِيه قَولان:أحدهما يَتَّقُون الشِّرْكَ، والثاني يَتَّقُون الخَوْضَ. قَوله تعالى: ﴿ مِنْ حِسَابِهِم ﴾ ، يَعني : حِساب الخائضين . وفي ﴿ حِسَابِهِم ﴾ قَولان : أحدهما أنَّه كُفرهم وآثامهم ، والثاني عُقوبة خَوْضِهم . قَوله تعالى : ﴿ وَلَكِن ذِكْرَى ﴾ ، أي : ولكن عَلَيكم أن تُذكِّروهم . وفِيما تُذكِّرونهم به قَولان : أحدهما المواعظ ، والثاني قِيامكم عَنهم . قال مُقاتل : إذا قُمْتُم عَنهم مَنعَهُم مِن الخَوْض الحَيَاءُ مِنكم ، والرغبةُ في مُجالستكم . قَوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُم يَتَّقُون ﴾ فِيه قَولان : أحدهما يَتَّقُون الاستهزاءَ، والثاني يَتَّقُون الوَعِيدَ. فَصْل . وقد ذهب قَوم إلى أنَّ هذه الآية مَنسوخة لأنَّها اقتضتْ جَوَازَ مُجالسة الخائضين والاقتصار على تذكيرهم، ثُمَّ نُسِخَتْ بِقَوله : ﴿ وَقَدْ نزَّلَ عَلَيْكم في الكتاب أَن إذا سَمِعْتُم آياتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِها ويُسْتَهْزأُ بِها فلا تَقعدوا معهم ﴾ [النِّسَاء : ١٤٠]. والصحيح أنَّها مُحْكَمَة ، لأنَّها خَبَر ، وإنَّما دَلَّتْ على أنَّ كُلَّ عَبْد يختص بحساب نَفْسِه، ولا يَلزَمه حِساب غَيره)) .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٢٢٦): ((يَقول تعالى ذِكْرُه : وَمَن اتَّقَى اللَّهَ فخافه فأطاعه فيما أمره به ، واجتنبَ ما نهاه عنه ، فَلَيْسَ عليه بترك الإعراض عن هؤلاء الخائضين في آيات اللَّه في حال خَوْضهم في آيات اللَّه شَيء مِن تَبِعَة فِيما بَيْنَه وبَيْن اللَّه ، إذا لَم يَكُن تركه الإعراض عَنهُم رضى بما هم فيه ، وكان للَّه بحقوقه مُتَّقِيًا ، ولا عَلَيه مِن إثمهم بذلك حَرَج ، ولكن لِيُعْرِضُوا عَنهم حِينئذ ﴿ ذِكْرَى ﴾ لأمر اللَّه ﴿ لَعَلَّهُم يَتَّقُون ﴾ ، يَقُول : لِيَتَّقُوا . ومعنى الذِّكْرَى : الذِّكْر)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ الذينَ يتَّبعونَ الرسولَ النبيَّ الأُمِّيَّ الذي يَجِدُونهُ مَكْتُوبًا عِندَهُم في التَّوراةِ والإنجيلِ يأمُرُهُم بالمَعروفِ ويَنهَاهُم عَنِ المُنكَرِ ويُحِلُّ لهمُ الطَّيباتِ ويُحرِّمُ عَلَيهِمُ الخبائثَ ويضعُ عَنهُم إصْرَهُم والأغلالَ التي كانت عَلَيهِم فالذينَ آمنوا بِهِ وعزَّروهُ ونَصَرُوهُ واتَّبعوا النُّورَ الذي أُنزِلَ مَعَهُ أُولئكَ هُمُ المُفْلِحُون ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

إنَّ الرحمة الإلهيَّة الخاصَّة جَعَلَها اللَّهُ للذين يؤمنون بالنبيِّ مُحَمَّد ﷺ ويتَّبعونه حقًّا وصِدْقًا ، الأُمِّيِّ الذي لا يَقرأ ولا يَكتب. وتسميته رسولًا بالإضافة إلى اللَّه تعالى،حيث اختاره اللَّهُ واصطفاه. وتسميته نبيًّا بالإضافة إلى العِبَاد ، حيث أرسله اللَّهُ إلى الناس لتبليغهم وَحْي السماء .

واليهودُ والنصارى يَجِدُون صِفَةَ النبيِّ مُحَمَّد ﷺ في التَّوراة والإنجيل ، ويَعرِفونها حقَّ المعرفة .

وقال ابن كثير في تفسيره(٢/ ٣٣٥): ((وهذه صِفَة مُحَمَّد ﷺ في كُتُب الأنبياء ، بشَّروا أُمَمَهم بِبَعْثه، وأمروهم بمُتابعته، ولَم تَزَلْ صِفاته مَوجودة في كُتبهم ، يَعرِفها عُلماؤهم وأحبارهم)).

وفي صحيح البخاري (٢/ ٧٤٧): عن عَطاء بن يَسار قال : لَقِيتُ عبد اللَّه بن عمرو ابن العاص _رضي اللَّه عنه _ قُلْتُ: أخْبِرْني عن صفة رسول اللَّه ﷺ في التَّوراة ، قال: ((أَجَلْ ، واللَّهِ إنَّه لَمَوصوف في التَّوراة ببعض صِفته في القُرآن: ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ إنَّا أرسلناكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا ونذيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وَحِرْزًا للأُمِّيين ، أنتَ عَبْدي ورَسُولي ، سَمَّيْتُكَ المُتَوَكِّلَ ، لَيْسَ بِفَظٍّ ولا غَليظ ، ولا سَخَّابٍ في الأسواق ، ولا يَدفع بالسَّيئةِ السَّيئةَ، ولكِنْ يَعْفُو ويَغفِر، وَلَن يَقْبِضَه اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِه المِلَّةَ العَوْجَاء ، بأن يقولوا : لا إلهَ إلا اللَّهُ ، ويَفتحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وآذانًا صُمًّا، وقُلُوبًا غُلْفًا)).

هذه الصِّفات عِبارة عن ركائز أساسية في طريق تثبيت الفاعلية الذاتية للشخصية البشرية ، وانعكاسها على الأفراد من أجل كسب قلوبهم وإقناعهم بجدوى الإيمان والالتزام بمنهاج النُّبُوَّة واحترام المبعوثين مِن قِبَل اللَّه تعالى . والفرد لا يمكن أن يحترم شخصًا مُنَفِّرًا ، أو يقتنع بكلامه ويأخذه على مَحْمَل الجِد .

لقد كان للنبيِّ مُحَمَّد ﷺ الذِّكْرُ الحَسَن في الأُمَم السابقة . وقد وَرَدَ اسْمُه وَوَصْفُه ﷺ في التَّوراة والإنجيل . والتابعيُّ عَطاء بن يَسار يُخبِر أنَّه لَقِيَ الصحابيَّ عبد اللَّه بن عَمرو بن العاص _ رضي اللَّهُ عنه _، فسأله عن صِفَة النبيِّ ﷺ في التَّوراة ، لأنَّ عبد اللَّه كان يَقرأ كثيرًا في التَّوراة ، فأخبره عبدُ اللَّهِ بأنَّ النبيَّ ﷺ مَذكور في التَّوراة ببعض صِفاته التي في القُرآن ، أي : بالمعنى ، فقال: ﴿ يا أيُّها النَّبِيُّ إنَّا أرسلناكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا ونذيرًا ﴾ ، أي: شاهدًا لأُمَّتك المؤمنين بتصديقهم لِنُبُوَّتك ، وبما جاء في رسالتك ، وعلى الكافرين بتكذيبهم ، أوْ شاهدًا للرُّسُل قَبْلَك بالبلاغ ، ومُبَشِّرًا للمؤمنين ، والبِشَارة هي الإخبار بالأمر السار ، ونذيرًا للكافرين ، والنِّذارة هي الإخبار بالأمر المُخيف ، لِكَي يُجْتَنَب ويُحْذَر ، أوْ مُبَشِّرًا للمُطيعين بالجَنَّة ، ونذيرًا للعُصَاة بالنار . وحِصْنًا للعرب ، يتحصَّنون به مِن الشَّيطان ، أوْ مِن سَطوة العَجَم وتَغَلُّبهم ، وسُمُّوا أُمِّيين ، لأنَّ أغلبهم لا يَقرؤون ولا يَكتبون. أنتَ يا مُحَمَّد عبد اللَّه ورسوله ، سَمَّاك المُتوكِّل ، أي : المُتوكِّل على اللَّه ، لقناعته باليسير مِن الرِّزق ، واعتماده على اللَّه في النَّصْر ، والصَّبْر على انتظار الفَرَج ، والأخذ بمحاسن الأخلاق ، واليقين بِتَمام وَعْد اللَّه . لَيس بِفَظ ، وهو سَيِّئ الخُلُق الجافي ، ولا غليظ ، وهو قاسي القلب ، ولا سَخَّاب في الأسواق ، وهو الذي يَرفع صَوْتَه على الناس في الأسواق لِسُوء خُلُقه، ويُكثِر الصِّيَاحَ عليهم ، بَلْ يُلين جانبَه لهم ، ويَرفُق بهم ، ولا يُقَابِل الإساءةَ بالإساءة ،

ولا يَدفع بالسَّيئة السَّيئةَ ، ولكن يَعفو ويُسامح ويتجاوز ويَغفِر ، ما لَم تُنْتَهَكْ حُرُمات اللَّه تعالى ، ولَن يَتَوَفَّى اللَّهُ مُحَمَّدًا حتى يُقيم به مِلَّةَ الكُفْر، أي : يَنْفِي الشِّرْكَ ، ويُثبِت التَّوحيدَ ، فأقامَ اللَّهُ بِنَبِيِّه عِوَجَ الكُفْر حتى ظَهَرَ دِينُ الإسلام ، واتَّضَحَتْ أعلامُه. وقِيل: هي مِلَّة إبراهيم، فإنَّها قد اعْوَجَّتْ في أيام الفَتْرة ، فَزِيدَ فيها ونَقَصَ مِنها، وغُيِّرَتْ عن استقامتها ، وأُمِيلَتْ بَعد قَوَامها ، فأقامها النبيُّ ﷺ بِ لا إلهَ إلا اللَّهُ ، فكانَ هذا أمرًا بترك الشِّرْك ، وإرجاعهم إلى تَوحيد اللَّه تعالى ، ويَهْدِي به اللَّهُ أعْيُنًا عُمْيًا لا تُبصِر الحَقَّ ، وآذانًا صُمًّا لا تَسمع دَعْوَةَ الخَير ، وقُلوبًا غُلْفًا غَطَّتْهَا ظُلمة الشِّرْك ، فكانَ النبيُّ ﷺ سببًا في هِدَاية الناس إلى الإسلام ، وتعريفهم بِدِين اللَّه تعالى .

وقال العَيني في عُمدة القاري (١١/ ٢٤٣) : ((قَوله : " واللَّهِ إنَّه لَمَوْصُوف " أكَّد كلامَه بالمُؤَكِّدات ، وهي الحَلْف باللَّه ، وبالجُملة الاسمية ، وبدخول إنَّ عليها ، وبدخول لام التأكيد على الخبر . قَوله : ﴿ يا أيُّها النَّبِيُّ إنَّا أرسلناكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا ونذيرًا ﴾ . .... قَوله : ﴿ شَاهِدًا ﴾ أي : لأُمَّتك المُؤمنين بتصديقهم ، وعلى الكافرين بتكذيبهم ، أي : مَقبولًا قَولك عِند اللَّه لهم وعليهم، كما يُقْبَل قَول شاهد العَدْل في الحُكْم ، فإنْ قُلْتَ : انتصاب (شاهدًا) بماذا ؟ ، قُلْتُ: على الحال المُقَدَّرة ، كما في قَولك : مَرَرْتُ بِرَجُل معه صقر صائدًا غدًا ، أي : مُقَدَّرًا به الصَّيد غدًا . قَوله : ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ ، أي : للمؤمنين ، ﴿ ونذيرًا ﴾ للكافرين . ... . قَوله : " وَحِرْزًا " بكسر الحاء المُهمَلة ، أي : حافظًا ، والحِرْز في الأصل المَوضع الحَصِين ، فَاسْتُعِيرَ لِغَيره ، ... ، والمعنى : حافظًا لِدِين الأُمِّيين ، ... ، والأُمِّيُّون العرب ، لأن الكتابة كانت عِندهم قليلة . قَوله : " سَمَّيْتُكَ المُتوكِّل " يعني لقناعته باليسير مِن الرِّزق ، واعتماده على اللَّه تعالى في الرِّزق والنَّصْر، والصَّبْر على انتظار الفَرَج ، والأخذ بمحاسن الأخلاق ، واليقين بِتَمام وعد اللَّه ، فتوكَّلَ عليه ، فَسُمِّيَ المُتوكِّل. قَوله: " لَيس بِفَظ " أي : سَيِّيء الخُلُق ،" ولا غليظ " أي : شديد في القَول ... . وهَهُنا التفات ، لأنَّ القِياس يَقتضي الخِطاب ، بأن يُقَال : وَلَسْتَ ، ولكن التفت مِن الخِطَاب إلى الغَيبة . قَوله : " ولا سَخَّاب " على وزن فَعَّال بالتشديد مِن السَّخَب . ... . قَوله : " ولا يَدفَع بالسَّيئة السَّيئةَ ، أي : لا يُسِيء إلى مَن أساء إليه على سبيل المُجازاة المُباحة ما لَم تُنْتَهَكْ حُرمة اللَّه تعالى ، لكن يأخذ بالفَضْل . قَوله : " حتى يُقيم به " ، أي : حتَّى يُنَقَّى به الشِّرْك ، ويثبت التوحيد . قَوله : " المِلَّة العَوجاء " هي مِلَّة العرب ، ووَصْفها بالعِوَج لِمَا دخل فيها مِن عِبادة الأصنام ، وتَغييرهم مِلَّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام عن استقامتها ، وإمالتهم بعد قَوَامها . والمُراد مِن إقامتها : إخراجها مِن الكُفْر إلى الإيمان)) .

وفي الحديث أن رَجُلًا من اليهود كان ناشرًا التَّوراةَ يَقْرَؤها ، يُعزِّي بها نَفْسَه على ابن له في المَوت كأحسنِ الفِتيان وأجْمَلِه ، فقال رسول اللَّه ﷺ : ((أنشُدُكَ بالذي أنزلَ التَّوراةَ ، هل تجد في كتابك ذا صِفَتي ومَخْرَجي ؟)) ، فقال برأسه هكذا ، أي : لا ، فقال ابنه : إي والذي أنزلَ التَّوراةَ، إنَّا لَنَجِدُ في كتابنا صِفَتَكَ ومَخْرَجَكَ ، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه ، وأنَّكَ رسولُ اللَّه [١٧] .

هذا دليل على ثُبوت صِفَةِ النبيِّ مُحَمَّد ﷺ ونَعْتِه ونُبُوَّته عند أهل الكتاب (اليهود والنصارى) وهُم يَعرِفونها ويَقْرَؤونها في التَّوراة والإنجيل ، ومُطَّلعون عليها . ولكن الحسد والحِقد والأهواء الذاتية والمصالح الشخصية وحُب الرئاسة والزعامة ، دَفَعهم إلى الكفر والضلال وتكذيب النبيِّ مُحَمَّد ﷺ . ولكنَّ الشمس لا تُغطَّى بِغِرْبال .

﴿ يأمُرُهُم بالمَعروفِ وينَهاهُم عَنِ المُنكَرِ ﴾ . يأمرهم بكل شيء جميل وحَسَن،تَعرِفه قلوبهم، ولا تُنكِره . ويَنهاهُم عن كُل شيء قبيح وسَيِّئ ، تُنكِره قلوبهم ، ولا تَعرِفه .

﴿ ويُحِلُّ لهمُ الطَّيباتِ ويُحرِّمُ عَلَيهِمُ الخبائثَ ﴾ . يُحِلُّ لهم ما حُرِّمَ عليهم مِن الأشياء الطَّيبة بسبب ذنوبهم ومعاصيهم ، ويُحرِّم عليهم الأشياءَ القَذِرة الخبيثة كالدَّم والمَيْتَة ولحم الخِنزير .

وفي تفسير ابن كثير (٢/ ٣٣٥): ((قال بعض العلماء: فَكُلُّ ما أحلَّ اللَّهُ تعالى مِن المَآكِل فهو طَيِّب نافع في البدن والدِّين ، وكُلُّ ما حرَّمه فهو خبيث ضار في البدن والدِّين)) .

﴿ ويضعُ عَنهُم إصْرَهُم والأغلالَ التي كانت عَلَيهِم ﴾ . ويُسقِط عنهم ثِقَلَ العهد الذي أُخِذَ عليهم ، ويُخفِّف عنهم مِنَ التكاليف الشَّاقَّة الثقيلة المفروضة عليهم ، كقتل النَّفْس في التَّوبة ، وقَطْع الأعضاء الخاطئة ، وقَرْض النجاسة عن الثَّوب بالمِقْراض ، وتحريم أخذ الدِّيَة ، وترك العمل في السَّبْت ، وغَير ذلك من الأحكام الشاقة . والإصْرُ الثِّقَل . والأغلالُ مُستعارة للتكاليف الشاقة التي كُلِّفُوها . والشريعةُ المُحمَّدية الإسلامية قائمة على التَّيسير والسَّماحة والتَّسهيل على الناس ورفع الحَرَج . وفي صحيح البخاري (١/ ٢٣) : عن أبي هُريرة ــ رضي اللَّهُ عنه ــ عن النبيِّ ﷺ قال: ((إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ)). إنَّ دِين الإسلام هو دِين اليُسْر ، فهو مُيسَّر مُسهَّل في عقائده وأحكامه وشرائعه وأخلاقه، وفي أفعاله وتُروكه . وقد حَثَّ النبيُّ ﷺ على الرِّفْق في الأعمال ، والاقتصار على ما يُطيقه العامل، ويُمكِنه المُداومة عليه ، وأنَّ مَن شَادَّ الدِّينَ وَتَعَمَّقَ انقطعَ ، وغَلَبَه الدِّينُ وقَهَرَه .

---

١٧ رواه أحمد في مسنده (٥/ ٤١١) . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٣٥) : ((هذا حديث جيِّد قوي ، له شاهد في الصحيح عن أنس)) .

﴿ فالذينَ آمنوا بِهِ وعزَّروهُ ونَصَرُوهُ ﴾ . فالذينَ صَدَّقوا بالنبيِّ مُحَمَّد ﷺ ، واتَّبعوه ، وعظَّموه ، ووقَّروه ، ونصروه على الأعداء ، ونشروا دِينه وشريعته .

﴿ واتَّبعوا النُّورَ الذي أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ . واتَّبعوا القُرآنَ المُنير. وسمَّاه اللَّهُ نُورًا، لأنَّه واضح وظاهر، ومُرشِد للناس ، وكاشف لحقائق الأشياء ، ومُظهِر لأحوال الدُّنيا والآخرة .

﴿ أُولئكَ هُمُ المُفْلِحُون ﴾ . أُولئك هُم الفائزون بسعادة الدنيا ونعيمِ الآخرة الأبديِّ .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٣/ ٢٧٢ و٢٧٣) : ((وفي تَسميته بالأُمِّيِّ قَولان : أحدهما لا يكتب ، والثاني لأنه مِن أُمِّ القُرى . قَوله تعالى : ﴿ الذي يَجِدُونهُ مَكْتُوبًا عِندَهُم ﴾ أي: يَجِدون نَعْتَه ونُبُوَّتَه . قَوله تعالى : ﴿ يأمُرُهُم بالمَعروفِ ﴾ . قال الزَّجَّاج : يجوز أن يكون مُسْتَأنَفًا، ويجوز أن يكون: يَجِدونه مكتوبًا عندهم أنه يأمرهم بالمعروف . قال ابن عباس : المعروف مَكارم الأخلاق وصِلة الأرحام . والمُنكَر عِبادة الأوثان وقَطْع الأرحام . وقال مُقاتل : المعروف الإيمان ، والمُنكَر الشَّر . وقال غَيْرُه : المعروف الحق ، لأن العقول تعرف صِحَّته ، والمُنكَر الباطل ، لأنَّ العقول تُنكِر صِحَّتَه. وفي الطَّيِّبات أربعة أقوال : أحدها أنَّها الحلال ، والمعنى: يُحِلُّ لهم الحَلالَ. والثاني أنها ما كانت العرب تستطيبه . والثالث أنَّها الشُّحُوم المُحرَّمة على بني إسرائيل . والرابع ما كانت العرب تُحرِّمه مِنَ البَحِيرة والسَّائبة والوَصِيلة والحَام . وفي الخبائث ثلاثة أقوال : أحدها أنَّها الحرام ، والمعنى : ويُحرِّم عليهم الحرامَ . والثاني أنَّها ما كانت العرب تَستخبثه ولا تأكله كالحَيَّات والحَشَرات . والثالث ما كانوا يَسْتَحِلُّونه مِنَ المَيْتَة والدَّم ولحم الخِنزير . قَوله تعالى : ﴿ويضعُ عَنهُم إصْرَهُم ﴾ . وفي هذا الإصْر قَولان : أحدهما أنه العَهْد الذي أَخَذَ اللَّهُ على بني إسرائيل أن يَعملوا بما في التَّوراة ، قاله ابن عباس . والثاني التَّشديد الذي كان عليهم مِن تحريم السَّبْت ، وأكلِ الشُّحُوم والعُرُوق وغَير ذلك مِن الأمور الشاقة ، قاله قَتادة . وقال مسروق : لقد كان الرَّجُلُ من بني إسرائيل يُذنِب الذَّنْب ، فيُصبح وقد كُتِبَ على باب بَيته ، إنَّ كَفَّارته أن تَنزِع عَينيك فينزعهما . قَوله تعالى : ﴿ والأغلالَ التي كانت عَلَيهِم ﴾ . قال الزَّجَّاج : ذِكْر الأغلال تمثيل ، ألا ترى أنَّك تقول : جَعَلْتُ هذا طَوْقًا في عُنُقك ، ولَيس هناك طَوْق ، إنَّما جَعَلْتَ لُزومَه كالطَّوْق ، والأغلالُ أنَّه كان عليهم أن لا يُقْبَل مِنهم في القتل دِيَة ، وأن لا يَعْمَلوا في السَّبْت ، وأن يَقْرِضُوا ما أصاب جُلُودَهم مِنَ البَوْل . قَوله تعالى : ﴿ فالذينَ آمنوا بِهِ ﴾ ، يعني بِمُحَمَّد ﷺ ، ﴿ وعزَّروهُ ﴾ . وفي المَعنى قَولان : أحدهما نصروه وأعانوه ، قاله مُقاتل . والثاني عَظَّموه ، قاله ابن قُتَيبة . ﴿ النُّورَ الذي أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ القُرآن . سمَّاه نُورًا ، لأنَّ بيانه في القُلوب كبيان النُّور في

العُيون . وفي قَوله : ﴿ مَعَهُ ﴾ قَولان : أحدهما أنها بمعنى عَلَيه . والثاني بمعنى أُنزِل في زمانه . قال قَتادة : أمَّا نَصْرُه فقد سُبِقْتُم إليه ، ولكنَّ خَيْركم مَن آمنَ به ، واتَّبَعَ النُّورَ الذي أُنزِل معه)) .

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنهُم لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُم أَوْ مُعَذِّبُهُم عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُم وَلَعَلَّهُم يَتَّقُون ﴾ [الأعراف : ١٦٤] .

انقسمتْ بنو إسرائيل إلى ثلاث فِرَق : الأُولَى _ فِرْقة عاصية ارتكبت المَحظورَ (الاحتيال على اصطياد السمك يوم السَّبْت) . والثانية _ فِرْقة قامت بالنَّهْي عن المُنكَر واعتزال العُصاة. والثالثة_ فِرْقة سَكَتَتْ ، لَم تفعل المُنكَر ولَم تَنْهَ عنه .

وهذه الفِرقة الساكتة قالت للفِرقة المُنْكِرَة : لِمَ تَنْهَوْنَ هؤلاء العُصَاة عن المُنكَر، وتُرشدونهم ، وتُنبِّهونهم ، وأنتم تَعْلَمون أنهم هالكون ومُستحقون للعُقوبة الإلهية ، ولا فائدة مِن نُصحهم ومَوعظتهم وإرشادهم ونَهْيهم عن المُنكَر ؟ . قال الناهون عن المُنكَر : إنَّنا ننصحهم ونَعِظُهم ونُرشِدهم لِنُعْذَر عِند اللَّه ، بقيامنا بواجب الأمر بالمعروف، والنَّهْي عن المُنكر ، وتَكون الحُجَّة لنا يوم القيامة لا عَلَيْنا ، ولعلَّ هؤلاء العُصاة أن يتَّقوا اللَّهَ ، ويُقْلِعُوا عن الذَّنْب ، ويَعُودوا إلى الطاعة .

وفي تفسير القرطبي (٧/ ٢٧٠) : ((قال جُمهور المُفسِّرين : إنَّ بني إسرائيل افترقتْ ثلاث فِرَق ، وهو الظاهر من الضمائر في الآية . فِرْقة عَصَتْ ... وكانوا نَحْوًا من سبعين ألفًا ، وفِرقة نَهَتْ واعتزلتْ، وكانوا اثني عشر ألفًا، وفِرقة اعتزلتْ ولَم تَنْهَ ولَم تَعْصِ ، وأن هذه الطائفة قالت للنَّاهية : لِمَ تعظون قومًا _ تريد العاصية _ اللَّه مُهلِكهم أو مُعذِّبهم على غَلَبَة الظن ، وما عُهِدَ مِن فِعْل اللَّه تعالى حينئذ بالأُمَم العاصية ، فقالت الناهية : مَوْعظتنا مَعذرة إلى اللَّه لعلهم يتَّقون . وَلَوْ كانوا فِرقتين لقالت الناهية للعاصية : ولعلكم تتقون ، بالكاف، ثم اختلف بعد هذا، فقالت فِرقة : إن الطائفة التي لَم تَنْهَ ولَم تَعْصِ هَلكت مع العاصية عُقوبةً على ترك النَّهْي)) .

وعَن عِكْرمة قال : دخلتُ على ابن عباس _ رضي اللَّهُ عنهما _ وهو يقرأ في المُصْحَف قبل أن يذهب بَصَرُه وهو يبكي . فقلتُ : ما يُبكيك يا ابن عباس جعلني اللَّهُ فِداك ؟ ، قال : فقال : ((هل تعرف أَيْلَة ؟)) ، قُلتُ : وما أَيْلَة ؟ ، قال : ((قرية كان بها ناس من اليهود ، فَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهم الحِيتانَ يوم السَّبْت ، فكانت حيتانهم تأتيهم يوم سَبْتهم شُرَّعًا بيضاء سِمَان ، كأمثال المَخَاض بأفنائهم وأبنيائهم ، فإذا كان في غَير يوم السَّبْت لَم يجدوها ، ولَم يُدركوها ، إلا في مَشَقَّة ومئونة شديدة، فقال بعضُهم لبعض ، أوْ مَن قال ذلك مِنهم : لَعَلَّنا لَوْ أخذناها يوم السَّبْت ، وأكلناها في غَير يوم السبت ، ففعل ذلك أهل بَيت منهم ، فأخذوا فَشَوَوْا ، فوجد جيرانهم رِيح

الشِّوى ، فقالوا : واللَّهِ ما نرى إلا أصاب بني فُلان شيء ، فأخذها آخرون ، حتى فشا ذلك فيهم وكَثُرَ ، فافترقوا ثلاثًا : فِرقة أكلتْ ، وفِرقة نَهَتْ ، وفِرقة قالت : لِمَ تَعِظون قَوْمًا اللَّهُ مُهلِكهم أوْ مُعذِّبهم عذابًا شديدًا ؟ ، فقالت الفِرقة التي نَهَتْ : إنما نُحذِّركم غضبَ اللَّه وعِقابه أن يُصيبكم بِخَسْف ، أوْ قَذْف ، أوْ ببعض ما عِنده مِن العذاب ، واللَّهِ لأنبأتكم في مكان أنتم فيه ، وخرجوا مِن السُّور ، فَغَدَوْا عليه مِن الغد ، فضربوا باب السُّور ، فَلَم يُجِبْهم أحد ، فأَتَوْا بسبب ، فأسنده إلى السُّور ، ثُمَّ رَقِيَ مِنهم راقٍ على السُّور ، فقال : يا عِبادَ اللَّهِ قِرَدَةٌ ، واللَّهِ لها أذناب تَعَاوَى ، ثلاث مَرَّات ، ثُمَّ نزل مِن السُّور ، فَفَتَحَ السُّورَ ، فدخل الناسُ عليهم ، فعرفت القِرَدَةُ أنسابَها مِن الإنس ، ولَم يَعرِف الإنسُ أنسابَهم مِن القِرَدَة . قال : فيأتي القِرْدُ إلى نسيبه وقريبه من الإنس ، فَيَحْتَكُّ به ، ويَلْصَق ، ويقول الإنسان : أنتَ فُلان ، فيُشير برأسه أي نعم ، ويبكي ، وتأتي القِرْدَةُ إلى نسيبها وقريبها من الإنس فيقول لها : أنتِ فُلانة ، فتُشير برأسها أي نعم ، وتبكي ، فيقول لهم الإنس : أمَا إنَّا حذَّرناكم غَضَبَ اللَّهِ وعِقابَه أن يُصيبكم بِخَسْف، أوْ مَسْخ ، أوْ ببعض ما عِنده مِن العذاب)) . قال ابن عباس : ((فأسْمَعُ اللَّهُ أن يَقول : ﴿ أنجَيْنا الذينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وأخَذْنا الذينَ ظَلَمُوا بعذابٍ بَئيسٍ بِمَا كانوا يَفْسُقُون ﴾ [الأعراف : ١٦٥] ، فلا أدري ما فعلت الفِرْقة الثالثة)) . قال ابن عباس : ((فَكَم قد رَأيْنا مِن مُنكر ، فَلَم نَنْهَ عنه)) . قال عِكرمة : فقلتُ : ما ترى جعلني اللَّهُ فِداك ؟ . إنهم قد أنكَروا وكَرِهوا حِين قالوا : لِمَ تَعِظون قَوْمًا اللَّهُ مُهلِكهم أوْ مُعذِّبهم عذابًا شديدًا . فأعجبه قَوْلي ذلك ، وأَمَرَ لي بِبُرْدَيْن غليظَيْن ، فَكَسَانِيهما [١٨].

إنَّ الأمر بالمَعروف والنَّهْي عن المُنكَر هُما النظامان الأساسيان المُتكاملان ، لإصلاح الفرد والمجتمع ، وتجذير الصفات الحسنة ، وتكريس الأخلاق الحميدة ، ونَيل رضا اللَّه ، والابتعاد عن غضبه وعذابه وعُقوبته . وهذان النظامان يَدْفعان عَجَلَةَ التقدم إلى الأمام ، ويَعْملان على إنقاذ الناس ، وحمايتهم من الهلاك . ولا بُد مِن وجود الدَّعوة والإرشاد إلى الخير والحق ، كي تستقيم حالُ الإنسان ، ويَصْلُح المجتمعُ بكل تفاصيله . ولا يُمكن ترك الحَبْل على الغارب ، ولا يَجوز السَّماح لِكُل فرد أن يَعمل ما يَحلُو له ، فَعِندئذ سوف تنهار القِيَمُ الأخلاقية ، وتنتشر المفاسد ، ويَعُمُّ الضَّلال ، ويَغرِق الجميعُ بلا طَوْق نَجاة .

وأَيْلَة : قرية على شاطئ بَحْر القُلْزُم (البحر الأحمر) .

---

١٨ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٥٢) برقم (٣٢٥٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أنجَيْنَا الذينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وأخَذْنَا الذينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كانوا يَفْسُقُون ﴾ [الأعراف : ١٦٥] .

فلمَّا تَرَكَ العُصَاةُ نُصْحَ الناصحين القائمين بأمر الدَّعوة تَرْكَ الناسي للشَّيء . والنِّسيانُ يُطلَق على الساهي والعامد ، أي إنَّهم تَركوا مَوعظة الصُّلَحَاء عَن قَصْد وعَمْد ، وأعرَضوا عَن قَبول النصيحة إعراضًا كُلِّيًّا ، نَجَّى اللَّهُ الناهين عن الفساد في الأرض ، وأخذَ الظالمين العُصَاةَ الذين ارتكبوا المُنْكَرَ بعذاب شديد ، بسبب فِسْقهم وعِصيانهم لأمر اللَّه تعالى . لقد استحقوا العُقوبة المُؤلمة والعذاب الشديد ، أمَّا الذين قاموا بالدَّعوةِ ، وإسداءِ النُّصْحِ ، والنَّهْي عَن المُنْكَر، فقد أنجاهم اللَّهُ مُكافأةً لهم على تمسُّكهم بالدَّعوة بِغَض النَّظَر عن النتيجة .

وعلى العبد أن يقوم بواجب الدَّعوة في كُل زمان ومكان ، وفي كُل الأحوال ، ومع جميع أجناس البشر ، بالحِكمة والمَوعظة الحَسَنَة . وينبغي أن يَعمل جاهدًا في مجال الدَّعوة ، سَوَاءٌ قَبِلَه الناسُ أَمْ رَفَضُوه،فهو يُؤَدِّي عِبادةً للَّه تعالى، ولا ينتظر من الآخرين مديحًا أوْ شُكْرًا أوْ تقديرًا، ولا ينتظر جَزَاءً دُنيويًّا ، ولا نتائج على أرض الواقع . فالدَّعوةُ بحد ذاتها هي النَّجاح بِغَض النَّظَر عن قَبول الناس لها أوْ رَفْضهم . والعبدُ يقول كلمته بإخلاص ويَمْضِي ضِمن منهجية دَعَوِيَّة مُنضبطة بالقُرآنِ والسُّنَّةِ . واللَّهُ يَهْدِي مَن يَشاء ، ويُضِل مَن يَشاء . ويبقى المنهجُ الإلهيُّ في بَيان عُموم الدَّعوة : ﴿ فَذَكِّرْ إن نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ [الأعلى : ٩] .

والقائمُ بواجب الدَّعوة إنما يُخْلي ذِمَّته أمام اللَّه تعالى، وبالتالي يكون له عُذر قوي وحُجَّة ظاهرة يوم القيامة. وإذا اختارَ الصمتَ ، فإنه يأتي يوم القيامة عاصيًا آثِمًا ، بسبب صَمته المُخزِي، وتقاعسه عن الدَّعوة ، وتفريطه بأمانة التبليغ ، وتقصيره في نُصح الناس وإرشادهم وهدايتهم . والدَّعوةُ مُستمرة حتى يوم القيامة ، ولا يَخلو زمن مِن قائم للَّه بِحُجَّة .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ١٠٠) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه : فَلَمَّا تركت الطائفةُ التي اعتدتْ في السَّبْت ما أمرها اللَّهُ به مِن تَرْك الاعتداء فيه ، وضَيَّعَتْ ما وعظتها الطائفةُ الواعظة وذكَّرتها به مِن تحذيرها عُقوبةَ اللَّه على معصيتها ، فتقدَّمت على استحلال ما حرَّم اللَّهُ عليها ، أنجى اللَّهُ الذين يَنْهَوْنَ مِنهُم عَن السُّوء ، يعني عَن معصية اللَّه واستحلال حَرَمه ، ﴿ وأخَذْنَا الذينَ ظَلَمُوا ﴾ ، يَقول : وأخذَ اللَّهُ الذين اعْتَدَوْا في السَّبْت ، فاستحلُّوا فيه ما حرَّم اللَّهُ مِن صَيد السَّمك وأكله ، فأحلَّ بهم بأسَه ، وأهلكهم بِعَذَابٍ شديد بَئِيسٍ بِمَا كانوا يُخالفون أمرَ اللَّه ، فَيَخرُجون مِن طاعته إلى معصيته ، وذلك هو (الفِسْق))) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٣٧٥) : ((قَوله : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ ، أي : لمَّا تَرَكَ العُصَاةُ مِن أهل القرية ما ذَكَّرهم به الصالحون الناهون عن المُنكَر تَرْكَ الناسي للشَّيء ، المُعرِض عنه كُلِّية الإعراض ، ﴿ أنجَيْنَا الذينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ ﴾ ، أي : الذين فَعَلُوا النَّهْيَ ، وَلَم يَتركوه ، ﴿ وأخَذْنَا الذينَ ظَلَمُوا ﴾ ، وَهُم العُصَاة المُعْتَدُون في السَّبْت ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ ، أي : شديد . ... . ﴿ بِمَا كانوا يَفْسُقُون ﴾ ، أي : بسبب فِسْقهم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بالعُرْفِ وأعْرِضْ عَنِ الجاهلين ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

يَأمرُ اللَّهُ النبيَّ ﷺ بمَكَارم الأخلاق، ومحاسن الصِّفات ، وفضائل الأعمال ، والالتزام بالقواعد الأخلاقية في الشريعة الإسلامية . تَعَامَلْ مَعَ الناس يا مُحمَّد بِرِفْق ولِين وأدب ، وخُذ بالسَّهْل اليسير في مُعاملتهم ومُعاشرتهم ، وَأْمُرْ بالمعروف والأقوال الحَسَنة والأفعال الجميلة . والمَعروف هو كُل ما يَعرِفه الشَّرْع ، ويَعرِف حُسْنَه كُلُّ شخص . وأهْمِل السُّفَهَاءَ والجَهَلَةَ، ولا تلتفت إلَيهم، ولا تَعْبَأ بهم، ولا تُقابِلهم بِطَيْشهم وسَفَههم ، وتَجَاوَزْ عَن جَهْلهم وسُوء أخلاقهم ، واحْلُمْ عَلَيهم، وَاصْفَحْ عَنهُم ، معَ وُجوب الإنكار عليهم ، وفَضْح باطلهم ، وإظهار الحق .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢ / ٤٠٦) : ((﴿ وأعْرِضْ عَنِ الجاهلين ﴾ أي: إذا أَقَمْتَ الحُجَّةَ في أمرهم بالمعروف ، فَلَم يَفعلوا ، فَأعْرِضْ عَنهُم ، ولا تُمارهم ، ولا تُسافههم مُكافأةً لِمَا يَصْدُر مِنهُم مِن المِرَاء والسَّفَاهة)) .

والخِطَابُ الإلهيُّ ــ وإنْ كان مُوَجَّهًا للنبيِّ ﷺ ــ إلا أنه يَشمَل جميعَ الناس ، لأن العلاقات الاجتماعية مَبنية على الأخلاق الحَسَنة والاحترام المُتبادل. ويجب على الجميع التَّحَلِّي بالأخلاق والقِيَم والمبادئ .

والآيةُ تدل على أخلاق النبيِّ الحميدة ، ورِفعة مَنْزلته ، وعُلُوِّ مكانته ، وشَرَف صِفاته . فهو يتعامل مع الناس بأدب واحترام وتقدير . وهذه الصِّفات الحَسَنة تَنبُع مِن القُوَّة والقُدرة والعِزَّة ، ولَيس مِن الضَّعْف والاستكانة والذُّل .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٨٤) : ((﴿ خُذِ العَفْوَ ﴾ ، أي : خُذْ ما عفا لك مِن أفعال الناس ، وتَسَهَّلْ ، ولا تطلُب ما يَشُقُّ عَلَيهم مِن العَفْو ، الذي هو ضد الجَهْد (المَشَقَّة).أوْ: ﴿ خُذِ العَفْوَ ﴾ عَن المُذنبين ، أو الفَضْل وما يَسهُل مِن صَدَقَاتهم ، وذلك قَبل وُجوب الزكاة ، ﴿ وأْمُرْ بالعُرْفِ ﴾ المَعروف المُسْتَحْسَن مِن الأفعال ﴿ وأعْرِضْ عَنِ الجاهلين ﴾، فلا تُمارهم ، ولا تُكافئهم بِمِثْل أفعالهم . وهذه الآية جامعة لِمَكَارم الأخلاق ، آمِرة للرسول باستجماعها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ والمؤمنونَ والمؤمناتُ بَعْضُهُم أولياءُ بَعْضٍ يأمرونَ بالمَعروفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ ويُقيمونَ الصَّلاةَ ويُؤْتُونَ الزكاةَ ويُطيعونَ اللَّهَ ورَسُولَهُ أُولئكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التَّوبة : ٧١] .

المُجتمعُ الإيمانيُّ قويٌّ ومُتماسك ، والمؤمنون والمؤمنات الذين صدَّقوا بوَحدانية اللَّه ونُبُوَّةِ مُحَمَّد ﷺ، يَتناصرون ويَتعاونون ويَتعاضدون، قلوبهم مُتَّحدة في المَحَبَّة والتعاطف بسبب إيمانهم ، وهُم يَدٌ واحدة . يَنتمون إلى دِينٍ واحد ، وكَلِمتهم واحدة . تَجمعهم رابطةُ العقيدة الإسلامية ، ورابطةُ الإنسانية .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٣/ ٤٦٨): ((قَوله تعالى: ﴿ والمؤمنونَ والمؤمناتُ بَعْضُهُم أولياءُ بَعْضٍ ﴾ ، أي: بعضهم يُوالي بَعْضًا، فهُم يَد واحدة، يأمرون بالإيمان، ويَنْهَوْنَ عن الكُفْر)).

يَأمرون بعبادة اللَّه وطاعته وتَوحيده والتزام أوامره واجتناب نَوَاهيه . والمَعروفُ كُلُّ ما عَرَفَه الشَّرْع ولَم يُنكِره . ويَنْهَوْنَ عن الكُفر والشِّرْك والضَّلال والذُّنُوب والمعاصي . والمُنكَر ما يُنكِره الشَّرْعُ ولا يَعرِفه . ويُؤَدُّون الصَّلاةَ المَفروضةَ بشُروطها وأركانها على أكمل وَجْه ، ويُخرِجون الزكاةَ المَفروضة في أموالهم ، ويُساعدون الناسَ، ويُحسِنون إلَيهم. وتَمَّ تخصيص الصلاة والزكاة بالذِّكْر ، لأن الصلاة أعظم أركان الإسلام العملية ، والزَّكاة أعظم أركان الإسلام المالية . ويُطيعون اللَّهَ في أوامره ونَوَاهيه ، ويُطيعون رَسُولَه في سُنَنه، ولا يُفرِّقون بين طاعة اللَّه وطاعة رسوله ﷺ .

أُولئك سَيَرحمهم اللَّهُ ، ويُؤَيِّدهم ، ويَنصرهم ، وهذا وعدٌ إلهيٌّ واقع لا مَحَالة . و﴿ أُولئكَ ﴾ اسم إشارة للبعيد، يَدُل على عُلُوِّ مكانتهم الإيمانية ، وبُعد درجتهم في الفضل والشرف والمجد .

والسِّينُ في ﴿ سَيَرْحَمُهُمُ ﴾ مُؤَكِّدة للوُقوع ، وتُشير إلى وجود الرحمة حَتْمًا ، وفيها تأكيد للوَعْد الإلهيِّ .

﴿ إنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ غالبٌ لِكُل شيء ، وقاهر له ، لا يُعجِزه شيء ، ولا يُغَالَب ، ولا يُقْهَر . يُعِزُّ أولياءه ، ويُذِل أعداءه ، وقادر على الثواب والعِقاب . ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في أقواله وأفعاله ، يَضع الأشياء في نِصابها الصحيح ، وهو سُبحانَه مُنَزَّهٌ عن العبث والفَوضى .

وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٤١٥) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : وأمَّا المؤمنون والمؤمنات ، وهُم المُصَدِّقُون باللَّه ، ورسوله ، وآيات كتابه ، فإنَّ صِفتهم : أنَّ بعضهم أنصار بَعْض وأعوانهم ، ﴿ يأمرونَ بالمَعروفِ ﴾ ، يقول : يَأمرون الناسَ بالإيمان باللَّه ورسوله ، وبما جاء به مِن عِند اللَّه ، ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ ﴾ ، ﴿ ويُقيمونَ الصَّلاةَ ﴾ ، يقول : ويُؤَدُّون الصلاةَ المفروضة ، ﴿ ويُؤْتُونَ

الزكاةَ ﴾ ، يقول: ويُعْطُون الزكاةَ المَفروضة أهْلَها ، ﴿ ويُطيعونَ اللَّهَ ورَسُولَهُ ﴾ فيأتمرون لأمر اللَّه ورسوله ، ويَنْتَهُون عمَّا نهاهم عنه ، ﴿ أُولئكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ ، يقول : هؤلاء الذين هِذه صِفتهم الذين سَيَرحمهم اللَّهُ، فيُنقذهم مِن عذابه، ويُدخِلهم جَنَّته ، لا أهل النِّفاق والتكذيب باللَّه ورسوله، النَّاهون عن المعروف ، الآمِرُون بالمُنكَر ، القابضون أيديهم عن أداء حق اللَّه مِن أموالهم ، ﴿ إنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ يقول : إنَّ اللَّه ذُو عِزَّة في انتقامه مِمَّن انتقمَ مِن خَلْقه على معصيته وكُفره به، لا يَمنعه مِن الانتقام مِنه مانع ، ولا يَنصره مِنه ناصر ، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في انتقامه مِنهم ، وفي جميع أفعاله)) .

وقال ابن عبد البَر في التمهيد (١٩/ ٩٣) : ((والمُؤمنون في الجُملة، هكذا يَرِثُ بعضُهم بعضًا ، فَلَوْ أنَّ رَجُلًا مات لا وارث له ، لكان ميراثه للمسلمين ، وَلَوْ جَنى جِنايةً ، لَعَقَلَ عنه المسلمون ـ قاموا بتأدية جِنايته ـ ، ثُمَّ تكون وَلاية أقرب مِن وَلاية ، وقَرَابة أقرب مِن قَرَابة)) .

وقال الحِصْني في كِفاية الأخيار (١/ ٤٧٣) : ((لا يجوز أن يكون وَلِيُّ المُسلمة كافرًا . قال اللَّهُ تعالى:﴿ والمؤمنونَ والمؤمناتُ بَعْضُهُم أولياءُ بَعْضٍ ﴾ . فالكافر ليس بناصر لها لاختلاف الدِّين ، فلا يكون وَلِيًّا ، وكذا أيضًا لا يَجوز لمُسلم أن يكون وَلِيًّا لكافرة ، لِقَوْله تعالى : ﴿ يا أيها الذينَ آمَنوا لا تتَّخذوا اليهودَ والنصارى أولياءَ بَعْضُهُم أولياءُ بَعْضٍ ﴾ ، فَقَطَعَ سُبحانَه وتعالى المُوالاةَ بين المؤمنين والكافرين ، وهذا هو المذهب ، ويُؤْخَذ مِن الآية وَلاية الكافر للكافرة)) .

وعن أبي موسى ـ رضي اللَّهُ عنه ـ : عن النبيِّ ﷺ قال : ((المُؤمن للمؤمن كالبُنيان ، يَشُدُّ بَعْضُه بَعضًا)) ، وشَبَّكَ بين أصابعه [19].

إنَّ المؤمنين كِيانٌ واحد ، يَسُوده العدل والإخاء والرَّحمة والمَحَبَّة ، يَأمرون بالمَعروف ، ويَنْهَوْنَ عن المُنكَر ، ويُساعد بَعْضُهم بعضًا في الطاعات والمُباحات ، ويَستر أحدُهم على الآخَر ولا يَفضحه .

لقد بَنَى الإسلامُ مُجتمع المُسلمين على أساس مَتين مِن الأُخُوَّة والتعاون فيما بينهم ، وهُم إخْوَة في الدِّين ، فهذا يُنافي الحِقْدَ ، ويتعارض معَ العداوة والبَغضاء .

إنَّ المؤمنين في تعاونهم ، وتماسُك كُلِّ فَرْد مِنهُم بالآخَر ، كالبُنيان المَرصوص الذي لا يَقْوَى على البقاء إلا إذا تماسكت أجزاؤه لَبِنَةً لَبِنَةً ، فإذا تفكَّكتْ سَقَطَ وانهارَ ، وشبَّك النبيُّ ﷺ بَين أصابعه ، إشارةً إلى تعاضُد المؤمنين وتماسكهم وتعاونهم . وكما أنَّ أصابع اليَدَين مُتعددة ، وترجع

١٩ متفق عليه. البخاري (٢/ ٨٦٣) برقم (٢٣١٤) ، ومسلم (٤/ ١٩٩٩) برقم (٢٥٨٥) .

إلى أصل واحد ، ورَجُل واحد ، فكذلك المؤمنون وإنْ تعدَّدتْ أشخاصُهم ، فَهُم يَرجعون إلى أصل واحد ، وتَجمعهم أُخُوَّةُ الإيمان . وهذا التَّشبيك مِن النبيِّ ﷺ في هذا الحديث كان لمصلحة وفائدة، فإنَّ لمَّا شبَّه المؤمنين بالبُنيان الذي يَشُدُّ بَعْضُه بعضًا ، كان ذلك تَشبيهًا بالقَول، ثُمَّ أوضحه بالفِعْل ، فَشَبَّكَ أصابعَه بَعْضَها في بَعْض ، ليتأكَّد بذلك المِثَالُ الذي ضَرَبَه لَهُم بِقَوله ، ويَزداد بيانًا وظُهورًا .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ١٣٩) : (([الحديث صريح في] تعظيم حُقوق المسلمين بعضهم على بعض، وحَثِّهم على التَّرَاحُم والمُلاطَفَة والتَّعَاضُد ، في غَير إثم ولا مَكروه . وفيه جواز التَّشبيه ، وضَرْب الأمثال لتقريب المَعاني إلى الأفهام)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٦/ ٢٥٢) : (((المُؤمن للمُؤمن) اللام فيه للجِنس ، والمُراد بعض المؤمنين لبعض (كالبُنيان) أي الحائط ، لا يتقوَّى في أمر دِينه ودُنياه إلا بمعرفة أخيه ، كما أن بعض البُنيان يَقْوَى ببعضه (يشد بعضُه بعضًا) بيان لوجه التَّشبيه ، وبعضًا مَنصوب بنزع الخافض ، أو مفعول يشد . وتتمته كما في البخاري ، ثُمَّ شَبَّكَ بين أصابعه ، أي : يشد بعضُهم بعضًا مِثل هذا الشَّد ، فوقع التشبيك تشبيهًا لتعاضُد المؤمنين بعضهم ببعض ، كما أنَّ البُنيان المُمسِك بَعْضَه ببعض يشدُّ بعضُه بعضًا ، وذلك لأن أقواهم لهم رُكْن ، وضعيفهم مُستند لذلك الرُّكْن القوي ، فإذا والاه قَوِيَ بما بباطنه ، ذَكَرَه الحَرَالِّي . وفيه تفضيل الاجتماع على الانفراد ، ومدح الاتصال على الانفصال ، فإنَّ البُنيان إذا تَفَاصَلَ بَطَلَ ، وإذا اتَّصَلَ ثَبَتَ الانتفاعُ به بكل ما يُراد منه . (تنبيه) قال الراغب : إنَّه لمَّا صَعُبَ على كُل أحد أن يُحصِّل لِنَفْسِه أدنى ما يَحتاج إليه إلا بمُعاوَنة عِدَّة له، فلُقمة طعام لَوْ عَدَدْنا تعب تحصيلها مِن زَرْع وطَحْن وخَبْز وصُنَّاع آلاتها، لَصَعُبَ حَصْرُه، فلذلك قِيل: الإنسان مدنيٌّ بالطَّبْع ، ولا يُمكنه التفرُّد عن الجماعة بِعَيْشه ، بل يَفتقر بعضُهم لبعض في مصالح الدَّارَيْن ، وعلى ذلك نبَّه بهذا الحديث)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَلَوْلا كانَ مِنَ القُرونِ مِن قَبْلِكُم أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الفَسَادِ في الأرضِ إلا قَلِيلًا مِمَّنْ أنجَيْنَا مِنْهُمْ واتَّبَعَ الذينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وكانوا مُجْرِمِين ﴾ [هُود : ١١٦] .

فَهَلَّا كان مِن الأُمَم الماضية قَبْلَكم أصحابُ دِين وعَقْل وطاعة وفَضْل يَنْهَوْنَ عَن الكُفْر والضَّلال والمعاصي والذُّنوب ، ويَعِظُون الأشرارَ لِكَيلا يُفْسِدُوا في الأرض، والمُراد به النَّفْي، أي : ما كانَ فِيهم ذلك . و" لَوْلا " في الآية للتَّحضيض والتَّأسُّف والتَّفَجُّع ، والغرض هو التَّأسُّف على تِلك الأُمَم التي ضَلَّتْ طريقَ الهِدَاية فَهَلَكَتْ .

وإنَّمَا سُمِّيَ ﴿ بَقِيَّةٍ ﴾ ، لأنَّ الرَّجُل يَسْتبقي أفضلَ ما يُخرِجه. ومِنه يُقَال: فُلان مِن بَقِيَّة القَوم، أي : مِن خِيَارهم .

والآيةُ ﴿ إلا قَلِيلًا مِمَّنْ أنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ استثناء مُنقطع. والمعنى: لكنَّ قليلًا مِنهُم نَهَوْا عن الفساد فَنَجَوْا ، وهُم أتباع الأنبياء وأهل الحق والهُدى . وبعِبارة أُخرى ، لَم يَكُن مِن القُرون مَن يَنهَى عن الشِّرْك والمعاصي إلا قليلًا مِمَّن أنجى اللَّهُ مِن العذاب معَ الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ . و " مِن " في الآية للبيان لا للتَّبعيض ، لأنَّ جميع الناجين ناهون عن الفساد .

واتَّبَعَ الظالمون شَهَوَاتِهم ، وغَرِقُوا في الأموال واللذَّات ، وآثَرُوا مَتَاعَ الدُّنيا الفاني على نعيم الآخرة الباقي ، وكانوا قَوْمًا كافرين مُصِرِّين على الإجرام ، وهذا بيان لسبب استئصال الأُمَم المُهْلَكَة ، وهو انتشار الظُّلْم ، واتِّباع الهوى ، وتَرْك النَّهْي عن المُنكر معَ الكُفْر .

لقد اتَّبَعُوا معَ ظُلْمِهم ما أُتْرِفُوا فِيه معَ استدامة نعيمهم ، ورَفضوا ما يُنقِص مِن تَرَفِهم ولَذَّتهم .

والآيةُ تُوضِّح أنَّ سبب حُلول عذاب الاستئصال بهم أنَّه ما كانَ فِيهم مَن يَأمر بالمَعروف ، ويَنهى عن المُنكر .

لَم يَكُن في الأُمَم الماضية مَن يَنهى عن الفساد لذلك شملهم العذاب ، وتمَّت إبادتهم بسبب تَقصيرهم في الدَّعوة.لكنَّ قليلًا مِن تلك الأقوام الغابرة كانوا يَأمرون بالمَعروف ويَنْهَوْنَ عَن المُنكَر، (والنادر لا حُكْم له). وهؤلاء مَنَّ اللَّهُ عليهم بالنَّجاة من العذاب لأنهم التزموا بالدَّعوة قَوْلًا وفِعْلًا ، وقاموا بواجبهم الدَّعَوي على أكمل وجه سائرين على خُطَى الأنبياء _ عليهم الصَّلاة والسَّلام _ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٦١٠) : ((يَقول تعالى : فَهَلَّا وُجِدَ مِن القُرون الماضية بقايا مِن أهل الخَير يَنْهَوْنَ عمَّا كان يقع بَينهم مِن الشُّرور والمُنكَرات والفَسَاد في الأرض. وقَوله : ﴿ إلا قَلِيلًا ﴾ ، أي : قَدْ وُجِدَ مِنهُم مِن هذا الضَّرْب (النَّوْع) قليل ، لَم يَكُونوا كثيرًا ، وهُم الذين أنجاهم اللَّهُ عِند حُلولِ غَضَبِه وفَجْأةِ نِقْمته ، ولهذا أمرَ اللَّهُ تعالى هذه الأُمَّةَ الشريفة أن يكون فيها مَن يَأمر بالمَعروف ويَنهَى عَن المُنكَر ، كما قال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِنكُم أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الخَيْرِ ويَأمُرُونَ بالمَعروفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ المُنكرِ وأُولئكَ هُمُ المُفْلِحُون ﴾ . وفي الحديث: " إنَّ الناس إذا رَأَوا المُنْكَرَ فَلَم يُغَيِّروه ، أوشكَ أن يَعُمَّهُم اللَّهُ بِعِقَاب". ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلَوْلا كانَ مِنَ القُرونِ مِن قَبْلِكُم أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الفَسَادِ في الأرضِ إلا قَلِيلًا مِمَّنْ أنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ ، وقَوله : ﴿ واتَّبَعَ الذينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ ﴾ ، أي: استمروا على ما هُم عَلَيه مِن المعاصي والمُنكَرات، ولَم يَلتفتوا إلى إنكار أُولئك حَتَّى فَجَأهُم العذاب ﴿ وكانوا مُجْرِمِين ﴾)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٧٧٠): ((﴿ فَلَوْلا ﴾ ، أي: فَهَلَّا ﴿ كانَ مِنَ القُرونِ ﴾ الكائنة ﴿ مِن قَبْلِكُم أُولُو بَقِيَّةٍ ﴾ مِن الرَّأي والعَقْل والدِّين ﴿ يَنْهَوْنَ ﴾ قَوْمَهم ﴿ عَنِ الفَسَادِ في الأرضِ ﴾ ، ويَمنعونهم مِن ذلك لِكَوْنهم مِمَّن جَمَعَ اللَّهُ له بَين جَودةِ العَقْل وقُوَّةِ الدِّين . وفي هذا مِن التَّوبيخ للكُفَّار ما لا يَخفَى . والبَقِيَّةُ في الأصل لِمَا يَستبقيه الرَّجُل مِمَّا يُخرِجه، وهو لا يَسْتبقي إلا أجْوَدَه وأفْضَلَه ، فصار لفظ البَقِيَّة مَثَلًا في الجَودة . والاستثناء في ﴿ إلا قَلِيلًا ﴾ مُنقطع ، أي : لكنَّ قليلًا ﴿ مِمَّنْ أنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ يَنْهَوْنَ عَن الفساد في الأرض. وقِيل: هو مُتَّصِل ، لأنَّ في حرف التحضيض معنى النَّفْي ، فكأنَّه قال: ما كان في القُرون أُولُو بَقِيَّة يَنْهَوْنَ عن الفساد في الأرض إلا قليلًا مِمَّن أنْجَيْنا مِنهُم . و " مِن " في ﴿ مِمَّنْ أنجَيْنَا ﴾ بيانية ، لأنَّه لَم يَنْجُ إلا الناهون . قِيل : هؤلاء القليل هُم قَوْم يُونُس لِقَوله فِيمَا مَرَّ : ﴿ إلا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ [يُونُس : ٩٨]، وقِيل : هُم أتباع الأنبياء وأهل الحَق مِن الأُمَم على العُموم ، ﴿ واتَّبَعَ الذينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ ﴾ مَعطوف على مُقَدَّر يَقتضيه الكلام ، تقديره : إلا قَلِيلًا مِمَّن أنجينا مِنهُم نَهَوْا عن الفساد ، والمعنى : أنَّه اتَّبَعَ الذين ظَلَمُوا بسبب مُباشرتهم الفساد وتَركهم للنَّهْي عنه ما أُتْرِفُوا فِيه . والمُتْرَف : الذي أبطرته النِّعْمَة ، يُقَال : صبي مُتْرَف : مُنَعَّم البَدَن ، أي: صاروا تابعين للنِّعَم التي صاروا بها مُتْرَفِين مِن خِصْبِ العَيْش ، ورَفَاهِيَةِ الحال ، وسَعَةِ الرِّزْق ، وآثَرُوا ذلك على الاشتغال بأعمال الآخرة ، واستغرَقوا أعمارَهم في الشَّهَوات النَّفْسانية . وقِيل : المُراد بالذين ظَلَمُوا تاركو النَّهْي ، وَرُدَّ بأنَّه يَستلزم خُروج مُباشري الفساد عن الذين ظَلَمُوا ، وهُم أشد ظُلْمًا مِمَّن لَم يُبَاشِرْ ، وكان ذَنْبُه تَرْكَ النَّهْي. ... . وجُملة ﴿وكانوا مُجْرِمين ﴾ مُتَضَمِّنَة لبيان سبب إهلاكهم، وهي مَعطوفة على ﴿أُتْرِفُوا ﴾ أي : وكان هؤلاء الذين اتَّبَعُوا ما أُتْرِفُوا فيه مُجرمين . والإجرام : الآثام . والمعنى: إنهم أهل إجرام بسبب اتِّبَاعهم الشَّهَوات واشتغالهم بها عن الأُمور التي يَحِق الاشتغال بها . ويجوز أن تكون جُملة ﴿ وكانوا مُجْرِمِين ﴾ مَعطوفة على ﴿ واتَّبَعَ الذينَ ظَلَمُوا ﴾ ، أي : اتَّبَعُوا شَهَوَاتِهم ، وكانوا بذلك الاتِّباع مُجْرِمين)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّ اللَّهَ يَأمُرُ بالعَدْلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذِي القُربى ويَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنكَرِ والبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُم تَذَكَّرُون ﴾ [النَّحْل : ٩٠] . إنَّ اللَّه يَأمر بالعَدْل بين الناس ، والإحسان إلَيهم ، ومُواساة الأقارب ، وخصَّه بالذِّكْر اهتمامًا به . ويَنهى عَن كُل قبيح مِن قَول أوْ فِعْل . والفَحْشَاء: ما تناهى قُبْحُه كالشِّرْك والزِّنا . والمُنكَر : كُل ما تُنكِره الفِطْرَة . والبَغْي : الظُّلْم وتجاوز الحق والعدل . واللَّهُ يُؤَدِّبكم بما شرع لكم ، ويَعِظكم بالأمر والنَّهْي كَي تتَّعظوا .

لقد أمَرَت الآيةُ بمكارم الأخلاق ، ونَهَتْ عن مساوئها . أي : إنَّها أمَرَت بكُل خَير ، ونَهَتْ عن كُل شَر .

وعن عبد اللَّه بن مسعود _ رضي اللَّهُ عنه _ قال : ((إنَّ أجْمَعَ آيةٍ في القُرآن للخَير والشَّر في سُورة النَّحْل : ﴿ إنَّ اللَّهَ يَأمُرُ بالعَدْلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذِي القُربى ويَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنكَرِ والبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُم تَذَكَّرُون ﴾)) [٢٠].

هذا قَول صحيح ودقيق ، فما مِن خَير إلا وهو داخل تحت العدل والإحسان ، وما مِن شَر إلا وهو داخل تحت الفحشاء والمُنكَر والبَغْي . فكانت هذه الآية _ كما قال عنها الصحابي الجليل _ : أجْمَع آية في القُرآن للخَير والشَّر . لذلك يَقْرَؤُها كُل خطيب على المِنبَر في آخِر كُل خُطبة ، لِتَكُون عِظَةً جامعة وشاملة لكُل أمرٍ ونَهْي .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٨٣و٤٨٤): ((قَوله تعالى: ﴿ إنَّ اللَّهَ يَأمُرُ بالعَدْلِ ﴾ فِيه أربعة أقوال : أحدها أنَّه شهادة أن لا إلهَ إلا اللَّه ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . والثاني أنَّه الحَق ، رواه الضَّحاك عن ابن عباس . والثالث أنَّه استواء السَّريرة والعَلانية في العمل للَّه تعالى، قاله سُفيان بن عُيَينة . والرابع أنَّه القضاء بالحق، ذَكَرَه الماوردي. قال أبو سُلَيمان: العَدْل في كلام العرب:الإنصاف، وأعظم الإنصاف: الاعتراف للمُنعِم بِنِعْمَته. وفي المُراد بالإحسان خمسة أقوال: أحدها أنَّه أداء الفرائض،رواه أبي طلحة عن ابن عباس، والثاني العَفْو،رواه الضَّحاك عن ابن عباس. والثالث الإخلاص،رواه أبو صالح عن ابن عباس.والرابع أن تَعبُد اللَّهَ كأنَّك تَرَاه، رواه عطاء عن ابن عباس.والخامس أن تكون السَّريرة أحسن مِن العَلانية،قاله سُفيان بن عُيَينة.فأمَّا قَوله تعالى:﴿ وإيتاءِ ذِي القُربى ﴾ ، فالمُراد به صِلَة الأرحام. وفي الفَحشاء قَولان: أحدهما أنَّها الزِّنا، قاله ابن عباس. والثاني المعاصي، قاله مُقاتل. وفي المُنكَر أربعة أقوال:أحدها أنَّه الشِّرْك، قاله مقاتل. والثاني أنَّه ما لا يُعرَف في شريعة ولا سُنَّة.والثالث أنَّه ما وَعَدَ اللَّهُ عليه النار،ذَكَرَهما ابن السائب.والرابع أن تكون علانية الإنسان أحسن مِن سَريرته، قاله سُفيان بن عُيَينة. فأمَّا البَغْي فقال ابن عباس: هو الظُّلْم.قَوله تعالى: ﴿يَعِظُكُم ﴾، قال ابن عباس: يُؤَدِّبكم . و ﴿ تَذَكَّرُون ﴾ بمعنى: تتَّعظون. قال ابن مَسعود: هذه الآية أجْمَع آية في القُرآن لِخَير أوْ لِشَر.وقال الحَسَن: واللَّهِ ما ترك العدلُ والإحسانُ شيئًا مِن طاعة اللَّه إلا جَمَعَاه،ولا تركت الفَحشاءُ والمُنكَرُ والبَغْيُ شيئًا مِن معصية اللَّه إلا جَمَعُوه))

---

٢٠ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٨٨) برقم (٣٣٥٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ الذينَ إن مَكَّنَّاهُم في الأرضِ أقاموا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ وأَمَرُوا بالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنكَرِ ولِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُور ﴾ [الحَج : ٤١] .

الذين إنْ جَعَلَ اللَّهُ لهم سُلطانًا في الأرض وتَمَلُّكًا واستعلاءً ونَصْرًا على عَدُوِّهم ، عَبَدُوا اللَّهَ وَحْدَه لا شريك له ، وأقاموا الصَّلاةَ بحدودها ، وأَخْرَجُوا زَكاةَ أموالهم، ودَعَوا الناسَ إلى تَوحيد اللَّه وطاعته ، ونَهَوْا عَن الشِّرْك باللَّه ومعصيته . وهذا دليلٌ على وُجوب الأمر بالمعروف ، والنَّهْي عَن المُنكَر ، على مَن مَكَّنَه اللَّهُ في الأرض ، وأقْدَره على القِيَام بذلك . وفيه دليل على صِحَّة أمر الخُلَفاء الراشدين ، لأنَّ اللَّه لَمْ يُعْطِ التَّمكينَ ونَفَاذَ الأمر معَ السِّيرة العادلة غَيْرَهم مِن المُهاجرين.

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٢٩) : ((وفيه دليل على صِحَّة أمر الخُلَفاء الراشدين ، إذْ لَمْ يَستجمع ذلك غَيْرُهم مِن المهاجرين)) .

والآيةُ ﴿ الذينَ إن مَكَّنَّاهُم في الأرضِ ﴾ هي شَرْط اللَّه على الأُمَّة المُحَمَّدية الإسلامية .

وقال القُرطبي في تفسيره (١٢/ ٦٩) : ((وقال ابن عباس : المُراد المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان . وقال قَتادة : هُم أصحاب مُحَمَّد ﷺ . وقال عِكرمة : هُم أهل الصَّلَوَات الخَمْس . وقال الحسن وأبو العالية : هُم هذه الأُمَّة إذا فَتحَ اللَّهُ عليهم أقاموا الصلاة . وقال ابن أبي نَجِيح : يَعني الوُلاة . وقال الضَّحَّاك : هو شَرْط شَرَطَه اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ على مَن آتاه المُلْكَ ، وهذا حسن . قال سهل بن عبد اللَّه : الأمر بالمعروف والنَّهْي عن المُنكَر واجب على السُّلطان ، وعلى العُلَماء الذين يَأتونه ، وليس على الناس أن يَأمروا السُّلطانَ ، لأنَّ ذلك لازم له واجب عليه ، ولا يَأمروا العُلَمَاءَ ، فإنَّ الحُجَّة قد وَجَبَتْ عليهم)) .

ومَرجع الأُمُور إلى حُكْم اللَّه وتقديره ، وآخِرُ أُمُور الخَلْق ومصيرهم إلَيه ، أي إنَّ كُلَّ مُلْك يَبْطُل سِوى مُلْكِه ، فتصير الأُمُور إلَيه بلا مُنَازِع . والثوابُ والعِقابُ في الآخرة خاضعان للَّه وَحْدَه.

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٠٥) : ((قال ابن أبي حاتم : حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو الربيع الزَّهراني ، حدَّثنا حَمَّاد بن زَيد عن أيوب وهشام عن مُحَمَّد قال: قال عُثمان بن عَفَّان : فِينا نَزَلَتْ ﴿ الذينَ إن مَكَّنَّاهُم في الأرضِ أقاموا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ وأَمَرُوا بالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنكَرِ ﴾ ، فَأُخْرِجْنا مِن دِيارنا بِغَير حَق إلا أن قُلْنا : رَبُّنا اللَّهُ ، ثُمَّ مَكَّنَّا في الأرض ، فأقمنا الصلاةَ ، وآتَيْنا الزكاةَ ، وأمَرْنا بالمعروف ، ونَهَيْنا عَن المُنكَر ، ولِلَّهِ عاقبةُ الأُمُور ، فهي لي ولأصحابي . وقال أبو العالية : هُم أصحاب مُحَمَّد ﷺ . وقال الصَّبَّاح بن سَوَادة الكِنْدي : سمعتُ عمر بن عبد العزيز يَخْطُب وهو يقول : ﴿ الذينَ إن مَكَّنَّاهُم في الأرضِ ﴾ الآية ، ثُمَّ قال : ألا إنَّها لَيست على الوالي

وَحْدَه ، ولكنها على الوالي والمَولى عَلَيه ، ألا أُنَبِّئكم بما لكم على الوالي مِن ذلكم ، وبما للوالي عليكم مِنه ؟ ، إنَّ لكم على الوالي مِن ذلكم أن يُؤَاخذكم بِحُقوق اللَّه عليكم ، وأن يَأخذ لبعضكم مِن بَعْض ، وأن يَهْدِيَكم للتي هي أقْوَم ما استطاع ، وإنَّ عليكم من ذلك الطاعة غَير المَبزوزة ، ولا المُسْتَكْرَه بها ، ولا المُخَالِف سِرها علانيتها. وقال عطية العَوفي: هذه الآية كَقَوله: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصالحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرْضِ ﴾ [النُّور: ٥٥] ، وقَوله : ﴿ ولِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُور ﴾ كَقَوله تعالى: ﴿ وَالعَاقِبَةُ للمُتَّقِين ﴾ [الأعراف: ١٢٨].وقال زَيد بن أسْلَم: ﴿ ولِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُور ﴾ ، وعِند اللَّه ثَوَاب ما صَنَعُوا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا اركَعُوا واسْجُدوا واعْبُدُوا رَبَّكُم وافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُم تُفْلِحُون ﴾ [الحَج : ٧٧] .

يا أيُّها الذين صدَّقوا بوَحدانية اللَّه ، وأقَرُّوا بِنُبُوَّةِ مُحَمَّد ﷺ ، صَلُّوا للَّه بِكُلِّ إخلاص وخُشوع وطُمأنينة . وتَمَّ تَخصيص الرُّكوع والسُّجود بالذِّكْر لأنَّهما أعظم أركان الصلاة وأشرفها ، والصلاةُ هي عمودُ الدِّين ، وأشرفُ العبادات .

وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٩١) : ((وخُصَّ الرُّكوع والسُّجود تشريفًا للصلاة)) .

واعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ ، ولا تُشرِكوا بِه شَيئًا ، وامْتَثِلُوا أمْرَه ، وقُوموا بأداء كُلِّ العبادات والطاعات التي فَرَضَهَا اللَّهُ عَلَيكم ، وافْعَلوا الخَيْرَ الذي هو سبب لرضا اللَّه عنكم ، كَصِلَةِ الأرحام ، ومكارم الأخلاق ، وقِيام الليل ... إلخ . لكي تَفوزوا بالسَّعادةِ الدُّنيوية ، والنَّعيمِ الدائم في الآخرة ، أوْ: لِكَي تَسْعَدُوا وتَبْقُوا في الجَنَّة .

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ١٩١) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : يا أيُّها الذين صدَّقوا اللَّهَ ورسولَه ﴿ اركَعُوا ﴾ للَّهِ في صَلاتكم ، ﴿ واسْجُدوا ﴾ له فيها ، ﴿ واعْبُدُوا رَبَّكُم ﴾ ، يقول : وَذِلُّوا لِرَبِّكم ، واخضعوا له بالطاعة ، ﴿ وافْعَلُوا الخَيْرَ ﴾ الذي أمركم رَبُّكم بِفِعْله ، ﴿ لَعَلَّكُم تُفْلِحُون ﴾ يقول : لِتُفْلِحُوا بذلك ، فَتُدْرِكُوا به طَلِباتكم عِند رَبِّكم)) .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٣/ ١١٤) : ((وكان أوَّل ما أسْلَمُوا يُصَلُّون بلا ركوع وسجود، فأُمِرُوا أن تكون صلاتُهم بركوع وسُجود . وفيه دليل على أن الأعمال لَيست من الإيمان ، وأن هذه السَّجدة للصلاة لا للتِّلاوة ﴿واعْبُدوا رَبَّكُم ﴾ واقْصِدُوا بركوعكم وسُجودكم وَجْهَ اللَّه لا الصَّنَم ﴿ وافْعَلوا الخَيْرَ ﴾ . قِيل : لَمَّا كان للذِّكْر مَزِيَّة على غَيره من الطاعات ، دعا المؤمنين أوَّلًا إلى الصلاة التي هي ذِكْرٌ خالص لِقَوْلِه تعالى : ﴿ وأقِمِ الصلاةَ لِذِكْري ﴾ [طه : ١٤]. ثُمَّ إلى العبادة

بِغَير الصلاة كالصَّوم والحَج وغَيرهما، ثُمَّ عَمَّ الحَثُّ على سائر الخَيرات، وقِيل: أُريد به صِلَة الأرحام ومكارم الأخلاق . ﴿ لعلكم تُفْلِحُون ﴾ أي : كي تَفوزوا ، وافعلوا هذا كُلَّه وأنتم رَاجُونَ للفلاح ، غَير مُسْتَيْقِنِين ، ولا تَتَّكِلُوا على أعمالكم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فإِنَّهُ يَأمُرُ بالفَحْشَاءِ والمُنكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُم وَرَحْمَتُهُ ما زَكَى مِنكُم مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ولَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ واللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيم ﴾ [النُّور : ٢١] .

يا أَيُّهَا الذين صدَّقوا بِوَحدانيةِ اللَّهِ وأَقَرُّوا بِنُبُوَّةِ مُحَمَّد ﷺ ، لا تَتَّبِعُوا آثارَ الشَّيطانِ ، وسُبُلَه ، وطُرُقَ تَزيينه ، ولا تَسْلُكُوا مَسَالِكَه ، ولا تَقْتَدُوا به .

وقد شبَّه اللَّهُ سُلُوكَ طريق الشَّيطان، والسَّيْرَ في رِكَابه بِمَن يَتَتَبَّع خُطُوَاتِ الآخَر خُطْوَةً خُطْوَةً ، وهذه استعارة لطيفة تدلُّ على فصاحة القُرآن وحُسْنِ بيانه ودِقَّةِ تعبيره .

ومَن يَتَّبع عَمَلَ الشَّيطانِ وطُرُقَ تَزيينه ومَسَالِكَ ضَلاله ، فإِنَّ الشَّيطان يُضِلُّه ويُغويه ، لأنَّه يأمر بالفَحْشَاء (ما أفرطَ قُبْحُه) والمُنكَر (ما يُنكِره الشَّرْع وتَنْفِر عنه النُّفُوس) . وهذا تَوضيح إلهيٌّ لِعِلَّة النَّهْي عَن اتِّباع الشَّيطان .

وعن سعيد بن جُبَير : ... ، ﴿ ومَن يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيطانِ ﴾ يعني : تَزيين الشَّيطان ﴿ فإِنَّهُ يَأمُرُ بالفَحْشَاءِ ﴾ ، يعني : بالمَعَاصي ، ﴿ والمُنكَرِ ﴾ ما لا يُعرَف [٢١].

وَلَوْلا فضلُ اللَّه عليكم أيها المؤمنون ، ورحمته بكم ، بالتَّوفيق للتَّوبة الماحية للذُّنُوب ، وبِشَرْع الحُدود المُكفِّرة للخَطَايا ، ما تَطَهَّرَ أحد مِنكُم مِن الذُّنُوب والمعاصي ما دَامَ حَيًّا . وفي هذا رَدْع للعاقل عَن المعاصي ، وتَنبيه له على ضَرورة إصلاح نَفْسِه قبل أن يُباغته المَوت .

ولكنَّ اللَّه _ بفضله ورحمته _ يُطهِّر مَن يَشَاء بتَوفيقه للتَّوبة النَّصُوح ، وقَبولها مِنه . والمعنى : وقد شاءَ اللَّهُ أن يَتُوب عَلَيكم . والآيةُ تدلُّ على أنَّ تَزكية اللَّه للمؤمنين ، وتَطهيرهم مِن الذُّنُوب ، وهِدايتهم إلى الحَق ، إنَّما هي بفضل اللَّه ، ولَيس بأعمالهم .

واللَّهُ سميع لأقوالكم ، عليم بِنِيَّاتكم وضمائركم ، قد أحاطَ بجميع أُمُوركم ، وأحصاها عليكم، لِيُجَازِيَكُم بِكُل ذلك . وفيه حَث بالغ على الإخلاص ، وتَهييج عظيم لعباده التائبين ، ووعيد شديد لِمَن يَتَّبع الشَّيطانَ .

---

٢١ رواه الطبراني في الكبير(١٤٨/٢٣).وقال الهيثمي في المجمع(١٨٤/٧):((فيه ابن لَهيعة وفيه ضَعْف)).

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٦٨): ((قال تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ ، يعني طَرَائِقَه ومَسَالِكَه وما يَأمُر به ، ﴿ ومَن يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيطانِ فإنَّهُ يَأمُرُ بالفَحْشَاءِ والمُنكرِ ﴾ ، هذا تَنفير وتَحذير مِن ذلك بأفصح عِبارة ، وأبْلَغِها ، وأوْجَزِها ، وأحْسَنِها . قال عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿ خُطُواتِ الشَّيطانِ ﴾ عَمَله . وقال عِكرمة : نَزَغَاته. وقال قَتادة : كُلُّ مَعصية فهي مِن خُطُوات الشَّيطان . وقال أبو مِجْلَز : النُّذُور في المَعَاصي مِن خُطُوات الشَّيطان. وقال مَسروق : سأل رَجُلٌ ابنَ مسعود فقال : إنِّي حَرَّمْتُ أن آكُلَ طعامًا، وسمَّاه، فقال: هذا مِن نَزَغَات الشَّيطان ، كَفِّرْ عَن يَمينك وكُلْ . وقال الشَّعبي في رَجُل نَذَرَ ذَبْحَ ولده : هذا مِن نَزَغَات الشَّيطان ، وأفتاه أن يَذبَح كَبْشًا. وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي حدَّثنا حسَّان بن عبد اللَّه المِصْري حدَّثنا السَّرِيُّ بن يحيى عن سُليمان التَّيمي عن أبي رافع قال : غَضِبَتْ عليَّ امرأتي ، فقالت : هي يَوْمًا يهودية، ويَوْمًا نَصرانية، وكُل مَملوك لها حُر إنْ لَم تُطَلِّقْ امْرَأتَك ، فأتيتُ عبد اللَّه بن عُمر فقال : إنَّما هذه مِن نَزَغَات الشَّيطان ، وكذلك قالت زَينب بنت أُمِّ سَلَمَة، وهي يومئذ أفقه امرأة بالمدينة ، وأتَيْتُ عاصم بن عُمر ، فقال مِثْلَ ذلك . ثُمَّ قال تعالى: ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُم وَرَحْمَتُهُ ما زَكَى مِنكُم مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ ، أي : لَوْلا هُوَ يَرزق مَن يَشَاء التَّوْبَةَ والرُّجُوعَ إليه ، ويُزَكِّي النُّفُوسَ مِن شِركها وفُجورها ودَنَسها ، وما فيها من أخلاق رَدِيئة ، كُلٌّ بِحَسَبه ، لَمَا حَصَّلَ أحَدٌ لِنَفْسِه زَكاةً ولا خَيْرًا ، ﴿ ولَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾ ، أي : مِن خَلْقِه ، ويُضِل مَن يَشَاء ويُرْديه في مَهَالِك الضَّلال والغَي . وقَوله : ﴿ واللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ أي : سميع لأقوال عِباده ﴿ عَلِيم ﴾ بِمَن يَستحق مِنهُم الهُدى والضَّلال)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فإنَّ الذِّكرى تَنفعُ المؤمنين ﴾ [الذاريات : ٥٥] .

لا تَتْرُك الموعظةَ والنصيحةَ والإرشادَ والتَّوجيهَ والدَّعوةَ إلى الحَق يا مُحَمَّد ، وعِظْ ، فإنَّ الموعظة تَنفع أصحابَ القلوب المؤمنة . فَهُم يَستفيدون مِنها دُون غَيرهم ، لأنَّ قلوبَهم عامرةٌ بِنُور الإيمان. والمؤمنون وَحْدَهم هُم المنتفعون بالموعظة ، لذلك خُصُّوا بالذِّكر دُون غَيرهم .

ومُهِمَّةُ النبيِّ ﷺ تنحصر في الموعظة الحسنة، والتذكير، والدَّعوة . أمَّا القلوبُ فهي بيد اللَّه وَحْدَه ، وهو القادر على هِدايتها إلى الإيمان. والنبيُّ ﷺ لا يَقْدِر على إدخال الإيمان إلى القلوب.

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ١٣٠) : ((ثُمَّ لَمَّا أمَرَه اللَّهُ بالإعراض عنهم ، أمَرَه بأن لا يَترك التذكير والموعظة بالتي هي أحسن ، فقال : ﴿ وَذَكِّرْ فإنَّ الذِّكرى تَنفعُ المؤمنين ﴾ . قال الكلبي:المعنى: عِظْ بالقُرآن مَن آمنَ مِن قَومك، فإن الذكرى تَنفعهم. وقال مقاتل: عِظْ كُفارَ مكة،

فإن الذكرى تَنفع مَن كان في عِلْم اللَّه أنَّه يُؤْمِن. وقِيل: ذَكِّرْهم بالعُقوبة وأيامِ اللَّه. وخَصَّ المؤمنين بالتذكير ، لأنهم المنتفعون به)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إن نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ [الأعلى : ٩] [٢٢].

عِظْ يا مُحَمَّد الناسَ بالقُرآن ، إن نَفَعَت المَوعظة أوْ لَمْ تَنْفَعْ . وقَوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أمر مِن اللَّه لِنَبِيِّه ﷺ بتذكير جميع الناس .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٦٠١) : ((﴿ فَذَكِّرْ إن نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ ، أي : عِظْ يا مُحَمَّد الناسَ بما أوْحَيْنا إليك ، وأرْشِدْهم إلى سُبُل الخَير ، واهْدِهِم إلى شرائع الدِّين.قال الحسن : تَذكرة للمؤمن ، وحُجَّة على الكافر . قال الواحدي : إن نَفَعَتْ أوْ لَمْ تَنفع . ... . قال الجُرجاني : التذكيرُ واجب ، وإن لَم يَنفع ، فالمعنى : إن نفعت الذكرى أوْ لَم تنفع . وقِيل : إنَّه مَخصوص في قَوم بأعيانهم ، وقِيل : (إن) بمعنى (ما) ، أي : فَذَكِّرْ ما نَفَعَت الذكرى، لأنَّ الذكرى نافعة بِكُل حال . وقِيل : إنَّها بمعنى (قد) . وقِيل : إنَّها بمعنى (إذْ) . وما قاله الواحدي والجُرجاني أوْلَى، وقد سبقهما إلى القَول به الفَرَّاء والنَّحَّاس . قال الرازي : إنَّ قَوله : ﴿ إن نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ للتَّنبيه على أشرف الحَالَيْن ، وهو وُجود النَّفْع الذي لأجله شُرِعَت الذكرى)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٤٤) : ((وقَوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إن نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ ، أي: ذَكِّرْ حَيث تَنفَع التذكرة . ومِن هَهُنا يُؤْخَذ الأدب في نَشْر العِلْم ، فلا يَضعه عِند غَير أهله)) .

وفي صحيح البخاري (١/ ٥٩) عن عليِّ بن أبي طالب _ رضي اللَّهُ عنه _ قال : ((حَدِّثُوا الناسَ بما يَعرِفون ، أَتُحِبُّونَ أن يُكَذَّبَ اللَّهُ ورسولُه ؟!)) .

قُدرات الناس العقلية مُختلفة ، ومواهبهم مُتفاوتة ، وإمكانياتهم لَيست وَفق مُستوى واحد . لذلك يَختلفون في الفَهْم والاستيعاب والاستنتاج . وعلى العَالِم أن يُحدِّث الناسَ وَفْق مُستوياتهم العقلية (على قَدْر عُقولهم) ، وبما يَعرِفونه ويَفهَمونه ، ولا يُحدِّثهم بالعُلوم الصعبة ، ولا يُخاطبهم

---

٢٢ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٩ / ٩٠) : ((﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أي : عِظْ أهلَ مَكَّة ﴿ إن نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ . وفي (إن) ثلاثة أقوال : أحدها أنها الشَّرْطية ، وفي معنى الكلام قَولان : أحدهما إن قُبِلَت الذكرى ، قاله يحيى بن سَلَّام. والثاني إن نَفَعَتْ وإن لم تَنْفَعْ ، قاله علي بن أحمد النَّيسابوري . والثاني أنها بمعنى (قد) فتقديره : قد نَفَعَت الذكرى ، قاله مُقاتل . والثالث أنها بمعنى (ما) فتقديره : فَذَكِّرْ ما نَفَعَت الذِّكرى ، حكاه الماوردي .

بالكلام ذي المستوى العالي ، حتى لا يَدفعهم إلى تكذيب اللَّه ورسوله ﷺ ، فإنَّ الناس إذا سَمِعُوا شيئًا فوق مُستوى عقولهم ، سَارَعوا إلى تكذيبه وإنكاره . وقال العَيني في عُمدة القاري (٢/ ٢٠٥) : ((وذلك لأنَّ الشخص إذا سَمع ما لا يَفهمه ، وما لا يَتَصَوَّر إمْكَانَه ، يَعتقد استحالته جَهْلًا ، فلا يُصَدِّق وُجُودَه ، فإذا أُسْنِدَ إلى اللَّه ورسوله يَلْزَم تكذيبهما)) .

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ١٨١) : ((وهذا مَحمول على بَعْض العُلوم كَعِلْم الكلام ، أوْ ما لا يَستوي في فَهْمه جميع العَوَام ، فَحُكْم العَالِم أن يُحَدِّث بما يُفْهَم عنه ، ويُنْزِل كُلَّ إنسان مَنزلته ، واللَّه تعالى أعْلَم)) .

ويجب على العَالِم أن يكون ذا أُسلوب وَاضِح سَهْل ، ويُمكن أن يَجعل له مَجْلِسَيْن : مَجلِس للعَوَام ، يُوضِّح لهم القضايا السهلة ، التي لا تحتاج إلى قُدرات عقلية عالية . ومَجلِس للخَوَاص (طَلَبَة العِلْم) يَشرَح لهم القضايا الصعبة التي تحتاج إلى ذكاء وفِطْنة ومعرفة .

وقال الحافظ في الفتح (١/ ٢٢٥) : ((والمُراد بقَوله : " بِمَا يَعرِفون " أي: يَفهمون . وزاد آدم بن أبي إياس في كتاب العِلْم له عن عبد اللَّه بن داود عن معروف في آخِره: ودَعُوا ما يُنكِرون، أي يَشتبه عليهم فَهْمُه ، وكذا رواه أبو نُعَيم في المُستخرَج . وفيه دليل على أن المُتشابِه لا ينبغي أن يُذكَر عِند العَامَّة)) .

وفي صحيح مسلم (١/ ١١) : أن عبد اللَّه بن مسعود _ رضي اللَّهُ عنه _ قال : ((ما أنتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حديثًا لا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُم ، إلا كانَ لِبَعْضِهِم فِتنةً)) .

يجب على العُلَماء أن يُحدِّثوا الناسَ ويُخاطبوهم على قَدْر عُقولهم ، ووَفْق قُدراتهم على الفَهْم والاستيعاب ، والناسُ مُتفاوتون في العِلْم والذكاء والمعرفة والإدراك . والحديثُ معَ الناس إذا كانَ غامضًا أو مُبْهَمًا أو صَعْبًا أو فوق مُستوى عُقولهم ، فإنَّه _ أي الحديث _ سيكون سببًا في وُقوع الناس في الفِتنة ، وغرقهم في الشُّبُهَات والوساوس والهواجس ، ورُبَّما أعْرَضُوا عَن الحقِّ ، وتَركوا الدِّينَ ، بسبب صُعوبة الكلام ، وعَجْزهم عن فَهْمه واستيعابه . لذلك ، يجب مُخاطبة الناس حَسَب مُستواهم العقلي ، ووَفْق طاقتهم الاستيعابية .

وقال الحافظ في الفتح (١/ ٢٢٥) : ((ومِمَّن كَرِهَ التَّحديثَ ببَعْض دُون بَعْض ، أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخُرُوج على السُّلطان ، ومالك في أحاديث الصِّفَات ، وأبو يُوسُف في الغرائب، ومِن قَبْلهم أبو هُرَيرة ... في الجِرَابَيْن، وأنَّ المُرَاد ما يقع مِن الفِتَن ، ونَحْوه عن حُذَيفة . وعن الحسن أنَّه أنكرَ تحديثَ أنس للحَجَّاج بقِصَّة العُرَنِيِّين ، لأنَّه اتَّخذها وسيلةً إلى ما كان

يَعتمده مِن المُبالَغة في سَفْك الدِّماء بتأويله الواهي ، وضَابِط ذلك أن يكون ظاهرُ الحديث يُقَوِّي البِدعةَ، وظاهره في الأصل غَير مُرَاد ، فالإمساك عنه عِند مَن يُخشَى عليه الأخذ بظاهره مَطلوب ، واللَّهُ أعْلَم)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٥/ ٤٢٧) : (((ما أنتَ مُحدِّث قَوْمًا حديثًا لا تَبلُغه عُقُولُهُم إلا كان على بعضهم فِتنة) لأن العُقُول لا تحتمل إلا على قَدْر طاقتها ، فإنْ أُزِيدَ على العَقْل فوق ما يَحتمله، استحالَ الحالُ مِن الصلاح إلى الفساد. ومِن ثَمَّ وَرَدَ في خَبَر عِند الحكيم: إنَّ للَّهِ سِرًّا لَوْ أفشاه لَفَسَدَ التَّدبير، وللمُلُوك سِرًّا لَوْ أَفْشَوْهُ لَفَسَدَ مُلْكُهُم، وللأنبياء سِرًّا لَوْ أَفْشَوْهُ لَفَسَدَتْ نُبُوَّتُهم ، وللعُلَماء سِرًّا لَوْ أَفْشَوْهُ فَسَدَ عِلْمُهم ، فواجب على الحكيم والعَالِم النِّحرير الاقتداء بالمُصْطَفَى ﷺ في قَوله : " أَنزِلُوا الناسَ مَنَازِلَهُم " . وقد قال عيسى : لا تَضَعُوا الحِكمةَ في غَير أهلها فتَظلِمُوها،ولا تَمنعوها أهْلَها فتَظلِمُوهم ، وكُن كالطبيب الحَاذِق يَضعُ دَواءه حيث يَعلَم أنَّه يَنفَع. ومِن ثَمَّ قِيل: تَصَفَّحْ طُلابَ حِكَمِك ،كما تَتَصَفَّح خُطَّابَ حَرَمِك . وبهذا أَلَمَّ أبو تَمَّام حيث قال : وما أنا بالغَيران مِمَّن دُونَ جارتي إذا أنا لَم أُصبح غَيُورًا عَلى العِلْمِ

وقِيل لحكيم : ما بَالُكَ لا تُطْلِع كُلَّ أحد على حِكمة يَطلُبها مِنك ؟ ، فقال : اقتداء بالباري تعالى حيث قال:﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِم خَيْرًا لأَسْمَعَهُم وَلَوْ أَسْمَعَهُم لَتَوَلَّوا وَهُم مُعْرِضُون﴾ [الأنفال : ٢٣]، فَتَبَيَّنَ أنَّه مَنَعَهم لمَّا لَم يَكُنْ فِيهم خَير ، وبَيَّنَ أنَّ في إسماعهم ذلك مَفسدة لهم . قال حُجَّة الإسلام: ومِن ذلك ما أحدثه بعضُ المُتصوِّفة مِمَّن تركوا فَلاحتهم،وأَتَوْا بكلمات غَير مفهومة يُسَمُّونها الشَّطْح، فيها عبارات هائلة، وليس وراءها طائلة، أو تكون مفهومة، لكن لا يَقْدِر على تَفهيمها وإيرادها بعبارة تدلُّ على ضَميره، لِقِلَّة مُمارسته للعِلْم، وجَهْله بطُرُق التَّعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيقة، فلا فائدة لذلك، إلا أنَّه يُشوِّش القُلُوبَ، ويُدهِش العُقُولَ، ويُحيِّر الأذهانَ)) .

وقال ابن القَيِّم في رَوضة المُحبين (١/ ٣٠٦): ((ومِن الغَيْرَةِ الغَيْرَةُ على دَقيق العِلْم ، وما لا يُدركه فَهْم السامع أن يُذكَر له . ولهذه الغَيرة قال عليُّ بن أبي طالب رضي اللَّهُ عنه :" حَدِّثُوا الناسَ بما يَعرِفون ، أَتُحِبُّونَ أن يُكذَّب اللَّهُ ورسولُه ؟! ". وقال ابن مسعود رضي اللَّهُ عنه :" ما أنتَ بمُحدِّث قَوْمًا حديثًا لا تَبلُغه عُقُولُهُم ، إلا كان لِبَعضهم فِتنةً ". فالعَالِمُ يَغَارُ على عِلْمه أن يَبذُله لغَير أهله أو يَضعه في غَير مَحَلِّه،كما قال عِيسى بن مَرْيَم:"يا بني إسرائيل،لا تَمنعوا الحِكمةَ أهلَها فتَظلِمُوهم،ولا تَبذُلوها لغَير أهلها فتَظلِمُوها".وسُئِلَ ابن عباس رضي اللَّهُ عنهما عن تَفسير قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطَّلاق : ١٢] . فقال للسائل :

" وما يُؤَمِّنُكَ أنِّي إنْ أخبرتُكَ بتفسيرها كَفَرْتَ ؟ ، فإنَّك تُكذِّب بها ، وتكذيبُك بها كُفْرُك بها ". فالمَسألة الدَّقيقة اللطيفة التي تُبذَل لغَير أهلها ، كالمَرأة الحسناء التي تُهدَى إلى ضَرير مُقعَد ، كما قِيل : خَوْدٌ تُزَفُّ إلى ضَرِير مُقعَد . _ والخَوْدُ الشَّابَّة الجميلة الحَسَنَة الخُلُق _)) .

يجب على المَرْءِ أن يَنْثُر كلامَه المُفيدَ في القلوب الصافية ، ويضع التعاليمَ الشريفة في البيئة النَّقية لكي تَحصل الاستفادة . وبعبارة أُخرى ، عَلَيْه أن يَضع البُذورَ في التُّربة الصالحة . وإذا لَم يَفعل ذلك ، فقدْ أتعبَ نَفْسَه ، وأضاعَ وَقْتَه .

وقد وَرَدَ في إنجيل مَتَّى[٧: ٦] أن السَّيد المسيح قال : ((لا تُعطُوا ما هُوَ مُقدَّسٌ للكِلاب، ولا تَطرَحُوا جَواهِرَكُم أمامَ الخنازير ، لِكَي لا تَدُوسَها بأرجُلِها وتَنقلبَ عَلَيكم فَتُمَزِّقَكم)) .

وقال الإمام الشافعيُّ :

أأنثُرُ دُرًّا بَيْنَ سَارِحةِ النَّعَمِ ... وأنظِمُ مَنثورًا لِراعيةِ الغَنَمْ
لَعَمْري لَئِن ضُيِّعْتُ في شَرِّ بَلْدةٍ ... فَلَسْتُ مُضِيعًا فِيهِمُ غُرَرَ الكَلِمْ
لَئِن سَهَّلَ اللَّهُ العزيزُ بِلُطْفِهِ ... وصَادَفْتُ أهْلًا للعُلومِ وللحِكَمْ
بَثَثْتُ مُفيدًا واستَفَدْتُ وِدَادَهُم ... وإلا فَمَكْنُونٌ لَدَيَّ ومُكْتَتَمْ
ومَنْ مَنَحَ الجُهَّالَ عِلْمًا أضاعَهُ ... ومَنْ مَنَعَ المُسْتَوْجِبِينَ فَقَدْ ظَلَمْ [٢٣]

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ١٨١) : ((إنَّ العَالِم إذا قَصَدَ كِتمانَ العِلْم عَصَى ، وإذا لَم يَقْصِدْه لَم يَلْزَمْه التبليغ إذا عَرَفَ أنَّه مَعَ غَيره . وأمَّا مَن سُئِلَ فقد وَجَبَ عليه التَّبليغ، ... . أمَا أنَّه لا يجوز تعليم الكافر القُرآن والعِلْم حَتَّى يُسْلِمَ ، وكذلك لا يجوز تعليم المُبتدع الجِدال والحِجَاج لِيُجَادِلَ به أهلَ الحق ، ولا يُعَلِّم الخَصْم على خَصْمه حُجَّة يَقطَع بها مَالَه ، ولا السُّلطان تأويلًا يتطرَّق به إلى مَكَاره الرَّعِيَّة ، ولا يَنشُر الرُّخَصَ في السُّفَهَاء ، فَيَجعلوا ذلك طريقًا إلى ارتكابِ المَحظورات ، وتَرْكِ الواجبات ، ونَحْو ذلك)) .

---

٢٣ سبب هذه الأبيات أن الإمام الشافعيَّ _ رحمه اللَّهُ تعالى _ لَمَّا دخلَ مِصْرَ ، أتاه أصحابُ الإمام مالك _ رحمه اللَّهُ تعالى _ ، وأَقْبَلوا عَلَيه ، فلمَّا رَأَوْهُ يُخالِف مالكًا ، تنكَّروا له ، وجَفَوْهُ . انظر تاريخ الإسلام (١/ ١٥٦٩) ، وحِلْية الأولياء (٩/ ١٥٣) .

الدُّر : دُرَر العِلْم / النَّعَم : الإبِل / نثر المنظوم : الشِّعْر / غُرَر الكَلِم : الحِكَم الرفيعة / المُسْتَوْجِبِين : الذين يَستحقون التَّعَلُّم .

ثانيًا: خُطورة التقصير في الدَّعوة

قالَ اللَّهُ تعالى:﴿إنَّ الذينَ يَكْتُمُونَ ما أنزلَ اللَّهُ مِنَ الكِتابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قليلًا أُولئكَ ما يأكُلُونَ في بُطُونِهِم إلا النَّارَ ولا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامةِ ولا يُزَكِّيهِم وَلَهُم عذابٌ أليم ﴾ [البقرة: ١٧٤].

نزلت هذه الآية في عُلَماء اليهود وزُعَمائهم، كانوا يَأخذون مِن العَوَام والدَّهماء والرَّعاع ، الأموالَ والهدايا، وكانوا يَرْجُون أن يَكون النبيُّ المَبعوث في آخِرِ الزَّمان مِنهُم، أي : مِن بَني إسرائيل،فلمَّا بُعِثَ مُحمَّد ﷺ مِن العرب، خافوا أن يَفقِدوا الأموالَ والهدايا والامتيازات والمكاسب الشخصية والمصالح المادية،ويَخسَروا زعامتهم ورئاستهم،فقاموا بتغيير صِفَة النبيِّ مُحمَّدﷺ الثابتة في التَّوراة . فلمَّا نَظَرَ العَوَام في التَّوراة ، لَم يَجِدُوا صِفَةَ النبيِّ مُحمَّد ﷺ ، فَكَفَرُوا به ، ولَم يتَّبعوه.

إنَّ الذينَ يُخْفُون وَصْفَ النبيِّ مُحمَّد ﷺ الثابت في التَّوراة ، وهُم عُلَماء اليهود ، ويأخذون بالمَكتوم مِن سِفْلتهم عِوَضًا حقيرًا ، وعَرَضًا تافهًا مِن حُطَام الدُّنيا الفاني . وسَمَّاه قليلًا لانقطاع مُدَّته ، وسُوء عاقبته ، إنَّما يَأكلون في بُطونهم نارًا مُتأجِّجة يوم القِيامة. وسَمَّى ما أكَلُوه نارًا لأنَّه يَؤُول بهم إلَيها . ولا يُكلِّمهم اللَّهُ بالرَّحمة والرِّضا ، كما يُكلِّم المؤمنين، بَل يُكلِّمهم بالغَضَب والتَّوبيخ والتَّقريع ، كقَوله تعالى: ﴿اخْسَؤوا فِيها ولا تُكَلِّمُون﴾ [المؤمنون: ١٠٨]،ولا يُطهِّرهم اللَّهُ مِن دَنَس الذُّنُوب، ولا يُثْني عَلَيهم ، ولهم عذاب مُؤلِم مُوجِع ، وهو عذاب جَهَنَّم الشديد .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٧٦): ((قَوله تعالى: ﴿إنَّ الذينَ يَكْتُمُونَ ما أنزلَ اللَّهُ مِنَ الكِتابِ ﴾ . قال ابن عباس: نزلت في اليهود ، كَتَمُوا اسمَ النبيِّ ﷺ ، وغَيَّرُوه في كِتابهم . والثَّمَنُ القليل ما يُصيبونه مِن أتْبَاعهم مِن الدُّنيا ، ﴿ أولئكَ ما يأكُلونَ في بُطُونِهِم إلا النَّارَ ﴾ . قال الزَّجَّاج : معناه : إنَّ الذين يَأكلونه يُعذَّبون به ، فكأنَّهم يأكلون النارَ ، ﴿ ولا يُكَلِّمُهُمُ ﴾ . هذا دليل على أنَّ اللَّه لا يُكلِّم الكُفَّارَ ولا يُحاسبهم . قَوله تعالى : ﴿ ولا يُزَكِّيهِم ﴾ ، فِيه ثلاثة أقوال : أحدها لا يُزكِّي أعمالَهم ، قاله مُقاتل . والثاني لا يُثْني عَلَيهم ، قاله الزَّجَّاج . والثالث لا يُطهِّرهم مِن دَنَس كُفرهم وذُنوبهم ، قاله ابن جرير)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٨٠): ((يقول تعالى : ﴿إنَّ الذينَ يَكْتُمُونَ ما أنزلَ اللَّهُ مِنَ الكِتابِ ﴾ ، يَعني : اليهود الذين كَتَمُوا صِفَةَ مُحمَّد ﷺ في كُتُبهم التي بأيديهم ، مِمَّا تَشهَد له بالرِّسالة والنُّبُوَّة ، فكَتَمُوا ذلك لِئلا تَذهب رِياستهم ، وما كانوا يَأخذونه مِن العرب من الهدايا والتُّحَف على تعظيمهم إيَّاهم ، فَخَشُوا _ لَعَنَهُم اللَّهُ _ إنْ أظهَروا ذلك أن يتَّبعه الناس ويَتركوهم ،

فكتموا ذلك إبقاءً على ما كان يَحصُل لهم مِن ذلك ، وهو نَزْر يسير ، فباعوا أنفسهم بذلك ، واعتاضوا عن الهُدى واتّباع الحق وتصديق الرسول والإيمان بما جاء عن اللّه ، بذلك النَّزْر اليسير، فخابوا وخَسِرُوا في الدُّنيا والآخِرة . أمَّا في الدُّنيا ، فإنَّ اللّه أظهرَ لعباده صِدْقَ رسوله بما نَصَبَه وجعله معه مِن الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات ، فَصَدَّقَه الذين كانوا يَخافون أن يتّبعوه ، وصاروا عَوْنًا له على قِتالهم ، وباؤوا بغضب على غضب ، وذَمَّهم اللّهُ في كِتابه في غَير مَوضع ، فَمِن ذلك هذه الآية الكريمة:﴿إنَّ الذينَ يَكْتُمُونَ ما أنزلَ اللّهُ مِنَ الكِتابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قليلًا ﴾ وهو عَرَض الحياة الدُّنيا ، ﴿ أُولئكَ ما يأكُلونَ في بُطُونِهِم إلا النَّارَ ﴾ ، أي : إنَّما يَأكلون ما يَأكلونه في مُقَابَلَة كِتمان الحق نارًا تَأَجَّج في بُطُونهم يَوم القِيامة ... . وقَوله : ﴿ ولا يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ القِيَامةِ ولا يُزَكِّيهِم وَلَهُم عذابٌ أليم ﴾ ، وذلك لأنَّه تعالى غَضْبان عَلَيهم ، لأنَّهم كَتَمُوا وقد عَلِمُوا ، فاستحقوا الغضب ، فلا يَنظُر إليهم ، ولا يُزَكِّيهم ، أي: يُثْني عليهم ويَمدحهم، بَل يُعذِّبهم عذابًا أليمًا)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٤/ ٥٤١) : ((وقد تظافرت النُّصُوص القُرآنية على ذَم كَاتِم العِلْم : ﴿إنَّ الذينَ يَكْتُمُونَ ما أنزلَ اللّهُ مِنَ الكِتابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قليلًا أُولئكَ ما يأكُلونَ في بُطُونِهِم إلا النَّارَ ﴾ . ﴿ وإذا خلا بعضُهم إلى بَعْض قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُم لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُم ﴾ [البقرة : ٧٦] ، فَوَصَفَ المَغضوبَ عَلَيهم بأنهم يَكتُمون العِلْمَ تَارَةً بُخْلًا به ، وتَارَةً اعتياضًا عَن إظهاره بالدُّنيا ، وتَارَةً خَوْفًا أن يُحْتَجَّ عَلَيهم بما أظْهَرُوه مِنه. وهذا قد يُبْتَلَى به طوائف مِن المُنتسبين للعِلْم ، فإنَّه تَارَةً يَكتُمونه بُخْلًا به ، وتَارَةً كَرَاهَة أن يَنال غَيْرُهم مِن الفَضْل والتَّقَدُّم والوَجَاهَة ما نالوه ، وتَارَةً اعتياضًا برئاسة أوْ مال ، فَيَخاف من إظهاره انتقاصَ رُتبته، وتَارَةً يكون قد خَالَفَ غَيْرَه في مسألة ، أو اعتزى (انتسب) إلى طائفة قد خُولفت في مَسألة ، فيَكتُم مِن العِلْم ما فِيه حُجَّة لِمُخَالِفه،وإنْ لَم يتيقَّن أن مُخَالِفه مُبطِل،وذلك كُلُّه مَذموم وفاعله مَطرود مِن منازل الأبرار ومَقَامات الأخيار، مُسْتَوْجِب للعنة في هذه الدَّار ودارِ القَرَار)) .

وقالَ اللّهُ تعالى : ﴿ وإذْ أخَذَ اللّهُ مِيثاقَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ للنَّاسِ ولا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِم واشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قليلًا فَبِئْسَ ما يَشْتَرُون ﴾ [آل عِمران : ١٨٧] [٢٤].

---

٢٤ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٢١) : ((قَوله تعالى : ﴿ وإذْ أخَذَ اللّهُ مِيثاقَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ ﴾ ، فِيهم ثلاثة أقوال: أحدها أنهم اليهود، قاله ابن عباس وابن جُبَير والسُّدي ومُقاتل . فعلى=

واذكُرْ يا مُحمَّد العَهْدَ المُؤكَّد على عُلَماء اليهود في التَّوراة، أن يُظهِروا ما فِيها مِن أحكام اللَّه وشرائعه وصِفَة النبيِّ مُحمَّد ﷺ ، ولا يُخفُوا مِن ذلك شيئًا ، فأهْمَلُوا العَهْدَ المُؤكَّد (المِيثاق) ، وطَرَحُوه وراء ظُهورهم ، وأعْرضَوا عنه ، ولَم يَعْمَلُوا به ، وأخذوا بَدَلَهُ شيئًا تافهًا مِن حُطَام الدُّنيا الزائل ، مِن العَوَام والجُهَّال والرَّعاع ، مُستغلين زعامتهم الدينية ومكانتهم العِلْمية ، فَكَتَمُوا الحَقَّ ، حِرْصًا على مكاسبهم المادية ومصالحهم الشخصية ، فَبِئْسَ هذا الشِّراء ، وخَابُوا وخَسِرُوا وهَلَكُوا.

هذه الآية تُشير إلى ضَرورة نَشْر العِلْم النافع ، والأخذ بأيدي الناس إلى الهِداية ، وإرشادهم إلى الصِّراط المستقيم . وفيها بيانٌ لخُطُورة كِتمان العِلْم ، وحَجْبه عن الآخرين بسبب منافع دُنيوية دَنيئة . ويجب على العُلَماء أن يكونوا حُرَّاسَ الشريعة ، ويَنشروا أحكامَها كاملةً بدون زيادة ، ولا نُقصان ، ويُعلِّموا الناسَ تعاليمَ الدِّين ، والأخلاقَ الفاضلة ، والسُّلوكياتِ الاجتماعية الطَّيِّبة . وكُل ذلك وَفْق المَنهج الإلهيِّ في الدَّعوة والتَّبليغ . وهذا يتمُّ بالسَّير على خُطَى الأنبياء أعظمِ الدُّعاةِ ، والاقتداء بأسلوبهم المَعصوم في البَيان وإرشادِ الآخَرين .

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٧٩) في تفسير الآية : ((هذا تَوبيخ مِن اللَّه ، وتهديد لأهل الكِتاب الذينَ أخذَ اللَّهُ عَلَيهم العَهْدَ على ألسنة الأنبياء أن يُؤْمِنُوا بمُحمَّد ﷺ، وأن يُنَوِّهوا بذِكْره في الناس ، لِيَكُونوا على أُهْبَة مِن أمْرِه ، فإذا أرسله اللَّهُ تَابَعُوه ، فَكَتَمُوا ذلك ، وتعوَّضوا عمَّا وُعِدُوا عَلَيه مِن الخَير في الدُّنيا والآخِرة بالدُّون الطفيف ، والحَظ الدُّنيويِّ السَّخيف ، فَبِئْسَت

=هذا الكتاب التَّوراة. والثاني أنهم اليهود والنصارى، والكتاب التَّوراة والإنجيل. والثالث أنهم جميع العُلَماء، فيكون الكتاب اسم جِنس . قَوله تعالى : ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ للنَّاسِ ﴾ ، ... . وفي هاء الكِنَاية في " لَتُبَيِّنُنَّهُ " ، و" تَكْتُمُونَهُ " قَولان : أحدهما أنها ترجع إلى النبيِّ محمَّد ﷺ ، وهذا قَول مَن قال: هُم اليَهُود . والثاني أنَّها ترجع إلى الكِتَاب ، قاله الحسن وقَتادة ، وهو أصح ، لأن الكِتاب أقرب المذكورين ، ولأنَّ مِن ضَرُورة تَبيينهم ما فيه ، إظهار صِفَة محمَّد ﷺ ، وهذا قَول مَن ذَهَبَ إلى أنَّه عام في كُل كِتاب . وقال عليُّ ابن أبي طالب ــ رضي اللَّهُ عنه ــ : ما أخذَ اللَّهُ على أهل الجهل أن يَتَعَلَّمُوا ، حَتَّى أخذَ على أهل العِلْم أن يُعلِّموا . قَوله تعالى : ﴿ فَنَبَذُوهُ ﴾ . قال الزَّجاج : أي رَمَوْا به ، يُقَال للذي يَطرَح الشيءَ ولا يَعبأ به ، قد جَعلت هذا الأمر بظَهْر ... . وفي هاء " فنبذوه " قَولان : أحدهما أنها تعود إلى الميثاق ، والثاني إلى الكتاب. قَوله تعالى : ﴿ واشْتَرَوْا بِهِ ﴾ ، يعني : اسْتَبْدَلُوا بما أخذَ اللَّهُ عَلَيهم القِيامَ به وَوَعَدَهُم عَلَيه الجنَّةَ ﴿ ثَمَنًا قليلًا ﴾ ، أي: عَرَضًا يسيرًا مِن الدُّنيا)) .

الصَّفقة صَفْقتهم ، وبِئْسَت البَيعة بَيعتهم . وفي هذا تحذير للعُلَماء أن يَسلُكوا مَسْلَكَهُم ، فيُصيبهم ما أصابهم ، ويَسلُك بهم مسالكهم ، فعلى العُلَماء أن يَبذُلوا ما بأيديهم مِن العِلْم النافع الدَّال على العمل الصالح ، ولا يَكْتُمُوا مِنه شَيْئًا)) .

وقال القُرطبي في تفسيره (٤/ ٢٩٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ وإذْ أخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ ﴾ ، هذا مُتَّصل بذِكْر اليَهُود ، فإنَّهُم أُمِرُوا بالإيمان بمُحمَّد عليه السلام ، وبيان أمره ، فكَتَمُوا نَعْتَه ، فالآية تَوبيخ لهم ، ثُمَّ مَعَ ذلك هو خَبَر عام لهم ولغَيرهم . قال الحَسَن وقَتَادة : هي في كُلِّ مَن أُوتِيَ عِلْمَ شيء مِن الكتاب ، فَمَن عَلِمَ شيئًا فَلْيُعَلِّمْهُ ، وإيَّاكم وكِتمان العِلْم فإنَّه هَلَكَة . وقال مُحمَّد بن كَعْب : لا يَحِلُّ لِعَالِم أن يَسكُت على عِلْمِه ، ولا للجاهل أن يَسكُت على جَهْله . قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وإذْ أخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ ﴾ ، وقال : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إن كُنتم لا تَعْلَمُون ﴾ [الأنبياء : ٧] . وقال أبو هُرَيرة : لَوْلا ما أخذَ اللَّهُ على أهل الكتاب ما حَدَّثْتُكُم بشَيء ، ثُمَّ تلا هذه الآية : ﴿ وإذْ أخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ ﴾ . وقال الحَسَن بن عُمَارة : أتَيْتُ الزُّهري بعدما ترك الحديث ، فألْفَيْتُه على بابه ، فقلتُ : إنْ رَأيْتَ أن تُحدِّثني، فقال : أمَا عَلِمْتَ أنِّي تَركتُ الحديث ؟ ، فقلتُ : إمَّا أن تُحدِّثني وإمَّا أن أُحدِّثك . قال: حَدِّثْني . قُلتُ : حَدَّثَني الحَكَم بن عُتَيبة عن يحيى بن الجَزَّار ، قال: سَمِعْتُ عليَّ بن أبي طالب يقول : ما أخذَ اللَّهُ على الجاهلين أن يَتَعَلَّمُوا حَتَّى أخذَ على العُلَماء أن يُعلِّموا . قال : فَحَدَّثَني أربعين حديثًا . الهَاء في قَوله : ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ للنَّاسِ ﴾ ، تَرجِع إلى مُحمَّد ﷺ ، وإنْ لَم يَجْرِ له ذِكْر. وقِيل: تَرجع إلى الكِتاب، ويَدخل فيه بيان أمر النبيِّ ﷺ ، لأنَّه في الكِتاب، وقال: ﴿ولا تَكْتُمُونَهُ ﴾ ولَم يَقُلْ : تَكْتُمُنَّهُ ، لأنه في معنى الحال ، أي : لَتُبَيِّنُنَّهُ غير كَاتِمِين ... . قَوله : ﴿ فَنَبَذُوهُ ﴾ عائدًا على الناس الذين بَيَّنَ لهم الأنبياء)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٥ / ٤٠٦) : ((فعلى العُلَماء أن لا يَبْخَلُوا بتَعليم ما يُحْسِنُون ، وأن لا يَمتنعوا مِن إفادة ما يَعْلَمُون ، فإنَّ البُخْل لُؤم وظُلْم ، والمَنْع حَسَد وإثم ، وكَيف يَسُوغ لهم المَنع بما مُنِحُوه جُودًا مِن غَير بُخْل ، وأُوتُوه عَفْوًا مِن غَير بَذل ، أَمْ كَيف يَجُوز لهم الشُّح بما إنْ بَذَلُوه زادوا نَمَاءً ، وإنْ كَتَمُوه تَنَاقَصَ وَوَهَى ، وَلَو اسْتَنَّ بذلك مَن تَقَدَّمَ لَمَا وَصَلَ العِلْمُ إلَيهم، وانقرض بانقراضهم، وصاروا على مَرِّ الأيام جُهَّالًا، وتَقَلُّبِ الأحوال وتَنَاقُصِها أرذالًا . ﴿ وإذْ أخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ للنَّاسِ ولا تَكْتُمُونَهُ ﴾ . وما أحسنَ ما قال بعضُهم :

أَفِدِ العِلْمَ ولا تَبْخَلْ بِهِ وإلى عِلْمِكَ عِلْمًا فَاسْتَزِدْ
مَن يُفِدْهُ يَجْزِهِ اللَّهُ بِهِ وسَيُغْني اللَّهُ عَمَّنْ لَمْ يُفِدْ

قال الراغب : إفادة العِلْم مِن وَجْه صِناعة ، ومِن وَجْه عِبادة ، وَمِن وَجْه خِلافة اللَّه، فإنَّ اللَّه تعالى مع استخلافه ، قد فَتَحَ على قَلْبه العِلْمَ ، الذي هو أخصُّ صِفَاته تعالى ، فهو خازن لأجل خزائنه ، وقد أَذِنَ اللَّهُ له في الإنفاق عَلى كُل أحد مِمَّن لا يَفُوته الإنفاق عَلَيه ، وكُلَّما كان إنفاقُه على ما يُحِب وكما يُحِبُّ أكثر ،كان جَاهُهُ عِندَ مُسْتَخْلِفِهِ أَوْفَر)) .

قال أبو هُرَيرة _ رضي اللَّهُ عنه _ : ((لَوْلا ما أَخَذَ اللَّهُ على أهل الكتاب ما حَدَّثْتُكُم بشَيء ، ثُمَّ تلا : ﴿ وإذْ أخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ للنَّاسِ ولا تَكْتُمُونَهُ ﴾)) [25].

وهُنا تتجلَّى أهمية نَشْر العِلْم وعَدَم كِتمانه . وأبو هُرَيرة _ رضي اللَّهُ عنه_ أكثر الصحابة روايةً للحديث . وقد بَيَّن سبب كثرة حديثه ، فهو يُريد نشر كُل ما سَمِعه مِن النبيِّ ﷺ ، لئلا يكون مِن كَاتِمِي العِلْم الذين ذَمَّهُم اللَّهُ تعالى ، وفَضَحَهم بسبب خِيانتهم للأمانة ، وعدم التزامهم بالمِيثاق القاضي ببيان الشَّرْع الإلهيِّ وتَبليغه للناس. مِمَّا يُشير إلى الأهمية البالغة لنَشْر العِلْم، وتَبليغ الحَق، وذلك لإخراج الخلائق مِن ظُلمات الجَهْل إلى نُور العِلْم ، ومِن مَتاهةِ الكُفر إلى واحة الإيمان . وهكذا ، تتَّضح أهميةُ نَشْر العِلْم كَمَنْهَجِ خَلاصٍ كَوْنِيٍّ .

وعن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص _ رضي اللَّهُ عنه_ أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: ((مَن كَتَمَ عِلْمًا أَلْجَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيامةِ بِلِجَامٍ مِن نار)) [26].

يجب العَمَلُ بالعِلْم النافع ، ونَشْرُ العِلْم النافع بين الناس ، وعَدم كِتمانه ، لأنَّ كِتمانه خِيانة ، ويُسبِّب ضررًا للناس ، ويُؤَثِّر سلبًا على حياتهم . وزكاةُ العِلْم نَشْره وإذاعته ، وهو يَجلِب المنافعَ للناس ، ويُحقِّق مصالحَهم. والمالُ يَنقُص بنشره بين الناس وتَوزيعه عَلَيهم ، أمَّا العِلْمُ فيَكثُر ويَزداد بنشره بين الناس ، وبَثِّه فِيهم. ومَن كَتَمَ عِلْمًا ، وَضَعَ اللَّهُ في فمه قِطعةً مِن حديدٍ مِن نار يوم القِيامة عُقوبةً له . والجَزاءُ مِن جنس العَمل . واللجامُ : ما يُوضَع في فَم الفَرَس لِتُقاد به .

وهذا التحذيرُ الشديد يَعكس العاقبة الوخيمة لِكَاتِم العِلْم . فعلى المَرء أن يَخرج من دائرة العُقوبة ، وذلك بِتَبَنِّي الدَّعوة مشروعًا أُمَمِيًّا طِيلة حَيَاته ، حَيث النَّشْر المنهجي للعِلْم النافع ،

---

٢٥ رواه الحاكم في المستدرك(١/ ١٩٠)برقم (٣٦٦) وصحَّحه ، وقال الذهبي : ((لا أعْلَمُ له عِلَّة)).
٢٦ رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ١٨٢) برقم (٣٤٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

ومُساعدة الآخرين بإرشادهم إلى إعمال عُقُولهم ، وتَنظيفها مِن شوائب الجَهْل ، كَي تَستوعب نُورَ العِلْم ، وتتلقَّى ضَوءَ الدَّعوة الصافية بلا إفراط ولا تفريط . وتظلُّ الكَلِمَةُ الخالدة في كُل زمان ومكان : زكاةُ العِلْمِ نَشْرُه .

والحديثُ يُحذِّر مِن كِتمان العِلْم ، ويَدعو إلى نشره بين الناس ، وتعليمه لهم ، لنقلهم مِن ظُلمات الجَهْل إلى نُور العِلْم .

وقال المُناوي في فيض القدير (٦/ ١٤٦) : (((مَن سُئِلَ عَن عِلْم) عَلِمَه قطعًا ، وهو عِلْم يحتاج إليه سائل في أمر دِينه . وقيل : ما يَلزَم عليه تعليمه كَمُريد الإسلام ، يَقول : عَلِّمْني الإسلامَ. والمُفتي في حلال أوْ حرام . وقيل: هو عِلْم الشَّهَادَتَيْن (فَكَتَمَهُ) عن أهله (ألجمه اللَّهُ يوم القيامة بلِجَام) فارسي مُعرَّب (مِن نار) أي: أدخلَ في فيه لِجَامًا مِن نار مُكافأةً له على فِعْله، حيث ألجمَ نَفْسَه بالسُّكوت في مَحَل الكلام ، فالحديث خَرَجَ على مُشَاكَلَة العُقوبة للذَّنْب ، وذلك لأنَّه سُبحانَه أخذَ الميثاقَ على الذين أُوتُوا الكِتابَ ، لَيُبَيِّنُنَّه للناس ، ولا يَكتمونه . وفيه حَث على تعليم العِلْم ، لأنَّ تَعَلُّمَ العِلْم إنما هو لِنَشْره ، ودَعْوة الخَلْق إلى الحق ، والكَاتِم يُزاول إبطالَ هذه الحِكمة ، وهو بعيد عن الحكيم المُتقِن ، ولهذا كان جزاؤه أن يُلجَم ، تشبيهًا له بالحيوان الذي سُخِّرَ ومُنِعَ مِن قَصْد ما يُريده ، فإنَّ العَالِم شأنه دُعاء الناس إلى الحق ، وإرشادهم إلى الصِّراط المستقيم)) اهـ .وفي نفْس المرجع (٦/ ٢١٢): (((مَن كَتَمَ عِلْمًا عَن أهله أُلْجِمَ) بالبناء للمَفعول ، والفاعل اللَّه . وفي رواية ألجمه اللَّهُ (يوم القيامة لِجَامًا مِن نار) أي المُمْسِك عن الكلام ، مُمَثَّل بِمَن ألزم نَفْسَه بلِجَام ، وتنكير عِلْم في حَيِّز الشَّرْط يُوهِم شُمولَ العُموم لِكُلِّ عِلْم حتى غَير الشَّرعي. وخصَّه كثير كالحَليمي بالشرعي . والمراد به ما أُخِذَ مِن الشَّرْع، أو تَوَقَّفَ هو عليه تَوَقُّف وُجود، كعِلْم الكلام، أوْ كَمَال كالنَّحْو والمَنطِق . والحديث نَص في تحريم الكَتْم ، وخَصَّه آخرون بما يَلزَمه تعليمه،وتَعَيَّنَ عَلَيه . واحْتُرِزَ بقَوله : " عن أهله " . كَتْمه عن غَير أهله فمطلوب بل واجب . فقد سُئِلَ بعض العلماء عن شيء فَلَم يُجِبْ . فقال السائل : أمَا سَمِعْتَ خَبَرَ:"مَن كَتَمَ عِلْمًا" إلخ. قال: اترُك اللجَامَ واذْهَبْ،فإنْ جاء مَن يَفْقَهه،فكتمتُه، فَلْيُلْجِمْني.وقَوله تعالى : ﴿ ولا تُؤْتوا السُّفهاءَ أموالَكم ﴾ [النِّسَاء : ٥]. تنبيه على أنَّ حِفْظ العِلْم عَمَّن يُفْسِده أوْ يَضرِبه أوْلَى . وليس الظُّلْم في إعطاء غَير المُستحِق بأقل مِن الظُّلْم في مَنع المُستحِق . وجَعَلَ بعضُهم حَبْسَ كُتب العِلْم مِن صُوَر الكَتْم سِيَّما إنْ عَزَّتْ نُسَخُه . وأخرجَ البَيهقي عن الزُّهري : إيَّاكَ وغُلُولَ الكُتُب . قِيل : وما غُلُولُها ؟ ، قال : حَبْسُها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وأنزلْنَا إليْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ للنَّاسِ ما نُزِّلَ إليْهِم وَلَعَلَّهُم يَتَفَكَّرُون﴾[النَّحْل: ٤٤].

أنزلَ اللَّهُ إلى مُحَمَّد ﷺ القُرآنَ ، كَي يُوضِّح للناسِ أحكامَ القُرآنِ وكلماتِه ومَعانيه ، وما فِيه مِن الوَعْد والوعيد وتحليل الحلال وتحريم الحرام ، من أجل أن يُعمِل الناسُ عُقولَهم ، ويَعتبِروا، فَيَتَّعظوا ، فيفوزوا بالدَّارَيْن (الدُّنيا والآخرة) .

ولا شَكَّ أنَّ النبيَّ ﷺ يُبَيِّن مُرادَ اللَّهِ ، ولا يَكتُمه . وبعِبارة أخرى ، إنَّ السُّنَّةَ تُفَسِّر القُرآنَ . وقَوْلُ النبيِّ ﷺ وفِعْلُه ، كِلاهما تشريع . وسُمِّيَ القُرآنُ ذِكْرًا لأنَّه مَوعِظة وتنبيه .

وفي الإسلام لا تُوجَد أسرار ولا خَفَايا ولا طلاسم، ولا تُوجَد سُلطة كَهَنُوتية، فالأحكامُ ظاهرةٌ ، وتعاليمُ الشريعة واضحةٌ ، ومَن سعى في طلبها بشكل صحيح ، وفَّقه اللَّهُ لذلك .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٥٣) : ((﴿ لِتُبَيِّنَ للناسِ ما نُزِّلَ إلَيْهِم ﴾ أي : مِن رَبِّهم لِعِلْمِكَ بمعنى ما أنزلَ اللَّهُ ، وحِرْصِك عَلَيه ، واتِّبَاعك له ، وَلِعِلْمِنا بأنك أفضل الخلائق ، وسَيِّد ولد آدم ، فَتُفَصِّل لهم ما أُجْمِل، وتُبَيِّن لهم ما أُشْكِل)) .

والنبيُّ ﷺ مُبَلِّغٌ عن اللَّه تعالى ، ومُوَضِّحٌ لِمُرادِه ، ومُفَسِّر لكلامه سُبحانَه . والآيةُ تُوضِّح أنَّ النبيَّ ﷺ مأمور ببيان القرآن للناس ، وبالتالي، إثبات حُجِّية السُّنَّة، وأنَّ القُرآنَ والسُّنَّةَ لا ينفصلان. وهكذا يتَّضح أنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ دِينٌ واضحٌ ، لا لَبْسَ فِيه ولا أسرار ولا مواضع غامضة . فقد جاءَ القُرآنُ بالبيان الشافي ، وجاءت السُّنَّةُ بِتَوضيح القُرآن بالدليل الكافي ، فانقطعت أعذارُ الناس ، وقامت الحُجَّةُ عَلَيهم .

والنبيُّ ﷺ يَمتلك القُدرات العقلية الفائقة، ويَمتلك ناصيةَ البيان . فهو الفصيحُ القادر على التأثير ، والحِوار ، والموعظة الحَسَنَة ، والجِدَال البَنَّاء ، ومُقارَعة الحُجَّة بالحُجَّة . إنَّه يُبيِّن الوَحْيَ بأسلوبه الجميل، ولُغته المُؤثِّرة، وفصاحته الباهرة . وبالتأكيد، إنَّ تفسير القُرآن يُطلَب مِنَ السُّنَّة .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٤/ ٤٥٠) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ وأنزَلْنا إلَيْكَ الذِّكْرَ ﴾ وهو القُرآن بإجماع المُفسِّرين، ﴿ لِتُبَيِّنَ للناسِ ما نُزِّلَ إلَيْهِم ﴾ فِيه ، مِن حلال وحرام ووعد ووعيد، ﴿ وَلَعَلَّهُم يتفكَّرُون ﴾ في ذلك فَيَعتبرون)) .

*

ثالثًا : مُهِمَّةُ الرُّسُل

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وأرسلناكَ للناسِ رَسُولًا وَكَفَى باللَّهِ شَهيدًا ﴾ [النّساء : ٧٩] .

أرسلَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ إلى الناسِ كُلِّهم ، يُبلِّغهم الوَحْيَ الإلهيَّ كاملًا ، بلا زيادة ولا نُقصان، ولَيس عَلَيه إلا البَلاغ ، وحِسَابُ العِبَاد على اللَّه ، واللَّهُ يَشهَد أنَّه أرسلَ مُحَمَّدًا ﷺ ، وهو أيضًا شَهيدٌ بَيْنَ النبيِّ والناسِ ، يَعلَم ما يُبلِّغهم إيَّاه ، وكَيْفَ يكون رَفْضُهم للحق كُفرًا وعِنادًا .

وكَفى باللَّه شَهيدًا على صِدْقِ مُحَمَّد ﷺ وصِحَّةِ رِسالته . والآيةُ تُشير إلى عُموم رسالة مُحَمَّد ، وأنَّها للناس جميعًا بلا استثناء، كما تُشير إلى مكانة مُحَمَّد الجليلة،ومَنْزلته العظيمة،فهو رسولُ اللَّه إلى كُلِّ الناس . وهذا تَكليفٌ عَظيمٌ ، وتَشريفٌ مَجيدٌ .

وقال الثعالبي في تفسيره (١/ ٣٩٣) : ((﴿ وَكَفَى باللَّهِ شَهيدًا ﴾ تَوَعُّد للكفار ، وتهديد تَقتضيه قوة الكلام ، لأنَّ المعنى : شهيدًا عَلى مَن كَذَّبَه)) .

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ١٧٨) : ((إنَّما جَعلناكَ يا مُحَمَّد رسولًا بَيْنَنَا وبَين الخَلْق ، تُبلِّغهم ما أرسلناكَ بِه مِن رسالة ، ولَيس عليك غَيْرُ البَلاغ ، وأداء الرسالة إلى مَن أُرْسِلْتَ ، فإنَّ قَبِلُوا ما أُرْسِلْتَ بِه فلأنفسهم ، وإنْ رَدُّوا فَعَلَيْها ﴿ وَكَفَى باللَّهِ ﴾ عَلَيْكَ وعَلَيهم ﴿ شَهيدًا ﴾ . يقول: حَسْبُكَ اللَّهُ تعالى ذِكْرُه شاهدًا عَلَيك في بلاغك ما أَمَرْتُك بِبَلاغه مِن رِسالته وَوَحْيه ، وعلى مَن أُرْسِلْتَ إليه في قَبولهم مِنكَ ما أُرْسِلْتَ بِه إليهم،فإنَّه لا يَخفَى عليه أمْرُك وأمرُهم، وهو مُجازيك ببلاغك ما وَعَدَك، ومُجازيهم ما عَمِلوا مِن خَير وشَر جَزاء المُحسِن بإحسانه، والمُسِيء بإساءته)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وأطيعوا اللَّهَ وأطيعوا الرَّسُولَ واحْذَرُوا فإن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أنَّمَا عَلى رَسُولِنَا البَلاغُ المُبين ﴾ [المائدة : ٩٢] .

وأطيعوا أمرَ اللَّه وأمرَ رسوله ، واحْذَرُوا مُخالفتهما . لقد أَمَرَ بطاعةِ اللَّه ورسوله فِيما شَرَعَ ، وفِعْلِ الأمر ، واجتنابِ النَّهْي . فإن أعرضتم عن الامتثال ، ولَم تَعملوا بأمر اللَّه وأمر رسوله ، فقد فَعَلَ الرسولُ ما هو الواجب عليه مِن البَلاغ، الذي فيه صلاحكم ورشادكم ، ولَيس عليه هِدايتكم، وإنَّما عليه تبليغكم الرسالة ، وجزاؤكم على اللَّه تعالى .

وقد انتهت الأعذارُ، وانقطعت العِلَلُ، وقامتْ عَلَيكم الحُجَّةُ ، ولَم يَبْقَ بَعد ذلك إلا العذاب .

وهذا وعيد شديد وتهديد أكيد، إذْ تَضَمَّنَ أنَّ عِقَاب المُعرِضين إنَّما يَتَوَلَّاه المُرْسِل لا الرسول، وكأنَّ اللَّه قال : فاعْلَمُوا أنكم قد استحققتم العذاب لِتَوَلِّيكم (إعراضكم) .

ومَن أعرضَ فقد ألحقَ الضَّرَرَ بِنَفْسِه ، وقادها إلى الهلاك والعذاب ، ولَم يَضُر اللَّهَ ، ولَم يَضُر الرسولَ . واللَّهُ لا تَنفَعه الطاعة ، ولا تَضُرُّه المعصية .

وفي تفسير ابن كثير (٤/ ٤٨١) : ((قال الزُّهري : مِن اللَّه الرِّسالة ، وعلى الرَّسُول البَلاغ، وعَلَينا التَّسليم)) .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٣٦) : ((﴿ وأطيعوا اللَّهَ وأطيعوا الرَّسُولَ ﴾ ، ... ، في اتِّباعكم أمْرَه فِيما أمركم به ،...، وخَالِفُوا الشَّيطانَ في أمره إياكم بمعصية اللَّه . ... ﴿ واحْذَرُوا ﴾ يقول : واتَّقُوا اللَّهَ وَرَاقِبُوه أن يَرَاكم عِند ما نَهَاكم عنه ، ... ، أوْ يَفْقِدكم عِند ما أمركم به ، فَتُوبِقوا أنفُسَكم وتُهْلِكُوها ، ﴿ فإن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ ، يقول : فإن أنتم لَم تَعملوا بما أمرناكم به ، وتَنتهوا عمَّا نَهَيْناكم عنه ، ورجعتم مُدْبِرين عمَّا أنتم عليه مِن الإيمان والتَّصديق باللَّه وبرسوله ، واتِّباع ما جاءكم به نَبِيُّكم ، ﴿ فَاعْلَمُوا أنَّمَا عَلى رَسُولِنَا البَلاغُ المُبين ﴾ ، يَقُول : فاعْلَمُوا أنَّه لَيس عَلى مَن أرسلناه إلَيكم بالنِّذارة غَير إبلاغكم الرِّسالة التي أُرْسِلَ بها إلَيكم ، مُبَيِّنَة لكم بيانًا يُوضِّح لكم سبيلَ الحَق ، والطريق الذي أُمِرْتُم أن تَسلكوه . وأمَّا العِقَاب على التَّولية والانتقام بالمعصية ، فعلى المُرْسَل إلَيه دُون الرُّسُل . وهذا مِن اللَّه تعالى وعيد لِمَن تَوَلَّى عَن أمره ونَهْيِه ، يَقول لهم تعالى ذِكْرُه : فإن تَوَلَّيْتُم عَن أمري ونَهْيي ، فَتَوَقَّعُوا عِقَابي ، واحْذَرُوا سَخَطي)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وما نُرْسِلُ المُرْسَلِينَ إلا مُبَشِّرِينَ ومُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وأصْلَحَ فلا خَوْفٌ عَلَيْهِم ولا هُمْ يَحْزَنُون ﴾ [الأنعام : ٤٨] .

اللَّهُ يُرسِل الرُّسُلَ لتبشير المؤمنين بالسعادة في الدُّنيا والجَنَّة في الآخرة ، ولتخويف الكافرين مِن شَقاءِ الدُّنيا والنار في الآخرة . إنهم مُبشِّرون بالثواب ، ومُنذِرون بالعِقاب . وهذه هِيَ وظيفة الرُّسُل، وليست وظيفتهم إحضار الآيات التي يَقترحها الكافرون ، فالرُّسُلُ يَأتون بالآياتِ مِن عِند اللَّه تعالى ، واللَّهُ يَختارُ الآياتِ تَصديقًا لهم ، وإفحامًا للخُصُوم ، ولا أحدَ يَفرض شُروطَه على اللَّه تعالى . واللَّهُ أعلمُ بما يُصلِح الناسَ وما يُفسِدهم ، ويَعْلَم عنهم ما لا يَعْلَمونه عَن أنفسهم ، فهو سُبحانَه خالقُهم ، والخالقُ أعلمُ بالمَخلوق مِن نَفْسِه .

والرِّسالةُ السماويةُ كاملةٌ لا نَقْص فِيها ، جاءت لإسعاد الناس في الدُّنيا والآخرة ، ومَنْحهم النعيم في الدُّنيا (الحياة الكريمة السعيدة) والنعيم في الآخرة (الجنة الأبدية) . أمَّا مَا يَقترحه الكافرون ويَطلبونه من الآيات، فهذا نابعٌ مِن كُفرهم وعِنادهم ووساوسهم، ولا علاقة له بالرسالة السماوية الكاملة الغنية عن الاقتراحات والتعليقات ، والمُنَزَّهة عَن النقد والتشكيك والافتراء .

والفِعْلُ المُضارع ﴿ نُرْسِلُ ﴾ يُشير إلى الاستمرارية ، وأنَّ عادةَ اللَّه في إرسال الرُّسُل مُستمرة لا تتغيَّر .

وَصِدْقُ الرُّسُلِ واضحٌ بالحُجَجِ الباهرة ، والأدلةِ العقلية ، والبراهينِ المادية . وكُلُّ رسولٍ مِن عِند اللَّه ، إنَّمَا يأتي إلى الناس ومعه دليل صِدْقِه ، ولا يأتي خالي الوِفَاض . ولا عُذر للكافرين في كُفرهم ، لأنَّ الحُجَّةَ قَد أُقِيمَتْ عَلَيهم بالدليل النَّقْلي والدليلِ العقلي .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ١٧٠): ((﴿ وما نُرْسِلُ المُرْسَلِينَ إلا مُبَشِّرِينَ ومُنذِرِينَ ﴾ كلام مُبْتَدَأ لبيان الغَرَض مِن إرسال الرُّسُل : أي مُبشِّرين لِمَن أطاعهم بِما أعدَّ اللَّهُ له مِن الجَزاء العظيم ، ومُنذِرين لِمَن عَصَاهم بِما له عِند اللَّه مِن العذاب الوَبيل . وقِيل : مُبشِّرين في الدنيا بِسَعَة الرِّزق ، وفي الآخرة بالثواب ، ومُنذِرين مُخَوِّفين بالعِقَاب . وهُمَا حالان مُقَدَّرتان : أي ما نُرسِلهم إلا مُقدِّرين تَبشيرَهم وإنذارَهم)) .

فَمَن آمَنَ بالرِّسالةِ السماويةِ ، واتَّبَعَ الرسولَ قَوْلًا وفِعْلًا ، وأصلحَ نَفْسَه وعَمَلَه بالإيمان والتقوى ، وأصلحَ غَيْرَه بالنصيحة والإرشاد والتَّوجيه ، فلا خَوْفٌ عَلَيهم حِينَ يَخافُ أهلُ النار ، ولا هُم يَحزنون إذا حَزِنُوا .

لقد أجارَ اللَّهُ المؤمنين مِن الخوف والحزن ، بِما أعدَّ لهم في الآخرة مِنَ النعيم الأبديِّ ، الذي لا يَزول ولا يَنقطع ، فلا خَوْفٌ عَلَيهم مِن العذاب ، ولا هُم يَحزنون بِفَوات الأجر ، فلا شَيء يَضيع عِند اللَّه تعالى . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٨٠) : ((﴿ فَمَنْ آمَنَ وأصْلَحَ ﴾ أي : فَمَن آمَنَ قَلْبُه بِما جَاؤوا به ، وأصلحَ عَمَلَه باتِّباعه إيَّاهم ، ﴿ فلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي بالنِّسْبَة لِمَا يَسْتَقبلونه ﴿ولا هُمْ يَحْزَنُون﴾ أي بالنِّسْبَة إلى ما فَاتَهم وتَركوه وراء ظُهورهم مِن أمر الدُّنيا وصنيعها. اللَّهُ وَلِيُّهم فِيما خَلَّفوه ، وحافظُهم فِيما تَرَكوه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الحقُّ قُل لَسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾[الأنعام : ٦٦] .

كَذَّبت قُرَيش (قَوم النبيِّ ﷺ) بالقُرآن ، وهو الكِتابِ المُعجز الذي أنزلَه اللَّهُ على مُحَمَّد ﷺ بالحَق . والقُرآنُ هو الحَقُّ الواضحُ ، والصِّدقُ الظاهرُ ، والواقعُ بلا شَك .

قُل يا مُحَمَّد: لَسْتُ عَلَيكم بِجَبَّار ، ولا بحافظ أعمالكم فأُجَازيكم عَلَيها، ولا أقْدِرُ أن أُجبِركم على الإيمان ، إنما أنا مُنذِر ، واللَّهُ الحفيظ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٣/٦٠):((قَوله تعالى: ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ ﴾ في هاء﴿ بِهِ ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها أنها كِناية عن القرآن، والثاني: عن تصريف الآيات، والثالث: عن العذاب)).

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ١٥٤): ((﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ ﴾ أي بالقُرآن. وقِيل: بالعذاب. ﴿ وَهُوَ الحقُّ قُل لَسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ برقيب . وقِيل : بِمُسَلَّط أُلزِمكم الإسلامَ شِئتُم أوْ أَبَيْتُم ، إنَّما أنا رسول)) .

وقالَ الأبشيهي في المُسْتَطْرَف (١/١٣٣) : ((وقال مُعاوية يَوْمًا : أيُّها الناس إنَّ اللَّه حَبَا قُرَيْشًا بثلاث ، فقال لِنَبِيِّه:﴿وأنذِرْ عَشيرتَكَ الأقربين ﴾[الشُّعراء:٢١٤]،ونحن عَشيرته الأقربون. وقال تعالى : ﴿ وإنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزُّخرُف:٤٤]،ونحن قَوْمُه.وقال:﴿ لإيلافِ قُرَيْشٍ(١) إيلافِهِمْ ﴾ [قُرَيْش]، ونحن قُرَيْش.فأجابه رَجُلٌ من الأنصار، فقال: على رِسْلِكَ يا مُعاوية،فإنَّ اللَّه تعالى يقول : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الحقُّ ﴾ [الأنعام : ٦٦]، وأنتم قَوْمُه. وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّون ﴾[الزُّخرُف: ٥٧]،وأنتم قَوْمُه. وقال تعالى:﴿ وقال الرسولُ يا رَبِّ إنَّ قَوْمي اتَّخَذوا هذا القُرآنَ مَهْجورًا ﴾[الفُرقان : ٣٠]، وأنتم قَوْمُه. ثلاثةٌ بثلاثة ، وَلَوْ زِدْتَنا لَزِدْناك)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ ما أشْرَكُوا وما جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفيظًا وما أنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ [الأنعام : ١٠٧] .

أَعْرِضْ عَن هؤلاء المُشركين يا مُحَمَّد . لَوْ أرادَ اللَّهُ أن يَهْدِيَهم إلى الإسلام لَهَدَاهُم ، ولكنَّهم لا يَستحقون هذا الشَّرَفَ ، لذلكَ تَرَكَهم اللَّهُ في كُفرهم وضَلالهم . وأفعالُ اللَّهِ حَكيمةٌ ، ومُنَزَّهةٌ عن الظُّلْم والعَبَث والصُّدْفة . ﴿ لا يُسْألُ عَمَّا يَفعلُ وهُم يُسألُون ﴾ [الأنبياء : ٢٣] . والآيَةُ دليلٌ على أنَّ الشِّرْك بمشيئة اللَّه تعالى .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٤٠) : ((﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ تَوْحِيدَهم وعَدَمَ إشراكهم ﴿ ما أشْرَكُوا ﴾ ، وهو دليل على أنَّه _ سُبحانَه وتعالى _ لا يُريد إيمانَ الكافرين ، وأنَّ مُرَادَه وَاجبُ الوُقوع)) .

أرسلَكَ اللَّهُ يا مُحَمَّد لتبليغ الرِّسَالة الإلهية،ولَم يَجعلكَ رَقيبًا على أقوالهم وأفعالهم، تُحصيها، وتُجازيهم عَلَيها. فاللَّهُ وَحْدَه هو الرَّقيب على العِبَاد ، يُحْصِي أقوالَهم وأفعالَهم ، ويُحاسِبهم عَلَيها. ولَسْتَ مُوَكَّلًا يا مُحَمَّد على أرزاقهم ، ولا تَقوم بأُمورهم ، إنَّ مُهِمَّتَك مَحصورة في التَّبليغ ، ولَيس مَطلوبًا مِنكَ أن تُجبِرهم على الإيمان. واللَّهُ وَحْدَه هو القادر على إدخال الإيمان إلى القلوب.

والمعنى العام : إنَّما بُعِثْتَ مُبَلِّغًا يا مُحَمَّد ، ولَم تُبْعَثْ حفيظًا عَلَيهم ولا وَكيلًا . فلا تهتم بِكُفْرهم ، ولا تَعْبَأ بِشِركهم ، فإنَّ شِركهم بمشيئة اللَّه تعالى . ولا يَقع في مُلْكِ اللَّهِ إلا مَا يَشاء .

وقال القُرطبي في تفسيره (٧/ ٥٥) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكُوا ﴾ نَصَّ على أنَّ الشِّرْك بمشيئته ، وهو إبطال لِمَذهب القَدَرِيَّة . ﴿ وما جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفيظًا ﴾ أي : لا يُمكنك حِفْظُهم من عذاب اللَّه . ﴿ وما أنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ أي قَيِّم بأمورهم في مصالحهم لِدِينهم أو دُنياهم ، حتى تَلْطُفَ لهم في تناول ما يَجب لهم ، فَلَسْتَ بحفيظ في ذلك ، ولا وكيل في هذا ، إنَّما أنتَ مُبلِّغ . وهذا قبل أن يُؤْمَر بالقتال)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٣/ ١٠٢) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكُوا ﴾ فيه ثلاثة أقوال حكاها الزَّجاج : أحدها : لَوْ شاء لجعلهم مؤمنين ، والثاني : لَوْ شاءَ لأنزلَ آيةً تَضطرهم إلى الإيمان ، والثالث : لَوْ شاء لاستأصلهم ، فَقُطِعَ سَبب شِركهم)) .

وهُناك قِصَّة أوردها الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٥١) نُوردها لتحقيق الفائدة: ((يُقَال إنَّ بعض أئمة السُّنَّة أُحْضِرَ للمُناظرة مع بعض أئمة المُعتزلة ، فلمَّا جلس المعتزلي قال : سُبحانَ مَن تَنَزَّهَ عن الفَحْشَاء ، فقال السُّني : سُبحانَ مَن لا يَقع في مُلْكه إلا ما يَشاء ، فقال المعتزلي : أيشاءُ رَبُّنا أن يُعصَى ، فقال السُّني : أفَيُعْصَى رَبُّنا قَهْرًا ؟ ، فقال المعتزلي : أرأيتَ إن مَنعني الهدى ، وقَضى عَلَيَّ بالرَّدى ، أحسنَ إلَيَّ أو أساءَ ؟ ، فقال السُّني : إن كان مَنعك ما هُوَ لَك فقد أساء ، وإن كان مَنعك ما هُوَ له ، فإنه يَختص برحمته مَن يَشاء ، فانقطع)) .

إنَّ قَوْلَ المُعتزلي : ((سُبحانَ مَن تَنَزَّهَ عن الفَحْشَاء)) كلمة حَق أُرِيدَ بها باطل . فَمِن عقائد المُعتزلة أنَّ اللَّه لا يَخلُق الشرَّ ولا يُريده ، وَلَم يُقَدِّر المعاصي على العباد ، ولكنهم هُم يَخْلُقون أفعالَهم ، ويَفعلون ما لا يُريد اللَّهُ فِعْلَه ولَم يُقَدِّرْهُ ، وهذه هي فلسفتهم في القَدَر .

وأصلُ شُبهتهم عدم تفريقهم بين نَوْعَي الإرادة: أ ــ الإرادة الكَوْنية: التي هي بمعنى المشيئة ، فلا يَكون في الكَون إلا ما يَشاؤه اللَّهُ ويُريد وُقوعَه ، سَوَاءٌ كانَ يُحِبُّه أَمْ يَكْرَهه . ب ــ الإرادة الشَّرعية : وهي بمعنى المَحَبَّة ، فَكُلُّ ما أمرَ اللَّهُ به وشَرَعَه ، فإنَّه يُحِبُّ فِعْلَه ، سَوَاءٌ أطاعه العبادُ فيه أَمْ عَصَوْهُ . وطاعتهم أو معصيتهم لا تَخرج عن إرادته الكَونية الشاملة .

إذا قال المعتزلي : ((هَل يُريد اللَّهُ الكُفْرَ ؟)) . فالجواب ذُو شِقَّيْن : ١ــ إن كان المقصود أنَّ اللَّه يَشاءُ الكُفْرَ ويُقَدِّره . فالجوابُ : نعم ، لأنَّ كُل شَيء خاضع لإرادة اللَّه ومَشيئته، والإيمانُ والكُفْرُ خاضعان لإرادة اللَّه ومَشيئته . والكُفَّارُ كثيرون، ولا يَقَع في مُلْك اللَّه إلا ما يشاء ، وكُلُّ شَيء يتمُّ وَفْقَ الحِكمة الإلهية ، والمشيئة الرَّبانية . ولا يَكون شَيء إلا بِقَدَرٍ مِن اللَّه تعالى. ٢ــ إن كان المقصود أنَّ اللَّه يُحِب الكُفْرَ ، ويَأمر الناسَ باعتناقه. فالجواب : لا . فاللَّهُ تعالى يَقول :

﴿ ولا يَرضَى لعبادهِ الكُفرَ ﴾ [الزُّمَر : ٧] . وقد أرسلَ اللَّهُ الرُّسُلَ ، وأنزلَ الكُتُبَ السَّماوية للتحذير مِن الكُفرِ ، وكَي يَعتنق الناسُ الإسلامَ ، ويَلتزموا الإيمانَ .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿إنَّ الذينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وكانوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ في شَيْءٍ إنَّمَا أمْرُهُم إلى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كانوا يَفْعَلُون ﴾ [الأنعام : ١٥٩] [٢٧].

إنَّ اليهود والنصارى جَعَلوا الإسلامَ (دِين إبراهيم ﷺ الحَنِيف) أديانًا مُختلفة متعارضة ، فتهوَّد قَومٌ ، وتنصَّر قَومٌ . وكُلُّ قَومٍ يَطعَن في الآخَر . إنَّهم قد فَرَّقوا دِينَهم ، وصاروا فِرَقًا وأحزابًا ، أي : فِرَقًا مُختلفين ، كُلُّ فِرْقة تُكفِّر الفِرقةَ المُخَالِفَةَ لها . والنبيُّ ﷺ بَريءٌ مِنهم .

ولا شَكَّ أن دِين جميع الأنبياء هو الإسلام (الدِّين السَّماوي الوحيد)، أمَّا اليهودية والنصرانية فَهُما دِيَانتان وَضْعِيَّتان أرْضِيَّتان باطلتان .

والآيةُ تَدعو المؤمنين إلى الوَحْدة والاجتماع وعدم التفرُّق مِثْل الأقوام الضَّالَّة التي سبقتهم . والآيةُ عَامَّة في كُل مَن فَرَّقَ دِينَ اللَّه تعالى.واللَّهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِدِين الحق الذي يمتاز بالكمال، والمُنَزَّه عن النقص والتناقض . وكُلُّ شخص انحرفَ عن هذا الصِّراط المستقيم كأصحاب المِلَل والنِّحَل والأهواء والمصالح الشخصية ، فهو يتحمَّل مسؤولية عمله . والنبيُّ ﷺ بريءٌ مِن هذا الانحراف ، ولا يتحمَّل مسؤوليته .

إنَّما جَزَاؤهم وعِقَابهم على اللَّه ، هُوَ يَتَوَلَّى جَزَاءهم، ثُمَّ يُخبِرهم بأعمالهم السَّيئة في الآخرة ، ويُجازي كُلَّ واحد مِنهُم بما كان يَفعَل .

والمعنى: لَسْتَ مسؤولًا عن حِسابهم وعِقابهم يا مُحَمَّد، وإنَّما عَلَيْكَ البَلاغ، وأمرهم إلى اللَّه، وهذه تَعزية للنبيِّ ﷺ ، وتَسلية له ، وتَخفيف عنه ، ورفع لمعنوياته .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٦٢) : ((قال مُجاهد وقَتادة والضَّحاك والسُّدي : نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى . وقال العَوفي عن ابن عباس في قَوله : ﴿ إنَّ الذينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وكانوا شِيَعًا ﴾ ، وذلك أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل مَبْعَث مُحَمَّد ﷺ ، فَتَفَرَّقُوا ، فلمَّا بُعِثَ مُحَمَّد ﷺ، أنزلَ اللَّهُ عليه: ﴿إنَّ الذينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وكانوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ في شَيْءٍ﴾ الآية. ... .

٢٧ وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ١٥٨) : ((وفي الْمُشار إليهم أربعة أقوال : أحدها أنهم أهل الضَّلالة مِن هذه الأُمَّة ، قاله أبو هريرة . والثاني أنهم اليهود والنصارى ، قاله ابن عباس والضَّحاك وقَتَادة والسُّدي. والثالث اليهود ، قاله مجاهد . والرابع جميع المشركين ، قاله الحسن)) .

والظاهرُ أنَّ الآية عَامَّة في كُل مَن فَارَقَ دِينَ اللَّه ، وكان مُخَالِفًا له ، فإنَّ اللَّه بَعَثَ رَسُولَه بالهُدى ودِينِ الحَق ، لِيُظْهِرَه على الدِّين كُلِّه ، وشَرْعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق . فَمَن اخْتَلَفَ فيه ، ﴿ وكانوا شِيَعًا ﴾ ، أي : فِرَقًا كأهل المِلَل والنِّحَل والأهواء والضَّلالات ، فإنَّ اللَّه تعالى قد بَرَّأَ رسولَ اللَّه ﷺ مِمَّا هُم فِيه. ... . وفي الحديث: "نَحْنُ مَعَاشِرَ الأنبياءِ أولادُ عَلَّاتٍ دِينُنَا واحد"[٢٨]. فهذا هو الصِّراط المُستقيم ، وهو ما جاءت به الرُّسُل ، مِن عِبادة اللَّه وَحْدَه لا شريك له ، والتَّمَسُّك بشريعة الرَّسُول المُتَأخِّر ، وما خَالَفَ ذلك فَضَلالات وجَهَالات وآراء وأهواء ، والرُّسُلُ بُرَآء مِنها ، كما قال اللَّهُ تعالى : ﴿ لَسْتَ مِنْهُمْ في شَيْءٍ ﴾)) .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٤١٢) : ((إنَّ اللَّه أخبرَ نَبِيَّه ﷺ أنَّه بريء مِمَّن فارقَ دِينَه الحَق وفرَّقه، وكانوا فِرَقًا فيه وأحزابًا شِيَعًا ، وأنَّه لَيس مِنهُم ، ولا هُم مِنه ، لأنَّ دِينه الذي بَعَثَه اللَّهُ به هو الإسلام ، دِين إبراهيم الحَنِيفِيَّة ، كما قال له رَبُّه وأمَرَه أن يقول : ﴿ قُل إنني هداني ربي إلى صِراطٍ مُستقيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إبراهيمَ حَنيفًا وما كانَ مِنَ المشركين ﴾ [الأنعام : ١٦١] . فكانَ مَن فارقَ دِينَه الذي بُعِثَ به ﷺ مِن مُشرك ووثني ويهودي ونصراني ومُتَحَنِّف مُبتدع،قد ابتدعَ في الدِّين ما ضَلَّ به عن الصِّراط المستقيم ، والدِّينِ القَيِّم ، مِلَّة إبراهيم المُسْلِم ، فهو بريء مِن مُحَمَّد ﷺ ، ومُحَمَّد مِنه بريء ، وهو داخل في عُموم قَوله : ﴿ إنَّ الذينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وكانوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ في شَيْءٍ ﴾ . وأمَّا قَوله : ﴿ لَسْتَ مِنْهُمْ في شَيْءٍ إنَّمَا أمْرُهُم إلى اللَّهِ ﴾ ، فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله ، فقال بعضُهم : نزلت هذه الآية على نبيِّ اللَّه بالأمر بترك قتال المشركين قبل وُجوب فَرْض قِتالهم ، ثُمَّ نَسَخَهَا الأمرُ بقتالهم في سُورة براءة (التَّوبة)، وذلك قَوله: ﴿ فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتموهم ﴾ [التَّوبة : ٥] . ... . وقال آخرون : بل نَزلت على النبيِّ ﷺ إعلامًا مِن اللَّه له أنَّ مِن أُمَّته مَن يُحْدِث بَعْدَه في دِينه ، ولَيست بمنسوخة ، لأنَّها خَبَر لا أَمْر ، والنَّسْخ إنَّما يكون في الأمر والنَّهْي . ... . _ قال الطبري _ : والصَّواب مِن القَول في ذلك أن يُقَال : إنَّ قَوله : ﴿ لَسْتَ مِنْهُمْ في شَيْءٍ ﴾ إعلام مِن اللَّه نَبِيَّه مُحَمَّدًا ﷺ أنَّه مِن مُبْتَدِعة أُمَّته المُلْحِدة في دِينه بريء ، ومِن الأحزاب مِن مُشركي قَومه ، ومِن اليهود والنصارى ، ولَيس في إعلامه ذلك ما يُوجِب أن يكون نَهَاه عَن قتالهم ، لأنَّه غَير مُحَال أن يُقَال في الكلام : لَسْتَ مِن دِين اليهود

٢٨ معنى الحديث : إنَّ الأنبياء بمنزلة أولاد مِن أُمَّهَات ، وأبوهم واحد ، أي : مُتَّفقون في العقيدة معَ وجود اختلاف في الشرائع ، لأنَّ الشرائع تختلف باختلاف الزمان والمكان والسُّكَّان .

والنصارى في شيء فَقَاتِلْهُم ، فإنَّ أمْرَهم إلى اللَّه في أن يتفضَّل على مَن شاء مِنهُم فيتوب عليه، ويُهلِك مَن أرادَ إهلاكَه مِنهُم كافرًا ، فَيَقْبِض رُوحَه ، أوْ يَقتله بيدك على كُفْره ، ثُمَّ يُنَبِّئهم بما كانوا يَفْعَلون عِند مَقْدَمهم عليه . وإذْ كان غَير مُستحيل اجتماع الأمر بقتالهم وقَوله : ﴿ لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُم إِلى اللَّهِ ﴾ ، ولَم يَكُن في الآية دليل واضح على أنَّها مَنسوخة ، ولا وَرَد بأنها مَنسوخة عن الرسول خَبَر ، كان غَير جائز أن يُقْضَى عليها بأنها مَنسوخة ، حتَّى تَقُوم حُجَّة مُوجِبة صِحَّة القَول بذلك ، لِمَا قد بَيَّنا مِن أن المنسوخ هو ما لَمْ يَجُز اجتماعه وناسخه في حال واحدة في كتابنا كتاب (اللطيف من البيان عن أصول الأحكام) . وأمَّا قَوله : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُم إِلى اللَّهِ ﴾ ، فإنَّه يقول : أنا الذي إلَيَّ أمْر هؤلاء المُشركين الذين فرَّقوا دِينَهم ، وكانوا شِيَعًا ، والمُبْتَدِعَة مِن أُمَّتك الذين ضَلُّوا عن سبيلك دُونَك ودُون كُل أحد ، إمَّا بالعقوبة إن أقاموا على ضَلالتهم وفُرْقتهم دِينَهم ، فأُهْلِكهم بها ، وإمَّا بالعَفْو عَنهُم بالتَّوبة عليهم ، والتفضُّل مِنِّي عليهم ، ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كانوا يَفْعَلُون ﴾ ، يقول : ثُمَّ أُخْبِرهم في الآخرة عِند وُرودهم عليَّ يوم القيامة بما كانوا يَفْعَلون ، فأُجَازي كُلًّا مِنهُم بما كانوا في الدُّنيا يَفْعَلون ، المُحْسِن مِنهُم بالإحسان ، والمُسِيء بالإساءة)) .

وعن أبي هُرَيرة ــ رضي اللَّهُ عنه ــ عن النبيِّ ﷺ قال : ((﴿ إِنَّ الذينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وكانوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ ، قال : هُم أهل البِدَع والأهواء مِن هذه الأُمَّة)) [29].

وعن عُمَر بن الخطاب ــ رضي اللَّهُ عنه ــ أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال لعائشة ــ رضي اللَّهُ عنها ــ : ((يا عائشة ، إنَّ الذين فرَّقوا دِينَهم وكانوا شِيَعًا ، هُم أصحاب البِدَع وأصحاب الأهواء ، ولَيس لَهُم تَوبة ، أنا مِنهُم بَريء ، وهُم مِنِّي بَرَاء)) [30].

---

٢٩ رواه الطبراني في الأوسط (١/ ٢٠٧) برقم (٦٦٤). وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٩٢) : ((ورجاله رجال الصحيح غير مُعلِّل بن نُفَيل ، وهو ثقة)) اهـ . وفي العِلَل للدَّارَقُطْني (٨/ ٣٢١) : ((يرويه ليث ابن أبي سُلَيم ، واخْتُلِفَ عنه ، فرواه شَيبان بن عبد الرحمن والثَّوري عن ليث عن طاوس عن أبي هريرة مَوقوفًا . ورَفَعَه عَبَّاد بن كَثِير عن لَيث ، ورواه موسى بن أعْيَن عن الثَّوري ، فقال عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هُرَيرة عن النبيِّ ﷺ ، ووَهِمَ في مَوْضِعَيْن في رَفْعه ، وفي قَوله : عن ابن طاوس ، لأن هذا من حديث ليث ، ولا يَصِحُّ عن ابن طاوس)) .

٣٠ رواه الطبراني في المعجم الصغير (١/ ٣٣٨) برقم (٥٦٠) . وقال الهيثمي في المجمع (٧/٩٢) : ((وإسناده جيِّد)) اهـ . لكنَّ الهيثمي تناقض معَ نَفْسه ، فقد قال في المجمع (١/ ٤٤٨) : ((وفيه =

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وإمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُم أوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فإنَّما عَلَيْكَ البَلاغُ وَعَلَيْنا الحِسابُ ﴾ [الرَّعْد : ٤٠] .

وإمَّا نُرِيَنَّكَ يا مُحَمَّد في حياتك بَعْضَ الذي نَعِدُ أعداءَكَ المُشركين مِنَ العُقوبة والعذاب ، أوْ نَقبضك قبل أن تَقَرَّ عَيْنُكَ بعذابهم ، ففي الحالتَيْن ، يَلزَمكم البلاغ لا غير . إنَّما أنتَ مُبلِّغ ، تُبلِّغهم الوَحْيَ الإلهيَّ كاملًا . تُبلِّغهم رسالةَ اللَّه كاملةً ، ولا علاقة لكَ بتحقيق الوعيد في هذه الرسالة. ولَيس عليك إلا البلاغ ، وقد فَعَلْتَ ذلك بأمانة ونزاهة. إلى اللَّه مصيرُهم ، وعَلَيه سُبحانَه حِسابُهم وجزاؤُهم ، فلا تتضايق مِن إعراضهم ، ولا تَستعجل عَذابَهم ، فإنَّ اللَّه ناصرُك. وإنْ تأخَّرَ النصرُ فلا تَجزَع ولا تضطرب ، فإنَّ اللَّه حكيمٌ في أقواله وأفعاله ، يَعلَم المصالِحَ الخَفِيَّةَ. يَفعل ما يُريد في الوقت الذي يُريد.وقد تَظهر الحِكمةُ للناسِ، وقد لا تَظهَر.واللَّهُ مُنَزَّهٌ عن العبث والفوضى.

﴿ وإمَّا ﴾ هِيَ : وإنْ ما . (ما) زائدة لتأكيد معنى الشرط . والفِعل المضارع ﴿ نَعِدُهُم ﴾ حكاية عن الحال الماضية ، أوْ أنَّ الوَعْد مُتَجَدِّد للتَّخويف والإنذار .

وقال الطبري في تفسيره (٧ / ٤٠٥): ((يقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه مُحَمَّد ﷺ : وإمَّا نُرِيَنَّكَ يا مُحَمَّد في حياتك بَعْضَ الذي نَعِدُ هؤلاء المُشركين باللَّه مِنَ العِقَاب على كُفْرهم، أوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ قبل أن نُرِيَكَ ذلك ، فإنَّما عَلَيك أن تنتهيَ إلى طاعة رَبِّكَ فِيما أمَرَك به مِن تبليغهم رسالته ، لا طلب صلاحهم ولا فسادهم ، وعلينا مُحاسبتهم فمُجازاتهم بأعمالهم ، إنْ خَيْرًا فَخَيْر، وإنْ شَرًّا فَشَر)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الذينَ كَفروا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى باللَّهِ شَهيدًا بَيْني وبَيْنَكُم وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكِتابِ ﴾ [الرَّعْد : ٤٣] .

يقول مُشركو العرب : لَسْتَ يا مُحَمَّد نَبِيًّا ولا رسولًا، إنَّما أنتَ تتقوَّل على اللَّه ، وذلك لأنَّه لَمْ يَجِئْ بالآياتِ التي اقترَحوها . والنبيُّ ﷺ لا يستطيع أن يأتِيَ بالآياتِ . اللَّهُ وَحْدَه يُنْزِل الآياتِ أوْ لا يُنْزِلها . إنَّهم مُقتنعون في قَرَارة أنفسهم بأنَّ مُحَمَّدًا ﷺ صادق ، لكنهم يَجحَدون نُبُوَّته عِنادًا وَحَسَدًا وتَعَنُّتًا وتكبُّرًا . قُلْ يا مُحَمَّد رَدًّا عَلَيهم : حَسْبِيَ اللَّهُ شاهدًا ، تَكفيني شَهَادته لي بأنَّني صادق وأنتم كاذبون .

=بَقِيَّة ومُجالِد بن سعيد ، وكلاهما ضعيف)) اهـ . وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٩/ ٢٥) : ((وهذا حديث ضعيف غريب.رواه محمد بن مُصَفَّى عن بَقِيَّة عن شُعبة أوْ غَيره عن مُجالِد عن الشَّعْبي، وإنما تفرَّد به بَقِيَّة بن الوليد من هذا الوجه ، وفيه عِلَّة أيضًا)) .

ولا شَكَّ أنَّ تأييد مُحَمَّد ﷺ بالمُعجِزات الإلهية شهادة مِنَ اللَّه أنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ ورسولُه . واللَّهُ لا يُؤَيِّد الكاذبين بالمُعجِزات . وَلَوْ كان مُحَمَّد يَكذِب على اللَّه تعالى ، لَمَا أيَّده بالقُرآنِ المُعجِزة الخالدة . واللَّهُ يَشهَد لِمُحَمَّد ﷺ أنَّه نبيٌّ ورسول ، بَلَّغَ الرِّسَالَةَ على أكمل وَجْه ، ويَشهَد أنَّ المُشركين كاذبون . وقال أبو السُّعود في تفسيره (٥/ ٢٩) : ((﴿ وَيَقُولُ الذينَ كَفروا لَسْتَ مُرْسَلًا ﴾ ، قِيل : قاله رؤساء اليهود . وصيغة الاستقبال لاستحضار صورة كلمتهم الشنعاء تعجيبًا منها ، أو للدَّلالة على تجدُّد ذلك واستمراره مِنهُم)) .

وشهادةُ اللَّهِ أعظمُ دليل ، وتُغْني عن شهادات المخلوقين ، فقد أيَّدَ اللَّهُ مُحَمَّدًا بالمُعجِزات ، وأظهرَ الحُجَجَ القاطعة والأدلةَ الساطعة على صِدْقه وصِحَّةِ نُبُوَّته . حَسْبِي شهادة اللَّه بِصِدْقي بما أيَّدني مِنَ المُعجِزات ، وأيضًا شهادة المؤمنين مِن عُلماء أهل الكتاب ، الذينَ دَرسوا التَّوراةَ والإنجيلَ ، ويَعلَمون ما فِيهما مِن وَصْف النبيِّ مُحَمَّد ﷺ . وشهادة علماء أهل الكتاب قَطَعَتْ كَلامَ الخُصوم . وقال القُرطبي في تفسيره (٩/ ٢٨٥) : ((وهذا احتجاج على مُشركي العرب ، لأنهم كانوا يَرجعون إلى أهل الكتاب)) .

وكان مُشركو العرب يَرجعون إلى اليهود والنصارى (أهل الكتابِ) ويَسألونهم ، لأنَّ العرب أُمَّة وثنية جاهلة مقطوعة عن السماء ، أمَّا اليهودُ والنصارى فَلَدَيهم التَّوراة والإنجيل ، وهُمَا في الأصل كتابان سماويان _ طَرَأ عليهما التَّحريف _ ، ولَدَيهم العلماء بعكس العرب .

وقِيل : إنَّ المقصود بِـ ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكِتابِ ﴾ هو عبد اللَّه بن سَلَام . وهذا قَول غير صحيح ، لأنَّ هذه الآية مَكِّية ، وعبد اللَّه بن سَلَام أسلمَ في المدينة حِينَ قَدِمَ إلَيها النبيُّ ﷺ .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير(٤/ ٣٤١ و٣٤٢): ((قَوْلُه تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الذينَ كَفروا ﴾ فِيهم قَولان: أحدهما أنهم اليهود والنصارى ، والثاني كُفَّار قُرَيش . ﴿ قُلْ كَفَى باللَّهِ شَهيدًا ﴾ أي: شاهدًا . ﴿ بَيْني وبَيْنَكُم ﴾ بما أظهرَ مِن الآيات ، وأبانَ مِن الدَّلالات على نُبُوَّتي . قَوْلُه تعالى : ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكِتابِ ﴾ فِيه سبعة أقوال : أحدها أنهم علماء اليهود والنصارى ، رواه العَوفي عن ابن عباس. والثاني أنه عبد اللَّه بن سلام، قاله الحسن ومُجاهد وعِكرمة وابن زَيد وابن السائب ومُقاتل. والثالث أنَّهم قَوم من أهل الكتاب، كانوا يَشهَدون بالحَق مِنهم عبد اللَّه بن سلام وسلمان الفارسي وتميم الداري، قاله قَتَادة. والرابع أنَّه جِبريل عليه السلام، قاله سعيد بن جُبَير . والخامس أنَّه عليُّ بن أبي طالب ، قاله ابن الحنفية. والسادس أنه بِنيامين، قاله شِمْر. والسابع أنَّه اللَّه تعالى، رُوِيَ عن الحسن ومُجاهد ، واختاره الزَّجَّاج)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَإن تَوَلَّوْا فإنَّما عَلَيْكَ البَلاغُ المُبِين ﴾ [النَّحْل : ٨٢] .

فَإن أعرضَ المُشركون عن النَّظَر والاستدلال والإيمان ، بعد وُضوح الحَق أمامَهم ، وانقطاعِ أعذارهم، وإقامةِ الحُجَّة عَلَيهم، فلا عَلَيْكَ يا مُحَمَّد مِنهُم، ولا تتحمَّل مسؤوليةَ كُفرهم وإعراضهم، فإنَّما عَلَيك البلاغ الواضح لا غَيْر، وقد أدَّيْتَ أمانةَ التبليغ كاملةً بكل أمانة وإخلاص . ولا يُوجد تقصير مِن النبيِّ ﷺ ، لأنَّ وظيفته هي البَلاغ الواضح، وليس إجبار الناس على اعتناق الإسلام. والهِدايةُ بيد اللَّه وَحْدَه . وتَوجيهُ الخِطَابِ للنبيِّ ﷺ للتَّخفيف عنه ، ورفعِ معنوياته .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤١٤) : ((﴿ فَإن تَوَلَّوْا ﴾ أعرَضوا ولَم يَقبلوا مِنك ﴿ فإنَّما عَلَيْكَ البَلاغُ المُبِين ﴾ ، فلا يَضُرُّكَ ، فإنما عليك البلاغ ، وقد بَلَّغْتَ . وهذا من إقامة السبب مَقام المُسَبَّب)) .

وقد أُقيم السبب (العِلَّة) مَقَامَ المُسَبَّب (المعلول) . وتقدير الكلام : فَإن تَوَلَّوْا، فلا تقصير ولا مُؤاخَذة عَلَيك ، لأنَّكَ ما عَلَيْكَ إلا البلاغ الواضح .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ رَبُّكُم أعلمُ بِكُم إن يَشَأْ يَرْحَمْكُم أوْ إن يَشَأْ يُعَذِّبْكُم وما أرسلناكَ عَلَيْهِم وَكيلًا ﴾ [الإسراء : ٥٤] . اللَّهُ يَعلَم مَن يَستحق الهِداية ، ومَن لا يَستحقها . والهِدايةُ والإضلالُ خاضعان لمشيئة اللَّه تعالى . إن يَشَأ اللَّهُ يَهْدِ الإنسانَ، ويَمنحه الإيمانَ ، ويُوفِّقه لطاعة اللَّه تعالى، فيفوز في الدَّارَيْن ، وبذلك يَكون اللَّهُ قَد رَحِمَه ، أوْ إن يَشَأ اللَّهُ يُضِل الإنسانَ بما كَسَبَتْ يَدَاه ، ولأنَّه ذُو قَلْب نَجِس ، ولا يستحق الهِدايةَ وشرفَ الإيمان ، فَيَخْسَر الدَّارَيْن ، ويَكون مُستحِقًّا للعذاب . والمعنى : إن يَشَأ يَمْنَحْكُم الإيمانَ فَيَرْحَمْكُم ، أوْ إن يَشَأ يَخْتِمْ لَكُم بالكُفْر فَيُعَذِّبْكُم .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير(٥/ ٤٧و٤٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ رَبُّكُم أعلمُ بِكُم ﴾ فِيمَن خُوطِب بِهذا، قَولان: أحدهما أنَّهُم المؤمنون، ثُمَّ في معنى الكلام قَولان: أحدهما إن يَشَأْ يَرْحَمْكُم فَيُنَجِّيكم من أهل مكة ، أوْ إن يَشَأْ يُعَذِّبْكُم فَيُسلِّطهم عَلَيكم ، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: إن يَشَأ يَرحمكم بالتَّوبة ، أو يُعذِّبكم بالإقامة على الذُّنُوب، قاله الحسن . والثاني أنَّهم المشركون، ثُمَّ في معنى الكلام قَولان: أحدهما إن يشأ يرحمكم فيهديكم للإيمان ، أو إن يشأ يُعذِّبكم فيُميتكم على الكُفْر ، قاله مُقاتل ، والثاني أنَّه لَمَّا نَزَلَ القَحْطُ بالمشركين ، فقالوا : ﴿ رَبَّنا اكْشِفْ عَنَّا العذابَ إنَّا مُؤمنون ﴾ [الدُّخان : ١٢] . قال اللَّهُ تعالى: ﴿ رَبُّكُم أعلمُ بِكُم ﴾ مَن الذي يُؤمِن وَمَن الذي لا يُؤمِن . إن يَشَأ يرحمكم فيكشف القَحْطَ عَنكُم ، أو إن يَشَأ يُعذِّبكم فيتركه عليكم ، ذَكَره أبو سُلَيمان)) .

والنبيُّ ﷺ ليس حفيظًا على الناس ، ولا يُحاسبهم ، ولا يَملِك أن يُدخِل الإيمانَ في قلوبهم . إنَّ النبيَّ ﷺ بشيرٌ ونذير ، يُبلِّغ رسالةَ اللَّه ، بلا زيادة ولا نُقصان ، ولا يَستطيع أن يُجبِر الناسَ على الإيمان، ولا يَملِك سُلطةَ حساب الناس . وحسابُ العبادِ على رَب العباد ، واللَّهُ يَهدي مَن يشاء ، ويُضِل مَن يشاء . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٥١) : ((﴿ وما أرسلناكَ عَلَيْهِم وَكيلًا ﴾ مَوكولًا إِلَيْكَ أمرُهم ، تَقْسِرهم على الإيمان،وإنَّما أرسلناكَ مُبَشِّرًا ونذيرًا، فَدَارِهِم وَمُرْ أصحابك بالاحتمال منهم. ورُوِيَ أنَّ المُشركين أفرطوا في إيذائهم ، فَشَكُوا إلى رسول اللَّه ﷺ فَنَزلت . وقِيل : شَتم عُمَرَ _ رضي اللَّهُ تعالى عنه _ رَجُلٌ مِنهم ، فَهَمَّ به ، فأمَرَه اللَّهُ بالعَفْو)) .

وقال القُرطبي في تفسيره (١٠/ ٢٤٢) : ((﴿ رَبُّكُم أعلمُ بِكُم إن يَشَأْ يَرْحَمْكُم أوْ إن يَشَأْ يُعَذِّبْكُم ﴾ هذا خِطاب للمشركين . والمعنى : إن يَشَأ يُوَفِّقْكم للإسلام فَيَرْحَمْكُم ، أو يُميتكم على الشِّرك فَيُعذِّبكم . قاله ابن جُرَيج . وأعلم بمعنى عليم ، نَحْو قَوْلِهم: اللَّه أكبر، بمعنى كبير. وقِيل : الخِطاب للمؤمنين، أي: إن يَشأ يرحمكم بأن يَحفظكم من كفار مكة، أو إن يشأ يُعذِّبكم بتسليطهم عَلَيكم ، قاله الكلبي . ﴿ وما أرسلناكَ عَلَيْهِم وَكيلًا ﴾ أي : وما وَكَّلْنَاكَ في مَنعهم مِن الكُفْر ، ولا جَعلنا إِلَيْكَ إيمانَهم . وقِيل: ما جعلناك كَفيلًا لهم تُؤخَذ بِهم ، قاله الكلبي)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قُلْ يا أيُّها الناسُ إنَّما أنا لَكُم نذيرٌ مُبين ﴾ [الحَج : ٤٩] .

الخِطَابُ للمُشركين الذين يَستعجلون العذابَ ، ويُريدون تدميرَ أنفسهم بأنفسهم ، ويَخلِطون استعجالَ العذاب بالسُّخرية والاستهزاء والعبث واللعب ، وهُم يُريدون هلاكَ أنفسهم مِن حَيث لا يَشعرون،وهكذا الحمقى في كُلِّ زمان ومكان، يَمشون إلى الهاوية بأقدامهم،والجاهلُ عَدُوُّ نفْسِه.

النبيُّ ﷺ لا يَملِك مِن أمره شَيئًا، فالأمرُ كُلُّه بِيَد اللَّه تعالى. والنبيُّ ﷺ لا يُحَاسِب أحدًا ، ولا يَقْدِر أن يُنْزِل العذابَ على الناسِ أو يُنْزِل عَلَيهم الرحمة. إنَّه يُنفِّذ أوامرَ اللَّه بلا زيادة ولا نقصان ، ويُخوِّف الناسَ مِن عذابِ اللَّه إن استمروا على المعاصي،وحسابُ العباد على رَبِّ العباد.والنبيُّ ﷺ نذير يُبيِّن للناس ما يَحتاجون إلَيه مِن أمر دِينهم . وقد خُصَّ " نذير " بالذِّكر مَعَ أنَّ النبيَّ ﷺ بشير أيضًا ، لأنَّ السِّياق يَتحدَّث عن المشركين وعِقابهم وتَخويفهم، فَظَهرت النِّذارة ولَم تَظهَر البِشارة.

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٠٧) : ((أي : إنَّما أرسلني اللَّهُ إلَيكم نذيرًا لكم بَين يَدَي عذابٍ شديد ، ولَيس إلَيَّ مِن حسابكم مِن شَيء . أمْرُكُم إلى اللَّه . إنْ شاءَ عَجَّلَ لكم العذابَ ، وإنْ شاءَ أخَّرَه عَنكم ، وإنْ شاءَ تابَ على مَن يَتوب إلَيه ، وإنْ شاءَ أَضَلَّ مَن كَتَبَ عَلَيْهِ الشَّقاوةَ ، وهو الفَعَّال لِمَا يَشاء ويُريد ويَختار)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قُلْ أطيعوا اللَّهَ وأطيعوا الرَّسُولَ فإن تَوَلَّوْا فإنَّما عَلَيْهِ ما حُمِّلَ وَعَلَيْكُم ما حُمِّلْتُم وإن تُطيعوهُ تَهْتَدُوا وما عَلى الرَّسُولِ إلا البَلاغُ المُبِينُ ﴾ [النُّور : ٥٤] .

قُل يا مُحمَّد : أطيعوا اللَّهَ في أمْرِه ونَهْيِه ، وأطيعوا الرسولَ ، فإنَّ طاعته طاعةٌ للَّه تعالى ، فالرسولُ لا يَأتي بشيء مِن عِنده، إنَّه المُتحدِّث باسمِ اللَّه ، يَحمل الشريعةَ الإلهية ، وأقوالُه وأفعالُه وَحْيٌ إلهيٌّ مَعصوم . والطاعةُ تتجلَّى في اتِّباع القُرآن والسُّنَّة .

وتكريرُ " أطيعوا " في الآية : ﴿ قُلْ أطيعوا اللَّهَ وأطيعوا الرَّسولَ ﴾ للتَّشديد على وُجوب الطاعة عليهم . وكان الخِطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ، وانتقلَ لهم: ﴿ فإن تَوَلَّوْا ﴾ للتَّشديد عليهم في وُجوب الطاعة ، والخُضوع للَّه ولرسوله ﷺ ، وبيان خُطورة الإعراض وترك ما جاء بِه مُحمَّد ﷺ .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٦ / ١٨٩): ((وقَوْلُه تعالى : ﴿ فإن تَوَلَّوْا ﴾ خِطاب للمَأمورين بالطاعة مِن جِهته تعالى ، وارد لتأكيد الأمر بها ، والمُبَالَغَة في إيجاب الامتثال به ، والحَمْل عليه بالترهيب والترغيب)) .

فإن تُعرِضوا عَن الشَّريعة المُحمَّدية الإسلامية، وتتركوا الوَحْيَ الإلهيَّ الذي جاء بِه مُحمَّد ﷺ، فإنَّما على النبيِّ ﷺ تبليغ الرسالة،وقد أدَّى أمانةَ التبليغ كاملةً على أحسن وَجْه، وعليكم الاستجابة له ، والقَبول بالرِّسالة ، والعمل بِمُقتضاها. وهذا وعيدٌ وتهديد لهم .

إنكم مُلْزَمون بالإيمان بالرسالة والعمل بِها. وقد قامت عليكم الحُجَّةُ، وانقطعَ عُذْرُكم . فَإن أدَّيْتُم فلكم ، وإن أعْرَضْتُم فعليكم . إن آمَنْتُم بما جاء بِه مُحمَّد ﷺ وعملتُم بِه ، فقد فُزْتُم بالدَّارَيْن ، والفائدةُ تَعود إلَيكم ، وإن أعْرَضْتُم عنه ، فالضَّرَر يَعُود إلَيكم ، فقد ضَرَرْتُم أنفسَكم ، وعرَّضتموها لغضب اللَّه وعذابه ، لأنكم لَم تَحْمِلُوا الشريعةَ . ولَم تَضُرُّوا النبيَّ ﷺ ، لأنه أدَّى أمانةَ التبليغ كاملةً على أحسن وَجْه .

وقد قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وعَلَيْكُم مَا حُمِّلْتُم ﴾ ، ولَم يَقُلْ : وعَلَيهم . والمعنى : يَجب عليكم القَبول ، وليس على النبيِّ ﷺ أن تَقْبَلوا ، لأنَّ النبيَّ ﷺ مُبلِّغ ، وليس رقيبًا على الناس ، فهو ﷺ لا يُجبِرهم على الإيمان ، ولا يُحاسِبهم على أقوالهم وأفعالهم . والنبيُّ ﷺ لَم يَحمل إيمانَكم ، وإنما حَمَلَ تَبليغَكم ، وقد أدَّى أمانةَ التَّبليغ كاملةً بلا كَسَل ولا مَلَل ولا تقصير .

والمعنى العام : يَجب على كُلِّ شخص ما كُلِّفَ بِه . واللَّهُ لا يُحمِّل الناسَ فوق طاقتهم ، ولا يَظلمهم . والشريعةُ جاءت لرفع الحَرَج . ومِن خصائص التَّشريع في الإسلام : التَّيسير ، ورفع الحَرَج عَن المُكَلَّفِين . وأساسُ الشريعةِ قائمٌ على الحِكَم ومصالح العِباد في الدُّنيا والآخرة .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٦/ ١٨٩) : ((ولعلَّ التعبير عنه بالتحميل للإشعار بِثِقَله ، وكَوْنه مُؤنة باقية في عُهدتهم بَعْد ، كأنه قِيل : وحيث تَوَلَّيْتُم عن ذلك ، فقد بَقِيتُم تحت ذلك الحِمْل الثقيل)) .

وإن تُطيعوا النبيَّ ﷺ فيما أمركم بِه ونهاكم عنه، تَرْشُدوا ، وتُصيبوا الحقَّ ، وتهتدوا إلى الخَير ، وتَفوزوا بالسعادة الدُّنيوية ، وتنالوا النعيمَ الأبديَّ (الجَنَّة)، لأنَّ النبيَّ ﷺ يَدعو إلى الإيمان والحق والأخلاق الحميدة والقيم النبيلة، وهو على صِراط مستقيم ، لا يَنحرف ولا يَزيغ . والهدايةُ مُقترنة بطاعة النبيِّ ﷺ . ومُهِمَّةُ الرسول محصورة في تبليغ الرسالة بشكل كاملٍ وواضح ، بلا زيادة ، ولا نُقصان ، ولا غُموض . وفي زاد المسير (٦/ ٥٦) : ((وكان بعض السَّلَف يَقول : مَن أَمَّرَ السُّنَّةَ على نَفْسِه قَوْلًا وفِعْلًا ، نَطَقَ بالحِكمة ، ومَن أَمَّرَ الهَوى على نَفْسِه قَوْلًا وفِعْلًا ، نَطَقَ بالبِدْعة ، لِقَوله : ﴿ وإن تُطيعوهُ تَهْتَدُوا ﴾)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٦٨) : ((أمَرَ اللَّهُ سُبحانَه نَبِيَّه ﷺ أن يَأمرهم بطاعة اللَّه ورسوله ، فقال : ﴿ قُلْ أطيعوا اللَّهَ وأطيعوا الرَّسولَ ﴾ طاعةً ظاهرةً ، وباطنةً بِخُلُوص اعتقاد ، وصِحَّةِ نِيَّة . وهذا التكرير مِنه تعالى لتأكيد وجوب الطاعة عليهم ، ... ، ﴿ فإن تَوَلَّوْا ﴾ خِطَاب للمَأمورين . ... . وفيه رُجوع مِن الخِطَاب معَ رسول اللَّه ﷺ إلى الخِطَاب لهم ، لتأكيد الأمر عليهم ، والمُبَالَغَة في العِناية بِهِداية‌تهم إلى الطاعة والانقياد . وجواب الشَّرْط قَوله : ﴿ فإنَّما عَلَيْهِ ما حُمِّلَ وَعَلَيْكُم ما حُمِّلْتُم ﴾ ، أي : فَاعْلَمُوا أنَّما على النبيِّ ﷺ ما حُمِّلَ مِمَّا أُمِرَ به مِن التبليغ ، وقد فَعَل، وعَلَيكم ما حُمِّلْتُم ، أي : ما أُمِرْتُم بِه مِن الطاعة ، وهو وعيد لهم ، كأنه قال لهم : فإن تَوَلَّيْتُم فقد صِرْتُم حاملين للحِمْل الثقيل ، ﴿ وإن تُطيعوهُ ﴾ فِيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿ تَهْتَدُوا ﴾ إلى الحَق ، وتُرْشَدُوا إلى الخَير ، وتَفُوزوا بالأجر . وجُملة ﴿ وما عَلى الرَّسُولِ إلا البَلاغُ المُبِينُ ﴾ مُقَرِّرة لِمَا قَبْلَها ، واللام إمَّا للعَهْد ، فَيُرَاد بالرسول نَبِيُّنَا ﷺ ، وإمَّا للجِنْس ، فَيُرَاد كُل رسول . والبَلاغ المُبين : التبليغ الواضح أو المُوَضِّح)) .

وفي مُسند أحمد (٤/ ٢٧٨) عن أبي أُمَامة الباهليِّ ـ رضي اللَّهُ عنه ـ قال : ((عَلَيكم بالسَّواد الأعظم))، قال رَجُل: ما السَّوادُ الأعظم ؟، فقال أبو أُمَامة: ((هذه الآية في سُورة النُّور : ﴿ فإن تَوَلَّوْا فإنَّما عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وعَلَيْكُم مَا حُمِّلْتُم ﴾)) [31].

---

٣١ قال الهيثمي في مجمع الزوائد(٥/٣٩٢):((رواه عبد اللَّه بن أحمد،والبَزَّار،والطبراني،ورجالهما ثقات)).

إنَّ الأُمَّة المُحمَّدية الإسلامية مَعصومة عِصمة عامَّة ، لا تَجتمع على ضَلالة ، ويَجب التزام الجَمَاعة ، ومَن شَذَّ شَذَّ في النار . والسَّوَادُ الأعظم هُم جُملة الناس ومُعظمهم .

والمعنى: الْزَمُوا مُتابعةَ جماهير المسلمين، واسْلُكوا طريقَ الأغلبية ، فهو الحق الذي لا تَجوز مُخالفته ، والصَّواب الذي لا تجوز مُعارضته . ومَن خالفَ ماتَ مِيتةً جاهلية .

وفي شرح سُنن ابن ماجة (١/ ٢٨٣) : ((قَوله : " فَعَلَيكم بالسَّواد الأعظم " ، أي: جُملة الناس ومُعظمهم الذين يَجتمعون على طاعة السُّلطان ، وسُلوك النهج المُستقيم ، كذا في المجمع، فهذا الحديث مِعيار عظيم لأهل السُّنَّة والجماعة ، شَكَرَ اللَّهُ سَعْيَهم ، فإنَّهُم هُم السَّواد الأعظم، وذلك لا يحتاج الى بُرهان، فإنَّك لَوْ نظرتَ إلى أهل الأهواء بأجمعهم معَ أنهم اثنان وسبعون فِرقة، لا يَبلُغ عددُهم عُشْرَ أهل السُّنَّة . وأمَّا اختلاف المُجتهدين فيما بينهم ، وكذلك اختلاف الصُّوفية الكِرَام ، والمُحدِّثين العِظَام ، والقُرَّاء الأعلام ، فهو اختلاف لا يُضلِّل أحدُهم الآخَرَ ، بَل قِيل: الصُّوفية بخَير ما تنافروا . وقال شيخ الإسلام الأنصاري : أي ما لَم يَأمر أحدُهم الآخَرَ بالعُرف والمُرشد واجتناب المنهيات لَم يكن فيهم خَير . قال إمام المُحدِّثين السُّيوطي في إتمام الدِّراية: نعتقد أنَّ إمامنا الشافعي ومالكًا وأبا حنيفة وأحمد _ رضي اللَّهُ تعالى عنهم _ وسائر الأئمة على الهُدى مِن رَبِّهم في العقائد وغَيرها ، ونعتقد أنَّ الإمام أبا الحسن الأشعري إمام في السُّنَّة ، أي : الطريقة المُعْتَقَدَة ، وقَدَّمُوه فِيها على غَيره ، ونعتقد أن طريقة أبي القاسم الجُنَيد سيِّد الطائفة الصُّوفية عِلْمًا وعَمَلًا طريق مُقَدَّم ، فهو خالٍ عَن البِدعة ، دائر على التدبير والتسليم والتَّبَرِّي عن النَّفْس ، يَبْني على الكِتاب والسُّنَّة ، كذا في بحر المذاهب)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿إنَّكَ لا تُسْمِعُ المَوْتَى ولا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إذا وَلَّوْا مُدْبِرِين﴾[النَّمْل: ٨٠].

إنَّكَ يا مُحَمَّد لا تَستطيع إسماعَ الكُفَّار المواعظ والإرشادات، ولا تَقْدِر على إفهامهم الحق ، لأنهم تَركوا الاعتبارَ ، وأهْمَلُوا التَّدَبُّرَ ، ولا يَتفكرون في آيات اللَّه ، ولا يتأمَّلون مظاهر قُدرته ، ولا يَفهمونه حُجَجه وبراهينه وأدلته ، فَهُم كالمَوتى ، قُلوبهم مُغلَقة ، وعقولهم مُعطَّلة ، بلا مشاعر ولا حواس، إذْ إنهم لَم ينتفعوا بها، ولَم يستفيدوا مِنها،فكان وجودها كعدمه،بلا فائدة ولا جَدوى.

ولا تَستطيع يا مُحَمَّد إسماعَ الكفار دُعاءك ونداءك ومواعظك ، ودَعوتك إلى تَوحيد اللَّه وعبادته وطاعته ، لأنهم كالصُّم الذين لا يَسمعون، ولا يَفهمون ، ولا يُجيبون . لا سِيَّما إذا ابتعدوا عنكَ ، وأعْرَضُوا عَن دَعوتك ، ووَلَّوْا مُدبِرين . إنَّ الكُفَّار بِمَنْزلة الصُّم ، لا يَسْمَعُون النداء ، ولا يَفهمون الدعاء، إذا أعرَضوا وأدْبَرُوا . ومَن كان هذا شأنه ، فهو أبعد ما يُمكن عن الإيمان والحق

والهدى. وهذا يدل على إعراضهم التام عن الحق ، ورفضهم الأكيد للهدى ، فإن الأصم لا يَسمع الدعاء إذا كان مُقْبِلًا ، فكيفَ يَسمعه إذا كان مُعْرِضًا مُدْبِرًا ؟! . وهذا تأكيد ومُبالَغة ، لتوضيح شِدَّة كفرهم وضلالهم وعنادهم ، ورفضهم سَماع الحق . فكيفَ يُؤمنون ويَهتدون وهُم يَرفضون مُجرَّد سَماع الحق ؟! .

والآيةُ تَدعو النبيَّ ﷺ إلى التَّوَكُّل على اللَّه ، والاعتماد عليه ، وإسناد الأمر إليه ، وقطع الأمل في إسلام هؤلاء الكفار ، والإعراض عَنهُم . فَهُم كالمَوتى ، لا يَنتفعون بما يَسْمَعونه مِن الآيات العظيمة والحِكَم البليغة والمواعظ المُؤثِّرة . ولا فائدة مِنهم ، ولا جَدوى مِن دَعوتهم .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ١٢): ((قَوله : ﴿ إنَّكَ لا تُسْمِعُ الموتى ﴾ يقول : إنَّكَ يا مُحَمَّد لا تَقْدِر أن تُفْهِمَ الحَقَّ مَن طَبَعَ اللَّهُ على قلبه فأماته ، لأنَّ اللَّه قد خَتَمَ عليه أن لا يَفهمه ﴿ ولا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ ﴾ يقول:ولا تَقْدِر أن تُسمِع ذلك مَن أَصَمَّ اللَّهُ عَن سماعه سَمْعَه ﴿ إذا وَلَّوْا مُدْبِرين ﴾ يقول: إذا هُم أدْبَروا مُعرِضين عنه لا يسمعون له لِغَلَبَةِ رَيْن (طَبْع) الكُفْر على قُلوبهم ، لا يُصغون للحق ، ولا يتدبَّرونه ، ولا يُنصِتون لقائله ، ولكنهم يُعرِضون عنه ، ويُنكِرون القَول به والاستماع له)) .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ١٧٦) : ((فإن قِيل : ما معنى قَوله : ﴿ وَلَّوْا مُدْبِرِين ﴾ ، وإذا كانوا صُمًّا لا يَسْمَعون، سَوَاءٌ وَلَّوْا أوْ لَم يُوَلُّوا ؟. قِيل : ذَكَرَه على سبيل التأكيد والمُبالَغة . وقِيل : الأصَم إذا كان حاضرًا فقد يسمع برفع الصوت، ويَفهم بالإشارة ، فإذا وَلَّى لَم يَسمع ، ولَم يَفهم. قال قَتادة : الأصم إذا وَلَّى مُدْبِرًا ثُمَّ نَادَيْتَه ، لَم يَسمع ، كذلك الكافر ، لا يَسمع ما يُدعَى إليه من الإيمان. ومعنى الآية : أنهم لِفَرْط إعراضهم عمَّا يُدْعَوْنَ إليه كالمَيْت الذي لا سبيل إلى إسماعه . والأصَم الذي لا يَسمع)) .

وفي صحيح البخاري (١/ ٤٦٢) عن عائشة_ رضي اللَّهُ عنها_ قالت: إنَّما قال النبيُّ ﷺ : ((إنهم لَيَعْلَمُونَ الآنَ أنَّ ما كُنتُ أقولُ حَق)). وقد قال اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّكَ لا تُسْمِعُ الموتى ﴾ .

احْتَجَّتْ السَّيدة عائشة _ رضي اللَّهُ عنها _ بهذه الآية ، وأنكَرَتْ أنَّ النبيَّ ﷺ قد أسمعَ مَوْتى بَدْر (كُفَّار قُرَيش المَقتولين بِبَدْر). والثابتُ أنَّ النبيَّ ﷺ قد أسمعهم. وهذا أمر خاص بالنبيِّ ﷺ ، حيث خَرَقَ اللَّهُ له العادةَ ، ومَنَحَه القُدْرَةَ على إسماع المَوتى .

والعبارة(وقد قال اللَّهُ تعالى: ﴿ إنَّكَ لا تُسْمِعُ الموتى ﴾). هذا الكلام لعائشة رضي اللَّهُ عنها. ومعنى الآية : لا تُسْمِع المَوتى يا مُحَمَّد إسماعًا يَستفيدون مِنه ، ويَنتفعون به ، ويتَّعظون بسببه .

وقال الحافظ في الفتح (٣/ ٢٣٤ و٢٣٥):((وأمَّا استدلالها بِقَوله تعالى: ﴿ إنَّكَ لا تُسْمِعُ الموتى ﴾ ، فقالوا : معناها : لا تُسْمِعهم سماعًا يَنفعهم ، أوْ لا تُسْمِعهم إلا أن يشاء اللَّهُ . وقال : السُّهَيلي: عائشة لَم تَحْضُرْ قَولَ النبيِّ ﷺ ، فَغيرها مِمَّن حضر أحفظ للفظ النبيِّ ﷺ . وقد قالوا له: يا رسول اللَّه ، أَتُخَاطِب قَوْمًا قد جَيَّفوا ؟، فقال : " ما أنتم بأسمعَ لِمَا أقُول مِنهُم " . قال : وإذا جاز أن يكونوا في تلك الحال عَالِمين،جَاز أن يكونوا سامعين،إمَّا بآذان رؤوسهم كما هو قَول الجُمهور، أوْ بآذان الرُّوح ، على رأي مَن يُوجِّه السؤال إلى الرُّوح مِن غَير رجوع إلى الجسد ... انتهى. وقَوله : إنَّها لَم تَحْضُرْ ، صحيح . لكن لا يَقْدَح ذلك في روايتها ، لأنَّه مُرسَل صحابي،وهو محمول على أنها سَمِعَتْ ذلك مِمَّن حَضَرَه، أوْ مِن النبيِّ ﷺ بَعْد... .وقال ابن التين: ... المَوتى لا يَسْمَعُون بلا شك ، لكن إذا أرادَ اللَّهُ إسماعَ ما لَيس مِن شأنه السَّماع لَم يمتنع)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وما أنتَ بِهَادِي العُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إن تُسْمِعُ إلا مَن يُؤْمِنُ بآياتِنَا فَهُم مُسْلِمُون ﴾ [النَّمْل : ٨١] .

ولا تَقْدِر يا مُحَمَّد أن تَهْدِيَ مَن أعمى اللَّهُ قَلْبَه وبصيرته، وَصَرَفَه عن الإيمان والحَق والهُدى، ولا تستطيع أن تَخْلُقَ الإيمانَ في قَلْبه ، ولا تُخْرِجه مِن كُفْره وضَلاله وجَهْله وعِناده . واللَّهُ وَحْدَه هو القادر على هِداية القُلوب ، لأنَّ القُلوب بيد اللَّه وَحْدَه .

ما تُسْمِع يا مُحَمَّد سَمَاعَ تَدَبُّر وإفهام إلا المؤمنين ، الذينَ صدَّقوا بآيات اللَّه ، فهؤلاء وَحْدَهم هُم المُنتفعون بالآيات والحُجَج والبراهين والحِكَم والمواعظ والإرشادات . لقد كَتَبَ اللَّهُ لهم السعادةَ والهَنَاء ، ومَنَحَهُم شَرَفَ الإيمان تَفَضُّلًا مِنْهُ عَلَيهم . وهُم مُصَدِّقون بِوَحدانية اللَّه ، ومُخلِصون له العبادة . قُلوبهم عامرة بالإيمان والطاعات ، وإذا سَمعوا آياتِ اللَّه تُتلَى عليهم ، عَرَفوا دَلالة ألفاظها، وفَهِمُوا مَعناها ، وعَمِلُوا بما فيها . لذلك كان سَمَاع المؤمنين للآيات سَمَاعًا نافعًا مُفيدًا ، يَعُود عليهم بالخَير والبَرَكات ، بعكس الكافرين .

ولا يَستجيب للدَّعوة المُحمَّدية الإسلامية إلا أهل الإيمان والتقوى، الذين أسْلَمُوا للَّه وأقَرُّوا بِوَحدانيته ، وخَضعوا لِحُكمه ، وانقادوا لأمره ، وصدَّقوا بِنُبُوَّة مُحَمَّد ﷺ .

إنَّ مَن يَستجيب لَكَ يا مُحَمَّد ، ويُصَدِّق بِنُبُوَّتك ودَعوتك ، هو صاحب القلب الحَي بِنُور الإيمان،الذي يُبصِر آياتِ اللَّه ومظاهر قُدرته ودلائل عَظَمَته، ويتفكَّر فيها ، ويتأمَّل في إعجازها . وهذا هو البَصَر النافع (البصيرة)، ويَسمع المواعظ والإرشادات بتركيز وفهم ووَعْي ، ويُطَبِّقها على أرض الواقع . وهذا هو السَّمَاع النافع . أمَّا مَن أعماه اللَّهُ عن الحق ، ومَنَعَه مِن الإيمان ،

وحَجَبَ عنه الهُدى ، عُقوبةً له ، لأنَّه لا يَستحق شَرَفَ الإيمان ، فهذا هالكٌ لا مَحَالة ، وعاجز عن الاهتداء إلى الحَق ، وإصابةِ الرَّشاد ، ومعرفةِ طريق الصواب ، فكيفَ تَهْديه يا مُحَمَّد وقد أضَلَّه اللَّهُ تعالى ؟ . إنَّ اللَّه يَهْدي مَن يشاء، ويُضِل مَن يشاء. والهِدَايةُ والإضلال بيد اللَّه وَحْدَه .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٣/ ٢٢٢ و٢٢٣) : ((لَمَّا كانوا لا يَعُون ما يَسْمَعُون ، ولا به يَنتفعون ، شُبِّهُوا بالمَوتى ، وهُم أحياء صِحَاح الحواس ، وبالصُّم الذين يُنعَق بهم ، فلا يَسْمَعُون ، وبالعُمْي حيث يَضِلُّون الطريقَ ، ولا يَقْدِر أحد أن يَنْزع ذلك عنهم ، ويَجعلهم هُداة بُصَراء إلى اللَّه تعالى . أكَّد حَالَ الصُّم بِقَوله : ﴿ إذا وَلَّوْا مُدْبِرين ﴾ ، لأنَّه إذا تباعدَ عن الدَّاعي بأن تَوَلَّى عنه مُدْبِرًا ، كان أبعدَ عن إدراك صَوْته ... . ﴿ إن تُسْمِعُ إلا مَن يُؤمِنُ بآياتِنا ﴾ ، أي : ما يُجْدي إسْمَاعُك إلا على الذين عَلِمَ اللَّهُ أنَّهُم يُؤْمِنُون بآياته ، أي : يُصَدِّقون بها ﴿ فَهُم مُسلِمون ﴾ مُخْلِصون، مِن قَوله : ﴿ بلى مَن أسلمَ وَجْهَهُ للَّه ﴾ [البقرة : ١١٢] يعني : جَعله سَالِمًا للَّه ، خالصًا له)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَمَنِ اهتدى فإنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إنَّمَا أنا مِنَ المُنذِرِين ﴾ [النَّمْل : ٩٢] .

مَن آمَنَ بالنبيِّ ﷺ والقُرآنِ الذي جاءَ به فقد اهتدى إلى طريق الحق ، وفازَ بسعادةِ الدُّنيا ونَعيمِ الآخِرة ، ومَن انحرفَ عَن الطريق المستقيم بتكذيب النبيِّ ﷺ ورفضِ القُرآن ، فقد خَسِرَ الدنيا والآخِرة معًا . والنبيُّ ﷺ مُنْذِرٌ يُبَلِّغُ الرسالةَ الإلهيةَ للناسِ بلا زيادة ولا نُقصان ، ولا يُحاسِب الناسَ . إنَّما حسابُ العِباد على رَبِّ العِباد .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٢٥) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه : فَقُل يا مُحَمَّد لِمَن ضَلَّ عَن قَصْد السبيل ، وكَذَّبَكَ ولَم يُصدِّق بما جِئتَ به مِن عِندي : إنَّما أنا مَن يُنذِر قَوْمَه عَذابَ اللَّهِ وسَخطَه على مَعصيتهم إيَّاه ، وقد أنذرتكم ذلك مَعْشَرَ كُفَّار قُرَيش ، فَإنْ قَبِلْتُم وانتهيتم عمَّا يَكرَهه اللَّهُ مِنكُم مِن الشِّرْك به ، فَحُظُوظ أنفسكم تُصيبون ، وإنْ رَدَدْتُم وَكَذَّبْتُم ، فعلى أنفسكم جَنَيْتُم ، وقد بَلَّغْتُكُم ما أُمِرْتُ بإبلاغه إيَّاكم ونَصَحْتُ لكم)) .

والنبيُّ ﷺ سائر على خُطَى إخوته الأنبياء المُنذِرين _ عليهم الصلاة والسلام _ ، الذينَ أوْصَلُوا الوَحْيَ الإلهيَّ للناسِ بكل صِدْق وإخلاص ، وقاموا بأداء أمانة التَّبليغ على أكملِ وَجْه ، ولَم يَتكاسَلوا ولَم يُقصِّروا ، وحسابُ أُمَمهم على اللَّه تعالى . والنبيُّ ﷺ وَاحدٌ مِنهُم ، لا يَنحرِف عَن طريقهم ، بَل هُوَ زَعيمهم وقائدُهم .

ونَفْعُ الإيمانِ يَعود على صاحبه ، فاللَّهُ تعالى لا تَنفعه الطاعةُ ، ولا تَضُرُّه المعصية ، فهو سُبحانَه غنيٌّ عن الإيمان والكُفر معًا ، وغنيٌّ عن المؤمنين والكافرين كُلِّهم جميعًا . ومَن اهتدى وانتفعَ بالقُرآنِ وعَمِلَ بأحكامه وشرائعه ومواعظه فَلَهُ أجرُ هِدايته ، والقُرآنُ قائدُه إلى الجَنَّة . ومَن اختارَ الكُفرِ،فهو حُرٌّ في اختياره، لكنَّه أهلكَ نَفْسَه، وقادها إلى عذاب النار ، وَوَبَالُ ضَلاله عَلَيه . والنبيُّ ﷺ لا يَتَحَمَّل مَسؤوليةَ كُفر الكافرين ، فَلَيس عَلَيه إلا البلاغ . والإنسانُ حُرٌّ في اختياره، ويَتحمَّل مسؤوليةَ اختياره أمامَ الناسِ ، وأمامَ اللَّه تعالى .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وإن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِن قَبْلِكُم وما على الرَّسُولِ إلا البَلاغُ المُبين ﴾ [العنكبوت : ١٨] .

هذه الآيةُ تهديدٌ شديد ، ووعيد أكيد . وإنْ تُكذِّبوا أيُّها الناس مُحَمَّدًا ﷺ ، فَقد كَذَّبَتْ أُمَمٌ وأقوامٌ قَبْلَكم . كَذَّبوا رُسُلَهم فَحَلَّ بهم العذابُ الإلهيُّ ، ونزلت بهم العقوبة الشديدة ، فاحذروا أن تكونوا مِثْلَهم، وتسيروا في طريقهم، فَتَهْلِكُوا. وما على مُحَمَّد ﷺ إلا البلاغ الواضح المفهوم ، الذي لا غُموض فِيه ولا لَبْس . يَفهمه كُلُّ مَن سَمِعَه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٥٤٠) : ((يعني إنَّما على الرسول أن يُبلِّغكم ما أمَرَه اللَّهُ تعالى به مِن الرِّسالة ، واللَّه يُضِل مَن يَشاء ، ويَهدي مَن يَشاء ، فاحْرِصُوا لأنفسكم أن تكونوا مِن السُّعَداء)) .

والتكذيبُ عادةُ الكفارِ،وليس على الرسول إلا التبليغ. وليس عليه هدايتهم ، وليس ذلك في استطاعته . فالهادي هو اللَّه وَحْدَه . والأقوامُ الكافرة ضَرُّوا أنفسَهم ،لأنهم جَلبوا العذابَ والشقاءَ لأنفسهم، وقادوها إلى الهلاك الأبديِّ، ولَم يَضُرُّوا رُسُلَهم . واللَّهُ يُخفِّف عن النبيِّ ﷺ ، ويَرفع معنوياته ، بسبب انزعاجه الشديد وشعوره بالضِّيق بسبب كُفْر أهل مكة وعِنادهم وسُخريتهم .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ١٢٩) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : وإن تُكذِّبوا أيُّها الناس رَسُولَنا مُحَمَّدًا ﷺ فِيما دَعاكم إليه مِن عِبادة رَبِّكم الذي خلقكم ورزقكم ، والبراءة من الأوثان ، فقد كَذَّبَتْ جماعات مِن قَبْلكم رُسُلَها فِيما دَعَتْهُم إلَيه الرُّسُل من الحق ، فَحَلَّ بِها مِنَ اللَّه سَخَطُه ، ونزل بها مِنْه عاجلُ عُقوبته، فسبيلكم سبيلها فيما هو نازل بكم بتكذيبكم إيَّاه . ﴿ وما على الرَّسولِ إلا البَلاغُ المُبين ﴾ . يقول : وما على مُحَمَّد إلا أن يُبلِّغكم عَن اللَّه رسالته ، ويُؤَدِّي إلَيكم ما أَمَرَه بأدائه إلَيكم رَبُّه . ويعني بالبلاغ المُبين : الذي يُبين لِمَن سَمِعَه ما يُراد به ، ويُفْهَم بِه ما يَعْني به)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلا البَلاغُ ﴾[الشُّورى:٤٨].

فإن أعرضَ المُشركون عن الإيمان ، وقَاوَمُوا الدَّعوةَ الإسلامية ، ورفضوا الهِدايةَ الإلهيةَ ، ولَم يَستجيبوا للحَّق، فما بَعَثَكَ اللَّهُ يا مُحمَّد رقيبًا على أعمالهم،تَحفظها وتُحصيها،ولا مُوكَّلًا بهم، ولا مُحَاسِبًا لهم . ما عَلَيْكَ إلا أن تُبلِّغ رسالةَ اللَّه ، وتُوصِل إلَيهم الوَحْيَ السماويَّ ، وهذه هي مُهِمَّتُك ، وقد قُمْتَ بها ، وفَعَلْتَ ما عَلَيْكَ ، وأدَّيْتَ أمانةَ التَّبليغ كاملةً. وهِدايتهم بيد اللَّه وَحْدَه.

والآيةُ تَسلية للنبيِّ ﷺ ، ورَفْع لمَعنوياته ، وإزالة لحُزنه وهَمِّه ، بسبب عدم إيمانهم .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ١٦١) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه : فإنْ أعرضَ هؤلاء المُشركون يا مُحمَّد عمَّا أتَيْتَهُم به مِن الحَق، ودَعَوْتَهُم إلَيه مِن الرُّشد، فلم يَستجيبوا لك، وأَبَوْا قَبوله مِنك، فَدَعْهُم،فإنَّا لَن نُرسلك لهم رقيبًا عليهم،تَحفظ عليهم أعمالَهم وتُحصيها ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلا البَلاغُ ﴾ يَقول : ما عَلَيْكَ يا مُحمَّد إلا أن تُبلِّغهم ما أرسلناكَ بِه إلَيهم مِن الرِّسالة ، فإذا بَلَّغْتَهُم ذلك ، فقد قَضَيْتَ ما عَلَيْكَ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُنتَقِمُون ﴾ [الزُّخْرُف : ٤١] .

إنْ أماتَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ قَبل تعذيب المُشركين ، وشِفَاءِ صَدْره وصُدور المؤمنين بهلاكهم ، فَإنَّ اللَّه سَيَنتقم مِن المُشركين بعد وفاة النبيِّ ﷺ ، ويُعذِّبهم في الدُّنيا والآخرة ، ولن يَستطيعوا الهُرُوبَ مِن العقوبة والعذاب .

والمعنى : لا بُدَّ أن يَنتقم اللَّهُ مِنهُم ، ويُعاقبهم ، حتى لَوْ ذَهَبْتَ يا مُحَمَّد .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٤٦) : ((﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ ﴾ أي : فَإن قَبضناكَ قبل أن نُبصِّرك عذابَهم . و" ما " مزيدة مُؤَكِّدة بمنزلة لام القَسَم في استجلاب النون المُؤَكِّدة ، ﴿ فَإِنَّا مِنْهُم مُنتَقِمُون ﴾ بعذاب في الدنيا والآخرة)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٧٩٣) : ((﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ ﴾ بالمَوت قَبْل أن يَنْزِل العذابُ بهم ، ﴿ فَإِنَّا مِنْهُم مُنتَقِمُون ﴾ إمَّا في الدُّنيا ، أوْ في الآخِرة . وقِيل : المعنى : نُخْرِجَنَّكَ مِن مَكَّة)) اهـ . وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٧/ ٣١٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ ﴾ ، قال أبو عُبَيدة : مَعناها : فَإن نَذْهَبَنَّ . وقال الزَّجاج : دخلت " ما " تَوكيدًا للشَّرْط ، وَدَخَلَتْ النُّون الثقيلة في ﴿ نَذْهَبَنَّ ﴾ تَوكيدًا أيضًا . والمعنى : إنَّا نَنتقِم مِنهُم إنْ تُوُفِّيتَ أوْ نُرِيَنَّكَ ما وَعَدْنَاهُم وَوَعَدْناك فِيهُم مِن النَّصْر . قال ابن عَبَّاس : ذلك يَوْم بَدْر . وذهب بعضُ المُفسِّرين إلى أنَّ قَوله : ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ ﴾ مَنسوخ بآية السَّيْف ، ولا وجه له)) .

وَذَهَبَ بعضُ العلماء إلى أنَّ المقصود بالآية هُم أُمَّة مُحَمَّد ﷺ . فعن قَتادة : في قَوْلِه تعالى : ﴿ فإمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإنَّا مِنْهُم مُنتقِمُون ﴾ ، فقال: قال أنس : ذَهب رسولُ اللَّه ﷺ وَبَقِيَت النِّقْمَةُ ، ولَم يُرِ اللَّهُ نَبِيَّه ﷺ في أُمَّته شيئًا يَكرَهه حتى مَضى ، ولَم يكن نبيٌّ إلا وقد رأى العُقوبةَ في أُمَّتِه إلا نَبِيَّكُم ﷺ [٣٢].

أكرمَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ ، ولَم يُنْزِلْ أيَّةَ عقوبة في الأُمَّة المُحمَّدية أثناء حياة النبيِّ ﷺ إكرامًا له ، وتَعظيمًا لِشَأنه ، وتَشريفًا لِقَدْرِه ، ولئلا يَشعر بالحزن والضِّيق والألم . وكُلُّ نبيٍّ رأى العقوبةَ في أُمَّته سِوى مُحَمَّد ﷺ ، وهذا يُشير إلى المكانة الجليلة لهذا النبيِّ الكريم ، وتفوُّقه على باقي الأنبياء _ عَلَيهم الصلاة والسلام _ . وبعد وفاةِ النبيِّ ﷺ ، نَزلت عُقوبات في الأُمَّة المُحمَّدية ، وأصابتها الفِتَنُ والمِحَن ، وحَدَثَ تفرُّقٌ في الأُمَّة ، واقتتالٌ بين أبنائها . وقد أكرمَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بأن قَبَضَه قبل أن يَرى الفِتَنَ التي وقعت في أُمَّته ، فَلَم يَرَ شَيئًا قبيحًا في أُمَّته .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أوْ نُرِيَنَّكَ الذي وَعَدْناهُم فإنَّا عَلَيْهِم مُقْتَدِرُون ﴾ [الزُّخْرُف : ٤٢] .

أوْ نُرِيَنَّكَ يا مُحَمَّد عذابَ المُشركين ، والانتقامَ مِنهم أثناءَ حياتك ، وإعلاءَ أمرك فَوْقَهم ، فاللَّهُ قادرٌ على ذلك ، ولا يُعجِزه شَيء . فهو سُبحانَه يَقْدِر أن يَنصرك عَلَيهم ، ويُجلِّلهم بالخِزْي والعار. والمعنى العام : لا بُدَّ أن يَنتقم اللَّهُ مِن المُشركين ويُعذِّبهم في حياة النبيِّ ﷺ أوْ بعد وفاته .

واللَّهُ لَم يَقْبِض النبيَّ ﷺ إلا بَعد أن أظْهَرَه على المُشركين، ونَصَرَه عَلَيهم ، وأخزاهم ، وأذَلَّهم.

وقال القُرطبي في تفسيره (١٦/ ٨٠) : ((قَوْلُه تعالى: ﴿ أوْ نُرِيَنَّكَ الذي وَعَدْناهُم ﴾ ، وهو الانتقام مِنهُم في حياتك ، ﴿ فإنَّا عَلَيْهِم مُقْتَدِرُون ﴾ . قال ابن عباس: قَد أراه اللَّهُ ذلك يَوم بَدْر ، وهو قَول أكثر المُفسِّرين . وقال الحَسَن وقَتَادة : هي في أهل الإسلام. يُريد ما كان بعد النبيِّ ﷺ مِنَ الفِتَن)) .

إنَّ اللَّه على كُل شيء قدير ، ولا يُعْجِزه شيء . وهو قادرٌ على أن يُرِيَ مُحَمَّدًا ﷺ في حياته الذي وعدهم مِن العذاب ، فهو سُبحانَه قادر ، متى شاءَ عَذَّبهم . وأراد به مُشركي مَكَّة ، انتقمَ مِنهُم يَوم بَدْر ، هذا قَول أكثر المُفسِّرين .

إنَّهُم خاضعون لِمَشيئة اللَّه وحُكْمِه، ومَقهورون تحت عَظَمَته ومَجْده ، ومَحصورون في مُلْكِه . ولا يَملِكون أيَّةَ فُرصة للهرب من العُقوبة ، أو الإفلات من العذاب .

---

٣٢ رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٨٥) برقم (٣٦٧٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٦٣): ((قال تعالى: ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُنتَقِمُون ﴾ [الزُّخْرُف : ٤١] ، أي : لا بُد أن ننتقم مِنهُم ونُعاقبهم وَلَوْ ذَهَبْتَ أنتَ ، ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ الذي وَعَدْناهُم فإنَّا عَلَيْهِم مُقْتَدِرُون ﴾ [الزُّخْرُف : ٤٢] ، أي : نَحْن قادرون على هذا وعلى هذا ، ولَم يَقْبِض اللَّهُ تعالى رَسُولَه ﷺ ، حَتَّى أَقَرَّ عَيْنَه مِن أعدائه ، وحَكَّمه في نَوَاصيهم ، ومَلَّكه ما تَضَمَّنَتْهُ صَياصيهم ــ يعني حُصونهم ــ ، هذا مَعنى قَول السُّدي ، واختاره ابن جرير)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولونَ وما أنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بالقُرآنِ مَن يَخافُ وَعِيدِ﴾ [ق : ٤٥] . إنَّ اللَّه أعلمُ بما يَقول مُشركو قُرَيش مِن تَكذيبك يا مُحَمَّد ، وشَتْمِك ، والاستهزاء بِك ، وإنكار البَعْث ، والطعنِ في آياتِ اللَّه ، والافتراءِ عَلَيه. ولَم تُبعَث يا مُحَمَّد لِتُجبرهم على اعتناق الإسلام . لَسْتَ مَلِكًا مُسَلَّطًا تَقهرهم وتُكْرِههم على الإيمان . إنما بُعِثْتَ مُذَكِّرًا وواعظًا، فَعِظْ بالقُرآنِ مَن يَخاف اللَّهَ تعالى ، ويَخشى عَذابَه . وهؤلاء هُم المؤمنون ، ووَحْدَهم يَنتفعون بالذِّكرى والموعظة . أمَّا الكافرون الذين يَستهزئون بآياتِ اللَّه تعالى ، فَلَن يَنتفعوا بالقُرآن ، وَسَوْفَ يَزدادون كُفْرًا إلى كُفْرهم . والآيةُ تُخفِّف عن النبيِّ ﷺ ، وتَرفع معنوياته ، وهي وَعيدٌ شديدٌ للمُشركين ، وتهديدٌ لهم . والآيةُ تَنْفِي عن النبيِّ ﷺ التَّكبرَ والاستعلاءَ بِغَير الحق، وهاتان الصِّفتان لا تَليقان بالنبيِّ ﷺ ، وهو السَّيد المُتواضع والنبيُّ الكريم ، ولَيس الطاغية المَغرور المُتَكَبِّر .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٨/ ٢٥): ((عَزَّى نَبِيَّه فقال : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولونَ ﴾ في تكذيبك ، يعني كُفَّار مَكَّة ، ﴿ وما أنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ . قال ابن عباس : لَم تُبعَث لِتُجبرهم على الإسلام ، إنَّما بُعِثْتَ مُذَكِّرًا ، وذلك قَبْل أن يُؤْمَر بقتالهم . وأنكرَ الفَرَّاء هذا القَول ، فقال : العرب لا تقول : فَعَّال مِن أفعلت ، لا يقولون خَرَّاج يُريدون مُخرِج ، ولا دَخَّال يريدون مُدخِل . إنَّما يقولون فَعَّال مِن فعلت ، وإنَّما الجَبَّار هنا في مَوضع السُّلطان مِن الجبرية...وقال ابن قُتَيبة : ﴿ بِجَبَّارٍ ﴾ أي : بِمُسَلَّط. والجَبَّار المَلِك . سُمِّيَ بذلك لِتَجَبُّرِه . يَقول : لَسْتَ عَلَيهم بِمَلِكٍ مُسَلَّط. قال اليزيدي : لَسْتَ بِمُسَلَّط فَتَقهرهم على الإسلام ، وقال مُقاتل : لِتَقتلهم)) .

وعن جرير بن عبد اللَّه ــ رضي اللَّهُ عنه ــ قال : أُتِيَ النبيُّ ﷺ بِرَجُلٍ تُرْعَدُ فَرائصُه ، فقال له : ((هَوِّنْ عَلَيْكَ ، فإنَّمَا أنا ابنُ امرأةٍ مِن قُرَيشٍ ، كانت تَأكلُ القَديدَ في هذه البَطْحاء)) . ثُمَّ تلا جرير بن عبد اللَّه البَجَلِيُّ : ﴿ وما أنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بالقُرآنِ مَن يَخافُ وَعِيدِ ﴾ [٣٣].

٣٣ رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٠٦) برقم (٣٧٣٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

كانَ النبيُّ ﷺ أحسنَ الناسِ خُلُقًا ، ومُتَّصِفًا بمكارم الأخلاق كُلِّها ، ومِنها التواضع والرِّفْق بالناس ، والتَّبَسُّط معَ أصحابه دُون تَضييع للهَيبة والوَقَار .

عِندما رَأى الرَّجُلُ النبيَّ ﷺ ارتبكَ، وخافَ، وأصابته رِعْدةٌ شديدةٌ مِن هَيبة النبيِّ ﷺ ، وراحَ يَرتجف، ويَضطرب مِنَ الرُّعب. والفَرائصُ جَمْع فَريصة ، وهي اللحمة بين الجَنْب والكَتِف ، وهي تَرجف عند الخوف . والنبيُّ ﷺ لَم يَستغل هذا الموقف لِيُكرِّس سُلطته وهيمنته ، ويُقدِّم نَفْسَه كَمَلِكٍ جبَّار . وإنَّما أرادَ أن يُخفِّف عن الرَّجُل المَذعور ، ويُساعده من أجل إعادته إلى الوضع الطبيعيِّ ، فقال له : خَفِّفْ عَن نَفْسِك ولا تَخَفْ ولا تَضطرب ، فإنَّما أنا ابنُ امرأةٍ مِن قُرَيش .

ووجهُ التواضع في قَوله : " أنا ابنُ امرأةٍ " ، لأنَّ هذا حقيقةُ الأمر ، وهي أنَّ كُلَّ إنسان مَولود مِن امرأة ، فهو ابنُها ، ولكنْ مِن شأن المُتكبِّرين أحيانًا أنَّهُم يَأنَفُون مِن أن يتذكَّروا هذه الحقيقةَ ، فكانَ ذِكْر النبيِّ ﷺ لذلك تهدئةً وتَأنيسًا للرَّجُل ، معَ إظهار التواضع وعدم التَّجَبُّر على الناس .

وقد نَسَبَ النبيُّ ﷺ نَفْسَه إلى أُمِّه ، لأنَّه أرادَ التحدثَ عن صَبْرها وكِفاحها وفَقْرها ، حيث كانت تأكلُ القَديدَ (اللحمَ المُمَلَّح المُجفَّف في الشَّمْس) في البَطحاء (المَكان المُتَّسع يَسيل فِيه الماءُ ، فَيُخلِّف فيه الترابَ والحَصَى الصِّغار). وكانوا يَفعلون ذلك باللحم لِحِفْظِه مِن الفساد. وأكلُ القَديد في البَطْحَاء علامةٌ على الفقر ، وضِيق العَيش، والمعاناة الشديدة ، ودليلٌ باهر على أنَّ النبيَّ ﷺ لا يَنتمي إلى عائلة غَنِيَّة .

لقد أرادَ النبيُّ ﷺ أن يَقول للرَّجل إنَّني ابنُ امرأةٍ قُرشية فقيرة عانت من صُعوبة العَيش ، وَلَسْتُ مَلِكًا مِن عائلة ثَرِيَّة تَغرق في المَلذَّات والشَّهَوَات ورَغَدِ العَيش . ولا شَكَّ أنَّ هذا الكلام يُخفِّف عن الرَّجُل ، ويُشعره أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ إنسان كريم ومتواضع ، ولَيس مَلِكًا جبَّارًا مُتَسَلِّطًا ، ولا طاغيةً يَغرق في نعيم الدنيا وشَهَواتها .

وفي قَوله : " تأكل القَديدَ " أنَّهُم لَم يَكُن عِندهم درجة الرَّفَاهِيَة التي تكون في أبناء المُلُوك ، فَرُبَّمَا أكلوا اللحمَ المُخَزَّنَ مِن ذبائحهم ، ولَيس الطازَج . وهذا الكلامُ مِن تواضع النبيِّ ﷺ ، ورِفْقِه بهم ، كما أمَرَه اللَّهُ تعالى ، فقال : ﴿ واخْفِضْ جَنَاحَكَ للمُؤمنين ﴾ [الحِجْر : ٨٨] ، وقال : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المؤمنين ﴾ [الشُّعَراء : ٢١٥] .

وقال الأبشيهي في المُستطرَف (١/ ٢٨٣) عن النبيِّ ﷺ : ((وكان يَرْقَعُ ثَوْبَه ، ويَخْصِفُ نَعْلَه، ويَخْدِم في مِهنة أهله ، ولَم يكن مُتكبِّرًا ، ولا مُتجبِّرًا . أشدُّ الناسِ حياءً ، وأكثرُهم تواضعًا. وكان إذا حَدَّثَ بِشَيء مِمَّا أتاه اللَّهُ تعالى قال : " ولا فَخْر ")) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وأطيعوا اللَّهَ وأطيعوا الرَّسُولَ فإن تَوَلَّيْتُم فإنَّما عَلى رَسُولِنا البَلاغُ المُبِين ﴾ [التَّغَابُن : ١٢] .

وأطيعوا اللَّهَ في الفرائض ، وأطيعوا الرسولَ في السُّنَن، والتزموا أوامرَهما ، واجتنبوا نَوَاهيهما . وكَرَّرَ الأمرَ " أطيعوا " للتأكيد والتَّنبيه على أنَّ طاعة الرسول واجبة كطاعة اللَّه ، ولا يُمكن الفصل بينهما . فإن أعرضتم عن طاعة اللَّه وطاعةِ الرسول ، فَلَيس على الرسول ضَرَر ، وإنَّما تَضُرُّون أنفسَكم. ووظيفةُ الرسول هي تبليغ الرسالة كاملةً بشكل واضح ، وقد بلَّغها وأدَّى ما عليه بأمانة وإخلاص ، وأقامَ عليكم الحُجَّةَ ، وقَطَعَ عُذرَكم . واللَّهُ يَنتقم مِمَّن عَصَاه وخالفَ أمْرَه ونَهْيَه ، وأعرضَ عنه .

وفي تفسير ابن كثير (٤/ ٤٨١): ((قال الزُّهري : مِن اللَّه الرِّسالة ، وعلى الرَّسول البَلاغ ، وعَلَينا التَّسليم)) .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ١١٦) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : ﴿ وأطيعوا اللَّهَ ﴾ أيُّها الناس في أمْرِه ونَهْيِه ، ﴿ وأطيعوا الرَّسُولَ ﴾ ﷺ ، ﴿ فإن تَوَلَّيْتُم ﴾ ، فإن أدبرتم عن طاعة اللَّه وطاعة رسوله مُستكبرين عنها ، فلم تُطيعوا اللَّهَ ولا رسولَه ، ﴿ فإنَّما ﴾ فَلَيْسَ ﴿ عَلى رَسُولِنا ﴾ مُحمَّد إلا ﴿ البَلاغُ المُبِين ﴾ أنَّه بَلاغ إليكم لِمَا أرسلتُه به . يقول جَلَّ ثناؤه : فقد أعذرَ إليكم بالإبلاغ ، واللَّهُ وليُّ الانتقام مِمَّن عَصَاه ، وخَالَفَ أمْرَه ، وتولَّى عنه)) .

وقال أبو السعود في تفسيره(٨/٢٥٨): ((﴿وأطيعوا اللَّهَ وأطيعوا الرَّسُولَ﴾ كرَّر الأمرَ للتأكيد، والإيذان بالفرق بين الطاعتَيْن في الكَيفية . وتوضيح مَورد التَّوَلِّي في قَوله تعالى : ﴿ فإن تَوَلَّيْتُم ﴾، أي:عَن إطاعة الرَّسول.وقَوله تعالى: ﴿فإنَّما عَلى رَسُولِنا البَلاغُ المُبِين ﴾ تَعليل للجواب المحذوف، أي: فلا بأس عليه، إذْ ما عليه إلا التَّبليغ المُبين، وقد فَعَلَ ذلك بما لا مَزيد عليه . وإظهارُ الرسول مُضَافًا إلى نُون العَظَمَة في مَقَام إضماره،لتشريفه عليه الصلاة والسلام،والإشعار بمَدَار الحُكْم الذي هو كَوْن وَظيفته عليه الصلاة والسلام مَحْضَ البَلاغ ، ولزيادة تشنيع التَّوَلِّي عنه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ ورَسُولَهُ فَإنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيها أبَدًا﴾ [الجِن : ٢٣].

ومَن يَعْصِ اللَّهَ ورسولَه في التَّوحيد والعِبادة ، ويُنكِر لقاءَ اللَّه ، ويُعْرِض عن سَمَاع الآيات والحِكَم والمواعظ ، فإنَّ جَزَاءه جَهَنَّم ، يَدخُلها ، ولا يَخرُج مِنها أبدًا . وكُسِرَتْ (إنَّ) لأنَّ ما بعد فاء الجَزَاء مَوضع ابتداء . وإنَّمَا جَمَعَ ﴿ خَالِدِينَ ﴾ حَمْلًا على مَعنى ﴿ مَن ﴾ ، لأنَّ لَفْظها مُفْرَد ، ومَعناها جَمْع .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٢٧٤) : ((وقوله : ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ ورَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ ، يَقول تعالى ذِكْرُه : وَمَن يَعْصِ اللَّهَ فِيما أمَرَه ونَهَاه ، ويُكذِّب به ورسوله ، فَجَحَدَ رسالاته، فإنَّ له نار جَهَنَّم يَصْلاها ﴿ خَالِدِينَ فِيها أبَدًا﴾ ، يقول: ماكثين فيها أبدًا إلى غَير نِهَاية)).

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٥٥) : ((وقوله تعالى : ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ ورَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيها أبَدًا﴾ ، أي : أنا أُبَلِّغكم رسالةَ اللَّه ، فَمَن يَعْصِ بعد ذلك ، فله جَزَاءً على ذلك نار جَهَنَّم ، خالدين فيها أبدًا ، أي : لا مَحِيد لهم عَنها ، ولا خُروج لهم مِنها)) .

وفي صحيح مسلم (٢/ ٥٩٤) : عَن عَدِيِّ بن حاتم أنَّ رَجُلًا خَطَبَ عند النبيِّ ﷺ ، فقال : مَن يُطِعِ اللَّهَ ورسولَه فقد رَشَدَ ، وَمَن يَعْصِهما فقد غَوَى . فقال رسول اللَّه ﷺ : ((بِئْسَ الخطيبُ أنتَ . قُلْ : وَمَن يَعْصِ اللَّهَ ورسولَه فقد غَوَى)) .

مَن يُطِعِ اللَّهَ ورسولَه، فقد هُدِيَ إلى طريق الحق ، ومَن يَعْصِ اللَّهَ ورسولَه ، فقد ضَلَّ وانحرفَ عَن طريق الحق ، وانهمكَ في الغِواية والضَّلال والشَّر . والرُّشْد : إصابة الحَق والصَّوَاب .

وقد أنكرَ النبيُّ ﷺ على هذا الخطيب ، لأنَّ قَوْلَه : " وَمَن يَعْصِهما " يعني إشراك اللَّه ورسوله في الضمير . والواجبُ ذِكْرُ اللَّه مُقدَّمًا على ذِكْر النبيِّ ﷺ . فاللَّهُ هو العظيمُ الأعظمُ ، ولا يُوجَد أحد يُشاركه في العَظَمَة . وفي هذا دليلٌ على أنَّ " الواو " تُفيد الترتيب .

وبشكل عام ، إنَّ الخَطَابَة مِن الأُمُور المُهِمَّة ، لأنَّها تُعبِّر عن النَّفْس وما فيها ، وينبغي أن تكون الخُطبةُ واضحةً ومفهومةً للجميع ، وخاليةً مِن الكلمات الغامضة والمَعاني المُحْتَمَلَة التي قَد يُسَاء فَهْمُها ، أوْ قد تُحمَل عَلى غَير المعنى الذي يُريده الخطيب .

وفي شرح النووي على صحيح مسلم (٦/ ١٥٩ و١٦٠) : ((قال القاضي وجماعة من العلماء : إنَّما أنكرَ عليه لتشريكه في الضمير المُقتضي للتَّسوية ، وأمَرَه بالعطف تعظيمًا للَّه تعالى بتقديم اسمه . ... . والصواب أنَّ سبب النَّهْي أنَّ الخُطَب شأنها البَسْط والإيضاح واجتناب الإشارات والرُّموز ،ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول اللَّه ﷺ كان إذا تَكَلَّمَ بكلمة أعادها ثلاثًا لِيُفْهَم . وأمَّا قَول الأوَّلِيين فَيُضَعَّف بأشياء مِنها أنَّ مِثْل هذا الضمير قد تكرَّر في الأحاديث الصحيحة مِن كلام رسول اللَّه ﷺ كَقَوله ﷺ : " أن يكون اللَّهُ ورسولُه أحبَّ إلَيه مِمَّا سِواهما " وغَيْره من الأحاديث . وإنَّما ثَنَّى الضَّميرَ هاهُنا لأنه ليس خُطبة وَعْظ ، وإنما هو تعليم حُكم ، فكُلَّما قَلَّ لَفْظُه كان أقربَ إلى حِفظه ، بِخِلاف خُطبة الوَعْظ ، فإنه لَيس المُراد حِفظه ، وإنَّما يُراد الاتِّعاظ بها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴾ [عَبَسَ : ٣] .

وما يُعْلمك ويُخْبرك يا مُحَمَّد لعلَّ هذا الأعمى الذي عَبَسْتَ في وجهه يَتطهَّر مِن ذُنوبه بالعمل الصالح ، وما يَتَعَلَّمه مِنكَ مِن أحكام ومواعظ وحِكَم ومَعارف ؟ .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٥١): ((أي : وأيُّ شيء يَجعلك داريًا بحاله لَعَلَّه يتطهَّر مِن الآثام بما يتلقَّف مِنك ؟ ، وفيه إيماء بأنَّ إعراضَه كان لِتَزكية غَيره)) .

والالتفاتُ إلى خِطاب النبيِّ ﷺ ، لأنَّ المُشَافَهَة أشدُّ في العِتاب. والمعنى : أيُّ شَيءٍ يَجعلك عَالِمًا بحاله حتى تُعْرِضَ عنه ؟ .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٥٣٩) : ((وجُملة ﴿ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴾ مُسْتَأنَفَة ، لبيان أنَّ له شأنًا يُنافي الإعراضَ عنه . أي : لَعَلَّه يَتطهَّر مِن الذُّنُوب بالعمل الصالح ، بسبب ما يَتعلَّمه مِنكَ. فالضمير في ﴿ لَعَلَّهُ ﴾ راجع إلى الأعمى. وقِيل: هو راجع إلى الكافر: أي وما يُدريك أنَّ ما طَمِعْتَ فيه مِمَّن اشتغلتَ بالكلام معه عَن الأعمى أنَّه يَزَّكى أو يَذَّكر، والأول أوْلَى.وكلمة التَّرَجِّي باعتبار مَن وُجِّهَ إلَيه الخِطاب، للتنبيه على أنَّ الإعراض عنه مَعَ كَوْنه مَرْجُوَّ التَّزَكِّي مِمَّا لا يَجوز)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكرى ﴾ [عَبَسَ : ٤] .

أوْ يَتَّعظ بما تقول يا مُحَمَّد ﷺ ، فينتفع بموعظتك ، ويستفيد مِنها ، ويحصل له اعتبار واتِّعَاظ وابتعاد عن المحارم. وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٩/ ٢٧): ((﴿ أوْ يَذَّكَّرُ ﴾ أي: يَتَّعظ بِما يَتَعَلَّمه مِن مَواعظ القرآن ﴿ فَتَنفَعَهُ الذِّكرى ﴾)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٥٥٢) : ((أوْ يَتَّعظ فتنفعه مَوعظتك . وقِيل : الضَّمير في ﴿ لَعَلَّهُ ﴾ للكافر ، أي إنَّكَ طَمِعْتَ في تَزَكِّيه بالإسلام ، وتذكُّره بالمَوعظة ، ولذلك أعْرَضْتَ عَن غَيره ، فَمَا يُدريك أنَّ ما طَمِعْتَ فيه كائن ؟)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إنَّما أنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [الغاشية : ٢١] .

ذَكِّرْ يا مُحَمَّد الناسَ بآياتِ اللَّه، ودلائلِ عَظَمته، وحُجَجِه البالغة، وعِظْهُم، وخَوِّفْهُم ، ولا تَعبأ بِكُفر الكافرين، واستهزاءِ المستهزئين ، إنَّما أنتَ واعظٌ ، وما عَلَيْكَ إلا الوَعْظ والإرشاد والتَّبليغ. ولَيْسَ مَطلوبًا مِنكَ أكثر مِن هذا ، لأنَّ الهداية بيد اللَّه وَحْدَه .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٨٥) : ((فلا عَلَيْكَ إنْ لَم يَنظُروا ولَم يَذَّكروا ، إذْ ما عَليك إلا البلاغ)) اهـ . وقال الواحدي في الوجيز (١/ ١١٩٧) : ((ذَكِّرْهم نِعَمَ اللَّهِ ودَلائلَ تَوحيده ، فإنَّك مَبعوث بذلك)) .

وقالَ اللّهُ تعالى : ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية : ٢٢] [٣٤].

يُخاطِبُ اللّهُ رسولَه مُحَمَّدًا ﷺ : لَسْتَ عَلَيهِم بِمُسَلَّط ، ولا أنتَ جَبَّار ، حتى تَفْرِضَ الإسلامَ عليهم فَرْضًا، وتُجبِرهم على اعتناقه . ووظيفةُ النبيِّ ﷺ هِيَ التبليغ، أمَّا الحسابُ فهو بيد اللَّه وَحْدَه .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٥٥٧) : ((لَسْتَ عَلَيهِم بِمُسَلَّط ، ولا أنتَ بِجَبَّار تَحْمِلهم على ما تُريد . يَقول : كِلْهُم إلَيَّ ، وَدَعْهُم وحُكْمي فِيهم)) .

وهذه القاعدة الجليلة تدلُّ على أنَّ النبيَّ ﷺ داعيةٌ إلى اللَّه تعالى ، لا يَمْلِك السُّلطةَ على إكراه الناس على الدُّخول في الإيمان. وليس لَدَيه القدرة على حساب الناس، وإرسالهم إلى الجنة أو النار، لأن هذه الأعمال اخْتَصَّهَا اللَّهُ تعالى لِنَفْسِه .

---

٣٤ قال بَعْضُ أهل العِلْم إنَّ هذه الآية منسوخة بآية السَّيف.راجع الناسخ والمنسوخ لابن حَزْم(١/ ٦٥)، والناسخ والمنسوخ للكرمي (١/ ٢٢٤) ، وناسخ القرآن العزيز ومنسوخه لابن البازري (١/ ٥٨). لكن هذا الكلام فيه نظر.إذْ إنَّ هناك آياتٍ لا يمكن نَسْخُها لِمَا تتضمَّنه من أحكام ثابتة . فقد قال ابن الجوزي في مُصفَّى الناسخ والمنسوخ (١/ ٥٩): ((قيل: نُسِخَتْ بآية السَّيف. وقيل:مَعناها لَسْتَ عليهم بِمُسَلَّط فَتُكْرِههم على الإيمان، فعلى هذا لا نَسْخ)) اهـ . والذي يَدحض فرضيةَ نَسْخها ما رواه الحاكم في المستدرَك(٢/ ٥٦٨) وصحَّحه ووافقه الذهبي: عن جابر ـــ رضي اللَّه عنه ـــ قال: قال رسول اللَّه ﷺ : ((أُمِرْتُ أن أُقاتلَ الناسَ حتى يقولوا : لا إله إلا اللَّه ، فإذا قالوها عَصموا مِنِّي دماءهم و أموالهم إلا بِحَقِّها، وحسابهم على اللَّه)) ، ثم قرأ رسولُ اللَّه ﷺ : ((﴿ لستَ عليهم بمصيطر (٢٢) إلا من تولى وكفر (٢٣) فيعذبه اللَّه العذاب الأكبر (٢٤) ﴾)). قلتُ: هناك أمران في المسألة ، الأول ـــ إنَّ القتال في الإسلام يكون بضوابط تحدِّدها الشريعة ، ولا يُجبَر أحدٌ على اعتناق الإسلام . أمَّا الكفار الْمُحَارِبُون والذين يَحُولون دُون وُصول الدَّعوة فهؤلاء يُقَاتَلُون . والثاني ـــ إنَّ سياق الحديث يفيد بأن الحساب على اللَّه تعالى، وحمل الأمور على الظاهر دُون السيطرة على الخَلْق والتَّجَبُّر عليهم، وإكراههم على الإيمان. فَلَوْ كانت ﴿ لستَ عليهم بمصيطر ﴾ منسوخة، فما فائدة أن يُوردها النبيُّ ﷺ في حديثه الذي يتحدث عن القتال وامتلاك اللَّه وَحْدَه لِسُلْطة الحِسَاب ؟. بَلْ إنَّ النبيَّ ﷺ أراد أن يقول إنَّه يُنَفِّذ تعاليمَ اللَّه تعالى في القتال المنضبط لا العبثيّ الهمجيّ ، ومع هذا فهو ليس مُسيطِرًا على الخَلْق، لأنَّ حسابهم بيد اللَّه وَحْدَه ، ودَوْرُ النبيِّ ﷺ هو إقامة الشعائر وَفْق الظاهر ، لأنَّه لا يملك السيطرةَ على قلوب الناس وبواطنهم .

والدَّعوةُ النبوية إرشادية تُخرِج الناسَ مِن ظُلُمَاتِ الجَهْل والكُفْر إلى نُور العِلْم والإيمان . وعِند هذه النُّقطة تنتهي صلاحياتُ النبيِّ ﷺ. وسواءٌ آمَنَ الشخصُ أَمْ كَفر، فإنَّه يتحمَّل تبِعَاتِ اختياره أمام اللَّهِ مَالِكِ أُمُور الخلائق ، والذي بيده الجَنَّة والنار . حتى النبيُّ ﷺ شخصِيًّا لا يَقْدِر أن يَدخل الجَنَّةَ بأعماله وإخلاصه إلا أن يتغمَّده اللَّهُ بالرحمة . وهذا يعكس القُصُور الإنساني ، والحاجة إلى اللَّه في السَّراء والضَّراء .

وعن أبي هُرَيرة_رضي اللَّهُ عنه_قال:قال رسول اللَّه ﷺ:((لَن يُدْخِلَ أحَدًا مِنكُم عَمَلُه الجَنَّةَ)). قالوا : ولا أنتَ يا رسول اللَّه ؟ . قال : ((ولا أنا ، إلا أن يَتَغَمَّدَني اللَّهُ مِنْهُ بِفَضْلٍ ورحمة)) [٣٥].

إنَّ عمل الإنسان وَحْدَه لا يُؤَهِّله لدُخول الجَنَّة،ولا يَجعله مُستحِقًّا لها، لأنه لا يُكافِئ نِعَمَ اللَّه على الإنسان. والأعمالُ الصالحةُ إنَّما هي بفضل اللَّه وتوفيقه، وليست بذكاء الإنسان ومهاراته. ودُخُولُ الجَنَّة إنَّما هو بفَضْل اللَّه ورحمته.والعَمَلُ دليل على وجود الرَّحمة، وعلامة على فَضْل اللَّه، والعمل في غاية الأهمية، لكنَّه سبب ظاهري لا يَقُوم بِنَفْسِه، وإنَّما يتوقف على توفيق اللَّه وهدايته. ومعنى " يَتَغَمَّدَني " يَغمُرني ويَستُرني .

وإذا كانَ النبيُّ ﷺ وهو أعظم مَخلوقات اللَّه تعالى ، والمَعروف بإخلاصه التام ، وكثرة العبادة والطاعة ، وهو سيِّد أهل الجَنَّة قَطْعًا ، لا يَستطيع أن يَغفِر لِنَفْسِه ، ولا أن يُرْسِلَ نَفْسَه إلى الجَنَّة ، وإنَّما الأمرُ كُلُّه للَّه ، ودُخول الجَنَّة برحمته وفَضْله، فكَيْفَ سَيُحَاسِبُ النبيُّ الناسَ ويَحكُم عَلَيهم بالجنة أو النار ؟!. وكما قال اللَّهُ تعالى : ﴿ فإنَّما عَلَيْكَ البَلاغُ وَعَلَيْنا الحِسابُ ﴾ [الرَّعْد: ٤٠].

وفي فتح الباري (١١/ ٢٩٧) : ((قال الرافعي : في الحديث أن العامل لا ينبغي أن يتَّكل على عمله في طلب النَّجاة ، ونَيْلِ الدَّرَجات ، لأنَّه إنَّما عَمِلَ بتوفيق اللَّه ، وإنَّما تَرَكَ المَعصيةَ بِعِصْمة اللَّه ، فكُل ذلك بفَضْله ورحمته)) اهـ . وفي فَيض القدير (٤/ ١٠٣): ((قال القاضي : أراد بيان أن النَّجَاة مِن العذاب ، والفَوز بالثواب ، بفَضْل اللَّه ورحمته ، والعمل غَير مُؤثِّر فيهما على سبيل الإيجاب والاقتضاء، بل غايته أنَّه يُعِدُّ العاملَ لأن يتفضَّل عليه ، ويُقرِّب إليه الرحمة . ... . (إلا أن يَتَغَمَّدَني اللَّهُ بمَغفرته ورَحمته) أي : لِيَسْتُرَني)) اهـ . وقال ابن القَيِّم في مدارج السالكين (١/ ١٧٩) : ((فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وسَلامُه على أعْلَمِ الخَلْق باللَّه ، وحُقوقِه ، وعَظَمته ، وما يَستحق جَلالُه مِنَ العُبودية ، وأعْرَفِهم بالعبودية ، وحُقوقها ، وأقْوَمِهم بها)) .

---

٣٥ متفق عليه . مسلم (٤/ ٢١٦٩) برقم (٢٨١٦) ، والبخاري (٥/ ٢١٤٧) برقم (٥٣٤٩) .

الفصل الثاني

الحِكمة في الدَّعوة

تمهيد

الدَّعوةُ الإسلامية تَقُوم على أكتاف المؤمنين الصادقين أصحاب العُقول الراجحة ، والتفكير السليم ، والمنطق السديد ، والثقافة الرفيعة ، والأسلوب الجَذَّاب. والخُطورةُ الحقيقية على الدَّعوة لا تأتي مِن أعدائها الحاقدين ، وإنَّما تأتي مِن أحبابها الجُهَّال ، الذي يتحرَّكون وَفْقَ المشاعر الجَيَّاشة والأفعال الارتجالية ، بِدُون عِلْم ولا ثقافة ولا أُسلوب. وكَم مِن مُريد للخَير لَن يُصيبه ! .

إنَّ الدَّعوة قضية ناجحة ، لكنَّ المُحَامي الفاشل سَيَقْضِي عليها ، ويُسِيء إلَيها ، ويُشَوِّه جَوْهَرَها ومَظْهَرَها ، لذلك يجب إعداد الدَّاعية شرعيًّا وعِلْمِيًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا قَبْل مُحاولة نَشْر الدَّعوة ، والدَّاعيةُ الحقيقي هو الذي يَعرِف اختلافاتِ الناس ، ويُدرِك طبيعةَ البيئة التي يعيش فيها، ويَستوعب مُتَطَلَّبَات العَصْر بشكل دقيق. والداعيةُ ابنُ زَمَنِه، ويجب أن يَلتزم بالحِكمة في الدَّعوة، كَي يَستطيع التأثيرَ في الناس والبيئة المُحيطة بشكل إيجابي ، ويَترك بَصْمَةً في الوُجود والتاريخ .

والحِكْمَةُ هي فِعْل ما يَنبغي على الوَجْه الذي يَنبغي في الوقت الذي يَنبغي . والحِكمةُ هِبَةٌ إلهيَّةٌ ، ويُمكن اكتسابها بالتَّعَلُّم والمِرَاس والمِرَان . وهي ضرورية لإنجاح الدَّعوة، وجَذب الأتباع المُخْلِصِين ، وإيصالها إلى أبعد مدى مُمكن . وينبغي أن تَكُون الدَّعوة باللغة التي يَفهمها الناسُ، حَيث تتم مُخاطبتهم بأدب واحترام وهُدوء، بشكل واضح قائم على الدليل النَّقْلي والدليل العقلي، بِدُون ألغاز ولا طلاسم ولا صُراخ ولا عُنف، وتكون المُجَادَلَة بالتي هي أحسن ، وَفْق مبدأ مُقَارَعَة الحُجَّة بالحُجَّة ، وتفنيد الشُّبُهَات ، وإزالة الشُّكوك والوساوس. ويجب أن يتمتَّع الداعيةُ بالصَّبْر وقُوَّةِ التَّحَمُّل، لأنَّه سيتعرَّض لمواقف صعبة، ومُشكلات كثيرة ، فهو يتعامل معَ أشخاص مُختلفين في كُل شيء ، ويَنتمون إلى طبقات اجتماعية مُتَعَدِّدَة . ولا شَكَّ أنَّ اختلاف الزمان والمكان والسُّكَّان له أثر واضح، وتأثير عميق. ومَهما تعرَّض الداعيةُ للأذى أو الإساءة، فيجب عليه أن يَدفع السَّيئةَ بالحسنة، ويُقَدِّم نَفْسَه كَقُدوة في مُجتمعه، تُحْتَذَى، ويتم اقتفاء أثرها.ولا بُدَّ أن يَجمع الداعيةُ بين العِلْم الشَّرعي والثقافة العصرية ، ويَربط كَلامَه بالأمثلة الواقعية ، التي تُقَرِّب المعاني إلى عُقول الناس ، كي يَفهموا المواضيعَ المُختلفة ويَستوعبوها ، معَ ضَرورة الالتزام بالتواضع، ونشر الأفكار الواضحة ، وتَبَنِّي منهجَ النَّقْد البَنَّاء ، والحِوَار الهادئ ، والامتناع عن إثارة الخَصْم، أوْ مُحاولة قَهْره وإذلاله،وعدم استعراض العَضَلات،أوْ تمثيل دَور المُعَلِّم التَّقِيِّ المُتَرَفِّع عن الناس ، واعتبارهم مِن العَوَام والجُهَّال والعُصَاة والفاسقين . والقُلوبُ مَجبولة على حُب مَن أحسنَ إلَيها .

أولًا : وجوب التزام الحكمة

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿كَما أرْسَلْنا فِيكُم رَسولًا مِنكُم يَتْلُو عَلَيْكُم آياتِنا ويُزَكِّيكُم ويُعَلِّمُكُمُ الكِتابَ والحِكمةَ ويُعَلِّمُكُم ما لَم تَكونوا تَعْلَمُون﴾ [البقرة : ١٥١] .

يَمُنُّ اللَّهُ على العَرَبِ أن أرسلَ فيهم رَسولَه مُحَمَّدًا ﷺ ، وهو يَنتمي إلَيهم. وهذه النِّعمةُ الإلهية العظيمة يجب أداءُ حَقِّها ، وشُكْرُ اللَّهِ عَلَيها قَوْلًا وفِعْلًا . والنبيُّ مُحَمَّد ﷺ قد أرسلَه اللَّهُ رَحمةً للإنس والجِن ، كَي يُنقِذهم مِن النار ، ويَقُودَهم إلى الجَنَّة. يَقرأ عَلَيهم آياتِ القُرآنِ ، ويُطهِّرهم من الآثام وعبادة الأصنام ، ويُعلِّمهم القُرآنَ والسُّنَّةَ ، ويُعلِّمهم أحكامَ الإسلامِ وشَرائعَه ، والمواعظَ الدِّينية، والأفكارَ البليغة ، وأحوالَ الأُمَم الغابرة ، وأمورَ الدُّنيا والآخرة ، فقد كانوا في جاهلية عَمياء ، فَنَقلهم اللَّهُ بِبَرَكة البَعثة المُحمَّدية مِن ظُلمات الجَهْل إلى نُور العِلْم ، ومِن مُستنقع الكُفر إلى فَضاء الإيمان، فصاروا مؤمنين وعُلماء ومُفكِّرين ، يَنطِقون بالحِكمة والمعرفة ، ويَبنون حَياتهم على بصيرة. والتَّعليمُ النبويُّ إنما يَستند إلى تَوجيهات الوَحْي الإلهيِّ المعصوم والكامل . والنبيُّ ﷺ لا يَعْلَمُ إلا إذا عَلَّمَه اللَّهُ تعالى .

وقال الواحدي في الوجيز (١/ ١٣٩) : ((﴿كَما أرْسَلْنا فِيكُم﴾ . المعنى : ولأُتِمَّ نِعمتي عَلَيكم كإرسالي إلَيكم رسولًا ، أي : أُتِم هذه كما أتْمَمْتُ تِلْك بإرسالي ﴿ رَسولًا مِنكُم ﴾ تَعْرِفُون صِدْقَه ونَسَبَه ، ﴿ يَتْلُو عَلَيْكُم آياتِنا ﴾ يعني : القُرآن . وهذا احتجاج عليهم، لأنهم عَرفوا أنَّه أُمِّيٌّ لا يَقرأ ولا يَكتب ، فلمَّا قَرأ عَلَيهم تَبَيَّنَ لهم صِدْقُه في النُّبُوَّة . ﴿ ويُزَكِّيكُم ﴾ أي : يُعرِّضكم لِمَا تكونوا به أزكياء مِنَ الأمر بطاعة اللَّه تعالى)) .

وقال الطبري في تفسيره (٢/ ٣٩) : ((﴿ ويُعَلِّمُكُمُ الكِتابَ ﴾ وَهُوَ الفُرقان. يَعني أنَّه يُعلِّمهم أحكامَه . ويعني بِ ﴿ الحِكمةَ ﴾ السُّنَن والفِقْه في الدِّين... . وأمَّا قَوله : ﴿ ويُعَلِّمُكُم ما لَم تَكونوا تَعْلَمُون ﴾ ، فإنَّه يعني : ويُعلِّمكم مِن أخبار الأنبياء ، وقَصَصِ الأُمم الخالية، والخَبَر عمَّا هو حادث وكائن من الأمور التي لَم تَكُن العرب تَعْلَمُها ، فَعَلِمُوها مِن رسول اللَّه ﷺ ، فأخْبَرَهم جَلَّ ثناؤُه أنَّ ذلك كُلَّه إنَّما يُدرِكونه برسوله ﷺ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿واذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وما أَنزَلَ عَلَيْكُم مِنَ الكِتَابِ والحِكمةِ يَعِظُكُم بِهِ﴾ [البقرة: ٢٣١]. واذكُروا فضلَ اللَّه عليكم بهدايتكم إلى الإسلام ، وبيان الشرائع والأحكام ، وإرشادكم إلى الحق ، وما أنعمَ به عليكم مِن القُرآن العظيم ، والسُّنَّةِ الشريفة ، وقد أفردهما

بالذِّكْر إظهارًا لشرفهما. والحِكْمَةُ هي السُّنَّة المُبَيِّنَة على لسان النبيِّ ﷺ مُرَادَ اللَّه فِيما لَم يَنُص عليه في القُرآن . وفي زاد المسير (١/ ٢٦٨) : ((قال ابن عباس : احْفَظُوا مِنَّتَه عليكم بالإسلام . قال : والكِتَاب القُرآن ، والحِكْمَة الفِقْه)) .

يُرشدكم ويُذكِّركم بالقُرآنِ وهَدْيِ النبيِّ ﷺ إلى سعادةِ الدُّنيا ونعيمِ الآخرة .

ويجب عليكم شُكْر هذه النِّعْمَة الإلهية الكُبرى قَوْلًا وفِعْلًا ، والقِيَام بِحُقُوقها كاملةً .

وقال الطبري في تفسيره (٢/ ٤٩٣) : ((واذكُروا نِعمةَ اللَّه عليكم بالإسلام الذي أنعمَ عليكم به ، فهداكم له ، وسائرَ نِعَمه التي خَصَّكم بها دُون غَيْركم مِن سائر خَلْقِه ، فاشكروه على ذلك بطاعته فيما أمركم به ، ونَهَاكم عنه، واذكُروا أيضًا مَعَ ذلك ما أَنزَلَ عليكم مِن كتابه ، وذلك: القُرآن الذي أنزله على نَبِيِّه مُحَمَّد ﷺ،واذكُروا ذلك، فاعْمَلُوا به، واحفظوا حُدُودَه فيه ﴿والحِكمةِ﴾ يعني : وما أَنزَلَ عليكم مِن الحِكْمَة ، وهي السُّنَن التي عَلَّمَكُمُوها رسولُ اللَّه ﷺ ، وسَنَّهَا لكم)).

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٧٨) : ((وقَوله : ﴿واذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ ، أي : في إرساله الرَّسُول بالهُدى والبَيِّنَات إليكم، ﴿ وما أَنزَلَ عَلَيْكُم مِنَ الكِتَابِ والحِكمةِ ﴾ ، أي : السُّنَّة، ﴿ يَعِظُكُم بِه ﴾ ، أي : يَأمركم ويَنهاكم ويَتَوَعَّدكم على ارتكاب المحارم)) .

وقال الشَّوكاني في فَتح القدير (١/ ٣٦٨) : ((قَوله : ﴿واذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ ، أي : النِّعْمَة التي صِرْتُم فيها بالإسلام وشرائعه ، بعد أن كُنتم في جاهلية جَهْلاء ، وظُلُمَات بعضها فوق بعض . والكِتَاب : هو القُرآن ، والحِكمة قال المُفَسِّرُون : هي السُّنَّة التي سَنَّهَا لهم رسول اللَّه ﷺ ﴿ يَعِظُكُم بِه ﴾ ، أي : يُخَوِّفكم بما أَنزَلَ عليكم ، وأفردَ الكِتاب والحِكمة بالذِّكْر مَعَ دُخولهما في النِّعْمَة دُخُولًا أَوَّلِيًّا، تنبيهًا على خَطَرِهما ، وعِظَم شأنهما)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يُؤْتي الحِكمةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الحِكمةَ فَقَدْ أُوتيَ خَيْرًا كثيرًا وما يَذَّكَّرُ إلا أُولُو الألبابِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

الحِكْمَةُ مَأخوذة مِن الإحكام ، وهو الإتقان في القَول والفِعل . والحِكمةُ هِيَ العِلْم النافع المُؤدِّي إلى العمل الصالح ، وهي تَمنع الإنسانَ من السَّفَه والطَّيش والأقوال السَّيئة والأفعال القبيحة،وتُرشده إلى الحق والصواب . والحِكمة _ أيضًا_ هي العمل بالعِلم النافع . ورأسُ الحِكمة مخافة اللَّه .

واللَّهُ يُؤتي الفهمَ والإصابة في القَول والفِعل مَن يشاء مِن خَلْقه. وهذا يدل على خُصوصية الحِكمة ، وأنَّها تُمنَح لأشخاص مُحدَّدين ، وَفْق مَشيئة اللَّه النافذة وحِكمته البالغة .

وفي سُنَن الدارمي (٢/ ٥٢٨) عن مُجاهد : ﴿ يُؤْتي الحِكمةَ مَن يَشاءُ ﴾ ، قال : الكِتَابَ ، يُؤْتي إصَابَتَهُ مَن يَشَاء .

ومَن يُعْطَ الحِكمةَ فقد أُعْطِيَ خَيرًا كثيرًا وفضلًا عظيمًا ، لأنَّها طريق السَّعادة في الدُّنيا ، والنعيم الأبديِّ في الآخِرة. وتَكرير ذِكْر الحِكمة لبيان عَظَمَتها وأهميتها وشَرَفها .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ٤٣٨) : ((والمعنى : أنَّ مَن أعطاه اللَّهُ الحِكمةَ ، فقد أعطاه خيرًا كثيرًا ، أي : عظيمًا قَدْره ، جليلًا خَطَره)) .

وما يتَّعظ بآيات اللَّه وأحكامه وشرائعه ، إلا أصحاب العُقول السليمة البعيدة عن الأوهام والأهواء ، الذين عَقَلُوا عَن اللَّه أمْرَه ونَهْيَه ، وحوَّلوا العِلْمَ النافع إلى تطبيق عَمَلي .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٥٧٠): ((﴿ وما يَذَّكَّرُ ﴾ ، وما يَتَّعِظ بما قَصَّ مِن الآيات، أوْ ما يتفكَّر ، فإنَّ المُتَفكِّر كالمُتَذَكِّر لِمَا أَوْدَعَ اللَّهُ في قلبه مِن العُلوم بالقُوَّة ﴿ إلا أُولُو الألبابِ ﴾ ذَوُو العُقول الخالصة عَن شوائب الوَهْم ، والرُّكُون إلى مُتابعة الهَوَى)) .

والآيةُ تدلُّ على أنَّ المواعظ لا تَنفع إلا أصحابَ العُقول النَيِّرة ، أمَّا الجُهَّال فلا يَستفيدون مِن المواعظ ، ولا يَنتفعون بالأحكام. وهذا يُوضِّح أهمية العَقْل، فهو مَناط التَّكليف. وإذا أَخَذَ اللَّهُ ما أَوْهَبَ ، أسقطَ ما أَوْجَبَ .

وفي تفسير الجَلالَيْن (١/ ٥٧) : ((﴿ يُؤْتي الحِكمةَ ﴾ ، أي : العِلْم النافع المُؤَدِّي إلى العمل ﴿ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الحِكمةَ فَقَدْ أُوتيَ خَيْرًا كثيرًا ﴾ لِمَصيره إلى السَّعادة الأبدية ، ﴿ وما يَذَّكَّرُ ﴾ فيه إدغام التاء في الأصل في الذال، يَتَّعِظ ﴿ إلا أُولُو الألبابِ ﴾ أصحاب العُقول)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (١/ ٣٢٤): ((في المُراد بهذه الحِكمة أحد عشر قَوْلًا : أحدها أنها القُرآن ، قاله ابن مسعود ومُجاهد والضَّحاك ومُقَاتِل في آخرين . والثاني معرفة ناسخ القُرآن ومَنسوخه ومُحْكَمه ومُتَشَابِهه ومُقَدَّمه ومُؤخَّره ، ونَحْو ذلك ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس . والثالث النُّبُوَّة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والرابع الفَهْم في القُرآن ، قاله أبو العالية وقَتادة وإبراهيم . والخامس العِلْم والفِقه ، رواه ليث عن مجاهد . والسادس الإصابة في القَول ، رواه ابن أبي نَجيح عن مُجاهد . والسابع الوَرَع في دِين اللَّه ، قاله الحسن . والثامن الخَشية للَّه ، قاله الربيع ابن أنس . والتاسع العَقْل في الدِّين ، قاله ابن زيد . والعاشر الفَهْم ، قاله شَريك . والحادي عشر العِلم والعَمل . لا يُسمَّى الرَّجل حكيمًا إلا إذا جمعهما ، قاله ابن قُتَيبة)) .

إنَّ النُّبُوَّة هي الحِكمة العُليا التي لا يَعْلُوها شيء . ولكن الحِكمة لا تختصُّ بالنُّبُوَّة ، فمفهوم الحِكمة واسع وشامل . والسائرون على خُطى الأنبياء لهم نصيب مِن الحَق والهُدى والخَير ، لأنَّهُم تابعون لأعظم البشر الذين يأتيهم الوَحْيُ السماويُّ . وهؤلاء التابعون هم العُلماء الراسخون في العِلْم ، الذين يَعْمَلُون بالعِلْم النافع .

وعن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : ((مَن قَرَأَ القُرآنَ ، فقد استدرجَ النُّبُوَّةَ بَيْنَ جَنْبَيْه ، غَيْرَ أنَّه لا يُوحَى إلَيه)) [٣٦].

تتَّضح فضيلةُ القُرآن العظيمة. فَمَن قَرأ القُرآنَ وحَفِظَه، وأصبحَ في صَدره محفوظًا ، فقد جَمَعَ النُّبُوَّةَ في صَدْره ، لأنَّ القُرآنَ كلامُ اللَّهِ ، أوحاه إلى مُحمَّد ﷺ، فَمَن اعتنى بالقُرآن قراءةً وحِفْظًا وفَهْمًا صارَ شَبيهًا بالنبيِّ ﷺ إلا أنه ليس نَبِيًّا ، ولا يُوحَى إلَيه ، لأنَّ مُحَمَّدًا ﷺ هُوَ خَاتَمُ الأنبياء .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ على المؤمنينَ إذْ بَعَثَ فِيهِم رَسُولًا مِن أنفُسِهِم يَتْلُو عَلَيْهِم آياتِهِ ويُزَكِّيهِم ويُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ والحِكمةَ وإن كانوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبين﴾[آل عِمران: ١٦٤].

لقد أنعمَ اللَّهُ على المؤمنين ، وتَفَضَّلَ عَلَيهم، إذْ أرسلَ إلَيهم مُحَمَّدًا ﷺ رَسولًا مِن جِنْسِهم ، واحدًا مِنهم يَعرِفون نَسَبَه وصِدْقَه وأمانتَه ، وعربيًّا مِثْلَهم يَفتخرون بانتسابه إلَيهم ، يَتلو عَلَيهم القُرآنَ بعدما كانوا مُشرِكين ، يَعبدون الأصنامَ، ولا يُؤْمنون باليوم الآخِر ، ولا يَعْرِفون كلامَ اللَّه ، ولَيس لهم علاقة بشريعة السماء . ﴿ ويُزَكِّيهِم ﴾ يُطهِّرهم من الذنوب والآثام. ﴿ ويُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ والحِكمةَ ﴾ يُعلِّمهم القُرآنَ والسُّنَّةَ. وقد كانوا قَبل البَعثة المُحمَّدية في ضَلالٍ ظاهر ، وكُفرٍ واضح.

وقال القرطبي في تفسيره (٤/ ٢٥٦) : ((قِيل : لفظ المؤمنين عام ، ومعناه خاص في العرب، لأنَّه لَيس حَي من أحياء العرب إلا وقد وَلَدَه ﷺ ، ولهم فيه نَسَب إلا بني تَغلِب ، فإنهم كانوا نَصَارى ، فطهَّره اللَّهُ مِن دَنَس النَّصرانية)) .

ونِعَمُ اللَّه كثيرة لا يُمكن حَصْرُها ، واللَّهُ يَمُنُّ على المؤمنين : ــ

المِنَّةُ الأُولَى: إرسال نبيٍّ إنسِيٍّ وعربيٍّ، فكَوْنُه مِنَ الإنس يَعني أن هناك أُلفة ستحصل بينه وبين المؤمنين . وَلَوْ كانَ مَلَكًا أوْ مِنَ الجِن ، لَمَا حَصَلَ الأُنسُ والأُلفة والمودة الاجتماعية لاختلاف الجِنْس. وَكَوْنُه عربيًّا معناه أنَّهُم سَيَفهمون كلامَه، ولا يَحتاجون إلى مُتَرْجِم. وبما أنَّ مُحَمَّدًا إنسان مِثل الناس، وظَهَرَتْ على يَدَيه المُعجِزات، فهذا يَعني أنَّه مُؤَيَّدٌ مِن السماء ، ورسولٌ من اللَّه .

---

٣٦ رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ٧٣٨) برقم (٢٠٢٨) وصحَّحه .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٥٦) : ((أي : مِن جِنسهم ليتمكنوا مِن مُخاطبته وسُؤاله ومُجالسته والانتفاع به)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٩٤) : ((وفي وَجْهِ الامتنان عَلَيهم بِكَوْنِه مِن أنفسهم أربعة أقوال : أحدها : لِكَونه معروف النَّسَب فِيهم ، قاله ابن عباس وقَتادة. والثاني : لِكَونهم قَد خَبَرُوا أمْرَه وعَلِمُوا صِدْقَه ، قاله الزَّجاج . والثالث : لِيَسْهُل عَلَيهم التعلُّم مِنه لموافقة لسانه للسانهم ، قاله أبو سُلَيمان الدمشقي . والرابع : لأنَّ شَرَفَهم يتمُّ بِظُهور نبيٍّ مِنهم ، قاله المَاوَرْدِي . وهل هذه الآية خاصَّة أمْ عامَّة ؟، فِيه قَولان : أحدهما أنَّها خاصَّة للعرب ، رُوِيَ عن عائشة والجُمهور . والثاني أنَّها عامَّة لسائر المؤمنين ، فَيَكون المعنى أنَّه لَيس بِمَلَكٍ ولا مِن غَير بني آدم ، وهذا اختيار الزَّجاج)) .

المِنَّةُ الثانية : قراءة القُرآن عَلَيهم بعدما كانوا جُهَّالًا لا يَعرِفون الوَحْيَ، وإخراجهم مِن ظُلُمَات الجاهلية إلى نُور الإسلام ، ومِن الجَهْل إلى العِلْم ، ومِن الشَّك إلى اليقين ، ومِن التخلف إلى الحضارة . وقد خُصَّ المؤمنون بالذِّكْر معَ أنَّ النبيَّ ﷺ أُرسلَ إلى الإنسِ والجِن ، لأنَّ المؤمنين هُم المُنتفعون بِرسالته ودَعوته . أمَّا الكافرون فلن يَستفيدوا مِنَ القُرآن شَيئًا ، ولَن يَعرِفوا قِيمتَه وإعجازَه، لأنَّ الأعمى لا يَقْدِرُ أن يرى نُورَ الشمس، والناس أعداء ما يَجْهَلون ، والحُكْم على الشيء فَرْعٌ عن تَصَوُّره ، وكما قال الشاعر :

_ ومَن يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ ... يَجِدْ مُرًّا بِهِ الماءَ الزُّلالا

_ قد تُنْكِرُ العَينُ ضَوءَ الشمسِ مِن رَمَدٍ ... ويُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ الماءِ مِن سَقَمِ

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١١١) : ((﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ على المؤمنينَ ﴾ ، أنعمَ على مَن آمَنَ معَ الرسول ﷺ مِن قَوْمه ، وتخصيصهم معَ أنَّ نِعمة البَعثة عامَّة لزيادة انتفاعهم بِها ... ﴿ إذْ بَعَثَ فِيهِم رَسُولًا مِن أنفُسِهِم ﴾ مِن نَسَبِهم أو مِن جِنْسِهم ، عَرَبِيًّا مِثْلَهم ، لِيَفهموا كلامَه بسهولة ويَكونوا واقفين على حاله في الصدق والأمانة مُفتخِرين بِه ، وقُرِئَ " مِن أنفَسِهِم " أي مِن أشرفهم لأنه _ عليه الصلاة والسلام _ كان مِن أشرف قبائل العرب وبُطونها. ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِم آياتِهِ ﴾ أي: القرآن بعدما كانوا جُهَّالًا لَم يَسمعوا الوَحْيَ)) .

المِنَّةُ الثالثة : تزكيةُ المؤمنين ، وذلك بانتشالهم من المعاصي ، وإرشادهم إلى الطاعات ، وبالتالي يُطهِّرهم مِن الذُّنُوب والآثام والطِّبَاع السَّيئة ، والعقائد الباطلة ، والأعمال المُنحرِفة ، فتَصفو قلوبُهم ، وتصبح حياتهم ذات معنى .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٥٦) : ((أي : يأمرهم بالمعروف ، ويَنهاهم عن المُنكر ، لِتَزْكُوَ نفوسُهم، وتَطْهُر مِنَ الدَّنَس والخَبَث الذي كانوا مُتلبِّسين بِه في حال شِركهم وجاهليتهم)).

المِنَّةُ الرابعة : تعليمهم الكتاب (القُرآن) والحِكمة (السُّنَّة)،وهذا يَجعلهم عُلماء عاملين ، يَتمتعون بالعِلم والإخلاص،بعد أن كانوا جُهَّالًا ضَالِّين،بلا تاريخ ولا حضارة.وقال ابن كثير في تفسيره(١/ ٥٥٦): ((﴿ ويُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ والحِكمةَ ﴾ يَعني القُرآن والسُّنَّة ﴿ وإن كانوا مِن قَبْلُ ﴾ أي: مِن قَبْل هذا الرَّسُول ﴿ لَفِي ضَلالٍ مُبين ﴾ أي: لَفِي غَي وجَهْل ظاهر جَلِي بَيِّن لِكُل أحد)) .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٥٠٦) : ((لقد تَطَوَّلَ اللَّهُ على المؤمنين ﴿ إذْ بَعَثَ فِيهِم رَسُولًا ﴾ حِينَ أَرْسَلَ فيهم رسولًا ﴿ مِن أنفُسِهِم ﴾ نَبِيًّا مِن أهل لِسَانهم ، وَلَم يَجعله مِن غَير أهل لسانهم ، فلا يَفْقَهُوا عنه ما يقول ، ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِم آياتِهِ ﴾ ، يَقُول : يَقرأ عليهم آيَ كِتَابه وتَنزيله ، ﴿ ويُزَكِّيهِم ﴾ يَعني: يُطَهِّرهم مِن ذُنُوبهم باتِّباعهم إيَّاه ، وطاعتهم له فيما أَمَرَهم ونَهَاهم ﴿ ويُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ ﴾ ، يعني : ويُعَلِّمهم كِتَابَ اللَّه الذي أنزله عَلَيه ، ويُبَيِّن لهم تأويلَه ومَعَانيه ﴿ والحِكمةَ ﴾، ويعني بالحِكمة السُّنَّة التي سَنَّهَا اللَّهُ جَلَّ ثناؤه للمؤمنين على لِسَان رسوله ﷺ ، وبيانه لهم ﴿ وإن كانوا مِن قَبْلُ ﴾ يَعني: وإن كانوا مِن قَبْل أن يَمُنَّ اللَّهُ عليهم بإرساله رَسُولَه الذي هذه صِفته ﴿ لَفِي ضَلالٍ مُبين ﴾ ، يقول: في جَهَالة جَهْلاء ، وفي حَيْرَة عن الهُدى عَمْياء،لا يَعرِفون حَقًّا، ولا يُبطِلون باطلًا . وأصل الضَّلالة الأخذ على غَير هُدى، ... والمُبين الذي يُبِين لِمَن تأمَّله بعقله ، وتَدَبَّره بفهمه ، أنَّه على غَير استقامة ولا هُدى)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ٥٩٤) : ((قَوله : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ على المؤمنينَ ﴾ جواب قَسَم مَحذوف ، وخَصَّ المؤمنين لِكَوْنهم المُنتفعين بِبَعْثته ، ومعنى ﴿ مِن أنفُسِهِم ﴾ أنَّه عربي مِثْلُهم . وقِيل : بَشَر مِثْلُهم . ووجه المِنَّة على الأوَّل : أنهم يَفْقَهون عنه ، ويَفْهَمون كلامَه ، ولا يحتاجون إلى تُرْجُمَان . ومعناها على الثاني : أنَّهُم يَأنَسُون به بجامع البشرية ، وَلَوْ كان مَلَكًا لَم يَحصُل كمال الأُنس به لاختلاف الجِنسية. وقُرِئَ ﴿ مِن أنفَسِهِم ﴾ بفتح الفاء، أي: مِن أشرفهم لأنَّه مِن بَني هاشم ، وبنو هاشم أفضل قُرَيش ، وقُرَيش أفضل العرب ، والعرب أفضل مِن غَيرهم . ولعلَّ وجه الامتنان على هذه القراءة أنَّه لمَّا كان مِن أشرفهم ،كانوا أطْوَعَ له ، وأقرب إلى تصديقه، ولا بُدَّ مِن تخصيص المؤمنين في هذه الآية بالعرب على الوجه الأول . وأمَّا على الوجه الثاني فلا حاجة إلى هذا التخصيص ، وكذا على قراءة من قرأ بفتح الفاء ، لا حاجة إلى التخصيص، لأن بني هاشم هم أنْفَس العرب والعَجَم في شرف الأصل ، وكَرَم النِّجَاد ، وَرِفَاعَة المَحْتِد ، ويدل على

الوجه الأول قَوله تعالى: ﴿ هُوَ الذي بَعَثَ في الأُمِّيينَ رَسولًا مِنهُم ﴾ [الجُمُعة: ٢]، وقَوله: ﴿ وإنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزُّخرُف : ٤٤] . قَوله : ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِم آياتِهِ ﴾ ، هذه مِنَّة ثانية ، أي : يَتلو عليهم القُرآنَ بعد أن كانوا أهلَ جاهلية لا يَعرِفون شيئًا مِن الشرائع ، ﴿ ويُزَكِّيهِم ﴾ أي : يُطَهِّرهم مِن نَجَاسة الكُفْر . ... . قَوله : ﴿ ويُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ ﴾ ، والمُراد بالكِتاب هُنا القُرآن ، والحِكمة : السُّنَّة ، ﴿ وإن كانوا مِن قَبْلُ ﴾ ، أي : مِن قَبْل مُحَمَّد أوْ مِن قَبْل بَعْثته ﴿ لَفِي ضَلالٍ مُبينٍ﴾ ، أي : واضح لا رَيْبَ فيه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وأنزلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الكِتابَ والحِكمةَ وعَلَّمَكَ ما لَم تَكُن تَعْلَمُ وكانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظيمًا ﴾ [النِّساء : ١١٣] .

أنزلَ اللَّهُ على مُحَمَّدٍ القُرآنَ والسُّنَّةَ ، وكِلاهُما وَحْيٌ إلهيٌّ ، فَكَيْفَ يَضِل أوْ يُضَل ، والوَحْيُ الإلهيُّ يَنْزِل عَلَيه ؟! ، وعَلَّمه الشرائعَ والأحكامَ والأمورَ الغَيْبِيَّةَ ، التي لَم يَكُن يَعرِف عنها شَيئًا . وقد تَفَضَّلَ اللَّهُ عَلَيه بالنُّبُوَّة ، ولا فَضْل أعظم مِنها ، ولا شيء أكبر مِنها ، وأسبغَ عَلَيْهِ نِعَمَه التي لا تُعَدُّ ، ولا تُحصَى .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٩٧) : ((فأمَّا الكِتَاب فهو القُرآن . وفي الحِكمة ثلاثة أقوال: أحدها القضاء بالوَحْي، قاله ابن عباس . والثاني الحلال والحرام ، قاله مُقاتل . والثالث بيان ما في الكتاب وإلهام الصواب ، وإلقاء صِحَّة الجواب في الرُّوع ، قاله أبو سُلَيمان الدمشقي . وفي قَوله : ﴿ وعَلَّمَكَ ما لَم تَكُن تَعْلَمُ ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها أنه الشَّرْع ، قاله ابن عباس ومُقاتل، والثاني أخبار الأوَّلين والآخِرين ، قاله أبو سُلَيمان ، والثالث الكتاب والحِكمة ، ذَكَره الماوردي.وفي قَوله: ﴿ وكانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظيمًا ﴾ ثلاثة أقوال:أحدها أنَّه المِنَّة بالإيمان، والثاني المِنَّة بالنُّبُوَّة، هَذان عن ابن عباس.والثالث أنَّه عام في جميع الفَضْل الذي خَصَّه اللَّهُ بِه ، قاله أبو سُلَيمان)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ادْعُ إلى سَبيلِ رَبِّكَ بالحِكْمةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أحْسَنُ ﴾ [النَّحْل: ١٢٥] .

ادْعُ يا مُحَمَّد الناسَ إلى الشريعة الإلهية (الإسلام) بالبراهين القطعية ، والأدلة الحاسمة ، المَوجودة في القُرآن والسُّنَّة ﴿ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ ﴾ ، وهي الدُّعاء إلى اللَّهِ بالترغيب والترهيب ، وذِكْر العِبَر الجميلة التي تُؤَثِّر في نَفْسِ السامع ، وتَدخل إلى قلبه ، وتُغيِّر سُلوكَه . والحِكمةُ والمَوعظةُ الحَسَنَة هُما الرُّكنان اللذان تَقوم عليهما الدَّعوة الإسلامية .

وهُناك أفراد لا يَقْبَلُون بهذين الرُّكنين، ولا يَخضعون للحق، ولا يُسلِّمون له.وهؤلاء يَحتاجون إلى جِدال ومُناظَرة ومُقارَعة الحُجَّة بالحُجَّة، فَجَادِلْهُم يا مُحَمَّد وخَاصِمْهُم بأسلوبٍ جَميلٍ وهادئ ومُؤَيَّدٍ بالنصوص الدينية والحُجَجِ العقلية . وأعْرِضْ عَن أذاهم ، وَوَاصِل تَبليغَ الرسالةِ بكل نشاط وقُوَّة. والهدفُ مِن الجِدال بالأسلوب الحَسَن الطَّيب هو إظهار الحقِّ الذي جاءَ به مُحَمَّد ﷺ ، وَكَشف الباطل الموجود عِند الخَصْم . ولا شَكَّ أنَّ المُجَادَلَة الحَسَنَة تُوقِظ القُلوبَ مِن غَفْلتها، وتُؤَثِّر في النُّفُوس بشكل إيجابي ، وتُنَقِّي العقلَ مِن الشوائب .

والآيةُ : ﴿ وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أحْسَنُ ﴾ رَدٌّ على الرافضين للمُناظَرة في الدِّين .

وقال الثعالبي في تفسيره (٢/ ٣٢٧) : ((وقَوْلُه سُبحانَه : ﴿ ادْعُ إلى سَبيلِ رَبِّكَ بالحِكْمةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ ﴾ هذه الآية نَزلت بمكة . أُمِرَ ــ عليه السلام ــ أن يَدْعُوَ إلى دِين اللَّه وشَرْعه بِتَلَطُّف ، وهكذا ينبغي أن يُوعِظ المسلمون إلى يوم القيامة)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٢٦) : ((﴿ ادْعُ ﴾ مَن بُعِثْتَ إلَيهم ﴿ إلى سَبيلِ رَبِّكَ ﴾ إلى الإسلام ﴿ بالحِكْمةِ ﴾ بالمَقالة المُحْكَمَة ، وهو الدليل المُوضِّح للحق ، المُزيح للشُّبْهَة ، ﴿ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ ﴾ الخِطَابات المُقنِعة والعِبَر النافعة ، فالأُولَى لِدَعوة خَواص الأُمَّة الطالبين للحقائق ، والثانية لِدَعوة عَوَامِّهم . ﴿ وَجَادِلْهُم ﴾ وَجَادِلْ مُعانِديهم ﴿ بالتي هِيَ أحْسَنُ ﴾ بالطريقة التي هي أحسن طُرُق المُجَادَلة ، مِن الرِّفق واللين ، وإيثار الوَجْه الأيسر ، والمُقدِّمات التي هي أشهر ، فإن ذلك أنفع في تَسكين لهبهم ، وتَبيين شَغَبهم)) .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٢/ ٢٧٦): ((﴿ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ ﴾ وهي التي لا يَخفَى عليهم أنَّكَ تُناصحهم بها ، وتَقْصِد ما يَنفعهم فيها ، أوْ بالقُرآن ، أي: ادْعُهم بالكِتاب الذي هو حِكمة ومَوعظة حَسَنَة ، والحِكمة المَعرفة بمراتب الأفعال ، والموعظة الحسنة أن يَخلِط الرَّغبةَ بالرَّهبة ، والإنذار بالبِشارة)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٥٠٦) : ((فأمَّا السبيل ، فقال مُقاتل : هو دِين الإسلام. وفي المُراد بالحِكمة ثلاثة أقوال : أحدها أنَّها القُرآن ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثاني الفِقْه ، قاله الضَّحَّاك عن ابن عباس ، والثالث النُّبُوَّة ، ذَكَرَه الزَّجَّاج. وفي المَوعظة الحَسَنَة قَولان: أحدهما مَواعظ القرآن ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، والثاني الأدب الجميل الذي يَعرفونه ، قاله الضَّحَّاك عن ابن عباس . قَوْلُه تعالى : ﴿ وَجَادِلْهُم ﴾ في المُشَار إلَيهم قَولان : أحدهما أنَّهم أهل مَكَّة ، قاله أبو صالح ، والثاني أهل الكتاب ، قاله مُقاتل . وفي قَوْله : ﴿ بالتي

هي أحسن ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها جَادِلْهم بالقرآن ، والثاني بِـ لا إله إلا اللَّه ، رُوِيَ القَولان عن ابن عباس . والثالث جَادِلْهم غَير فَظ ولا غَليظ ، وألِنْ لهم جَانِبَك ، قاله الزَّجَّاج)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الحِكْمَةِ ﴾ [الإسراء : ٣٩] .

ذلك الذي تَقَدَّمَ ــ في الآيات السابقة لهذه الآية في سُورة الإسراء ــ مِن الآداب والأحكام والأخلاق الجميلة التي أَمَرَكَ اللَّهُ بها ، والصِّفَات السَّيئة التي نَهَاكَ عنها ، مِمَّا أوحى إلَيْكَ بها يا مُحَمَّد لتأمر به الناسَ .

والحِكمةُ هي معرفةُ الحقِّ لذاته ، والعمل به ، وهي عِلْمُ الشرائع ، والمواعظُ البليغة ، والحِكَمُ الفريدة ، والأحكامُ المُحْكَمَةُ ، والآدابُ الجامعة لِكُل خَير ، مِمَّا يَحكُم العقلُ بِصِحَّته ، وتَصْلُح النَّفْس باتِّباعه وتطبيقه .

وقال القرطبي في تفسيره (١/ ٢٣٠) : ((الإشارة بـ " ذلك " إلى هذه الآداب والقَصَص والأحكام التي تَضَمَّنَتْهَا هذه الآياتُ المُتقدِّمة التي نَزَلَ بها جِبريل عليه السلام ، أي: هذه مِن الأفعال التي تَقتضيها حِكمة اللَّه عَزَّ وَجَلَّ في عِباده، وَخَلَقَهَا لهم مِن محاسن الأخلاق، والحِكمة، وقوانين المعاني المُحْكَمَة ، والأفعال الفاضلة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ واذْكُرْنَ ما يُتْلَى في بُيوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللَّهِ والحِكْمةِ إنَّ اللَّهَ كانَ لَطيفًا خَبيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٤] [37].

واذْكُـرْنَ هـذه النِّعْمَـةَ الإلهيـة الجليلـة ، وهـي نُـزُول الـوَحْي فـي بُيـوتكنَّ دُون سـائر النـاس . ومُخاطَبَةُ اللَّهِ لَهُنَّ رَفْعٌ لِقَدْرهنَّ ، وتعظيمٌ لمكانتهنَّ ، وتشريفٌ لهنَّ ، ومِن أجل إرشادهنَّ وتَوجيههنَّ ووعظهنَّ ، وتذكيرهنَّ بالنِّعمة الإلهية بما يُتلَى في بيوتهنَّ مِن آياتِ اللَّهِ وسُنَّةِ النبيِّ ﷺ (الحِكمة).

---

٣٧ قال القرطبي في تفسيره (١٤/ ١٦١) : ((لفظ الذِّكْر يحتمل ثلاثة مَعانٍ : أحدها : أي اذْكُرْنَ مَوضع النِّعمة، إذْ صَيَّرَكُنَّ اللَّهُ في بيوت تُتلَى فيها آيات اللَّه والحِكمة . الثاني : اذْكُرْنَ آياتِ اللَّه ، واقْدُرْنَ قَدْرَها ، وفَكِّرْنَ فيها حتى تكون مِنكُنَّ على بالٍ ، لِتَتَّعِظْنَ بمواعظ اللَّه تعالى . ومَن كان هذا حاله ينبغي أن تَحْسُن أفعالُه . الثالث: ﴿ اذْكُرْنَ ﴾ بمعنى : احْفَظْنَ واقْرَأنَ والْزِمْنَهُ الألسنة ، فكأنَّه يقول : احْفَظْنَ أوامرَ اللَّه تعالى ونَواهيه، وذلك هو الذي يُتلَى في بيوتكنَّ مِن آيات اللَّه ، فأمرَ اللَّهُ سُبحانَه وتعالى أن يُخبرنَ بما يَنْزل مِن القُرآن في بيوتهنَّ ، وما يَرَيْنَ مِن أفعال النبيِّ ﷺ ، ويَسْمَعْنَ مِن أقواله حتى يُبلِّغنَ ذلك إلى الناس فَيَعملوا ويَقْتَدوا . وهذا يدل على جَواز قَبول خبر الواحد مِن الرجال والنساء في الدِّين)) .

ويجب عليهنّ أن يَعْرِفْنَ قَدْرَ هذه النِّعْمَة ، وذلك بقراءة آيات القُرآن ، والسُّنَّةِ النبوية ، فإنَّ فيهما الصلاح والفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة .

لقد جَعَلَهُنَّ اللَّهُ أهلَ بَيت النُّبُوَّة ، وذَكَّرَهُنَّ أنَّ بيوتهنَّ هي مَهَابِط الوَحْي ، وأَمَرَهُنَّ بعدم نسيان آيات القُرآن المشتمل على المَواعظ، والأخبار، والعلوم، والشَّرائع ، والمعارف ، وبراهين النُّبُوَّة ، والتعاليم الدينية ، والمصالح الدُّنيوية . وفي الآية أمرٌ إلهيٌّ لنساء النبيِّ ﷺ بتبليغ آيات القُرآن وأقوال النبيِّ ﷺ وأفعاله ، والعمل على نشرها بين الناس ، حتى يَقتدوا بها ، ويَعْمَلوا بها .

وما شَاهَدْنَهُ مِن شِدَّة نُزول الوَحْي يَنبغي أن يَدفعهنَّ إلى قوة الإيمان ، واليقين الثابت ، وزيادة الطاعات ، والابتعاد عن المعاصي .

﴿ إنَّ اللَّهَ كانَ لَطيفًا خَبيرًا ﴾ . اللَّهُ لطيفٌ بعباده الصالحين ، وأوليائه المُتَّقين . وكانَ لطيفًا بنساء النبيِّ ﷺ ، إذْ جَعَلَهُنَّ في مَهَابِط الوَحْي (البُيُوت التي تُتلَى فيها آياتُ القُرآن) . خبيرٌ بجميع خَلْقِه ، وخبيرٌ بهنَّ ، إذ اختارهنَّ للنبيِّ ﷺ . وهو سُبحانَه يَعرِف ما يُصلِح العبادَ فهو خالقهم ، لذلك شَرَعَ لهم ما فيه نجاحهم في الدنيا والآخرة ، ويَعْلَم ما يَصْدُر عن عباده مِن خَير أوْ شَر ، ويُجازي المُحْسِنَ بإحسانه ، والمُسِيءَ بإساءته .

واللَّهُ تعالى هو مُدبِّر الكَوْن، ومُنْزِل الوَحْي ، ويَعلم ما يَنفع الناسَ، لذلك وَجَّهَ نِساءَ النبيِّ ﷺ إلى طريق الحَق والخَير ، وَوَعَظَهُنَّ ، وجَعَلَ حياتهنَّ وَفْق الضوابط الشرعية. ويَعْلَم سُبحانَه مَن يَصْلُح للنُّبُوَّة ، ومَن يَستحق أن يَكون مِن أهل البَيت .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٦٣٦) : ((وعائشة الصِّديقة بنت الصِّديق رضي اللَّهُ عنهما أوْلاهُنَّ بهذه النِّعْمَة ، وأحْظَاهُنَّ بهذه الغنيمة ، وأخَصُّهُنَّ من هذه الرحمة العميمة، فإنَّه لَمْ يَنْزِلْ على رسول اللَّه ﷺ الوَحْيُ في فِراش امرأة سِوَاها ، كما نَصَّ على ذلك صَلَوَات اللَّه وسلامه عليه. قال بعض العلماء رحمه اللَّه: لأنَّه لَم يَتزوَّج بِكْرًا سِوَاها ، ولَم يَنَمْ معها رَجُل في فِراشها سِواه ﷺ ، ورضي اللَّهُ عنها ، فناسبَ أن تُخصَّص بهذه المَزِيَّة ، وأن تُفرَد بهذه المَرتبة العُليا)) .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٧/ ١٠٣) : ((﴿ واذْكُرْنَ ما يُتْلَى في بُيوتِكُنَّ ﴾ أي : اذْكُرْنَ للناس بطريق العِظَة والتذكير ما يُتلَى في بيوتكنَّ ﴿ مِنْ آياتِ اللَّهِ والحِكْمةِ ﴾ مِن الكتاب الجامع بَين كَوْنه آيات اللَّه البَيِّنة ، الدَّالَّة على صِدْق النُّبُوَّة ، بِنَظْمِه المُعجز، وكَوْنه حِكمة مُنطوية على فُنون العلوم والشرائع ، وهو تذكير بما أنعمَ عليهنَّ ، حيث جَعَلَهُنَّ أهلَ بَيْتِ النُّبُوَّة ومَهْبِطِ الوَحْي. وما شَاهَدْنَ مِن بُرَحاء (شِدَّة) الوَحْي مِمَّا يُوجب قوة الإيمان ، والحِرص على الطاعة ، حَثًّا على

الانتهاء والائتمار فيما كُلِّفْنَهُ . والتَّعَرُّضُ للتِّلاوة في البيوت دون النُّزول فيها، مَعَ أنَّه الأنسَب ، لِكَوْنها مَهْبِط الوَحْي ، لِعُمومها لجميع الآيات ، ووُقوعها في كُل البُيوت ، وتَكَرُّرِها المُوجِب لِتَمَكُّنِهِنَّ مِن الذِّكر والتَّذكير ، بِخِلاف النُّزول . وعدم تعيين التالي لِتَعُمَّ تِلاوة جِبريل، وتلاوة النبيِّ _ عليهما الصلاة والسلام _ ، وتلاوتهنَّ وتلاوة غَيرهنَّ تعليمًا وتَعَلُّمًا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسى بالبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بالحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الذي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وأطِيعُونِ ﴾ [الزُّخْرُف : ٦٣] .

ولمَّا جاء النبيُّ عِيسى ﷺ بني إسرائيل بالمُعجِزات الباهرة ، والشرائعِ الواضحة . وقِيل : المَقصود هو الإنجيل . قال : قد جِئْتُكُم بالنُّبُوَّة ، وذلك لِكَي يَكُونوا على يقين مِن أنَّ كلامَه لَيس مِن عِنده ، وإنَّما مِن عِند اللَّه تعالى . واللَّهُ يَبعَث الرُّسُلَ مِن أجل إخراج الناس مِن ظُلُمَات الجهل والكُفْر إلى نُور العِلْم والإيمان .

والنبيُّ عِيسى ﷺ جاءَ لِيُبَيِّنَ لبني إسرائيل الأمورَ الدِّينية لا الدُّنيوية ، ويُوضِّحَ لهم في الإنجيل بَعْضَ الذي اختلَفوا فيه مِن أحكام التَّوراة . وقد بيَّن لهم أمرَ الدِّين بشكل واضح وكامل . وجميعُ الأنبياء يُبَيِّنُون الأُمُورَ الدينية لا الدُّنيوية .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وأطِيعُونِ ﴾ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ بامتثال أوامره ، واجتناب نَوَاهيه ، وأطيعوا أمْرِي فِيما أُبَلِّغه إلَيكم مِن التكاليف والأحكام .

وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ٩٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسى بالبَيِّنَاتِ ﴾ ، قال ابن عباس : يُريد إحياءَ المَوتى ، وإبراءَ الأسقام ، وخَلْقَ الطَّيْر ، والمائدة ، وغَيرها، والإخبار بكثير مِن الغُيوب . وقال قَتادة : البَيِّنَات هُنا الإنجيل . ﴿ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بالحِكْمَةِ ﴾ ، أي : النُّبُوَّة ، قاله السُّدي. ابن عباس : عِلْم ما يُؤَدِّي إلى الجميل ، ويَكُف عن القبيح . وقِيل : الإنجيل ، ذَكَرَه القُشَيري والماوردي ، ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الذي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ ، قال مُجاهد: مِن تَبديل التَّوراة . الزَّجاج : المعنى لأُبَيِّنَ لكم في الإنجيل بعضَ الذي تختلفون فيه مِن تَبديل التَّوراة . قال مُجاهد : وبيَّن لهم في غَير الإنجيل ما احتاجوا إلَيه . وقِيل : بَيَّنَ لهم بعضَ الذي اختلفوا فيه مِن أحكام التَّوراة على قَدْر ما سألوه . ويجوز أن يَختلفوا في أشياء غَير ذلك لَم يَسألوه عَنها. وقِيل : إنَّ بني إسرائيل اختلفوا بعد مَوت مُوسى في أشياء مِن أمر دِينهم ، وأشياء مِن أمر دُنياهم ، فَبَيَّنَ لهم أمرَ دِينهم . ... . ﴿ فَاتَّقُوا ﴾ ، أي : اتَّقُوا الشِّرْكَ ، ولا تَعبُدوا إلا اللَّهَ وَحْدَه . وإذا كان هذا قَول عِيسى،فكيف يجوز أن يكون إلهًا أو ابن إله ؟ ﴿ وأطِيعُونِ﴾ فِيما أدعوكم إليه مِن التَّوحيد وغَيره)).

والجديرُ بالذِّكْر أنَّ النبيَّ عِيسى ﷺ قال : ﴿ بَعْضَ الذي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ دُون الكُل ، لأنَّ الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ يُبَيِّنُون أُمُورَ الدِّين لا أُمُور الدُّنيا .

لَم يُبْعَث الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ لبيان الأمور الدُّنيوية ، فهذه الأمورُ مَرجعها إلى معارف الناس وخِبراتهم الحياتية .

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٨٣٦) أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((أنتم أعْلَمُ بأمرِ دُنياكم)) .

أنتم أعلم بأمر دُنياكم مِن النبيِّ ﷺ ، والنبيُّ ﷺ أعْلَم بأمر أُخْرَاكُم مِنكُم ، فإنَّ الأنبياء والرُّسُل بُعِثُوا لإنقاذ الناس مِن الشَّقَاوة الأُخْرَوِيَّة ، وفَوْزِهم بالسَّعادة الأبديَّة .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٥/ ١١٦) : ((باب وُجوب امتثال ما قاله شَرْعًا دُون ما ذَكَرَه ﷺ مِن مَعَايش الدُّنيا على سبيل الرَّأي . ... . قال العلماءُ: قَوله ﷺ: "مِن رَأيي" (رواية أُخرى) ، أي : في أمر الدُّنيا ومعايشها لا على التشريع ، فأمَّا ما قاله باجتهاده ﷺ، ورآه شَرْعًا يجب العمل به)) .

وَرَأيُ النبيِّ ﷺ في أُمور الدُّنيا ومعايشها وظَنُّه كَغَيره مِن الناس ، وهذا لَيس نقصًا ولا عَيْبًا ، وسَبَبُه أنَّ قُلوب الأنبياء مُعَلَّقَة باللَّه تعالى ، وَهِمَمهم مُرتبطة بالآخرة ومعارفها .

ويجب التفريق بَين ما قاله النبيُّ ﷺ مِن مَعَايش الدُّنيا على سبيل الرَّأي ، وبَين ما قاله شَرْعًا ، وحدَّث به عَن اللَّه تعالى .

وروى ابن حِبَّان في صحيحه (١/ ٢٠١) أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((إذا كان شيء مِن أمر دُنياكم فَشَأْنَكُم ، وإذا كان شيء من أمر دِينكم فَإلَيَّ)) .

*

ثانيًا : الدَّعوة بِلِسَانِ القَوم وبِمَا يَفهمونه

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وما أرْسَلْنا مِن رَسُولٍ إلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُم ﴾ [إبراهيم : ٤] .

وما أرسلَ اللَّهُ في الأُمَم السابقة رَسُولًا مِن الرُّسُل إلا بلغة قَومه ، لِيَفْهَمُوا عنه ، ويُوضِّح لهم شريعةَ اللَّه ، ويُفْهِمهم مُرَادَه ، لتتحقَّق الغايةُ مِن الرسالة ، وتَكون الدَّعوة ذات مَعنى ، ويَنقطع عُذرُهم ، وتُقَام عليهم الحُجَّة ، ولا يكون لهم حُجَّة على اللَّه تعالى، ولا يَقولوا لِنَبِيِّهم : لا نَفهَم ما تَقول . لذلك ، لَم يَبعَث اللَّهُ نَبِيًّا إلا بلُغة قَومه . والهِدايةُ والإضلال بيد اللَّه وَحْدَه ، يُوفِّق اللَّهُ مَن يَشاء إلى الحَق، فيعتنق الإسلامَ ، ويُصبح مِن السُّعَداء ، ويَكون مصيره الجَنَّة ، ويُضِلُّ اللَّهُ مَن يشاء ، فيَغرق في الكُفر ، ويُصبح مِن الأشقياء ، ويَكون مصيره النار . وَلَوْ كان النبيُّ يتحدَّث لُغةً مُختلفة عَن لُغة قَومه ، لَمَا فَهِمَ كلامَهم ، ولا فَهِمُوا كلامَه ، وبالتالي تَفقد الرسالةُ هَدَفَها ، وتُصبح بلا مَعنَى ولا جَدوَى .

والآيةُ نَزلت لأنَّ قُرَيْشًا قالوا : ما بالُ الكُتب كُلُّها أعجمية، وهذا القُرآن عربي ؟! .

والنبيُّ ﷺ بُعِثَ إلى الناس كافَّة (العَرَب وغَير العرب) ، معَ أنَّه عربي، ويتحدَّث اللغةَ العربية، والناس تابعون للعرب في هذا الأمر ، وقد أرسلَ النبيُّ ﷺ رُسُلَه إلى غَير العَرَب ، يَدعونهم إلى تَوحيد اللَّه ، وعبادته ، ويُترجمون لهم بلُغاتهم ، ومَن تُرْجِمَ له ترجمةً يَفهمها أُقِيمَت عليه الحُجَّة ، وانقطعَ عُذرُه .

وقال القرطبي في تفسيره (٩/ ٢٩٠) : ((قَوله تعالى: ﴿ وما أرْسَلْنا مِن رَسُولٍ ﴾ أي : قَبْلَك يا مُحمَّد ﴿ إلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ ، أي: بِلُغتهم لِيُبيِّنوا لهم أمرَ دِينهم ، ووحَّد اللسانَ، وإن أضافه إلى القَوم ، لأن المُراد اللغة، فهي اسم جِنْس يقع على القليل والكثير، ولا حُجَّة للعَجَم وغَيرهم في هذه الآية ، لأنَّ كُلَّ مَن تُرجِمَ له ما جاء به النبيُّ ﷺ ترجمةً يَفهمها لَزِمَتْهُ الحُجَّة)) .

إنَّ اللَّه يُرسِلُ الرَّسُولَ بِنَفْس لُغة قَومه ، كَي يَقدِر على دَعوتهم ، وتعليمهم ، وإرشادهم ، وإقامة الحُجَّة عليهم ، وقَطْع أعذارهم . وأيضًا ، حتى يَقدِر الناسُ على فَهْم كلام الرسول والتَّخاطب معه ، فتتجذر لُغةُ التواصل دُون حواجز ، أوْ عَقَبَات لغوية . وهذا يُساهم في تحقيق مُرادِ اللَّه في إنقاذ الناس ، ونشرِ الدَّعوة بصورة صحيحة على أكمل وجه ، لتصل الدَّعوةُ إلى كُل الشرائح الاجتماعية دُون حُدود لُغوية ، أو مُشكلات في طريقة التَّخاطب والدَّعوة .

والجديرُ بالذِّكْر أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ هو الرَّسُول الوحيد الذي أُرْسِلَ إلى الإنس والجِن .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٢/ ٢٢٣) : ((﴿ وما أرْسَلْنا مِن رَسُولٍ إلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ إلا مُتَكَلِّمًا بلُغتهم ، ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُم ﴾ ما هو مَبعوث به وله، فلا يكون لهم حُجَّة على اللَّه ، ولا يقولون له : لَمْ نفهم ما خُوطِبنا به . فإنْ قُلْتَ : إنَّ رسولنا ﷺ بُعِثَ إلى الناس جميعًا بقوله : ﴿ قُل يا أيُّها النَّاسُ إنِّي رَسُولُ اللَّهِ إلَيْكُم جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] . بَل إلى الثَّقَلَيْن ، وهُم على ألسنة مُختلفة ، فإنْ لَم تكن للعرب حُجَّة ، فَلِغَيْرهم الحُجَّة . قُلْتُ: لا يَخلو إمَّا أن يَنزِل بجميع الألسنة أوْ بواحد منها، فلا حاجة إلى نُزوله بجميع الألسنة ، لأن الترجمة تَنُوب عن ذلك وتكفي التطويل، فَتَعَيَّنَ أن ينزل بلسان واحد ، وكان لسان قَومه أوْلَى بالتَّعيين ، لأنهم أقرب إلَيه ، ولأنه أبعد مِن التَّحريف والتَّبديل)) . اهـ . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ١٣٤) : ((ثُمَّ لمَّا مَنَّ على المُكلَّفين بإنزال الكِتاب وإرسال الرسول، ذَكَرَ مِن كَمال تِلك النِّعمة أن ذلك المُرسَل بلسان قَومه، فقال : ﴿ وما أرْسَلْنا مِن رَسُولٍ إلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ ، أي : مُتَلَبِّسًا بلسانهم ، مُتَكَلِّمًا بلُغتهم ، لأنَّه إذا كان كذلك ، فَهِمَ عنه المُرسَل إلَيهم ما يَقوله لهم ، وسَهُلَ عليهم ذلك ، بخِلاف ما لَوْ كان بلِسان غَيرهم ، فإنهم لا يَدْرُون ما يَقول ، ولا يَفهمون ما يُخاطبهم به ، حتى يتعلَّموا ذلك اللسان دَهْرًا طويلًا ، ومعَ ذلك فلا بُد أن يَصعُب عليهم فَهْم ذلك بعض صعوبة ، ولهذا علَّل سُبحانه ما امتنَّ به على العباد بقَوله : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُم ﴾ ، أي : لِيُوَضِّحَ لهم ما أمَرَهم اللَّهُ به مِن الشريعة التي شرَعَهَا لهم . ووحَّد اللسانَ ، لأن المُراد به اللغة . وقد قِيل: في هذه الآية إشكال لأنَّ النبيَّ ﷺ أُرْسِلَ إلى الناس جميعًا ، بَل إلى الجِن والإنس ، ولُغاتهم مُتباينة ، وألسنتهم مُختلفة . وأُجِيبَ بأنه وإنْ كان ﷺ مُرْسَلًا إلى الثَّقَلَيْن كما مَرَّ ، لكن لمَّا كان قَومه العرب ، وكانوا أخص به ، وأقرب إليه، كان إرساله بلِسانهم أوْلَى مِن إرساله بلِسان غَيْرهم ، وهُم يُبَيِّنُونه لِمَن كان على غَير لِسانهم ، ويُوضِّحونه حتى يَصِير فاهمًا له كَفَهْمهم إيَّاه ، ولو نَزَلَ القُرآنُ بجميع لُغات مَن أُرْسِلَ إلَيهم ، وبيَّنه رسولُ اللَّه لِكُلِّ قَوم بلِسانهم ، لكان ذلك مَظَنَّة للاختلاف ، وفَتْحًا لباب التنازُع ، لأنَّ كُلَّ أُمَّة قد تَدَّعي مِن المعاني في لِسانها ما لا يَعرفه غَيْرُها ، ورُبَّما كان ذلك أيضا مُفْضِيًا إلى التَّحريف والتَّصحيف ، بسبب الدعاوي الباطلة التي يقع فيها المُتعصِّبون)) .

وقال الحافظ في الفتح (٩/ ١٠) : ((لا يستلزم أن يكون النبيُّ ﷺ أُرْسِلَ بلِسان قُرَيش فَقط لكَوْنهم قَوْمَه ، بل أُرْسِلَ بلِسان جميع العرب ، لأنَّه أُرْسِلَ إليهم كُلِّهم ، بدليل أنه خاطبَ الأعرابيَّ الذي سأله بما يَفْهَمه بعد أن نَزَلَ الوَحْيُ عليه بجواب مسألته ، فدلَّ على أنَّ الوَحْيَ كان يَنزِل عَلَيه بما يَفْهَمه السائل مِن العَرَب قُرَشِيًّا كان أو غَير قُرَشِيٍّ)) .

والنبيُّ ﷺ أُرْسِلَ إلى الإنس والجِن . وهذا لا يستلزم أن يَتقن كُلَّ اللغات ، لأن لغته ﷺ هي لغة قَومه (العربية) ، وبعد ذلك تنطلق حركةُ الترجمة . ويَجب على المُسلمين أن يَحْمِلُوا أمانةَ الدَّعوة الإسلامية ، ويَنشروها في أنحاء العَالَم ،كُلًّا حَسَب طاقته وقُدرته وإمكانياته ومَوَاهبه ، والدَّعوةُ المُحمَّدية الإسلامية مُستمرة إلى يَوم القِيامة بلا انقطاع ولا تَوَقُّف .

وقال الجاحظ في البَيان والتَّبيين (ص ٢١) : ((قال تباركَ وتعالى : ﴿ وما أرْسَلْنا مِن رَسُولٍ إلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُم ﴾ ، لأنَّ مَدَارَ الأمر على البيان والتَّبيين ، وعلى الإفهام والتَّفهيم ، وكُلَّما كان اللسانُ أبْيَنَ كان أحمدَ ، كما أنَّه كُلَّما كان القلبُ أشدَّ استبانة ، كان أحْمَدَ ، والمُفَهِّم لَكَ والمُتَفَهِّم عَنْكَ شريكان في الفَضْل ، إلا أنَّ المُفَهِّم أفضل مِن المُتَفَهِّم ، وكذلك المُعلِّم والمُتعلِّم)) .

وعن ابن عباس _ رضي اللَّهُ عنهما _ قال : ((إنَّ اللَّهَ فَضَّلَ مُحمَّدًا ﷺ على أهل السماء ، وفضَّله على أهل الأرض)) . قالوا : يا ابن عباس ، فَبِما فضَّله اللَّهُ على أهل السماء ؟ ، قال : ((قال اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنهُم إنِّي إلَهٌ مِن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزي الظالمين﴾ [الأنبياء : ٢٩] . وقال لمُحمَّد ﷺ : ﴿ إنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحًا مُبينًا (١) لِيَغفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وما تأخَّرَ ﴾ _ الآية _)) . قالوا : فَبِما فضَّله اللَّهُ على أهل الأرض ؟ ، قال : ((إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقول : ﴿ وما أرْسَلْنا مِن رسول إلا بلسان قَوْمه ﴾ _ الآية _ . وقال لمُحمَّد ﷺ : ﴿ وما أرسلناكَ إلا كافَّةً للناسِ بشيرًا ونذيرًا ﴾ [سَبَأ : ٢٨] ، فأرْسَلَه إلى الجِن والإنس)) [٣٨].

إنَّ اللَّه غَفَرَ للنبيِّ مُحَمَّد ﷺ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنبه وما تأخَّرَ ، وهذه خَاصِيَّة للنبيِّ مُحَمَّد ﷺ ، يتميَّز بها عن باقي الأنبياء الكرام _ عليهم الصلاة والسلام _ ، كما أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ هو النبيُّ الوحيد الذي بُعِثَ للناسِ جميعًا (العَرَب والعَجَم) ، بَل أيضًا بُعِثَ إلى الإنس والجِن .

وهاتان المَيْزتان تُشيران بوضوح إلى عَظَمَة النبيِّ مُحَمَّد ﷺ ، وتَمَيُّزه ، وأفضليته على سائر المخلوقات ، فهو أفضل مِن الملائكة (أهل السماء) ، وأفضل مِن الأنبياء (أهل الأرض). وهو أعظم مَخلوق خَلَقَه اللَّهُ تعالى ، وأحب خَلْق اللَّه إلَيه ، وأعبدهم ، وأتقاهم ، وأكثرهم إخلاصًا ، وأعظمهم إيمانًا ، وهو ﷺ أعْلَم المخلوقات باللَّه وعَظَمته وقُدرته ومَجْده وصِفَاته . وقد وَصَلَ إلى منزلة رفيعة لا يَصِل إلَيها نبيٌّ ولا مَلَكٌ ، وفَازَ بِرُتْبَة عالية لا يَصِل إلَيها إنسيٌّ ولا جِنِّيٌّ .

---

٣٨ رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٨١) برقم (٣٣٣٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآنًا أعجمِيًّا لقالوا لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُهُ أأعْجَمِيٌّ وعربِيٌّ قُلْ هُوَ للذينَ آمَنوا هُدًى وَشِفاءٌ والذينَ لا يُؤمنونَ في آذانِهم وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِم عَمًى أُولئكَ يُنادَوْنَ مِن مكانٍ بعيدٍ ﴾ [فُصِّلَتْ : ٤٤] .

لَوْ جَعَلَ اللَّهُ القُرآنَ أعجميًّا لقالت قُرَيشٌ (قَوْمُ النبيِّ ﷺ) تَعَنُّتًا وعِنادًا:هَلَّا نَزَلَ بلغة العرب كَي نَفهمه ونعرف ما فِيه ، فنحن عربٌ لا نعرف إلا اللغةَ العربية .

والاستفهامُ في الآية ﴿ أأعْجَمِيٌّ وعربِيٌّ ﴾ للإنكار،يعني: لَقَالُوا: أكلامٌ أعجميٌّ ورسولٌ عربيٌّ؟. والأعجميُّ هُوَ الذي لا يُفهَم كلامُه. وفي الآيةِ دليلٌ على أن القُرآن عربيٌّ ، وإذا نُقِلَ إلى لُغةٍ أُخرى لَمْ يَعُدْ قُرآنًا ، وفَقَدَ إعجازَه.وَلَوْ كان القُرآنُ بغَير العربية، لَكان المشركون معذورين في كُفرهم بِه ، لأنه _ عِندئذٍ _ سَيَكون كلامًا غَير مفهوم ، ولا معنى له بالنِّسبة إلَيهم ، ولا يَعْرِفون ألفاظَه ومَعانيه. أمَّا نُزوله بِلُغتهم فقد قَطَعَ عُذْرَهم، ولا حُجَّةَ لهم . وبِما أنهم عاجزون عن مُجاراته أو الإتيان بِمِثْلِه وهو بِلُغتهم ، وهُم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان ، فهذا دليلٌ واضحٌ على أن القُرآنَ لَيس مِن عِندِ مُحَمَّد الأُمِّيِّ الذي لا يَقرأ ولا يَكتب ، وإنَّما مِن عِند اللَّه تعالى . واللَّهُ وَحْدَهُ هو الذي أعلنَ أن القُرآنَ كلامُه . وَلَوْ كانَ القُرآن مِن تأليف أي مخلوق،فلماذا لَم يَظهر هذا المخلوقُ ويُخبِرنا بأن القُرآن مِن تأليفه، وأنَّ مُحَمَّدًا قد أخذه مِنه ؟ .

والمشركون سيخترعون أعذارًا واهية لعدم إيمانهم، مهما كانت لُغة القُرآن ، وسَوْفَ يَجدون تبريراتٍ لِكُفرهم وجُحودهم ، وهذا هو العِناد والتَّعَنُّت والاستكبار في أسوأ صُوَرِه . فالقُرآن الذي هُوَ بِلُغتهم قالوا عنه إنَّهُ أساطير الأوَّلين، ومِن تأليف مُحَمَّد ﷺ. وَلَوْ نَزَلَ بغَير اللغة العربية لَطَعنوا فِيه لأنه لَيس بِلُغتهم . إنَّ الكُفرَ _ عِندَهم _ مسألةُ مَبدأ ، ومَوْقِفٌ مُسْبَق وثابت، سواءٌ نزلَ القُرآنُ أَمْ لَمْ يَنْزِل، وسواءٌ كانَ بالعربية أَم بغَيْرِها، وسواءٌ ظَهرت المُعجزاتُ أَم لَم تَظهر . والكُفر عِناد . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٧٣٩) : ((والأعجميُّ : الذي لا يُفصِح سَواءٌ كان مِنَ العَرَبِ أو مِنَ العَجَم.والأعجم ضِد الفصيح:وهو الذي لا يُبَيِّن كَلامَه ، ويُقال للحيوان غير الناطق : أعْجَم)) .

والآيةُ توضِّح أهميةَ الدَّعوة باللغة التي يَفهمها الناس كَي يَستوعبوا الأحكامَ والشرائعَ ، ويقفوا على معنى الكلام ودَلالاته ، ويقوموا بتطبيق الأحكام على أرض الواقع . أمَّا الدعوة باللغة التي لا يُتقنها الناس فهي مَضيعة للوقت ، بسبب انعدام وسيلة الحوار والتخاطب ، وغياب معنى استقبال الكلام وإرساله .

وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٣٢٠) : ((قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جعلناه قُرآنًا أعجميًّا ﴾ أي بلغة غير العرب ﴿ لقالوا لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُه ﴾ أي بُيِّنت بلغتنا، فإننا عرب لا نفهم الأعجمية ، فبيَّن أنه أنزله بلسانهم ليتقرَّر به معنى الإعجاز ، إذْ هُم أعلم الناس بأنواع الكلام نَظْمًا ونَثْرًا ، وإذا عَجَزُوا عن مُعارضته كان من أدل الدليل على أنَّه مِن عِندِ اللَّه ، وَلَوْ كان بلسان العَجَم ، لقالوا : لا عِلْمَ لنا بهذا اللسان)) .

﴿ قُلْ هُوَ للذينَ آمَنوا هُدًى وَشِفاءٌ ﴾. إنَّ القُرآنَ هُدًى للمؤمنين مِنَ الضلالة ، يُرْشِدُهم إلى طريق الحق ، ويَشفيهم مِنَ الجهل والأمراض والشُّبُهات .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٣١) : ((أي : قُل يا مُحَمَّد : هذا القرآن لِمَن آمنَ بِه ، هُدًى لقلبه ، وشفاءٌ لِمَا في الصدور مِنَ الشُّكوك والرِّيَب)) .

﴿ والذينَ لا يُؤمنونَ في آذانِهِم وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِم عَمًى ﴾ . أمَّا الكافرون ، ففي آذانِهم صَمَمٌ وثِقَلٌ ، يَستمعون القُرآنَ ، فلا يَفهمون ما فيه، فيزدادون كُفرًا وضَلالًا وتعاسة ، بسبب عِنادهم وتكبُّرهم، والقُرآنُ عَلَيهم عَمًى ، لأنهم لا يَرَوْنَ فِيه المواعظَ الجليلة ، والحِكَمَ البليغة ، والحُجَجَ الباهرة . لقد عَمِيَتْ قُلوبُهم عن القُرآن ، وصَمُّوا عَن سَماعه ، فلا يَنتفعون مِنه بشيء . وهذا يدل على أن اللَّه يَهدي أقوامًا بأن يَفتح قلوبَهم وحَوَاسَّهم للقُرآن ، ويُضِلُّ آخرين بأن يُغلِق قلوبَهم أمام القُرآن ، ويُعمي أبصارَهم ، ويَسُدُّ آذانَهم. وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٣٢٠) : ((أي : صَمَم عن سماع القرآن ، ولهذا تَوَاصَوا باللغو فيه)) .

وإذا لَم يَشعر الإنسانُ بِعَظَمَةِ القُرآن وإعجازِه ، ولَم يَذُقْ حلاوةَ القُرآن ، ففي قلبِه أوساخٌ لا بُدَّ من إزالتها . إذْ إنَّ نُور القُرآن لا يَهبط في قلبٍ قَذِرٍ. وعلى الإنسان أن يُنَظِّفَ قَلْبَه قبل استماع القُرآن كَي يَشعر بِعَظَمَة كلام اللَّه تعالى . وكما أن نُور الشمس لا يَدخل إلى الغرفة إلا إذا فَتَحَ الإنسانُ النافذةَ ، فكذلك نُور القُرآن لا يَدخل إلى حياة الإنسان إلا إذا فَتَحَ قَلْبَه .

وفي حاشية زاده على البَيضاوي (٣ / ٢٦٥) : ((إنَّ القُرآنَ لِوُضوح آياته ، وسُطوع براهينه، هادٍ إلى الحق ، ومُزيل للرِّيَب والشَّك ، وشفاء مِن داء الجهل والكُفر والارتياب . وَمَن ارتابَ فيه ولَم يُؤمن به ، فارتيابه إنما نشأ عَن توغُّله في اتِّباع الشَّهَوَات ، وتقاعده عن تَفَقُّد ما يُسعده ويُنجِّيه)) .

﴿ أُولئكَ يُنادَوْنَ مِن مكانٍ بعيدٍ ﴾ . إنَّ الكافرين لا يَسمعون الحقَّ ، كأنهم يُنادَوْنَ مِن مكانٍ بعيد ، فلا يَفهمون معنى النِّداء ولا المُراد مِنه ، وهذا يُشير إلى المسافة الهائلة التي تَفصل قُلوبَهم

عن الحق، لذلك لا يَنتفعون بشيء من المواعظ والأحكام . وإذا سَمِعُوا النِّداءَ فإنهم لا يَفهمون مِنهُ شَيئًا ، كالبهائم ، تَسمع النداءَ لكنها لا تَفهم معناه .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ١١٨) : ((اختلف أهل التأويل في معناه فقال بعضهم : معنى ذلك : تشبيه اللَّه جَلَّ ثناؤه لِعَمى قُلوبهم عن فَهم ما أُنزِل في القرآن مِن حُجَجِه ومواعظه ببعيدِ فَهْمٍ ، سامع صوت مِن بعيد ، نُودِيَ فَلَم يَفْهَم ما نُودِيَ)) .

وهذا معنى مَجَازيٌّ ، وهناك معنى آخر على الحقيقة . قال الثعالبي في تفسيره (٤/ ٩٧) : ((وأنَّ معناه أنهم يوم القيامة يُنَادَوْنَ بِكُفرهم وقَبيحِ أعمالهم مِن بُعْد ، حتى يَسمع ذلك أهل الموقِف، لِيُفْضَحوا على رؤوس الخلائق، ويكون أعظم لتوبيخهم ، وهذا تأويل الضَّحَّاك)) .

*

ثالثًا : المُجَادَلَة بالتي هي أحسن

قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أحْسَنُ ﴾ [النَّحْل: ١٢٥] .

الحِكمةُ والمَوعظةُ الحَسَنة هُما الرُّكنان اللذان تَقوم عليهما الدَّعوة الإسلامية . وهُناك أفراد لا يَقْبَلُون بهذين الرُّكنين، ولا يَخضعون للحق، ولا يُسلِّمون له.وهؤلاء يَحتاجون إلى جِدال ومُناظَرَة ومُقارَعة الحُجَّة بالحُجَّة، فَجَادِلْهم يا مُحَمَّد ، وخَاصِمْهم بأسلوبٍ جَميلٍ وهادئ ومُؤَيَّدٍ بالنصوص الدينية والحُجَج العقلية. وأعْرِضْ عَن أذاهم ، وَوَاصِل تَبليغَ الرسالةِ بكل نشاط وقُوَّة. والهدفُ من الجِدال بالأسلوب الحَسَن الطَّيب هو إظهار الحقِّ الذي جاءَ بِه مُحَمَّد ﷺ ، وكَشف الباطل الموجود عِند الخصم . ولا شَكَّ أنَّ المُجادَلة الحَسَنة تُوقِظ القُلُوبَ مِن غَفْلتها، وتُؤَثِّر في النفوس بشكل إيجابي ، وتُنقِّي العقلَ من الشوائب .

والآيةُ : ﴿ وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أحْسَنُ ﴾ رَدٌّ على الرافضين للمُناظَرة في الدِّين .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٢٦) : ((﴿ وَجَادِلْهُم ﴾ وَجَادِلْ مُعانِديهم ﴿ بالتي هِيَ أحْسَنُ ﴾ بالطريقة التي هي أحسن طُرُق المُجَادَلة ، مِن الرِّفْق واللين ، وإيثار الوَجْه الأيسر ، والمُقَدِّمات التي هي أشهر ، فإن ذلك أنفع في تَسكين لَهبهم ، وتَبيين شَغَبهم)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٥٠٦): ((قَوْلُه تعالى:﴿وَجَادِلْهُم ﴾ في المُشَار إلَيهم قَولان : أحدهما أنهم أهل مكة ، والثاني أهل الكتاب . وفي قَوْله : ﴿ بالتي هي أحسن ﴾ ثلاثة أقوال أحدها جَادِلْهم بالقرآن ، والثاني بِ لا إلهَ إلا اللَّهُ ، والثالث جَادِلْهم غَير فَظ ولا غَليظ ، وألِنْ لهم جَانِبَك)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وقُل لِعِبَادي يَقُولوا التي هِيَ أحْسَنُ ﴾ [الإسراء : ٥٣] [٣٩].

الخِطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ : وقُل يا مُحمَّد لعبادي المؤمنين يقولوا الكلمةَ الطَّيبة في حِواراتهم، بأسلوب لطيف بدُون خُشونة .

٣٩ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٦ و٤٧) عن الآية : ((في سبب نزولها قَولان : أحدهما أنَّ المشركين كانوا يُؤْذُون أصحابَ رسول اللَّه ﷺ بمكة بالقَوْل والفِعْل ، فَشَكَوْا ذلك إلى رسول اللَّه ﷺ ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني أنَّ رَجُلًا مِن الكُفَّار شَتَمَ عمر بن الخطاب ، فَهَمَّ به عُمر ــ رضي اللَّهُ عنه ــ ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل)) .

وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٩٣): ((يَقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه مُحمَّد ﷺ: وقُل يا مُحمَّد لعبادي يَقُلْ بعضُهم لبعض التي هي أحسن مِن المُحَاوَرَة والمُخَاطَبَة)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣٣٧) : ((قُل يا مُحمَّد لعبادي المُؤمنين إنَّهُم يقولون عِند مُحاورتهم للمُشركين الكَلِمَةَ التي هي أحسن مِن غَيرها من الكلام الحَسَن ، ... ، لأن المُخَاشَنَة لهم رُبَّما تُنفِّرهم عن الإجابة)) .

مِن أهم أركان الدَّعوة إيصالها بأسلوب طَيِّب وجميل وجَذَّاب، ومُحبَّب للنَّفْس الإنسانية ، يَعتمد على البِشارة ، ويُوَازن بين الترغيب والترهيب ، ويحترم عقولَ الناس ومكانتهم الاجتماعية ، ويُنزلهم في مَقاماتهم اللائقة . وهذا الأسلوب ينبغي أن يشتمل على العِلْم الشرعيِّ ، والحُجَّةِ الناصعة، واللغةِ المُستقيمة الهادئة ، ويبتعد عن الصُّراخ والضجيج وتنفير الناس وبَعْثِ اليأس فيهم.

والأسلوبُ الخَشِن حِين يَحمل الحَقَّ ، فإنَّ الناس سيبتعدون عن الحَق ، مِن أجل أداة توصيله السَّيئة ، والعقبةُ في طريق الدَّعوة هي وُجود مُحامٍ سَيِّئ لقضية حَقَّة . وينبغي تذكير الناس بالنِّعَم الإلهية عليهم، فهذا مِن شأنه جَذبهم إلى مَحَبَّة اللَّه تعالى ، وتعظيمه ، وشُكره، والالتزام بشريعته ، لأن النُّفُوس مَجبولة على مَحَبَّة مَن أحسنَ إليها .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٠٤) : عن عائشة ـ رضي اللَّهُ عنها ـ : عن النبيِّ ﷺ قال : ((إنَّ الرِّفْقَ لا يَكُون في شيء إلا زَانَه ، ولا يُنْزَعُ مِن شيء إلا شَانَه)) .

الرِّفْقُ في الأُمور، والتعامل معَ الناس بلُطْف ، واللين ، والتَّيسير ، من أهم الأخلاق الإسلامية. وعِندما ينتشر الرِّفْق في الأشياء والمُعَامَلات ، فإنَّها تُصبح حسنةً جميلة ، وتصل المعاني الرائعة إلى النُّفُوس بلا تعب ، وتتحقَّق المطالب بلا عَنَاء . وغيابُ الرِّفْق سببٌ رئيسيٌّ في جعل الأُمور قبيحةً ومُعقَّدة وبعيدة عن القَبول. وأكبر ظُلْم يَلحَق بالمعاني الجميلة أن تُوضَع في قوالب قبيحة. والحديثُ يُوضِّح أهميةَ الرِّفْق الفائقة ، وضرورته في العلاقات الإنسانية ، وخُطورةَ العُنفِ والقَسوة.

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ١٤٥) : ((وفي الحديث فَضْل الرِّفْق، والحَث على التَّخَلُّق ، وذَم العُنف . والرِّفْق سبب كُل خَير . ... . وقال القاضي : يتأتَّى به مِن الأغراض ، ويَسهُل مِن المَطَالِب ، ما لا يتأتَّى بغَيره)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير(٥/ ٤٦١): ((لأنَّ به تَسهُل الأُمور، وبه يتَّصل بعضُها ببعض، وبه يَجتمع ما تشتَّت، ويأتلف ما تنافر وتبدَّد ، ويَرجع إلى المأوى ما شَذَّ، وهو مُؤلِّف للجماعات، جامع للطاعات، ومنه أُخِذَ أنَّه يَنبغي للعَالِم إذا رأى مَن يُخِلُّ بواجب ، أو يَفعل مُحَرَّمًا ، أن يترفَّق

في إرشاده ، ويتلطَّف به . رُوِيَ عن أبي أُمَامة أنَّ شَابًّا أتى المُصْطَفَى ﷺ فقال له : ائذَنْ لي في الزِّنا، فصاحَ الناسُ به، فقال: " ادْنُ مِنِّي "، فدنا، فقال:" أتُحِبُّه لأُمِّكَ ؟" قال : لا، قال : " فالناس لا يُحِبُّونه لأُمَّهاتهم ، أتُحِبُّه لابنتك ؟ " ، قال : لا، قال : " فالناس لا يُحِبُّونه لبناتهم" ، حَتَّى ذَكَرَ الزَّوجة والعَمَّة والخالة، ثُمَّ دعا له، فَلَم يكن بَعْد شيء أبغض إليه من الزِّنا. ولأبي الفتح البُستي:

مَن جَعَلَ الرِّفْقَ في مقاصده ... وفي مَرَاقيه سُلَّمًا سَلِما
والصَّبْرُ عَوْنُ الفتى وناصرُه ... وقَلَّ مَن عَنهُ نَدَّ ما نَدِما
كَم صَدمةٍ للزمان مُنكَرَةٍ ... لمَّا رأى الصَّبْرَ صَدَّ ما صدما)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وكانَ الإنسانُ أكثرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكَهْف : ٥٤] .

وكانَ الإنسانُ أكثرَ شيء مِرَاءً وخُصُومةً بالباطل ، لا يُنيب لِحَق ، ولا يَنزجر لِمَوعظة . وانتصابُ ﴿ جَدَلًا ﴾ على التَّمييز. والآيةُ عَامَّة ، فالإنسانُ كثير المُجَادَلَة والمُعَارَضَة للحَق بالباطل، إلا مَن هَدَاه اللَّهُ إلى طريقَ النَّجَاة .

وفي تفسير الجَلالَيْن (١/ ٣٨٨) : ((المعنى : وكان جَدَلُ الإنسانِ أكثرَ شيء فيه)) .

إنَّ الطبيعة الإنسانية تتَّصف بالجَدَل والخُصُومة ، وعدم الرُّضوخ للحق . والإنسانُ كائن مُجَادِل لا يَنصاع للحَق ، ولا يَستجيب للموعظة . وَجَدَلُ الإنسان أكثر مِن جَدَل كُل شيء. وهو يَستخدم الجَدَل كسلاح لتبرير أفعاله ، ودَحْضِ الحق ، مُعْتَمِدًا على مهاراته الشخصية ، وغُروره ، وإعجابه بِنَفْسه ، لكنَّ الحقَّ ساطع ، والشمسُ لا يُمكن تغطيتها بِغِرْبَال .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٣/ ١٨) : ((﴿ وكانَ الإنسانُ أكثرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ تمييز ، أي : أكثر الأشياء التي يتأتَّى مِنها الجَدَل إن فصلتها واحدًا بعد واحد ، خُصُومة ومُمَارَاة بالباطل ، يعني أنَّ جَدَل الإنسان أكثر مِن جَدَل كُل شيء)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ١٥٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ وكانَ الإنسانُ أكثرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ ، فِيمَن نزلت قَولان: أحدهما أنَّه النَّضْر بن الحارث ، وكان جِداله في القُرآن ، قاله ابن عباس . والثاني أُبَي بن خَلَف ، وكان جِداله في البَعْث ، حِين أتى بِعَظْم قَد رَمَّ ، فقال : أَيَقْدِر اللَّهُ على إعادة هذا ؟ ، قاله ابن السائب . قال الزَّجاج : كُل ما يَعْقِل مِن المَلائكة والجِن يُجَادِل ، والإنسان أكثر هذه الأشياء جَدَلًا)) .

وعن عَلِيِّ بن أبي طالب_رضي اللَّهُ عنه_: أنَّ رسول اللَّه ﷺ طَرَقَه وفاطمةَ بنت رسول اللَّه ﷺ لَيْلَةً ، فقال لهم : ((ألا تُصَلُّون ؟)). قال عليٌّ : فَقُلْتُ : يا رسول اللَّه ، إنَّما أنْفُسُنَا بيد اللَّه ، فإذا شاءَ أن يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا ، فانصرفَ رسولُ اللَّه ﷺ حِين قُلْتُ ذلك ، وَلَم يَرْجِعْ إلَيَّ شيئًا ، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وهو مُدْبِرٌ يَضْرِبُ فَخِذَه ويقول : ((﴿ وكانَ الإنسانُ أكثرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾)) [٤٠].

حَرَصَ النبيُّ ﷺ على قِيَام الليل ، وكان يَحُثُّ أهْلَه على ذلك ، ويَتَفَقَّدهم في ذلك . وقد جاءَ النبيُّ ﷺ إلى عليٍّ وفاطمة _ رضي اللَّهُ عنهما _ لَيْلًا ، فوجدهما نَائِمَيْن ، فَحَثَّهُما على الصَّلاة ، وقد اعتذرَ عليٌّ بأنهما تركا الصلاةَ دُون إرادتهما ، لأنَّهما كانا نائِمَيْن ، وأرواحُهما لَيْسَتْ بأيديهما حتى يَستيقظا متى شاءا، وإنَّما بيد اللَّه تعالى. فانصرفَ النبيُّ ﷺ عندما سَمِعَ جوابَ عليٍّ، ولَم يَرُد عليه بشيء.وسَمِعَه عليٌّ وهو ذاهب يَضْرِب فَخِذَه وهو يقول: ﴿ وكانَ الإنسانُ أكثرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ تَعَجُّبًا مِن تَسَرُّع عليٍّ _ رضي اللَّه عنه _ ، ومُبادرته إلى هذا الجواب ، وتعبيرًا عن عدم رِضَاه عَن جَوابه . والتَّسَرُّع في الإجابة نَوع مِن المُجَادَلَة . وقِيل : هذا إنكار لِجَدَل عليٍّ ، لأنَّه تمسَّك بتقدير اللَّه ومشيئته في مُقَابَلَة التَّكليف ، وهذا الكلام باطل ومردود، فالتكليفُ بقيام الليل لَيس واجبًا، وإنَّما هو مَندوب، لذلكَ انصرفَ النبيُّ ﷺ عنهما ، وَلَوْ كان واجبًا لَمَا تركهما على حالهما .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٦/ ٦٥) : ((قَوله : طَرَقَه وفاطمة ، أي: أتاهما في الليل. قَوله : سَمِعْتُه وهو مُدْبِر يَضْرِب فَخِذَه ويقول : " ﴿ وكانَ الإنسانُ أكثرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ "، المُختار في معناه أنَّه تَعَجُّب مِن سُرعة جَوابه ، وعدم مُوافقته له على الاعتذار بهذا ، ولهذا ضَرَبَ فَخِذَه . وقِيل : قاله تسليمًا لِعُذرهما ، وأنَّه لا عَتَب عليهما . وفي هذا الحديث الحَث على صلاة الليل ، وأمر الإنسان صاحبه بها ، وتَعَهُّد الإمام والكبير رَعِيَّته بالنظر في مصالح دِينهم ودُنياهم ،

---

٤٠ متفق عليه. البخاري (٦/ ٢٧١٦) برقم (٧٠٢٧) ، ومسلم (١/ ٥٣٧) برقم (٧٧٥) . وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٣١٥) : ((ويُؤْخَذ مِنه أنَّ عَلِيًّا تَرَكَ فِعْلَ الأَوْلَى وإن كان ما احْتَجَّ به مُتَّجِهًا ، وَمِن ثَمَّ تلا النبيُّ ﷺ الآيةَ ، ولم يُلْزِمْه معَ ذلك بالقِيام إلى الصَّلاة ، وَلَوْ كان امتثلَ وقامَ لَكَانَ أَوْلَى ، ويُؤْخَذ مِنه الإشارة إلى مراتب الجِدَال ، فإذا كان فيما لا بُد له مِنه تَعَيَّنَ نصر الحق بالحق ، فإنْ جَاوَزَ الذي يُنكِر عليه المأمورَ نُسِبَ إلى التقصير ، وإنْ كان في مُبَاح اكتفى فيه بمجرَّد الأمر والإشارة إلى تَرْك الأَوْلَى . وفيه أنَّ الإنسان طُبع على الدفاع عَن نَفْسِه بالقَوْل والفِعْل ، وأنَّه ينبغي له أن يُجاهد نَفْسَه أن يَقْبَل النصيحةَ، وَلَوْ كانت في غير واجب، وأن لا يَدفَع إلا بطريق مُعتدلة مِن غَير إفراط ولا تفريط)).

وأنَّه ينبغي للناصح إذا لَم تُقْبَل نصيحته، أو اعْتُذِرَ إلَيه بما لا يَرتضيه أن يَنْكَفَّ (يَنقطع) ولا يُعَنِّف إلا لِمَصلحة . قَوله : طَرَقَه وفاطمة ، فقال : " ألا تُصَلُّون ؟ " ، هكذا هو في الأصول : تُصَلُّون ، وجَمْع الاثنين صحيح ، لكن هل هو حقيقة أوْ مَجَاز ؟ ، فيه الخِلاف المشهور ، الأكثرون على أنَّه مَجَاز ، وقال آخرون : حقيقة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ولا تُجادِلوا أهلَ الكتاب إلا بالتي هِيَ أحسنُ إلا الذين ظَلَمُوا مِنهم ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

لا تُجادِلوا أيها المؤمنون أهلَ الكتاب (اليهود والنصارى) إلا بالأسلوب الحَسَن ، والحُجَّةِ الدامغة ، وبيانِ وُجوه القُصُور في عقائدهم الباطلة بالحِوار الطَّيِّب ، وإظهارِ تماسك العقيدة الإسلامية ، وإبراز عَظَمَة آيات القُرآن وإعجازها ، دُون إكراه ولا غِلْظة ولا خُشونة ، وذلك مِن أجل التأثير فيهم ، واستمالةِ قُلوبهم ، على أمل أن يَهْدِيَهم اللَّهُ إلى الإيمان .

أمَّا الأعداء المُحَارِبُون مِن أهل الكتاب الذين يُنَاصِبون المُؤمنين العَدَاءَ ، ويُقَاتِلُونهم ، فهؤلاء لا حِوار ولا نِقَاش معهم. وتجب مُواجهتهم بالسَّيف والقُوَّة ، والتعامل معهم بالشِّدة والغِلْظة [٤١] .

---

٤١ قال ابن الجوزي في زاد المسير(٦/٢٧٥):((في التي هي أحسن ثلاثة أقوال، أحدها أنها لا إله إلا اللَّه، رواه الضَّحَّاك عن ابن عباس، والثاني أنها الكَفُّ عنهم إذا بَذَلُوا الجِزْيةَ، فإن أَبَوْا قُوتِلُوا ، قاله مجاهد، والثالث أنها القُرآن والدُّعاء إلى اللَّه بالآياتِ والحُجَج . قَوْله تعالى : ﴿ إلا الذين ظَلَموا مِنهم ﴾ ، وهُم الذين نَصَبوا الحربَ، وأَبَوْا أن يُؤَدُّوا الجِزْيةَ ، فَجَادِلوا هؤلاء بالسَّيف، حتى يُسْلِمُوا أوْ يُعْطُوا الجِزْيةَ)) اهـ . وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٣١٥ و٣١٦) : ((والذي أخرجه الطبري بسند صحيح عن مجاهد " إنْ قالوا شَرًّا فَقُولوا خيرًا إلا الذين ظَلموا مِنهُم فانتَصِرُوا مِنهُم " . وبسند فيه ضعف " قال : إلا مَن ظَلَمَ مَن قَاتَلَ ولَم يُعْطِ الجِزْيَةَ " . وأخرجَ بسند حسن عن سعيد بن جُبَير قال : " هُم أهل الحرب مَن لا عهد له جَادِلْهُ بالسَّيْف " . ومن طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم الْمُراد : مَن آمنَ مِن أهل الكتاب نَهى عَن مجادلتهم فِيما يُحَدِّثُون به مِن الكتاب ، لَعَلَّه يكون حقًّا لا تَعْلَمه أنتَ ، ولا ينبغي أن تُجادل إلا الْمُقِيمَ مِنهُم على دِينه . وبسند صحيح عن قَتادة : هي منسوخة بآية بَراءة ، أن يُقَاتَلُوا حتى يَشهدوا أن لا إله إلا اللَّه وأنَّ محمدًا رسول اللَّه ، أوْ يُؤَدُّوا الجزية ، ورجَّح الطبري قَوْلَ مَن قال : الْمُراد مَن امتنعَ مِن أداء الجِزية . قال : ومَن أدَّاها وإنْ كان ظَالِمًا لِنَفْسِه باستمراره على كُفْره ، لكن الْمُراد في هذه الآية: مَن ظَلَمَ أهلَ الإسلام ، فحاربهم ، وامتنعَ مِن الإسلام ، أوْ بَذْل الجزية . وَرَدَّ عَلى مَن ادَّعَى النَّسْخَ لِكَوْنه =

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٢٩٢) : ((﴿ ولا تُجادِلوا أهلَ الكتاب إلا بالتي هِيَ أحسنُ ﴾ ، أي : إلا بالخَصْلَة التي هي أحسن ، وذلك على سبيل الدُّعاء لهم إلى اللَّه عَزَّ وَجَلَّ ، والتَّنبيه لهم على حُجَجه وبَرَاهينه ، رَجَاءَ إجابتهم إلى الإسلام ، لا على طريق الإغلاظ والمُخَاشَنَة، ﴿ إلا الذين ظَلَمُوا مِنهم ﴾ بأن أفْرَطُوا في المُجَادَلَة، ولَم يَتَأَدَّبُوا معَ المُسلمين، فلا بأس بالإغلاظ عليهم ، والتخشين في مُجادلتهم ، هكذا فسَّر الآيةَ أكثرُ المُفَسِّرين بأنَّ المُراد بأهل الكتاب: اليهود والنصارى . وقِيل : معنى الآية : لا تُجَادِلُوا مَن آمنَ بِمُحَمَّد مِن أهل الكتاب كعبد اللَّه ابن سَلام ، وسائر مَن آمنَ مِنهُم ، ﴿ إلا بالتي هِيَ أحسنُ ﴾ يعني : بالمُوافقة فِيما حدَّثوكم بِه مِن أخبار أهل الكتاب ، ويكون المُراد بالذين ظَلَمُوا على هذا القَول هُم : الباقون على كُفرهم . وقِيل: هذه الآية مَنسوخة بآيات القتال ، وبذلك قال قَتادة ومُقاتل . قال النَّحاس : مَن قال : هذه مَنسوخة ، احتجَّ بأن الآية مَكِّية ، ولَم يَكُن في ذلك الوقت قِتال مَفروض ، ولا طَلَب جِزْيَة ، ولا غَير ذلك . قال سعيد بن جُبَير ومُجاهد : إنَّ المُراد بالذين ظَلَمُوا مِنهُم : الذين نَصَبُوا القِتالَ للمُسلمين ، فَجِدالهم بالسَّيف حتَّى يُسْلِمُوا أوْ يُعْطُوا الجِزيةَ)) .

وقال الفخر الرازي في التفسير الكبير (٢٥/ ٧٥) : ((إنَّ المُشْرِك لَمَّا جاء بالمُنكَر الفظيع، كان اللائق أن يُجَادَل بالأخْشَن ، ويُبالَغ في تَوْهين شُبَهه وتَهجين مذهبه ، وأمَّا أهلُ الكتاب فإنهم آمَنُوا بإنزال الكُتُب وإرسال الرُّسُل، إلا الاعتراف بالنبيِّ عليه السلام ، فلِمُقابَلة إحسانهم يُجَادَلُون بالأحسَن ، إلا الذين ظَلَمُوا مِنهُم بإثبات الولد للَّه ، والقَوْل بثالث ثلاثة، فإنهم يُجَادَلون بالأخْشَن مِن تَهجين مَقالتهم ، وتَبيين جَهالتهم)) .

*

=لا يَثْبُت إلا بدليل، واللَّهُ أعْلَم.وحاصل ما رجَّحه أنَّه أمرَ بمُجادلة أهل الكتاب بالبيان والحُجَّة بطريق الإنصاف مِمَّن عاندَ مِنهُم ، فمفهوم الآية : جَواز مُجادلته بِغَير التي هي أحسن ، وهي الْمُجَادَلَة بالسَّيف، واللَّهُ أعْلَم)) .

رابعًا : دَفْع السَّيئة بالحَسَنَة

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ والذينَ صَبَرُوا ابتغاءَ وَجْهِ رَبِّهِم وأقاموا الصَّلاةَ وأنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُم سِرًّا وعَلانِيَةً ويَدْرَؤُونَ بالحَسَنَةِ السَّيئةَ أُولئكَ لَهُم عُقْبَى الدَّار ﴾ [الرَّعد : ٢٢] .

والذين صَبروا على فِعْل الطاعات ، وعَن تَرْك المعاصي ، طَلَبًا لرضا اللَّه وتعظيمًا له ، وأقاموا الصَّلاةَ بفرائضها وسُننها وحُدودها في أوقاتها ، وأنفَقُوا بعضَ أموالهم الواجب عليهم إنفاقُها في الخَفاء والعَلانية ، ويَدفعون الجَهْلَ بالحِلْم ، والأذى بالصَّبْر ، ويَفعلون الحَسَنَاتِ لدفع السَّيئات ، وفي الحديث : ((وأتْبِعِ السَّيئةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا)) [٤٢]. أي : إنْ وَقَعْتَ في سَيِّئة ، فافعَلْ وراءها حَسَنَة مِن صَلاة وصَدَقة ، وسائر ما يُوصَف بالحَسَنَة ، فإنَّ ذلك يَمحو تِلك السَّيئةَ . وهذا يعني ضرورة فِعْل الحَسَنَات بعد السَّيئات كَي يَمْحُوَها اللَّهُ تعالى . ومِن أعظم الحَسَنَات التَّوبة ، وكُلَّما ارتكبَ العبدُ ذَنْبًا يجب عليه أن يُبادر إلى التَّوبة ، حتى يَعود طاهرًا مُطَهَّرًا بلا ذَنْب .

أُولئكَ لهم العاقبة المحمودة في الدار الآخِرة ، وهي الجَنَّة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٤/ ٣٢٤ و٣٢٥): ((قَوله تعالى: ﴿ والذينَ صَبَرُوا ﴾ أي: على ما أُمِرُوا به ﴿ ابتغاءَ وَجْهِ رَبِّهِم ﴾ ، أي: طَلَبًا لِرِضاه ﴿ وأقاموا الصَّلاةَ ﴾ أتَمُّوها، ﴿ وأنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُم ﴾ مِن الأموال في طاعة اللَّه. قال ابن عباس : يُريد بالصَّلاة الصَّلَوَات الخَمْس ، وبالإنفاق الزكاة. قَوله تعالى: ﴿ ويَدْرَؤُونَ ﴾ ، أي: يَدفعون ﴿ بالحَسَنَةِ السَّيئةَ ﴾ . وفي المُراد بهما خمسة أقوال: أحدها يَدفعون بالعمل الصالح الشَّرَّ مِن العمل ، قاله ابن عباس . والثاني يَدفعون بالمعروف المُنْكَرَ ، قاله سعيد بن جُبَير . والثالث بالعَفْو الظُّلْمَ ، قاله جُوَيبر. والرابع بالحِلْم السَّفَهَ ، كأنَّهم إذا سُفِهَ عليهم حَلُموا ، قاله ابن قُتَيبة . والخامس بالتَّوبة الذَّنْبَ ، قاله ابن كَيسان . قَوله تعالى : ﴿ أُولئكَ لَهُم عُقْبَى الدَّار ﴾ ، قال ابن عباس : يُريد عُقْباهم الجَنَّة،أي تَصير الجَنَّةُ آخِرَ أمرهم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ ادْفَعْ بالتي هِيَ أحسنُ السَّيئةَ نَحْنُ أعْلَمُ بِما يَصِفُون﴾ [المؤمنون: ٩٦][٤٣].

---

٤٢ رواه الحاكم في المستدرك (١/ ١٢١) برقم (١٧٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٤٣ قال ابن الجوزي في زاد المسير(٥/ ٤٨٩): ((فيه أربعة أقوال: أحدها ادْفَعْ إساءةَ الْمُسِيء بالصَّفْح ، قاله الحسن . والثاني : ادْفَع الفُحْشَ بالسلام ، قاله عطاء والضَّحاك . والثالث ادْفَع الشِّرْكَ بالتَّوحيد ، قاله ابن السائب. والرابع ادْفَع الْمُنكَرَ بالموعظة ، حكاه الماوردي)) .

هذا تَوجيهٌ إلهيٌّ جليلٌ للنبيِّ ﷺ أن يتحلَّى بمكارم الأخلاق ، وأن يُقَابِل السَّيئةَ بالإحسان والكلام الطَّيب . اصْفَحْ عن المشركين الجُهَّال يا مُحمَّد ، واصبر على أذاهم وتكذيبهم لَك ، وعَامِلْهم بالأخلاق الحَسَنَة ، والقِيَم النبيلة .

وقد ذَهَبَ بعضُ المُفسِّرين إلى أنَّ الآية مَنسوخة ، ولا معنى لكلامهم . فالمُعامَلةُ الحسنةُ مطلوبة مَعَ الكفار ما لَم تكن على حِساب الدِّين . وقال ابن الجوزي في مُصفَّى الناسخ والمنسوخ (١/ ٤٥) : ((ادَّعى بعضُهم نَسْخَها بآية السَّيف ، ولا حاجة إلى هذه الدَّعوى ، لأنَّ المُدَارَاة محمودة ، ما لَم تَضُر بالدِّين ، أو تُؤَدِّ إلى إثبات باطل ، أو إبطال حَق)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٤١) : ((أرشده اللَّهُ إلى التِّرياق النافع في مُخالَطة الناس ، وهو الإحسان إلى مَن يُسيء إلَيه، لِيَستجلب خاطرَه، فتعود عداوته صداقة ، وبُغضه مَحَبَّة)) .

نَحْنُ أعلم بحالهم وكُفرهم وضلالهم، وتكذيبهم بالوَحْي والنُّبُوَّة ، وسَوْفَ نُجازيهم على ذلك، ونُعاقبهم أشدَّ العقاب . وهذا وعيدٌ شديدٌ لهم .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٦٦) : ((﴿ ادْفَعْ بالتي هِيَ أحْسَنُ السَّيئةَ ﴾ ، وهو الصَّفْح عنها ، والإحسان في مُقابلتها ، لكن بحيث لَم يُؤَدِّ إلى وَهْن في الدِّين . وقِيل : هي كلمة التَّوحيد ، والسَّيئة الشِّرْك . وقِيل : هو الأمر بالمعروف ، والسَّيئة المُنكَر . وهو أبلغ مِن (ادفع بالحسنة السَّيئة) لِمَا فيه مِن التنصيص على التَّفضيل . ﴿ نَحْنُ أعْلَمُ بِمَا يَصِفُون ﴾ بِما يَصفونك به ، أو بِوَصفهم إيَّاك على خِلاف حالك ، وأقْدَر على جَزائهم ، فَوَكِّلْ إلَينا أمرَهم)) .

والتعاملُ الحَسَن مع الناس ، وبَثُّ المعاني الطَّيبة الهادئة في النُّفوس بأسلوب ناعم وسَلِس ، مِن شأنه أن يُلين قلوبَ الناس ، ويَعمل على استقطابهم إلى الإيمان باللَّه تعالى ، لأنَّ النُّفوس مَجبولة على حُب مَن أَحسنَ إلَيها ، وقدَّم لها المساعدة بطريقة جميلة . والإحسانُ إلى الناس يَجعل المرءَ يُسيطر على قلوبهم ، فتنقاد جوارحُهم إليه ، وتَخضع له ، وتَسمع كلامَه ، وكأنها تحت تأثير السِّحْر ، فالكلمةُ الطَّيبة لها وَقْعٌ عَميق في النُّفوس ، وتأثير هائل في القلوب .

وكما قالَ الشاعر :

أَحْسِنْ إلى الناسِ تَسْتَعبِدْ قلوبَهُمُ ... فطالما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ

وكما قال شاعر آخَر :

إنْ شِئتَ أن تَجِدَ العَدُوَّ وقد غَدا ... لَكَ صَاحِبًا يُولِي الجميلَ ويُحْسِنُ

فاعْمَلْ كَما قال الخبيرُ بِخَلْقِهِ ... في قَوْله : ﴿ ادْفَعْ بالتي هِيَ أحْسَنُ ﴾

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وعِبَادُ الرَّحمنِ الذينَ يَمْشُونَ عَلى الأرضِ هَوْنًا وإذا خَاطَبَهُمُ الجاهلونَ قالوا سَلامًا ﴾ [الفُرقان : ٦٣] .

هذه الآية تتضمَّن مَظْهَرَيْن لِحُسن سُلوك المؤمنين الذين هُم عِباد الرَّحمن وصَفْوته مِن خَلْقه . المَظهر الأوَّل هو المَشْي على الأرض بوَقار وسَكِينة بدون تكبُّر أو خُيَلاء. وهذه طبيعتهم بلا رِياء أو تصنُّع. والمَظهر الثاني هو مُقابلة الإساءة بالإحسان والعَفْو عَن الجُهَّال ، ومُقابلة كلامهم القبيح بالكلام الطَّيب. والجديرُ بالذِّكر أن الإضافة في ﴿ وَعِبَادُ الرَّحمنِ ﴾ للتخصيص والتفضيل والتعظيم والتشريف والتفخيم .أي إنهم أولياءُ اللَّه وصَفوته مِن خَلْقه ، وإلا فالناسُ كُلُّهم عباد الرَّحمن .

إنَّ عباد اللَّه المؤمنين الصالحين هُم نُخبة المجتمع ، وسادة الناس ، وأشرافهم ، يَمشون على الأرض بهُدوء وتواضع وطُمَأنينة بدون استكبار ولا غُرور ولا عَجْرفة ولا سَعْي بالفسادِ والمعاصي ، ويتحمَّلون تفاهةَ الجُهَّال وسَفاهتهم وكلامهم السَّيئ ، ويَصفَحون عنهم ، ولا يَرُدُّون الإساءةَ بالإساءة ، وإنما يَقولون لهم كلامًا جميلًا طَيِّبًا بِرِفْق ولِين . وبعبارة أخرى ، إذا خاطبهم الجاهلون السُّفهاءُ بما يَكْرَهونه ، قالوا لهم قَوْلًا لَيِّنًا يَسْلَمُون فيه مِن الإثم ، ويَنْجُون مِن أذاهم وشَرِّهم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٦/ ١٠١):((قَوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحمنِ الذينَ يَمْشُونَ ﴾. وقال ابن قُتَيبة : إنَّما نَسَبَهم إليه لاصطفائه إيَّاهم . ومَعنى : ﴿ هَوْنًا ﴾ مَشْيًا رُوَيْدًا ، ومِنه يُقال : أحْبِبْ حَبيبك هَوْنًا ما . وقال مُجاهد : يَمشون بالوَقار والسَّكِينة ، ﴿ وإذا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قالوا سَلامًا ﴾ ، أي: سَدَادًا. وقال الحسن: لا يَجْهَلُون على أحد، وإن جَهِلَ عليهم حَلِمُوا. وقال مُقاتل ابن حَيَّان قالوا : سَلامًا، أي قَوْلًا يَسْلَمُون فيه مِن الإثم. وهذه الآية مُحْكَمَة عِند الأكثرين، وزعم قَوم أن المُراد بها أنهم يقولون للكفار:ليس بيننا وبينكم غَير السلام، ثُم نُسِخَت بآية السَّيف)) .

والنبيُّ ﷺ كان قُرآنًا يَمشي بين الناس ، وكان يُطبِّق الآياتِ على نَفْسِه ، ويتمثَّلها في أدق تفاصيل حياته . وهو ﷺ سَيِّد المؤمنين الصالحين ، وكان القُدوة العُليا في التواضع والأدب والاحترام ، وكان المَثَلَ الأسمى في الوَقَار والسَّكِينة والحِلْم والصَّفْح والتسامح ، بدون ضَعف ، ولا ذُل ، ولا رياء ، ولا تصنُّع ، ولا ضَغط مِن أحد .

وفي الحديث أن النبيَّ ﷺ : ((إذا مشى تكفَّأ تكفُّؤًا ، كأنَّما انحَطَّ مِن صَبَب)) [٤٤].

---

٤٤ رواه الترمذي في سُننه (٥/ ٥٩٨) برقم (٣٦٣٧) وصحَّحه ، والحاكم في المستدرك (٢/ ٦٦٢) برقم (٤١٩٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

إنَّ النبيَّ ﷺ كان يَمشي بوَقار وسَكِينة بلا رياء ولا تكلُّف ، وكانت مِشْيَتُه هادئةً مُتوازنة واثقة، بلا إسراع ولا إبطاء .

وفي تُحفة الأحوذي (٥/ ٣٦١): (((إذا مَشى يتكفَّأ) أي يَتمايل إلى قُدَّام . وقِيل: أي يَرفع القَدَمَ مِن الأرض ثُم يضعها ولا يَمسح قَدَمه على الأرض كَمَشْي المُتَبَخْتِر ، (كأنَّما ينحطُّ مِن صَبَب) أي يَرفع رِجْلَه مِن قُوَّة وجَلادة ، والأشبه أن تكفَّأ بمعنى صَبَّ الشَّيء دَفعة)) .

لقد كان النبيُّ ﷺ يمشي باتِّزان وتواضع ووَقَار ، ويتعامل مع الناس بأدب واحترام ، ويُسامح الجاهلين ، ويَتجاوز عن السُّفهاء ، ويُقابل الإساءةَ بالإحسان .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٣٣) : ((هذه صفات عباد اللَّه المؤمنين ﴿ الذينَ يَمْشُونَ على الأرضِ هَوْنًا ﴾ ، أي : بسَكِينة ووَقار مِن غَير جَبرية ولا استكبار ... فأمَّا هؤلاء فإنَّهم يَمْشُون مِن غير استكبار ، ولا مَرَح ، ولا أشَر ، ولا بَطَر . وليس المُراد أنهم يمشون كالمرضى تَصَنُّعًا ورِيَاءً ، فقد كان سيِّد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنَّما ينحطُّ مِن صَبَب ، وكأنَّما الأرض تُطوَى له ، وقد كَرِهَ بعضُ السَّلَف المَشْيَ بتضعُّف وتصنُّع ، حتى رُوِيَ عن عُمَر أنه رأى شابًّا يَمشي رُوَيْدًا ، فقال : "ما بَالُكَ أأنتَ مريض ؟ " ، قال : لا ، يا أمير المؤمنين . فعَلاه بالدِّرَّة ، وأمَرَه أن يمشيَ بقوة ، وإنَّما المُراد بالهَوْن هُنا السَّكينة والوَقار ... . وقال عبد اللَّه بن المُبارَك عن مَعْمَر عن يحيى ابن المختار عن الحَسَن البَصْري في قَوله : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحمنِ ﴾ الآية ، قال : إن المؤمنين قَوم ذُلُل ، ذَلَّتْ مِنهم _ واللَّهِ _ الأسماعُ والأبصار والجوارح ، حتى تَحْسَبَهم مرضى ، وما بالقَوم مِن مَرَض ، وإنَّهم واللَّهِ أصِحَّاء ، ولكنهم دَخَلَهم مِن الخَوف ما لَم يَدخل غَيْرَهم ، ومنعهم من الدُّنيا عِلْمُهم بالآخرة، فقالوا: الحمدُ للَّه الذي أذهبَ عنَّا الحَزَنَ، أمَا واللَّهِ ما أحْزَنَهُم ما أحزنَ الناس، ولا تَعَاظَمَ في نفوسهم شيء طلبوا به الجَنَّة ، ولكن أبكاهم الخَوف من النار، إنَّه مَن لَم يَتعَزَّ بِعَزاء اللَّه تَقَطَّعَ نفْسُه على الدُّنيا حَسَرَات ، ومَن لَم يَرَ للَّه نِعمة إلا في مَطْعَم أو مَشْرَب ، فقد قَلَّ عِلْمُه ، وحَضَرَ عذابُه . ﴿ وإذا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قالوا سَلامًا ﴾ أي : إذا سَفِهَ عليهم الجُهَّال بالقَول السَّيئ لَم يُقابلوهم عليه بمِثْلِه ، بل يَعْفُون ويَصْفَحون ، ولا يقولون إلا خَيْرًا ، كما كان رسول اللَّه ﷺ لا تزيده شِدَّة الجاهل عليه إلا حِلْمًا)) .

وما أجملَ قَول الإمام الشافعيِّ :

يُخاطِبُني السَّفيهُ بكلِّ قُبْحٍ   فَأكْرَهُ أن أكونَ لَهُ مُجِيبا
يَزِيدُ سَفَاهَةً وأزِيدُ حِلْمًا   كَعُودٍ زادَهُ الإحراقُ طِيبا

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ولا تَسْتَوِي الحَسَنَةُ ولا السَّيئةُ ادْفَعْ بالتي هِيَ أحسنُ فإذا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كأنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيم ﴾ [فُصِّلَت : ٣٤] .

لا تَتساوى الحَسَنَةُ التي تُرْضي اللَّهَ ويتقبَّلها معَ السَّيئة التي يَكْرَهها اللَّهُ ويُعَاقِب عليها . فَرْقٌ عظيم بين الحَسَنَة والسَّيئة في الدُّنيا والآخرة . ولا يَتساوى الإيمان باللَّه وطاعته مَعَ الكُفر بِه ومعصيته ، في الجَزَاء وحُسن العاقبة . ادْفَع السَّيئةَ بالحَسَنَة ، كالغضب بالصَّبْر ، والجهل بالحِلْم، والإساءةَ بالعَفْو ، والتزم بأفضل الصِّفات وأعظم الأخلاق .

وفي تفسير ابن كثير (٤/ ١٢٨) : ((﴿ ادْفَعْ بالتي هِيَ أحسنُ ﴾ ، أي : مَن أساءَ إلَيك فادفعه عنك بالإحسان إليه ، كما قال عُمر _ رضي اللَّهُ عنه _ : ما عاقبتَ مَن عَصى اللَّهَ فيك ، بِمِثْلِ أن تُطيع اللَّهَ فيه)) .

فإذا فَعَلْتَ ذلك ، صارَ عَدُوُّكَ كالصَّديق القريب في إخلاصه ومَحَبَّته لك ، والشَّفَقَة عليك ، والإحسان إلَيك .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٧٣٤) : ((بيَّن سُبحانَه الفَرق بين مَحاسن الأعمال ومَساويها ، فقال : ﴿ ولا تَسْتَوِي الحَسَنَةُ ولا السَّيئةُ ﴾ ، أي : لا تَستوي الحَسَنَةُ التي يَرضى اللَّهُ بها ويُثيب عليها ، ولا السَّيئة التي يَكرهها اللَّهُ ويُعاقِب عليها . ولا وجه لتخصيص الحسنة بنَوع من أنواع الطاعات ، وتخصيص السَّيئة بنوع من أنواع المعاصي ، فإن اللفظ أوسع مِن ذلك. وقِيل: الحسنة التوحيد، والسَّيئة الشِّرْك ، وقِيل : الحسنة المُداراة ، والسَّيئة الغِلظة، وقِيل: الحسنة العَفْو والسَّيئة الانتصار،وقِيل:الحسنة العِلْم،والسَّيئة الفُحْش، قال الفَرَّاء: " لا " في قَوله: ﴿ ولا السَّيئةُ ﴾ زائدة ، ﴿ ادْفَعْ بالتي هِيَ أحسنُ ﴾ ، أي : ادْفَع السَّيئةَ إذا جاءتك مِن المُسيء بأحسن ما يُمكن دَفْعُها بِه مِن الحَسَنَات ، ومِنه مُقابلة الإساءة بالإحسان ، والذَّنْب بالعَفْو ، والغضب بالصَّبْر ، والإغضاء عن الهَفَوَات ، والاحتمال للمَكروهات ، وقال مُجاهد وعطاء : ﴿ بالتي هِيَ أحسنُ ﴾ يعني بالسَّلام إذا لَقِيَ مَن يُعَاديه ، وقِيل : بالمُصَافَحَة عِند التلاقي ، ﴿ فإذا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كأنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيم ﴾ ، هذه هي الفائدة الحاصلة مِن الدَّفْع بالتي هي أحْسَن ، والمعنى : أنَّكَ إذا فعلتَ ذلك الدَّفْعَ ، صار العدوُّ كالصديق ، والبعيد عَنك كالقريب مِنك ، وقال مُقاتل : نزلت في أبي سُفيان بن حرب كان مُعاديًا للنبيِّ ﷺ ، فصار له وَلِيًّا بالمُصَاهَرَة التي وقعت بَينه وبَينه ، ثُمَّ أسلمَ ، فصار وَلِيًّا في الإسلام ، حميمًا بالمُصَاهَرَة . وقِيل غَير ذلك ، والأَوْلَى حَمْل الآية على العُموم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وما يُلَقَّاها إلا الذينَ صَبَرُوا وما يُلَقَّاها إلا ذُو حَظٍّ عَظِيم﴾ [فُصِّلَت: ٣٥].

وما يُلَقَّى هذه الفِعلة الكريمة ، وهذه الحالة العظيمة ، وهي مُقَابَلَة الإساءة بالإحسان ، إلا الذينَ جَاهَدُوا أنفُسَهم بِكَظْم الغيظ ، واحتمال الأذى ، وما يصل إلى هذه المنزلة الرفيعة إلا ذُو نصيب وافر مِن السعادة في الدُّنيا والآخرة . والآيةُ مَدْحٌ لِمَن يَدفع السَّيئةَ بالحسنة .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ١٧٥) : ((﴿ وما يُلَقَّاها ﴾ ، ما يُلَقَّى هذه الخَصْلَة ، وهي دَفْع السَّيئة بالحَسَنة ﴿ إلا الذينَ صَبَرُوا ﴾ عَلى كَظْم الغَيْظ ، واحتمال المَكروه ، ﴿ وما يُلَقَّاها إلا ذُو حَظٍّ عَظِيم ﴾ في الخَير والثَّوَاب . وقال قَتادة : " الحَظ العظيم " : الجَنَّة ، أي : ما يُلَقَّاها إلا مَن وَجَبَتْ له الجَنَّة)) .

*

خامسًا : ضَرْبُ المَثَل

قالَ اللّهُ تعالى:﴿ إنَّ اللّهَ لا يَسْتَحْيِي أن يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة : ٢٦].

إنَّ اللّه لا يَخشَى ولا يَترك تَوضيحَ الشَّبَهِ وضَرْبَ المَثَلِ بِبَعُوضة ، تَرْكَ مَن يَسْتحيي مِن ذِكرها لحقارتها وقِلَّة شأنها،فما دُونها في الصِّغَر،إذا عُلِمَ أنَّ فيها عِبرة للمُعتبِرين، وحُجَّة على الجاحدين.

إنَّ اللّه عِندما ذَكَرَ الذُّبابَ والعنكبوتَ في القُرآن الكريم ، وضَرَبَ للمُشركين به المَثَل ، ووضَّح لهم الشَّبَهَ ، ضَحِكَت اليهودُ ، وقالوا : ما يُشبِه هذا كلام اللّه ، وما أرادَ بذِكر هذه الأشياء الحقيرة الخسيسة ؟ . وهذا سبب نُزول الآية .

ولَيْسَت البَعُوضةُ مَقصودةً لذاتها في الآية ، لكنَّ القُرآن يُعلِّم الناسَ أن يأخذوا العِبَرَ مِن كُل شيء ، سواءٌ كان صغيرًا أمْ كبيرًا ، ولا يتوقفوا عِند ظواهر الأشياء . بل يُعْمِلوا عُقولَهم في فهم الآيات القرآنية المُشتملة على الأشباه المُفيدة والأمثال النافعة ، كي يَستفيدوا منها في حياتهم الفكرية والعملية ، ويتَّعظوا ، ويَعتبروا . واللّهُ لا يَسْتحيي مِن الحَق أن يَذكُر شيئًا كثيرًا أو قليلًا، عظيمًا أو وضيعًا .

قال البيضاوي في تفسيره(١/ ٢٥٤):((فإن التمثيل إنما يُصار إليه لكشف المعنى المُمَثَّل له، ورفع الحجاب عنه، وإبرازه في صورة المُشاهَد المحسوس ، ليساعد فيه الوهمُ العقلَ ويُصالحه عليه، فإن المعنى الصِّرْف إنما يُدركه العقل معَ مُنازَعة من الوهم ، لأن مِن طَبْعه المَيل إلى الحِس وحُب المُحَاكَاة، ولذلك شاعت الأمثال في الكُتب الإلهية ، وفَشَتْ في عِبارات البُلَغاء وإشارات الحُكماء، فَيُمَثَّل الحقير بالحقير، كما يُمَثَّل العظيم بالعظيم، وإن كان المَثَلُ أعظمَ من كل عظيم، كما مُثِّلَ في الإنجيل غِل الصدور بالنُّخالة ، والقلوب القاسية بالحَصاة ، ومُخاطبة السُّفهاء بإثارة الزنابير . وجاء في كلام العرب : أسمعُ مِن قُرَاد ، وأطْيَشُ مِن فراشة ، وأعزُّ مِن مُخ البَعوض ، لا ما قالت الجَهَلة مِن الكُفَّار_لَمَّا مَثَّلَ اللّهُ حالَ المنافقين بحال المُسْتَوْقِدِين وأصحاب الصَّيِّب ، وعبادة الأصنام في الوَهْن والضَّعْف ببيت العنكبوت ، وجَعْلها أقل مِن الذُّباب وأخس قَدْرًا منه _: اللّهُ سبحانه وتعالى أعلى وأجلُّ مِن أن يَضْرِبَ الأمثالَ ويَذكر الذبابَ والعنكبوت)) .

وقال الزمخشري في الكَشَّاف (١/ ٨٣) : ((التَّمثيل إنَّما يُصار إلَيه لِمَا فيه مِن كَشْف المعنى ، ورفع الحِجاب عن الغرض المطلوب، فليس العِظَم والحَقَارة في المَضروب به المَثَل إلا أمرًا تستدعيه حال المُتمثَّل له، ألا ترى إلى الحَق لمَّا كان أبلجَ واضحًا جَلِيًّا، كيف تَمَثَّل له بالضِّياء

والنُّور؟ وإلى الباطل لمَّا كان بضِد صِفته كيف تَمَثَّلَ له بالظُّلْمة؟ ولمَّا كان حال الآلهة التي جعلها الكُفارُ أندادًا للَّه تعالى لَيس أحقر منها وأقل، لذلك ضَرَبَ لها المَثَلَ ببَيت العَنكبوت في الضَّعْف والوَهْن : ﴿ كَمَثَلِ العَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ ، وجُعلت أقل مِن الذُّباب وأخسَّ قَدْرًا : ﴿ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وإن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ . والعَجَبُ مِنهم كيف أنكروا ذلك ، وما زال الناس يَضربون الأمثالَ بالبهائم والطيور، والحَشَرَات والهَوَام، وهذه أمثال العرب بين أيديهم سائرة في حواضرهم وبواديهم)) .

واللوثةُ العقليةُ التي سيطرت على المشركين تتجلى في نظرتهم إلى عناصر المَثَل ، وعدم نظرتهم إلى حِكمة المَثَل والمعنى الماورائي . فَتَوَقَّفوا عِندَ الذباب والعنكبوت والبَعوض ، واعتبروا هذه الأشياء حقيرةً تافهةً ، ولأنها كذلك لا يَصِحُّ أن يَذكرها اللَّهُ تعالى . وهذا يعني أنَّ مُحَمَّدًا افتراها مِن تِلقاء نَفْسه، وجعلها كلامًا للَّه.والمشركون ضائعون في مَتاهة الشُّكوك وظواهر الأشياء . فاللَّهُ تعالى ضَرَبَ الأمثال بهذه المخلوقات الصغيرة لأخذ العِبْرة والمَوعظة ، والوُقوف على الحِكمة الإلهية الجليلة ، والمعنى المقصود ، ومَغْزَى هذه التَّمثيلات والتَّشبيهات . ولَيْسَ القُرآنُ بَحْثًا عِلْمِيًّا عن الحَشَرَات والحَيَوَانات . لكنَّ المشركين ـ بسبب انحرافهم العَقَدي وقلوبهم المُظلمة ـ يُحاولون جاهدين الاصطياد في ماء أفكارهم العَكِر ، وهذا جعل نظرتهم للأمور سطحية وساذجة . وهذا ليس غريبًا ، لأنَّ اللَّه أعمى بصائرَهم ، فلا يَقفون على حقائق الأشياء ، ولا يَغوصون في المعاني العميقة،وهُم لا يَملِكون الدليلَ والبُرهان ، لذلك يَسخَرون ويَستهزئون .

وقد رَدَّ اللَّهُ على الكافرين، وأزالَ باطلَهم ، وأفحمَهم ، وألزمَهم الحُجَّةَ . وأعْلَمَهم أنَّهُ سُبحانَه لا يَسْتَحْيي ولا يَخشَى أن يَذكر البَعُوضةَ في الأمثال ، وما فَوْقَها في الصِّغَر (يعني ما دُونَها) . فالعِبْرةُ بالمعاني التي وراء الظواهر ، والحِكَم العميقة التي يَنبغي البحث عنها . وأصلُ الاستحياء الانقباض عن الشيء خَوْفًا مِنَ التَّلوُّث بالأشياء السَّيئة . وهذا مُحَالٌ على اللَّه تعالى [٤٥].

---

٤٥ قال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٥٤) : ((... فقال تعالى: ﴿ إنَّ اللَّه لا يَستحيي ﴾ أي: لا يترك ضَرْبَ الْمَثَل بالبَعُوضة تَرْكَ مَن يَستحي أن يُمَثِّل بها لحقارتها . والحياء : انقباض النَّفْس عن القبيح مخافة الذم ، وهو الوسط بين الوقاحة : التي هي الجراءة على القبائح وعدم الْمُبالاة بها ، والخجل : الذي هو انحصار النَّفْس عن الفِعل مُطْلَقًا . واشتقاقه من الحياة ، فإنه انكسار يَعتري القوةَ الحيوانية فَيَرُدُّها عن أفعالها)) .

وفي فتح القدير للشَّوكاني (١/ ٨٩) : ((قال الرازي : إنَّه تعالى لَمَّا بَيَّنَ الدليلَ كَوْن القرآن مُعْجِزًا أوردَ هاهُنا شُبهة أوردها الكفار قَدْحًا في ذلك ، وأجاب عنها ، وتقرير الشُّبهة أنه جاء في القرآن ذِكْر النَّحْل والعنكبوت والنَّمْل ، وهذه الأشياء لا يَليق ذِكْرُها بكلام الفُصَحاء ، فاشتمال القرآن عليها يَقْدَح في فَصاحته فَضْلًا عَن كَوْنه مُعْجِزًا ، وأجاب اللَّهُ عنها بأن صِغَرَ هذه الأشياء لا تَقْدَح في الفصاحة ، إذا كان ذِكْرُها مُشتمِلًا على حِكمة بالغة)) .

وفي الدُّر المنثور للسُّيوطي (١/ ١٠٣) : [وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حُمَيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قَتادة قال : ((لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ العنكبوتَ والذباب ، قال المشركون : ما بالُ العنكبوت والذباب يُذكَران ؟ ، فأنزل اللَّهُ : ﴿ إنَّ اللَّه لا يَستحيي أن يَضرب مثلًا ما بعوضةً فما فَوْقها ﴾))] .

إنَّ الكفار المُعانِدين يتوقفون عند ظواهر الأشياء الواردة في القُرآن مِثل العنكبوت، والذباب ، والنمل، ولا ينظرون إلى ما وراء هذه الأشياء مِن العِبَر الباهرة، ولا يُدرِكون أبعادَ الآياتِ القُرآنية. وبما أن الجاهل عدو نَفْسه ، فإنَّه يُعرِض عن القرآن بسبب جَهْله فيطعن فيه . فهناك عُميان يعتقدون أن المشكلة في نُور الشمس لا في عُيونهم .

وكما قال البوصيري :

قد تُنْكِرُ العَينُ ضَوءَ الشمسِ مِن رَمَدٍ ويُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ الماءِ مِن سَقَمِ

وكما قال المتنبي :

لا تَحْقِرَنَّ صَغيرًا في مُخَاصَمَةٍ إنَّ البَعوضةَ تُدمِي مُقْلةَ الأسَدِ

وفي تهذيب الكمال للمِزِّي (٥/ ٩٢) أن أحمد بن عمرو بن المِقدام الرازي قال : ((وَقَعَ الذُّبَابُ على المنصور فَذَبَّه عنه ، فعادَ ، فَذَبَّه حتى أضجرَه ، فدخل جعفر بن مُحمَّد ، فقال له المنصور : يا أبا عبد اللَّه ، لِمَ خَلَقَ اللَّهُ الذُّبَابَ ؟ ، قال : لِيُذِلَّ به الجبابرةَ)) [٤٦] .

---

٤٦ هذا الرد الصاعق من الإمام جعفر الصادق يَكشف كذبَ الشيعة الروافض الذين رَوَوْا عنه أنَّه قال: ((التَّقِيَّةُ دِيني ودِين آبائي)) . لقد كانَ الإمام جعفر الصادق صريحًا وصادقًا ، وأجابَ الخليفةَ بجوابٍ صاعق لا يَحتمل التأويل . وهذا يَنسف أكذوبةَ التَّقِيَّة (النِّفاق) التي نَسَبَها الشيعة الروافض إلى أئمة آل البَيت المعروفين بالصِّدق والشجاعة والجرأة في قَول الحق .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ولا يَأتُونَكَ بِمَثَلٍ إلا جِئناكَ بالحقِّ وأحسنَ تفسيرًا ﴾ [الفُرْقان : ٣٣] .

إنَّ المشركين يُحاوِلون جاهدين الاصطيادَ في ماء أفكارهم العَكِر ، فَهُم يَطعنون في القُرآنِ والنُّبُوَّة بالباطل، ويَبحثون_ بكل ما أُوتوا مِن قُوَّة_عن عَيب في القرآن أو نقيصة في النبيِّ ﷺ ، وكُلما بَحثوا عادوا بالخِزْي والعار والفشل.فالقُرآنُ كاملٌ لا عَيب فِيه،والنبيُّ ﷺ مَعصوم لا نقيصة فيه. والمشركون كُلما جاؤوا بِمَثَلٍ يَضربونه لإبطال نُبُوَّة محمد ﷺ، أبطلَ اللَّهُ مَثَلَهم بالحق، ورَدَّهم على أعقابهم خائبين . فالقُرآنُ هو الكلامُ الأسْمَى والأجلُّ يَدحض أمثالَ المشركين ، ويَكشف باطلَهم ، ويجيء بالأمثال الباهرة والبراهين الساطعة والحُجَج الدامغة . والقُرآنُ يجيء بأحسن مِن مَثَل المشركين بيانًا وتفسيرًا. ولا قُدرة لمخلوق معَ قُدرة الخالق . وكلامُ المخلوقين لا يَصْمُد أمامَ كلامِ الخالق تعالى [٤٧].

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ١٠٧) : ((فالمُراد بالمَثَل هُنا : السؤال والاقتراح، وبالحق : جوابه الذي يَقطع ذريعته ، ويُبطِل شُبهته ، ويَحْسِم مَادَّتَه)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٨٨) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ ولا يَأتُونَكَ ﴾ يعني المشركين ﴿ بِمَثَلٍ ﴾ يَضربونه لك في مُخاصمتك وإبطالِ أمرك ، ﴿ إلا جِئناكَ بالحقِّ ﴾ أي بالذي هو الحق لِتَرُدَّ به كَيْدَهم ﴿ وأحسنَ تفسيرًا ﴾ مِن مَثَلِهم . والتفسيرُ البيان والكشف)) .

إنَّ كُلَّ شُبهة يَطرحها المشركون ، يأتي الرَّدُّ الإلهيُّ عليها في القُرآن ، وكُل سُؤال يَطرحه المشركون يأتي الجوابُ الإلهيُّ عنه في القُرآن . وبالتالي يَرجع المشركون بالخِزْي والخُسران بعدما أفحَمَهُم القُرآنُ ، وأقامَ عليهم الحُجَّةَ . وهذا دليلٌ على صِدْق النبيِّ ﷺ وصِحَّة نُبُوَّته ، إذْ إنَّه

---

٤٧ قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٢٤): ((قال سعيد بن جُبَير عن ابن عباس : ﴿ ولا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ أي بما يلتمسون به عَيب القرآن والرسول ﴿ إلا جِئناكَ بالحقِّ ﴾ الآية. أي إلا نزل جِبريل مِن اللَّه تعالى بجوابهم ، وما هذا إلا اعتناء وكبير شرف للرسول ﷺ حيث كان يأتيه الوَحْيُ مِن اللَّه عَزَّ وَجَلَّ بالقرآن صباحًا ومساءً ، وليلًا ونهارًا ، سَفَرًا وحَضَرًا . وكُلُّ مَرَّة كان يأتيه الْمَلَكُ بالقُرآن لا كإنزال كتاب مِمَّا قَبْلَه من الكتب الْمُتقدِّمة ، فهذا الْمَقَام أعلى وأجلُّ وأعظم مكانةً مِن سائر إخوانه من الأنبياء صَلَوَات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين، فالقُرآنُ أشرف كتاب أنزله اللَّهُ ، ومحمَّد ﷺ أعظم نبيٍّ أرسله اللَّهُ تعالى. وقد جَمَعَ اللَّهُ للقُرآن الصِّفَتَيْن مَعًا ، ففي الملأ الأعلى أُنزِلَ جُملةً واحدةً من اللوح المحفوظ ، إلى بيت العِزَّة في السماء الدُّنيا ، ثم أُنزِلَ بعد ذلك إلى الأرض مُنَجَّمًا (مُفَرَّقًا) بحسَب الوقائع والحوادث)) .

مُؤيَّد بالوَحْي السَّماويّ ، فَكُلُّ سُؤال يَطرحه المشركون _ سواءٌ كان مُتَعَلِّقًا بالماضي أو الحاضر أو المستقبل_ يأتيهم الجواب عليه ، وهذا الأمر لا يَكون إلا مِن نبيٍّ مُرْسَل . وهنا تَظهر الحِكمةُ الإلهية في إنزال القُرآن مُفَرَّقًا حَسَبَ الأحداث والوقائع ، فَلَوْ أُنزِلَ القُرآن مَرَّةً واحدةً ، لَم يَكن لدى النبيِّ ﷺ جواب عَن أسئلة المشركين . وأيضًا ، لَثَقُلَ على المؤمنين تطبيق أحكامه بسبب كثرتها وقُوَّتها . لقد كانَ إنزالُ القُرآن مُفَرَّقًا تثبيتًا لقلب النبيِّ ﷺ وقلوبِ المؤمنين .

وقال القُرطبي في تفسيره (١٣/ ٣٠) : ((وعَلِمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أنَّ الصلاح في إنزاله مُتَفَرِّقًا لأنَّهم يُنَبَّهُون به مَرَّةً بعد مَرَّة ، وَلَوْ نَزَلَ جُملةً واحدة لَزَالَ معنى التنبيه ، وفيه ناسخ ومنسوخ ، فكانوا يَتعبَّدون بالشيء إلى وقت بِعَيْنِه قد عَلِمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فيه الصلاحَ ، ثُمَّ يَنْزِل النَّسْخُ بعد ذلك ، فَمُحَال أن يَنْزِل جُملةً واحدةً)) .

وعن ابن عباس _ رضي اللَّهُ عنهما_ قال: ((نَزَلَ القُرآنُ جُملةً إلى السَّماء الدُّنيا ثُمَّ نَزَلَ بَعْدَ ذلك في عِشرين سَنَة.وقال عَزَّ وَجَلَّ:﴿ولا يَأتُونَكَ بِمَثَلٍ إلا جِئناكَ بالحقِّ وأحسنَ تفسيرًا ﴾)) [48].

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنا للناسِ في هذا القُرآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لعلهم يتذكرون ﴾[الزُّمَر: ٢٧].

اللَّهُ يَضْرِبُ الأمثالَ النافعة، ويُبيِّن الصِّرَاطَ المُستقيم للناس من أجل أن يتفكروا ويتذكروا . وهذه الأمثلة تُقوِّي إيمانَ المَرء، وتزيد من التزامه بالمنهج الإلهيِّ ، وتجعل مِنه خَلِيَّةَ نَحْل دَؤُوب لإصلاح نَفْسه ومُحيطه ، وإعمار مُجتمعه ، وبَثِّ الخَير في المَعمورة .

والقرآنُ وضَّح طريقَ الحق للخلائق ، وضَرَبَ لهم الأمثالَ ليكونوا على بَيِّنة من أمرهم . واللَّهُ لا يريد من عباده أن يكونوا عُميانًا يَسيرون على غَير هُدى ، ولا يُريد منهم أن يُردِّدوا آياتِ القرآن كالببغاء دون فهم . لذلك أنار لهم السبيلَ ، وقرَّب القضايا المصيرية إلى عقولهم ، وأعطاهم أمثالاً عظيمة قريبة من أذهانهم ليتفكروا فيها فتكون خَيْرَ مُعين في حياتهم ، كي يحصلوا على الراحة الدُّنيوية ، والسعادةِ الأبدية بعد الموت .

وفي فَيض القدير (٤/ ٣٤٥) : ((﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنا للناسِ في هذا القُرآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ ، قال المرزوقي : المَثَلُ جُملة مِن القَول مُقْتَضَبَة مِن أصلها ، أوْ مُرْسَلَة بذاتها ، تَتَّسِم بالقَبول ، وتشتهر بالتداول ، فتنتقل عمَّا وَردت فيه إلى كُلِّ ما يَصِحُّ قَصْدُه بها مِن غَير تغيير يَلحقها في لفظها)) .

---

٤٨ رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٩٩) برقم (٣٣٩٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

لقد وضَّح اللَّهُ للناسِ الأمثالَ من أجل تقريب المعاني إلى عُقولهم ، وتقريب الأفكار إلى أحاسيسهم . ولعلهم يتَّعظون . وكُلُّ مَثَلٍ له هدف ، وهو إرشاد الناس إلى طريق التَّوحيد ، وإبراز دَور الأنبياء في قيادة الحضارة الإنسانية .

واللَّهُ لَم يَترك الناسَ تائهين حَسَبَ أهوائهم ، بَلْ بَيَّنَ لهم كُلَّ ما يَحتاجون إليه في أمر دِينهم ودُنياهم للاتِّعاظ به . والجديرُ بالذِّكر أنَّ اللَّه ضَرَبَ للناسِ في القُرآن كُلَّ الأمثالِ إلا الشِّعْر ، لأنَّ اللَّه نَزَّهَ الشَّريعة عَن الشِّعْر ، ونَفَاه عن مُحَمَّد ﷺ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٢٢١) : ((وقِيل : أي مَا ذَكَرْناه مِن إهلاك الأمم السالفة مَثَل لهؤلاء ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ يَتَّعظون)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٧/ ١٧٩) : ((﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنا للناسِ في هذا القُرآنِ ﴾ أي: وَصَفْنا لهم مِن كُلِّ مَثَل ، أي : مِن كُلِّ شَبَه يُشْبِه أحوالَهم)) .

واللَّهُ لا يَستحي مِن ضَرْبِ الأمثال النافعة للخلائق، وإنْ بَدَتْ_ للوَهْلَة الأُولَى _ أنها بسيطة . وقد أنكرَ الكافرون أن يَضرب اللَّهُ الأمثالَ ، مُعتبِرين أنَّ الأمثال أدنى مِن كلامِ اللَّه .

*

سادسًا : الامتناع عن إثارة الخصم

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ولا تَسُبُّوا الذينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْم ﴾ [الأنعام:١٠٨] .

لا تَشْتُموا آلهةَ المُشركين وأصنامَهم وأوثانَهم ، فَيَشْتُموا اللَّهَ جَهْلًا وظُلْمًا وحَمِيَّةً للباطل ، واعتداءً على مَقَام اللَّه العظيم .

وفيه دليل على أنَّ الطاعة إذا أدَّتْ إلى مَعصية راجحة وَجَبَ تركُها،فإنَّ ما يُؤَدِّي إلى الشَّر شَر.

وسبب نُزول الآية أنَّ المسلمين كانوا يَسُبُّون أصنامَ الكُفَّار ، فَيَسُبُّ الكُفَّارُ اللَّهَ تعالى ، فنهى اللَّهُ المسلمين عن ذلك. ويجب على المَرء أن ينظر وراء الأُمُور ، ويُوازن بَين المصالح والمفاسد، ولا يَغرق في اللحظة الآنِيَّة بحماس وتَسَرُّع دون مَعرفة عواقب الأُمُور . وقَبْل فَتْح الباب ينبغي التفكير فِيما سَيَأتي مِنه . ويجب تركُ المصلحة إذا كان سَيَنْتُج عنها مفسدة أكبر .

وهذه الآيةُ مِنهاج متكامل في مَنْع إثارة الخَصْم واستفزازه ، وحَشْره في الزاوية ، حَتَّى لَوْ كان في ذلك مصلحة إلا أنه يَنْتُج عنه مفسدة أكبر وأشد خُطورة . وهُنا تتجلَّى حِكمة سَد الذرائع المُوصلة إلى المفاسد الكبيرة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٢٠) : ((يَقول اللَّهُ تعالى ناهيًا لرسوله ﷺ والمؤمنين عن سَبِّ آلهة المشركين ، وإنْ كان فيه مَصلحة ، إلا أنَّه يترتَّب عليه مفسدة أعظم مِنها ، وهي مُقَابَلَة المُشركين بِسَبِّ إله المؤمنين ، وهو اللَّه لا إله إلا هو ، كما قال عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية : قالوا : يا مُحَمَّد لَتَنْتَهِيَنَّ عَن سَبِّكَ آلهتنا أوْ لَنَهْجُوَنَّ رَبَّكَ ، فنهاهم اللَّهُ أن يَسُبُّوا أوثانَهم ، ﴿ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْم ﴾ . وقال عبد الرَّزاق عن مَعْمَر عَن قَتادة : كان المسلمون يَسُبُّون أصنامَ الكُفَّار ، فَيَسُب الكُفَّارُ اللَّهَ عَدْوًا بِغَير عِلْم ، فأنزلَ اللَّهُ : ﴿ ولا تَسُبُّوا الذينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ . وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن السُّدي أنَّه قال في تفسيره هذه الآية : لَمَّا حَضَرَ أبا طالب المَوْتُ ، قالت قُرَيش : انطلقوا فلندخل على هذا الرَّجل فلنأمره أن يَنهى عَنَّا ابنَ أخيه ، فإنا نَسْتَحي أن نقتله بعد مَوته فتقول العرب : كان يَمنعه فلمَّا مات قَتَلُوه ، فانطلقَ أبو سُفيان وأبو جَهْل والنَّضْر بن الحارث وأُمَيَّة وأُبَي ابنا خَلَف وعُقْبَة بن أبي مُعَيط وعمرو بن العاص والأسود بن البَخْتَري ، وبَعثوا رَجُلًا مِنهم يُقَال له المُطَّلِب ، قالوا : اسْتَأذِنْ لنا على أبي طالب ، فأتى أبا طالب فقال : هؤلاء مَشْيَخة قَومك يُريدون الدخول عليك ، فَأذِنَ لهم عليه فدخلوا عليه ،

فقالوا : يا أبا طالب ، أنتَ كبيرُنا وسَيِّدُنا ، وإنَّ مُحَمَّدًا قد آذَانَا وآذى آلهتنا ، فَنُحِب أن تَدْعُوَه فتنهاه عن ذِكْر آلهتنا ، ولندعه وإلهَه ، فدعاه فجاء النبيُّ ﷺ ، فقال له أبو طالب : هؤلاء قَومك وبَنُو عَمِّك، قال رسول اللَّه ﷺ : " ما تُريدون ؟ " ، قالوا : نُريد أن تَدَعَنَا وآلهتنا ولندعك وإلهك، فقال النبيُّ ﷺ : " أرأيتُم إن أعطيتكم هذا هل أنتم مُعْطِيَّ كَلِمَةً إن تكلمتم بها مَلَكْتُم العربَ ، ودانت لكم بها العَجَم ، وأدَّتْ لكم الخَرَاجَ " ، قال أبو جَهْل : وأبيكَ لَنُعْطِيَنَّكَهَا وعَشَرَةَ أمثالها ، قالوا: فما هي ؟ ، قال : " قولوا : لا إله إلا اللَّه " ، فَأَبَوْا واشْمَأَزُّوا . قال أبو طالب : يا ابنَ أخي، قُلْ غَيْرَها ، فإنَّ قَومك قد فَزِعُوا مِنها ، قال : " يا عَم ما أنا بالذي يقول غَيْرَها حتى يأتوا بالشمس فيضعوها في يَدي ، وَلَوْ أَتَوْا بالشمس فوضعوها في يدي ما قُلْتُ غَيْرَها " ، إرادةَ أن يُؤَيِّسَهُم ، فغضبوا ، وقالوا : لَتَكُفَّنَّ عَن شَتْم آلهتنا ، أوْ لَنَشْتِمَنَّكَ ونَشْتِمَنَّ مَن يَأمرك، فذلك قَوله: ﴿ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْم ﴾)) .

وقال القرطبي في تفسيره (٧/ ٥٥) : ((قَوله تعالى : ﴿ ولا تَسُبُّوا الذينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ نَهْي ﴿ فَيَسُبُّوا اللَّهَ ﴾ جَوَاب النَّهْي ، فنهى سُبحانَه المُؤمنين أن يَسُبُّوا أوثانَهم ، لأنَّه عَلِمَ إذا سَبُّوها نَفَرَ الكفارُ وازدادوا كُفْرًا . قال ابن عباس : قالت كُفَّار قُرَيش لأبي طالب: إمَّا أن تَنهى مُحَمَّدًا وأصحابه عَن سَبِّ آلهتنا والغَضِّ مِنها ، وإمَّا أن نَسُبَّ إلَهَه ونَهْجُوَه ، فنزلت الآية . قال العُلماء : حُكْمها باقٍ في هذه الأُمَّة على كُل حال ، فمتى كان الكافر في مَنَعَة ، وخِيفَ أن يَسُبَّ الإسلامَ ، أو النبيَّ عليه السلام ، أو اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ، فلا يَحِل لمسلم أن يَسُبَّ صُلبانَهم ولا دِينَهم ولا كنائسَهم ، ولا يتعرَّض إلى ما يُؤَدِّي إلى ذلك ، لأنَّه بمنزلة البَعْث على المعصية . وعَبَّرَ عَن الأصنام وهي لا تَعْقِل بـ (الذين) على مُعْتَقَد الكَفَرَة فيها. في هذه الآية أيضًا ضَرْب مِن المُوَادَعَة ودليل على وُجوب الحُكْم بِسَد الذرائع ، وفيها دليل على أنَّ المُحِق قد يَكُف عَن حَق له إذا أدَّى إلى ضَرَر يكون في الدِّين . ومِن هذا المعنى ما رُوِيَ عن عُمر بن الخطاب رضي اللَّهُ عنه أنَّه قال : لا تَبُتُّوا الحُكْمَ بَين ذَوِي القَرَابات مَخَافَةَ القطيعة . قال ابن العربي : إنْ كان الحَق واجبًا فيأخذه بكل حال ، وإنْ كان جائزًا ففيه يكون هذا القَول . قَوله تعالى : ﴿ عَدْوًا ﴾ أي : جَهْلًا واعتداءً)).

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٢١٨) : ((قَوله : ﴿ ولا تَسُبُّوا الذينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْم ﴾ ، المَوصول (الذين) عِبارة عن الآلهة التي كانت تَعبدها الكفارُ. والمعنى : لا تَسُب يا مُحَمَّد آلهةَ هؤلاء الكُفار التي يَدْعُونها مِن دُون اللَّه ، فيتسَبَّب عن ذلك سَبُّهم للَّهِ عُدوانًا ، وتجاوزًا عن الحق ، وجَهْلًا مِنهُم . وفي هذه الآية دليل على أنَّ الداعي إلى

الحق ، والناهي عن الباطل ، إذا خَشِيَ أن يتسبَّب عن ذلك ما هو أشد مِنه مِن انتهاك حَرَم، ومُخالفة حَق ، ووقوعٍ في باطل أشد ، كان الترك أَوْلَى به ، بَلْ كان واجبًا عليه ، وما أنفعَ هذه الآية وأجَلَّ فائدتها لِمَن كان مِن الحاملين لِحُجَج اللَّه ، المُتَصَدِّين لبيانها للناس ، إذا كان بَين قَوم مِن الصُّم البُكْم الذين إذا أَمَرَهم بمعروف تَركوه ، وتركوا غَيْرَه مِن المعروف ، وإذا نَهَاهم عن مُنكَر ، فَعَلُوه وفَعَلُوا غَيْرَه مِن المُنكَرات ، عِنادًا للحق ، وبُغْضًا لاتِّباع المُحِقِّين ، وجَرَاءَةً على اللَّه سُبَحانَه ، فإنَّ هؤلاء لا يُؤَثِّر فيهم إلا السَّيْف ، وهو الحَكَم العَدْل لِمَن عاندَ الشريعةَ المُطَهَّرة ، وجَعَلَ المُخَالَفَةَ لها والتَّجَرُّؤ على أهلها دَيْدَنَه وهِجِّيراه (دَأْبه) ، كما يُشَاهَد ذلك في أهل البِدَع الذين إذا دُعُوا إلى حَق ، وَقَعُوا في كثير من الباطل ، وإذا أُرْشِدُوا إلى السُّنَّة ، قابلوها بما لديهم مِن البِدْعَة ، فهؤلاء هُم المُتلاعبون بالدِّين ، المُتهاونون بالشرائع ، وهُم شَر مِن الزَّنادقة ، لأنهم يَحْتَجُّون بالباطل ، ويَنتمون إلى البِدَع ، ويتظاهرون بذلك غَير خائفين ولا وَجِلين ، والزنادقةُ قد ألجمتهم سُيوفُ الإسلام ، وتحاماهم أهْلُه . وقد يَنْفُق كَيْدُهم ، ويَتِم باطلُهم وكُفْرُهم نادرًا على ضعيف مِن ضُعَفاء المسلمين ، معَ تكتُّم وتحرُّز وخِيفة وَوَجَل . وقد ذهب جُمهور أهل العِلْم إلى أن هذه الآية مُحْكَمَة ثابتة غَير مَنسوخة ، وهي أصل أصيل في سَد الذرائع ، وقطع التطرُّق إلى الشُّبَه)) .

ويجب تركُ المصلحة لِمَفسدة أرجح مِنها ، فعن عبد اللَّه بن عمرو _ رضي اللَّهُ عنه _ قال: قال رسول اللَّه ﷺ : ((إنَّ مِن أكبرِ الكبائرِ أن يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْه)) . قِيل : يا رسول اللَّه ، وكيف يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْه ؟ ، قال : ((يَسُبُّ الرَّجُلُ أبا الرَّجُل ، فَيَسُبُّ أباه ، ويَسُبُّ أُمَّه ، فَيَسُبُّ أُمَّه)) [٤٩].

حَقُّ الوَالِدَيْن على الأبناء كبير جِدًّا ، ويجب تعظيمُهما ، واحترامهما ، وعدم الإساءة إليهما بشكل مُبَاشِر أوْ غَير مُبَاشِر ، ومِن قريب أوْ بعيد .

ومِن أسوأ المعاصي وأعظم الذُّنُوب أن يَشْتِم الرَّجُلُ وَالِدَيْه ، وهذا عُقُوق ، وجَحْد لحقوقهما ، وهو إساءة في مُقَابَلَة إحسان الوَالِدَيْن ، وقد تَعَجَّبَ الصحابةُ _ رضي اللَّهُ عنهم _ مِن ذلك ، وقالوا للنبيِّ ﷺ : يا رسول اللَّه ، وكيف يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْه ؟ . وهو استبعاد من السائل ، لأنَّ الطَّبْع والفِطْرَة يتنافيان معَ شَتْم الوَالِدَيْن، وبيَّن النبيُّ ﷺ أنَّ ذلك يكون بأن يَشْتِم رَجُلٌ أبا رَجُل

---

٤٩ متفق عليه. البخاري (٥/ ٢٢٢٨) برقم (٥٦٢٨) ، ومسلم (١/ ٩٢) برقم (٩٠) .

آخَر،فَيَسُب المَشتوم أبا الشاتم،وكذلك الأُم . فبيَّن أنَّه وإنْ لَم يتعاطَ الابنُ السَّبَّ بِنَفْسِه ، فقد يقع مِنه التَّسَبُّب ، فإذا كان التَّسَبُّب في لَعْنِ الوَالِدَيْن من أكبر الكبائر ، فالتصريح بلعنهما أشد .

وفي الحديث تحذيرٌ شديدٌ مِن التَّسَبُّب في إيذاء الوَالِدَيْن ، وإنْ لَم يَقَعْ ذلك صريحًا مِن الابن .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢/ ٨٨) : ((فيه دليل على أنَّ مَن تَسَبَّبَ في شيء ، جَازَ أن يُنسَب إليه ذلك الشيء ، وإنَّما جُعِلَ هذا عُقُوقًا لِكَوْنه يَحْصُل مِنه ما يتأذَّى به الوَالِدَيْن تَأذِّيًا لَيس بالهَيِّن . ... . وفيه قَطْع الذرائع ، فَيُؤخَذ مِنه النَّهْي عَن بَيْع العَصِير مِمَّن يَتَّخِذ الخَمْر ، والسِّلاح مِمَّن يَقطَع الطريق ، ونَحْو ذلك ، واللَّهُ أعْلَم)) .

*

الفصل الثالث

حُدود الدَّعوة

تمهيد

الدَّعوةُ الإسلامية هي منهج وجودي ومشروع حضاري ، تشتمل على جميع مناحي الحياة ، وتَصلُح لِكُل زمان ومكان ، وتتناسب معَ طبيعة الناس ومُستوياتهم العقلية ، وقُدراتهم الفكرية ، ومواهبهم الذاتية ، ومصالحهم الشخصية ، ضِمن إطار المنفعة العَامَّة . ولا تعارُض بين مصلحة الفرد ومصلحة المُجتمع .

ومعَ أنَّ الدَّعوة شاملة وعَامَّة ، إلا أنَّ لها حُدودًا ، وتمتاز بوجود ضوابط تَحفظ جوهرَها ومظهرَها ، وتُنظِّم مسارَها . والدَّعوةُ تعني جَذب الناس إلى الحق والهُدى بهدوء ولِين ، وَفْق المنهج العِلْمي الذي يَنبُع مِن الأدلة النقلية والحُجَج العقلية . وهُنا تتَّضح أهميةُ الحِوَار البَنَّاء والقناعة الذاتية ، بِدُون إجبار ولا إكراه ولا تهديد ولا عُنف . وكما أنَّه لا إكراه في الدِّين ، كذلك لا إكراه في الدَّعوة . والفردُ حُر في قَبولها أوْ رَفْضها ، وهو يتحمَّل مسؤوليةَ اختياره أمامَ اللَّه ، وأمام الناس . والدَّعوةُ والإكراهُ ضِدَّان لا يَجتمعان ، ونقيضان لا يَلتقيان. والإكراهُ يَجعل مِن القلب مَكَانًا سَيِّئًا ، لا يستقر فيه الإيمان ، ولا يَحتضن الطمأنينةَ والقِيَم النبيلة . والعقيدةُ الصحيحة مكانها القلب النقي، الذي يَقْدِر على احتضان الإيمان ، وَبَعْث السَّكِينة والرَّاحة ، معنويًّا وماديًّا .

والدَّعوةُ قائمة على المنهج الوسطي بلا غُلُوٍّ ، فلا مكان فيها للتطرُّف والحِقْد والكراهية ، واتِّباع الأفكار الشاذة.وماهيَّةُ الدَّعوة تتَّصف بالعالمية والتوازن بلا إفراط ولا تفريط ، فهي لا تستخدم السَّيْفَ لإدخال الإيمان إلى قلوب الناس ، وإنَّما تستخدم الحِوارَ المنطقي الهادئ لإقناع الآخرين ، وترسيخِ الإيمان في شخصياتهم وحياتهم باقتناع تام ، وقَبول كامل .

ولا يجوز اضطهاد الناس بسبب عقائدهم وأفكارهم ، وإنَّما تكون مُواجهتهم بالحُجَّة والنِّقَاش، ولَيس سُلطة القُوَّة أوْ سياسة الأمر الواقع ، وكُلُّ فِكرة قائمة على السُّلطة سَوْفَ تنهار ، وكُل مبدأ يعتمد على سياسة الأمر الواقع سَوْفَ يتلاشى . وأساسُ بناء المجتمع الإنساني الحقيقي هو قُوَّة الحَق ، ولَيس حَق القُوَّة . والعِبْرَةُ بالأدلة ، ولا معنى للتلويح بالمال أو العصا . وقُوَّةُ الدَّعوة ذاتية غَير مُستمدة من عناصر خارجية ، لأنَّ الدَّعوة هي الحق والحقيقة ، والحَقُّ والحقيقةُ لا يَحتاجان إلى إسناد خارجي لهما، لأنَّهما جَوْهَرَان كاملان، وقائمان بِنَفْسَيْهِمَا. ومعَ هذا، لا بُد للحَق مِن قُوَّة تَحميه. وهناك أشخاص غارقون في الكُفْر ، ورافضون للحِوار والبراهين، ويَعتمدون على السلاح ، وهؤلاء يجب مُواجهتهم بالسلاح والتَّشَدُّد معهم ، أمَّا الكُفَّار المُسَالِمُون فيجب التساهل معهم .

أوّلًا : لا إكراه في الدِّين

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ لا إكراهَ في الدِّينِ قَد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بالطاغوتِ ويُؤمِن باللَّهِ فَقَدِ استمسكَ بالعُروةِ الوُثقى لا انفصامَ لها واللَّهُ سميعٌ عليم ﴾ [البقرة : ٢٥٦] [٥٠].

إنَّ فلسفة الإكراه تقوم على إلزام الغَيْر بِقَولٍ أو فِعْل تحت الضغط والتهديد ، بدون قناعة مِنه أو وازع ذاتي أو دافع داخلي . لذلك ، فإنَّ الإكراه يتعارض مع الدِّين جُملةً وتفصيلًا .

ولا يمكن للمُكْرَه أن يَشعر بالسعادة الروحية أو الطُّمأنينة في حياته . بل إنه يغرق في الشُّكوك والشُّبهات والخَوف مِن كُل ما حَوْلَه . وهذا يؤدِّي إلى صناعة إنسان مضطرب نفسيًّا، يكون مِعْوَلَ هدم في المجتمع البشري .

---

٥٠ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٠٥) : ((قَوله تعالى : ﴿ لا إكراهَ في الدِّين ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها أنَّ المرأة من نساء الأنصار كانت في الجاهلية إذا لَم يَعِشْ لها ولد، تحلف لَئِن عاش لها ولد لَتُهَوِّدَنَّهُ،فلمَّا أُجْلِيَتْ يهود بني النضير،كان فيهم ناس من أبناء الأنصار،فقال الأنصار:يا رسول اللَّه، أبناؤنا. فَنَزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس.وقال الشَّعبي:قالت الأنصار : واللَّهِ لَنُكْرِهَنَّ أولادَنا على الإسلام ، فإنَّا إنما جعلناهم في دِين اليهود إذْ لَم نعلم دِينًا أفضل مِنه ، فَنَزلت هذه الآية . والثاني أنَّ رَجلًا مِن الأنصار تَنَصَّرَ له وَلَدَان قبل أن يُبعَث النبيُّ ﷺ ، ثُمَّ قَدِما المدينة ، فلزمهما أبوهما ، وقال: واللَّهِ لا أدعكما حتى تُسْلِما، فَأَبَيَا،فاختصموا إلى النبيِّ ﷺ، فنزلت هذه الآية،هذا قول مسروق . والثالث أنَّ ناسًا كانوا مُسْتَرْضَعِين في اليهود، فلمَّا أجلى رسولُ اللَّه ﷺ بني النضير، قالوا : واللَّهِ لَنَذْهَبَنَّ معهم، وَلَنَدِينَنَّ بِدِينهم ، فمنعهم أهلوهم ، وأرادوا إكراههم على الإسلام ، فَنَزلت هذه الآية . والرابع أنَّ رَجُلًا مِن الأنصار كان له غُلام اسمه صَبِيح كان يُكْرِهه على الإسلام، فَنَزلت هذه الآية، والقَولان عَن مجاهد . فصل : واختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذا القَدْر مِن الآية ، فذهب قوم إلى أنه مُحْكَم ، وأنه مِن العام المخصوص، فإنه خصَّ منه أهل الكتاب بأنهم لا يُكْرَهون على الإسلام،بَل يُخَيَّرون بينه وبين أداء الجِزية، وهذا معنى ما رُوِيَ عن ابن عباس ومجاهد وقَتادة. وقال ابن الأنباري: معنى الآية ليس الدِّين ما تَدِين به في الظاهر على جِهة الإكراه عَلَيه، وَلَم يشهد به القلب، وتنطوي عليه الضمائر، إنما الدِّين هو الْمُنْعَقِد بالقلب.وذهب قَوم إلى أنه منسوخ، وقالوا : هذه الآية نزلت قبل الأمر بالقتال. فعلى قولهم يكون مَنسوخًا بآية السَّيف.وهذا مذهب الضَّحاك والسُّدي وابن زيد.والدِّين هاهنا أُرِيدَ به الإسلام)) .

والإكراهُ يَجعل مِن القلب مكانًا مُلَوَّثًا ، لا تَنبُت فيه بِذرةُ الإيمانِ ، ولا يتجذَّر فيه الأمانُ المعنويُّ والاستقرارُ الروحي . ولا يخفى أن العقيدة الصحيحة مكانها القلب الصافي ، وإذا كان القلبُ غير نظيفٍ ، فلا يمكن أن يحتضن الإيمانَ والسَّكِينةَ .

والشخصُ المُكْرَه هو عِبْء على الإسلام ، يُسِيء إلى صورة الدِّين ، ويُؤثِّر فِيه سَلْبًا ، ولا يُمكن اعتباره ناصرًا للإسلام أو مُؤيِّدًا له . وبالتالي ، فالشَّخصُ المُكْرَه هو تهديد لوجود الإسلام وجَوهره وصُورته ومنهجه ، وخطر حقيقي على المسلمين .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤١٦): ((أي: لا تُكْرِهُوا أحَدًا على الدخول في دِين الإسلام، فإنه بَيِّن واضح جَلِيٌّ دلائله وبراهينه ، لا يحتاج إلى أن يُكْرَه أحد على الدخول فيه،بَل مَن هَدَاه اللَّهُ للإسلام،وشَرَحَ صَدْرَه،ونَوَّرَ بصيرته ، دَخل فيه على بَيِّنة ، وَمَن أعمى اللَّهُ قَلْبَه ، وخَتَمَ على سَمْعه وبَصَره ، فإنه لا يُفيده الدخول في الدِّين مُكْرَهًا مَقْسُورًا)) .

وروى ابن حِبَّان في صحيحه (١ / ٣٥٢) : عن سعيد بن جُبَير عن ابن عباس في قَوله : ﴿ لا إكراهَ في الدِّين ﴾ . قال: ((كانت المرأة من الأنصار لا يكاد يعيش لها ولد، فَتَحْلِف : لَئِن عاش لها ولد لَتُهَوِّدَنَّه . فلما أُجْلِيَتْ بنو النضير إذا فيهم ناس من أبناء الأنصار، فقالت الأنصار: يا رسول اللَّه ، أبناؤنا. فأنزل اللَّهُ هذه الآيةَ : ﴿ لا إكراهَ في الدِّين ﴾)) . قال سعيد بن جُبَير : فَمَن شاء لَحِقَ بهم ، ومَن شاء دخل في الإسلام .

لَم يتم إجبارهم على اعتناق الإسلام بأيَّة وسيلة ، وإنما تُرِكوا كي يُقرِّروا مصيرَهم بأيديهم اعتمادًا على فِكْرهم الذاتي . وفي هذا احترامٌ لحرية الاعتقاد، ورفع من شأن العقل البشريِّ الذي مَنَحه اللَّهُ حَقَّ تقرير المصير مَعَ تحمُّل مسؤولية الاختيار كاملةً ، في الدنيا والآخرة .

وَلَوْ كان الإسلامُ دِينًا عنيفًا لوضع السَّيفَ على الرِّقاب لإدخالهم في الدِّين رغم أنوفهم ، وهو يَملِك النفوذَ والقوة والسَّطوة . ومع هذا لَم يُفْرَض الإسلامُ عليهم. وكُل فرد اختار طريقَه وَفْق مشيئته الخاصَّة دُون إكراه ، ولا إجبار ، ولا تهديد ، ولا ضغط .

وفي الحديث إشارةٌ إلى الجَهْل المُتَجَذِّر في بعض النساء.فالمرأةُ من الأنصار التي لا يعيش لها ولد اتَّخذت من الانحراف العَقديِّ سُلوكًا اجتماعِيًّا على أمل حماية أبنائها من الموت،فصار النَّذْرُ بتهويد ابنها إنْ عاش هو الطريق الأمثل بالنسبة إِلَيها.وهذا يدل على نظرة الاحترام والتقدير التي يَحملها عَرَبُ الجاهلية لأهل الكتاب . فالعربُ الوثنيون جُهَّال وبِدائِيُّون ، لا كِتاب لهم، أمَّا اليهودُ فَهُم أهل كِتاب (التَّوراة)، ولَدَيهم عُلماء وأحبار ومُفكِّرون.لذلكَ كان العربُ يَشعرون

بنقصهم ودُونيَّتهم أمام اليهود.وبدلًا مِن شُكر اللَّه عَلى حياة ابنها ، فإنَّه تُهَوِّده. وهذا الضلالُ المُتفشِّي في البيئة الاجتماعية يعكس مدى التخلف العَقدي، والانهيار الاجتماعي المنتشر على نطاق واسع . والمرأةُ غارقةٌ في بحر عواطفها ، فهي تريد أن يعيش أبناؤها بأي ثمن ، ومستعدة لتقديم كل شيء في سبيل هذه الأُمْنِيَّة . إنها تريد أن تكون أُمًّا ، وتعيش عاطفةَ الأُمُومة بِكُل حَيثياتها ، ولا تُبالي بالثمن الذي تُقدِّمه ، حتى لو كان عقيدةً زائغة ، أو انحرافًا أخلاقيًّا .

﴿ قَد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ ﴾ . قَد اتَّضح الإيمانُ (الرُّشْد) والكُفْرُ (الغي)، وتميَّز أحدهما عن الآخَر. لقد تبيَّن الإيمانُ مِن الكُفر، والحق مِن الباطل ، والهُدى مِن الضلال ، بالحُجَج والبراهين.

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٥٥٧) : ((تَمَيَّزَ الإيمانُ مِن الكُفر بالآيات الواضحة . ودلَّت الدلائلُ على أن الإيمان رُشْد يُوصِل إلى السَّعادة الأبدية ، والكُفر غَي يُؤَدِّي إلى الشَّقاوة السرمدية . والعاقل متى تَبَيَّنَ له ذلك ، بادرت نَفْسُه إلى الإيمان ، طلبًا للفَوز بالسعادة والنَّجاة ، ولَم يَحْتَجْ إلى الإكراه والإلجاء)) .

﴿ فَمَن يَكْفُرْ بالطاغوتِ ويُؤمِن باللَّهِ ﴾ . فَمَن يُنكِر عبادةَ الأصنام والأوثان ، ويُخَالِف كُلَّ ما يَدعو إليه الشَّيطان ، ويَرفض كُلَّ مَعبود مِن دُون اللَّه ، ويَعبُد اللَّهَ وَحْدَه ، بلا شريك ولا نِد ، ويُصدِّق أنبياءه ، ويُوقِن باليوم الآخِر .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٠٦) : ((فأمَّا الطاغوت فهو اسم مأخوذ مِن الطُّغيان ، وهو مُجاوزة الحَد . قال ابن قُتَيبة : الطاغوت واحد وجَمْع ومُذكَّر ومُؤنَّث ... والمُراد بالطاغوت هاهُنا خمسة أقوال : أحدها أنه الشَّيطان ، قاله عُمر وابن عباس ومُجاهد والشَّعبي والسُّدي ومُقاتل في آخرين . والثاني أنه الكاهن، قاله سعيد بن جُبَير وأبو العالية . والثالث أنه الساحر ، قاله محمد بن سيرين . والرابع أنه الأصنام ، قاله اليزيدي والزَّجاج . والخامس أنه مَرَدَة أهل الكتاب ، ذَكَرَه الزَّجاج أيضًا)) .

﴿ فَقَدِ استمسكَ بالعُروةِ الوُثقى ﴾ . فقد ثَبَتَ على الحق ، والتزمَ الهدى ، وتَمَسَّكَ بأوثق عَهْد وأقوى سبب لِنَيل رضا اللَّه ، والنجاة مِن عذابه الأليم وعُقوبته الشديدة . وهذا العَهْد الوثيق والعَقْد المُحْكَم ، هو الإيمان وكلمة الشَّهادة " لا إله إلا اللَّه " .

﴿ لا انفصامَ لها ﴾ ، لا انقطاع لها ، ولا كَسْر فِيها. وقال البَيضاوي في تفسيره(١/ ٣٤٩) : ((﴿ فَقَدِ استمسكَ بالعُروةِ الوُثقى ﴾ تَعَلَّقَ بأوثق ما يُتعلَّق بِه ، وهو تمثيل بِمَن أراد أن يَترقَّى إلى شاهق جبل ، فَتَمَسَّكَ بأوثق عُرى الحبل المُتَدَلِّي مِنه)) .

﴿ واللَّهُ سميعٌ عليم ﴾ . واللَّهُ سميعٌ للأقوال ، عليمٌ بالأفعال والقُلوب والنِّيات .

وقال القرطبي في تفسيره (٣/ ٢٦٧): ((ولمَّا كان الكُفرُ بالطاغوت ، والإيمان باللَّه ، مِمَّا يَنطق به اللسانُ ، ويَعتقده القلبُ ، حَسُنَ في الصِّفات ﴿ سميعٌ ﴾ مِن أجل النُّطق ﴿ عليم ﴾ مِن أجل المُعْتَقَد)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن في الأرضِ كُلُّهُم جميعًا أفأنتَ تُكْرِهُ الناسَ حتى يَكونوا مؤمنين ﴾ [يُونُس : ٩٩] .

اللَّهُ قادرٌ على جَعْل العِباد كُلِّهم مُؤمنين على شريعة واحدة ، وعلى قلب رَجل واحد ، دُون وجود للأديان ولا المذاهب ولا المِلَل ولا النِّحَل . لَكِنَّه سُبحانه شَرَّفَ العقلَ البشري بأن مَنَحَه حريةَ الاختيار وَفْقَ ما يَراه مُنَاسِبًا دُون ضغط ولا تهديد ولا إكراه. إذْ إنَّ العقيدة والإكراه ضِدَّان ، لا يجتمعان في قلب إنسان ، ولا يَلتقيان في نَفْسه . والاختيارُ الذاتي دون ضغوط _ وَحْدَه _ القادر على جَعْل العقيدة تستقر في القلب . والإكراه على الإيمان لا يَصِحُّ ، وليس له معنى ، لأن الإيمان عمل القلب . ولا سُلطة لمخلوق على قلب مخلوق آخَر . والقُلوبُ بيد اللَّه وَحْدَه .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢١٦) : ((وهو دليل على القَدَرِيَّة ، في أنه تعالى لَم يَشَأ إيمانَهم أجمعين، وأنَّ مَن شاء إيمانَه يُؤْمِن لا مَحَالة. والتَّقييد بمَشيئة الإلجاء خِلاف الظاهر)) .

وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ يا مُحمَّد لأجبرَ الناسَ _بلا استثناء_على الإيمان، فَصَدَّقوا بالإسلام وبرسالتك. واجتمعوا على الإيمان لا يَختلفون فيه . لكنَّ اللَّه لا يَشاء إجبارَ الناس على الإيمان ، لأنه مُخالِف للحِكمة الإلهية التي هي جوهر التشريع . والآيَةُ تُشير إلى أنَّ مَن شَاءَ اللَّهُ إيمانَه يُؤْمِن لا مَحَالة .

إنَّ اللَّهَ حكيمٌ في أفعاله، له حِكمة فيما يَفعله تعالى ، عَلِمَها مَن عَلِمَها ، وجَهِلَها مَن جَهِلَها . وقد جَعَلَ اللَّهُ العبدَ حُرًّا في اختياره ، ووَفْق اختياره يَتقرَّر مصيرُه . والعبدُ يختار الإيمانَ أو الكفرَ بكل حرية ودُون ضغط ولا إكراه ، وهو يَتحمَّل مسؤولية اختياره في الدنيا والآخرة.واللَّهُ بنى الأمرَ على الاختيار لا الإجبار. ولو كانَ هناك إجبار على الإيمان، فلا معنى لإرسال الأنبياء ، ولا معنى للحساب والجنة والنار . وجاءت﴿ جميعًا﴾ بعد ﴿كُلُّهُم ﴾ للتأكيد .

والآيَةُ تدلُّ على كَمال قُدرة اللَّه ، ونفاذ مشيئته في كُل شَيء ، ولا شَيء يقف أمام إرادته .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٦١٤) : ((يقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه : ﴿ وَلَوْ شاءَ ﴾ يا مُحمَّد ﴿ رَبُّكَ لآمَنَ مَن في الأرضِ كُلُّهُم جميعًا ﴾ بِكَ ، فَصَدَّقُوكَ أنَّكَ لِي رسول، وأنَّ ما جئتهم به ، وما تدعوهم إليه مِن تَوحيد اللَّه ، وإخلاص العُبودة له حق ، ولكن لا يشاء ذلك، لأنه قد سَبَقَ مِن

قضاء اللَّه قبل أن يَبعثك رسولًا أنه لا يُؤْمِن بِكَ ، ولا يَتَّبِعك فَيُصَدِّقك بما بَعثك اللَّهُ بِه مِن الهُدى والنُّور إلا مَن سَبَقَتْ له السعادة في الكتاب الأول ، قَبل أن تُخْلَق السماوات والأرض وما فيهنَّ . وهؤلاء الذين عَجِبوا مِن صِدق إيحائنا إلَيك هذا القُرآن لِتُنذِر به مَن أَمَرْتُكَ بإنذاره ، مِمَّن قد سَبَقَ له عِندي أنهم لا يؤمنون بِكَ في الكتاب السابق)) .

﴿ أفأنتَ تُكْرِهُ الناسَ حتى يَكونوا مؤمنين ﴾ . أفأنتَ يا مُحمَّد تُجْبِر الناسَ على الإيمان ، وتضطرهم إلَيه ، وتُلْزِمهم به ؟ . هذه لَيست وظيفتك ولا مُهمتك، ولَستَ مُطَالَبًا بذلك ، وَلَسْتَ مسؤولًا عن ذلك . لَيْسَ لَكَ يا مُحمَّد مشيئة الجبر والإكراه في الإيمان، فمصيرُ العبد يتحدَّد وَفْق اختياره الشخصي، بدون إجبار ، ولا إكراه . واللَّهُ وَحْدَه يَهدي مَن يَشاء ، ويُضِل مَن يَشاء ، لِعِلْمه وحِكمته وعَدْله .

والاستفهام في ﴿ أفأنتَ ﴾ بمعنى النَّفْي . أي : لا تَمْلِك يا مُحمَّد أن تُجْبِرهم على الإيمان ، ولا تَقْدِر أن تُكْرِههم على التَّصديق ، لأن التصديق عمل القلب ، والقلبُ بيد اللَّه وَحْدَه .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٢/ ١٤٣) : ((لأن الإيمان فِعْل العبد ، وفِعْله ما يَحصُل بِقُدرته ، ولا يتحقق ذلك بدون الاختيار . وتأويله عِندنا أنَّ للَّهِ تعالى لُطْفًا ، لَوْ أعطاهم لآمَنوا كُلُّهم عَن اختيار ، ولكن عَلِمَ مِنهم أنهم لا يُؤمنون ، فَلَم يُعْطِهم ذلك ، وهو التوفيق)) .

وقد أخطأ مَن اعتبرَ الآيةَ منسوخة بآية السَّيف ، فلا يوجد نَسْخ ، لأن الإكراه على الإيمان غَير معقول ولا منطقي ، لأن الإيمان عمل القلب. والإجبارُ يُؤَثِّر على الجوارح الظاهرية ، ولا يُؤَثِّر على القلب ، لأنه داخلي ، لا سُلطة لمخلوق عَلَيه . واللَّهُ وَحْدَه مَالِكُ قُلوبِ العِباد .

والآيةُ تخفيف عن النبيِّ ﷺ وتَسليةٌ له ، لأنه ﷺ كان شديد الحِرْص على إيمان الناس ، وإنقاذهم من عذاب النار، وإرشادهم إلى رِضا اللَّهِ ونعيمِ الجَنَّة ، فأخبره اللَّهُ أنَّه لا يُؤْمِن إلا مَن قد سَبَقَ له مِن اللَّه السعادة ، ولا يَضِل إلا مَن سَبَقَ له الشَّقَاوة . وكُلُّ شيء خاضع للمَشيئة الإلهية .

والآيةُ أيضًا مديحٌ إلهيٌّ للنبيِّ ﷺ ، لأنها تُبَيِّن أنَّ النبيَّ ﷺ يَقوم بواجب الدَّعوة والتَّبليغ على أكْمَل وَجْه بلا مَلَل ولا كَسَل ولا تقصير ، ويَبذل قُصارى جُهده لهداية الناس إلى الإيمان ، وهو مُتأثِّر بِشِدَّة وحزين لعدم إيمان قَومه . وقد خَفَّفَ اللَّهُ عنه، وأعْلَمَه أن لا أحد يُؤْمِن إلا بإذن اللَّه ، لأن الإيمان شَرَف، واللَّهُ لا يُعطي هذا الشرفَ إلا لأشخاص مُحَدَّدين ، وغالبية الناس لا يستحقون هذا الشرف،لذلكَ تَرَكَهم اللَّهُ ضائعين في متاهات الجهل والضلال والكُفر.وَمَن شَاءَ اللَّهُ أن يَمنحه شَرَفَ الإيمان سَيُؤْمِن لا مَحَالة،فلا شيء يقف أمام مَشيئة اللَّه،ومشيئته نافذة في كُل شيء.

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢١٦) : ((﴿ أفأنتَ تُكْرِهُ الناسَ ﴾ بما لَم يشأ منهم ﴿ حتى يَكونوا مؤمنين ﴾ . وترتيب الإكراه على المشيئة بالفاء ، وإيلاؤها حرف الاستفهام للإنكار ، وتقديم الضمير على الفِعل للدَّلالة على أن خِلاف المشيئة مُستحيل ، فلا يمكن تحصيله بالإكراه عليه فضلًا عَن الحَث والتَّحريض عليه)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢ / ٦٨٦) : ((ولَمَّا كان النبيُّ ﷺ حريصًا على إيمان جميع الناس ، أخبرَه اللَّهُ بأن ذلك لا يكون، لأن مشيئته الجارية على الحِكمة البالغة والمصالح الراجحة، لا تقتضي ذلك، فقال : ﴿ أفأنتَ تُكْرِهُ الناسَ حتى يَكونوا مؤمنين ﴾ ، فإن ذلك ليس في وُسعك يا مُحمَّد، ولا داخل تحت قُدرتك . وفي هذا تَسلية له ﷺ ، ودَفْع لِمَا يَضِيق به صدرُه مِن طلب صلاح الكُل الذي لو كان ، لَم يكن صلاحًا مُحَقَّقًا ، بَلْ يكون إلى الفساد أقرب ، ولِلَّهِ الحِكْمة البالغة)) .

إنَّ اللَّه قَد أكرمَ الإنسانَ وَكَرَّمَه ، بأن مَنَحَه حقَّ الاختيار بين الإيمان والكُفر ، بلا إجبار ، ولا إكراه ، ولا يُمكن للنبيِّ ﷺ إكراه الناس على الدخول في الإسلام وإجبارهم على اعتناقه ، لأن الإنسان حُر في اختياره ، كما أن العقيدة مبنية على حرية الاختيار ، والقَبولِ الطَّوْعي ، والتصديقِ القلبي بدون ضغط. ولا يمكن للجوارح أن تعمل بأريحية ذاتية إلا إذا كان عملُها نابعًا من القلب ، وهذا القلب لا سُلطة بشرية لأحد عَلَيه ، فهو لا يخضع للسَّيف ، ولا التهديد ، ولا الوعيد .

والقلوبُ بيد اللَّه وَحْدَه. وكُلُّ تعاليم الإسلام وعباداته تعتمد على النِّية التي مَحَلُّها القلب ، والنِّيةُ الصادقة في العبادة والإكراهُ نقيضان لا يَجتمعان ، وضِدَّان لا يَلتقيان ، وبالتالي فالذين يعتنقون الإسلام فكرًا وتطبيقًا لا يمكن أن يكونوا مُكْرَهين. فلا سُلطة لمخلوق على قلب مخلوق. قد يتمُّ إجبار الإنسان على القَول والفِعْل ، ولكن لا يُمكن إجبار قلبه ، لأنه شيء داخلي .

وهذا يَدحض الشُّبُهَاتِ التي يُثيرها المُغرِضون حَوْل انتشار الإسلام ، ويَنسُبون إليه الدموية والوحشية ، وأنه يُجبر الناسَ على اعتناقه بالسَّيف . وهذا كلام بلا دليل ، ولا تقوم له قائمة لأنه لا يستند على أدلة معرفية وحُجَجٍ منطقية.والذي يَتَّهم الإسلامَ بأنه دموي انتشر بالسَّيف عليه أن يُقَدِّم البراهين ، بأن يُحْضِر نصوصًا شرعية تحضُّ على قَتْل رافضي اعتناق الإسلام ، أو يُثبِت أن الناس اعتنقوه مُكْرَهين ، أو أن الإسلام اعتمد منهجية " إمَّا تُؤْمِن أو تُقْتَل " ، أوْ يُحضِر أدلةً تاريخية تُفيد بقتل الناس لأنهم لَم يختاروا الإسلام دِينًا . كما أن الذين يَتَّهمون الإسلامَ بالدموية وإجبار الناس على اعتناقه عليهم أن يُفسِّروا وجود الأقليات الدينية في العَالَم الإسلاميِّ ، مع أن

المسلمين كانوا قادرين على قتلهم أو فرض الإسلام عليهم بكل سهولة ، حين كانت الحضارة الإسلامية تبسط سيطرتها على كوكبنا، وكانت الأُمَّة الإسلامية أقوى الأمم،ولا أحد يَجرؤ على تَحَدِّيها أو مُعارضتها .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَمَن شاءَ فَلْيُؤمِن ومَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكَهْف : ٢٩] .

لقد أظهرَ اللَّهُ الحَقَّ ، ووضَّح الهُدى ومَعَالِمَ الرَّشَاد ، وقَدَّمَ البراهين والأدلة ، وأقامَ الحُجَّةَ على الناس ، وقَطَعَ أعذارَهم . فَإن شئتم فآمِنوا ، وإن شِئتم فاكفروا . وهذا تَخيير معناه التهديد.

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٥/ ١٣٤) : ((قوله تعالى: ﴿ فَمَن شاءَ فَلْيُؤمِن ومَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ . فيه ثلاثة أقوال : أحدها فَمَن شاء اللَّهُ فليؤمن ، رُوِيَ عن ابن عباس . والثاني أنَّه وعيد وإنذار ولَيس بأمر ، قاله الزَّجاج . والثالث أن معناه لا تَنفعون اللَّهَ بايمانكم ولا تَضُرُّونه بِكُفركم ، قاله الماوردي . وقال بعضُهم : هذا إظهار للغِنى ، لا إطلاق في الكفر)) .

الآيةُ لا تَحْمِل ترخيصًا ولا تَخييرًا بين الإيمان والكفر ، وإنما تهديد ووعيد . فَمَن آمنَ فهو حُر في اختياره ، وله الجنة والنعيم . وَمَن كَفر فهو حُر في اختياره ، وله النار والعذاب .

إنَّ اللَّه لا يَنفعه إيمان المؤمن وطاعته ، ولا يَضُرُّه كُفر الكافر ومعصيته . ونتيجةُ عمل العبد تَعود على العبد إيجابًا أو سَلْبًا . واللَّهُ غنيٌّ عَن إيمان المؤمن ولا يَحتاجه ، ولا يَتأثَّر بِكُفر الكافر ولا يُبالي بِه .

والعبدُ يختار الإيمان أو الكُفر بكل حُرِّية، وهو يَتحمَّل مسؤولية اختياره في الدنيا والآخرة . وهذا مُنتهى الحرية الممنوحة للإنسان الذي بإمكانه أن يختار الدرب الذي يُريده ، ويتحمَّل مسؤولية اختياره أمام اللَّه ، وأمام الناس . كما يدل على تكريم اللَّه تعالى لبني البشر ، حيث أعطاهم حرية تقرير مصيرهم وَفْقَ ما يَرَوْنَه بلا جَبْر ولا إكراه، وعليهم أن يتحمَّلوا تَبِعَاتِ اختيارهم. والجزاءُ حَسَب العمل . فَمَن وَجَدَ خَيْرًا فليشكر اللَّهَ ، وَمَن وَجَدَ غَيْرَ ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَه .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٣/ ١٢): ((أي : جاء الحق ، وزاحت العِلَل ، فلم يَبْقَ إلا اختياركم لأنفسكم ما شِئتم مِن الأخذ في طريق النجاة ، أو في طريق الهلاك . وجِيء بلفظ الأمر والتخيير ، لأنه لَمَّا مَكَّنَ مِن اختيار أيَّهما شاء ، فكأنه مُخَيَّر مأمور بأن يَتَخَيَّر ما شَاء مِن النَّجْدَيْن ـ يعني : طريق الخير والنجاة أو طريق الشر والهلاك ـ)) .

*

ثانيًا : لا غُلو في الدِّين

إنَّ الذين يفتقدون إلى العقيدة الصحيحة ، ولا يَملِكون الحُجَّةَ الساطعة ، ولا يَقْدِرُون على المُنَاقَشَة والمُحَاجَجَة بالأدلة والبراهين ، سوف يَلْجَؤون إلى العُنف اللفظي والجسدي ضِد المُخالِفين ، والتنكيل بهم، والتضييق عليهم بشتى الوسائل، في محاولة لدفعهم إلى التَّخَلِّي عن عقيدتهم بالإكراه .

ولا يُمكن للإيمان والإكراه أن يَجتمعا في قلب شخص ما ، فالإيمان قَوْلٌ وعَمَلٌ ، يَنبُع مِن إرادة داخلية ، وقَبول ذاتي ، ولا سُلطة لمخلوق _ مهما بلغ من النفوذ والمكانة _ على قلوب الناس . والإيمان مَقَرُّه القلب . والقلبُ بيد اللَّه وَحْدَه .

قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ يا أهلَ الكتاب لا تَغلُوا في دِينكم ولا تَقُولوا عَلى اللَّهِ إلا الحَقَّ ﴾[النِّساء: ١٧١] [٥١].

إنَّ اللَّه يَأمر أهلَ الكتاب بعدم الغُلُوِّ في الدِّين، أي عدم مُجَاوَزَة الحَد، والتطرف ، والانحراف عن الطريق المستقيم . فالغُلُوُّ طريقُ الضلال والابتعاد عن جَادَّة الصواب ، وله تأثيرات سلبية على الحياة والأفكار والإنسان والمجتمع .

واللَّهُ يَنهَى النصارى عن المُبالَغة في تعظيم المسيح ﷺ ، والغُلُوِّ فِيه ، فقد أخرَجوه من حَيِّز النُّبُوَّة إلى مَقَام الأُلُوهية ، وجَعَلوه إلهًا وابنًا للَّه تعالى . وهذا باطل نقلًا وعقلًا .

يا مَعْشَرَ النصارى ، لا تتجاوزوا الحَدَّ في دِينكم بإفراطكم في شأن المسيح وادِّعاء أُلُوهيته ، ولا تَصِفُوا اللَّه بما لا يَلِيق به مِن الحُلُول والاتِّحاد واتِّخاذ الصاحبة والولد . فاللَّهُ واحد أَحَد ، فَرْد صَمَد ، واحدٌ في ذاته ، وواحدٌ في صِفَاته ، ومُنَزَّه عن الصاحبة والولد والشَّريك .

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٣٧٢) : ((لا تُجَاوِزوا الحقَّ في دِينكم فتُفرِّطوا فيه ، ولا تقولوا في عيسى غَير الحق ، فإنَّ قِيلَكم في عيسى إنَّه ابنُ اللَّه قَوْلٌ مِنكم على اللَّه غَير الحق ، لأنَّ اللَّه لَم يتَّخذ ولدًا ، فيكون عيسى أوْ غَيْرُه مِن خَلْقِه له ابنًا)) .

---

٥١ قال البَغَوي في تفسيره(١/ ٣١٣): ((نزلت في النصارى ، وهم أصناف: الماريَعقوبية، والْمَلْكَانِيَّة، والنُّسطورية ، والْمُرقوسية . فقالت اليعقوبية : عيسى هو اللَّه ، وكذلك الملكانية . وقالت النُّسطورية : عيسى هو ابن اللَّه ، وقالت الْمَرْقُوسِيَّة : ثالث ثلاثة . عَلَّمهم رَجل مِن اليهود ، يُقَال له بُولُس)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ٨١٥): ((قَوله: ﴿ يا أهلَ الكتاب لا تَغلُوا في دِينكم ﴾ الغُلُو : هو التَّجَاوُز في الحَد ، ومِنه غَلا السِّعْرُ ، يَغْلُو غَلاءً ، وغَلا الرَّجُلُ في الأمر غُلُوًّا ، وغَلا بالجارية لحمها وعظمها ، إذا أسرعت الشباب فجاوزتْ لِدَاتِهَا (قَرِيناتها) . والمُراد بالآية النَّهْي لهم عن الإفراط تَارَةً ، والتفريط أُخرى ، فَمِن الإفراط غُلُوُّ النصارى في عِيسى حتى جعلوه رَبًّا ، ومِن التفريط غُلُوُّ اليهود فيه عليه السلام حتى جَعَلُوه لِغَيْر رِشْدَة (ابن زنا) وما أحسن قَول الشاعر: ولا تَغْلُ في شَيء مِن الأمرِ واقْتَصِدْ كِلا طَرَفَي قَصْدِ الأُمُورِ ذَمِيم ﴿ ولا تَقُولوا عَلى اللَّهِ إلا الحَقَّ ﴾ ، وهو ما وَصَفَ به نَفْسَه ، ووصفته به رُسُلُه ، ولا تقولوا الباطلَ كَقَول اليهود : عُزَير ابن اللَّه ، وقَول النصارى : المسيح ابن اللَّه)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٢/ ٢٦٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ يا أهلَ الكتاب لا تَغلُوا في دِينكم ﴾ . قال مُقَاتل : نزلت في نصارى نَجْران ، السَّيد والعَاقِب ، ومَن مَعَهما . والجُمهور على أنَّ المُراد بهذه الآية النصارى . وقال الحسن : نزلت في اليهود والنصارى . والغُلُوُّ الإفراط ، ومُجَاوَزَة الحَد ، ومِنه: غَلا السِّعْرُ. وقال الزَّجاج : الغُلُوُّ مُجَاوَزَة القَدْر في الظُّلْم ، وغُلُوُّ النصارى في عيسى قَول بعضهم : هو اللَّه ، وقول بعضهم : هو ابن اللَّه ، وقول بعضهم : هو ثالث ثلاثة. وعلى قول الحسن : غُلُوُّ اليهود فيه قَولهم إنَّه لِغَير رِشْدَة . وقال بعضُ العلماء : لا تَغْلُوا في دِينكم بالزيادة في التَّشَدُّد فيه . قَوله تعالى : ﴿ ولا تَقُولوا عَلى اللَّهِ إلا الحَقَّ ﴾ ، أي : لا تقولوا إنَّ اللَّه له شريك أو ابن أو زوجة)) .

وعن ابن عباس _ رضي اللَّهُ عنهما_ أن رسول اللَّه ﷺ قال: ((... ، وإيَّاكم والغُلُوَّ في الدِّين، فإنما هَلَكَ مَن كان قَبْلكم بالغُلُوِّ في الدِّين)) [٥٢].

هذا تحذيرٌ نبويٌّ مِن التَّشَدُّد في الدِّين ، ومُجَاوَزَة الحَد ، والتَّضييقِ على النَّفْس والآخرين . والشريعةُ الإلهيةُ جاءت لإنقاذ الناس ، والتَّيسير عليهم ، ورفع الحَرَج عنهم ، وليس لتعذيبهم .

يُحذِّر النبيُّ ﷺ المؤمنين مِن مُجَاوَزَة الحَد في أُمُور الدِّين ، والتَّشَدُّد فيه بالإفراط . ويجب الالتزام بالمنهج الوسطي في كُل شيء، فإنَّما هَلَكَت الأُمم السابقة بسبب مُجاوزة الحَد ، والتَّشَدُّد في الدِّين بالإفراط ، فهو سبب الهلاك والدمار . وهذا يدلُّ على أنَّ الغُلُوَّ سبب لضياع الأُمم .

---

٥٢ رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٦٣٧)برقم (١٧١١)وصحَّحه،وابن حِبَّان في صحيحه(٩/ ١٨٣) برقم (٣٨٧١) ، وابن خُزَيمة في صحيحه (٤/ ٢٧٤) برقم (٢٨٦٧) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٣/ ١٢٥ و١٢٦) : (((إيَّاكم والغُلُوَّ في الدِّين) أي التَّشديد فيه ومُجاوزة الحَد ، والبحث عن غوامض الأشياء ، والكشف عن عِلَلها ، وغوامض مُتعبَّداتها (فإنما هَلَكَ مَن كان قَبْلكم) مِن الأمم (بالغُلُوِّ في الدِّين). والسَّعيد مَن اتَّعظ بغَيره... . قال ابن تَيْمِيَّة : قَوله : (إيَّاكم والغُلُوَّ في الدِّين) عام في جميع أنواع الغُلُوِّ في الاعتقادات ، والأعمال . والغُلُوُّ مُجاوزة الحَد ، بأن يُزاد في مدح الشيء أو ذَمِّه على ما يستحق، ونَحْو ذلك. والنصارى أكثر غُلُوًّا في الاعتقاد ، والعمل من سائر الطوائف ، وإيَّاهم نهى اللَّهُ عن الغُلُوِّ في القُرآن بِقَوله تعالى : ﴿ لا تَغلُوا في دِينِكُم ﴾)) .

وروى البخاري في صحيحه (٣/ ١٢٧١) عن عمر بن الخطاب _ رضي اللَّهُ عنه _ قال : سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول : ((لا تُطْرُوني كما أَطْرَت النصارى ابْنَ مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا : عبدُ اللَّهِ ورسولُه)) .

إنَّ الإطراء المقصود في الحديث الشريف مُقَيَّد بإطراء النصارى للمسيح ﷺ ، ومعروف أن إطراءَ النصارى هو تأليهُ المسيح ﷺ ، واتخاذُه إلهًا وابنًا للَّه تعالى . أمَّا المسلمون فَيَمدحون النبيَّ مُحَمَّدًاﷺ وباقي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما فِيهم، وليس فِيهم إلا الحَق والخَير والشَّرف والسِّيادة والنُّبُوَّة . إنَّهم عِبادُ اللَّه وأنبياؤه الطاهرون .

أرشدَ النبيُّ ﷺ أُمَّتَه ألا يُبالغوا في مَدْحه ، وألا يُنزلوه عن مَنزلته . والإطراءُ : الإفراط في المَديح ومُجاوزة الحَد فيه ، وقِيل : هو المَديح بالباطل والكذب فيه .

والمعنى : لا تَمْدَحُوني بالباطل ، وبما لَيس لي مِن الصِّفَات ، كما وَصَفَت النصارى عِيسى ابن مَريم بما لَم يَكُن فيه ، فَزَعَمُوا أنَّه إله ، وابن للَّه تعالى ، فَكَفروا وضَلُّوا .

والنصارى غارقون في الغُلُوِّ العَقَدِي والتَّطَرُّف السُّلوكي . وقد أمرَ النبيُّ ﷺ المؤمنين أن يقولوا عنه : عبد اللَّه ورسوله ، وجَمَعَ ﷺ بَين وَصْفه بالعُبودية للَّه وَوَصْفِه بالرسالة، دَفْعًا للإفراط والتفريط، فَدَفَعَ الإفراطَ والغُلُوَّ فيه ﷺ بِكَوْنه عبد للَّه، ودَفَعَ التقصيرَ والتفريطَ في حَقِّه ﷺ بترك مُتابعته ، وعدم الأخذ بِسُنَّته ، والسَّيْرِ على نَهْجِه الذي أرسله اللَّهُ به ، بِكَوْنه رسولَ اللَّه تعالى . فلا غُلُو في حَقِّه ﷺ ولا قُصُور . وَوَصْفه ومَدْحه ﷺ بما فضَّله اللَّهُ به وشرَّفه ، حَق واجب على كُل مَن بَعَثَه اللَّهُ إليه مِن خَلْقِه .

والحديثُ يَحمل توجيهًا مِن النبيِّ ﷺ لأُمَّته بضرورة الوسطية والاعتدال في حَقِّه ﷺ ، كما أنَّ الحديث يُوضِّح أهميةَ ذِكْر أهل الضَّلال بِضَلالاتهم ، تَحذيرًا مِن الوقوع فِيما وَقَعُوا فيه .

وقد قال البوصيري في مَدْح النبيِّ مُحَمَّد ﷺ :

دَعْ ما ادَّعَتْهُ النصارى في نَبِيِّهِم … واحْكُمْ بما شِئتَ مَدْحًا فيه واحْتَكِمِ
وانسُبْ إلى ذَاتِهِ ما شِئْتَ مِن شَرَفٍ … وانسُبْ إلى قَدْره ما شِئْتَ مِن عِظَمِ

وكما أن النصارى بالَغوا في تعظيم المسيح ﷺ وغَلَوا فِيه ، حتى جعلوه إلهًا مَعبودًا ، ولَم يَقنَعوا بِكَوْنه عبدَ اللَّه ورسولَه ، غَلا اليهودُ في المسيح ﷺ من الجهة الأخرى ، وأهانوه ، وأنزَلوه عن رُتبة النُّبُوَّة ، وجَعَلوه ابْنَ زِنا ، والعِياذُ باللَّه تعالى . وبذلك يَكونون قد احْتَقَروه هُوَ وأُمَّه مريم .

وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٩٠): ((قَوْله : " لا تُطْرُوني " ، بِضَم أوَّله . والإطراء : المَدْح بالباطل ، تقول : أطْرَيْتُ فُلانًا مَدَحْتُه فأفرطتُ في مَدْحه . قَوْله :كما أطْرَت النصارى ابن مريم ، أي في دِعواهم فيه الإلهية ، وغير ذلك)) .

وفي نَفْس المرجع (١٢/ ١٤٩) : ((قال ابن الجَوزي : لا يَلزَم مِن النَّهْي عن الشيء وُقُوعه ، لأنَّا لا نَعْلَم أحدًا ادَّعى في نَبِيِّنا ما ادَّعته النصارى في عِيسى ، وإنَّما سبب النَّهْي فيما يَظهَر ما وقع في حديث مُعاذ بن جبل لمَّا استأذن في السُّجود له ، فامتنع ، ونهاه ، فكأنَّه خَشِيَ أن يُبالغ غَيْرُه بما هو فوق ذلك ، فبادرَ إلى النَّهْي تأكيدًا للأمر . وقال ابن التين : معنى قَوله : " لا تُطْرُوني " : لا تَمْدَحُوني كمدح النصارى حتى غَلا بعضُهم في عيسى فجعله إلهًا مع اللَّه ، وبعضهم ادَّعى أنَّه هو اللَّه ، وبعضهم ابن اللَّه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قُل يا أهلَ الكتابِ لا تَغلُوا في دِينِكُم غَيْرَ الحقِّ ولا تَتَّبِعُوا أهواءَ قَوْمٍ قَد ضَلُّوا مِن قَبْلُ وأضلوا كَثيرًا وضَلُّوا عَن سَواءِ السَّبيل ﴾ [المائدة : ٧٧] .

الخطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ . قُل يا مُحَمَّد لأهل الكتاب: لا تتجاوزوا الحدَّ في دِينكم ، ولا تُفرِّطوا في أقوالكم وعقائدكم ، ولا تُعظِّموا المسيحَ إلى درجة اتِّخاذه إِلَهًا أو ابن إله . وهذا هو غُلُوُّ النصارى ، أمَّا غُلُوُّ اليهود فيتَّضح في اعتبار المسيح ابن زنا ، ومريم زانية . إن المسيح عبد اللَّه ورسوله ، وليس إِلَهًا ولا ابن إله ، فاللَّهُ لَم يَلِدْ ولَم يُولَدْ ، واللَّهُ وَحْدَه هو الإله المعبود بحق .

إن اللَّه يأمر أهلَ الكتاب بعدم الغُلُوِّ في الدِّين، أي عدم مُجاوزة الحد، والتطرف ، والانحراف عن الطريق المستقيم . فالغُلُوُّ طريقُ الضلال ، والابتعادُ عن جَادَّة الصواب، وله تأثيرات سلبية على الحياة والأفكار والإنسان والمجتمع .

وقد غَلا اليهودُ في السَّيد المسيح ﷺ حتى قَذَفُوا أُمَّه السيدةَ مريم _ عليها السلام _ ، فَرَمَوْهَا بالزِّنا. قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَبِكُفْرِهِم وَقَوْلِهِم عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ [النِّساء: ١٥٦] ٥٣.

أمَّا النصارى فقد غَرِقُوا في التطرف والغُلُوِّ عَكْس اتجاه اليهود ، فقد اعتبروا المسيح ﷺ إِلَهًا وابن اللَّه . وكِلا الأمْرَيْن تطرُّف وغُلُو مِن جهتَيْن متعاكستَيْن. والفضيلةُ هي المَنْزلة الوسط بين خُلُقَيْن ذميمَيْن . وصدقَ القائل :

ولا تَغْلُ في شَيْءٍ مِن الأمرِ وَاقْتَصِدْ ... كِلا طَرَفَي قَصْدِ الأمورِ ذَمِيمُ

﴿ ولا تَتَّبِعُوا أهواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ ﴾ . الأهواء جَمْع هَوى، وهو ما تَدعو إليه شَهوة النَّفْس، وسُمِّيَ هَوى لأنه يَهْوِي بصاحبه في النار.لا تتَّبعوا آباءكم وأسلافكم وشُيوخكم وأئمتكم الذين كانوا ضَالِّين قبل بَعثة النبيِّ مُحَمَّد ﷺ .

---

٥٣ لقد كَفَرَ اليهودُ بالنبيِّ عيسى ﷺ ، واتَّهموا أُمَّه مريم بالزنا ، وقد فضَّلها اللَّهُ على نساء العَالَمِين. ولَم يَكْتَفِ اليهود بالكفر بالمسيح ﷺ ، وإنكار نُبُوَّته ، وجَحْد رسالته ، بل أيضًا طعنوا في أُمِّه مريم الصِّديقة الشريفة الطاهرة ، حيث رَمَوْهَا بالزنا بدافع الهوى والحِقد والاعتداء على الشريعة ، دُون أن يُقدِّموا دليلًا على قَولهم . واليهودُ يَنظرون إلى النبيِّ عيسى ﷺ على أنه ابن زنا ، وأمه زانية . وهذا هو منهج اليهود الْمُعَادِي للحق في كل زمان ومكان ، فهُم يُصدرون أحكامًا في الهواء دون أدلة نقلية ولا براهين عقلية ، ثم يُرَوِّجونها بين الناس مُستخدمين وسائل قُوَّتهم ، وسَطْوة إعلامهم ، وأموالهم ، ونفوذهم . واليهودُ في غاية الذكاء والدهاء والمكر والخُبث ، وهُم أصحاب خِبرة واسعة في التخطيط للمؤامرات ، مِن أجل نشر باطلهم ، وتلميع صورتهم ، وتشويه صورة أعدائهم . لقد اتَّهموا السيدةَ مريم _ عليها السلام _ بالزنا ، اتِّبَاعًا لأهوائهم الذاتية ومصالحهم الشخصية ، ومنافعهم المادية ، بدون دليل نقلي ولا حُجَّة عقلية. وهذا البُهتانُ الذي ألصقوه بالسَّيدة مريم ، يُشير إلى النفسية الخبيثة لليهود الذين يعتمدون على ترويج الإشاعات الْمُغرِضة بهدف القضاء على الآخرين ، وتحطيمهم ، وتَلويث سُمعتهم ، وتَشويه صورتهم ، وتدمير المجتمع. قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٦٢) : ((قال عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس : يعني أنهم رَمَوْهَا بالزنا ، وكذلك قال السُّدي وجُوَيبر ومحمد بن إسحاق وغير واحد ، وهو ظاهر من الآية أنهم رَمَوْهَا وابنها بالعظائم، فجعلوها زانية وقد حملت بولدها من ذلك، زاد بعضهم: وهي حائض، فعليهم لعائن اللَّه الْمُتتابعة إلى يوم القيامة)) .

لا تسيروا على خُطى أئمة الكفر الماضين ورؤساء الضلالة السابقين مِن اليهود والنصارى . والخطابُ لأهل الكتاب (اليهود والنصارى) الذين كانوا في عصر النبيِّ مُحَمَّد ﷺ . نهاهم اللَّهُ عن اتِّباع أسلافهم وساداتهم وزعمائهم فيما اخترعوه مِن العقائد الكُفرية الباطلة ، وفِيما ابتدعوه بأهوائهم دُون دليل نقلي ولا بُرهان عقلي . ﴿ وأضلوا كثيرًا ﴾ ، وأضَلُّوا كثيرًا مِن الناس بأهوائهم وإغوائهم لهم ، وابتداع العقائد الباطلة التي ما أنزلَ اللَّهُ بها مِن سُلطان . ﴿ وضَلُّوا عَن سَواءِ السَّبيل ﴾ . وانحرفوا عن قَصْد السَّبيل (الإسلام) ، وخرجوا عن طريق الحق والاعتدال إلى طريق الباطل والتطرُّف .إنهم ضَالُّون في أنفسهم ، ومُضِلُّون لِغَيرهم . لقد ضَلُّوا وأَضَلُّوا مَن اتَّبعهم . وهذا مُنتهى الضلال والإضلال . وقِيل : الأول إشارة إلى ضلالهم عن مُقتضى العقل ، والثاني إشارة إلى ضلالهم عمَّا جاء بِه الشَّرْع .

وقال القرطبي في تفسيره (٦/ ٢٣٦) : ((وتكرير ﴿ ضَلُّوا ﴾ على معنى أنهم ضَلُّوا مِن قَبْل، وضَلُّوا مِن بَعْد. والمُراد الأسلاف الذي سَنُّوا الضلالةَ ، وعملوا بها ، مِن رؤساء اليهود والنصارى)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٤٠٥): ((قَوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أهلَ الكتابِ ﴾ ، قال مُقاتل : هُم نصارى نَجْران ، والمعنى : ﴿ لا تَغلُوا في دِينِكُم ﴾ فتقولوا ﴿ غَيْرَ الحقِّ ﴾ في عيسى . قَوله تعالى : ﴿ ولا تَتَّبِعُوا أهواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ ﴾ . قال أبو سُلَيمان : مِن قَبْل أن تَضِلُّوا ، وفِيهم قَولان : أحدهما أنهم رُؤساء الضلالة من اليهود . والثاني : رُؤساء اليهود والنصارى. والآية خطاب للذين كانوا في عصر نَبِيِّنا ﷺ ، نُهُوا أن يتَّبعوا أسلافهم فِيما ابتدعوه بأهوائهم)) .

إنَّ الغُلُوَّ (مُجَاوَزَة الحَد) أدَّى إلى استعمال وسائل قذرة مِثل الخداع والكذب والتَّدليس والتَّلبيس على العوام . وهذه الوسائل مِن المُحَرِّكات الرئيسية لتحريف كلام اللَّه تعالى. أي: خداع الناس بتغيير الكلام الإلهيِّ، والكذبِ على اللَّه تعالى . والأساسُ الفكري لتحريف التوراة والإنجيل مِن قِبَل اليهود والنصارى ، هو تحقيق مكاسب شخصية لِعِلْية القَوم (الحُكَّام والعلماء) ، والحصول على المال والجاه والسُّلطة ، والمُحافظة على النفوذ والمناصب والرئاسة والزعامة ، وضمان استمرار السيطرة على الشعب، واستغلاله ، وسرقته باسم اللَّه تعالى، وابتزازه باسم الدِّين .

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أَفَتَطمَعُونَ أَن يؤمِنُوا لَكُم وَقَد كَانَ فَرِيقٌ مِنهُم يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُم يَعْلَمُون ﴾ [البقرة : ٧٥] .

أفيطمعُ المؤمنون أن يُصدِّقهم اليهودُ ويُؤمنوا بالدَّعوة الإسلامية ، وقد كانت طائفة من اليهود يَسمعون الكلامَ الإلهيَّ (التوراة) ثم يُحرِّفونه عَن عَمْدٍ وإصرار ، كَوَصْفِ محمد ﷺ وآيةِ الرَّجْم ، ويُغيِّرون ما في التَّوراة مِنَ الأحكام ؟ . والمعنى : لا تَطمعوا أيها المؤمنون بإسلامهم،فلهم سابقة بالكفر. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٠٣): ((في المُخَاطَبِين بهذه الآية ثلاثة أقوال: أحدها أنَّه النبيُّ ﷺ خاصَّةً، قاله ابن عباس ومقاتل. والثاني أنَّه المؤمنون، تقديره : أفتطمعون أن يُصَدِّقوا نَبِيَّكم؟، قاله أبو العالية وقَتادة.والثالث أنهم الأنصار، فإنهم لَمَّا أسلموا أحَبُّوا إسلامَ اليهود للرَّضاعة التي كانت بَيْنَهم ، ذَكَرَه النَّقاش. قال الزَّجاج: وألِفُ ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ ﴾ ألِف استخبار، كأنَّه آيَسَهم مِنَ الطمع في إيمانهم . وفي سماعهم لكلام اللَّه قَولان : أحدهما أنَّهُم قَرَؤُوا التَّوراةَ فَحَرَّفوها، هذا قَول مُجاهد والسُّدي، فيكون سماعُهم لكلام اللَّه بِتَبليغ نَبِيِّهم، وتحريفُهم تغييرُ ما فيها . والثاني أنهم السَّبعون الذين اختارهم موسى، فَسَمِعوا كلامَ اللَّه كِفاحًا (مُوَاجَهَةً) عند الجبل، فلمَّا جاؤوا إلى قومهم ، قالوا : قال لنا كذا وكذا ، وقال في آخِر قَوْله : إن لَم تستطيعوا ترك ما أنهاكم عنه ، فافعلوا ما تستطيعون ، هذا قَول مُقاتِل . والأول أصح)) .

فَهِمَ اليهودُ الخِطابَ التَّوراتيَّ، وأدْرَكوا المُرادَ الإلهيَّ، ثُمَّ عَارَضوا النصوصَ وخَالَفوها عَن عِلْمٍ ومَعرفةٍ وسُوءِ نِيَّة ، ولَيس بسبب النِّسيان أو الخطأ. وهُم يَعلمون أنَّ كلامَ اللَّه حَق، وأنهم كاذبون، ويُدْرِكون حَجْمَ خِيانتهم التي تتجلى في تحريف النصوص ، ويُدْرِكون _ كذلك _ العُقوبةَ الإلهية التي تَنتظرهم بسبب تغيير كلام اللَّه . وهكذا ، يَكونون قد أقاموا الحُجَّةَ على أنفسهم . ولا تَحْزَنُوا أيها المؤمنون بسبب كُفرهم وتكذيبهم للحق، فَهُم أهلُ الضلال والعِناد والجُحود ، ولهم باع طويل في تحريف كلام اللَّه تعالى. وعلى الإنسان أن يَأخذ العِبرةَ ، ويَبتعد عَن طريقة أهل الزَّيْغ والضلال.

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٥) : ((هذا استفهام فيه معنى الإنكار ، كأنه أيْأَسَهم من إيمان هذه الفِرقة من اليهود ، أي إنْ كفروا فلهم سابقة في ذلك . والخِطاب لأصحاب النبيِّ ﷺ، وذلك أنَّ الأنصار كان لهم حِرْص على إسلام اليهود للحِلْف والجِوار الذي كان بَيْنَهم)) .

هؤلاء الذين كانوا يَسمعون كلامَ اللَّه ثُمَّ يُحرِّفونه ، أي : يَتأوَّلونه على غَير تأويله ، هُم بالتأكيد مِن علماء الشَّريعة الذين ضَلُّوا وأضلُّوا ، لأنَّ العلماء كانوا يحتكرون المنظومة الدينية ويتلاعبون بها كَي يُحافظوا على سُلطتهم ، ونفوذهم ، ومكاسبهم المادية ، ويُعمِّقوا وجودَهم الاحتكاري الطاغوتي على رقاب الشعب، الأمر الذي يُثبِّت مواقعَهم في السُّلطة الحاكمة ، ويَحفظ مكانتهم بين عامة الشَّعب . والشَّعب يتحمل جزءًا كبيرًا من المسؤولية لأنه استمرأ الذل والهوان والخضوع

للباطل . وإذا كان العلماءُ يَتَصَرَّفون بهذا الشكل المُخْزِي، فما بَالُكَ بالعوام والجُهَّال ؟! . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٤٧) : ((ومعنى الآية أنَّ أحبارَ هؤلاء ومُقَدَّميهم كانوا على هذه الحالة،فما ظَنُّكَ بِسَفَلَتِهم وجُهَّالهم؟،وأنهم إنْ كَفروا وحَرَّفوا فلهم سابقة في ذلك)) .

والكذبُ على اللَّهِ الخالقِ لَيس كالكذب على الإنسان المخلوق . وتحريفُ كلامِ اللَّه هو نتيجة لانكسار الرُّوح الإنسانية ، وانتكاسةِ الفرد في قاع الضلال، وتَمَرُّدِ المخلوق على الخالق . وبعضُ العلماء يلجأ إلى اختراع الأكاذيب ، وإسنادها إلى اللَّه تعالى من أجل تحقيق منافع شخصية ومكاسب ماديَّة وإشباع الغُرور ، وذلك باتِّباع الهوى بالباطل ، وتضليلِ الآخرين عبر نقلهم من الحق إلى الضلال، وتثبيت سُلطة رجال الدِّين الضالين المُتحالفين مع الزُّعماء السياسيين الفاسدين من أجل استعباد الناس وإخضاعهم عبر التلاعب بالنصوص الدينية، وتوجيهها لخدمة أغراض مادية مصلحية دنيئة .

*

ثالثًا : الاضطهاد بسبب العقيدة ظُلْم لا يجوز

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَمَن أظلمُ مِمَّن مَنَعَ مَساجدَ اللَّهِ أن يُذْكَرَ فِيها اسْمُهُ وسعى في خَرابِها أُولئكَ ما كانَ لهم أن يَدْخُلوها إلا خائفينَ لهم في الدُّنيا خِزْيٌ ولهم في الآخرةِ عذابٌ عظيم﴾ [البقرة: ١١٤] .

لا أحد أظلم وأسوأ مِمَّن مَنع الناسَ مِن الصلاة في المساجد ، ومَنَعَ ذِكْرَ اللَّه فيها والعِلمَ والتَّعَلُّمَ ، وعمل جاهدًا لهدم المساجد وتعطيلها ، والقضاء على مكانتها ، وإلغاء دورها الإيماني . وهذا عام وشامل لكل مَن خرَّب مسجدًا ، أو سعى في تدمير مكان الصلاة والعبادة . والعِبرةُ بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب . والآيةُ تدل على عَظَمَة المساجد ، وشرفها ، وفضل العبادة فيها ، وتُحذِّر من هدمها أو تخريبها أو تعطيلها .

أولئك المانعون كان الواجب عليهم أن يَدخلوا المساجدَ بِخَوف وخُشوع وخُضوع ، لا أن يَقوموا بتخريبها . أوْ : أولئك المانعون ما كان لهم أن يَدخلوا المساجدَ إلا خائفين من قوة المسلمين وبأسهم . وهذا خبر يكون بمعنى الأمر : أخيفوا أيها المؤمنون هؤلاء المانعين بالجهاد والسَّيف ، فلا يَدخلها أحدٌ آمِنًا .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٨٥) : ((ما كان ينبغي لهم أن يدخلوها إلا بِخَشية وخُشوع فضلًا عن أن يجترئوا على تخريبها ، أوْ : ما كان الحق أن يدخلوها إلا خائفين من المؤمنين أن يَبطِشوا بهم فضلًا عن أن يَمنعوهم منها ، أوْ : ما كان لهم في عِلْم اللَّه وقضائه ، فيكون وعدًا للمؤمنين بالنُّصرة ، واستخلاص المساجد مِنهم ، وقد نَجَزَ وَعْدُه . وقِيل : معناه النَّهْي عن تمكينهم مِن الدخول في المسجد. واختلف الأئمة فيه، فَجَوَّز أبو حنيفة ، ومنع مالك ، وفَرَّق الشافعي بين المسجد الحرام وغَيره)) .

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٧٤) : ((إذا استولى عليها المسلمون _ أي المساجد _ وحصلت تحت سُلطانهم فلا يتمكن الكافر حينئذ من دخولها ، فإن دخلوها فعلى خَوف من إخراج المسلمين لهم وتأديبهم على دخولها . وفي هذا دليل على أن الكافر ليس له دخول المسجد)) .

لهم في الدنيا هَوَان يتمثَّل في القتل والسَّبْي والجِزية . والقتلُ للحربي ، والجِزيةُ للذِّمي . ولهم في الآخرة عذاب عظيم في نار جهنم بسبب كفرهم وظُلمهم .

إن هؤلاء المانعين الذين يُنَاصِبون مساجدَ اللَّه العَداء ، يكون المسجدُ_ بالنسبة إليهم _ سِجْنًا يريدون أن لا يدخلوه ، وإذا دخلوه فَسَيَبْقَوْنَ خائفين غير مرتاحين نفسِيًّا ، لأنهم يفتقدون إلى الطمأنينة ولا يشعرون بهدوء الأعصاب ، ويريدون الهروب منه بأسرع وقت ممكن .

ومنعُ الصلاة والطاعة والعبادة وذِكْر اللَّه إعلانُ حرب على المساجد (بيوت اللَّه) ، وهذا يعني مُحَارَبَة اللَّه تعالى . وهذا دليلٌ واضح على حجم الانتكاسة التي وصل إليها الفرد الطامح إلى محاربة الشريعة عبر خنق المساجد وتحجيمها ومحاصرتها . فالمسجدُ ذو مركزية عظيمة في المجتمع الإسلامي ، وإذا تم إبعاده عن صناعة القرار ، فإن المجتمع سيفقد بُوصلته ، ويتحوَّل إلى كِيان مَسْخ بلا هُوِيَّة ولا وُجهة . وهذا ما يطمح إليه أعداء الشريعة في كل زمان ومكان_ مهما اختلفت أسماؤهم أو أديانهم _ . كما أن السَّعْي في خراب المساجد يرمي إلى إطفاء جَذوة الإيمان ، وجعل المجتمع بلا منارة هداية ، وتجريد الأفراد من الضوء الهادي الذي يرشدهم إلى الطريق . فالمسجدُ ليس بناءً محصورًا في رُقعة جغرافية ، إنه نظام حياة كامل تنتشر أفكارُه في صميم المجتمع الإنساني لإنقاذ الفرد والجماعة ، وإعادة بناء المصطلحات الاجتماعية وَفْق منظور إيماني راسخ ، وعلاج الأزمات التي تَعْصِف بِوِجْدان الإنسان وحياة المجتمع ، وتطهير الجماعة البشرية من أمراضها الروحية ، وانتشالها من متاهاتها ومشكلاتها المتكاثرة .

قال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ٢٠٤) : ((هذا الاستفهام _ ﴿ وَمَن أظلمُ ﴾ _ فيه أبلغ دَلالة على أن هذا الظُّلْم مُتناهٍ ، وأنَّه بِمَنْزلة لا ينبغي أن يَلحَقه سائر أنواع الظُّلْم. أي لا أحد أظلم مِمَّن مَنَعَ مساجدَ اللَّه ﴿ أن يُذكر فيها اسمه ﴾ ... والمُراد بمنع المساجد أن يُذكَر فيها اسم اللَّه ، منع مَن يأتي إليها للصلاة والتلاوة والذِّكر وتعليمه . والمراد بالسَّعْي في خرابها : هو السَّعْي في هدمها ... ويجوز أن يُراد بالخراب تعطيلها عن الطاعات التي وُضعت لها)) .

إنَّ مَنْع مساجد اللَّه أن يُذكَر فيها اسمُه هو أعظم الظُّلْم ، لأنَّه إعلان حرب على الخالق سُبحانَه ، وذلك بمحاربة دِينه وبيوته التي تُقَام فيها شعائره _ عَزَّ وَجَلَّ _ . فمن أعاقَ بناءَ المساجد ، أو منعَ ذِكر اللَّه تعالى فيها ، أو حاربَ تلاوةَ القرآن ، أو منعَ حَلَقَاتِ التعلم والتعليم ، فهو مُحارِبٌ للَّه تعالى، عَدُوٌّ لمساجده. وَمَن أحبَّ خَرابَ المساجد وتمنى زوالها، أو ابتعاد المصلين عنها، أو اختفاء العبادات منها،فهو عدو للَّه تعالى لأنه ساعٍ في خراب بيوت اللَّه بكل ما أُوتيَ مِن قوة ومال ونفوذ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير(١/١٣٤):((قَوله تعالى:﴿وَمَن أظلمُ مِمَّن مَنَعَ مَساجدَ اللَّهِ ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما أنها نزلت في الروم، كانوا ظاهروا

بُخْتُنَصَّر على خراب بيت المقدس من أجل أن بني اسرئيل قَتلوا يحيى بن زكريا ، فَخُرِّبَ وطُرِحَت الجِيَف فيه ، قاله ابن عباس في آخرين . والثاني أنها في المشركين الذين حالوا بين رسول اللَّه وبين مكة يوم الحُدَيبية ، قاله ابن زيد . وفي المراد بخرابها قَولان : أحدهما أنه نَقْضها ، والثاني مَنْع ذِكْر اللَّه فيها. قَوله تعالى : ﴿ أُولئكَ ما كانَ لهم أن يَدْخُلوها إلا خائفينَ ﴾ فِيه قَولان: أحدهما أنه إخبار عن أحوالهم بعد ذلك. قال السُّدي : لا يَدخل رُوميٌّ بيت المقدس إلا وهو خائف أن يُضرَب عُنقه، أو قد أُخِيفَ بأداء الجِزْية. والثاني أنه خبر في معنى الأمر تقديره : عليكم بالجِد في جهادهم كي لا يدخلها أحد إلا وهو خائف . ﴿ لهم في الدُّنيا خِزْيٌ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها أنَّ خِزْيهم الجِزية، قاله ابن عباس. والثاني أنه فتح القُسطنطينية ، قاله السُّدي . والثالث أنَّه طَرْدهم عن المسجد الحرام ، فلا يدخله مُشرك أبدًا ظاهرًا ، قاله ابن زيد)) .

وقال اللَّهُ تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ في أمْوَالِكُم وأنفُسِكُم وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ مِن قَبْلِكُم وَمِنَ الذينَ أشْرَكُوا أذًى كَثِيرًا وإن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُور ﴾[آل عِمران : ١٨٦].

هذا الخِطَابُ الإلهيُّ الجليل للنبيِّ ﷺ وأُمَّتِه بأنَّه سَوف يُصيبهم بلاء واختبار في أموالهم وأنفسهم بالمصائب ، والإنفاقات الواجبة ، وسائر التكاليف الشرعية المتعلقة بالأموال ، والابتلاء في الأنفُس بالمَوت والأمراض ، وفَقْد الأحباب ، والقتل في سبيل اللَّه تعالى .

كما أنَّ المؤمنين سيتعرَّضون مِن قِبَل اليهود والنصارى والمُشركين لِعُنفٍ لفظي يتضمَّن تكذيبَ اللَّه تعالى ، والطعنَ في الإسلام والنبيِّ ﷺ والمؤمنين . وهذا هو منهج الكافرين في اضطهاد المؤمنين لإيمانهم باللَّه تعالى ، وثباتهم على الحق ، وتمسُّكهم بالهُدى ، والتزامهم بالصواب . وأهلُ الكُفر يَضطهدون المؤمنين بسبب عقيدتهم ، في محاولة يائسة مِنهُم لتشكيك المؤمنين بِدِينهم ، والسَّعْي إلى ارتدادهم عن الإسلام .

إنَّ اللَّه سيمتحنكم أيها المؤمنون ويَختبركم في أموالكم بالفقر والمصائب ، وفي أنفسكم بالشدائد والأمراض. ويُمكن القَول إنَّ الاختبار في الأموال بتكليف الإنفاق وما يُصيبها مِن آفات، والاختبار في الأنفُس بالجِهَاد والقَتْل والأَسْر والجِرَاح والمخاوف والأمراض والمتاعب .

وسينالكم مِن اليهود والنصارى والمشركين (أعدائكم) الأذى الكثير ، مِن الكُفْر باللَّه ، وهِجَاءِ النبيِّ ﷺ ، والطَّعْنِ في دِين الإسلام ، وإغراء الكافرين على المُسلمين. وهذا إخبار مِن اللَّه تعالى للمؤمنين بأنَّه سيتعرَّضون لمشكلات وينالهم كوارث وأزمات ناتجة عن كراهية أعداء اللَّه للإيمان ، وحِقْدهم على المؤمنين ، ونُفُورهم مِن الحق والهُدى .

وقد أخبرهم اللَّهُ بالمصائب والكوارث والأزمات قبل وقوعها ، لِيُوَطِّنُوا أنفسَهم على الصَّبْر والتَّحَمُّل ، ويَستعدوا لِمُواجهتها بِكُل ثبات ورَبَاطة جَأش ، حتى لا يُدمِّرهم حُدُوثُها ، ولا يُرهِقهم نُزُولُها . وقد أمَرَ اللَّهُ المؤمنين بالصَّبْر عِند وُقوع ذلك ، لأنَّ الجَنَّة حُفَّتْ بالمَكَاره ، وإن تَصبروا على المَكَارِه ، وتَتَّقُوا اللَّهَ في الأقوال والأفعال ، وتلتزموا بأوامره ، وتَجتنبوا نَوَاهيه ، فَتُطيعوه ، ولا تَعْصُوه ، فإنَّ ذلك الصَّبْر والتَّقوى مِمَّا عَزَمَ اللَّهُ عَلَيه ، وأمَرَكُم بِه ، وبالغَ فيه .

والعَزْمُ في الأصل : ثبات الرأي على الشَّيء نَحْو إمضائه .

وقال القرطبي في تفسيره (٤/ ٢٩٥) : ((هـذا الخِطَاب للنبيِّ ﷺ وأُمَّتِه . والمعنى : لَتُخْتَبَرُنَّ وَلَتُمْتَحَنُنَّ في أموالكم بالمصائب والأرزاء بالإنفاق في سبيل اللَّه وسائر تكاليف الشَّرْع. والابتلاء في الأنفُس بالمَوت والأمراض وفقد الأحباب . وبدأ بِذِكْر الأموال لكثرة المصائب بها . ... . ونزلت بسبب أنَّ أبا بكر ــ رضي اللَّهُ عنه ــ سمع يهوديًّا يقول : إنَّ اللَّه فقير ونحن أغنياء، رَدًّا على القُرآن واستخفافًا به حين أنزل اللَّهُ : ﴿ مَن ذَا الذي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [البقرة : ٢٤٥] ، فلطمه ، فشكاه إلى النبيِّ ﷺ ، فنزلت . قِيل : إنَّ قائلها فِنحاص اليهودي، عن عِكرمة. الزُّهري : هو كَعْب بن الأشرف ، نزلت بسببه ، وكان شاعرًا ، وكان يَهْجُو النبيَّ ﷺ وأصحابَه ، ويُؤَلِّب عليه كُفَّار قُرَيش ، ويُشبِّب بنساء المسلمين ، حتى بَعَثَ إليه رسولُ اللَّه ﷺ مُحَمَّد ابن مَسلمة وأصحابَه ، فقتله القِتلة المشهورة في السِّيَر وصحيح الخَبَر . وقِيل غَير هذا . وكان ﷺ لمَّا قَدِمَ المدينةَ كان بها اليهود والمشركون ، فكان هو وأصحابه يَسمعون أذًى كثيرًا . وفي الصحيحين: [أنَّه عليه السلام مَرَّ بابن أُبَي ، وهو عليه السلام على حِمَار ، فدعاه إلى اللَّه تعالى، فقال ابنُ أُبَي : إنْ كان ما تقول حَقًّا فلا تُؤْذِنا به في مجالسنا ! ، ارْجِعْ إلى رَحْلِك ، فَمَن جاءك فاقْصُصْ عليه ، وقبض على أنفه لئلا يُصيبه غُبار الحِمار ، فقال ابنُ رَوَاحة : نعم يا رسول اللَّه ، فَاغْشَنَا في مجالسنا ، فإنَّا نُحِب ذلك ، واسْتَبَّ المشركون الذين كانوا حَول ابن أُبَي والمسلمون ، وما زال النبيُّ ﷺ يُسكِّنهم حتى سَكَنُوا ، ثُمَّ دخل على سَعْد بن عُبادة يَعُوده وهو مريض ، فقال : " ألَم تَسْمَعْ ما قال فُلان ؟ " ، فقال سعد : اعْفُ عَنه واصْفَحْ ، فوالذي أنزلَ عليك الكِتابَ ، لقد جاءك اللَّهُ بالحق الذي نَزل ، وقد اصطلحَ أهل هذه البُحَيرة على أن يُتَوِّجُوه ويُعَصِّبُوه بالعِصَابة ــ يعني : يُسَوِّدُوه ويُمَلِّكُوه ــ ، فلمَّا رَدَّ اللَّهُ ذلك بالحق الذي أعْطَاكَهُ شَرِقَ به ، فذلك فَعَلَ به ما رَأَيْتَ . فَعَفَا عنه رسولُ اللَّه ﷺ ، ونزلت هذه الآية] . قِيل: هذا كان قبل نُزول القِتال. وَنَدَبَ اللَّهُ عِبادَه إلى الصَّبْر والتَّقوى ، وأخبرَ أنَّه مِن عَزْم الأُمُور ، وكذا في البُخاري في سِياق الحديث أنَّ

ذلك كان قَبل نُزول القِتال ، والأظهر أنَّه لَيس بمنسوخ ، فإنَّ الجِدَال بالأحسن والمُدَارَاة أبدًا مَندوب إليها، وكان عليه السلام مع الأمر بالقِتال يُوَادِع اليهودَ ، ويُداريهم، ويَصْفَح عن المنافقين، وهذا بَيِّن . ومعنى ﴿ عَزْمِ الأُمُور ﴾ شَدّها وصَلابتها)) .

وفي الدُّر المنثور للسُّيوطي (٢/ ٣٩٦) : ((عن ابن عباس قال : دخل أبو بَكْر بَيْتَ المِدْرَاس ، فوجد يهود قد اجتمعوا إلى رَجُل مِنهُم يُقَال له فِنحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم . فقال أبو بكر : وَيْلَكَ يا فِنحاص ! اتَّقِ اللَّهَ وأَسْلِمْ ، فواللَّهِ إنَّكَ لَتَعْلَم أنَّ مُحَمَّدًا رسول اللَّه ، تَجدونه مكتوبًا عِندكم في التَّوراة ، فقال فِنحاص : واللَّهِ يا أبا بَكْر ما بنا إلى اللَّه مِن فَقْر ، وإنَّه إلَينا لَفَقِير ، وما نتضرَّع إليه كما يتضرَّع إلَينا ، وإنَّا عنه لَأغنياء، وَلَوْ كان غَنِيًّا عَنَّا ما استقرضَ مِنَّا كما يَزعُم صاحبُكم ، يَنهاكم عن الرِّبا ويُعطينا ، وَلَوْ كان غَنِيًّا عَنَّا ما أعطانا الرِّبا . فغضب أبو بَكْر فَضَرَبَ وَجْهَ فِنحاص ضَرْبَةً شديدةً ، وقال : والذي نَفْسِي بيده لَوْلا العهد الذي بَيننا وبَينكَ لَضَرَبْتُ عُنُقَكَ يا عَدُوَّ اللَّه ، فذهب فِنحاص إلى رسول اللَّه ﷺ ، فقال: يا مُحَمَّد ، انظُرْ ما صَنَعَ صاحبك بي، فقال رسول اللَّه ﷺ لأبي بَكْر: " مَا حَمَلَكَ عَلى ما صَنَعْتَ ؟ "، قال: يا رسول اللَّه ، قال قَوْلًا عظيمًا : يَزعُم أنَّ اللَّه فقير،وأنَّهم عنه أغنياء، فلمَّا قال ذلك غَضِبْتُ للَّه مِمَّا قال ، فَضَرَبْتُ وَجْهَه ، فَجَحَدَ فِنحاص ، فقال : ما قُلْتُ ذلك. فأنزلَ اللَّهُ فِيما قال فِنحاص تصديقًا لأبي بَكْر : ﴿ لقد سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الذينَ قَالُوا إنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ ﴾ الآية،[آل عمران : ١٨١] . ونَزَلَ في أبي بَكْر وما بَلَغَه في ذلك من الغضب : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ مِن قَبْلِكُم وَمِنَ الذينَ أشْرَكُوا أذًى كَثِيرًا ﴾)) [٥٤].

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (١/ ٥١٨ و٥١٩ و٥٢٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ في أمْوَالِكُم وأنفُسِكُم ﴾ ، في سبب نزولها خمسة أقوال : أحدها أنَّ النبيَّ ﷺ مَرَّ بمجلس فيه عبد اللَّه بن أُبَي وعبد اللَّه بن رَوَاحة ، فَغَشِيَ المجلسَ عَجَاجَةُ الدَّابَّة ، فَخَمَّرَ ابنُ أُبَي أنْفَه بردائه، وقال : لا تُغَبِّرُوا عَلَينا ، فنزل رسولُ اللَّه ﷺ ثُمَّ دَعَاهم إلى اللَّه ، وقرأ عليهم القُرآنَ ، فقال ابنُ أُبَي إنَّه لا أحسن مِمَّا تقول ، إنْ كان حَقًّا فلا تُؤْذِنَا في مجالسنا ، وقال ابن رَوَاحة : اغْشَنَا به في مجالسنا يا رسول اللَّه ، فإنَّا نُحِب ذلك ، فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود ، فنزلت هذه

٥٤ قال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٣١) : ((وروى ابن أبي حاتم وابن الْمُنذِر بإسناد حَسَن عن ابن عباس أنها نَزلت فِيما كان بَين أبي بَكْر وبَين فِنحاص اليهودي)) .

الآية ، رواه عُروة عن أسامة بن زيد . والثاني أنَّ المشركين واليهود كانوا يُؤْذُون النبيَّ ﷺ وأصحابَه أشدَّ الأذى ، فنزلت هذه الآية ، قاله كَعْب بن مالك الأنصاري . والثالث أنَّها نزلت فيما جرى بَين أبي بَكْر الصِّديق وبَين فِنحاص اليهودي ، وقد سَبَقَ ذِكْرُه عن ابن عباس . والرابع أنَّها نزلت في النبيِّ ﷺ وأبي بَكْر الصِّديق ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، واختاره مُقاتل . وقال عِكرمة : نزلت في النبيِّ ﷺ وأبي بَكْر الصِّديق وفِنحاص اليهودي . والخامس أنَّها نزلت في كَعْب بن الأشرف ، كان يُحرِّض المشركين على رسول اللَّه ﷺ وأصحابه في شِعْره ، وهذا مذهب الزُّهري. قال الزَّجاج: ومعنى ﴿ لَتُبْلَوُنَّ ﴾ لِتُخْتَبَرُنَّ ، أي : تُوقَع عليكم المِحَن ، فَيَعْلَم المؤمن حَقًّا مِن غَيره . والنُّون دَخَلَتْ مُؤَكِّدة مع لام القَسَم، وضُمَّت الواو لِسُكونها ، وسُكون النُّون . وفي البلوى في الأموال قَولان : أحدهما ذهابها ونُقْصانها ، والثاني ما فُرِضَ فيها مِن الحقوق . وفي البَلْوَى في الأنفُس أربعة أقوال : أحدها المصائب والقتل ، والثاني ما فُرِضَ مِن العبادات . والثالث الأمراض ، والرابع المُصيبة بالأقارب والعشائر . وقال عطاء : هُم المهاجرون ، أخذَ المشركون أموالَهم ، وباعوا رِبَاعهم ، وعَذَّبوهم . قَوله تعالى : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ ﴾ ، قال ابن عباس : هُم اليهود والنصارى، والذين أشركوا : مُشركو العرب ، ﴿ وإن تَصْبِرُوا ﴾ على الأذى ، ﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ اللَّهَ بِمُجانبة مَعَاصيه. قَوله تعالى: ﴿ فَإنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُور ﴾، أي ما يَعْزِم عليه لِظُهور رُشده. فَصْل. والجُمهور على إحكام هذه الآية ، وقد ذهب قَوم إلى أنَّ الصَّبْر المذكور مَنسوخ بآية السَّيف)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ولأُدْخِلَنَّهُم جَنَّاتٍ تَجري مِن تَحْتِها الأنهارُ ثوابًا مِن عِندِ اللَّهِ واللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثواب ﴾ [آل عِمران : ١٩٥] .

فالذين هَجَروا أوطانَهم ، وهاجروا من مكة إلى المدينة ، فَارِّينَ إلى اللَّه بِدِينهم ، وتركوا دارَ الشِّرك ، وأتَوْا إلى دار الإيمان، وفَارَقوا أحبابَهم وإخوانَهم، وأجبرَهم المشركون على ترك ديارهم التي وُلِدوا فيها ونَشَؤُوا فيها، وذلك بالتضييق عَلَيهم، وتَحَمَّلوا الأذى والصِّعاب من أجل التَّوحيد، وقَاتَلوا أعداءَ اللَّه ، وقُتلوا في سبيل اللَّه ، من أجل إعلاء كلمة التَّوحيد . فالنتيجةُ الحتمية لهذه التضحيات العظيمة هي تَكفير ذنوبهم .

إنَّ اللَّه سَيَمحو ذُنوبَهم برحمته ومَغفرته، ويُدخِلهم جَنَّاتِ النعيم التي تجري في خِلالها الأنهار مِن لَبن وعسل وخَمْر وماء غَير آسِن ، جَزاءً مِن عِند اللَّه على أعمالهم الصالحة . وإضافةُ الثواب إلى اللَّه يَدل على عَظَمَة الثواب، فالعظيمُ الكريمُ لا يُعْطِي إلا عظيمًا .

وأيضًا ، هذا الأجرُ العظيمُ لا يَقْدِر على إعطائه إلا اللَّه ، وَحْدَهُ لا شريك له . واللَّهُ عِندَه حُسْن الجَزَاء لِمَن عَمِلَ صالِحًا (الجَنَّة) ، التي فِيها ما لا عَيْن رأت ، ولا أُذُن سَمِعَتْ ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٣٤) : ((﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا ﴾ إلخ ، وتفصيل لأعمال العُمَّال ، وما أعَدَّ لهم من الثواب على سبيل المدح والتعظيم ، والمعنى : فالذين هَاجَروا الشِّرْكَ أو الأوطانَ والعشائرَ للدِّين ﴿ وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي ﴾ بسبب إيمانهم باللَّه ومِن أجْلِه ﴿ وَقَاتَلُوا ﴾ الكفارَ ﴿ وَقُتِلُوا ﴾ في الجهاد ، وقرأ حمزة والكِسائي بالعَكْس ، لأن الواو لا تُوجِب ترتيبًا ، أوْ لأنَّ المُراد لَمَّا قُتِلَ مِنهُم قَوم ، قَاتَلَ الباقون ولَم يَضْعُفُوا ، وشَدَّدَ ابن كثير وابن عامر " وقُتِّلُوا " للتكثير . ﴿ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ لأَمْحُوَنَّهَا ﴿ ولأُدْخِلَنَّهُم جَنَّاتٍ تَجري مِن تَحْتِها الأنهارُ ثوابًا مِن عِندِ اللَّهِ ﴾ . أي : أُثِيبُهُم بذلك إثابةً مِن عِند اللَّه تَفَضُّلًا مِنه ، فهو مَصْدَر مُؤَكِّد . ﴿ واللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثواب ﴾ على الطاعات ، قادر عَلَيه)) .

وعن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص ــ رضي اللَّهُ عنه ــ قال : سَمِعْتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقول : ((إنَّ أوَّلَ ثُلَّةٍ تَدخُل الجَنَّةَ الفُقراءُ المهاجرون، الذين تُتَّقَى بِهم المَكَارِه، إذا أُمِرُوا سَمِعُوا وأطاعوا، وإن كانت لِرَجُل مِنهُم حاجة إلى السُّلطان ، لَم تُقْضَ له حتى يَموت وَهِيَ في صَدْره ، وإنَّ اللَّهَ تعالى يَدعُو يوم القيامة الجَنَّةَ ، فتأتي بِزُخْرُفِها وَرِيِّها فَيَقول: أيْنَ عِباديَ الذين قَاتَلوا في سبيل اللَّه، وقُتلوا في سَبيلي ، وأُوذُوا في سبيلي ، وجاهدوا في سبيلي ؟ ، ادخلوا الجَنَّةَ . فيدخلونها بِغَير حساب ولا عذاب ، فتأتي الملائكة فيقولون : رَبَّنا نحن نُسبِّح لك الليلَ والنهار ، ونُقدِّس لَك ، مَن هؤلاء الذين آثَرْتَهُم عَلَينا ؟ ، فيقول الرَّبُّ ــ تباركَ وتعالى ــ : هؤلاء الذين قَاتَلوا في سبيلي ، وأُوذُوا في سبيلي ، فتدخل عليهم الملائكة مِن كُل باب ، سلام عليكم بما صَبَرْتُم ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدار)) [55] .

إنَّ أوَّل جماعة من الناس (ثُلَّة) يَدخلون الجَنَّة ، هُم الفقراء المهاجرون (الذين هاجروا مِن مَكَّة إلى المدينة) ، بسبب تضحياتهم العظيمة من أجل رفع كلمة التَّوحيد الخالدة ، فهؤلاء أوَّل مَن يَدخل الجَنَّةَ مُكافأةً لهم على إنجازاتهم الجليلة، وتَحَمُّلهم للعذاب والصِّعاب، وتضحيتهم بالغالي والنفيس في سبيل اللَّه تعالى .

٥٥ رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٨١) برقم (٢٣٩٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وهذا يدلُّ على المنزلة الرفيعة للمُهاجرين ، حيث إنَّ لهم فضلًا عظيمًا عِند اللَّه ، وأهميةً كبيرةً عِند النبيِّ ﷺ . وقد بشَّرهم النبيُّ ﷺ بالأجر والثواب ، وأعْلَمَهُم بما لهم مِن مكانة جليلة عِند اللَّه تعالى ، والمُجَازَاة لهم بالسَّبْق إلى دُخول الجَنَّة .

وهؤلاء المؤمنون الصادقون (الفقراء المهاجرون) دائمًا في الصفوف الأمامية (المُقدِّمة) ، يَدفعون ويُدافِعون عن الإسلام . إنهم الجنود في الخطوط الأمامية ، الذين يَحمون الآخرين ، ويُحْتَمَى بهم في الشدائد والمصائب . وهذا معنى " تُتَّقَى بِهم المَكَاره ".

والواحدُ مِن هؤلاء إذا أُمِرَ أن يَخرج للجهاد ، أو أن يُسافِر مِن مكانٍ إلى آخَر ، سَمِعَ وأطاعَ بلا نِقاش ، وَخَضَعَ للأمر ، وإذا قِيل له : اسْكُتْ ، سَكَتَ . فهو فقير ليس من القادة العسكريين ولا أصحاب الرَّأي ، ولا مِن كِبار القَوم الذين يُصْدِرُون الأوامرَ . إنَّه مِن صِغار القَوم ، يَتلقَّى الأوامرَ ، ويَخضع لها ، سواءٌ في حياة النبيِّ ﷺ أو بعد ذلك .

وهذا الفقيرُ تَكون له حاجة إلى الأمير أو الحاكم ، ولكن بسبب فَقْره أو مكانته الاجتماعية المُتَدَنِّيَة، لا يُعْبَأ بِه، ولا يُلْتَفَت إلَيه، ولا تُقضَى حاجته، فيموت وحاجته في صَدْره، لأنه لَم يستطع الحصولَ عَلَيها .

وتأتي المكافأةُ العظيمةُ لهؤلاء يَوم القِيامة ، فيدعو اللَّهُ الجَنَّةَ ، فتأتي بِزِينتها الخالدة ، وجَمالها الأخَّاذ ، ورِيِّها (حالها الحَسَنَة) ، ويُدخِلهم اللَّهُ الجَنَّةَ بلا حساب ولا عذاب ، وقد قَدَّمَهم اللَّهُ على الملائكة . وسؤال الملائكةُ للاستفهام ، وليس الكِبْر ، فالملائكةُ مَعصومون عَن الصِّفَات السَّيئة .

وتَدخُل الملائكةُ عليهم لتهنئتهم بالثواب العظيم ، فَيُسَلِّمُون عليهم بما صَبروا على الفَقْر في الدُّنيا ، وقِيل : على الجهاد ، وقِيل : على مُلازمة الطاعة ومُفارَقة المعصية ، وقِيل : على تَركهم الشَّهَوَات .

وإذا أفقرَ اللَّهُ العبدَ ، فلا يَيْأس ، ولا يَحزَن ، ولا يَحسُد غَيْرَه مِمَّن آتاه اللَّهُ مالًا . والمالُ نِعمة عظيمة مِن اللَّه تعالى ، فإذا تَقَوَّى به العبدُ على طاعة اللَّه وعَمَلِ الخَير ، كان نِعمةً ، وإذا تَقَوَّى به على معاصي اللَّه تعالى ، كان نِقمةً .

وفي الحديث مَنقبةٌ عظيمة لفقراء المُهاجرين الأوَّلين .

وعن عبد اللَّه بن عمرو _ رضي اللَّهُ عنه _ قال : قال لي رسولُ اللَّه ﷺ : ((أَتَعْلَمُ أوَّلَ زُمْرَةٍ تَدخُل الجَنَّةَ مِن أُمَّتي ؟)) ، قال : اللَّهُ ورسولُه أعْلَم . فقال : ((المُهاجرون ، يَأتون يوم القيامة

إلى باب الجَنَّة ، ويَسْتَفْتِحُون ، فَيَقول لَهُم الخَزَنَةُ : أوَ قَدْ حُوسِبْتُم ؟ ، فيقولون : بأيِّ شيء نُحاسَب، وإنما كانت أسيافُنا على عواتقنا في سبيل اللَّه حتى مِتْنَا على ذلك ؟)). قال: ((فَيُفتَح لهم فَيَقِيلُون فيها أربعين عَامًا قبل أن يَدخُلها الناس)) [٥٦].

إنَّ المهاجرين هُم أوَّل طائفة وجماعة تَدخُل الجَنَّةَ مِن الأُمَّة المُحمَّدية الإسلامية . يأتون يَوم القِيامة إلى باب الجَنَّة، ويَطْلُبون فَتْحَ الباب لهم كَي يَدخُلوا، فيقول لهم حُرَّاسُ الجَنَّة (الملائكة): " أوَ قَدْ حُوسِبْتُم ؟ " . والمعنى : هل حَاسَبَكم اللَّهُ ، وانتهى الحسابُ ، وحَكَمَ بأنكم مِن أهل الجَنَّة ؟ . فَيَتَعَجَّبون مِن هذا الكلام ، ويتساءلون عن أيِّ شَيء يُحاسَبون ، وقد كانت أسيافُهم على عواتقهم في سبيل اللَّه . والعَاتِقُ ما بَين المَنْكِب والعُنُق ، أي : نُجاهد في سبيل اللَّه ، ومُستعدون للقتال في كُل لحظة حتى نكاد لا نضع سُيوفَنا ولا نَتركها ، حتَّى مِتْنَا على الشَّهَادة في سبيل اللَّه ، أوْ قائمين على الجِهَاد حتى المَوت . فيُفتَح لهم ، فَيَدخُلون الجَنَّةَ ، فَيَقِيلُون فيها أربعين عامًا قبل أن يَدخُلها الناس ، وهذا من فضل اللَّه عليهم ، ورحمته بهم ، وإحسانه إلَيهم .

والقَيْلُولَة : الاستراحة نِصف النهار ، وإنْ لَم يَكُن معها نَوم .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ تَوَفَّاهُمُ الملائكةُ ظَالِمي أنفُسِهِم قالوا فِيمَ كُنتُم قالوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ في الأرضِ قالوا ألَمْ تَكُنْ أرضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيها فَأُولئكَ مَأوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النِّساء : ٩٧] .

إنَّ الذينَ تَقْبِض أرواحَهم المَلائكةُ عِندَ وفاتهم بالقتل أو غَيْره (مَلَكُ المَوْتِ وأعوانُه أوْ مَلَكُ المَوت وَحْدَه ، والعرب قد تُخاطِب الواحد بلفظ الجمع) حَالَ كَوْنِهم ظالمي أنفسهم ومُستحقين لغضب اللَّه، بالإقامة مع المشركين في دار الكُفر (مَكَّة) وترك الهِجرة إلى دار الإيمان (المدينة). تقول لهم الملائكة : في أيِّ شَيء كُنتُم مِن دِينكم ؟ ، أوْ : لِمَ بَقِيتُم في دار الكُفر وتركتُم الهِجرةَ إلى دار الإيمان ؟. وهو سؤال تَوبيخ وتَقريع. وقال القرطبي في تفسيره (٥/ ٣٢٨) : ((أي : أكُنتُم في أصحاب النبيِّ ﷺ أم كُنتُم مُشركين ؟)) .

قالوا مُعتذِرين بالضَّعْف عن مُقاوَمة أهل الشِّرْك : كُنَّا ضُعفاء وفقراء ومَقهورين ، لا نَقْدِر على إقامة شعائر الدِّين في مكة (دار الكُفر) ، ولا نستطيع الخروج مِنها . وهذا العُذْرُ باطلٌ وغَير مَقبول ، فقد كانوا قادرين على الهِجرة ، وقد كَذَّبَهم اللَّهُ ، وكَشَفَ لنا كَذِبَهم .

---

٥٦ رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٨٠) برقم (٢٣٨٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال القرطبي في تفسيره (٥/ ٣٢٨) : ((اعتذار غير صحيح ، إِذْ كانوا يستطيعون الحِيَل ، ويَهتدون السَّبيل)) .

ثُمَّ أَوْقَفَتْهُم الملائكةُ ، وأَلْزَمَتْهُم الحُجَّةَ ، وقَطَعَتْ عُذرَهم الواهي ، وقالت لهم تَوبيخًا : أَلَيْسَتْ أرضُ اللَّهِ واسعةً فَتُهاجِرون من دار الكُفر إلى دارٍ تستطيعون فِيها إقامةَ الدِّين وعبادةَ اللَّه دُون مُضايَقات ؟.(كما هاجرَ المؤمنون إلى المَدينة وإلى الحَبَشَة). وقِيل: المقصود بهذه الأرض المدينة. والعِبرةُ بِعُموم اللفظ لا بِخُصوص السبب . فالمقصودُ بالأرض كُل مكان يَصْلُح للهجرة وإقامة شعائر الدِّين دُون تَضييق ولا حَرَج . وقَوْلُ الملائكة لهم يدل على أنهم كانوا يستطيعون الهجرة .

وقال القرطبي في تفسيره (٥/ ٣٢٨) : ((﴿ أَلَمْ تَكُنْ أرضُ اللَّهِ وَاسِعَةً ﴾ ويُفيد هذا السؤال والجواب أنهم ماتوا مُسلمين ظالمين لأنفسهم في تَرْكهم الهجرة ، وإلا فَلَوْ ماتوا كافرين لَم يُقَلْ لهم شَيء من هذا. وإنما أَضْرَبَ عَن ذِكْرهم في الصحابة لِشِدَّة ما وَاقَعوه، ولعدم تَعَيُّن أحدهم بالإيمان، واحتمال رِدَّتِه ، واللَّه أَعْلَم)) .

﴿ فَأُولئكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ . وَضَّحَ اللَّهُ جَزاءَهم ونتيجة أعمالهم ، وهو استقرارهم في نار جهنم ، وساءت مكانًا يَصيرون إلَيه. وذلك لتركهم واجب الهِجرة ، ومُساعدتهم للكفار . والآيةُ تدل على وجوب الهِجرة من المكان الذي لا يُمكِن إقامة شعائر الدِّين فِيه .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٤٢) : ((وفي الآية دليل على وُجوب الهِجرة مِن مَوْضِع لا يتمكن الرَّجل فيه مِن إقامة دِينه)) .

أمَّا سببُ نزول الآية ، فقد قال ابن الجَوزي في زاد المسير (٢/ ١٧٦و١٧٧) : ((في سبب نزولها ثلاثة أقوال : أحدها أنَّ أُناسًا كانوا بمكة قد أَقَرُّوا بالإسلام ، فلمَّا خَرج النبيُّ ﷺ إلى بَدْر ، لَم تَدَعْ قُرَيشٌ أحَدًا إلا أَخرجوه مَعهم ، فَقُتِلَ أولئك الذين أَقَرُّوا بالإسلام ، فَنَزلت فيهم هذه الآية ، رواه عِكرمة عن ابن عباس . وقال قَتادة : نزلت في أُناس تكلَّموا بالإسلام ، فخرجوا مع أبي جَهْل ، فَقُتِلوا يَوْم بَدْر ، واعْتَذَروا بِغَير عُذر ، فأبى اللَّهُ أن يَقبل منهم . والثاني أنَّ قَوْمًا نَافَقوا يَوْم بَدْر ، وارْتَابوا ، وقالوا : غَرَّ هؤلاء دِينُهم ، وأقاموا مع المشركين حتى قُتلوا ، فَنَزلت فيهم هذه الآية،رواه أبو صالح عن ابن عباس.والثالث أنها نزلت في قوم تَخَلَّفوا عن رسول اللَّهﷺ، ولَم يَخرجوا معه ، فَمَن مات مِنهم قَبل أن يَلْحَق بالنبيِّ ، ضَربت الملائكةُ وَجْهَه ودُبُرَه ، رواه العَوفي عن ابن عباس)) .

وفي صحيح البخاري (٦/ ٢٥٩٦) عن ابن عباس _ رضي اللَّهُ عنهما _ أنَّ أُناسًا مِن المسلمين كانوا مَعَ المشركين ، يُكَثِّرُونَ سَوَادَ المشركين على رسول اللَّه ﷺ ، فَيَأتي السَّهْمُ ، فَيُرْمَى ، فَيُصِيب أحَدَهم فيقتله، أو يَضرِبه فيقتله، فأنزلَ اللَّهُ تعالى: ﴿ إنَّ الذينَ تَوَفَّاهُمُ الملائكةُ ظَالِمي أنفُسِهِم ﴾ .

إنَّ هؤلاء مجموعة من المسلمين كانوا في دار الكُفر ، يَعيشون مَعَ المشركين ويُخالطونهم . ومَعَ أنهم لا يُوافقونهم في قلوبهم ، إلا أنهم كانوا ظالمين ، لأنهم أفادوا المشركين بالقُوَّة ، وكَثَّرُوا عَدَدَهم بوجودهم معهم . والسَّوَادُ هو العدد الكثير ، وسَوَاد الناس أكثرُهم ومُعظَمهم .

لقد فَعلوا المُحرَّم مع قُدرتهم على تَرْكه ، فاستحقوا العذابَ . وَلَوْ كانوا غَير قادرين على تَرْكه، بعد اتِّخاذ جميع الإجراءات المُمكنة ، فلا شَيء عَلَيهم .

والجديرُ بالذِّكر أنَّ إقامة شعائر الدِّين واجبة ، ولا يُمكِن أن تتم إلا بالهجرة . وما لا يتم الواجب إلا بِه فهو واجب .

وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٣٨): ((قال الخَطَّابي وغَيْرُه : كانت الهِجرة فَرْضًا في أول الإسلام على مَن أسلمَ ، لِقِلَّة المسلمين بالمدينة ، وحاجتهم إلى الاجتماع ، فلمَّا فَتَحَ اللَّهُ مَكَّةَ ، دَخل الناس في دِين اللَّه أفواجًا ، فَسَقط فَرْضُ الهِجرة إلى المدينة ، وبَقِيَ فَرْضُ الجهاد والنِّية على مَن قَام بِه أوْ نزل به عدو . انتهى . وكانت الحِكمة أيضًا في وُجوب الهِجرة على مَن أسلمَ لِيَسْلَمَ مِن أذى ذَويه من الكفار ، فإنهم كانوا يُعذِّبون مَن أسلمَ منهم إلى أن يَرجع عن دِينه ، وفِيهم نزلت : ﴿ إنَّ الذينَ تَوَفَّاهُمُ الملائكةُ ظَالِمي أنفُسِهم قالوا فِيمَ كُنتُم قالوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ في الأرضِ قالوا ألَمْ تَكُنْ أرضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيها ﴾ الآية . وهذه الهِجرة باقية الحُكْم في حق مَن أسْلَمَ في دار الكُفر ، وقَدَرَ على الخُروج مِنها)) .

((وعن ابن عباس _ رضي اللَّهُ عنهما _ قال : كان ناس من أهل مكة قد أسلَموا ، وكانوا مُسْتَخْفِين بالإسلام ، فلمَّا خَرج المشركون إلى بَدْر أَخْرَجُوهُم مُكْرَهِين ، فَأُصِيبَ بَعْضُهم يَوْمَ بَدْر مَعَ المشركين ، فقال المسلمون : أصحابُنا هؤلاء مُسلِمون ، أَخْرَجُوهُم مُكْرَهِين، فاسْتَغفِرُوا لهم . فَنَزلت هذه الآية : ﴿ إنَّ الذينَ تَوَفَّاهُمُ الملائكةُ ظَالِمي أنفُسِهم ﴾ _ الآية _)) [٥٧].

---

٥٧ مجمع الزوائد (٧/ ٦٨) . وقال الهيثمي : ((رواه البَزَّار ، ورجاله رجال الصحيح ، غير محمد ابن شَريك ، وهو ثقة)) .

كان قَوم مِن أهل مَكَّة قد أسْلَمُوا ، وكانوا يُخْفُون الإسلامَ ، ولا يُظهِرونه في مَكَّة ، خَوْفًا على أنفسهم وأهْلِيهم وأموالهم مِن المُشركين . وكان ظُلْمُهم لأنفسهم أنَّهُم ظَلُّوا في مَكَّة ، ولَم يُهاجروا إلى المدينة ، معَ قُدرتهم على ذلك ، بعد أن أَمَرَ النبيُّ ﷺ جميعَ المُسلمين بالهِجرة ، فَحَمَّلُوا أنفسَهم ما لا يُطيقون مِن الشِّدَّة معَ إخفاء إسلامهم ، فلا هُم بين المُسلمين معَ النبيِّ ﷺ يُعلِّمهم ويُوجِّههم ، ولا هُم يَستطيعون إظهارَ إسلامهم بين الكُفَّار ، بَلْ كان حالُهم أن يُمَالِئُوا الكُفَّارَ على المسلمين ، ويَخرُجوا معهم لا لِيُقَاتِلُوا المسلمين ، إلا إنهم بذلك يُكثِّرون سَوَادَ المُشركين ، ويُظهِرون عِظَمَ جَيشهم ، وكثرةَ عددهم في أعيُن المسلمين .

ولمَّا خَرَجَ النبيُّ ﷺ إلى بَدْر الكُبرى (٢ هـ) لقتال قُرَيش ، وخَرَجَ المُشركون من أهل مَكَّة لقتال النبيِّ ﷺ ومَن معه ، أجْبَرُوا ناسًا مِمَّن كانوا مُسلمين سِرًّا ، فأخذوهم معهم لقتال النبيِّ ﷺ ، فَقُتِلُوا وهُم في صُفوف المُشركين يَوم بَدْر ، فقال المُسلمون مِمَّن كانوا معَ النبيِّ ﷺ ، ويَعْلَمُون أحوالَ هؤلاء الذين أُجْبِرُوا على قتال المسلمين ، ثُمَّ ماتوا على ذلك : " أصحابُنا هؤلاء مُسلِمون ، أَخْرَجُوهُم مُكْرَهِين، فاسْتَغفِرُوا لهم " ، لِيَغفر اللَّهُ لهم ذُنُوبَهم ، وخُرُوجَهم معَ المشركين ، يتأسَّفون على حالهم ، ويَسألون اللَّهَ لهم المغفرةَ ، فنزلت : ﴿ إنَّ الذينَ تَوَفَّاهُمُ الملائكةُ ظَالِمي أنفُسِهِم ﴾ ــ الآية ــ .

إنَّ هؤلاء استحقوا العذابَ ، لأنهم تركوا الهِجرة مَعَ قُدرتهم عَلَيها . وتَرْكُهم للهجرة جعلهم غَير قادرين على إقامة شعائر الدِّين . وبالتالي سَقطوا في الإثم ، واستحقوا العذابَ . وكانت الهِجرةُ واجبةً عَلَيهم، فهي تَمنحهم فُرصة جديدة للعَيش بهدوء وسلام وطُمأنينة ، دُون خَوْف ، ولا تَضييق. وبالتالي، يَعبدون اللَّهَ بقلوب مُخلِصة ومُطمئنة، ويُقيمون شعائر الدِّين على أكمل وجه.

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إلا المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ والوِلْدانِ لا يَستطيعونَ حِيلةً ولا يَهْتدُونَ سَبيلًا ﴾[النِّساء : ٩٨] .

الاستثناء مُنقطِع . لقد استثنى اللَّهُ الضعفاءَ والعاجزين عن الهِجرة من العقوبة والعذاب . وقد قَبِلَ اللَّهُ عُذرَهم في ترك الهِجرة . فَهُم لا يَقْدِرُون على الإفلات من أيدي المشركين ، ولا يَملِكون مالاً ولا قُوَّةً ، ولا يَجِدُون حِيلةً للخروج من مَكَّة ، ولا يَعْرِفون طريق الهِجرة إلى المدينة، فقد يَضيعون في الصحراء الشاسعة ، ويَموتون بين كُثبان الرمال .

وذِكْرُ الوِلْدان مَعَ أنهم غَير مُكلَّفين ، للإشعار بضرورة الهجرة وأهميتها . وكأن المعنى : إنَّ الهجرة واجبة على الوِلْدان في حال الاستطاعة مَعَ أنهم غَير مُكلَّفين ، فكيفَ بِمَن كان مُكَلَّفًا ؟ .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٤٣): ((وذِكْر الولد إنْ أُريدَ به المماليك فظاهر، وإنْ أُريدَ به الصِّبيان فللمُبَالَغَة في الأمر، والإشعار بأنهم على صَدَد وُجوب الهجرة، فإنهم إذا بَلَغوا وقَدَرُوا على الهجرة فلا مَحيص لهم عَنها ، وإنَّ قُوَّامَهم يجب عليهم أن يُهاجروا بِهم متى أمكنت. ﴿ لا يَستطيعونَ حِيلةً ولا يَهْتدُونَ سَبيلًا ﴾ صِفة للمستضعفين ، إذْ لا تَوقيت فيه ... واستطاعة الحِيلة وِجدان أسباب الهِجرة وما تتوقف عليه ، واهتداء السبيل معرفة الطريق بِنَفْسِه أوْ بدليل)) .

وفي صحيح البخاري (١/ ٤٥٥) أنَّ ابن عباس _ رضي اللَّهُ عنهما _ قال : ((كُنتُ أنا وأُمِّي مِنَ المُسْتَضْعَفِين ، أنا مِن الوِلْدان ، وأُمِّي مِن النِّسَاء)) .

لقد عَذَرَهما اللَّهُ تعالى ، فابنُ عباس كانَ مِن الوِلْدان ، وأُمُّه امرأةٌ لا حَوْلَ لها ولا قُوَّة ، وهي لُبَابة الكُبرى أُم الفَضْل ، وتُسمَّى الكُبرى تمييزًا لها عَن أُخت لها لأبيها تُعرَف بالصُّغرى .

كان المُسلمون في أوَّل الدَّعوة مُستَضْعَفِين في مَكَّة ، وكان الكُفَّارُ يُعذِّبون كثيرًا مِنهُم ، لذلك أمَرَهم النبيُّ ﷺ بالهِجرة أوَّلًا إلى الحَبَشَة ، ثُمَّ إلى المدينة المُنوَّرة ، لنشر دَعوة الحَق في الآفاق ، ولكنَّ كثيرًا مِنهُم لَم يَستطع الخُروجَ ، لِقِلَّة المال ، والضَّعْفِ الجسدي ، ولِغَير ذلك مِن الأسباب.

وبيَّن عبد اللَّه بن عَبَّاس _ رضي اللَّهُ عنهما _ أنَّه كان هو وأُمُّه لُبَابة أُمُّ الفَضْل بنت الحارث _ رضي اللَّهُ عنها _ مِن المُسْتَضْعَفِين مِن المُسلمين الذين بَقُوا بِمَكَّة ، ولَم يَقْدِرُوا على الهِجرة إلى المدينة ، فقد كان هو مِن الصِّبيان ، وأُمُّه مِن النساء .

والمُسْتَضْعَفُون مِن النِّساء والأطفال لهم العُذر والرُّخصة في عدم الهِجرة مِن مَكَّة إلى المدينة، لضعفهم وعدم قُدرتهم على ذلك . وفي هذا إشارة إلى أنَّ ابن عَبَّاس لَم يَكُن معَ أبيه العَبَّاس على دِين قَومه ، ولكنَّه اختارَ أن يكون مُسْلِمًا معَ أُمِّه ، وهذا مبنيٌّ على أنَّ إسلام العَبَّاس كان بَعد وَقْعَة بَدْر ، فالمشهور أنَّه أسلمَ قبل فَتْح خَيْبَر . وفي الحديث : إسلام الصَّبي الصغير مَتَى عَقَلَ .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ فَأُولئكَ عَسَى اللَّهُ أن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وكانَ اللَّهُ عَفُوًّا غفورًا ﴾ [النِّساء: ٩٩].

هؤلاء المُسْتَضْعَفُون لعلَّ اللَّه أن يَتجاوز عَنهُم ، ويَعْفُوَ عنهم للعُذر الذي هُم فِيه . فقد تَركوا الهِجرةَ اضطرارًا لا اختيارًا. وهُم مُؤمنون صادقون، يُريدون الهجرةَ من دار الكفر (مكة) إلى دار الإسلام (المدينة)، ولكنَّ الضَّعْف والفَقْر والعَجْز مَنعهم من الهجرة. واللَّهُ عَفُوٌّ _ كانَ وما زالَ _ يَقبل أعذارَ عباده الصادقة ، ويَتجاوز عن ذُنوبهم ، ولا يُعاقِبهم ، ويَستر عليهم في الدنيا والآخرة .

والجديرُ بالذِّكر أنَّ " عَسى " مِن اللَّه تُفيد التحقيق التَّام ، ولا شَكَّ فِيها . وهي للإطماع، والكريم إذا أَطْمَعَ أَنْجَزَ ، ولَم يُخلِف كَلامَه ، ولَم يَتهرَّب مِنه .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٢٧٣) : ((و " عسى " مِن اللَّه واجب ، لأنَّه للإطماع ، واللَّهُ تعالى إذا أَطْمَعَ عبدًا وَصَّله إليه)) .

وجِيءَ بكلمة الإطماع"عسى" للتأكيد على أمر الهجرة،وأنها قضية في غاية الأهمية والخطورة.

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ٧٦٢) : ((حتى يُظَنَّ أنَّ تَرْكَها مِمَّن لا تَجِب عَلَيه ، يَكون ذَنْبًا يَجب طلب العَفْو عنه)) .

والعَفْوُ في الآية الكريمة يدل على أنَّ تَرْكَ الهِجرة أمرٌ شديد الخطورة ، ولا بُدَّ مِن الحَذَر والخَوف .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٤٣) : ((ولفظ العَفْو إيذانًا بأنَّ تَرْك الهِجرة أمرٌ خطير ، حتى إنَّ المُضْطَرَّ مِن حَقِّه أن لا يَأمَن ، ويَترصَّد الفُرصة ، ويُعلِّق بها قَلْبَه)) .

وعن أبي هريرة _ رضي اللَّهُ عنه_ قال: كانَ النبيُّ ﷺ يَدعو في القُنُوت : ((اللهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ ابنَ هِشام ، اللهُمَّ أَنْجِ الوليدَ بن الوليد ، اللهُمَّ أَنْجِ عَيَّاشَ بن أبي رَبيعة ، اللهُمَّ أَنْجِ المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ المؤمنين ، اللهُمَّ اشْدُدْ وَطْأتَكَ عَلى مُضَر ، اللهُمَّ سِنينَ كَسِنِيِّ يُوسُف)) [٥٨].

كان النبيُّ ﷺ يتقرَّب إلى اللَّه بالدُّعاء على كُل حال ، ومِن ذلك دُعاء القُنوت الذي يَدعو به عِند النوازل. وكان أصحابُه_ رضي اللَّهُ عنهم_ شديدي الحِرص على اتِّباع هَدْيِه ﷺ، ونَشْرِ سُنَّته.

دعا النبيُّ ﷺ قبل أن يَسجُد : " اللهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بن هشام " ، وهو أخو أبي جَهْل بن هشام ، " اللهُمَّ أَنْجِ الوليدَ بن الوليد " ، وهو أخو خالد بن الوليد ، " اللهُمَّ أَنْجِ عَيَّاشَ بن أبي رَبيعة " ، وهو أخو أبي جَهْل لأُمِّه .

وسَلَمَة والوليد وعَيَّاش _ رضي اللَّهُ عنهم _ حبسهم المُشركون في مَكَّة لَمَّا أَسْلَمُوا ، ومنعوهم مِن الهِجرة ، وقد تَوَاعَدُوا جميعًا للهُروب مِن المُشركين ، فدعا لهم النبيُّ ﷺ بأن يُنْجِيَهُم اللَّهُ .

" اللهُمَّ أَنْجِ المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ المؤمنين "، وهذا عام بعد خاص ، والمُراد بهم ضُعَفاء المؤمنين بِمَكَّة وغَيرها ، الذين حَبَسَهُم الكُفَّارُ عَن الهِجرة ، وآذَوْهُم وعذَّبوهم .

" اللهُمَّ اشْدُدْ وَطْأتَكَ عَلى مُضَر " ، أي : اشْدُدْ بَأْسَكَ أوْ عُقوبتك على كُفَّار قُرَيش أولاد مُضَر ، القبيلةِ المشهورةِ التي مِنها جميع بُطون قُرَيش وغَيرهم . " اللهُمَّ سِنينَ كَسِنِيِّ يُوسُف " : اللهُمَّ اجْعَلْ عُقوبتك عليهم سِنين مُؤلمة وشديدة ، ذَوْات قَحْط وغَلاء ، كَسِنِيِّ القَحْط السَّبْع التي

---

٥٨ متفق عليه. البخاري (٣/ ١٠٧٢) برقم (٢٧٧٤) ، ومسلم (١/ ٤٦٦) برقم (٦٧٥) .

حَدَثَتْ في زمن النبيِّ يُوسُف ﷺ. وقد ابْتُلوا بالقَحْط حتى أكلوا العِظَامَ والمَيْتَةَ . والمعنى هو الدُّعاء عليهم بالقَحْطِ العظيم ، وامتدادِ زمان المِحنة والبلاء ، وبُلوغِ غَاية الجَهْد (المَشَقَّة) والضَّرَّاء . وكُل هؤلاء الذين دعا لهم النبيُّ ﷺ نَجَوْا مِن أَسْرِ الكُفَّار بِبَرَكَةِ دُعائه ﷺ .

والجديرُ بالذِّكر أنَّ الوَطْأةُ هي الشِّدةُ والعُقوبة .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٥/ ١٧٦) : ((فيه استحباب القُنُوت والجَهْر به ... ، وفيه جَواز الدُّعاء لإنسان مُعَيَّن ، وعلى مُعَيَّن)) .

وقال عبد اللَّه بن مسعود ــ رضي اللَّهُ عنه ــ: ((... لأنَّ قُرَيْشًا لَمَّا اسْتَعْصَوْا على النبيِّ ﷺ ، دعا عليهم بسنين كَسِنِيِّ يُوسُف ، فأصابهم قَحْط وجَهْد ، حتى أكلوا العِظَامَ ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنظر إلى السماء ، فيرى ما بَيْنَه وبَيْنَها كَهَيئة الدُّخَانِ مِنَ الجَهْد)) [٥٩].

وقال المقدسي في العُدَّة شرح العُمدة (١/ ٥٩٢): ((فالناس في الهِجرة على ثلاثة أضْرُب: أحدها مَن تَجب عليه ، وهو مَن لا يُمكِنه إظهار دِينه ، ولا عُذر له مِن مرض ولا عَجْز عن الهِجرة فهذا تجب عليه للآية : ﴿ إنَّ الذين تَوَفَّاهُمُ الملائكةُ ﴾ ، ولأنَّ القِيام بواجب الدِّين واجب ، ولا يُتمكن منه إلا بالهِجرة، وما لا يُتمكن مِن الواجب إلا بِه فهو واجب ، لِكَوْنه من ضرورة الواجب. الثاني مَن تُسْتَحَب له الهِجرة ، وهو مَن يَتمكن مِن إظهار دِينه في دار الحرب والقِيام بواجبه ، إمَّا لِقُوَّة عَشيرته أوْ غَير ذلك ، فهذا لا تَجب عليه لإمكان إقامة واجب دِينه ، وتُستحَب له لأن في إقامته عندهم تكثيرًا لعددهم ، واختلاطًا بهم ، ورُؤية المُنكَر بينهم . الثالث مَن تَسقط عنه الهِجرة وهو مَن يَعْجَز عنها ، إمَّا لمرض ، أو إكراه على الإقامة ، أو ضَعْف ، فهذا لا تجب عليه ، ولا يُوصَف باستحباب ، لِقَوله سُبحانَه : ﴿ إلا المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ والوِلْدانِ لا يَستطيعونَ حِيلةً ولا يَهْتدُونَ سَبيلًا (٩٨) فَأُولئكَ عَسَى اللَّهُ أن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وكانَ اللَّهُ عَفُوًّا غفورًا (٩٩) ﴾)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ في سبيلِ اللَّهِ يَجِدْ في الأرضِ مُرَاغَمًا كثيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهاجِرًا إلى اللَّهِ ورَسولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الموْتُ فَقَدْ وَقَعَ أجْرُهُ على اللَّهِ وكانَ اللَّهُ غَفُورًا رحيمًا ﴾ [النِّساء : ١٠٠] . هذا ترغيبٌ إلهيٌّ في الهِجرة . ومَن يُفارِق دارَ الكُفر ، ويَترك أهْلَها ، فِرَارًا بِدِينه، إلى دار الإسلام والمسلمين، يَجِد هذا المُهَاجِر في سبيل اللَّه أرضًا ومَلجَأ يَعيش فِيه بأمان، ويَعبد اللَّهَ بلا خَوْف ولا مُضَايَقات ، ويَجِد أيضًا سَعَةً في الرِّزق .

---

٥٩ متفق عليه. البخاري (٤/ ١٨٢٣) برقم (٤٥٤٤) ، ومسلم (٤/ ٢١٥٥) برقم (٢٧٩٨) .

وقال القرطبي في تفسيره (٥/٣٣٠):((قال مالك: هذه الآية دَالَّة على أنَّه لَيس لأحد المُقَام بأرضٍ يُسَبُّ فيها السَّلَف ، ويُعمَل فيها بِغَير الحق)) .

لا دَاعِي للخَوْف مِن الهجرة ، فهي سبب للأمن والأمان والرخاء والازدهار والعَيش الرَّغيد . إنَّ الهِجرة خَيْرٌ ونِعمة للمؤمن الحريص على دِينه ، السائر وَفْقَ القُرآن والسُّنَّة. فالمؤمنُ إنما يُهاجِر لإعلاء كلمة اللَّه ، وإقامة شعائر الدِّين ، مُلتزِمًا بالسَّير في الطريق الذي شَرَعَه اللَّهُ لعباده ، وهِجْرَتُه لَيست رِحلةً سياحيةً ، ولا نُزهة ترفيهية لتغيير الجَو .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٤٣) : ((﴿ وَمَن يُهَاجِرْ في سبيلِ اللَّه يَجِدْ في الأرضِ مُرَاغَمًا كثيرًا ﴾ مُتَحَوَّلًا ، مِن الرَّغَام وهو التُّرَاب . وقِيل : طريق يُراغِم قَوْمَه بِسُلوكه ، أي : يُفارِقهم على رَغم أُنوفهم ، وهو أيضًا مِن الرَّغَام . ﴿ وَسَعَةً ﴾ في الرِّزق وإظهار الدِّين)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٢/ ١٧٩): ((قال سَعيد بن جُبَير ومجاهد: مُتَزَحْزَحًا عَمَّا يَكْرَه . وقال ابن قُتَيبة : المُرَاغِم والمُهاجِر واحد . يُقَال : رَاغمتُ وهَاجرتُ . وأصْلُه أنَّ الرَّجل كان إذا أسلمَ خَرج عَن قَومه مُرَاغِمًا، أي: مُغاضِبًا لهم، ومُهاجِرًا أي: مُقاطِعًا، مِن الهِجْران . فَقِيل للمَذهَب مُرَاغَم ، وللمَصير إلى النبيِّ عليه السلام هِجرة ، لأنَّها كانت بِهجرة الرَّجُل قَوْمَه)) .

والآيةُ : ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ في سبيلِ اللَّهِ ﴾ دليل على أنَّ الهِجرة يَجب أن تكون نابعة مِن نِيَّة خالصة لِوَجْه اللَّه تعالى ، ولَيست مُلوَّثةً بأغراض شخصية أو مصالح دُنيوية . فالأعمالُ بالنِّيات ، واللَّهُ لا يَقْبَل العَمَلَ إلا إذا كان خالصًا لِوَجْهه الكريم ، ووَفْقَ سُنَّة النبيِّ ﷺ .

وعن عُمر بن الخطاب _ رضي اللَّهُ عنه _ قال : سَمِعْتُ رسولَ اللَّه ﷺ يَقول : ((إنَّما الأعمالُ بالنِّية، وإنَّما لامرئٍ ما نَوَى، فَمَن كانت هِجْرَتُه إلى اللَّهِ ورَسولِه، فَهِجرته إلى اللَّه ورسوله، وَمَن كانت هِجْرَتُه إلى دُنيا يُصيبها ، أو امرأةٍ يَتزوَّجها ، فَهِجرته إلى ما هاجر إليه)) [٦٠].

هذا الحديثُ العظيم قاعدة من قواعد الإسلام ، وأصلٌ مِن أُصُول الشريعة . و " إنَّما " تدلُّ على الحَصْر ، وتُفيد إثباتَ المذكور ، وتَنْفي ما عَداه . لا بُدَّ مِن تصحيح نِيَّة العبد ، وأن تَكون خالصةً لوجه اللَّه تعالى ، فالأعمالُ حَسَبَ النِّيات . فَمَن كانَ قَصْدُه مِن الهجرة رَفع كلمة اللَّه وإقامة شعائر الإسلام ودعم النبيِّ ﷺ ومُساندته ، فهو على خَير عظيم ، وسَوْفَ يَمنحه اللَّهُ الأجرَ والسعادةَ في الدنيا والآخرة .

٦٠ متفق عليه. البخاري (٦/ ٢٤٦١) برقم (٦٣١١) ، ومسلم (٣/ ١٥١٥) برقم (١٩٠٧) .

ومَن كانَ قَصْدُه دُنيويًّا ، ومِن أجل تحقيق مصالح شخصية مِثْل تجارة أو زواج أو علاقات اجتماعية ، فلا أجْرَ له ، وهو خاسرٌ قَطْعًا ، لأنَّ أبطلَ ثوابَ هِجرته ، وضَيَّعَ وَقته لجمع حُطام الدنيا الفاني . وهذا يدل على الخِسَّة والدَّناءة .

ولا تَصِح العبادات الشرعية إلا بوجود النِّية فيها ، وإنَّما يَعود على المسلم مِن عَمَلِه ما قَصَدَه مِنه ، وهذا الحُكْم عام في جميع الأعمال مِن العبادات والطاعات والمُعَامَلات والأعمال العاديَّة ، فَمَن قَصَدَ بعمله مَنفعةً دُنيويةً لَم يَنَلْ إلا تِلك المَنفعة . وَلَوْ كان عِبادةً ، فلا ثواب له عليها . ومَن قَصَدَ بعمله التَّقَرُّبَ إلى اللَّه تعالى وابتغاءَ مَرضاته ، نالَ مِن عَمله المَثوبةَ والأجرَ ، وَلَوْ كان عملًا عاديًّا ، كالأكل والشُّرْب . ثُمَّ ضَرَبَ ﷺ الأمثلةَ العمليَّةَ لبيان تأثير النِّيات في الأعمال ، فَبَيَّنَ أنَّ مَن قَصَدَ بِهجرته امتثالَ أمر اللَّه ، وابتغاءَ مَرضاته ، والفِرَارَ بِدِينه مِنَ الفِتَن ، فَهِجْرَتُه هِجرةٌ شرعيةٌ مَقبولةٌ عِند اللَّه تعالى ، ويُثاب عليها لِصِدْق نِيَّته ، وأنَّ مَن قَصَدَ بِهجرته مَنفعةً دُنيويةً ، وغَرَضًا شخصيًّا ، مِن مال ، أو تجارة ، أو زوجة جميلة ، فلا يَنال مِن هِجرته إلا تِلك المَنفعة التي نَوَاها ، ولا نَصِيب له مِن الأجر والثواب .

وقَوْلُ النبيِّ ﷺ : ((فَهِجرته إلى اللَّه ورسوله)) يدلُّ على تعظيم اللَّه ورسولِه ، فهذا المؤمن قد تَحَلَّى بالثِّقَة وعُلُوِّ الهِمَّة والإخلاص، وهاجرَ تعظيمًا للَّهِ ورسوله، ورَفْعًا لِشأن الإسلام ، وتَكثيرًا للمسلمين . وهذا يعني أنَّ هِجرته قضية وجودية ومصيرية رفيعة الشأن ، وعظيمة القَدْر .

وفي الجِهَة المُقَابِلة ، نجد أنَّ قَول النبيِّ ﷺ : ((فَهِجرته إلى ما هاجرَ إليه)) ، يدلُّ على تَفَاهة العَرَضِ الدُّنيويِّ ، وحَقارة مَتاع الدُّنيا الزائل ، لذلكَ لا يَستحق الذِّكْر ، ولَم يَذْكُرْه النبيُّ ﷺ . كما يَدل أيضًا على النِّية الفاسدة ، والخِسَّة ، والدَّناءة ، وانحطاط الهِمَّة ، والأخلاق الهابطة .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٣/ ٥٣و٥٤و٥٥) : ((أجمعَ المسلمون على عِظَم مَوقع هذا الحديث ، وكَثرة فوائده وصِحَّته . قال الشافعي وآخرون : هو ثُلُث الإسلام . وقال الشافعي: يَدخل في سبعين بابًا مِن الفِقْه، وقال آخرون: هو رُبُع الإسلام.وقال عبد الرحمن ابن مَهدي وغَيْرُه : يَنبغي لِمَن صَنَّف كِتابًا أن يَبدأ فيه بهذا الحديث، تنبيهًا للطالب على تصحيح النِّية . ونقل الخَطَّابي هذا عن الأئمة مُطْلَقًا . وقد فعل ذلك البُخاري وغيره ، فَابْتَدَؤُوا بِه قَبْل كُلِّ شيء . وذَكَره البُخاري في سبعة مواضع مِن كتابه . قال الحُفَّاظ : وَلَم يَصِحَّ هذا الحديث عن النبيِّ ﷺ إلا من رواية عُمر بن الخطاب ، ولا عن عُمر إلا من رواية عَلقمة بن وَقَّاص ، ولا عن عَلقمة إلا من رواية مُحمَّد بن إبراهيم التَّيمي ، ولا عن مُحمَّد إلا من رواية يحيى بن سعيد

الأنصاري. وعن يحيى انتشر، فَرَواه عنه أكثر مِن مائتي إنسان ، أكثرُهم أئمة ، ولهذا قال الأئمة : ليس هو مُتواتِرًا ، وإن كان مشهورًا عِندَ الخاصَّة والعامَّة ، لأنَّه فَقد شَرْطَ التواتر في أوَّله ، وفيه طُرفة مِن طَرَف الإسناد ، فإنَّه رَواه ثلاثة تابعيون ، بَعْضُهم عن بعض ، يحيى ومُحمَّد وعَلقمة . قال جماهير العلماءِ مِن أهل العربية والأصول وغَيرهم: لفظة " إنَّما " مَوضوعة للحَصْر تُثبِت المذكورَ ، وتَنْفِي ما سِواه ، فتقدير هذا الحديث أنَّ الأعمال تُحسَب بِنِيَّة ، ولا تُحسَب إذا كانت بِلا نِيَّة. وفيه دليل على أنَّ الطهارة وهي الوضوء والغُسْل والتَّيَمُّم لا تَصِحُّ إلا بالنِّية،وكذلك الصَّلاة والزَّكاة والصَّوم والحَج والاعتكاف وسائر العبادات . وأمَّا إزالة النجاسة فالمشهور عِندنا أنها لا تفتقر إلى نِيَّة ، لأنها من باب التُّروك ، والتَّرْكُ لا يحتاج إلى نِيَّة ، وقد نقلوا الإجماع فيها ، وشَذَّ بعضُ أصحابنا فأوجبها، وهو باطل . وتَدخل النِّية في الطلاق والعِتاق والقَذْف ، ومعنى دخولها أنها إذا قارنت كِنايةً صارت كالصريح ، وإنْ أتى بصريح طَلاق ونوى طلقتين أو ثلاثًا ، وَقَعَ ما نوى ... . قَوْلُه ﷺ : " وإنما لامرئٍ ما نوى " . قالوا : فائدة ذِكْره بعد : " إنما الأعمال بالنِّية " بيان أنَّ تعيين المَنْوِيِّ شَرْط ، فَلَوْ كان على إنسان صلاة مَقضية لا يكفيه أن يَنويَ الصلاة الفائتة ، بل يُشترَط أن يَنويَ كَوْنَها ظُهْرًا أو غَيرها ، ولَولا اللفظ الثاني لاقتضى الأوَّل صِحَّة النِّية بلا تعيين أو أوهمَ ذلك . قَوْلُه ﷺ : " فمن كانت هِجرته إلى اللَّه ورسوله ، فهجرته إلى اللَّه ورسوله".معناه: مَن قَصَدَ بِهجرته وَجْهَ اللَّه ، وَقَعَ أجْرُه على اللَّه ، وَمَن قَصد بها دُنيا أو امرأة فهي حَظُّه ، ولا نصيب له في الآخرة بسبب هذه الهِجرة . وأصلُ الهِجرة التَّرْك ، والمراد هنا ترك الوطن . وذِكْرُ المرأة مَعَ الدنيا يَحتمل وجهين : أحدهما أنه جاء أنَّ سَبب هذا الحديث أنَّ رَجُلًا هَاجَرَ لِيَتزوَّج امرأةً يُقَال لها أُم قَيس ، فَقِيل له : مُهاجِر أُم قَيس ، والثاني أنَّه للتَّنبيه على زيادة التحذير مِن ذلك ، وهو مِن باب ذِكْر الخاص بعد العام ، تنبيهًا على مَزِيَّته ، واللَّهُ أعْلَم)) .

﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهاجِرًا إلى اللَّهِ ورَسولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الموْتُ فَقَدْ وَقَعَ أجْرُهُ على اللَّهِ وكانَ اللَّهُ غَفُورًا رحيمًا ﴾ . إنَّ نِيَّةَ المُؤمن أبْلَغُ مِن عَمَله.والآيةُ تُوضِّح أنَّ مَن خَرج مُهاجِرًا مِن دار الكفر إلى دار الإسلام، وفارقَ الأهلَ والعشيرةَ والوطنَ،وفَرَّ بِدِينه إلى اللَّه ورسوله،ثُمَّ مات في الطريق دُون أن يَبْلُغ دارَ الإسلام ، فقد استحقَّ الأجرَ الإلهيَّ كاملًا غَير مَنقوص بِوَعْد اللَّهِ ، ووعدُ اللَّهِ لا يَتخلَّف . وقال الحافظ في الفتح (٦/ ١٨):((وَقَوْلُ اللَّه_عَزَّ وَجَلَّ_: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهاجِرًا ﴾ _ الآية_.أي: يَحصُل الثواب بِقَصْد الجهاد إذا خَلَصَت النِّية، فَحَالَ بين القاصد وبين الفِعل مانع،فَإنَّ قَوْلَه: ﴿ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الموْتُ﴾ أعَمُّ مِن أن يَكون بِقَتْل أو وُقوع مِن دَابَّته وغَير ذلك)).

ومعنى : ﴿ وَقَعَ أَجْرُهُ على اللَّهِ ﴾ وَجَبَ ثوابُه على اللّه . ولا شَيء يَجب على اللّه لأحدٍ مِن خَلْقِه، ولكنَّ اللَّه يَتفضَّل على مَن يَشاء ، ويَعِدُ مَن يَشاء ، ويُلْزِم ذَاتَه العَلِيَّة بما شاء ، تَفَضُّلًا مِنه ، ورحمةً بِخَلْقِه ، ووَعْدُه حَق وصِدْق ، وواقع لا مَحَالة . والآيةُ نزلت في رَجل خَرج مُهاجِرًا في سبيل اللَّه تعالى ، مِن دار الكفر إلى دار الإسلام ، فماتَ في الطريق .

وفي تفسير القرطبي (٥/ ٣٣٠) : ((قال عِكرمة مَوْلَى ابن عباس : طَلبتُ اسمَ هذا الرَّجل أربع عشرة سنة حتى وَجَدْتُه. وفي قَول عِكرمة هذا دليل على شرف هذا العِلم قديمًا، وأن الاعتناء به حَسَن ، والمعرفة به فَضْل)) .

وقال النَّسَفي في تفسيره (١/ ٢٤٤) : ((قالوا (يعني العلماء) : كُلُّ هِجرة لطلب عِلْم، أوْ حَج، أوْ جِهاد، أوْ فِرَار إلى بلد يزداد فيه طاعة أوْ قناعة أوْ زُهْدًا ، أو ابتغاء رِزق طَيِّب ، فهي هِجرة إلى اللَّه ورسوله ، وإنْ أدركه المَوْتُ في طريقه ، فَقد وَقَعَ أجْرُه على اللَّه)) .

والآيةُ تُبيِّن أهميةَ النِّية الحَسَنَة القائمة على الإخلاص للَّه تعالى ،كما تُشير إلى سَعَة الرحمة الإلهية، وعظيم الفَضْل الإلهيِّ. واللَّهُ كثير المغفرة، يَستر ذُنوبَ عباده، ويَعفو عنهم، ولا يُعاقبهم ، ولا يُعذِّبهم ، وهو سُبحانَه كثير الرحمة ، يَشملهم برحمته التي وَسِعَتْ كُلَّ شَيء .

وقد استدلَّ بهذه الآية على وُجوب الهِجرة من دار الكُفر إلى دار الإسلام ، وكان الشخصُ قادرًا على الهِجرة . ومَعَ أنَّ سبب الآية خاص إلا أن دَلالتها عامَّة في كُل زمان ومكان، والعِبرة بِعُموم اللفظ لا بِخُصوص السبب . وعن ابن عباس قال : ((خَرج ضَمْرَةُ بن جُندُب مِن بَيته مُهاجِرًا، فقال لأهله : احْمِلُوني ، فَأَخْرِجُوني مِن أرض المشركين إلى رسول اللَّه ﷺ ، فَمَاتَ في الطريق قَبل أن يَصِلَ إلى النبيِّ ﷺ ، فَنَزَلَ الوَحْيُ : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهاجِرًا إلى اللَّهِ ورَسولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الموْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ على اللَّهِ وكانَ اللَّهُ غَفُورًا رحيمًا ﴾)) [٦١].

لقد كانت نِيَّتُه خالصةً لِوَجه اللَّه، وأرادَ الهِجرةَ من دار الكُفر إلى دار الإيمان امتثالًا لأمرِ اللَّه، مَعَ أنَّه شَيخ طاعن في السِّن ، لا يَمتلِك الصِّحَّة والعافيةَ والقُوَّة. وقد مات في الطريق قبل الوصول إلى دار الإيمان (المدينة)، ولَم يَصِل إلى النبيِّ ﷺ . وقد مَنَحَه اللَّهُ الأجرَ كاملًا ، وخَلَّدَ ذِكْرَه في القُرآن إلى يوم القِيامة. وهذا مَديحٌ إلهيٌّ عظيم، وشَرَفٌ ما بَعْدَه شرف. ولا شَيء يَضيع عِندَ اللَّه .

---

٦١ رواه أبو يعلى في مسنده (٥/ ٨١) برقم (٢٦٧٩). وقال السُّيوطي في لُباب النُّقول (١/ ٦٤) : سنده جيِّد . اهـ . وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٦٩) : ((رجاله ثقات)) .

وعن عبد اللَّه بن عَتِيك _ رضي اللَّهُ عنه _ قال : سَمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقول : ((مَن خَرَجَ مِن بَيته مُجاهِدًا في سَبيل اللَّه ، وأينَ المجاهدون في سبيل اللَّه ؟ ، فَخَرَّ عَن دَابَّته فمات ، فقد وَقَعَ أجْرُه على اللَّه ، وإنْ لَدَغَتْهُ دَابَّةٌ فمات، فَقد وَقَعَ أجرُه على اللَّه ، وَمَن مَاتَ حَتْفَ أنفِه ، فقد وَقَعَ أجْرُه على اللَّه ، وَمَن قُتِلَ قَعْصًا فقد استوجبَ الجَنَّةَ)) [٦٢].

وضَّح النبيُّ ﷺ أربع حالات لاستحقاق الأجر الإلهيِّ ، وذلك بسبب النِّية الصادقة الصافية للجهاد في سبيل اللَّه تعالى :

١_ مَن خَرَجَ مِن بَيته مُجاهِدًا لِرَفع كلمة اللَّه . نِيَّتُه صادقة وخالصة للَّه تعالى ، واستعدَّ بِكُلِّ الوسائل المُمكنة ، لكنَّه وَقَعَ عَن دَابَّته التي كان يَركبها فمات مِن شِدَّة ارتطامه بالأرض . وهذا المانعُ حالَ بينه وبين مُواجهة الأعداء . والجديرُ بالذِّكر أنَّ قَوْلَ النبيِّ ﷺ : " وأينَ المجاهدون في سبيل اللَّه ؟ " يدل على انتشار الضَّعْف وحُبِّ الدنيا بين الناس، فَقَلَّ عدد المجاهدين الذين يستعدون لرفع كلمة اللَّه ، ونَشر التَّوحيد ، وهزيمة الأعداء . وفي قَوْل النبيِّ ﷺ دَعوةٌ إلى الجهاد وتشجيعٌ عَلَيه ، ورَفْعٌ للمعنويات ، وإثارة للعواطف الإيمانية ، وشَحْذ للهِمَم ، وتقوية للنُّفوس .

٢_ مَن ماتَ لَدِيغًا بعد أن تلقَّى لَدغة قاتلة أو مسمومة ، مِن إحدى دَوَابِّ الأرض .

٣_ مَن ماتَ حَتْفَ أنفِه ، يَعني : ماتَ على فِرَاشه مِن غَير قَتْل ولا ضَرْب . وقال ابن الجَوزي في غريب الحديث (١/ ١٩١) : ((وإنَّما قِيل ذلك لأنَّ نَفْسَهُ تَخرُج مِن فِيه وأنفِه ، فَغُلِّبَ أَحَدُ الاسْمَيْن)) .

٤_ مَن قُتِلَ قَعْصًا . يعني أصابته ضَربة أو رَمية فماتَ ، فقد استحقَّ الجَنَّةَ ، وهي واجبة له .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ والذينَ هَاجَروا في اللَّهِ مِن بَعْدِ ما ظُلِموا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ في الدُّنيا حَسَنةً ولأجْرُ الآخِرَةِ أكبرُ لَوْ كانوا يَعْلَمُون ﴾ [النَّحْل : ٤١] .

والذينَ فَارَقوا أوطانَهم وأهْلَهم ، وتركوا دِيارَهم وأموالَهم ، حُبًّا للَّهِ تعالى ، واستجابةً لأمره ، وطَلَبًا لِرِضاه ، ورَفْعًا لكلمته ، وطَمَعًا في أجْرِه وثَوابه ، مِن بَعْد ما عُذِّبوا وأُهينوا ، وعانوا أشدَّ المُعَاناة ، فإنَّ مُشركي مكة قد شَنُّوا حملة عنيفة على المؤمنين ، وعَذَّبوا جماعةً مِنهم ، لكسر معنوياتهم وتَحطيمهم ، وإضعاف الإسلام،فهاجرَ بعضُهم إلى الحَبَشَة، ثُمَّ إلى المدينة. ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ في الدُّنيا حَسَنةً ﴾ ، وذلك أنَّه سُبحانَه أنزلهم المدينة (الدار الحَسَنَة)، وهي المكان الطَّيب،

٦٢ رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٩٧) برقم (٢٤٤٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

حيث الأمن والإيمان ، وقد آواهُم أهلُها (الأنصار) ونَصَرُوهم . ولا شَكَّ أنَّ ثَوابَ الآخرة (نعيم الجنة) أعظم مِمَّا يُعجَّل لهم في الدنيا. فالدنيا فانية ، والآخرة باقية. ﴿ لَوْ كانوا يَعْلَمُون ﴾ . أي: لَوْ عَلِمَ الكفارُ الجزاءَ الإلهيَّ العظيم للمهاجرين في الدنيا والآخرة ، لآمَنوا ، وانضَمُّوا إلَيهم . أو : لَوْ عَلِمَ المهاجرون ما أعدَّ اللَّهُ لهم مِن الأجر والثواب والنعيم في الآخرة ، لازْدَادُوا إيمانًا وعِبادةً وصَبْرًا على الشَّدائد والآلام .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير(٤/ ٤٤٧و٤٤٨و٤٤٩) عن سبب نزول الآية: ((اختلَفوا فِيمَن نزلت على ثلاثة أقوال : أحدها أنها نزلت في سِتَّة من أصحاب رسول اللَّه ﷺ : بِلال وعَمَّار وصُهَيب وخَبَّاب بن الأرَتِّ ، وعايش وجبر مَوْليان لِقُرَيش ، أخذهم أهل مكة ، فَجَعلوا يُعذِّبونهم لِيَرُدُّوهم عن الإسلام ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني أنها نزلت في أبي جَنْدَل بن سُهَيل ابن عَمْرو، قاله داود بن أبي هِنْد . والثالث أنهم جميع المهاجرين من أصحاب رسول اللَّه ﷺ ، قاله قَتادة . ومعنى : ﴿ هَاجَروا في اللَّهِ ﴾ أي: في طَلَب رِضاه وثَوابه. ﴿ مِن بَعْدِ ما ظُلِموا ﴾ بِما نال المشركون مِنهُم. ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ في الدُّنيا حَسَنَةً ﴾ وفِيها خمسة أقوال: أحدها لَنُنْزِلَنَّهُم المدينةَ ، روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس،وبه قال الحسن والشَّعبي وقَتادة . فيكون المعنى : لَنُبَوِّئَنَّهُم دارًا حَسَنَة وبلدةً حَسَنَة . والثاني لَنَرْزُقَنَّهُم في الدنيا الرِّزقَ الحَسَن ، قاله مُجاهد . والثالث : النَّصْر على العدو ، قاله الضَّحاك . والرابع أنَّه ما بَقِيَ بَعْدَهم مِن الثَّناء الحسَن ، وصار لأولادهم مِن الشَّرَف، ذَكَرَه الماوردي. وقد رُوِيَ مَعناه عن مجاهد، فروى عنه ابن أبي نَجيح أنه قال : ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ في الدُّنيا حَسَنَةً ﴾ ، قال : لِسان صادق . والخامس أنَّ المعنى : لَنُحْسِنَنَّ إلَيهم في الدُّنيا . قال بعضُ أهل المعاني : فتكون على هذه الأقوال ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ ﴾ على سبيل الاستعارة إلا على القَول الأول . قَوْلُه تعالى : ﴿ ولأجْرُ الآخِرَةِ أكبرُ ﴾ . قال ابن عباس : يعني الجَنَّة . ﴿ لَوْ كانوا يَعْلَمُون ﴾ يَعني أهلَ مَكَّة . ونُقِلَ عن عمر بن الخطاب_رضي اللَّهُ عنه_ أنَّه كان إذا أعطى الرَّجُلَ مِن المهاجرين عَطاءَه ، قال: خُذْ، باركَ اللَّهُ لَكَ فيه، هذا ما وَعَدَكَ اللَّهُ في الدُّنيا، وما ذَخَرَ لَكَ في الآخرة أفضل ، ثُمَّ يَتلو هذه الآية)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿أُذِنَ للذينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُم ظُلِمُوا وإنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِير﴾[الحج: ٣٩].

أَذِنَ اللَّهُ للمؤمنين الذين يُقَاتلهم المُشركون بالجِهَاد بسبب أنَّهُم ظُلِمُوا واعْتُدِيَ عليهم بالإيذاء ، وأُخْرِجُوا مِن ديارهم . وقد كان مُشركو مَكَّة يُؤْذُون أصحابَ النبيِّ ﷺ أذى شديدًا ، وكانوا يَأتون النبيَّ ﷺ بين مَضروب ومَشجوج ، ويتظلَّمون إلَيه ، فَيَأمرهم بالصَّبْر ، ويُبيِّن لهم أنَّه لَم

يُؤْمَر بقتالهم ، حتى هاجروا ، فأُنْزِلَتْ هذه الآية ، وهي أوَّل آية نَزلت في الجِهَاد . واستدلَّ بعضُ العلماء بهذه الآية على أنَّ السُّورة مدنية .

وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٦٦) : ((في هذه الآية دليل على أنَّ الإباحة مِن الشَّرْع خِلافًا للمُعتزلة ، لأنَّ قَوله : ﴿ أُذِنَ ﴾ مَعناه أُبِيحَ، وهو لفظ موضوع في اللغة لإباحة كُل ممنوع)).

وإنَّ اللَّه على نصر المؤمنين الذين يُقَاتِلُون في سبيله لَقَادِر، وقد نَصَرَهم اللَّهُ، وأعلى منزلتهم ، ورَفَعَ قَدْرَهم ، وأهلكَ عَدُوَّهم .

لقد وَعَدَ اللَّهُ المؤمنين بالنصر ، وحقَّق وَعْدَه على أرض الواقع ، واللَّهُ لا يُخْلِف وَعْدَه ، ولا يَتراجع في كلامه . واللَّهُ قادرٌ على نَصْر المؤمنين بِدُون قتال ، ولكنَّه يُريد مِن عباده أن يَبذُلوا جُهْدَهم في طاعته ، لينالوا أجرَ الشُّهَداء ، فَيَستحقوا دُخُولَ الجَنَّة .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٦٥٣) : ((﴿ أُذِنَ للذينَ يُقَاتَلُونَ بِأنَّهُم ظُلِمُوا ﴾ ، قُرِئَ " أذن " مَبْنِيًّا للفاعل ومَبْنِيًّا للمفعول، وكذلك " يقاتلون " ، قُرِئَ مَبْنِيًّا للفاعل ومَبْنِيًّا للمفعول، وعلى كِلا القرائتَيْن فالإذن مِن اللَّه سُبحانَه لعباده المؤمنين بأنَّهُم إذا صَلَحُوا للقتال ، أوْ قاتلهم المشركون قاتلوهم . قال المُفسِّرون : كان مُشركو مَكَّة يُؤْذُون أصحابَ رسول اللَّه ﷺ بألسنتهم وأيديهم ، فَيَشْكُون ذلك إلى رسول اللَّه ﷺ ، فيقول لهم : [اصْبِرُوا فإنِّي لَمْ أُومَرْ بالقِتال] حتى هاجرَ، فأنزلَ اللَّهُ سُبحانَه هذه الآية بالمدينة،وهي أوَّل آية نزلت في القتال... . والباء في ﴿ بِأنَّهُم ظُلِمُوا ﴾ للسببية ، أي : بسبب أنهم ظُلِمُوا بما كان يقع عليهم من المشركين مِن سَب وضَرْب وطَرْد ، ثُمَّ وَعَدَهُم سُبحانَه النَّصْرَ على المشركين ، فقال : ﴿ وإنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِير ﴾)) .

وعن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ قال : لمَّا أَخْرَجَ أهلُ مَكَّةَ النبيَّ ﷺ ، قال أبو بَكْر الصِّديق ــ رضي اللَّهُ عنه ــ: إنَّا للَّه وإنَّا إليه راجعون، أَخْرَجُوا نَبِيَّهُم لَيَهْلِكُنَّ. قال : فنزلت : ﴿أُذِنَ للذينَ يُقَاتَلُونَ بِأنَّهُم ظُلِمُوا وإنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِير﴾ . ... . قال أبو بَكْر الصِّديق : فَعَلِمْتُ أنَّهَا قِتال . قال ابن عباس : وهي أوَّل آية نزلت في القتال [63].

عِندما أخرجَ مُشركو مَكَّة النبيَّ ﷺ للتخلُّص مِنه ، وإنهاء أمر دَعْوته ، هاجرَ إلى المدينة ، وتَأسَّفَ أبو بَكْر ــ رضي اللَّهُ عنه ــ على ما فَعَلَه مُشركو مَكَّة مِن إخراج النبيِّ ﷺ مِنها ، وقال إنَّ اللَّه سَيُهْلِكُهم جَزَاءَ فِعْلهم هذا ، فنزلت الآيةُ الكريمة : ﴿أُذِنَ للذينَ يُقَاتَلُونَ بِأنَّهُم ظُلِمُوا وإنَّ اللَّهَ

---

٦٣ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٧٦) برقم (٢٣٧٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِير ﴾ ، وفيها أمرٌ مِن اللَّه ورُخْصَة لعباده في قتال مَن ظَلَمَهم . وقد عَلِمَ أبو بَكْر _ رضي اللَّهُ عنه _ بهذه الآية أنَّه سيقع قِتال بين المسلمين والمشركين . وقال ابن عباس _ رضي اللَّهُ عنهما _ إنَّ هذه الآية هي أوَّل آية شَرَعَ اللَّهُ فيها الجِهَاد . ولا خِلاف في أنَّ القِتال كان مَمنوعًا قبل الهِجرة .

ولا تَخفى أهميةُ الجهاد في سبيل اللَّه ، فهو عبادة مُقدَّسة ، وله منزلة عظيمة ، وهو ذِرْوَة سَنَام الإسلام ، ويَشْمَل الجهادَ لدفع العدوِّ ، والجهادَ لفتح البُلدان ، ونشر دَعوة الإسلام . والجِهادُ يُؤَدِّي لإعلاء كلمة اللَّه ، وتَقوية المُسلمين ، وتَوحيد صُفوفهم ، فلا يَطْمَع فيهم عَدُوُّهم .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ الذينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إلا أن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ الناسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيها اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيز ﴾ [الحج : ٤٠] .

الذينَ أُخْرِجُوا مِن أوطانهم ظُلْمًا وعُدوانًا بلا سبب مُوجِب للإخراج.يَعني مُحَمَّدًا ﷺ وأصحابَه (المُهاجرين) ، أخرجهم المشركون مِن مَكَّة إلى المدينة بِغَير حَق ، وما كان لهم ذَنْب إلا أنهم وحَّدوا اللَّهَ ، ولَم يُشركوا به أحدًا ، وهذا تأكيد المدح بما يُشبِه الذَّمَّ ، أي : لا ذَنْب لهم إلا هذا.

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٦٥٣) : ((ثُمَّ وَصَفَ هؤلاء المؤمنين بِقَوله : ﴿ الذينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ ، ويجوز أن يكون بَدَلًا مِن الذين يُقَاتَلُون ، أوْ في مَحَل نَصْب على المَدْح ، أوْ مَحَل رفع بإضمار مُبتدأ ، والمُراد بالدِّيار : مَكَّة ، ﴿ إلا أن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ . قال سِيبَوَيْه: هو استثناء منقطع ، أي : لكن لِقَولهم : رَبُّنَا اللَّهُ ، أي : أُخْرِجُوا بِغَير حَق يُوجِب إخراجَهم، لكن لِقَولهم : رَبُّنا اللَّهُ . وقال الفَرَّاء والزَّجاج : هو استثناء مُتَّصِل ، والتقدير : الذين أُخْرِجُوا مِن دِيارهم بلا حق إلا بأن يَقولوا : رَبُّنا اللَّهُ ، فَيَكُون مِثْل قَوْله سُبحانَه : ﴿ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إلا أنْ آمَنَّا باللَّهِ ﴾ [المائدة : ٥٩] ، وقَول النابغة :

ولا عَيْبَ فِيهِم غَيْرَ أنَّ سُيُوفَهم بِهِنَّ فُلُولٌ مِن قِرَاعِ الكتائبِ)) .

ولَولا الجهاد في سبيل اللَّه وقتال الأعداء ، لَعَمَّ الفساد في الأرض، وانتشر الخراب والدمار والظلم والطغيان ، وأكلَ القويُّ الضعيفَ ، وسيطرَ المشركون الظالمون على أتباع الأديان،ودمَّروا أماكنَ عبادتهم، وأهانوا مُقدَّساتهم، وألْغَوا الشعائرَ والطقوس الدينية ، وانقطعت العبادات بخراب أماكنها ، ولكنَّ اللَّه دَفَعَ شَرَّهم ، ومَنَعَ طُغيانهم بما شَرَعَه مِن جهادهم وقتالهم لتخويفهم وردعهم وإيقافهم عند حَدِّهم .

والآيةُ تشير إلى أهمية تخويف الظالم ، ورَدْعه ، ومَنْعه من تجاوز حُدوده ، باستخدام القوة القادرة على مَنْعِه مِن نشر الخراب والفساد والدمار . وَمَن أَمِنَ العُقوبةَ أساءَ الأدبَ .

لَوْلا ما شَرَعَه اللَّهُ للأنبياء والمؤمنين مِن الجهاد وقتال الأعداء وإقامة الحدود، وتسليط المؤمنين على الكافرين ، لاستولى المشركون على الأرض، ونشروا الفسادَ والخراب والدمار ، ودمَّروا مواضع العبادة ، وخُرِّبَتْ ودُمِّرَتْ معابد الرُّهبان (الصوامع)، وكنائس النصارى (البِيَع)، وكنائس اليهود (الصَّلَوَات) ، وسُمِّيت بهذا الاسم لأنَّه يُصَلَّى فيها ، ومساجد المسلمين التي يُعبَد اللَّه فيها ويُطاع ، ويُذكَر فيها اسْمُه العظيم صباحًا مساءً .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٥/ ٤٣٦ و٤٣٧) : ((فأمَّا الصَّوَامِع ، ففيها قَولان : أحدهما أنَّها صَوَامِع الرُّهبان ، قاله ابن عباس وأبو العالية ومُجاهد وابن زَيد . والثاني أنَّها صَوَامِع الصابئين ، قاله قَتادة وابن قُتَيبة. فأمَّا البِيَع ، فهي جَمْع بِيعة ، وهي بِيَع النَّصَارى . وفي المُراد بالصَّلَوَات قَولان : أحدهما مَوَاضع الصَّلَوَات ، ثُمَّ فيها قَولان : أحدهما أنها كنائس اليهود ، قاله قَتادة والضَّحاك . ... . والثاني أنَّها مساجد الصابئين ، قاله ابو العالية . والقول الثاني أنَّها الصَّلَوَات حقيقةً ، والمعنى : لَوْلا دَفْع اللَّه عن المسلمين بالمجاهدين ، لانقطعت الصَّلَوَات في المساجد، قاله ابن زَيد . فأمَّا المساجد ، فقال ابن عباس : هي مساجد المسلمين . وقال الزَّجاج: معنى الآية : لَوْلا دَفْع بَعْض الناس ببعض لَهُدِّمَتْ في زمن موسى الكنائس ، وفي زمن عيسى الصَّوَامع والبِيَع ، وفي زمن مُحَمَّد المساجد . وفي قَوله : ﴿ يُذْكَرُ فِيها اسْمُ اللَّهِ ﴾ قَولان : أحدهما أنَّ الكِنَاية تَرجع الى جميع الأماكن المَذْكُورات ، قاله الضَّحاك . والثاني إلى المساجد خَاصَّة ، لأن جميع المواضع المذكورة ، الغالب فيها الشِّرْك ، قاله أبو سُلَيمان الدمشقي)) .

المعنى العام : وَلَوْلا دَفْع اللَّه المشركين بالمسلمين ، وقيام المسلمين بكف أذى المشركين بقتالهم واستخدام القوة الرادعة ، لَهُدِّمَ في شريعة كُلِّ نبيٍّ مكان صلاتهم ومَوضع عبادتهم . لَهُدِّمَ في زمن موسى ﷺ الكنائس ، وفي زمن عيسى ﷺ الصوامع والبِيَع ، وفي زمن مُحَمَّد ﷺ المساجد. والآيةُ تنتقل من الأدنى إلى الأعلى ، ومِن الأقل إلى الأكثر، وُصُولًا إلى القِمَّة ، وهي المساجد ، لأنها الأماكن الصحيحة للعبادة ، وهي أكثر عُبَّادًا وعُمَّارًا . وأيضًا ، قُدِّمت أماكن العبادة لأهل الكتاب على مساجد المسلمين، لأنها أقدم بناءً، وأقرب مِن الهدم،والتصاق المساجد بِذِكْر اللَّه . وتَمَّ تخصيص المساجد بأنه يُذكَر فيها اسمُ اللَّه كثيرًا دُون غَيْرها مِن أماكن العبادة، تنويهًا بفضلها، وتعظيمًا لمكانتها، وتشريفًا لِقَدْرها، باعتبارها الأماكن الصحيحة للعبادة، والمواضع الحَقَّة للطاعة .

وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٦٦) : ((﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ الناسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ أي : لَوْلا ما شَرَعَه اللَّهُ تعالى للأنبياء والمؤمنين مِن قتل الأعداء ، لاستولى أهل الشِّرْك، وعطَّلوا ما بَيَّنته أرباب الدِّيانات من مواضع العبادات ، ولكنَّه دَفع بأن أوجب القتال ليتفرغ أهل الدِّين للعبادة ، فالجهاد أمر مُتقدِّم في الأمم ، وبه صَلَحَت الشرائع ، واجتمعت المُتَعَبَّدات ، فكأنه قال : أُذِنَ في القتال ، فليُقاتِل المؤمنون ، ثُمَّ قَوَّى هذا الأمرَ في القتال بِقَوله: ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ الناسَ ﴾ ، الآية. أي : لَولا القتال والجهاد لَتُغُلِّبَ على الحق في كل أُمَّة ، فمن استبشع من النصارى والصابئين الجهاد فهو مُناقض لمذهبه ، إذْ لَوْلا القتال لَمَا بَقِيَ الدِّين الذي يُذَبُّ عنه ، وأيضًا هذه المواضع التي اتُّخِذَتْ قبل تحريفهم وتبديلهم وقبل نَسْخ تِلك المِلَل بالإسلام ، إنَّما ذُكِرَتْ لهذا المعنى، أي : لَولا هذا الدَّفْع لَهُدِّمَ في زمن موسى الكنائس ، وفي زمن عيسى الصوامع والبِيَع ، وفي زمن محمد عليه السلام المساجد . ﴿ لَهُدِّمَتْ ﴾ ، مِن : هَدَمْتُ البناءَ ، أي : نَقَضْتُهُ فانهدمَ . قال ابن عطية : هذا أصوب ما قيل في تأويل الآية . ... . قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : تضمَّنت هذه الآية المنع مِن هدم كنائس أهل الذِّمة وبِيَعهم وبيوت نيرانهم ، ولا يُتْرَكُون أن يُحدِثوا ما لَم يَكُن ، ولا يزيدون في البُنيان ، لا سَعَة ولا ارتفاعًا ، ولا ينبغي للمسلمين أن يَدخلوها ، ولا يُصَلُّوا فيها ، ومتى أَحْدَثُوا زيادةً وَجَبَ نقضُها ، ويُنقَض ما وُجِد في بلاد الحرب مِن البِيَع والكنائس ، وإنَّما لَم يُنقَض ما في بلاد الإسلام لأهل الذِّمة ، لأنها جرت مجرى بيوتهم وأموالهم التي عاهدوا عليها في الصيانة ، ولا يجوز أن يُمَكَّنوا من الزيادة ، لأن في ذلك إظهار أسباب الكفر ، وجائز أن يُنقَض المسجد لِيُعاد بُنيانه . وقد فعل ذلك عُثمان ـ رضي اللَّهُ عنه ـ بمسجد النبيِّ ﷺ)) .

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ . قَسَمٌ إلهيٌّ عظيم ، واللَّهِ سَيَنْصُر اللَّهُ مَن يَنصُر دِينَه ورسولَه .

وقال الطبري في تفسيره (٩ / ١٦٢) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : وَلَيُعِينَنَّ اللَّهُ مَن يُقَاتِل في سبيله لتكون كَلِمته العُليا على عَدُوِّه ، فَنَصْر اللَّهِ عَبْدَه : مَعونته إيَّاه ، ونَصْر العبدِ رَبَّه : جِهاده في سبيله لتكون كلمته العُليا)) .

﴿ إنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيز ﴾ . إنَّ اللَّه على كُل شيء قدير ، إرادته نافذة في كُل شيء ، ولا يُعجِزه شيء ، قويٌّ على خَلْقِه ، لا يَغلِبه غالب ، ومَنِيع في سُلطانه ، لا يَقهره قاهر .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٠٢) : ((وَصَفَ نَفْسَه بالقُوَّة والعِزَّة ، فَبِقُوَّته خَلَقَ كُلَّ شيء ، فَقَدَّره تقديرًا ، وَبعِزَّته لا يَقهره قاهر ، ولا يَغلِبه غالب ، بَلْ كُل شيء ذليل لَدَيه ، فقير إليه، ومَن كان القويُّ العزيزُ ناصرَه ، فهو المَنصور ، وعَدَوُّه هو المَقهور)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ والذينَ هَاجَروا في سَبيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أوْ ماتوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وإنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازقين ﴾ [الحَج : ٥٨] .

والذين فَارَقوا أوطانَهم وديارَهم وتركوا أهلَهم وأموالَهم (هاجَروا مِن مَكَّة إلى المدينة) ، ابتغاءَ رضا اللَّه ، وطمعًا في أجْرِه وثوابه ، وجَاهَدوا الأعداءَ ، ثُمَّ قُتِلُوا في الجهاد ، أوْ ماتوا على فُرُشِهم ، لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ يوم القيامة في جَنَّاته رِزقًا كريمًا دائمًا بلا انقطاع. والرِّزقُ الحسَن هو الذي لا يَنقطع أبدًا ، وهو رِزق الجَنَّة . والآيةُ تُظهِر أنَّ نِيَّة المؤمن خَيرٌ مِن عَمله، وأنَّ المؤمن بإخلاصه ونِيَّته الصالحة يستطيع الوصول إلى أعلى الدَّرَجَات، لذلكَ سَوَّى اللَّهُ بَين مَن قُتِلَ في المعركة ، ومَن ماتَ على فِراشه .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٣٧) : ((وإنَّما سَوَّى بين مَن قُتل في الجهاد ، ومَن مات حَتْفَ أنفه في الوعد ، لاستوائهما في القَصْد وأصل العمل)) .

واللَّهُ أعظمُ مَن أعْطَى وخَيْرُ مَن مَنَحَ وتَفَضَّلَ، فهو المُتَفَضِّل على عباده ، يُعطي بلا حساب ، ويَرزق بلا خَوف مِن الفقر ، فخزائنُه سُبحانَه لا تَنفَد . ولا رازق سِواه . وما يُعطيه اللَّهُ لا يَقْدِر عليه غَيْرُه.وقد تَمَّ ذِكْر المهاجرين دُون غَيرهم،تعظيمًا لِشَأنهم، وتشريفًا لِقَدْرهم، وإظهارًا لمكانتهم.

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣١١) : ((يُخبِر تعالى عَمَّن خَرج مُهاجرًا في سبيل اللَّه ، ابتغاءَ مَرضاته ، وطَلَبًا لِمَا عِنده ، وتَرك الأوطانَ والأهْلِين والخِلَّان ، وفارقَ بلادَه في اللَّه ورسوله ونُصرة لِدِين اللَّه ، ثُمَّ قُتلوا ، أي في الجهاد ، أو ماتوا ، أي حَتْف أنفهم ، أي مِن غَير قتال على فُرُشِهم ، فقد حصلوا على الأجر الجزيل والثناء الجميل ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهاجِرًا إلى اللَّهِ ورَسولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ المَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أجْرُهُ على اللَّهِ ﴾. وقَوْلُه: ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ أي : لَيُجْرِيَنَّ عليهم مِن فَضْله ورِزْقه مِن الجَنَّة ما تَقَرُّ به أعينُهم)) .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٥٢٠) : عن سلمان قال : سَمِعْتُ رسول اللَّه ﷺ يقول : ((رِبَاطُ يَوْمٍ ولَيْلَةٍ خَيْرٌ مِن صِيامِ شَهْرٍ وَقِيامِه ، وإن مَاتَ جَرى عليه عَمَلُه الذي كان يَعمله ، وأُجْرِيَ عليه رِزْقُه ، وأَمِنَ الفَتَّانَ)) .

إذا مات العبدُ وهو مُلازِم ثَغْر مِن ثُغور المسلمين، لحمايتهم من الأعداء، فإنَّ أجْرَه مستمر بعد مَوته كما كان في حياته . وهذا المُرَابِط إذا ماتَ على ذلك ، فقد ظَهَرَ صِدْقُه وإخلاصُه ، ويُجري اللَّهُ عليه رِزْقَه كاملًا غَير مَنقوص ، ويُؤَمِّنه مِن فِتنة القبر . وهذا دليل على أنَّ ثواب مُرابَطته يَنمو ويَتضاعف .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٣/ ٦١) : ((هذه فضيلة ظاهرة للمُرَابِط ، وجَرَيَان عمله عليه بعد مَوته فضيلة مُختصة به ، لا يُشاركه فيها أحد ، وقد جاء صريحًا في غَير مُسلِم : "كُلُّ مَيِّت يُختَم على عمله إلا المُرَابِط ، فإنَّه يُنمَى له عَمَلُه إلى يوم القيامة ")) .

الرِّبَاطُ يعني مُلازمة المكان الذي بَين المُسلمين والكُفَّار لحماية المُسلمين ، وهو مِن الأعمال التي يُضَاعفها اللَّهُ تعالى حتَّى تكون أفضلَ مِن الصِّيام والقِيام .

ومَن رَابَطَ يومًا وليلةً في سبيل اللَّه ، كانت له أفضلَ مِن صِيام شهر تَطَوُّعًا وقِيامه ، وَإذا ماتَ المُرَابِط في سبيل اللَّه على تِلك الحال ، كَتَبَ اللَّهُ له مِن العمل ما كان يَعمل إلى يوم القِيامة ، وأجرى عليه رِزْقَه إلى يوم القيامة ، فيكون مِن الأحياء الذي يُرْزَقُون عِند رَبِّهم . وفي الحديث أنَّ اللَّه يَحْفَظ المُرَابِطَ مِن سؤال المَلَكَيْن في القَبْر ، لأنَّه قد فُتِنَ في الحياة بِتَحَمُّل المخاطر ، وألمِ القتل في سبيل اللَّه تعالى .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٤/ ١٣) : (((رِبَاط يوم) أي ثَواب رِبَاط يَوم (ولَيلة خَير مِن صِيام شهر وقِيامه) لا يُعارضه رواية : خَير من ألف يوم فيما سِواه من المنازل ، لاحتمال إعلامه بالزيادة أو لاختلاف العاملين أو العمل أو الإخلاص أو الزمن (وإن مات) أي المُرَابِط وإنْ لَم يَجْرِ له ذِكْر لِدَلالة قَوله (مُرَابِطًا) عليه (جرى عليه عمله) أي أجر عمله (الذي كان يعمله) حال رِباطه، أي: لا ينقطع أجره، وهذه فضيلة لا يَشْرَكه فيها أحد، ولا يُنافيه عَد جَمْع نَحْو عَشَرَة مِمَّن يجري عليهم ثوابهم بعد موتهم، لأن المجرى على هذا ثواب عمله وثواب رِباطه ، وأمَّا أُولئك فشيء واحد. قال الطيبي: ومعنى جرى عمله عليه، أن يُقَدِّر له من العمل بعد مَوته ، كما جرى مِنه قبل المَمَات (وأُجْرِيَ عَلَيه رِزْقُه) أي يُرزَق في الجَنَّة كالشهداء (وأَمِنَ) بفتح فكسر، وفي رواية بِضَم الهمزة وزيادة واو (مِن الفَتْن) بفتح الفاء، أي: فِتنة القبر، ورُوِيَ: وأَمِنَ فَتَّانَي القبر، أي اللذَيْن يَفْتِنان المقبورَ. وفي رواية بِضَمِّها، جمع فاتن، وتكون للجِنس أي كُل ذِي فِتنة أو هو من إطلاق الجمع على اثنين أو أكثر من اثنين أو على أنهم أكثر من اثنين فقد ورد ثلاثة وأربعة)).

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٥١٧) أنَّ النبيَّ ﷺ قال: ((مَنْ سَأَلَ الشَّهَادَةَ بِصِدْق، بَلَّغَه اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَداء ، وإنْ ماتَ على فِرَاشه)) .

مَنْ طَلَبَ الشَّهَادَةَ مِن اللَّه، ودَعَاه بِصِدْق وإخلاص أن يَنالها، أعطاه اللَّهُ أجرَ الشُّهَداء بِنِيَّته الصادقة ، وإنْ لَم يُصِب الشَّهَادَةَ . وهذا يدل على أهمية النِّية الصادقة ، وأنَّ نِيَّة المؤمن أَبْلَغ مِن عَمله، وأن النِّية الصادقة تُوصل المُؤمِنَ إلى أعلى المراتب وأرفع الدَّرَجات ، وإنْ ماتَ على فِرَاشه،

دُون أن يَقوم بأيِّ عمل . والحديثُ يَحُثُّ على عمل الخَير عُمومًا ، وضرورة أن يَنْوِيَه العبدُ ، وعلى طلب الشَّهَادة خُصُوصًا ، ومَن نَوَى خيرًا ، وحالَ بَينه وبَينه فِعْله حائل ، فإنَّه يُكتَب له أجرُه ، ونيَّةُ الخَير والإخلاص تُنْزِل الإنسانَ منازلَ عالية ، وإنْ لَم يَبْلُغْهَا بعمله .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٣/٥٥) : ((... إذا سَأل الشَّهَادَةَ بِصِدْق أُعْطِيَ مِن ثواب الشهداء، وإنْ كان على فِرَاشه. وفيه استحباب سُؤال الشَّهَادة ، واستحباب نِيَّة الخير)).

وفي عَون المَعبود (٤/ ٢٦٨) : (((مَن سَأل اللَّهَ الشَّهَادَةَ) أي: الموت شهيدًا (بِصِدْق) قُيِّدَ به لأنَّه مِعيار الأعمال ومِفتاح بَرَكَاتها (بلَّغه اللَّهُ منازلَ الشُّهَداء) مُجَازَاةً له على صِدْق الطَّلَب (وإنْ ماتَ على فِرَاشه) لأنَّ كُلًّا مِنهما نَوَى خَيْرًا ، وفَعَلَ مَقدوره ، فاستويا في أصل الأجر)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٦ / ١٤٤) : (((مَن سَأل اللَّهَ الشَّهادةَ بِصِدْق) قيَّد السؤال بالصِّدْق ، لأنَّه مِعيار الأعمال ، ومِفتاح بَرَكاتها ، وبه تُرجَى ثمراتها (بلَّغه اللَّهُ منازلَ الشُّهداء) مُجازاة له على صِدْق الطلب . وفي قَوله : (منازل الشهداء) ، بصيغة الجمع مُبالغة ظاهرة (وإنْ مات على فِرَاشه) لأنَّ كُلًّا مِنهما نَوى خيرًا ، وفَعَلَ ما يَقْدِر عليه ، فاستويا في أصل الأجر ، ولا يَلزَم مِن استوائهما فيه مِن هذه الجهة استواؤهما في كيفيته وتفاصيله ، إذ الأجر على العمل ونِيَّته ، يزيد على مُجرَّد النِّية ، فَمَن نوى الحَجَّ ولا مال له يَحُج به ، يُثاب دُون ثواب من باشرَ أعمالَه ، ولا رَيْبَ أن الحاصل للمقتول من ثواب الشهادة تَزيد كيفيته وصفاته على الحاصل للنَّاوي الميت على فِراشه ، وإنْ بَلَغَ منزلة الشهيد ، فَهُما وإن استويا في الأجر،لكن الأعمال التي قام بها العامل تقتضي أثرًا زائدًا ، وقُرْبًا خاصًّا ، وهو فضل اللَّه يُؤْتيه مَن يَشاء، فَعُلِمَ مِن التقرير أنَّه لا حاجة لتأويل البعض وتكلُّفه بتقدير "مِن" بعد قَوله : (بلَّغه اللَّهُ) فَأَعْطِ ألفاظَ الرسول ﷺ حَقَّها ، وأَنْزِلْها منازلَها ، يتبيَّن لك المُراد. وفيه نَدْب سؤال الشَّهادة بِنِيَّة صادقة)) .

وفي نَفْس المرجع (٦/ ١٧٥) : (((مَن طَلَبَ) أي : سَأل مِن اللَّه (الشَّهادةَ) أي أن يموت شهيدًا حال كَوْنه (صادقًا) أي : مُخْلِصًا في طلبه إيَّاها (أُعْطِيَهَا) بالبناء للمفعول ، أي : أجر الشهادة، بأن يُبلِّغه اللَّهُ منازلَ الشُّهداء ، كما فسَّره بذلك في رواية أُخْرَى (وَلَوْ لَمْ تُصِبْهُ) الشهادة بأن مات على فِراشه ، وذلك أمر لا يطَّلع عليه إلا اللَّه ، أوْ مَن أطلعه اللَّهُ عليه . وجواب " لَوْ " محذوف لِدَلالة ما قَبله عليه ، أوْ ما قَبله جواب . قال عِيَاض : هذا يدلُّ على أنَّ مَن نوى شيئًا من أفعال الخَير ، ولَم يَفعله لِعُذر ، يكون بمنزلة مَن عَمِلَه ، ويدلُّ على نَدْب سؤال الشهادة، ونيَّة الخَير ، لا يُقَال : سؤالها مَلزوم لِتَمَنِّي لقاء العدو المَنهي عنه ، لأنَّه لا يتعيَّن في سؤالها كَوْنه

على وجه يَلزَم منه ذلك ، بل يُمْكِنه أن يقول : اللهُمَّ إنْ قَضَيْتَ بِحُضوري لقاء العدو ، فَهَبْ لِيَ الشهادةَ ، أوْ ما في معنى ذلك)) .

وعن عبد اللَّه بن مسعود _ رضي اللَّهُ عنه _ قال : ((إنَّ الرَّجُلَ لَيَموتُ عَلى فِرَاشه وَهُوَ شهيد)) [٦٤].

إنَّ نِيَّة هذا الرَّجُل هي الجهاد في سبيل اللَّه تعالى . وكانَ مُخْلِصًا في نِيَّته بلا رِيَاء ولا سُمْعَة ، فإذا ماتَ على فِرَاشه وهو بهذه النِّية الصالحة فهو شهيد، تمامًا كالذي اسْتُشْهِدَ في أرض المعركة، وهو يُقاتل الأعداءَ.وهذا يدل على أهمية النِّية الصالحة، وضرورة أن يَنْوِيَ المؤمنُ عَملَ الصالحاتِ خالصةً لوجه اللَّه تعالى، كَي يُؤْجَرَ على نِيَّته ، حتى وإنْ عَجَزَ عن تَطبيقها على أرض الواقع .

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿يا عِبَادِيَ الذينَ آمَنُوا إنَّ أرْضِي وَاسِعَةٌ فَإيَّايَ فاعْبُدُونِ﴾ [العَنْكَبُوت: ٥٦].

يُخاطِب اللَّهُ عبادَه المؤمنين : يا عِبادِيَ الذين صَدَّقوا بِوَحدانيتي وبِنُبُوَّة مُحَمَّد ﷺ ، إنَّ أرضي واسعة ، فاخرُجوا من مكة (دار الكُفر) إلى المدينة (دار الإيمان)، ولا تُقيموا في مكانٍ تَعجَزون فِيه عن إقامة شعائر دِينكم . وهذا خِطابٌ تشريف لهم، حيث أضافهم اللَّهُ تعالى إلى ذاته العَلِيَّة : ﴿ يا عِبَادِيَ ﴾ ، والآيةُ تَحريضٌ لهم على الهِجرة. والمؤمنُ لا يظل مَعَ الكفار، ولا يَعيش بينهم ، إنْ كان لا يَستطيع أداء عباداته على أكمل وجه ، وإنَّما يَبحث عن أرضٍ يَعبد اللَّهَ فيها مَعَ عباده الصالحين . وكذلك كُل أرضٍ فيها مُنكَرات ويُعمَل فيها بالمعاصي، ولا يَستطيع المؤمن تغيير ذلك، فيجب الهِجرة مِنها إلى مكانٍ يَستطيع فيه المؤمن أن يَعبد اللَّهَ حَقَّ عبادته .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٥٦) : ((هذا أمرٌ مِن اللَّه تعالى لعباده المؤمنين بالهِجرة من البلد الذي لا يَقْدِرون فيه على إقامة الدِّين ، إلى أرض اللَّه الواسعة ، حيث يُمكن إقامة الدِّين بأن يُوحِّدوا اللَّهَ ، ويَعبدوه كما أمرهم)) .

ومعنى الآية : إنْ كُنتُم عاجزين عن إقامة شعائر دِينكم في مكة (دار الكفر) ، فهاجِروا إلى المدينة (دار الإيمان) فهي مكان مُناسب لعبادة اللَّه وَحْدَه ، بلا خَوف ولا قلق .

﴿ فَإيَّايَ فاعْبُدُونِ ﴾ فَخُصُّوني بالعبادة ، ولا تَعبدوا مَعي أحَدًا . وهذا الأمرُ لا يُمكن تطبيقه على أرض الواقع إلا بالهجرة إلى مكانٍ يُمكِن فيه عبادة اللَّه وَحْدَه ، بلا عوائق ولا عقبات .

---

٦٤ رواه الحاكم في المستدرَك(٢/ ١٢١). وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٢٤٥) : صحَّحه الحاكم عن ابن مسعود .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٢٨١) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ إنَّ أرْضِي وَاسِعَةٌ ﴾ ... وفيه ثلاثة أقوال: أحدها أنَّه خِطاب لِمَن آمنَ مِن أهل مكة . قِيل لهم : إنَّ أرضي ، يعني المدينة، واسعة. فلا تُجاوِروا الظَّلَمَة في أرض مكة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . وكذلك قال مُقاتل : نزلت في ضُعفاء مُسلمي مكة، أي : إنْ كُنتم في ضِيق بمكة من إظهار الإيمان ، فأرضُ المدينة واسعة . والثاني أنَّ المعنى إذا عُمِلَ بالمعاصي في أرض فاخرُجوا منها ، رواه سعيد بن جُبَير عن ابن عباس ، وبه قال عطاء . والثالث إنَّ رِزْقِي لكم واسع ، قاله مُطَرِّف بن عبد اللَّه . قَوْلُه تعالى : ﴿ فَإيَّايَ فاعْبُدُونِ ﴾ ... قال الزَّجاج:أمرَهم بالهجرة من الموضع الذي لا يُمكنهم فيه عبادة اللَّه إلى حيث تَتهيَّأ لهم العبادة)) .

وعن الزُّبَير بن العَوَّام ــ رضي اللَّهُ عنه ــ قال: قال رسول اللَّه ﷺ : ((البِلادُ بِلادُ اللَّهِ ، والعِبادُ عِبادُ اللَّهِ ، فَحَيْثُمَا أَصَبْتَ خَيْرًا فَأَقِمْ)) [٦٥].

هذا الحديثُ معناه صحيح ، لكنَّ سنده ضعيف . فعلى المؤمن أن يُهاجِر مِن بلده إذا كانَ لا يستطيع أن يَعبد اللَّهَ فيه براحة وطُمأنينة . وأرضُ اللَّه واسعة ، فلا معنى أن يَخسر المؤمنُ دِينَه مِن أجل حُب الوطن والأهل والعشيرة . لذلك ، لَمَّا ضاق الخِناق على ضُعفاء المسلمين في مكة ، وتَمَّ التشديد عليهم ومُحاصرتهم مِن قِبَل الكفار ، هَاجَروا إلى الحَبَشَة ، على أمل أن يَجِدوا مكانًا

---

٦٥ رواه أحمد في مسنده (١/ ١٦٦).وضعَّفه العراقي في تخريج الإحياء (١/ ٢٠٣). وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ١٢٦) : ((فيه جماعة لَم أعرفهم)) اهـ . وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٣/ ٢٢٣) : ((وهذا معنى قَوله: ﴿ يا عِبَادِيَ الذينَ آمَنُوا إنَّ أرْضِي وَاسِعَةٌ فَإيَّايَ فاعْبُدُونِ ﴾. وظاهره أنه لا فضل للزُوم الوطن والإقامة به على الإقامة بِغَيره ، لكنَّ الأَوْلَى بالْمُريد أن يُلازم مكانَه إذا لَم يكن قَصْدُه مِن السَّفر استفادة عِلْم، مهما سَلِمَ له حالُه في وطنه،وإلا فليطلب موضعًا أقرب إلى الخمول،وأسلم للدِّين، وأفرغ للقلب، وأيسر للعبادة، فهو أفضل . اهـ . وجرى على نَحْوه في الكَشَّاف فقال : معنى الآية أنَّه إذا لَم يَتسهَّل له العبادة في بلد هو فيه ، ولَم يَتَمَشَّ أمرُ دِينه كما يجب ، فليهاجر لبلد آخَر يُقَدِّر أنَّه فيه أسلم قلبًا ، وأصح دِينًا ، وأكثر عبادة ، وأحسن خُشوعًا . قال : وقد جَرَّبْنا فلم نجد أعْوَن على ذلك من مكة . (نُكتة) قال ابن الربيع : قال سُفيان الثَّوري: ما أدري أي البلاد أسكن، قِيل له: خُرَاسان، قال : مذاهب مختلفة وآراء فاسدة. قِيل: فالشام.قال: يُشار إليك بالأصابع. قِيل: فالعراق، قال: بلد الجبابرة. قيل : فمكة، قال : تُذيب الكَبِدَ والبَدَن)) .

يَعبدون اللَّهَ فيه بلا خوف ولا تضييق ، وقد آواهم النَّجَاشِيُّ مَلِكُ الحَبَشَة _ رضي اللَّهُ عنه _ ، وسمح لهم بالإقامة في بلده ، وأن يُمارِسوا شعائرَ دِينهم بكل حُرِّية ، ضِمن مجتمع الأمن والأمان. ثُمَّ بعد ذلك ، هاجرَ النبيُّ ﷺ والصحابة من مكة (دار الكفر) إلى المدينة (دار الإيمان) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ فَتَنُوا المُؤمنينَ والمُؤمناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الحَرِيقِ ﴾ [البُروج : ١٠] .

هذا تشديد إلهيٌّ للنكير على الكافرين الذي أجرموا بحق المؤمنين وعذَّبوهم .

إنَّ الذين عذَّبوا وأحْرَقُوا المؤمنين والمؤمنات بالنار ، لِيَفتنوهم عن دِينهم ، ثُمَّ لَم يَرجعوا عَن كُفرهم وطُغيانهم، فلهم عذاب جهنَّم الشديد في الآخرة بكُفرهم ، ولهم العذاب المُحْرِق بإحراقهم المؤمنين [٦٦]. والجزاء مِن جِنس العمل . ويُقَال : فَتَنْت الشَّيْءَ إذا أحرقته .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/٦٣٣): ((قَوله تعالى: ﴿ إنَّ الذينَ فَتَنُوا المُؤمنينَ والمُؤمناتِ ﴾ أي : حَرَقُوا . قاله ابن عباس ومُجاهد وقَتادة والضَّحاك وابن أبزى ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبوا ﴾ أي: لَم يُقْلِعُوا عمَّا فَعلوا ويَندَموا على ما أسْلَفُوا ، ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الحَرِيقِ ﴾ ، وذلك أن الجَزاء مِن جِنس العمل . قال الحسن البَصْري : انظروا إلى هذا الكرم والجُود ، قَتلوا أولياءه ، وهو يَدعوهم إلى التَّوبة والمغفرة)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٥٨٤) : ((بيَّن سُبحانَه ما أَعَدَّ لأولئك الذين فَعلوا بالمؤمنين ما فَعلوا مِن التحريق ، فقال : ﴿ إنَّ الذينَ فَتَنُوا المُؤمنينَ والمُؤمناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الحَرِيقِ ﴾ ، أي : حَرَقُوهم بالنار . والعرب تقول : فَتَنْت الشَّيء ، أي : أحرقته ، وفَتَنْت الدِّرْهَمَ والدِّينار : إذا أدخلته النارَ لِتنظر جودته ، ويُقَال : دِينار مَفتون ، ويُسمَّى الصائغ الفَتَّان . ... . وقيل : معنى فتنوا المؤمنين : مَحَنُوهم في دِينهم لِيَرجعوا عنه ، ثُمَّ لَم يَتوبوا مِن قَبيح صُنعهم ، ويَرجعوا عَن كُفرهم وفِتنتهم ، فلهم عذاب جهنم ، أي: لهم في الآخرة عذاب جهنم بسبب كُفرهم. ... . ولهم عذاب الحريق ، أي : ولهم عذاب آخَر زائد على عذاب كُفرهم،

---

٦٦ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٧٧و ٧٨) : ((وكِلا العَذَابَيْن في جهنَّم عند الأكثرين . وذهب الربيع بن أنس في جماعة إلى أن النار ارتفعت إلى الْمَلِك وأصحابه فأحرقتهم ، فذلك عذاب الحريق في الدُّنيا. قال الربيع: وقَبَضَ اللَّهُ أرواحَ المؤمنين قَبل أن تمسَّهم النار. وحكى الفَرَّاء أن المؤمنين نَجَوْا مِن النار، وأنها ارتفعت فأحرقت الكَفَرَةَ)) .

وهو عذاب الحريق الذي وَقَعَ مِنهم للمؤمنين . وقِيل : إنَّ الحريق اسم من أسماء النار كالسَّعِير. وقِيل : إنهم يُعذَّبون في جهنَّم بالزَّمهرير ، ثُمَّ يُعذَّبون بعذاب الحريق . فالأوَّل عذاب بِبَرْدها ، والثاني عذاب بِحَرِّها . وقال الربيع بن أنس : إنَّ عذاب الحريق أُصِيبُوا به في الدُّنيا ، وذلك أنَّ النار ارتفعت مِن الأُخدود إلى المَلِك وأصحابه فأحرقتهم ، وبه قال الكلبي)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أرَأيْتَ الذي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إذا صَلَّى (١٠) ﴾ [العَلَق] .

تعجيب من حال ذلك الكافر الفاجر الذي يَنهى عبدًا من عِباد اللَّه عن الصَّلاة ، ما أسخفَ عَقْلَه ! ، وما أسوأ فِعْلَه ! . تقبيحٌ لحال المجرم الطاغي ، وتَعجيب مِنها . إنها في غاية السُّوء بحيث تَدعو إلى العَجَب ، وتَشنيعٌ لِفِعْله حتى كأنَّه بحيث يَراه كُلُّ مَن تتأتَّى مِنه الرؤية .

وأجمعَ المُفسِّرون على أنَّ العبد المُصلِّي هو النبيُّ مُحَمَّد ﷺ ، وأنَّ الذي نهاه هو اللعين أبو جَهْل ، حيث توعَّد النبيَّ ﷺ على الصلاة عِند الكَعْبَة المُشَرَّفة ، وقال : لَئِن رأيتُ مُحَمَّدًا يُصَلِّي لَأطَأَنَّ على عُنُقه .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٩/ ١٧٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ أرَأيْتَ الذي يَنْهَى ﴾ ، معنى " أرأيت " تعجيب المُخَاطَب . ... . والمُراد بالنَّاهي هاهُنا أبو جَهْل . ... . قال المُفسِّرون: والمُراد بالعبد هاهُنا مُحَمَّد ﷺ . وقِيل : كانت الصلاة صلاة الظُّهْر)) .

وفي قَول اللَّه : ﴿ أرَأيْتَ الذي يَنْهَى (٩) عَبْدًا ﴾ ، كنَّى سُبحانَه بالعبد عن النبيِّ ﷺ ، ولَم يَقُل: يَنهاك ، تفخيمًا لشأنه ، وتعظيمًا لِقَدْره ، ورَفْعًا لمنزلته .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٥١٠) : ((ولفظ العبد وتنكيره للمُبالغة في تَقبيح النَّهْي ، والدَّلالة على كمال عبودية المَنْهِيِّ)) .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢١٥٤) : عن أبي هُرَيرة قال : قال أبو جَهْل : هل يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَه بَين أَظْهُرِكُم ؟ ، قال: فَقِيل : نَعَم ، فقال : واللاتِ والعُزَّى لَئِن رأيتُه يَفعل ذلك لَأطَأَنَّ على رَقَبته ، أوْ لَأُعَفِّرَنَّ وَجْهَه في التراب ، قال : فأتى رسولَ اللَّه ﷺ وهو يُصَلِّي ، زَعَمَ لِيَطَأَ على رَقَبته، قال: فما فَجِئَهُم مِنهُ إلا وهو يَنكُصُ على عَقِبَيْه، ويَتَّقي بِيَدَيْه ، قال : فقيل له : ما لَكَ ؟ ، فقال: إنَّ بَيني وبَينه لَخَنْدَقًا مِن نار وهَوْلًا وأجنحةً ، فقال رسولُ اللَّه ﷺ : ((لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ المَلائكةُ عُضْوًا عُضْوًا)) .

سأل أبو جَهْل : هَل يُصلِّي مُحَمَّد ويَسجد على التراب فِيما بَينكم ؟ ، فَقِيل : نعم ، فأقسمَ باللاتِ والعُزَّى (الصَّنَمَيْن المَعْبُودَيْن مِن دُون اللَّه تعالى) إذا رأى النبيَّ ﷺ يفعل ذلك أن يَدُوس

على رقبته ، فأتى النبيَّ ﷺ وهو يُصلِّي ، كَي يضع رِجْلَه على رقبته ، فما أتى قَوْمَه فُجَاءَةً مِنه ، أي: مِن النبيِّ ﷺ أوْ مِن إتيانه إليه ، إلا وأبو جَهْل يَنْكُص (يَرجع على عَقِبَيْه) ، ويتَّقي بيديه ، أي: يَحذَر بهما ، ويَدفع شيئًا بسببهما ، فَقِيل له : ما حصلَ لك مِن المَنْع ، وما وَقَعَ لكَ مِن الدَّفْع ؟ ، فقال إنَّ بَينه وبَين النبيِّ ﷺ لَخَنْدَقًا من نار وهَوْلًا ، أي : خَوْفًا وأمرًا شديدًا ، وأجنحةً ، والمقصود : الملائكة الذين يَحفظون النبيَّ ﷺ مِن كُل سُوء . وبيَّن النبيُّ ﷺ أنَّ أبا جَهْل لَوْ قَرُبَ عِنده ، لاسْتَلَبَتْهُ الملائكةُ بسُرعة عُضْوًا عُضْوًا ، والمعنى : لَأخَذَ كُلُّ مَلَكٍ عُضْوًا مِن أعضائه .

والحديثُ يُشير إلى حماية اللَّه للنبيِّ ﷺ مِن كَيْد الكافرين،وحِفْظِه مِن أذاهم،وعِصمته مِن شَرِّهم.

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ١٣٩ و١٤٠) : ((قَوله : (هَل يُعفِّر مُحَمَّدٌ وَجْهَه) أي : يَسجُد ويُلصِق وَجْهَه بالعَفَر ، وهو التُّرَاب . قَوله : (فما فَجِئَهم منه إلا وهو يَنكُص على عَقِبَيْه) أمَّا فَجِئهم فبكسر الجيم ، ويُقَال أيضًا : فَجَأهم ، لُغتان ، ويَنكُص : رَجَعَ على عَقِبَيْه يَمشي على ورائه . قَوله : (إنَّ بَيني وبَينه لَخَنْدَقًا مِن نار وهَوْلًا وأجنحةً كأجنحة الملائكة) ولهذا الحديث أمثلة كثيرة في عِصمته ﷺ مِن أبي جَهْل وغَيْرِه مِمَّن أرادَ به ضَرَرًا)) .

*

رابعًا : عدم التَّعَصُّب

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وقالت طائفةٌ مِن أهلِ الكتابِ آمِنُوا بالذي أُنزِلَ على الذينَ آمَنوا وَجْهَ النهارِ واكْفُروا آخِرَهُ لعلهم يَرْجِعُون ﴾[آل عِمران : ٧٢] [٦٧].

هذه خُدعة ومَكِيدة من بعضِ أهل الكتاب . فهذه الطائفةُ تأمرُ بتصديق النبيِّ مُحَمَّد ﷺ باللسان (ظاهرًا) والكُفرِ بِه بالقلب (باطنًا) . إنهم يَأمرون أتْبَاعَهم بإظهار الإيمان بِمُحَمَّد ﷺ والصلاة معه في بداية النهار ، والكفرِ بِه في آخِر النهار ، كي يُشكِّكوا الضُّعفاء بالإسلام ، ويقول الناسُ : هؤلاء أهلُ كِتاب ، ولَدَيْهم عِلْم ، وقد تَرَكوا الإسلامَ وفارَقوا المسلمين بسبب اطِّلاعهم على عُيوب الإسلام وضلالِ المسلمين .

وهذه الخُطَّةُ الجهنمية تهدف إلى تشكيك المسلمين بدِينهم ، لِكَوْنهم يعتقدون أن أهل الكتاب لَدَيْهم عُلوم دِينية، فإذا كفروا بعد إيمانهم ، فإن الشكوك والوساوس سَوْفَ تنتشر . واللَّهُ تعالى قد ثَبَّتَ قلوبَ المؤمنين ، وحَمَاهم من الشَّك والرِّيبة . وهذه الحِيلة تدل على خُبث اليهود، ومَكْرهم ، وحِقْدهم ، وحَسَدهم ، وقُدرتهم على التخطيط وحِياكة المؤامرات .

وقال القُرطبي في تفسيره (٤/ ١١٠) : ((ومعنى الآية أن اليهود قال بعضُهم لبعض : أَظْهِرُوا الإيمانَ بِمُحَمَّد في أوَّل النهار ، ثُمَّ اكفروا به آخِرَه ، فإنكم إذا فعلتُم ذلك ، ظهر لمن يَتَّبعه ارتياب في دِينه ، فيرجعون عَن دِينه إلى دِينكم ، ويقولون : إن أهل الكتاب أعْلَم بِه مِنَّا)) .

---

٦٧ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٠٥) : ((في سبب نزولها قَوْلان: أحدهما أن طائفة من اليهود قالوا : إذا لقيتم أصحاب محمد أول النهار فآمِنوا ، وإذا كان آخره فَصَلُّوا صلاتكم ، لعلهم يقولون : هؤلاء أهل الكتاب وهم أعْلم مِنَّا فينقلبون عن دِينهم، رواه عطية عن ابن عباس. وقال الحسن والسُّدي : تواطأ اثنا عشر حَبْرًا من اليهود ، فقال بعضُهم لبعض: ادخلوا في دِين محمد باللسان أول النهار واكفروا آخره ، وقولوا : إنَّا نظرْنا في كُتبنا وشاورنا علماءنا ، فوجدنا محمدًا ليس بذلك ، فَيَشُكُّ أصحابُه في دِينهم ، ويقولون : هُم أهل الكتاب وهم أعلم مِنَّا فيرجعون إلى دِينكم، فَنَزلت هذه الآية . وإلى هذا المعنى ذهب الجمهور . والثاني أن اللَّه تعالى صَرَفَ نَبِيَّه إلى الكعبة عند صلاة الظَّهْر ، فقال قَوْم مِن علماء اليهود: ﴿ آمِنُوا بالذي أُنزِلَ على الذينَ آمَنوا وَجْهَ النهارِ ﴾ يقولون: آمِنوا بالقِبْلة التي صَلُّوا إليها الصُّبْح،واكفروا بالتي صَلُّوا إليها آخر النهار، لعلهم يرجعون إلى قِبْلتكم ، رواه أبو صالح عن ابن عباس)).

و ﴿ وَجْهَ النهارِ ﴾ هو أحسنُ النهار ، وأوَّل ما يُواجِه الناظرَ ويراه . لذلك سُمِّيَ وَجْهًا . والمراد بِ﴿طائفةٌ ﴾كَعْب بن الأشرف(أحد زعماء اليهود)،ومالك بن الصَّيف(أحد أحبار اليهود).

إنَّ هذه الحِيلة اليهودية كانت سِرًّا بينهم ، وقد فَضَحَها اللَّهُ تعالى ، وفَضَحَهم ، وهذا إخبارٌ بأمرٍ غَيبيٍّ ، مِمَّا يدل على صِدْق القُرآن ، وأنَّه مِن عِندِ اللَّه الذي يَعْلَم الأمور الخَفِيَّةَ التي لا يَطَّلع عليها الناس. واللَّهُ تعالى حين كَشَفَ هذه الحِيلةَ بَطَلَ أثَرُها ، وانتهى تأثيرُها ، ولم تُؤثِّر على المسلمين بأي شكل ، وقد انقلبَ السِّحْرُ على الساحر .

وهذه الحِيلة _ لَوْ لَم تَظْهَرْ _ لكانَ من المُمكن أن تُؤَثِّر على أصحاب الإيمان الضعيف ، وتُحدِث بَلْبلةً في صفوف الجَماعة المُسْلِمة ، ولكنَّ اللَّه أظْهَرَها ، وأبطلَ مَفعولها ، وأراحَ المسلمين من التفكير فيها ، والانشغالِ بها . وبِمُجَرَّد ظُهورها انتهى وُجودُها. وإظهارُ هذه الحِيلة، وفَضْحُ اليهود، وكَشْفُ مَكْرِهم ، وإبطالُ خُطتهم الخبيثة ، كل هذه الأشياء تُشكِّل رادعًا لهم ، وتَمنعهم من التخطيط لِمِثْل هذه الحِيَل والمؤامرات مُسْتَقْبَلًا ، لأنهم أدْرَكوا أنَّ اللَّه لهم بالمِرْصاد، وسَيَفْضحهم على رؤوس الأشهاد ، وسيجدون أنفسهم في مَوْقِف شديد الإحراج ، ولَن يَعودوا إلا بالخِزْيِ والعار والفضيحة .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ولا تُؤْمِنُوا إلا لِمَن تَبِعَ دِينَكُم قُلْ إنَّ الهُدى هُدى اللَّهِ أن يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ أوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُم قُلْ إنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ واللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيم ﴾ [آل عِمران : ٧٣] .

هذه الآية ﴿ ولا تُؤْمِنُوا إلا لِمَن تَبِعَ دِينَكُم ﴾ مِن تَتِمَّة كلام اليهود بعضهم لبعض ، حكاه اللَّهُ عنهم. والمعنى: ولا تُصَدِّقوا وتطمئنوا لأحد إلا إذا وافقَ دِينَكم ، فكانَ يهوديًّا . لقد قال رؤساءُ اليهود للعَوَام والرَّعَاع : لا تُصدِّقوا تصديقًا صحيحًا إلا لِمَن تَبِعَ دِينَكم (اليهودية) .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٩٦): ((وقَوله تعالى : ﴿ ولا تُؤْمِنُوا إلا لِمَن تَبِعَ دِينَكُم ﴾، أي : لا تطمئنوا أوْ تُظهِروا سِرَّكم وما عندكم ، إلا لِمَن تَبِعَ دِينَكم ، ولا تُظهِروا ما بأيديكم إلى المسلمين فيؤمنوا به ، ويَحْتَجُّوا به عليكم)) .

قُلْ لهم يا مُحَمَّد : إنَّ الهُدى لَيس بأيديكم ، وإنَّما الهُدى هُدى اللَّه ، يَهدي مَن يَشاء إلى الإيمان، ويُثَبِّته عليه، كما هدى المؤمنين. أي إنَّ الدِّين دِين اللَّه ، وهو الإسلام، ومَا عَدَاه ضَلال.

وهذا يدلُّ على أنَّ مَكْرَ اليهود بلا فائدة ، وكَيْدَهم بلا طائل ، وحِيلتهم الساذَجة لا تَنطلي على المؤمنين ، الذي يَمتازون برجاحة العقل ، وبُعْد النظر ، وتمحيص الكلام ، وفحص المواقف.

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٩٦) : ((قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قُلْ إنَّ الهُدى هُدى اللَّهِ ﴾ ، أي : هو الذي يَهْدِي قُلوبَ المؤمنين إلى أتمِّ الإيمان بما يُنزِّله على عبده ورسوله مُحَمَّد ﷺ مِن الآيات البَيِّنات ، والدلائل القاطعات ، والحُجَج الواضحات ، وإن كتمتم أيها اليهود ما بأيديكم مِن صِفة مُحَمَّد النبيِّ الأُمِّي في كُتبكم التي نقلتموها عن الأنبياء الأقدمين)) .

يقول اليهودُ بعضُهم لبعض : لا تُصَدِّقوا إلا لِمَن كانَ يهوديًّا ، ولا تُؤْمِنُوا بأن يُحَاجُّوكم عِند رَبِّكم ، لأنكم أصَح دِينًا مِنهُم ، فلا يكون لهم الحُجَّة عليكم . أوْ : ولا تُظهِروا إيمانكم بأن يُؤتى أحد مِثْل ما أُوتيتم إلا لأشياعكم ، ولا تُفْشُوه إلى المسلمين ، لئلا يزيد ثباتُهم ، ولا إلى المشركين لئلا يَدعوهم إلى الإسلام . وقِيل : المعنى : لا تُخبِروا بما في كتابكم مِن صِفة مُحَمَّد ﷺ إلا مَن تَبعَ دِينَكم لِئلا يكون ذلك سببًا لإيمان غَيرهم بِمُحَمَّد ﷺ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٩٦): ((وقَوله: ﴿ أن يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ أوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُم ﴾ ، يقولون: لا تُظهِروا ما عِندكم مِن العِلْم للمُسلمين ، فيتعلَّموه مِنكم ، ويُسَاووكم فيه، ويَمتازوا به عليكم لِشِدَّة الإيمان به ، أوْ يُحَاجُّوكم به عِند رَبِّكم ، أي : يتَّخذوه حُجَّةً عليكم بما في أيديكم ، فتقوم به عليكم الدَّلالة ، وتتركَّب الحُجَّةُ في الدُّنيا والآخرة)) .

وقال الصابوني في صَفوة التفاسير (٢/ ٣١) : ((يقول اليهودُ بعضُهم لبعض : لا تُصَدِّقوا إلا لِمَن تَبعَ دِينَكم ، وانظُروا فِيمَن ادَّعى النُّبُوَّة ، فإنْ كان مُتَّبِعًا لِدِينكم ، فَصَدِّقُوه ، وإلا فَكَذِّبُوه، ولا تُقِرُّوا ولا تَعترفوا لأحدٍ بالنُّبُوَّة إلا إذا كان على دِينكم ، خَشيةَ أن يُؤْتَى أحدٌ مِثْل ما أُوتيتم ، وخَشيةَ أن يُحَاجوكم به عند رَبِّكم ، فإذا أقررتم بِنُبُوَّة مُحَمَّد ولَم تَدخلوا في دِينه ، تكون له الحُجَّة عليكم يوم القيامة . وغَرَضُهم نَفْي النُّبُوَّة عن رسول اللَّه ﷺ)) .

قُل لهم يا مُحَمَّد : إنَّ الفَضْل والخَيْر كُلَّه بيد اللَّه ، يُؤْتِيه مَن يَشاء .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٩٦) : ((قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قُلْ إنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾ ، أي : الأُمُور كُلها تحت تصرُّفه ، وهو المُعطِي المانع ، يَمُنُّ على مَن يَشاء بالإيمان والعِلْم والتَّصَوُّر التام ، ويُضِل مَن يَشاء ، فَيُعْمِي بَصَرَه وبَصِيرته ، ويَخْتِم على قَلْبه وسَمْعه ، ويَجعل على بَصَره غِشَاوَةً ، وله الحُجَّة التَّامَّة ، والحِكمة البالغة)) .

﴿ واللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيم ﴾ . واللَّهُ كثير العطاء ، واسع الإنعام ، يَعْلَم مَن هو أهل له .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٣١١) : ((﴿ قُلْ ﴾ يا مُحَمَّد لهؤلاء اليهود الذين وَصَفْتُ قَوْلَهم لأوليائهم : ﴿ إنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ ﴾ . إنَّ التوفيق للإيمان والهِداية للإسلام بيد اللَّه ، وإلَيه

دُونَكم ، ودُون سائر خَلْقِه ، ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾ مِن خَلقِه ، يَعني : يُعطيه مَن أرادَ مِن عِباده ، تكذيبًا مِن اللَّه عَزَّ وَجَلَّ لهم في قَولهم لأتْبَاعهم : لا يُؤْتَى أحد مِثْل ما أُوتيتم ، فقالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّه ﷺ : قُلْ لهم : لَيس ذلك إليكم ، إنَّما هو إلى اللَّه الذي بيده الأشياء كُلُّها ، وإليه الفضل ، وبيده يُعطيه مَن يَشاء ، ﴿ واللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيم ﴾ ، يعني : واللَّهُ ذُو سَعَة بِفَضْله على مَن يَشاء أن يتفضَّل عليه ، عَلِيم ذُو عِلْم بِمَن هو مِنهُم للفَضْل أهل)) .

لقد فضح اللَّهُ اليهودَ ، وأظهرَ مَكْرَهم وكَيْدَهم وكلامَهم الواهي ، كَي يَحذَر المؤمنون مِنهُم ، فلا يَشَكُّوا في الإسلام ، ولا يَرتابوا في صِحَّةِ نُبُوَّةِ مُحَمَّد ﷺ .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (١/ ٤٠٦ و٤٠٧) : ((قَوله تعالى: ﴿ ولا تُؤْمِنُوا إلا لِمَن تَبِعَ دِينَكُم ﴾ . اختلفَ العلماءُ في توجيه هذه الآية على أربعة أقوال: أحدها أنَّ معناه : ولا تُصَدِّقُوا إلا مَن تَبِعَ دِينَكم ، ولا تُصَدِّقُوا أن يُؤْتَى أحدٌ مِمَّا أُوتيتم مِن العِلْمِ ، وفَلْقِ البحر، والمَنِّ والسَّلوى، وغَير ذلك ، ولا تُصَدِّقُوا أن يُجادلوكم عِند رَبِّكم ، لأنكم أصَح دِينًا مِنهُم ، فيكون هذا كُلُّه مِن كلام اليهود بَينهم ، وتكون اللام في (لِمَن) صِلَة ، ويكون قَوْلُه تعالى : ﴿ قُلْ إنَّ الهُدى هُدى اللَّهِ ﴾ كلامًا مُعْترِضًا بَين كلامَيْن ، هذا معنى قَول مُجاهد والأخفش . والثاني أنَّ كلام اليهود تام عِند قَوله : ﴿ لِمَن تَبِعَ دِينَكُم ﴾ ، والباقي مِن قَول اللَّه تعالى ، لا يَعترضه شيء مِن قَوْلهم ، وتقديره : قُل يا مُحَمَّد : إنَّ الهُدى هُدى اللَّه أن يُؤْتَى أحدٌ مِثْل ما أُوتيتم يا أُمَّةَ مُحَمَّد ، إلا أن تُجادلكم اليهودُ بالباطل ، فيقولون : نحن أفضل مِنكم ، هذا معنى قَول الحسن وسعيد بن جُبَير. قال الفَرَّاء : معنى ﴿ أن يُؤْتَى ﴾ أن لا يُؤْتَى . والثالث أنَّ في الكلام تقديمًا وتأخيرًا ، تقديره : ولا تُؤْمِنُوا أن يُؤْتَى أحدٌ مِثل ما أُوتيتم إلا مَن تَبِعَ دِينَكم ، فَأُخِّرَتْ (أن) وهي مُقَدَّمة في النِّية على مذهب العرب في التقديم والتأخير ، ودخلت اللام على جهة التَّوكيد . ... . والرابع أنَّ اللام غير زائدة ، والمعنى : لا تجعلوا تصديقَكم النبيَّ في شيء مِمَّا جاء به إلا لليهود ، فإنكم إنْ قُلْتُم ذلك للمُشركين كان عَوْنًا لهم على تصديقه ، قاله الزَّجاج . وقال ابن الأنباري : لا تُؤْمِنُوا أنَّ مُحَمَّدًا وأصحابَه على حَق ، إلا لِمَن تَبعَ دِينَكم ، مَخَافَةَ أن يَطَّلع على عِنادكم الحَق ، ويُحَاجُوكم به عند رَبِّكم . فعلى هذا يكون معنى الكلام : لا تُقِرُّوا بأن يُؤْتَى أحدٌ مِثل ما أُوتيتم إلا لِمَن تَبعَ دِينَكم . وقد ذكر هذا المعنى مكيُّ بن أبي طالب النَّحْوي . ... . وفي قَوله تعالى : ﴿ أَوْ يُحَاجُوكُمْ عِندَ رَبِّكُم ﴾ قَولان : أحدهما أنَّ معناه : ولا تُصَدِّقُوا أنَّهُم يُحَاجُوكم عِند رَبِّكم ، لأنَّهم لا حُجَّةَ لهم ، قاله قَتادة . والثاني أنَّ مَعناه : حتى يُحَاجُوكم عِند رَبِّكم على طريق التَّعَبُّد ، كما يُقَال : لا يَلْقَاه أوْ

تقوم الساعة ، قاله الكِسَائي . قَوله تعالى : ﴿ إنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ ﴾ ، قال ابن عباس : يعني النُّبُوَّةَ والكِتَابَ والهُدى ، ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾ لا ما تَمَنَّيْتُمُوه أنتم يا مَعْشَرَ اليهود مِن أنَّه لا يُؤْتَى أحدٌ مِثل ما أُوتيتم)) .

إنَّ الدَّعوة الإسلامية مِنهاجٌ إنساني عقلاني مُتكامل ، لا مكان فيه للإكراه والتَّعَصُّب والتسليم الأعمى.وهذا المِنهاج قائم على الشريعة الدينية السَّمْحَة، ويحتوي على الأدلة والحُجَج والبراهين، ويجيب عن أسئلة الناس ، ويَحُل مُشكلاتهم ، فَيُزيل الشُّكُوكَ ، ويُثَبِّت مكانَها اليقين . لا يَقمَع الآخرين ، ولا يُجبِرهم على اعتناق الإسلام بالسَّيف ، فالدِّين _ في حقيقته _ تسليمٌ قلبي ، والسَّيفُ لا يُمكن أن يصل إلى القلوب .

وقد امتازَ المسلمون بطرح التَّعَصُّب جانبًا ، واتِّبَاع الحَق أيْنَمَا وُجِدَ ، فالحِكمةُ ضالَّةُ المؤمن أنَّى وَجَدَها التقطها ، فهو أحق بها ، وينبغي أخذ الحِكمة لا يَضُرُّكَ مِن أيِّ وعاء خَرَجَتْ . والتَّعَصُّبُ مِن صِفات الكافرين الذي لا يَملِكون الأدلةَ ، أمَّا التسامح فَمِن صِفات المؤمنين الذي يَملِكون الأدلةَ النقلية والعقلية ، والقادرين على الحِوار والنِّقَاش وإقامة الحُجَّة وقَطْع العُذر .

والمنهجُ القُرآنيُّ واضحٌ في بيان أهمية اعتناق الحَقِّ ، وَرَفْضِ التَّعَصُّب: ﴿ وإنَّا أوْ إيَّاكُم لَعَلَى هُدًى أوْ في ضَلالٍ مُبِين ﴾ [سَبَأ : ٢٤] .

نحن أوْ أنتم إمَّا على هُدى أوْ ضَلال ، وهذا نهاية الإنصاف معَ الخَصْم . وهذا كما تقول لصاحبك إذا كَذَبَ : أحَدُنا كاذب ، وتَعْنِيه .

والمُؤمنون يَعْلَمُون أنهم أصحاب الإيمان والحَق ، وأنَّهم على الهُدى ، وغَيرهم على الضلال. وهذا الأسلوب اللغوي في المُحَاجَجَة ﴿ وإنَّا أوْ إيَّاكُم ﴾ يُشير إلى المُسَامَحَة ، وتلطيف الأجواء ، وجذب قلوب الخُصُوم ، لا أنَّ المؤمنين أصحاب شَك أوْ عدم إيمان . وهذا مِن الأدب في المُنَاظَرَة ، وحُسْنِ التَّخَاطُب والمُحَاوَرة . وفي الإبهام تلطُّف بِهِم دَاعٍ إلى الإيمان إذا وُفِّقُوا له .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٣٩٩) : ((ليس هذا على طريق الشَّك ، ولكن على جهة الإنصاف في الحِجَاج ، كما يقول القائل للآخَر : أحَدُنا كاذب ، وهو يَعْلَم أنَّه صادق ، وصاحبه كاذب. والمعنى: ما نحن وأنتم على أمر واحد، بل أحد الفريقين مُهْتَدٍ، والآخَر ضَال، فالنبيُّ ﷺ ومَن اتَّبعه على الهُدى ، ومَن خالفه في ضَلال ، فَكَذَّبهم مِن غَير أن يُصرِّح بالتكذيب)) .

هُناك فريقٌ واحد على الحَق، والآخَر على الباطل، فَمِن المُحَال أن يكون الطَّرَفَان على الحَق . فأحَدُ الفَرِيقَيْن مُهْتَدٍ، والآخَر ضال. والمؤمنون هُم على الحَق ، فقد قدَّموا البراهين النقلية والعقلية

على التوحيد ، وأقاموا الحُجَّةَ على المشركين الذين عَجَزُوا عن تقديم أيِّ دليل يشير إلى صِحَّة عقيدتهم الوثنية ، وقَطَعُوا أعذارَهم .

وعلى الجانب الآخَر نَجِد تَعَصُّبَ الكافرين ، وعِنادهم ، واعتناقهم للباطل بدون حُجَّة أوْ بُرهان . وقد ذَكَرَ اللَّهُ قَوْلَهم : ﴿ ولا تُؤْمِنُوا إلا لِمَن تَبِعَ دِينَكُم ﴾ ، أي : لا تُصدِّقوا وتطمئنوا وتُظهِروا سِرَّكُم إلا لِمَن تَبِعَ دِينَكم . وفي هذه الآية توضيح بليغ لِتَعَصُّب الكافرين ، واتِّبَاعهم لأهوائهم ومصالحهم الشخصية ، وانحرافهم عن طريق الحق والبحث عن الحقيقة . فالمُتَعَصِّب هو إنسان فاقدٌ لِبُوصلة الإنصاف، يتَّبع هَوَاه بِغَير عِلْم ، ويَترك عَقْلَه جانبًا .وَلَوْ كان باحثًا عن الحق لَبَذَلَ في سبيل تحصيله الغالي والنَّفِيسَ ، وأخذه بغضِّ النَّظر عن مصدره . لكنَّ ضُغوطات الأهواء والمنافع والنفوذ والمكاسب الدُّنيوية الدنيئة أدَّتْ إلى حَجْب نُور الحق عن عقل ذلك الإنسان، تمامًا كالسِّتَارة التي تمنع وُصول ضوء الشمس إلى الغُرفة .

والقاعدةُ الذهبية في هذا السِّياق هي : اعْرِف الحَقَّ تَعْرِفْ رِجَالَه . فالرِّجَالُ يُعرَفون بالحَق ، والحَق لا يُعرَف بالرِّجَال . وهذا يَطرح التَّعَصُّبَ جانبًا .كما أنَّ التَّعَصُّب يَأخذ أشكالًا مُتَعَدِّدة ، مِثْل التَّعَصُّب للمَذهبِ ، أو القبيلةِ ، أو الآباء ، أو الرَّأي ، ... إلخ . وهو بالتأكيد صِفَةٌ جاهليَّة ، تتفشَّى في البيئات الجاهلة المُفتقدة إلى قِيمَةِ العِلْم ، وسُمُوِّ الحَق ، ورِفْعَةِ الخُلُق .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٤٧٦) : عن أبي هريرة _ رضي اللَّهُ عنه _ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: ((مَن خَرَجَ مِنَ الطاعة ، وفارقَ الجماعةَ فَمَات ، ماتَ مِيتةً جاهليَّةً ، ومَن قاتلَ تَحْتَ رايةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَة ، أوْ يَدعو إلى عَصَبَة ، أو يَنْصُرُ عَصَبَةً ، فَقُتِلَ ، فَقِتْلَةٌ جاهليَّةٌ ، ...)) .

مَن خَرَجَ مِن طاعة الإمام ، وفارقَ جماعة الإسلام ، فَمَات على ذلك ، ماتَ عَلى الضَّلال ، لأنَّه مُفَارِق للجماعة ، عاصٍ لِوَلِيِّ أمره ، ومَن قاتلَ تحت راية عِمِّيَّة ، نِسبةً إلى العَمَى ، الذي لا يستبين فيه وجه الحق من الباطل ، يَغضب لِمَحْضِ التَّعَصُّب لِقَومه ، أوْ يَدعو إلى قَومه ، أوْ يَنصُر قَوْمَه ، لا لِنُصرة الدِّين والحَقِّ ، فَيُقَاتِل بِغَير بصيرة وعِلْم تَعَصُّبًا كَقِتال الجاهليَّة ، ولا يَعرِف المُحِقَّ مِن المُبطِل ، فَقُتِلَ وهو على تِلك الحال ، فهو مِن الضَّالِّين كأهل الجاهليَّة .

والحديثُ يأمر بطاعة الأمراء على كُل حال فِيما يُرْضِي اللَّهَ تعالى ، ويُوضِّح أهمية مُلازَمَة الجَمَاعة ، ويَنهَى عن القِتال عَصَبِيَّةً . وبالتأكيد ، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم(١٢/٢٣٨و٢٣٩): ((قَوله ﷺ: (مَن فارقَ الجماعةَ ماتَ مِيتةً جاهليَّةً) هي بكسر المِيم ، أي : على صِفة مَوْتهم مِن حَيث هُم فَوضى لا إمام لهم.

قَوله ﷺ : (ومَن قاتلَ تحت راية عِمِّيَّة) ، ... ، قالوا : هي الأمر الأعمى لا يستبين وَجْهُه ، كذا قاله أحمد بن حنبل والجُمهور . قال إسحاق بن رَاهَوَيْه : هذا كَتَقَاتُل القَوم للعَصَبِيَّة . قَوله ﷺ : (يَغضَب لِعَصَبَة أوْ يَدعو إلى عَصَبَة أوْ يَنصُر عَصَبَةً) ، ... ، ومعناها أنَّه يُقَاتِل لِشَهوة نَفْسِه وغَضَبِه لها . _ وذَكَرَ النووي حديث : _ " يَغضَب للعَصَبَة ويُقَاتل للعَصَبَة " ، ومعناه : إنَّما يُقَاتل عَصَبِيَّةً لِقَوْمه وهَوَاه)) .

إنَّ الشخص المُنضوي تحت راية عَمْيَاء ، إنَّما خَضَعَ لها ، لأنه أعمى البصيرة ، تُحرِّكه الأهواءُ والمصالح الشخصية والعَصَبِيَّة القَبَلِيَّة . فهو يُقَاتِل لِشَهْوة نَفْسِه وغَضِبه ، ونُزُولًا عن رأي قبيلته ، وتَعَصُّبًا لها دون تمييز الحَق من الباطل . فهذا إنْ قُتِلَ على ذلك ، فَقِتْلَةٌ جاهلية لا نصيب للإسلام فيها ، لأنها لا تَقُوم على الإخلاص للَّه تعالى ، والالتزام بالسُّنَّة النبوية الشريفة .

يَجب على المَرء أن يُوطِّن نَفْسَه على الخُضُوع للحَق ، وأن يتقبَّله بِصَدْر رَحْب بغض النظر عن مَصدره ، لئلا يكون من الذين تأخذهم العِزَّةُ بالإثم فيتمسَّكون بالباطل تَبَعًا للهوى ، وحِفْظًا لمكانتهم أمام الناس ، فاتِّبَاعُ الحق هو الشرف الأسمى ، والسَّعيُ وراء الحق والحقيقة في كُلِّ زمان ومكان ، يدلُّ على رجاحة عقل الإنسان ومنزلته الرفيعة . كما أنَّ الرُّجوع إلى الحَق خَيْرٌ مِن التمادي في الباطل ، والمُرَاوَغَةِ ، والتحايلِ ، والعِنَادِ ، ومُحاولةِ الالتفاف على الحَق هُرُوبًا مِنه .

قال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٣٥٤) : ((والمُتَعَصِّب وإنْ كان بصرُه صحيحًا ، فبصيرته عَمياء ، وأُذُنه عن سَماع الحَق صَمَّاء ، يَدفع الحَقَّ وهو يظنُّ أنَّه ما دفع غير الباطل ، ويَحسَب أنَّ ما نشأ عليه هو الحق غَفْلَةً مِنه وجَهْلًا بما أوجبه اللَّهُ عليه من النظر الصحيح ، وتلقِّي ما جاء به الكتاب والسُّنَّة بالإذعان والتسليم)) .

يأبى الفتى إلا اتِّبَاعَ الهَوى   ومنهج الحق له واضح

إنَّ الدَّعوة الإسلامية لَيْسَتْ فِعْلًا ارتجاليًّا حماسيًّا عَلى غَير هُدى . ولا تكفي النِّيةُ الصالحة وَحْدَها في صناعة مشروع دَعَوي مُتماسك . فالنِّيةُ الصالحة لا تُصلِح العملَ الفاسد . وكما يُقَال: إنَّ الطريق إلى الجحيم مُعبَّد بالنوايا الحسنة ! . إذن ، لا بُدَّ مِن وجود هدف تنطلق مِنه الدَّعوة، ووجود مسار مستقيم لكي تَسير عليه الدَّعوة ، فتجب معرفة القواعد الشرعية التي تُوضِّح ماهيَّةَ الدَّعوة . وعلى الدَّاعية أن يدرس طبيعةَ الناس واستعدادهم النَّفْسِي لِتَقَبُّل الكلام الإيماني ، ويدرس _ كذلك _ حركةَ التاريخ والتغيرات المجتمعية والاختلافات البشرية ، كي تكون الدَّعوةُ أشد تأثيرًا في النُّفوس ، وليس كلامًا في الهواء يملأ المجالس دُون نتائج ملموسة .

خامسًا : التَّشَدُّد مع الكُفَّار المُقَاتِلِين

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وقَاتِلُوهُم حتى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ ويَكُونَ الدِّينُ للَّهِ فإنِ انتَهَوْا فلا عُدوانَ إلا على الظالمين ﴾ [البقرة : ١٩٣] [٦٨].

قَاتِلُوا المُشركين حتى لا يَكون شِرْك، أي : حتى يُسْلِمُوا. والوثنيُّ خائنٌ خِيانة عُظمى ، لا يُقْبَل مِنه إلا الإسلام أو القتل ، ولا تُقْبَل مِنه جِزْيَة . ويكون الدِّين خالصًا للَّه ، ويَخْلُص له التَّوحيد ، وتَكون العبادة والطاعة للَّه وَحْدَه،لا شريك له .

وقال الطبري في تفسيره (٢/ ٢٠٠) : ((يقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه مُحَمَّد ﷺ : وَقَاتِلُوا المُشركين الذين يُقَاتلونكم حَتَّى لا تَكُون فِتنة ، يعني حتى لا يكون شِرْك باللَّه ، وحتى لا يُعبَد دُونَه أحد، وتضمحل عبادة الأوثان الآلهة والأنداد ، وتكون العبادة والطاعة للَّه وَحْدَه ، دُون غَيره مِن الأصنام والأوثان)) .

فإن انتهى المشركون عن الكُفر، واعتنقوا الإسلام، فلا تَقْتلوهم ، لأنهم صاروا إخوانكم في الدِّين. ولا عُدوان إلا على المشركين الذين ظَلموا أنفسَهم باختيار الكُفر على الإيمان ، وتعريض أنفسهم لعذاب اللَّه وعُقوبته . وهذا أسوأ أنواع الظُّلْم ، حيث يَظلم الإنسانُ نَفْسَه ، ويَقُودها إلى الهلاك الأكيد والعذاب الشديد .

والمقصودُ بالعُدوان هو الظُّلْم . والعُدوان على الظالمين هو جزاء الظالمين . وقد سَمَّى جَزَاءَ الظالمين ظُلْمًا للمُشَاكَلَة (المُمَاثَلَة) ، وهي ذِكْرُ الشيء بغَيْر لفظه ، لوقوعه في صُحبته . والظالمون في الآية هُم المُشركون .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٠٧): ((قَوله: ﴿ فإنِ انتَهَوْا فلا عُدوانَ إلا على الظالمين ﴾ يقول تعالى : فإن انتَهَوْا عمَّا هُم فيه مِن الشِّرْكِ وقِتالِ المؤمنين ، فَكُفُّوا عَنهُم ، فإنَّ مَن قاتلهم بعد ذلك ، فهو ظالم ، ولا عُدوان إلا على الظالمين . وهذا معنى قَول مُجاهد أن لا يُقَاتَل إلا مَن

---

٦٨ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢٠٠) : ((قال ابن عباس والحسن ومُجاهد وقَتادة في آخرين : الفِتنة هاهُنا الشِّرْك . قَوله تعالى : ﴿ ويَكُونَ الدِّينُ للَّهِ ﴾ . قال ابن عباس: أي يَخْلُص له التَّوحيد. والعُدوان الظُّلْم، وأُرِيدَ به هاهُنا الجَزَاء،فَسُمِّيَ الجَزَاء عُدوانًا مُقَابَلَةً للشيء بمِثْله ... . والظالمون هاهُنا المشركون ، قاله عِكرمة وقَتادة في آخرين)) .

قَاتَلَ، أو يكون تقديرُه : فإن انتهَوْا تَخَلَّصُوا مِن الظُّلْم ، وهو الشِّرْك ، فلا عُدوان عليهم بعد ذلك. والمُراد بالعُدوان هَهُنا المُعَاقَبَة والمُقَاتَلَة)) .

إنَّ الأمر بالقتال في هذه الآية له هدفٌ واضح ، وهو حتى لا تكون فِتنة ، وهي الشِّرْك ، ويكون الدِّين للَّه خالصًا دُون شُركاء وانحرافات عَقَدِيَّة.وهذا مُنتهى الحَزْم معَ الذين يُحاولون فِتنة الناس عن دِينهم ، وإعادتهم إلى الكُفر والغِواية.وإذا قاموا بالامتناع عن شِركهم، وأفعالهم الحربية ، فيتم الكف عن قتالهم ، ولا يُقَاتَل إلا المُعتدون ، الذين رفضوا إنهاء أفعالهم الحربية ، وجرائمهم بحق المسلمين بكافة أشكالها . وإذا انتهى المشركون عن شِركهم ، وكَفُّوا عن قتال المسلمين ، فينبغي الكَفُّ عن قتالهم ، وعدم الاعتداء عليهم . وفي صحيح البخاري (٦/ ٢٥٩٨) : عن سعيد بن جُبَير قال : خَرَجَ عَلَينا عبد اللَّه بن عُمر ، فَرَجَوْنا أن يُحَدِّثنا حديثًا حسنًا . قال : فَبَادَرَنا إليه رَجُل ، فقال : يا أبا عبد الرحمن، حَدِّثْنا عن القتال في الفِتْنَة، واللَّهُ يقول: ﴿ وقَاتِلُوهُم حتى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ . فقال: ((هل تَدْري ما الفِتنة ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ ؟، إنَّما كان مُحَمَّد ﷺ يُقَاتِل المُشركين ، وكان الدُّخُولُ في دِينهم فِتنةً ، وليس كقتالهم على المُلْك)) .

إنَّ النبيَّ ﷺ كان يُقَاتِل المُشركين حتى يكون التَّوحيدُ خالصًا للَّه وَحْدَه ، بلا شريك ولا نِد ، ولا يُعبَد إلا اللَّه ، ولا يُفْتَن مؤمن عن دِينه ، ولَم يَكُن ﷺ يُقَاتِل على الدُّنيا وجَمْع حُطامها الفاني ، والحصول على المُلْك ، ونَيْلِ الجاه والحَظوة والأموال والمناصب . وقد قاتلَ الصحابةُ القِتَالَ الحَقَّ على عهد النبيِّ ﷺ ، حِينَ كان أتباعُ الإسلام قليلين ، فكان الرَّجُل يُفْتَن في دِينه، إمَّا أن يَقتله الكُفَّارُ، وإمَّا أن يُعذِّبوه حتى يَرتد عن دِينه . فلمَّا كَثُرَ المسلمون لَم تَكُن فِتنة .

وحاصل جواب ابن عُمر ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ أنَّ الضمير في قَوله تعالى: ﴿ وقَاتِلُوهُم ﴾ يعود على الكُفَّار،فأمرَ اللَّهُ المؤمنين بقتال الكُفَّار حتى لا يَبقى أحد يُفْتَن عن الإسلام،ويَرتد إلى الكُفْر.

وقد بَذَلَ الصحابةُ ــ رضي اللَّهُ عنهم ــ أرواحَهم رخيصةً في سبيل اللَّه تعالى ، وكَي يَكُون الدِّين للَّه تعالى ، أي : يَكون دِين اللَّه (الإسلام) هو الظاهر العالي على سائر الأديان .

وعن أبي موسى قال : جاء رَجُل إلى النبيِّ ﷺ ، فقال : الرَّجُل يُقَاتِل حَمِيَّةً ، ويُقَاتِل شَجَاعَةً ، ويُقَاتِل رِيَاءً ، فأيُّ ذلك في سبيل اللَّه ؟ ، قال : ((مَن قاتلَ لِتَكون كلمةُ اللَّهِ هي العُليا ، فهو في سبيل اللَّه)) [٦٩].

---

٦٩ متفق عليه. البخاري (٦/ ٢٧١٤) برقم (٧٠٢٠)، ومسلم (٣/ ١٥١٢) برقم (١٩٠٤) .

سَأل رَجُلٌ النبيَّ ﷺ عن حقيقة القتال في سبيل اللَّه ، فالرَّجُل يُقَاتِل حَمِيَّةً ، مِن أجل الأهل والعشيرة والصاحب ، ويُقَاتِل شَجَاعَةً ، أي إنَّه رَجُل شُجَاع يُحِبُّ القِتالَ لإظهار قُوَّته وشجاعته ، ويُقَاتِل رِيَاءً، لِيُرى مكانه،أي:لِيَراه الناس، ويَعرِفوا أنَّه مِقْدَام وشُجَاع وفارس مِغوار . فأجابه النبيُّ ﷺ أنَّ مَن قاتلَ لِتَكون كلمة اللَّه هي العُليا،وكانت غايته ونيَّته مِن قِتاله أن تُصبح كلمةُ التَّوحيد هي الكلمة النافذة في هذه الأرض، التي لها سُلطانها الذي لا يُرَد،وسَيطرتها التي لا تُحَد، فهو في سبيل اللَّه ، وهو المُجَاهِد الحقيقي ، الذي إنْ قُتِلَ نالَ الشَّهَادَةَ ، وإنْ رَجَعَ رَجَعَ بأجرٍ وغنيمةٍ .

والحديثُ يُوضِّح أنَّ النِّية الصالحة شرط لقَبول الأعمال عِند اللَّه تعالى ، وبِدُون النِّية الصالحة يُصبح العملُ بلا نفع ولا فائدة ، وأنَّ الفضل الوارد في المُجاهدين يَختص بِمَن قَاتَلَ لإعلاء كلمة اللَّه تعالى . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٣/ ٤٩) : ((قَوله ﷺ : " مَن قاتلَ لِتَكون كلمةُ اللَّه هي العُليا فهو فى سبيل اللَّه " . فيه بيان أنَّ الأعمال إنَّما تُحسَب بالنِّيات الصالحة ، وأنَّ الفضل الذي ورد فى المُجاهدين في سبيل اللَّه يَختص بِمَن قاتلَ لِتَكون كلمةُ اللَّه هي العُليا . قَوله : (الرَّجُل يُقَاتِل للذِّكْر) أي لِيَذكره الناس بالشجاعة ، وهو بكسر الذال . قَوله : (ويُقَاتِل حَمِيَّةً) هي الأنَفَة والغَيرة والمُحَامَاة عَن عَشيرته)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٦/ ١٨٧) : (((مَن قاتلَ لِتَكون كلمة اللَّه) أي : كلمة تَوحيده ، وهي الدَّعوة إلى الإسلام (هي العُليا) بِضَم العَين تأنيث أعلى (فَهُوَ) أي: المُقَاتِل (في سبيل اللَّه) قدَّم " هُوَ " لِيُفيد الاختصاص ، فَيُفْهَم أنَّ مَن قاتلَ للدُّنيا ، أو للغنيمة ، أو لإظهار نَحْو شجاعة ، أوْ ذَب عن نَفْس ، أوْ مال ، فليس في سبيل اللَّه ، ولا ثواب له . نَعَم مَن قاتلَ للجَنَّة وَلَم يَخطُر بباله إعلاء كلمة اللَّه فهو كالمُقَاتِل للإعلاء ، إذْ مَرجعهما وهو رضا اللَّه واحد ، كذا قِيل . وهل يُشْتَرَط مُقَارَبَة قَصْد الإعلاء للقتال أوْ يَكفي عند التَّوَجُّه ؟ ، رجَّح البعضُ الثاني ، لكن أقول : يُشْتَرَط أن لا يأتيَ بِمُنَافٍ بَينهما كما هو ظاهر)) .

وقال اللَّهُ تعالى : ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كما كَفَروا فَتَكُونونَ سَواءً فلا تتَّخذوا مِنهُم أولياءَ حتى يُهاجِروا في سَبيلِ اللَّهِ فَإن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُم واقْتُلُوهُم حَيْثُ وَجَدتمُوهُم ولا تَتَّخِذُوا مِنهُم وَلِيًّا ولا نَصِيرًا ﴾ [النِّساء : ٨٩] [٧٠].

---

٧٠ للهِجْرة أنواع ، مِنها : ١ـ الهِجْرة إلى المدينة لحماية النبيِّ ﷺ ونُصرته.وكانت هذه واجبة في بداية الإسلام. وعن ابن عباس ــرضي اللَّهُ عنهما ــقال : قال رسول اللَّه ﷺ : ((لا هِجْرَةَ بعد الفَتْح ــ أي

تَمَنَّى هؤلاء المنافقون أن تَكفروا أيها المؤمنون كما كفروا ، فتصبحوا مُستوين أنتم وهُم في الكُفر والضلال . وهذا يُشير إلى كُفرهم وغُلُوِّهم وعِنادهم وتبجُّحهم وشِدَّة عداوتهم وبُغضهم .

لقد كَشَفَ اللَّهُ ما في قُلوبهم ، كَي يَحْذَر المؤمنون مِنهُم ، ويأخذوا الحَيْطَةَ والحَذَر في التعامل معهم ، ويَكونوا مُنتبهين ، ومُستعدين لكل الظروف والاحتمالات . ودائمًا ، عُنصرُ المُفاجأةِ قَاتِلٌ .

أمرَ اللَّهُ بالبراءة مِنهم . لا تَعتبروهم أصدقاء ولا إخوانًا ، ولا تُوالوهم ، حتى يُؤْمنوا باللَّه ، ويُهاجِروا في سبيله ابتغاءَ مَرضاته لا طلبًا لِمَتاع الدنيا الزائل وحُطَامها الفاني . ولا شَكَّ أن تحقيق إيمانهم يَكون بالهِجرة ، فهي الدليل العمليُّ الصادقُ على صِحَّة الإيمان .

فتح مكة_ ، ولكنْ جِهادٌ ونِيَّة ، وإذا استنفرتم فانفِروا)) [متفق عليه . البخاري (٣ / ١٠٢٥)، ومسلم (١٤٨٨/٣)]. فوجوبُ الهِجرة من مكة قد انقطع بفتحها لأنها صارت دارَ إسلام. ولكن بقي الجهادُ حَسَبَ الأوضاع المختلفة، وإذا تَمَّت الدَّعوةُ إلى الجهاد فلا بد من الإجابة وعدم القُعود . فإذا طلب الإمامُ الناسَ للجهاد فعليهم الخروج. وإذا فات الناسَ تحصيلُ ثواب الهجرة بسبب انقطاعها، فما زال بابُ الخير وتحصيل الأجر مفتوحًا بالجهاد والنِّية الصالحة . والجدير بالذِّكر أنَّ في الحديث بِشارة تتعلَّق باستمرار مكة دارَ إسلام حتى يوم القيامة . وقد نقل النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٣/ ٨) تأويلَيْن للحديث: ((أحدهما: لا هِجرة بعد الفتح من مكة لأنها صارت دارَ إسلام،فلا تُتَصَوَّر منها الهجرة. والثاني: وهو الأصح أنَّ معناه أن الهِجرة الفاضلة المهمة المطلوبة التي يمتاز بها أهلها امتيازًا ظاهرًا انقطعت بفتح مكة ومضت لأهلها الذين هاجروا قبل فتح مكة ، لأن الاسلام قَوِيَ وعَزَّ بعد فتح مكة عِزًّا ظاهرًا بخلاف ما قَبْلَه)) اهـ . ٢_ هِجرة المنافقين مع النبيِّ ﷺ في الغَزَوَات،وهِجرة الذين أسْلَمُوا في دار الحرب، وهي هِجرة واجبة. ٣_ هِجرة المسلم المحرَّمات والذُّنوب . كما قال النبيُّ ﷺ : ((والمهاجِرُ مَن هَجَرَ ما نهى اللَّهُ عنه))[صحيح البخاري(١٣/١)].وقال الحافظ في الفتح(١١/ ٣١٩): ((قِيل: خُصَّ الْمُهَاجِر بالذِّكر تطييبًا لقلب مَن لَم يُهاجر من المسلمين لفوات ذلك بفتح مكة، فأعلمهم أنَّ مَن هَجَرَ ما نهى اللَّهُ عنه كان هو الْمُهَاجِر الكامل،ويُحتمَل أن يكون ذلك تنبيهًا للمُهاجرين أن لا يَتَّكلوا على الهِجرة فَيُقَصِّروا في العمل.وهذا الحديث من جوامع الكَلِم التي أُوتيها ﷺ، واللَّه أعلم)) . ٤_ هِجرة العُصاة تأديبًا لهم ، فلا يتم التعامل معهم بأي شكل حتى يَتوبوا . كما فعل النبيُّ ﷺ مع الذين تخلَّفوا عن غَزوة تَبُوك (كَعْب بن مالك ، ومَرَارة بن الربيع ، وهلال بن أُمَيَّة) .

إنَّ اللَّه مَنَعَ مُوالاتهم ـ وإنْ أظْهَروا الإيمانَ ـ حتى يُهاجروا مع المؤمنين هِجرةً خالصةً للَّه ، تُحقِّق إيمانَهم ، لا لغرض دُنيويٍّ . وعندئذٍ ، يَصيرون مِثْل المؤمنين ، وعلى قَدَم المُساواة مَعَهم .

فإن أعْرَضُوا عن الهِجرة في سبيل اللَّه ، فَخُذوهم أيُّها المؤمنون إذا قَدَرْتُم عليهم ، واقتلوهم حَيث وَجدتموهم في حِلٍّ أوْ حَرَم ، ولا تَتَوَلَّوْهُم ، ولا تَستنصروا بهم على عدوكم . أي : جَانِبوهم رأسًا ، ولا تَقْبَلُوا مِنهُم وَلاية ولا نُصرة .

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ١٩٨) : ((يَعني جَلَّ ثناؤه بِقَوله : ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كما كَفَروا ﴾ ، تمنَّى هؤلاء المُنافقون الذين أنتم أيها المؤمنون فِيهم فِئتان أن تَكفروا فَتَجْحَدُوا وَحدانيةَ رَبِّكم ، وتصديقَ نَبِيِّكم مُحَمَّد ﷺ ﴿ كما كَفَروا ﴾ ، يقول : كَمَا جَحَدُوا هُم ذلك ، ﴿ فَتَكُونونَ سَواءً ﴾ ، يقول : فَتَكُونون كُفَّارًا مِثْلَهُم ، وتَسْتَوُون أنتم وهُم في الشِّرْك باللَّه ، ﴿ فلا تتَّخذوا مِنهُم أولياءَ حتى يُهاجِروا في سَبيلِ اللَّهِ ﴾ ، يَقول : حتَّى يَخرجوا مِن دار الشِّرْك ، ويُفارِقُوا أهلَها الذين هُم باللَّه مُشركون إلى دار الإسلام وأهلها ﴿ في سَبيلِ اللَّهِ ﴾ يعني : في ابتغاء دِين اللَّه ، وهو سبيله ، فَيَصِيروا عِند ذلك مِثْلَكم ، ويكون لهم حِينئذ حُكْمُكم . ... . القَول في تأويل قَوله : ﴿ فَإن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُم واقْتُلُوهُم حَيْثُ وَجَدتمُوهُم ولا تَتَّخِذُوا مِنهُم وَلِيًّا ولا نَصِيرًا ﴾ . يعني بذلك جَلَّ ثناؤه : فإنْ أدبرَ هؤلاء المُنافقون عن الإقرار باللَّه ورسوله ، وتَوَلَّوْا عن الهِجرة من دار الشِّرْك إلى دار الإسلام ، ومِن الكُفْر إلى الإسلام ، ﴿ فَخُذُوهُم ﴾ أيُّها المؤمنون ﴿ واقْتُلُوهُم حَيْثُ وَجَدتمُوهُم ﴾ مِن بلادهم وغَير بلادهم ، أين أصبتموهم مِن أرض اللَّه ﴿ ولا تَتَّخِذُوا مِنهُم وَلِيًّا ولا نَصِيرًا ﴾ ، يقول : ولا تتَّخذوا مِنهُم خَليلًا يُوَاليكم على أُمورِكم ، ولا ناصرًا يَنصُركم على أعدائكم، فإنَّهُم كُفَّار لا يَألونكم خَبَالًا وَدُّوا ما عَنِتُّم . وهذا الخَبَر مِن اللَّه جَلَّ ثناؤه إبانة عن صِحَّة نِفاق الذين اختلف المؤمنون في أمرهم ، وتحذير لِمَن دافعَ عنهم عَن المُدَافَعَة عَنهُم)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٢/ ١٥٥ و١٥٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كما كَفَروا ﴾ ، أخبرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ المُؤمنين بما في ضمائر تِلك الطائفة لِئلا يُحْسِنُوا الظنَّ بهم ، ولا يُجَادِلوا عنهم ، وَلِيَعْتَقِدُوا عَدَاوتهم. قَوله تعالى: ﴿ فلا تتَّخذوا مِنهُم أولياءَ ﴾ ، أي: لا تُوَالوهم فإنَّهم أعداء لكم ، ﴿ حتى يُهاجِروا ﴾ ، أي : يَرْجِعُوا إلى النبيِّ ﷺ . قال ابن عباس : فإنْ تَوَلَّوْا عن الهِجرة والتَّوحيد ، ﴿ فَخُذُوهُم ﴾ ، أي : ائْسِرُوهم ، واقتلوهم حيث وجدتموهم في الحِلِّ والحَرَم . فصل . قال القاضي أبو يعلى : كانت الهِجرة فَرْضًا إلى أن فُتِحَتْ مكة . وقال الحسن : فَرْض الهِجرة باقٍ . واعْلَم أنَّ الناس في الهِجرة على ثلاثة أَضْرُب : مَن تَجب عليه ، وهو الذي لا

يَقْدِر على إظهار الإسلام في دار الحَرْب ، خَوْفًا على نَفْسِه ، وهو قادر على الهِجرة ، فتجب عليه لِقَوله : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أرضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيها ﴾ [النِّساء : ٩٧]. والثاني: مَن لا تَجِب عليه، بَل تُسْتَحَب له،وهو مَن كان قادرًا على إظهار دِينه في دار الحرب.والثالث: مَن لا تُسْتَحَب له،وهو الضعيف الذي لا يَقْدِر على إظهار دِينه ولا على الحركة،كالشَّيخ الفاني والزَّمِن (المُصاب بمرض مُزْمِن) ، فَلَم تُسْتَحَب له لِلُحُوق المَشَقَّة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنوا لا تتَّخذوا اليهودَ والنصارى أولياءَ بَعْضُهُم أولياءُ بَعْضٍ ومَن يَتَوَلَّهُم مِنكُم فإنَّهُ مِنهُم إنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظالمين ﴾ [المائدة : ٥١] [٧١].

هذا نهيٌّ إلهيٌّ عن مُوالاةِ اليهود والنصارى واتخاذهم أنصارًا ، تَنصرونهم ، وتستنصرون بهم ، وَتُؤَاخونهم ، وتُصَافونهم ، وتُعاشرونهم مُعاشرة المؤمنين، فَهُم أعداءُ اللَّه وأعداء المؤمنين. بعضُهم أولياء بعض ، وهُم مُتَّفقون على مُحاربة الإسلامِ وأهْلِه، وهُم يدٌ واحدة على المُسلمين لاتِّحادهم في الكُفر والضَّلال،فالكُفْرُ مِلَّةٌ واحدة،ومُوالاةُ الكُفَّار تُنافي الإيمانَ، وتتعارض معه. لذلك لا يَجوز الاعتماد عليهم ، ومعاملتهم مُعاملة الأحباب والأصفياء . ومَن والاهم فهو مِنهُم ، مَنسوبٌ إليهم ، ومَحسوبٌ عليهم، وحُكْمُه حُكْمُهم . وهذا تشديدٌ مِن اللَّه على ضَرورة مُجانبة المُخَالِف في الدِّين واعتزاله . واللَّهُ لا يُرْشِد الذينَ ظَلموا أنفسَهم بِمُوالاة الكُفَّار إلى الإيمان ، بَل يَتركهم فَيغرقون في الكُفر والضَّلال .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٣٣) : ((﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنوا لا تتَّخذوا اليهودَ والنصارى أولياءَ ﴾ ، فلا تَعتمدوا عليهم ، ولا تُعَاشروهم مُعاشرةَ الأحباب ﴿ بَعْضُهُم أولياءُ بَعْضٍ ﴾ إيماء إلى عِلَّة النَّهْي ، أي : فإنَّهم مُتَّفقون على خِلافكم ، يُوَالي بعضُهم بعضًا لاتِّحادهم في الدِّين

٧١ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٧٧) : ((﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنوا لا تتَّخذوا اليهودَ والنصارى أولياءَ ﴾ ، في سبب نزولها ثلاثة أقوال : أحدها أنها نزلت في أبي لُبَابة حِين قال لبني قُرَيْظة إذا رَضُوا بحُكْم سعد إنَّه الذَّبْح ، رواه أبو صالح عن ابن عباس وهو قول عِكْرمة. والثاني أن عُبادة بن الصامت قال: يا رسول اللَّه، إنَّ لِي مَوالِي مِن اليهود، وإني أبرأ إلى اللَّه مِن وَلاية يهود ، فقال عبد اللَّه بن أُبَي: إنِّي رَجل أخاف الدوائر، ولا أبرأ إلى اللَّه مِن وَلاية يهود ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله عطية العَوفي . والثالث أنَّه لَمَّا كانت وَقعة أُحُد خافت طائفة من الناس أن يُدَال عليهم الكفارُ ، فقال رَجل لصاحبه : أمَّا أنا فألحق بفُلان اليهودي فآخذ منه أمانًا أو أتهوَّد معه ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله السُّدي ومُقاتل)) .

وإجماعهم على مُضَادتكم ، ﴿ ومَن يَتَوَلَّهُم مِنكُم فإنَّهُ مِنهُم ﴾ ، أي : وَمَن والاهم مِنكُم ، فإنَّه مِن جُملتهم.وهذا التشديد في وُجوب مُجانبتهم كما قال عليه الصلاة والسلام: "لا تَتَراءى ناراهُمَا"[٧٢]، أوْ لأنَّ المُوَالي لهم كانوا مُنافقين ، ﴿ إنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظالمين ﴾ ، أي : الذين ظَلموا أنفسَهم بِمُوالاة الكُفَّار ، أو المؤمنين بِمُوالاة أعدائهم)) .

وعن عِياض الأشعري عن أبي موسى رضي اللَّهُ عنه ، أن عُمر رضي اللَّهُ عنه أمَرَه أن يَرفع إليه ما أَخَذَ وما أعطى في أديم واحد ، وكان لأبي موسى كاتب نَصراني يَرفع إليه ذلك ، فَعَجِبَ عُمر رضي اللَّهُ عنه ، وقال : إنَّ هذا لَحَافِظ . وقال : إنَّ لنا كتابًا في المسجد ، وكان جاء من الشام فَادْعُهُ فليقرأ . قال أبو موسى : إنَّه لا يَستطيع أن يَدخل المسجد، فقال عُمر رضي اللَّهُ عنه : أَجُنُبٌ هُوَ ؟ . قال: لا ، بَل نَصراني . قال : فانتَهَرَني ، وَضَرَبَ فَخِذِي . وقال : أَخْرِجْهُ . وقرأ : ﴿ يا أيها الذينَ آمَنوا لا تتَّخذوا اليهودَ والنصارى أولياءَ ﴾ الآية . قال أبو موسى : واللَّهِ ما تَوَلَّيْتُهُ ، إنَّما كان يَكتب . قال : أمَا وَجَدْتَ في أهل الإسلام مَن يَكتب لك ، لا تُدْنِهم إذْ أقصاهم اللَّهُ ، ولا تَأمنهم إذْ خوَّنهم اللَّهُ ، ولا تُعِزَّهم بعد إذْ أذَلَّهم اللَّهُ [٧٣].

ينبغي على المسلمين ألا يُسَلِّموا رِقابَهم وأمورَهم المالية والعسكرية للكفار ، خصوصًا اليهود والنصارى ، لأنهم بذلك يَطَّلعون على أسرار المسلمين ونقاط قُوَّتهم ونقاط ضَعْفهم ، وهذا بحد

---

٧٢ روى أبو داود في سُننه (٢/ ٥٢) أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((أنا بريء مِن كُلِّ مُسلِم يُقيم بين أظْهُر المشركين))، قالوا: يا رسول اللَّه ، لِمَ ؟، قال: ((لا تَرَاءى ناراهما)).وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٤٦٠): ((" أنا بريء مِن كُل مسلم أقامَ مع المشركين ، لا تَرَاءى ناراهما " . رواه الطبراني ورجاله ثقات)) اهـ . والمعنى : لا يجوز للمسلم أن يَسكن بلادَ الشِّرْك فيكون معهم ، بحيث يرى كُلُّ واحد منهما نارَ صاحبه ، فجعل الرؤية للنار . ويجب على المسلم أن يتباعد منزله عن منزل المشرك ، وينزل معَ المسلمين في دارهم ، وهو حَث على الهِجرة . وإنَّما كَرِهَ مُجاورة المشركين ، لأنهم لا عهد لهم ولا أمان . في عَون المعبود (٧/ ٢١٩) : ((وقال الخطَّابي: في معناه ثلاثة وجوه. قِيل: معناه لا يَستوي حُكْمُهما. وقِيل : معناه أنَّ اللَّه فرَّق بين دَارَي الإسلام والكُفر ، فلا يجوز لمسلم أن يُسَاكِن الكُفَّارَ في بلادهم حتى إذا أَوْقَدُوا نارًا كان مِنهُم بحيث يَرَاها . وقِيل : معناه لا يتَّسم المسلم بِسِمَة المشرك ، ولا يتشبَّه به في هَدْيه وشكله)) .

٧٣ رواه البَيهقي في سُننه (١٠/ ١٢٧)برقم (٢٠١٩٦).وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٦/ ٣٥٠): أخرجه البَيهقي بسند قال ابن حجر : حسن .

ذاته اختراقٌ أمني . وعلى المسلمين أن يَبحثوا عن أصحاب الكفاءات من أبناء دِينهم ، ويَنبغي ألا يُقرِّبوا الكفارَ، لأنَّ اللَّه طَرَدهم وأبْعَدَهم ، ولا يَأمنوهم ، ولا يَثقوا بهم ، لأنَّ اللَّه كَشَفَ خِيانتهم ، ولا يُعِزُّوهم ، لأنَّ اللَّه أذَلَّهم بسبب كُفرهم وضلالهم وذُنوبهم ومعاصيهم وصِفاتهم السَّيئة .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الذينَ كَفروا فَهُم لا يُؤْمِنُون ﴾[الأنفال : ٥٥] .

إنَّ شَرَّ مَن يَدِبُّ على وَجه الأرض في عِلْم اللَّه وحُكْمه وقَضَائه ، الذينَ كذَّبوا بآيات اللَّه ، وجَحَدُوا نُبُوَّةَ مُحَمَّد ﷺ ، وأصَرُّوا على كُفرهم وضَلالهم وعِنادهم واستكبارهم ، فهُم لا يُصَدِّقون بالوَحْي ولا بالنُّبُوَّة ، ولا يُرجَى إيمانُهم ، ولا يُتَوَقَّع مِنهم خَير ، ولا يُنْتَظَر مِنهم صَلاح .

وهذا الحُكْم الإلهيُّ بسبب إصرارهم على الكفر ، وغرقهم في الضلال ، وتماديهم في الجُحود والعِناد . وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٣/ ٣٧١) : ((عن ابن عباس : نَزلت في بني قُرَيظة مِن اليهود ، مِنهم كَعْب بن الأشرف وأصحابه)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٤٦٤): ((قَوله: ﴿ إنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ ﴾ أي : شَر ما يَدِبُّ على وجه الأرض ﴿ عِندَ اللَّهِ ﴾ أي : في حُكْمه ﴿ الذينَ كَفروا ﴾ ، أي : المُصِرُّون على الكُفر ، المُتمادون في الضَّلال ، ولهذا قال : ﴿ فَهُم لا يُؤْمِنُون ﴾ ، أي : إن هذا شأنهم لا يُؤْمنون أبدًا ، ولا يَرجعون عَن الغِواية أصلًا . وجَعَلَهم شَرَّ الدواب لا شَر الناس إيماءً إلى انسلاخهم عن الإنسانية ، ودخولهم في جِنس غَير الناس من أنواع الحيوان ، لعدم تعقُّلهم لِمَا فيه رَشادهم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ الذينَ عَاهَدتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُم في كُلِّ مَرَّةٍ وَهُم لا يَتَّقُون ﴾ [الأنفال : ٥٦] .

الذينَ عاهدتهم يا مُحَمَّد على ألا يُعينوا المُشركين ، ثُمَّ يَستمرون على نَقْض عُهودهم مَرَّةً بعد مَرَّة ، وهُم لا يتَّقون اللَّه في غَدْرِهم ونَقْضِ عُهودهم ، ولا يَخافون عاقبته ، ولا يتجنَّبون أسبابَه .

إنَّ شَرَّ ما دَبَّ على الأرض هُم الكُفَّار ، الذين كُلَّمَا عَاهَدُوا عهدًا نَقَضُوه ، وكُلَّمَا أكَّدوه بالأيمان نَكَثُوه ، وهُم لا يخافون مِن اللَّه في شيء ارتكبوه مِن المعاصي والذُّنُوب .

وهؤلاء هُم يهود بني قُرَيظة ، عاهدهم النبيُّ ﷺ ألا يُحاربوه، ولا يُعاونوا عليه المشركين ، فنقضوا العهدَ ، وأعانوا عليه كُفَّارَ مَكَّة بالسِّلاح ، ثُمَّ قالوا : نَسِينا وأخطأنا ، فعاهدهم مَرَّةً أُخرى ، فَنَقَضُوا العهدَ ، وسَانَدُوا الكُفَّارَ يوم الخندق .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٢٧٠) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : إنَّ شَر الدَّواب عند اللَّه الذين كفروا ، ﴿ الذينَ عَاهَدتَ مِنْهُمْ ﴾ يا مُحمَّد ، يقول : أخذتَ عُهودَهم ومواثيقَهم أن لا يُحاربوك ،

ولا يُظاهروا عليك مُحَارِبًا لك كَقُرَيظة ونظرائهم، مِمَّن كان بَينك وبَينهم عَهْد وعَقْد ﴿ ثُمَّ يَنقُضُونَ ﴾ عُهودَهم ومواثيقَهم ، كُلَّمَا عاهدوك وواثقوك حاربوك وظَاهَروا عليك ، وهُم لا يتَّقون اللَّهَ ، ولا يخافون في فِعْلهم ذلك أن يُوقِع بهم وَقْعَةً تجتاحهم وتُهلكهم)) .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٣٦٩) : ((﴿ الذينَ عَاهَدتَ مِنْهُمْ ﴾ يعني: عَاهدتهم. وقِيل : أي : عاهدتَ مَعَهُم ، وقِيل : أدخل (مِن) لأنَّ معناه: أخذتَ مِنهم العَهْدَ ، ﴿ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُم في كُلِّ مَرَّةٍ ﴾ ، وهُم بنو قُرَيظة ، نَقَضُوا العهدَ الذي كان بَينهم وبَين رسول اللَّه ﷺ ، وأعانوا المُشركين بالسلاح على قِتال النبيِّ ﷺ وأصحابه ، ثُمَّ قالوا : نَسِينا وأخطأنا ، فعاهدهم الثانية ، فَنَقَضُوا العهدَ ، ومَالَؤُوا الكُفَّارَ على رسول اللَّه ﷺ يوم الخندق ، وركب كَعْبُ بن الأشرف إلى مَكَّة، فوافقهم على مُخالفة النبيِّ ﷺ ﴿ وَهُم لا يَتَّقُون ﴾ لا يَخافون اللَّهَ تعالى في نَقْض العَهْد)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُم في الحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَنْ خَلْفَهُم لَعَلَّهُم يَذَّكَّرُون ﴾ [الأنفال: ٥٧] .

فإنْ تَظْفَرْ بهم في الحرب يا مُحَمَّد ، فاقتلهم ، ونَكِّلْ بهم تَنكيلًا شديدًا ، يُشرِّد غَيْرَهم مِن الكُفَّار المُجرمين ، أي : غَلِّظْ عُقوبتهم ، وبَالِغْ في قَتْلهم ، لِيَخاف مَن سِوَاهم مِن الأعداء مِن العرب وغَيرهم ، ويَصيروا لهم عِبْرَةً ، لعلَّهم يتَّعظون بما شَاهَدوا فَيَرتدعوا .

اقْتُلْ يا مُحَمَّد هؤلاء الذين نَقَضُوا عَهْدَكَ ، وجاؤوا لِحَرْبِكَ ، ونَكِّلْ بهم تَنكيلًا عنيفًا ، واجْعَلْهم عِبْرَةً لِغَيرهم ، حتى لا يَبقى لهم قُوَّة على مُحاربتك ، وكَي يَخافك مَن خَلْفَهم مِن أهل مَكَّة واليمن ، لعلَّهم يتذكَّرون ويَعتبرون ، فلا يَنقُضون العَهْدَ .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٢٧٠) : ((يقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه مُحَمَّد ﷺ : فإمَّا تَلْقَيَنَّ في الحرب هؤلاء الذين عاهدتهم فنقضوا عَهْدَكَ مَرَّةً بعد مَرَّة مِن قُرَيظة فتأسرهم ، ﴿ فَشَرِّدْ بِهِم مَنْ خَلْفَهُم ﴾ ، يَقول : فَافْعَلْ بهم فِعْلًا يَكُون مُشَرِّدًا مَن خَلْفَهم مِن نُظَرَائهم مِمَّن بَينك وبَينه عَهْد وعَقْد . و التَّشريد : التطريد والتبديد والتفريق . وإنَّما أُمِرَ بذلك نبيُّ اللَّه ﷺ أن يَفعل بالناقض العَهْد بَينه وبَينهم إذا قَدَرَ عليهم فِعْلًا يكون إخافةً لِمَن وراءهم مِمَّن كان بَين رسول اللَّه ﷺ وبَينه عهد ، حتى لا يَجترئوا على مِثْل الذي اجترأ عليه هؤلاء الذين وَصَفَ اللَّهُ صِفَتَهُم في هذه الآية مِن نَقْض العَهْد . ... . وأمَّا قَوله : ﴿ لَعَلَّهُم يَذَّكَّرُون ﴾ ، فإنَّ معناه : كَي يتَّعظوا بما فَعَلْتَ بهؤلاء الذين وَصَفْتُ صِفَتَهُم ، فَيَحْذَرُوا نَقْضَ العهد الذي بَينك وبَينهم ، خَوْفَ أن يَنزِل بهم مِنك ما نَزَلَ بهؤلاء إذا هُم نَقَضُوه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَإذا انسلخَ الأشهُرُ الحُرُمُ فَاقْتُلُوا المُشركينَ حَيْثُ وَجَدتمُوهُم وَخُذُوهُم واحْصُرُوهُم واقْعُدُوا لَهُم كُلَّ مَرْصَدٍ فَإن تابوا وأقاموا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُم إنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رحيم ﴾ [التَّوبة : ٥] [٧٤].

فإذا مَضَتْ وانقَضَت الأشهُرُ الأربعة (رجب ، ذو القِعدة ، ذو الحِجَّة ، المُحَرَّم) التي حُرِّمَ فيها قِتال المُشركين . وأصل الانسلاخ خُروج الشيء مِمَّا لابَسَه ، مِن سَلْخ الشَّاة .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٣/ ٣٩٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ فَإذا انسلخَ الأشهُرُ الحُرُمُ ﴾ ، فِيها قَولان : أحدهما أنَّها رَجَب وذُو القِعدة وذُو الحِجَّة والمُحَرَّم ، قاله الأكثرون . والثاني أنَّها الأربعة الأشهُر التي جُعِلَتْ لهم فيها السِّيَاحة ، قاله الحسن في آخرين ، فعلى هذا سُمِّيَتْ حُرُمًا ، لأنَّ دِماء المُشركين حُرِّمَتْ فِيها)) .

فاقتلوا المُشركين (مَن لَم يَكُن له عَهْد) في أيِّ مكان أوْ زمان ، مِن حِلٍّ أوْ حَرَم وفي الأشهُر الحُرُم ، وخُذُوهم بالأسْرِ ، واحْبِسُوهم ، وامنعوهم مِن الحركة في بِلاد الإسلام ودُخُولِ مَكَّة،

---

٧٤ قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٤٣): ((هذه الآية الكريمة هي آية السَّيف التي قال فيها الضَّحَّاك ابن مُزَاحِم:إنها نَسَخَتْ كُلَّ عهد بين النبيِّ ﷺ وبين أحد مِن المشركين، وكُلَّ عَقْد، وكُلَّ مُدَّة.وقال العَوفي عن ابن عباس في هذه الآية : لم يَبْقَ لأحد من المشركين عَهْد ولا ذِمَّة مُنذ نَزَلَتْ براءة، وانسلاخ الأشهُر الحُرُم ، ومُدَّة مَن كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل براءة أربعة أشهر ، مِن يوم أُذِنَ (أُعْلِمَ) ببراءة إلى عَشْر مِن أوَّل شهر ربيع الآخِر . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية قال : أَمَرَه اللَّهُ تعالى أن يضع السَّيْفَ فِيمَن عاهدَ إنْ لم يَدخلوا في الإسلام، ونَقْض ما كان سُمي لهم من العهد والميثاق، وأذهبَ الشرطَ الأوَّل . وقال ابن أبي حاتم : حدَّثنا أبي حدَّثنا إسحاق بن موسى الأنصاري قال : قال سُفيان بن عُيَينة: قال عليُّ بن أبي طالب : بُعِثَ النبيُّ ﷺ بأربعة أسياف : سَيف في المشركين من العرب، قال اللَّهُ تعالى: ﴿ فَاقْتُلُوا المشركينَ حَيْثُ وَجَدتمُوهُم ﴾ ، هكذا رواه مختَصَرًا . وأظن أنَّ السَّيف الثاني هو قتال أهل الكِتاب لِقَوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الذينَ لا يُؤْمِنُونَ باللَّهِ ولا باليَوْمِ الآخِرِ ولا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ولا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُون ﴾ ، والسَّيف الثالث : قتال المنافقين في قَوله : ﴿ يا أيُّها النبيُّ جَاهِدِ الكُفارَ والمنافقين ﴾ الآية ، والرابع: قتال الباغين في قَوله : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر اللَّه ﴾)) .

واحْصُرُوهم إنْ تَحَصَّنُوا في القِلاع والحُصُون حتى يُضْطَرُّوا إلى القَتْل أو الإسلام ، واقْعُدُوا لهم في كُلِّ طَرِيق يَسلكونه ، وارقبوهم في كُل ممر يجتازونه . وهذا تنبيه على ضرورة إيصال الأذى إليهم بِكُلِّ وسيلة مُمكنة ، بطريق القتال أو بطريق الاغتيال .

فإنْ تابَ المُشركون عن الشِّرْك الذي هو سبب القتل بالإيمان ، وقاموا بأداء العبادات المفروضة عليهم مِن الصلاة والزكاة ، تصديقًا لِتَوبتهم وإيمانهم ، فَكُفُّوا عنهم ، ولا تتعرَّضوا لهم ، ودَعُوهُم فَلْيَتَصَرَّفُوا في أمصارهم ، ويَدخُلوا مَكَّة . وفيه دليل على أنَّ تارك الصلاة ومانع الزكاة لا يُخَلَّى سبيلُه ، إنَّ اللَّه واسع المغفرة والرحمة لِمَن تابَ وأنابَ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٤٣) : ((﴿ فَإن تابوا وأقاموا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُم إنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رحيم ﴾ ، ولهذا اعتمدَ الصِّدِّيقُ رضي اللَّهُ عنه في قِتال مانعي الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها ، حَيث حَرَّمَتْ قِتَالَهم بشرط هذه الأفعال ، وهي الدُّخُول في الإسلام ، والقيام بأداء واجباته ، ونبَّه بأعلاها على أدناها ، فإن أشرف أركان الإسلام بعد الشَّهَادَتَيْن الصَّلاة التي هي حَق اللَّه عَزَّ وَجَلَّ ، وبَعدها أداء الزكاة التي هي نَفْع مُتَعَدٍّ إلى الفُقَراء والمحاويج ، وهي أشرف الأفعال المُتعلِّقة بالمخلوقين ، ولهذا كثيرًا ما يَقْرِن اللَّهُ بين الصَّلاة والزكاة)) .

إنَّ الآية ﴿ فَإذا انسلخَ الأشهُرُ الحُرُمُ فَاقْتُلُوا المُشركينَ حَيْثُ وَجَدتمُوهُم ﴾ ، تشتمل على أمر إلهيٍّ عظيمٍ للنبيِّ ﷺ إذا انقضى الأجل ، أن يَقتل المشركين حَيثما وُجِدُوا ، سواءٌ كانوا في الحِل أو الحَرَم . وذلك صِيانةً للأشهر الحُرُم مِن القتل والقتال .

إذن ، معَ رفع الأمان عن المشركين الذين لم يرتدعوا عن أفعالهم المُعادية توجَّب قتلهم لكي تأخذ الحياةُ دَورتها الطبيعية ، والقتال حتى اعتناقهم الإسلام . لكن أحدهم قد يقول إنَّ اللَّه يقول: ﴿ لا إكراهَ في الدِّينِ ﴾ ، فكيف يُقَاتَلُون حتى اعتناقهم للإسلام ؟! . يجب التمييز بين الكتابيين والمشركين ، فالإسلام خصَّص مكانة مُعْتَبَرَة لأهل الكتاب (اليهود والنصارى) باعتبارهم شركاء مع المسلمين في بعض الأصول بعكس المشركين ، فالمُشرك لا يستند إلى أيِّ كتاب سماوي ، ولا وَضْعِي ، بل هو يعبد أحجارًا مِن صُنع يَدَيه ، وبالتالي تَمَّ تصنيف المشركين كَخَوَنَة خِيانة عُظمى ، عَلَيهم السَّيف حتى يَرتدعوا ويَعتنقوا الإسلامَ ، ورُفِعَ عنهم شرعية الغطاء الإنساني ، لأنهم شواذ عَقَدِيًّا ضِد الإنسانية . وليس في ذلك إجبار أو إكراه ، أَرأيتَ المُجرمين والقَتَلَة وتُجَّار المُخَدِّرَات الذين يُبيدون شعوبًا بأسرها ، لا خِيار أمامهم إلا أن يُصبحوا مواطنين صالحين ، أو يُلاقوا مصيرهم المحتوم وعقوبتهم الرادعة ، فَمِن غَير المعقول أن نترك تاجرَ المُخَدِّرَات حُرًّا في

تصرُّفاته بِحُجَّة أن أفعاله حرية شخصية وقناعة ذاتية . والمُشرك يُريد فَرْضَ عبادة الأوثان في أرض اللَّه تعالى ، فلا يُعْقَل أن يَجْزِيَه اللَّهُ خَيْرًا على هذا الفِعْل ، فكان لا بُد مِن وَضْع حَد لهم ، وإيقافهم عن طريق قتلهم واستئصالهم، لأن كل وسائل الحِوار لَم تنفع معهم، وفوق كل هذا فَهُم يحملون السلاحَ في وجوه المسلمين ، فكان لِزَامًا على نظام الدولة الإسلامية أن يضع حَدًّا لهذه المهزلة ، لئلا يَحدث تَسَيُّب أو انفلات يقضي على كُلِّ المجتمع، ويُعيد الناسَ إلى الوثنية التي هي ضِد تَوحيد اللَّه في أرض اللَّه . وَلَوْ أنَّ شخصًا يَشتم الحاكمَ في قَصْره ويرفع في وجهه السلاح ، أوْ يَشتم الحكومةَ في المقرات الحكومية، ويقتل موظفي الدولة.ماذا ستكون رَد فِعل الأجهزة الأمنية ؟! . ولِلَّهِ المَثَلُ الأعلى ، فالأرض أرضُه، ولا يَقْبَل أن تُشاركه فيها أوثان المُشركين وآلهتهم الوهمية ، فكان القتل هو الحَل الوحيد والأكثر نَجَاعَةً للتعامل مع هؤلاء الذين لا يُرسِلون ، ولا يَستقبلون ، ولا يَفهمون إلا لغة السَّيف .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٣١٩) : ((يَعني جَلَّ ثناؤه بِقَوله : ﴿ فَإِذا انسلخَ الأشهُرُ الحُرُمُ ﴾ ، فإذا انقَضَى وَمَضَى وَخَرَجَ. يُقَال مِنه : سَلَخْنَا شهرَ كذا نَسْلُخُه سَلْخًا وسُلُوخًا ، بمعنى: خَرَجْنَا مِنه ، ومِنه قَولهم : شاة مَسلوخة ، بمعنى : المَنزوعة مِن جِلْدها المُخْرَجَة مِنه . ويعني بالأشهُر الحُرُم : ذا القِعدة ، وذا الحُجَّة ، والمُحَرَّم . وإنَّما أُرِيدَ في هذا الموضع انسلاخ المُحَرَّم وَحْدَه، لأنَّ الأذان كان ببراءة يوم الحَج الأكبر ، فمعلوم أنَّهم لَم يكونوا أجَّلوا الأشهُرَ الحُرُمَ كُلَّهَا، ... ، ولكنَّه لمَّا كان مُتَّصِلًا بالشَّهْرَيْن الآخَرَيْن قَبْله الحَرَامَيْن ، وكان هو لهما ثالثًا ، وهي كُلُّها مُتَّصِل بعضها ببعض قِيل : ﴿ فَإِذا انسلخَ الأشهُرُ الحُرُمُ ﴾ ، ومعنى الكلام : فإذا انقضت الأشهرُ الحُرُمُ الثلاثة عن الذين لا عَهْد لهم ، أوْ عَن الذين كان لهم عهد فَنَقَضُوا عَهْدَهم بِمُظاهرتهم الأعداء على رسول اللَّه ﷺ وعلى أصحابه ، أوْ كان عَهْدهم إلى أجَل غَير معلوم . ﴿ فَاقْتُلُوا المُشركينَ ﴾ ، يقول : فاقتلوهم ﴿ حَيْثُ وَجَدتمُوهُم ﴾ ، يقول : حَيث لَقِيتموهم من الأرض في الحَرَم وغَير الحَرَم ، في الأشهُر الحُرُم ، وغَير الأشهُر الحُرُم ، ﴿ وَخُذُوهُم ﴾ ، يقول : وَأْسِرُوهُم ، ﴿ واحْصُرُوهُم ﴾ ، يقول : وامنعوهم التَّصَرُّفَ في بلاد الإسلام ودُخول مَكَّة ، ﴿ واقْعُدُوا لَهُم كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ ، يقول: واقْعُدُوا لهم بالطَّلَب لقتلهم أو أَسْرِهم كُلَّ مَرْصَد،يعني: كُل طريق ومَرْقَب. ... . ﴿ فَإن تابوا ﴾ ، يقول : فإنْ رَجعوا عمَّا هُم عليه مِن الشِّرْك باللَّهِ وجُحُودِ نُبُوَّةِ نَبِيِّه مُحَمَّد ﷺ إلى توحيد اللَّه ، وإخلاص العبادة له دُون الآلهة والأنداد ، والإقرار بِنُبُوَّةِ مُحَمَّد ﷺ ﴿وأقاموا الصَّلاةَ ﴾ يقول : وأدُّوا ما فَرَضَ اللَّهُ عليهم مِن الصلاة بحدودها ، وأَعْطَوا الزكاةَ التي أوجبها اللَّهُ عليهم في

أموالهم أهلَها ، ﴿ فَخَلُّوا سَبِيلَهُم ﴾ ، يقول : فَدَعُوهم يتصرَّفون في أمصاركم ، ويَدخلون البَيْتَ الحرام ، ﴿ إنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رحيم ﴾ لِمَن تابَ مِن عِباده ، فأنابَ إلى طاعته ، بعد الذي كان عليه مِن معصيته ، ساتر على ذَنْبه ، رحيم به أن يُعاقبه على ذُنُوبه السالفة قَبل تَوبته بَعد التَّوْبَة)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٣/ ٣٩٩) : ((واختلفَ علماءُ الناسخ والمنسوخ في هذه الآية على ثلاثة أقوال : أحدها أنَّ حُكْم الأُسَارى كان وجوبَ قَتْلهم ، ثُمَّ نُسِخَ بِقَوله : ﴿ فإمَّا مَنًّا بَعْدُ وإمَّا فِدَاءً ﴾ ، قاله الحسن وعطاء في آخرين . والثاني بالعكس ، وأنَّه كان الحُكْم في الأُسَارى أنَّه لا يجوز قَتْلُهم صَبْرًا ، وإنَّما يجوز المَن أو الفِداء بِقَوله : ﴿ فإمَّا مَنًّا بَعْدُ وإمَّا فِدَاءً ﴾ ثُمَّ نُسِخَ بِقَوله : ﴿ فَاقْتُلُوا المُشركينَ ﴾، قاله مُجاهد وقَتادة. والثالث أن الآيَتَيْن مُحْكَمَتَان ، والأسير إذا حصل في يد الإمام ، فهو مُخَيَّر ، إنْ شاء مَنَّ عَلَيه ، وإنْ شاء فاداه ، وإنْ شاء قَتَلَه صَبْرًا ، أيَّ ذلك رأى فيه المصلحة للمسلمين فَعَلَ ، هذا قَول جابر بن زَيد ، وعليه عامَّة الفُقَهاء، وهو قَول الإمام أحمد)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يا أيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُم وإخْوَانَكُم أولياءَ إنِ اسْتَحَبُّوا الكُفْرَ عَلَى الإيمانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِنكُم فَأُولئكَ هُمُ الظالمون ﴾ [التَّوبة : ٢٣] [٧٥]. يا أيُّها الذين صدَّقوا بِوَحدانية اللَّه ، وأقَرُّوا بِنُبُوَّةِ مُحَمَّد ﷺ ، لا تتَّخذوا آباءكم وإخوانكم الكافرين أنصارًا وأعوانًا،

---

٧٥ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤١١ و٤١٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُم وإخْوَانَكُم أولياءَ ﴾ ، في سبب نزولها خمسة أقوال : أحدها أنَّه لَمَّا أُمِرَ المسلمون بالهِجرة جَعَلَ الرَّجُل يقول لأهله : إنَّا قد أُمِرْنا بالهِجرة ، فَمِنهم مَن يُسْرِع إلى ذلك، ومِنهم مَن يتعلَّق به عِيالُه وزوجته، فيقولون: نَنْشُدُكَ اللَّهَ أن تَدَعَنَا إلى غَير شيء، فَيَرِق قلبُه، فَيَجلس مَعَهم ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني أنَّه لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ المؤمنين بالهِجرة، قال المسلمون: يا نبيَّ اللَّه ، إنْ نحن اعْتَزَلْنَا مَن خَالَفَنَا في الدِّين ، قَطَعْنَا آباءَنا وعشائرَنا، وذهبت تجارتنا ، وخَرِبَتْ ديارُنا ، فنزلت هذه الآية، قاله الضَّحاك عن ابن عباس. والثالث أنَّه لَمَّا قال العباس : أنا أَسْقِي الحاجَّ ، وقال طَلْحَة : أنا أَحْجُب الكعبةَ فلا نُهَاجِر ، نزلت هذه الآية والتي قَبْلَها، هذا قَول قَتادة، وقد ذَكَرْناه عن مجاهد. والرابع أنَّ نَفَرًا ارتَدُّوا عن الإسلام، ولَحِقُوا بمكة، فنهى اللَّهُ عَن وَلايتهم ، وأنزل هذه الآية ، قاله مُقاتل . والخامس أنَّ النبيَّ ﷺ لَمَّا أَمَرَ الناسَ بالجِهَاز لِنُصرة خُزاعة على قُرَيش، قال أبو بكر الصِّديق: يا رسول اللَّه ، نُعاونهم على قَوْمنا ؟، فنزلت هذه الآية، ذَكَرَه أبو سُلَيمان الدمشقي)) .

تُحِبُّونهم وتُوَالونهم ، إنْ فَضَّلُوا الكُفْرَ على الإيمان ، واختاروه ، وتمسَّكوا به ، وأصَرُّوا عليه ، ومَن يَتَوَلَّهُم مِنكُم ، فهو مُشْرِك مِثْلُهُم ، لأنَّ مَن رَضِيَ بالشِّرْك فهو مُشْرِك . وقد حَكَمَ اللَّهُ على مَن يَتَوَلَّى مَن استحبَّ الكُفْرَ على الإيمان مِن الآباء والإخوان بالظُّلْم ، لأنَّه وَضَعَ الوَلاية في غَير مَوْضعها.وهذا يدلُّ على أنَّ تَوَلِّي الكافرين مِن أعظم الذُّنُوب وأسوأ المعاصي.

والآيةُ خِطَاب للمؤمنين كافَّة ، وحُكْمُها باقٍ إلى يوم القِيامة في قَطْع الوَلاية بين المؤمنين والكافرين .

وقالت طائفة من أهل العِلْم : إنَّ الآية نزلت في الحَض على الهِجرة ، ورفض بلاد الكُفر ، فيكون الخِطَاب للمؤمنين الذين كانوا بِمَكَّة وغَيرها من بلاد العرب . نُهُوا أن يُوالوا الآباءَ والإخوةَ، فيكونوا لهم تَبَعًا في سُكنى بلاد الكُفْر .

والجديرُ بالذِّكْر أنَّ النِّداء بلفظ الإيمان : ﴿ يا أيُّهَا الذينَ آمَنُوا ﴾ للتَّشريف والتَّكريم ، ولتحريك هِمَّة المؤمنين للمُسَارَعَة إلى امتثال أوامر اللَّه تعالى.وفي تفسير ابن كثير (٢ / ٣٣٥) : ((قال عبد اللَّه بن مسعود : إذا سَمِعْتَ اللَّهَ يقول : ﴿ يا أيُّهَا الذينَ آمَنُوا ﴾ ، فَأَرْعِهَا سَمْعَكَ ، فإنَّه خَير تُؤْمَر به ، أوْ شَر تُنهَى عنه)) .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٣٣٨) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه للمُؤمنين به وبرسوله : لا تَتَّخذوا آباءكم وإخوانكم بِطَانَةً أصدقاء تُفْشُون إليهم أسراركم ، وتُطلعونهم على عَورة الإسلام وأهله ، وتُؤْثِرُون المُكْثَ بَين أظْهُرِهم على الهِجرة إلى دار الإسلام ﴿ إنِ اسْتَحَبُّوا الكُفْرَ عَلى الإيمانِ ﴾ ، يقول: إن اختاروا الكُفْرَ باللَّه على التَّصديق به ، والإقرار بِتَوحيده ، ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِنكُم ﴾، يقول: ومَن يتَّخذهم مِنكُم بِطَانَةً مِن دُون المؤمنين ، ويُؤْثِر المُقَامَ مَعَهم على الهِجرة إلى رسول اللَّه ﷺ ودار الإسلام ، ﴿ فَأُولئكَ هُمُ الظالمون ﴾ ، يَقُول : فالذين يَفْعَلُون ذلك مِنكُم هُم الذين خَالَفُوا أمرَ اللَّه ، فوَضعوا الوَلايةَ في غَير مَوْضعها ، وَعَصَوا اللَّهَ في أَمْرِه . وقِيل : إنَّ ذلك نَزَلَ نَهْيًا مِن اللَّه المؤمنين عَن مُوالاة أقربائهم الذين لَم يُهاجروا مِن أرض الشِّرْك إلى دار الإسلام . ذِكْر مَن قال ذلك : حدَّثني مُحَمَّد بن عمرو ، قال : حدَّثنا أبو عاصم ، قال : حدَّثنا عيسى عن ابن أبي نَجِيح، عن مُجاهد في قَول اللَّه : ﴿ أجَعَلْتُم سِقَايَةَ الحاجِّ وعِمَارةَ المسجدِ الحرامِ ﴾ ، قال : أُمِرُوا بالهِجرة ، فقال العباس بن عبد المُطَّلب : أنا أَسْقِي الحاجَّ ، وقال طلحة أخو بني عبد الدار : أنا صاحب الكعبة فلا نُهَاجِر ، فَأُنْزِلَتْ : ﴿ لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُم وإخْوَانَكُم أولياءَ ﴾ إلى قَوله : ﴿ يَأتِيَ اللَّهُ بأمْرِهِ ﴾ بالفَتْح ، في أمْرِهِ إيَّاهم بالهِجرة ، هذا كُلُّه قَبل فَتْح مَكَّة)) .

وقال الجَصَّاص في أحكام القُرآن(٤/٢٧٨): ((قَوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُم وإخْوَانَكُم أولياءَ إنِ اسْتَحَبُّوا الكُفْرَ عَلى الإيمانِ ﴾ ، فِيه نَهْي للمُؤمنين عَن مُوَالاة الكُفَّار ، ونُصْرتهم ، والاستنصار بهم ، وتفويض أُمورهم إلَيهم ، وإيجاب التَّبَرِّي مِنهُم ، وترك تعظيمهم وإكرامهم ، وسَوَاء بين الآباء والإخوان في ذلك ، إلا أنَّه قد أمر مع ذلك بالإحسان إلى الأب الكافر، وصُحبته بالمعروف بِقَوله تعالى: ﴿ ووَصَّيْنا الإنسانَ بِوَالدَيْه ﴾ [لُقمان : ١٤]، إلى قَوله : ﴿ وإن جَاهداكَ على أن تُشرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فلا تُطِعْهُما وصَاحِبْهما في الدنيا مَعروفًا ﴾ [لُقمان: ١٥].وإنَّما أَمَرَ المؤمنين بذلك ليتميَّزوا مِن المُنافقين ، إذْ كان المنافقون يَتَوَلَّوْنَ الكُفَّارَ، ويُظهِرون إكرامَهم وتعظيمَهم إذا لَقُوهم ، ويُظهِرون لهم الوَلايةَ والحِيَاطَةَ ، فَجَعَلَ اللَّهُ تعالى ما أَمَرَ به المؤمنَ في هذه الآية عَلَمًا يتميَّز به المُؤمن مِن المُنافق ، وأخبرَ أنَّ مَن لَم يَفعل ذلك ، فهو ظالم لِنَفْسِه ، مُستحق للعقوبة مِن رَبِّه)) .

وقال القرطبي في تفسيره (٨ / ٨٦) : ((وخَصَّ اللَّهُ سُبحانَه الآباءَ والإخوةَ ، إذْ لا قَرَابة أقرب منها ، فنفى المُوَالاةَ بَينهم كما نَفَاها بين الناس بِقَوله تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنوا لا تتَّخذوا اليهودَ والنصارى أولياءَ ﴾ [المائدة: ٥١]، لِيُبَيِّنَ أنَّ القُرْب قُرْب الأديان لا قُرْب الأبدان. ... . ولَم يَذكر الأبناءَ في هذه الآية ، إذ الأغلب مِن البشر أنَّ الأبناء هُم التَبَع للآباء)) .

وما أجملَ قَول القائل :

يَقُولُونَ لي دارُ الأحِبَّةِ قَدْ دَنَتْ ... وأنتَ كَئيبٌ إنَّ ذا لَعَجِيبُ
فَقُلْتُ وَما تُغني الدِّيَارُ وَقُرْبُها ... إذا لَم يَكُن بَيْنَ القُلُوبِ قَرِيبُ

والإحسانُ والهِبَةُ مُستثناةٌ مِن الوَلاية . عن أسماء بنت أبي بَكْر _ رضي اللَّهُ عنهما _ قالت : قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وهي مُشركة ، في عهد رسول اللَّه ﷺ ، فَاسْتَفْتَيْتُ رسولَ اللَّه ﷺ ، قُلْتُ: إنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وهي راغبة ، أَفَأَصِلُ أُمِّي ؟ ، قال : ((نَعَمْ ، صِلِي أُمَّكِ)) [٧٦].

تجب رعاية الوالدَيْن وبِرُّهما واحترامهما ، حتَّى لَوْ كانا كافرَيْن . واختلافُ العقيدة لا يُسقِط حُقُوقَهما . وهذا يُشير إلى رحمة الإسلام بالناس _ على اختلاف أديانهم _ ، والتعامل معهم بِكُل إنصاف وعدالة .

---

٧٦ متفق عليه . البخاري (٢/ ٩٢٤) برقم (٢٤٧٧) ، ومسلم (٢/ ٦٩٦) برقم (١٠٠٣) .

والصِّلَةُ والبِرُّ مِن أخلاق الإسلام الحميدة ، التي غَرَسَها في نفوس المُسلمين ، وربَّاهم عليها ، وهي تشمل المُسلمين والكافرين ، خُصوصًا مَن تَربطهم بالمُسلمين روابط نَسَب ، كالوالدَيْن والإخوة والأقارب .

لقد قَدِمَتْ قُتَيلة بنت عبد العُزَّى ، وهي مُشركة ، على ابنتها أسماء بنت أبي بَكْر الصِّديق _ رضي اللَّهُ عنهما _ ، في الفترة ما بَين صُلْح الحُدَيبية وفَتْح مَكَّة ، وكانت أسماء رضي اللَّهُ عنها وَقْتَها زوجةً للزُّبَير بن العَوَّام _ رضي اللَّهُ عنه _ ، فَاسْتَفْتَتْ أسماء _ رضي اللَّهُ عنها _ النبيَّ ﷺ أنَّ أُمَّها راغبة في بِرِّها ، والقُرْب مِنها ، والتَّوَدُّد إلَيها ، لأنها ابتدأت أسماءَ بالهدية ، ورَغِبَتْ مِنها في المُكافأة ، أوْ راغبة في شَيء تأخذه من ابنتها أسماء ، أوْ راغبة عن الإسلام ، لا تُريده . فهل تَصِلُها وهي لا تزال على كُفْرها ؟ ، فأجابها النبيُّ ﷺ : ((نعم ، صِلِي أُمَّكِ)) ، أي : وَلَوْ كانت كافرةً . وفي هذا دليل على مشروعية صِلَة الرَّحِم الكافرة . والحديثُ يُثبِت فضيلةً للصحابيَّة الجليلة أسماء بنت أبي بَكْر _ رضي اللَّهُ عنهما_ حيث حَرِصَتْ على دِينها بطلب الفَتوى مِن النبيِّ ﷺ . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧ / ٨٩) : ((قال القاضي : الصحيح (راغبة) بلا شَك . قال: قِيل: مَعناه راغبة عن الإسلام ، وكارهة له . وقِيل : معناه طامعة فِيما أَعْطَيْتُهَا ، حريصة عليه . وفي رواية أبي داود : " قَدِمَتْ عليَّ أُمِّي راغبة في عهد قُرَيش وهي راغمة مُشركة "، فالأول راغبة بالباء أي : طامعة طالبة صِلَتي ، والثانية بالميم معناه كارهة للإسلام ساخطته . وفيه جَوَاز صِلَة القريب المُشرك . وأُمُّ أسماء اسمها قَيْلَة، وقِيل: قُتَيلة،... . وهي قَيْلَة بنت عبد العُزَّى القُرَشِيَّة العامريَّة . واختلف العلماء في أنَّها أسلمت أَمْ ماتت على كُفْرها ، والأكثرون على مَوْتها مُشركة)) .

وقال الحافظ في الفتح (٥/ ٢٣٤) : ((قال الخَطَّابي : فيه أنَّ الرَّحِم الكافرة تُوصَل مِن المال ونَحْوه ، كما تُوصَل المُسلِمة . ويُسْتَنْبَط مِنه وُجوب نَفَقَة الأب الكافر والأُم الكافرة ، وإن كان الولد مُسْلِمًا . اهـ . وفيه مُوَادَعَة أهل الحرب ، ومُعاملتهم في زَمَن الهُدنة ، والسَّفَر في زيارة القريب . وتَحَرِّي أسماء في أمر دِينها وكيف لا وهي بِنت الصِّديق،وزَوْج الزُّبَير رضي اللَّهُ عنهم)).

وروى النَّسَائيُّ في سُننه (٨ / ٩٤) : عن أنس بن مالك قال : قال رسول اللَّه ﷺ : ((ثلاثٌ مَن كُنَّ فِيه ، وَجَدَ بِهِنَّ حَلاوةَ الإيمانِ وطَعْمَه : أن يَكُونَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ورَسُولُه أَحَبَّ إلَيه مِمَّا سِوَاهُما ، وأن يُحِبَّ في اللَّه وأن يُبْغِضَ في اللَّه ، وأن تُوقَدَ نارٌ عظيمةٌ فَيَقَعَ فِيها ، أحبَّ إلَيه مِن أن يُشرِكَ باللَّه شيئًا)) .

هذا الحديثُ أصل مِن أُصُول الإسلام ، وفيه يُرشِد النبيُّ ﷺ إلى ثلاث خِصَال مِن أعلى خِصَال الإيمان ، مَن كمَّلها فقد وجد حَلاوةَ الإيمان ، فالإيمان له حلاوة وطَعْم يُذاق بالقلوب ، كما تُذاق حلاوة الطعام والشراب بالفم . وكما أنَّ الجسد لا يجد حلاوةَ الطعام والشراب إلا عِند صِحَّته ، فكذلك القلب إذا سَلِمَ مِن الشُّبُهَات المُهْلِكة والأهواء المُضِلَّة والشَّهَوَات المُحرَّمة ، وَجَدَ حلاوةَ الإيمان . ومتى مَرِضَ القلب لَم يَجد حلاوةَ الإيمان ، بَلْ قَدْ يَسْتحلي ما فيه هلاكُه مِن الأهواء والمعاصي . ومَن وَجَدَ حلاوةَ الإيمان استلذَّ الطاعات ، وآثَرَها على أغراض الدُّنيا ، وتَحَمَّلَ المَشَاقَّ في سبيل اللَّه تعالى .

الخَصْلَةُ الأُولَى : أن يَكُونَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ورَسُولُه أَحَبَّ إلَيه مِمَّا سِوَاهُما .

مَحَبَّةُ اللَّه تنشأ من معرفة أسمائه وصِفاته ، والتفكير في مَصنوعاته ، وما فيها مِن الحِكَم والعجائب ، وتحصُل مِن مُطالعة نِعَمه على العِباد ، وكُلُّ ذلك يدلُّ على كمال اللَّه وقُدرته ، وحِكمته ، وعِلْمه ، ورحمته . ومحبَّةُ العبد لخالقه تَقُود العبدَ إلى التزام أوامره ، واجتناب نَوَاهيه. ومحبَّةُ النبيِّ ﷺ تابعة لمحبَّة اللَّه ، ويَلزَم مِن تِلك المحبَّة اتِّباع النبيِّ ﷺ في أوامره ونَوَاهيه، كطاعة اللَّه تعالى . ويجب أن تكون محبَّةُ النبيِّ ﷺ في قلب كُلِّ مُسْلِم أعظمَ مِن مَحَبَّته لِنَفْسِه ، ومَحَبَّته لأبيه وأُمِّه ، وابنه وابنته ، وزوجته ، وصديقه وأقاربه ، والناس أجمعين .

الخَصْلَةُ الثانية : أن يُحِبَّ في اللَّه وأن يُبْغِضَ في اللَّه .

أن يُحِبَّ لأجل اللَّه ، وهذا حَث على التَّحَابِّ في اللَّه ، وهو مِن أوثق عُرَى الإيمان ، فَلَيست المَحَبَّةُ مِن أجل تبادل منافع وتحصيل أغراض دُنيوية ، وإنَّما خالصة لوجه اللَّه تعالى ، ويَلزَم مِن تِلك المَحَبَّة نَفْع المُسْلِم لأخيه المُسْلِم ، وعدم إيذائه . ومِن لازِمِ الحُبِّ في اللَّه حُب أوليائه وأصفيائه ، ومِن شَرْط مَحَبَّتهم اقتفاء آثارهم وطاعتهم . وأن يُبغِض في اللَّه ، أي : يَكْرَه الكافرين والفاسقين والظالمين والعاصين . ومَن أبغضَ في اللَّه أبغضَ أعداءه ، وبَذَلَ جُهْدَه في مُجاهدتهم بِكُل الوسائل المُمكنة . والحُبُّ في اللَّه والبُغْض في اللَّه علامتان واضحتان على الإيمان. واسْتُدِلَّ بذلك على أنَّ الإيمان يَزيد ويَنقُص ، لأنَّ الحُب والبُغْض يتفاوتان .

وما أجملَ قَول الشاعر :

تَعْصِي الإلهَ وأنتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هذا لَعَمْري في القِيَاسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانُ حُبُّكَ صَادِقًا لأَطَعْتَهُ ... إنَّ المُحِبَّ لِمَن يُحِبُّ مُطِيعُ

وفي عَون المعبود (١٢/ ٢٢٨) : ((قال ابن رسلان في شرح السُّنَن : في الحديث دليل على أنَّه يجب أن يكون للرَّجُل أعداء يُبْغضهم في اللَّه ، كما يكون له أصدقاء يُحِبهم في اللَّه ، بيانه أنَّك إذا أحببتَ إنسانًا لأنَّه مُطيع للَّه، ومَحبوب عند اللَّه، فإنْ عَصَاه فلا بُد أن تُبغِضه، لأنَّه عاصٍ للَّه ، ومَمقوت عند اللَّه ، فَمَن أحبَّ لسبب فبالضرورة يُبْغِض لِضِدِّه . وهذان وَصْفان مُتلازمان لا يَنفصل أحدهما عن الآخَر ، وهو مُطَّرِد في الحُب والبُغْض في العادات)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (١/ ١٦٧) : ((قال ابن مُعَاذ : وعلامة الحُب في اللَّه أن لا يَزيد بالبِر ، ولا يَنقُص بالجَفَاء . قال القاضي : المَحَبَّة مَيْل النَّفْس إلى الشيء لكمال فيه ، والعبد إذا عَلِمَ أنَّ الكمال الحقيقي لَيس إلا للَّه ، وأنَّ كُلَّ مَا يَراه كمالًا في نَفْسِه أوْ غَيره فهو مِن اللَّه، وإلى اللَّه، وباللَّه ، لَم يَكُن حُبُّه إلا للَّه ، وفي اللَّه . وذلك يَقتضي إرادة طاعته ، فلذا فُسِّرَت المَحَبَّة بإرادة الطاعة ، واستلزمت اتِّبَاع رسوله. انتهى . وقال ابن عطاء اللَّه : الحُب في اللَّه يُوجِب الحُبَّ مِن اللَّه ، وهُنا مراتب أربع : الحُب للَّه ، والحُب في اللَّه ، والحُب باللَّه ، والحُب مِن اللَّه . فالحُب للَّه ابتداء ، والحُب مِن اللَّه انتهاء ، والحُب في اللَّه وباللَّه واسطة بينهما ، والحُب للَّه أن تُؤْثِرَه ، ولا تُؤْثِر عليه سِوَاه ، والحُب في اللَّه أن تُحِب فِيه مَن وَالاه ، والحُب باللَّه أن يُحِب العبدُ ما أَحَبَّه مُنْقَطِعًا عَن نَفْسه وهَوَاه ، والحُب مِن اللَّه أن يأخذك مِن كُل شيء ، فلا تُحِب إلا إيَّاه . وعلامة الحُب للَّه دَوَام ذِكْره ، والحُب في اللَّه أن تُحِب مَن لَم يُحْسِن إليك بِدُنيا مِن أهل الطاعات ، والحُب باللَّه أن يكون باعث الحظ بِنُور اللَّه مَقهورًا ، والحُب مِن اللَّه أن يَجْذِبَكَ إلَيه ، فَيَجعل ما سِوَاه عَنك مَستورًا)) .

وفي نَفْس المرجع (٢/ ٢٨) : ((أن يُحِب الرَّجُلُ الرَّجُلَ للإيمان والعِرفان، لا لِحَظ نَفْساني كإحسان ، وأن يَكرهه للكُفر والعِصيان ، لا لإيذائه له . والحاصل أن لا يكون معاملته معَ الخَلْق إلا للَّه . ومِن البُغْض في اللَّه بُغض النَّفْسِ الأمَّارة بالسُّوء ، وأعداءِ الدِّين ، وبُغْضهما مُخالفة أمرهما ، والمُجَاهَدَة معَ النَّفْس بِحَبْسها في طاعة اللَّه بما أَمَرَ ونَهَى ، ومعَ أعدائه تعالى بالمُصَابَرَة معهم ، والمُرَابَطَة لأجلهم)) .

الخَصْلَةُ الثالثة : أن تُوقَدَ نارٌ عظيمةٌ فَيَقَعَ فِيها ، أحبَّ إلَيه مِن أن يُشرِكَ باللَّه شيئًا .

إذا رَسَخَ الإيمانُ في القلب ، وتَحَقَّقَ به ، وَوَجَدَ العبدُ حلاوتَه وطَعْمَه ، أحَبَّه ، وأحبَّ ثَبَاتَه ودَوَامَه، والزِّيادة مِنه ، وكَرِهَ مُفارقته . وكانت كراهتُه لمُفارقته أعظمَ عِندَه مِن كراهة الإلقاء في النار، فإذا وَجَدَ العبدُ حَلاوةَ الإيمان في قلبه ، أحَسَّ بمرارة الكُفر والفُسوق والعِصيان .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قُلْ إن كانَ آباؤُكُم وأبناؤُكُم وإخْوَانُكُم وأزْوَاجُكُم وَعَشِيرَتُكُم وأموالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إلَيْكُم مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ في سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ واللَّهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الفاسقين ﴾ [التَّوبة : ٢٤] [٧٧].

قُلْ يا مُحَمَّد للمُتَخَلِّفين عَن الهِجرة إلى دار الإسلام المُقيمين بدار الشِّرْك : إنْ كان هؤلاء الأقارب مِن الآباء والأبناء والإخوان والزَّوجات وغَيرهم ، وجماعتكم التي تَنتمون إلَيهم ، وتستنصرون بهم، وعشيرة الرَّجُل قرابته الأدْنَوْن، وهُم الذين يُعاشرونه، وأموالكم التي اكتسبتموها ، وتجارة تخافون عدم نَفَاقها بفراقكم بلدكم ، والكَسَاد عَدَم النَّفَاق لِفَوَات وَقْت بَيْعها بالهِجرة ومُفَارَقَة الأوطان. ومنازل تُعجبكم الإقامة فيها ، وتَمِيل إلَيها أنفسُكم ، أحب إليكم مِن الهِجرة إلى اللَّه ورسوله ﷺ، وأحب إلَيكم مِن الجِهاد لِنُصرة دِين اللَّه الذي ارتضاه (وهو الإسلام) فانتظروا فَتْحَ مَكَّة ، فَيَسْقَط عنكم فَرْض الهِجرة. أوْ : فانتظروا عُقوبةَ اللَّه العاجلة أو الآجِلة، وهذا وعيدٌ شديد وتهديد أكيد ، ويُؤَكِّده إبهام الأمر ، وعدم التصريح به ، لتذهب أنفسُهم كُلَّ مَذهَب ، وتتردَّد بَين أنواع العُقوبات ، واللَّهُ لا يُوفِّق إلى الخَير الخارجين عن طاعته ، النافرين عن امتثال أوامره ونَوَاهيه ، وفي هذا تحذير لهم مِن حِرمان الهِداية .

وهؤلاء المُتَخَلِّفون عن الهِجرة مُسْلِمُون ، لكنَّهم قالوا : إنْ نحن هَاجَرْنا ضاعت أموالُنا ، وذهبت تجاراتنا ، وخَرِبَتْ ديارُنا ، وتقطَّعتْ أرحامُنا .

والآيةُ وعيدٌ شديدٌ لِمَن آثرَ أهلَه ، أوْ مالَه ، أو وطنَه ، على الهِجرة والجِهاد .

وقال القرطبي في تفسيره (٨/ ٨٧) : ((لمَّا أُمِرَ رسولُ اللَّه ﷺ بالهِجرة مِن مَكَّة إلى المدينة، جَعَلَ الرَّجُل يقول لأبيه والأب لابنه والأخ لأخيه والرَّجُل لزوجته : إنَّا قد أُمِرْنا بالهِجرة ، فَمِنهم مَن تَسَارَعَ لذلك ، ومِنهُم مَن أبى أن يُهاجر ، فيقول : واللَّهِ لَئِن لَم تَخرجوا إلى دار الهِجرة لا أنفعكم،

٧٧ قال ابن الجوزي في زاد المسير(٣/٤١٢): ((قَوله تعالى: ﴿قُلْ إن كانَ آباؤُكُم﴾ الآية . في سبب نزولها ثلاثة أقوال:أحدها أنها نزلت في الذين تخلَّفوا معَ عِيالهم بمكة ولم يُهاجروا ، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني أنَّ عليَّ بن أبي طالب قَدِمَ مكة، فقال لِقَوم: ألا تُهاجرون ؟، فقالوا: نُقيم مع إخواننا وعشائرنا ومساكننا، فنزلت هذه الآية، قاله ابن سيرين.والثالث أنَّه لَمَّا نزلت الآية التي قَبْلَها ، قالوا : يا رسول اللَّه، إنْ نحن اعْتَزَلْنا مَن خَالَفَنا في الدِّين قَطَعْنا آباءَنا وعشيرتنا،وذهبت تجارتنا، وخَرِبَتْ دِيارُنا، فنزلت هذه الآية، ذَكَرَه بعض المفسرين في هذه الآية ، وذَكَرَه بعضُهم في الآية الأُولَى ،كما حَكَيْنَاه عن ابن عباس)).

ولا أُنْفِق عليكم شيئًا أبدًا ، ومِنهم مَن تتعلّق به امرأته وولده ، ويقولون له : أَنْشُدُكَ باللَّهِ ألا تَخْرُج فَنَضِيع بَعْدَك ، فَمِنهُم مَن يَرِق فَيَدَع الهِجرةَ ويُقيم معهم، فنزلت: ﴿ يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُم وإخْوَانَكُم أولياءَ إنِ اسْتَحَبُّوا الكُفْرَ عَلى الإيمانِ ﴾ . يقول : إن اختاروا الإقامةَ على الكُفر بمكة على الإيمان باللَّه والهِجرة إلى المدينة ، ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِنكُم ﴾ بعد نزول الآية ﴿ فَأُولئكَ هُمُ الظالمون ﴾ ، ثُمَّ نَزَلَ في الذين تخلَّفوا ولَم يُهاجروا : ﴿ قُلْ إن كانَ آباؤُكُم وأبناؤُكُم وإخْوَانُكُم وأزْوَاجُكُم وَعَشِيرَتُكُم ﴾ ، وهي الجماعة التي تَرجع إلى عَقْد واحد كَعَقْد العَشَرَة فما زاد ، ومِنه المُعَاشَرَة وهي الاجتماع على الشَّيء ، ﴿ وأموالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ ، يقول : اكتسبتموها بِمَكَّة . وأصل الاقتراف اقتطاع الشَّيء مِن مَكَانه إلى غَيره ، ﴿ وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ﴾، ... ﴿ وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا ﴾ ، يقول : ومنازل تُعجبكم الإقامة فيها ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم ﴾ مِن أن تُهاجروا إلى اللَّه ورسوله بالمدينة ، و" أحَب " خبر كان ، ويجوز في غَير القرآن رفع " أحَب " على الابتداء والخبر ، واسم كان مُضْمَر فيها. ... . وفي الآية دليل على وُجوب حُب اللَّه ورسوله ، ولا خِلاف في ذلك بَين الأُمَّة ، وأنَّ ذلك مُقَدَّم على كُل مَحبوب . ... . ﴿ وَجِهَادٍ في سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا ﴾ صِيغته صِيغة أَمْر ، ومعناه التَّهديد ، يقول : انتظِرُوا ﴿ حَتَّى يَأتِيَ اللَّهُ بِأمْرِهِ ﴾ يعني : بالقِتال وفَتْح مَكَّة ، عن مُجاهد . الحسن : بِعُقوبة آجِلة أوْ عاجلة . وفي قَوله : ﴿ وَجِهَادٍ في سَبِيلِهِ ﴾ دليل على فَضْل الجِهاد ، وإيثاره على راحة النَّفْس ، وعلائقها بالأهل والمال)) .

وفي صحيح البخاري (٦/ ٢٤٤٥) : أنَّ النبيَّ ﷺ كان آخِذًا بيد عُمَر بن الخطاب ، فقال له عُمَر : يا رسول اللَّه ، لَأنتَ أَحَبُّ إلَيَّ مِن كُلِّ شيء إلا مِن نَفْسِي ، فقال النبيُّ ﷺ : ((لا والذي نَفْسِي بيده حتى أكُونَ أَحَبَّ إلَيْكَ مِن نَفْسِك)) ، فقال له عُمَر : فإنَّه الآنَ واللَّهِ لَأنتَ أَحَبُّ إلَيَّ مِن نَفْسِي ، فقال النبيُّ ﷺ : ((الآنَ يا عُمَر)) .

ذَكَرَ عُمَر بن الخطاب ـ رضي اللَّهُ عنه ـ حُبَّه لِنَفْسِه بِحَسَب الطَّبْع ، فبيَّن النبيُّ ﷺ لِعُمَر أنَّ إيمانه لا يَكْمُل حتى يَكون النبيُّ ﷺ أَحَبَّ إلَيه مِن نَفْسِه،فلمَّا عَلِمَ عُمَر أنَّ نجاة نَفْسه مِن الهلاك، وتحقيقَ رُتبة الإيمان الكامل مُتَوَقِّفَة على تقديم حُبِّ النبيِّ ﷺ على حُب نَفْسِه ، قال : فإنَّه الآنَ واللَّهِ لَأنتَ أحَبُّ إلَيَّ مِن نَفْسِي ، فقال النبيُّ ﷺ : " الآنَ يا عُمَر " ، يعني : الآنَ عَرَفْتَ يا عُمَر ، فنطقتَ بما يجب عليك ، وبما يَكتمل به إيمانُك .

يجب تقديم مَحَبَّة النبيِّ ﷺ على النُّفُوس، والأولاد، والأقارب، والأهل، والأموال، والمساكن، وغَير ذلك مِمَّا يُحِبُّه الإنسانُ غاية المَحَبَّة،وإنَّما تتم المَحَبَّة بالطاعة،كما قال اللَّهُ تعالى : ﴿ قُلْ إن

كُنتُم تُحِبُّونَ اللَّهَ فاتَّبِعُوني يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عِمران : ٣١] . ويَدخل في مَحَبَّة النبيِّ ﷺ : نُصرة سُنَّته ، والدفاع عن شريعته ، وقَمْع مُخالفيها ، والأمر بالمعروف ، والنَّهْي عن المُنكَر. والحديثُ يُوضِّح أنَّ حُب النبيِّ ﷺ مِن الإيمان ، وأنَّ إيمان العبد المُسْلِم لا يَكتمل حتى يَكُون النبيُّ ﷺ أحَبَّ إليه مِن نَفْسِه وولده وماله. وفيه: مَنقبة وفضل لِعُمَر بن الخَطَّاب_رضي اللَّهُ عنه_ .

وقال الحافظ في الفتح (١/ ٥٩ و٦٠) : ((فهذه المَحَبَّة ليست باعتقاد الأعظمية فقط ، فإنَّها كانت حاصلة لِعُمَر قبل ذلك قَطْعًا . ومِن علامة الحُب المَذكور أن يُعرَض على المَرء أنْ لَوْ خُيِّرَ بَيْنَ فَقْد غَرَض من أغراضه أوْ فَقْد رؤية النبيِّ ﷺ أنْ لَوْ كانت مُمكنة ، فإنْ كان فَقْدها أنْ لَوْ كانت مُمكنة أشد عليه مِن فقد شيء من أغراضه ، فقد اتَّصَفَ بالأحَبِّية المَذكورة ، ومَن لا فلا ، وليس ذلك محصورًا في الوُجود والفَقْد، بَلْ يأتي مِثْلُه في نُصرة سُنَّته ، والذَّب عن شريعته ، وقَمْع مُخالفيها ، ويَدخل فيه باب الأمر بالمعروف ، والنَّهْي عن المُنكَر . وفي هذا الحديث إيماء إلى فضيلة التفكُّر ، فإنَّ الأحَبِّية المذكورة تُعرَف به ، وذلك أنَّ مَحبوب الإنسان إمَّا نَفْسُه وإمَّا غَيرها ، أمَّا نَفْسُه فهو أن يُريد دوام بقائها سالمة مِن الآفات ، هذا هو حقيقة المطلوب ، وأمَّا غَيرها فإذا حقَّق الأمر فيه فإنما هو بسبب تحصيل نفع ما على وجوهه المُختلفة حالًا ومآلًا ، فإذا تأمَّلَ النفعَ الحاصل له من جهة الرسول ﷺ الذي أخرجه مِن ظُلُمَات الكُفْر إلى نُور الإيمان ، إمَّا بالمُبَاشَرَة ، وإمَّا بالسَّبَب ، عَلِمَ أنَّه سبب بقاء نَفْسه البقاء الأبدي في النعيم السرمدي ، وعَلِمَ أنَّ نَفْعه بذلك أعظم من جميع وجوه الانتفاعات ، فاستحق لذلك أن يكون حَظُّه من محبته أوفر مِن غَيره ، لأنَّ النفع الذي يُثير المحبة حاصل مِنه أكثر مِن غَيره ، ولكن الناس يتفاوتون في ذلك بِحَسَب استحضار ذلك ، والغفلة عنه ، ولا شك أن حَظ الصحابة _ رضي اللَّهُ عنهم _ مِن هذا المعنى أتَم، لأن هذا ثمرة المعرفة ، وهُم بها أعْلَم ، واللَّهُ المُوفِّق . وقال القُرطبي : كُل مَن آمنَ بالنبيِّ ﷺ إيمانًا صحيحًا لا يخلو عَن وِجدان شيء مِن تلك المحبَّة الراجحة غَير أنهم مُتفاوتون ، فَمِنهم مَن أخذ مَن تلك المرتبة بالحظ الأوفى ، ومِنهم مَن أخذ منها بالحظ الأدنى ، كَمَن كان مُستغرقًا في الشَّهَوَات ، مَحجوبًا في الغَفَلات في أكثر الأوقات ، لكن الكثير مِنهم إذا ذُكِرَ النبيُّ ﷺ اشتاقَ إلى رؤيته ، بحيث يُؤْثِرها على أهله وولده وماله ووالده ، ويَبذُل نَفْسَه في الأمور الخطيرة ، ويَجِد مَخْبَر ذلك مِن نَفْسِه وِجدانًا لا تردُّد فيه،وقد شُوهِد مِن هذا الجِنس مَن يُؤْثِر زيارة قبره، ورؤية مواضع آثاره على جميع ما ذُكِرَ لِمَا وَقَرَ في قلوبهم مِن محبَّته ، غير أن ذلك سريع الزوال بتوالي الغَفَلات ، واللَّهُ المُستعان . انتهى مُلَخَّصًا)) .

وعن أنس قال : قال النبيُّ ﷺ : ((لا يُؤْمِنُ أحَدُكُم حتَّى أكُونَ أحَبَّ إلَيه مِن وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ والناسِ أجمعين)) [٧٨].

مَحَبَّةُ النبيِّ ﷺ مِن أُصُول الإيمان ، وهي مَقرونة بِمَحَبَّة اللَّه تعالى . وقد تَوَعَّدَ اللَّهُ مَن قدَّم عليها شيئًا مِن الأُمُور المحبوبة في الطَّبْع، مِن الأقارب والأموال والأوطان، وغَير ذلك،فقال تعالى: ﴿ قُلْ إن كانَ آباؤُكُم وأبناؤُكُم وإخْوَانُكُم وأزْوَاجُكُم وَعَشِيرَتُكُم وأموالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إلَيْكُم مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ في سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأتِيَ اللَّهُ بِأمْرِهِ واللَّهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الفاسقين ﴾ .

ولا يكون العبدُ مؤمنًا كاملًا حتَّى يُقَدِّم مَحَبَّةَ النبيِّ ﷺ على مَحَبَّة جميع الخَلْق.ومَحَبَّةُ الرسول ﷺ تابعة لِمَحَبَّة مُرْسِلِه سُبحانَه وتعالى . والمَحَبَّةُ الصحيحة تَقتضي المُتَابَعَةَ والمُوَافَقَةَ في حُب المَحبوبات ، وبُغْض المَكروهات ، فالمَحَبَّةُ هي المُوَافَقَة في جميع الأحوال ، فإذا كان هذا الحُبُّ صادقًا، فيجب أن يَحمِل صاحبَه على مُتَابَعَة النبيِّ ﷺ، والعمل بِسُنَّته.ويجب تقديم طاعة النبيِّ ﷺ وامتثال أوامره على كُل الأشياء. وإنْ قَدَّمَ العبدُ على طاعة النبيِّ ﷺ وامتثال أوامره شيئًا مِن الأشياء المَحبوبة طبعًا ، دَلَّ ذلك على أنَّ إيمانه ناقص غير كامل .

يجب أن تَكون مَحَبَّةُ النبيِّ ﷺ مُقدَّمةً على الأموال والنُّفُوس ، ويجب أن تكون مَحَبَّته ﷺ أكثر من الوالد والولد والأهل والناس أجمعين وكُلِّ المخلوقات بلا استثناء . ومَحَبَّةُ النبيِّ ﷺ إنَّما تَكُون بالطاعة والاقتداء ، والتزام أوامره ، واجتناب نَوَاهيه .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم(٢/١٥و١٦): (((باب وُجوب مَحَبَّة رسول اللَّه ﷺ أكثر مِن الأهل والولد والوالد والناس أجمعين،وإطلاق عدم الإيمان على مَن لَم يُحِبَّه هذه المَحَبَّة) قَوله ﷺ : ((لا يُؤْمِن عبد حتى أكون أحبَّ إلَيه مِن أهله وماله والناس أجمعين)، وفي الرِّواية الأُخْرَى : (مِن ولده ووالده والناس أجمعين) . قال الإمام أبو سُلَيمان الخَطَّابي : لَم يُرِدْ به حُبَّ الطَّبْع ، بَلْ أرادَ به حُبَّ الاختيار ، لأنَّ حُبَّ الإنسانِ نَفْسَه طَبْع ، ولا سبيل إلى قَلبه، قال: فمعناه لا تَصْدُق في حُبِّي حتى تُفْنِيَ في طاعتي نَفْسَك ، وتُؤْثِر رِضَايَ على هَوَاك ، وإنْ كان فيه هلاكُك. هذا كلام الخَطَّابي. وقال ابن بَطَّال والقاضي عِيَاض وغَيْرُهما رحمة اللَّه عليهم: المحبة ثلاثة أقسام مَحَبَّة إجلال وإعظام كَمَحَبَّة الوالد ، ومَحَبَّة شَفَقَة ورحمة كَمَحَبَّة الولد ، ومَحَبَّة مُشَاكَلَة واستحسان

٧٨ متفق عليه. البخاري (١/ ١٤) برقم (١٥) ، ومسلم (١/ ٦٧) برقم (٤٤) .

كَمَحَبَّة سائر الناس ، فَجَمَعَ ﷺ أصنافَ المَحَبَّة في مَحَبَّته . قال ابنُ بَطَّال رحمه اللَّهُ : ومعنى الحديث أنَّ مَن استكملَ الإيمانَ عَلِمَ أنَّ حق النبيِّﷺآكَد عليه مِن حَق أبيه وابنه والناس أجمعين، لأنَّ به ﷺ اسْتُنْقِذْنَا مِن النار، وهُدِينا مِن الضَّلال . قال القاضي عِيَاض رحمه اللَّهُ : وَمِن مَحَبَّته ﷺ نُصْرَة سُنَّته، والذَّب عن شَريعته ، وتَمَنِّي حُضور حياته ، فَيَبذُل مالَه ونَفْسَه دُونَه . قال : وإذا تَبَيَّنَ ما ذَكَرْناه تَبَيَّنَ أنَّ حقيقة الإيمان لا تَتِم إلا بذلك،ولا يَصِح الإيمان إلا بتحقيق إعلاء قَدْر النبيِّ ﷺ ومنزلته على كُلِّ والد وولد ومُحْسِن ومُفَضَّل . ومَن لَم يَعتقد هذا ، واعتقد سِوَاه ، فَلَيس بِمُؤمِن ، هذا كلام القاضي رحمه اللَّهُ ، واللَّهُ أعْلَم)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٦/ ٤٤١ و٤٤٢) : (((لا يُؤْمِنُ أحَدُكُم) لفظ رواية ابن ماجة : أحد ، أي : إيمانًا كاملًا . ونَفْي اسم الشيء بمعنى الكمال عنه مُستفيض في كلامهم ، وخُصُّوا بالخِطَاب لأنَّهُم المَوجودون إذْ ذاك ، والحُكْم عام (حتى أكُونَ أحبَّ إلَيه) غاية لِنَفْي كمال الإيمان ، ومَن كَمُلَ إيمانُه عَلِمَ أنَّ حقيقة الإيمان لا تَتِم إلا بترجيح حُبِّه على حُب كُلِّ (مِن ولده ووالده) أي : أصله وفَرْعه ، وإنْ علا أوْ نَزَلَ ، والمُراد : مَن له ولادة ، وقُدِّمَ الولد على الوالد لمزيد الشَّفَقَة . وفي رواية للبخاري تقديم الوالد ، ووجهه أنَّ كُل أحد له والد ولا عَكْس . وذِكْر الولد والوالد أدْخَل في المعنى لأنَّهما أعز على العاقل من الأهل والمال ، بل عند البَعْض مِن نَفْسِه ، ولذلك لَم يَذكُر النَّفْسَ . وشَمِلَ لفظُ الوالد الأُمَّ إنْ أُرِيدَ مَن له وِلادة أوْ ذات وَلَد ، ويُحْتَمَل أنَّه اكتفى بِذِكْر أحدهما كما يَكتفي مِن أحد الضِّدين بالآخَر ، وعَطَفَ عليه مِن عَطْف العام على الخاص قَوله : (والناس أجمعين) حُبًّا اختياريًّا إيثارًا له عليه الصلاة والسلام على ما يقتضي العقلُ رُجْحَانَه مِن حُبِّه ، احترامًا وإكرامًا وإجلالًا ، وإنْ كان حُب غَيره لِنَفْسه وولده مَركوزًا في غَريزته ، فسقط استشكاله بأن المَحَبَّة أمر طبيعي غريزي لا يدخل الاختيار، فكَيف تُكَلَّف به؟ إذ المُراد حُب الاختيار المُستند إلى الإيمان ، كما تقرَّر ، فمعناه : لا يُؤْمِن أحَدُكُم حتَّى يُؤْثِرَ رِضَايَ على هَوى وَالِدَيْه وأولاده . قال الكِرْماني : ومَحَبَّة الرسول ﷺ إرادة طاعته ، وتَرْك مُخالفته، وهو مِن واجبات الإسلام . والحديث مِن جَوَامع الكَلِم ، لأنَّه جَمَعَ فيه أصنافَ المَحَبَّة الثَّلاثة مَحَبَّة الإجلال وهي مَحَبَّة الأصل ، ومَحَبَّة الشَّفَقَة وهي مَحَبَّة الوالد ، ومَحَبَّة المُجَانَسَة وهي مَحَبَّة الناس أجمعين . وشَاهِد صِدْق ذلك بَذْل النَّفْس في رضا المَحبوب ، وإيثاره على كُلِّ مَصحوب . قال الإمام النووي : وفي الحديث تلميح إلى قضية النَّفْس الأمَّارة والمُطْمَئِنَّة ، فَمَن رجَّح جانبَ المُطْمَئِنَّة كان حُبُّه لِنَبِيِّه راجحًا ، ومَن رجَّح الأمَّارَة كان بالعَكْس)) .

وروى ابن حِبَّان في صحيحه (١٠/ ٤٥٣) عن سَبْرَة بن أبي فَاكِه قال: سمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ قال : ((إنَّ الشَّيطان قَعَدَ لابنِ آدمَ بطريق الإسلام ، فقال له : تُسْلِمُ وتَذَرُ دِينَكَ ودِينَ آبائك، فعصاه فأسلمَ ، فغُفر له ، فَقَعَدَ له بطريق الهِجرة ، فقال له : تُهاجر وتَذَرُ أرْضَكَ وسَماءك، فعصاه فهاجرَ ، فَقَعَدَ له بطريق الجِهاد ، فقال له : تُجاهد وهو جَهْدُ النَّفْسِ والمال ، فتُقَاتِل فتُقتَل ، فتُنكَح المَرأة ، ويُقْسَم المال ، فعصاه فجاهدَ . فقال رسول اللَّه ﷺ : فَمَن فَعَلَ ذلك فمات ، كان حَقًّا على اللَّه أن يُدخله الجَنَّةَ ، أوْ قُتل كان حَقًّا على اللَّه أن يُدخله الجَنَّةَ ، وإنْ غَرِقَ كان حَقًّا على اللَّه أن يُدخله الجَنَّةَ ، أوْ وَقَصَتْهُ دَابَّةٌ كان حقًّا على اللَّه أن يُدخله الجَنَّةَ)) .

هذا الحديثُ يُوضِّح عداوةَ الشَّيطان للإنسان ، فهو يُوَسْوِس له ، ليَمنعه مِن كُل خَير . والشَّيطانُ قَعَدَ لابن آدم على طريق الإسلام ، ليَمنعه مِن اعتناق الإسلام ، وذلك بتذكيره بدِينه القديم ودِين آبائه ، وضرورة التَّمَسُّك بتقليد الآباء ، والإعراض عن الإسلام ، فخالفه ابنُ آدم ، فأسلمَ . وقَعَدَ الشَّيطان لابن آدم على طريق الهِجرة ، ليَمنعه مِن الهِجرة ، وخوَّفه مِن تَرك الوطن ، فخالفه ابنُ آدم ، فهاجرَ . وقعد الشَّيطان لابن آدم على طريق الجهاد ، ليَمنعه مِن القتال في سبيل اللَّه ، وخوَّفه مِن بَذل النَّفْس والمال ، والقتال ، والقَتل ، ويتزوَّج زَوْجَتَكَ رَجُلٌ غَيْرُك ، ويَذهب المال للوَرَثة، فخالفه ابن آدم ، فجاهدَ. وبيَّن النبيُّ ﷺ أنَّ مَن عَصَى الشَّيطانَ وخالفه ، وأسلمَ وهاجرَ وجاهدَ ، كان جزاؤه أن يُدخله اللَّهُ الجَنَّةَ . ومهما كانت طريقة مَوته في سبيل اللَّه ، فجزاؤه أن يُدخله اللَّهُ الجَنَّةَ . والحديثُ يُوضِّح ضرورة الاستعانة باللَّه لِمُقاومة وساوس الشَّيطان ، ورفضها . والشَّيطان عدو خبيث يُحاول جاهدًا مَنع العبد مِن كُل خَير ، وإبعاده عن طريق الحق والهُدى. لذلك، يجب أخذ الحَيطة والحَذَر، وإهمال وساوس الشَّيطان ، والحِرص على الطاعات.

ومعنى " وَقَصَتْهُ دَابَّة " : كانت سببًا في مَوته ، كأن وَقَعَ مِن عَلَيها فمات ، أوْ وَطِئَتْهُ .

والمُراد تعميم أحوال المَوت في سبيل اللَّه تعالى ، سواءٌ كان مَوْتُه بالقتل أو الغَرَق أوْ وَقْص دَابَّته ، أوْ غَير ذلك مِن أسباب المَوت ، فإنَّ اللَّه يُدخِله الجَنَّةَ .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿قَاتِلُوا الذينَ لا يُؤْمِنُونَ باللَّهِ ولا باليَوْمِ الآخِرِ ولا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ولا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُون ﴾ [التَّوبة: ٢٩]. هذه الآيةُ بيانٌ إلهيٌّ عظيم لِحُكْم أهل الكتاب .

الخِطابُ الإلهيُّ للصحابة _ رضي اللَّهُ عنهم _ . قَاتِلُوا أيها المؤمنون الذين لا يؤمنون إيمانًا صحيحًا باللَّهِ واليَومِ الآخِرِ ، وإنْ زَعَمُوا الإيمانَ ، فإنَّ إيمانَهم بلا مَعنى ولا فائدة ، وكأنَّه لا إيمان.

فاليهودُ قالوا : عُزَير ابن اللَّه ، والنصارى يَعتقدون بأُلُوهِيَّةِ المَسيح ويَقولون بالتثليث ، واليهودُ والنصارى لا يُصدِّقون بالقُرآن الكريم ، ولا يُقِرُّون بِنُبُوَّةِ مُحَمَّد ﷺ ، ولا يُحرِّمون ما حرَّم اللَّهُ في كتابه ، ولا رسولُه في سُنَّته ، وإنما يأخذون بما شَرَعَه لهم الأحبار والرُّهبان ، ولا يَعتقدون بِدِين الإسلام الذي هو الدِّين الحَق، والدِّين السَّماوي الوحيد، مِن هؤلاء المُنحرفين من اليهود والنصارى الذين نزلت عليهم التَّوراة والإنجيل ، حتى يَدفعوا إلى المؤمنين الجِزْيَةَ مُنقادين مُستسلمين [79]، وهُم أذِلَّاء حَقيرون مَقهورون بِسُلطان الإسلام وقُوَّةِ المُسلمين. لذلك لا يجوز إعزازُهم، ولا رفعُهم على المسلمين ، ولا يُسمَح لهم بإظهار شعائرهم ، ولا إفشاء عقائدهم .

ومفهومُ الآية يَقتضي تخصيصَ الجِزية بأهل الكتاب (اليهود والنصارى) .

ومِن الضَّروري معرفة أنَّ أهل الكتاب لا يُبْدَؤُون بالسَّلام ، فَهُم لَيْسُوا أهلًا للتعظيم والتقدير .

---

٧٩ الجِزْيَةُ: ضريبة مالية من أموال غير المسلمين الْمُسْتَظِلِّين براية الإسلام ، وهي مِقدار يتراوح بين اثني عَشَر دِرهمًا، وثمانيةٍ وأربعين، وذلك لِيُسهموا في ميزانية الدَّولة التي تحميهم في أنفسِهم وأموالهم وأعراضهم، فهي في مُقابل ما يُؤْخَذ مِن المسلم ، فالمسلم يُؤْخَذ منه خُمْس الغنائم ، والزكاة، وصَدَقَة الفِطْر ، وغَير ذلك مِثل الكَفَّارات للذُّنُوب المختلفة . وتُنفَق الجِزيةُ في المصالح العامَّة، وعلى فقراء أهل الذِّمَّة أيضًا، وتُفْرَض الجِزية على أهل الكتاب ، ولا تُفْرَض على المشركين ، هكذا عِند جمهور العُلَماء . وأخذُ الجِزية مِن أهل الكتاب (اليهود والنصارى) إنما هو بسبب كَف المسلمين عن قِتالهم ، ومُساهمة مِنهُم في رفع شأن الدَّولة الإسلامية التي أمَّنَتْهُم ، وحافظتْ على أموالهم وأعراضهم ومُعتقداتهم ومُقَدَّساتهم ، وإقرار مِنهُم بالخضوع لتعاليم هذه الدَّولة ، وأنهم متى التزموا بدفعها وَجَبَ على المسلمين حمايتهم ، ورعايتهم ، والاعتناء بهم ، ومُعاملتهم بالعدل والرِّفْق والرحمة . والجِزيةُ وَزْنها فِعْلَة ، مِن جَزَى يَجْزِي : إذا كافأ عمَّا أُسْدِيَ إليه فكأنهم أَعْطَوْهَا جَزَاءً عمَّا مُنِحُوا مِن الأمن.وقد استدلَّ بالآية الكريمة:﴿قَاتِلُوا الذينَ لا يُؤْمِنُونَ باللَّهِ ولا باليَوْمِ الآخِرِ ولا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ولا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُون ﴾ ، مَن يرى أنَّه لا تُؤْخَذ الجِزية إلا مِن أهل الكتاب أوْ مَن أشبههم كالمجوس . وفي صحيح البخاري (٣/ ١١٥١) : " أنَّ رسول اللَّه أخذها مِن مَجُوس هَجَر " . [الْمَجُوس: عَبَدَة النار ، وهَجَر : اسم بلد في البحرين]. وهذا مذهب الشافعي وأحمد. وقال أبو حَنيفة: تُؤْخَذ من جميع الأعاجم سواءٌ كانوا من أهل الكتاب أوْ مِن المشركين ، ولا تُؤْخَذ من العرب إلا من أهل الكتاب. وقال مالك : يجوز أن تُضْرَب الجِزية على جميع الكفار مِن كتابي ومجوسي ووثني ، وغَير ذلك .

في صحيح مسلم (٤/ ١٧٠٧) : عن أبي هُرَيرة أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: ((لا تَبْدَؤُوا اليهودَ ولا النصارى بالسَّلام ، فإذا لَقِيتُم أحَدَهُم في طريق ، فَاضْطَرُّوهُ إلى أضْيَقِه)) .

لا يَجوز بَدْء أهل الكتاب (اليهود والنصارى) بالسلام، وَلَوْ كانوا ذِمِّيين ، فضلًا عَن غَيرهم مِن الكُفَّار، لأنَّ الابتداء بالسلام إعزاز وتكريم وتعظيم للمُسَلَّم عليه،ولا يجوز إعزازُهم ولا تكريمُهم ولا تعظيمُهم ، وكذلك لا يجوز مُوَادَّتهم والتَّحَبُّب إليهم بالسَّلام ونَحْوه . وإذا لَقِيَ المُسْلِمُ يهوديًّا أوْ نصرانيًّا في الطَّريق ، فيجب أن يُلْجِئَهُ إلى أضْيَق الطريق . والمعنى : لا تُوَسِّعُوا لليهود والنصارى إذا قابلوكم ، فيكون لهم السَّعَة ، ويكون الضِّيق عليكم ، بَل استمرُّوا في اتِّجاهكم وسَيْركم ، واجعلوا الضِّيقَ _ إنْ كان هُناك ضِيق _ عليهم .

ومِن المَعلوم أنَّه لَم يَكُن مِن هَدْي النبيِّ ﷺ إذا رأى الكافرَ أن يَزْحَمَه إلى الجِدار حتَّى يَرُصَّه على الجِدار !. ما كان النبيُّ ﷺ يَفعل هذا باليهود في المدينة، ولا كان الصحابة_رضي اللَّهُ عنهم_ يَفعلونه بعد فُتوح الأمصار .

إنَّ إلقاءَ السَّلامِ إكرامٌ، والكافر لَيس أهْلًا للإكرام . فالكافرُ أهانَ نَفْسَه ، وألقاها في التَّهْلُكة، وذلك باختياره الكفر على الإيمان، فلا ينبغي تقديره وتعظيمه، بل يجب تصغيره والتقليل من شأنه.

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢/ ١١٠) : ((فمذهب الشافعي وجمهور أصحابه وأكثر العلماء أنَّه لا يجوز للمُسْلِم أن يبتدئ كافرًا بالسلام ، وأجازه كثيرون مِن السَّلَف. وهذا مردود بالأحاديث الصحيحة في النَّهْي عن ذلك)). اهـ . وفي نَفْس المرجع (١٤/ ١٤٧): ((قال أصحابُنا _ يعني الشافعية _ : لا يُترَك للذِّمي صَدْر الطريق ، بَل يُضْطَر إلى أضْيَقِه إذا كان المسلمون يَطْرُقُون _ يعني : يَسْلُكُون الطريقَ _ ، فإنْ خَلَت الطريق عَن الزحمة ، فلا حَرَج ، قالوا: وليكن التضييق بحيث لايقع في وَهْدَة ، ولا يَصْدِمُه جِدار ونَحْوه ، واللَّهُ أعْلَم)) .

ولا يُصَدَّرُ اليهود والنصارى في المجالس ، لأنَّ في تصديرهم في المجالس إعزازًا لهم ، وتَسويةً بَينهم وبَين المسلمين في الإكرام ، وهذا غَير جائز .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٦/ ٣٨٦) : (((لا تَبْدَؤُوا اليهودَ ولا النصارى بالسَّلام) لأنَّ السلام إعزاز وإكرام ، ولا يجوز إعزازُهم ، ولا إكرامُهم ، بَل اللائق بهم الإعراض عَنهُم ، وترك الالتفات إليهم تصغيرًا لهم، وتحقيرًا لشأنهم ، فَيَحْرُم ابتداؤهم به على الأصح عند الشافعية، وأوْجَبُوا الرَّدَّ عَلَيهم بِ عليكم فقط،ولا يُعارضه آية: ﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾[مريم: ٤٧] وآية : ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُون ﴾ [الزُّخْرُف : ٨٩] ، لأنَّ هذا سَلام مُتارَكَة

ومُنَابَذَة، لا سلام تحيَّة وأمان (وإذا لَقِيتُم أحَدَهم في طريق)فِيه زَحْمَة (فَاضْطَرُّوه إلى أضْيَقِه) بحيث لا يقع في وَهْدَة،ولا يَصْدِمه نَحْو جِدار ، أي لا تَتركوا له صَدْرَ الطريق إكرامًا واحترامًا ، فهذه الجُملة مُنَاسِبَة للأُولَى في المعنى والعَطْف ، وليس معناه كما قال القُرطبي: إنَّا لَوْ لَقِيناهُم في طريق واحد نُلْجِئهم إلى حَرْفِه (طَرَفه) حتَّى يَضِيق عليهم ، لأنَّه إيذاء بلا سبب ، وقَدْ نُهِينا عَن إيذائهم ، ونبَّه بهذا على ضِيق مَسْلَك الكُفْر ، وأنَّه يُلجِئ إلى النار)) .

قال القُرطبي في تفسيره (٨/ ١٠١): ((قَوله تعالى : ﴿قَاتِلُوا الذينَ لا يُؤْمِنُونَ باللَّهِ ولا باليَوْمِ الآخِرِ ﴾ ، لمَّا حرَّم اللَّهُ تعالى على الكُفَّار أن يَقْرَبُوا المسجدَ الحرام، وَجَدَ المسلمون في أنفسهم، بما قُطِعَ عَنهم مِن التجارة التي كان المُشركون يُوَافُون بها. قال اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وإنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ الآية . ثُمَّ أَحَلَّ في هذه الآية الجِزْيَة ، وكانت لَم تُؤْخَذْ قَبل ذلك ، فَجَعَلَهَا عِوَضًا مِمَّا مَنَعَهم مِن مُوَافَاة المُشركين بتجارتهم ، فقالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قَاتِلُوا الذينَ لا يُؤْمِنُونَ باللَّهِ ولا باليَوْمِ الآخِرِ ﴾ الآية . فأمرَ سُبحانَه وتعالى بِمُقَاتَلة جميع الكُفَّار لإصفاقهم _ لإجماعهم _ على هذا الوَصْف ، وخُصَّ أهل الكتاب بالذِّكْر إكرامًا لكتابهم ، ولِكَوْنهم عَالِمِين بالتَّوحيد والرُّسُل والشَّرائع والمِلَل، وخُصوصًا ذِكْر مُحَمَّد ﷺ ومِلَّته وأُمَّته، فلمَّا أنكرُوه تأكَّدت عليهم الحُجَّة، وعَظُمَتْ مِنهُم الجريمة، فَنَبَّهَ على مَحَلِّهم ، ثُمَّ جَعل للقتال غايةً ، وهي إعطاء الجِزية بَدَلًا عَن القتل ، وهو الصحيح . قال ابن العربي : سمعتُ أبا الوفاء علي بن عَقِيل في مجلس النظر يَتلوها ويَحتج بها، فقال : ﴿قَاتِلُوا ﴾ وذلك أمر بالعُقوبة ، ثُمَّ قال : ﴿ الذينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، وذلك بيان للذَّنْب الذي أوجبَ العُقوبةَ . وقَوله : ﴿ ولا باليَوْمِ الآخِرِ ﴾ تأكيد للذَّنْب في جانب الاعتقاد ، ثُمَّ قال : ﴿ ولا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ زِيادة للذَّنْب في مُخَالَفَة الأعمال ، ثُمَّ قال : ﴿ ولا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ ﴾ إشارة إلى تأكيد المعصية بالانحراف والمُعَانَدَة والأَنَفَة عن الاستسلام ، ثُمَّ قال: ﴿ مِنَ الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ ﴾ تأكيد للحُجَّة ، لأنَّهم كانوا يَجِدونه مكتوبًا عِندهم في التَّوراة والإنجيل ، ثُمَّ قال : ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَن يَدٍ ﴾ ، فَبَيَّنَ الغايةَ التي تمتد إليها العُقوبة ، وعَيَّنَ البَدَلَ الذي ترتفع به)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٣/ ٤١٩ _ ٤٢٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الذينَ لا يُؤْمِنُونَ باللَّهِ ﴾ ، قال المُفسِّرون : نزلت في اليهود والنصارى . قال الزَّجاج : ومعناها : لا يؤمنون باللَّهِ إيمانَ المُوَحِّدين ، لأنَّهُم أقَرُّوا بأنَّه خالقُهم ، وأنَّه له ولد ، وكذلك إيمانهم بالبَعْث ، لأنهم لا يُقِرُّون بأنَّ أهل الجنة يَأكلون ويَشربون . وقال المَاوَرْدِيُّ : إقرارهم باليوم الآخِر يُوجِب الإقرارَ بِحُقوقه ، وهُم لا يُقِرُّون بها ، فكانوا كَمَن لا يُقِرُّ به . قَوله تعالى : ﴿ ولا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ

وَرَسُولُهُ ﴾ . قال سعيد بن جُبَير : يعني الخَمْرَ والخِنزير . قَوله تعالى : ﴿ ولا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ ﴾ ، في الحَق قَولان: أحدهما أنَّه اسم اللَّه ، فالمعنى : دِين اللَّه ، قاله قَتادة . والثاني أنَّه صِفة للدِّين ، والمعنى : ولا يَدِينون الدِّينَ الحَقَّ ، فأضافَ الاسمَ إلى الصِّفَة . وفي معنى ﴿ يَدِينُونَ ﴾ قَولان : أحدهما أنَّه بمعنى الطاعة ، والمعنى : لا يُطيعون اللَّهَ طاعةَ حَق ، قاله أبو عُبَيدة ، والثاني أنَّه مِن دَانَ الرَّجُل يَدِين كذا ، إذا الْتَزَمَه ، ثُمَّ في جُملة الكلام قَولان : أحدهما أنَّ المعنى لا يَدخُلون في دِين مُحَمَّد ﷺ ، لأنَّه نَاسِخ لِمَا قَبْلَه . والثاني لا يَعْمَلُون بما في التَّوراة مِن اتِّبَاع مُحَمَّد ﷺ . قَوله تعالى : ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ ﴾ ، قال ابن الأنباري : الجِزية الخَرَاج المَجعول عليهم ، سُمِّيَتْ جِزْيَةً لأنها قضاء لِمَا عليهم ، أُخِذَ مِن قَولهم : جَزَى يَجْزِي ، إذا قَضَى . ... . وفي قَوله : ﴿ عَن يَدٍ ﴾ سِتَّة أقوال : أحدها عن قَهْر ، قاله قَتادة والسُّدي ، وقال الزَّجاج : عن قَهْر وذُل . والثاني أنَّه النَّقْد العاجل ، قاله شَرِيك وعُثمان بن مِقْسَم . والثالث أنَّه إعطاء المُبتدئ بالعَطاء لا إعطاء المُكَافِئ ، قاله ابن قُتَيبة . والرابع أنَّ المعنى : عن اعتراف للمسلمين بأن أيديهم فوق أيديهم . والخامس عَن إنعام عَلَيهم بذلك ، لأنَّ قَبول الجِزية مِنهُم إنعام عليهم ، حكاهما الزَّجاج . والسادس يُؤَدُّونها بأيديهم، ولا يُنفِذونها معَ رُسُلِهم،ذَكَرَه المَاوَرْدِي.قَوله تعالى: ﴿ وَهُمْ صَاغِرُون ﴾ الصَّاغِر : الذليل الحقير . وفي ما يُكَلَّفُونه مِن الفِعْل الذي يُوجِب صَغَارَهم خمسة أقوال : أحدها أن يَمشوا بها مُلَبَّبِين _ يعني جامعين ثيابَهم عِند نُحُورهم _ ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثاني أن لا يُحْمَدُوا على إعطائهم ، قاله سلمان الفارسي ، والثالث أن يكونوا قِيَامًا ، والآخِذ جالسًا ، قاله عِكرمة . والرابع أنَّ دَفْع الجِزية هو الصَّغَار ، والخامس أن إجراء أحكام الإسلام عليهم هو الصَّغَار . فَصْل . واخْتُلِفَ في الذين تُؤْخَذ مِنهم الجِزية مِن الكُفَّار ، فالمشهور عن أحمد أنَّها لا تُقْبَل إلا من اليهود والنصارى والمَجوس ، وبه قال الشافعي ، ونَقَلَ الحسن بن ثواب عن أحمد : أنَّه مَن سُبِيَ من أهل الأديان من العرب والعَجَم ، فالعرب إنْ أسْلَمُوا وإلا السَّيف، وأُولئك إنْ أسْلَمُوا وإلا الجِزية ، فظاهر هذا أنَّ الجِزية تُؤْخَذ مِن الكُل إلا مِن عابدي الأوثان مِن العرب فقط ، وهو قَول أبي حنيفة ومالك . فَصْل . فأمَّا صِفَة الذين تُؤْخَذ مِنهُم الجِزية ، فهم أهل القِتال ، فأمَّا الزَّمِنُ (المريض مَرَضًا مُزْمِنًا) ، والأعمى ، والمَفلوج ، والشَّيخ الفاني ، والنِّساء ، والصِّبيان ، والرَّاهب الذي لا يُخَالِط الناس ، فلا تُؤْخَذ مِنهم . فَصْل . فأمَّا مِقدارها فقال أصحابُنا _ يعني الحنابلة _ : على المُوسِر ثمانية وأربعون دِرهمًا ، وعلى المُتَوَسِّط أربعة وعشرون ، وعلى الفقير المُعْتَمِل _ الذي يَعْمَل _ : اثنا عَشَر ، وهو قَول أبي حَنيفة . وقال مالك : على أهل

الذهب أربعة دنانير ، وعلى أهل الوَرِق (الفِضَّة) أربعون دِرهمًا ، وسواءٌ في ذلك الغني والفقير. وقال الشافعي : على الغنيِّ والفقير دينار . وهل تجوز الزِّيادة والنُّقْصان مِمَّا يُؤْخَذ مِنهم ؟ ، نقل الأثرم عن أحمد أنَّها تُزَاد وتَنقُص على قَدْر طاقتهم ، فظاهر هذا أنَّها على اجتهاد الإمام ورأيه ، ونَقَلَ يعقوب بن بختان أنَّه لا يجوز للإمام أن يُنقِص مِن ذلك ، وله أن يزيد)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٥٦): ((فَهُم في نَفْس الأمر لمَّا كَفروا بِمُحَمَّد ﷺ لَم يَبْقَ لهم إيمان صحيح بأحد مِن الرُّسُل ، ولا بما جاؤوا به ، وإنَّما يتَّبعون آراءَهم وأهواءَهم وآباءَهم فِيما هُم فيه ، لا لأنَّه شَرْعُ اللَّهِ ودِينُه ، لأنَّهُم لَوْ كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيمانًا صحيحًا لَقَادَهم ذلك إلى الإيمان بِمُحَمَّد ﷺ ، لأنَّ جميع الأنبياء بشَّروا به ، وأَمَرُوا باتِّبَاعه ، فلمَّا جاء وكفروا به وهو أشرف الرُّسُل، عُلِمَ أنَّهم لَيسوا مُتَمَسِّكين بِشَرْع الأنبياء الأقدمين لأنَّه مِن عِند اللَّه ، بَل لِحُظوظهم وأهوائهم ، فلهذا لا يَنفعهم إيمانُهم ببقيَّة الأنبياء ، وقد كَفروا بِسَيِّدهم وأفضلهم وخَاتَمهم وأكملهم ، ولهذا قال : ﴿ قَاتِلُوا الذينَ لا يُؤْمِنُونَ باللَّهِ ولا باليَوْمِ الآخِرِ ولا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ولا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ ﴾، وهذه الآية الكريمة نزلتْ أوَّلَ الأمر بقتال أهل الكتاب، بعدما تمهَّدت أُمور المشركين،ودخل الناسُ في دِين اللَّه أفواجًا، واستقامت جزيرة العرب ، أمرَ اللَّهُ ورسولُه بقتال أهل الكتابَيْن اليهود والنصارى، وكان ذلك في سَنَة تِسْع، ولهذا تجهَّز رسول اللَّه ﷺ لقتال الرُّوم ، ودعا الناسَ إلى ذلك ، وأظهره لهم ، وبَعَثَ إلى أحياء العرب حَول المدينة ، فنَدَبَهم فأوْعَبُوا معه _ حَشَدُوا معه _ ، واجتمع مِن المُقَاتِلَة نَحْو مِن ثلاثين ألفًا ، وتَخَلَّفَ بعضُ الناس مِن أهل المدينة ومَن حَولها مِن المُنافقين وغَيرهم ، وكان ذلك في عام جَدْب ووَقْت قَيْظ وحَر ، وخَرَجَ رسولُ اللَّه ﷺ يُريد الشَّامَ لقتال الرُّوم ، فَبَلَغَ تَبُوك ، فَنَزَلَ بها ، وأقام بها قريبًا مِن عشرين يومًا ، ثُمَّ استخارَ اللَّهَ في الرُّجوع ، فَرَجَعَ عَامَه ذلك لِضِيقِ الحال ، وضَعْفِ الناس)) .

قال أبو سُفيان بن حَرْب : إنَّ أَوَّلَ يوم رَغِبْتُ فِيه في مُحَمَّد ﷺ لَيَوْمُ قال قَيْصَرُ في مُلْكِه وسُلطانه وحَضْرته ما قال ، يعني قَوْلَه : لَوْ عَلِمْتُ أنَّه هو لَمَشَيْتُ إليه حتى أُقَبِّلَ رَأسَه ، وأغْسِلَ قَدَمَيْه . قال أبو سُفيان: وحَضَرْتُهُ يَتَحَادَرُ جَبِينُهُ عَرَقًا مِن كَرْب الصَّحيفة التي كَتَبَ إليه النبيُّ ﷺ . قال أبو سُفيان : فَمَا زِلْتُ مَرغوبًا مِن مُحَمَّد ﷺ حتَّى أسلمتُ . وفي رسالته : " ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم أَلا نَعْبُدَ إلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُون ﴾ ، ﴿ هُوَ الذي أرسلَ رَسُولَهُ

بالهُدى وَدِينِ الحقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المشركون ﴾ ، ﴿قَاتِلُوا الذينَ لا يُؤْمِنُونَ باللَّهِ ولا باليَوْمِ الآخِرِ ولا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ولا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُون ﴾ " [٨٠].

كانت عبارات قَيصر المُعظِّمة للنبيِّ ﷺ ، هي الدافع لأبي سُفيان كَي يُحِبَّ النبيَّ ﷺ ، ويَرغب فيه ، ويُقْبِل عليه بقلب مفتوح . وقد كان أبو سُفيان حاضرًا عندما سالَ وتساقطَ العَرَقُ مِن جَبين قَيصر بسبب كَرْب الصحيفة التي كتبها النبيُّ ﷺ له ، والكَرْبُ هو الحُزْنُ الذي يَأخذ بالنَّفْس ، والصحيفةُ ما يُكتَب فيه مِن وَرَق ونَحْوه . وقد كَتَبَ فيها النبيُّ ﷺ آياتٍ مُؤَثِّرة ذات علاقة بأهل الكتاب ، وقَيصر هو عظيم الرُّوم ، وزعيم النصارى . ومِن الضَّروري أن يطَّلع على هذه الآيات البَيِّنَات التي تُظهِر مَنهجَ الإسلام في التعامل معَ أهل الكتاب .

والجديرُ بالذِّكْر أنَّ النبيَّ ﷺ أُمِّيٌّ لا يَقرأ ولا يَكتب . ومعنى " كَتَبَ " : أَمَرَ بالكتابة ، فَنُسِبَ الفِعل للآمِر به. وهذا شيء مَعروف في اللغة العربية .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ يا أيُّها النبيُّ جَاهِدِ الكُفارَ والمُنافقينَ واغْلُظْ عَلَيهم ومَأوَاهُم جَهَنَّمُ وبِئْسَ المصير ﴾ [التَّوبة : ٧٣] .

الخِطَابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ ، وأُمَّته داخلة فيه . يا أيها النبيُّ ، جاهِد الكفارَ بالسَّيف والسِّلاح ، وجَاهِد المُنافقين باللسان وإلزام الحُجَّة وإقامة الحُدود عليهم، وشَدِّدْ عليهم فيما تُجاهدهم بِه ، وكُنْ صُلْبًا خَشِنًا في التعامل معهم ، ولا تُجاملهم ، ولا تُداهنهم ، ولا تأخذك بهم رأفة ولا رحمة . وهذا من أجل إظهار عَظَمَة الإسلام ورِفعة شأنه ، وعُلُوِّ مكانته ، وعِزَّة المسلمين ومَجْدهم. ومصيرُ الكفار والمنافقين في الآخرة إلى عذاب جهنم ، وبِئس المرجع الذي يرجعون إليه .

وهذه الآية نَسَخَتْ كُلَّ شيء مِن العَفْو والصُّلْح والصَّفْح .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٤١٩) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه : ﴿ يا أيُّها النبيُّ جَاهِدِ الكُفارَ ﴾ بالسَّيف والسِّلاح ﴿ والمُنافقينَ ﴾ . واختلف أهلُ التأويل في صِفة (الجِهاد) الذي أمرَ اللَّهُ نَبِيَّه به في المُنافقين، فقال بعضُهم : أَمَرَه بجهادهم باليد واللسان ، وبِكُلِّ ما أطاقَ جِهادَهم به . .... . وقال آخرون: بَلْ أَمَرَه بجهادهم باللسان. ... .وقال آخرون: بل أَمَرَه بإقامة الحُدود عليهم . .... .

٨٠ رواه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٣) . وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٥٥٦) : ((لأبي سُفيان حديث في الصحيح غَير هذا . رواه الطبراني ، ورجاله رجال الصحيح)) .

ـ قال الطبري ـ : وأَوْلَى الأقوال في تأويل ذلك عِندي بالصَّواب ... مِن أنَّ اللَّه أَمَرَ نَبِيَّه ﷺ مِن جِهاد المُنافقين بِنَحْو الذي أَمَرَه به مِن جِهاد المُشركين . فإنْ قال قائل : فكيف تَرَكَهم ﷺ مُقيمين بَين أَظْهُر أصحابه معَ عِلْمِه بهم ؟ . قِيل : إنَّ اللَّه تعالى ذِكْرُه إنَّما أَمَرَ بقتال مَن أظهرَ مِنهم كلمةَ الكُفْر ، ثُمَّ أقام على إظهاره ما أظهرَ مِن ذلك ، وأمَّا مَن إذا اطُّلِعَ عَلَيه مِنهُم أنَّه تكلَّم بكلمة الكُفْر ، وأُخِذَ بها ، أنكرَها ورَجَعَ عنها وقال : إنِّي مُسْلِم ، فإنَّ حُكْم اللَّه في كُل مَن أظهرَ الإسلامَ بلسانه أن يُحقَن بذلك له دَمُه ومالُه ، وإنْ كان مُعْتَقِدًا غَيْرَ ذلك ، وتَوَكَّلَ هو جَلَّ ثناؤه بسرائرهم ، ولَم يَجعل للخَلْق البَحْثَ عن السرائر ، فلذلك كان النبيُّ ﷺ معَ عِلْمه بهم ، وإطْلاع اللَّه إيَّاه على ضَمائرهم واعتقاد صدورهم ، كان يُقِرُّهم بَين أَظْهُر الصحابة ، ولا يَسْلُك بجهادهم مَسْلَكَ جِهاد مَن قد ناصبه الحَرْبَ على الشِّرْك باللَّه ، لأنَّ أحدهم كان إذا اطُّلِعَ عليه أنَّه قد قال قَوْلًا كَفَرَ فيه باللَّه ، ثُمَّ أُخِذَ به أنكرَه ، وأظهرَ الإسلامَ بلسانه ، فَلَم يكن ﷺ يَأخذه إلا بما أظهرَ له مِن قَوله عِند حُضوره إيَّاه ، وعَزْمه على إمضاء الحُكْم فيه ، دُون ما سَلَفَ مِن قَوْل كان نَطَقَ به قَبل ذلك ، ودُون اعتقاد ضميره الذي لَم يُبِح اللَّهُ لأحد الأخذَ به في الحُكْم ، وتَوَلَّى الأخذَ به هو دُون خَلْقه. وقَوله: ﴿ واغْلُظْ عَلَيهم ﴾ ، يَقول تعالى ذِكْرُه: واشْدُدْ عَلَيهم بالجِهاد والقِتال والإرهاب . ـ يعني: الإزعاج والإخافة ـ ، وقَوله : ﴿ ومَأوَاهُم جَهَنَّمُ ﴾ ، يقول : ومَسَاكنهم جهنَّم ، وهي مَثْوَاهم ومَأواهم ، ﴿ وبِئْسَ المصير ﴾ ، يقول : وَبِئْسَ المكان الذي يُصَار إليه جهنَّم)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير(٣/ ٤٦٩و٤٧٠): ((قَوله تعالى: ﴿ جَاهِدِ الكُفارَ والمُنافقينَ ﴾ أمَّا جهاد الكفار فبالسَّيف ، وفي جهاد المنافقين قَولان : أحدهما أنه باللسان ، قاله ابن عباس والحسن والضَّحاك والربيع بن أنس . والثاني جهادهم بإقامة الحدود عليهم ، رُوِيَ عن الحسن وقَتادة . فإن قِيل : إذا كان رسول اللَّه ﷺ قد أُمِرَ بجهادهم وهو يَعْلَم أعيانَهم ، فكيف تركهم بَيْنَ أظْهُر أصحابه فَلَم يَقْتلهم ؟ . فالجواب أنَّه إنَّما أُمِرَ بقتال مَن أظهرَ كلمةَ الكفر ، وأقام عليها ، فأمَّا مَن إذا اطُّلِعَ على كُفره أنكرَ وحَلَف، وقال إنِّي مُسْلِم، فإنَّه أُمِرَ أن يأخذه بظاهر أمره، ولا يبحث عن سِرِّه . قَوله تعالى : ﴿ واغْلُظْ عَلَيهم ﴾ . قال ابن عباس: يُريد شِدَّة الانتهار لهم والنظر بالبِغضة (شِدَّة البُغض) والمَقْت . وفي الهاء والميم مِن ﴿ عَلَيهم ﴾ قَولان : أحدهما أنه يرجع إلى الفريقين ، قاله ابن عباس . والثاني إلى المنافقين ، قاله مُقاتل)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ مَا كَانَ للنَّبِيِّ والذينَ آمَنُوا أن يَسْتَغْفِرُوا للمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانوا أُولِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُم أنَّهُم أصحابُ الجحيمِ ﴾ [التَّوبة : ١١٣] .

ما كان يَنبغي للنبيِّ ﷺ والمؤمنين أن يَدْعُوا بالمَغفرة للمُشركين ، وَلَوْ كانوا مِن أقاربهم أوْ عَشيرتهم ، مِن بَعد مَوْتهم على الشِّرْك ، واتِّضَاح أمرهم بأنهم خالدون في النار . فاللَّهُ لا يَغْفِر لِمَن مات كافرًا . لذلك لا يَجوز أن يَدْعُوا اللَّهَ بِشَيء ، وهُم يَعْلَمُون أنَّه سُبحانَه لا يَفعله .

وقال القُرطبي في تفسيره(٨/ ٢٤٨): ((هذه الآية تَضَمَّنَتْ قَطْعَ مُوَالاة الكفار حَيِّهم ومَيِّتهم، فإنَّ اللَّه لَم يَجعل للمؤمنين أن يَستغفروا للمُشركين، فطلب الغُفران للمُشْرِك مِمَّا لا يَجُوز)) .

والجديرُ بالذِّكر أنَّ الدُّعاء للمشركين بالمغفرة جائز ما داموا على قَيْد الحياة ، لأنَّ الاستغفار للأحياء يَجوز ، لأنَّه مَرْجُوٌّ إيمانهم. وهذا الأمر يُرقِّق قلوبَهم ، ويُرغِّبهم في الإسلام . أمَّا إنْ ماتوا ، فلا يَجوز طلب المغفرة لهم ، فقد انقطع الرجاء ، وأُغْلِقَ الباب، وانتهى الموضوع . وليس لَدَيهم أيَّة فُرصة في النَّجَاة . واللَّهُ لا يَغفر لِمَن مات كافرًا . وهذا أمرٌ ثابت وعام ، لا يَتغيَّر، ولا توجد حالات استثنائية .

إنَّ الكافرين خالدون في النار ، فلا ينبغي الاستغفار لهم ، مهما بلغت درجة القرابة ، لأن الإسلام ليس دِينًا قَبَلِيًّا عشائريًّا ، أو مَسارًا إقطاعِيًّا يعتمد في أحكامه على درجة القرابة ورابطة الدَّم ، وقوةِ العلاقات الاجتماعية والمصلحية والواسطات والمحسوبيات . إنَّ الإسلام هو الدِّين السَّماويُّ الوحيد المقبول عند اللَّه تعالى . ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ [آل عِمران : ٨٥] .

وقد أقامَ الإسلامُ الأواصرَ بين الناس على أساس مرجعية الدِّين (الانتماء إلى اللَّه تعالى) ، وليس مرجعية الدم أو أيَّة مرجعية أُخرى . إذْ إنَّ رابطة الإيمان أقوى مِن كُل الروابط. فهي الرابطة الدائمة في الدنيا والآخرة على حَدٍّ سَوَاء .

وعن ابن المُسيِّب عن أبيه أنَّ أبا طالب لَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ دخل عليه النبيُّ ﷺ ، وعِنده أبو جَهْل ، فقال : ((أيْ عَم ، قُل : لا إلهَ إلا اللَّه ، كلمة أُحَاجُّ لَكَ بِها عِندَ اللَّه)) . فقال أبو جَهْل وعبد اللَّه بن أبي أُمَيَّة : يا أبا طالب ، تَرغَب عن مِلَّة عبد المُطَّلب ؟ ، فَلَمْ يزالا يُكلِّمانه ، حتى قال آخِرَ شَيء كلَّمهم به : على مِلَّة عبد المُطَّلب ، فقال النبيُّ ﷺ : ((لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ما لَم أُنْهَ عَنه _ يعني عن الاستغفار _)) . فنزلت : ﴿ مَا كَانَ للنَّبِيِّ والذينَ آمَنُوا أن يَسْتَغْفِرُوا للمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانوا أُولِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُم أنَّهُم أصحابُ الجحيمِ ﴾ [٨١].

---

٨١ متفق عليه. واللفظ للبخاري (٣/ ١٤٠٩) برقم (٣٦٧١).ومسلم(١/ ٥٤) برقم (٢٤).

عِندما حَضَرَتْ أبا طالب (عَمَّ النبيِّ ﷺ) علاماتُ الوَفَاةِ قَبل نَزْع الرُّوح، دخل عليه النبيُّ ﷺ، وكان عِنده أبو جَهْل ، وطلب النبيُّ ﷺ مِن عَمِّه أن يَنطِق بكلمة التَّوحيد (لا إله إلا اللَّه) ، فقال أبو جَهْل (عَمرو بن هشام بن المُغيرة) عَدُوُّ اللَّهِ ورسولِه ، وعبد اللَّه بن أبي أُمَيَّة بن المُغيرة رضي اللَّهُ عنه _ قبل إسلامه يوم الفَتْح واسْتُشْهِدَ في غَزوة حُنَين _ : يا أبا طالب ، تَرغُب عن مِلَّة عبد المُطَّلب ؟ ، أي : تَترُك عبادةَ الأصنام والأوثان ؟ ، فَلَم يَزالا يُكلِّمانه ، حتى قال إنَّه مُتَمَسِّك بِمِلَّة عبد المُطَّلب . وقرَّر النبيُّ ﷺ أن يَستغفر لِعَمِّه أبي طالب ، ما لَم يَنْهَهُ اللَّهُ عن الاستغفار له ، فنزلت الآية : ﴿ مَا كَانَ للنَّبِيِّ والذينَ آمَنُوا أن يَسْتَغْفِرُوا للمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانوا أُولِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُم أنَّهُم أصحابُ الجحيمِ ﴾ ، أي : ما كانَ يَنبغي للنبيِّ مُحَمَّد ﷺ والذين آمَنوا به أن يَدْعُوا بالمغفرة للمُشركين، وَلَوْ كان هؤلاء المُشركون الذين يَستغفرون لهم مِن أقربائهم، مِن بَعد ما ظَهَرَ لهم أنَّهُم ماتوا على الشِّرْك ، واستحقوا بذلك عذابَ النار .

وفي هذا السِّياق تَظهُر أحكام شرعية كثيرة ، مِن أبرزها : صِحَّة إسلام مَن حَضَرَه الموتُ مَا لَم يَشْرَعْ في النَّـزْع (الغَرغرة) ، وعدم جَوَاز الاستغفار للمُشركين ، وأنَّ مَن ماتَ على الشِّرْك فهو خالد في النار ، ولا يَنفعه شيء ، ولا تُنقِذه وسيلة .

وأمرُ الهِداية بيد اللَّه وَحْدَه ، وواجب المُسْلِم أن يَبذُل جُهْدَه في دَعوة العِباد إلى اللَّه تعالى ، وتعريفهم بالإسلام ، ويَدَع أمرَ الهِداية للَّه تعالى ، فهو وَحْدَه مُقلِّب القُلوب ، والهادي إلى الحق .

والحديثُ يدلُّ على كمال شَفَقَة النبيِّ ﷺ ، ورحمته ، وحِرْصه على هداية الناس أجمعين ، لا سِيَّما عَمُّه أبو طالب.ويجب على المَرء أن يتخيَّر أصحابَه وأهل مَجلِسه ، فإنَّ شُؤم صاحب السُّوء يَضُرُّ بالدُّنيا والآخرة معًا .

والحديثُ يُشير إلى دَور العلاقات الاجتماعية السَّلْبِيَّة في إحلال تقليد الآباء مكان العقيدة الدينية، فتصبح القبيلةُ هي الدِّين ، والعَصَبِيَّةُ العائلية هي العقيدةَ الدافعة للسُّلوك ، والمُوجِّهة له . وقد رَضَخَ أبو طالب للعقليَّة الجاهليَّة الأُسَرِيَّة ، وآثرَ مُتَابَعَةَ آبائه بدافع الانتماء السلبي للقبيلة ، وكُلُّ هذا نابعٌ مِن اتِّخاذ التقاليد الأبَوِيَّة صَنَمًا مُتَوَارَثًا يَحجُب النُّورَ ، ويُفْسِح المجالَ لانتشار الظُّلُمَات . وهُنا تَكمُن خُطورة اتِّباع الآباء بلا بصيرة (التقليد الأعمى) ، وتقديم رابطة الدم على رابطة الدِّين .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١/ ٢١٤ و٢١٥)_عن رواية أُخْرَى للحديث_ : ((وأمَّا قَوله (لمَّا حَضَرَتْ أبا طالب الوَفَاةُ) فالمُرَاد قَرُبَتْ وَفَاتُه ، وَحَضَرَتْ دَلائِلُها ، وذلك قَبل

المُعَايَنَة والنَّزْع،وَلَوْ كان في حال المُعَايَنَة والنَّزْع لَمَا نَفَعَه الإيمانُ ، ولِقَول اللَّه تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ للذينَ يَعْمَلُونَ السَّيئاتِ حتَّى إذا حَضَرَ أحَدَهُمُ المَوْتُ قالَ إنِّي تُبْتُ الآنَ ﴾ ، ويدلُّ على أنَّه قَبل المُعَايَنَة مُحَاوَرَته للنبيِّ ﷺ ، ومعَ كُفَّار قُرَيش . قال القاضي عِيَاض رحمه اللَّهُ : وقد رأيتُ بعضَ المُتكلِّمين على هذا الحديث جَعل الحُضُورَ هنا على حقيقة الاحتضار ، وأنَّ النبيَّ ﷺ رجا بِقَوله ذلك حينئذ أن تناله الرَّحمة بِبَرَكته ﷺ . قال القاضي رحمه اللَّهُ : وليس هذا بصحيح ، لِمَا قدَّمناه . وأمَّا قَوله : (فَلَم يَزَلْ رسولُ اللَّه ﷺ يَعْرِضُها عَلَيه ويُعيد له تِلك المَقالة) فهكذا وقع في جميع الأصُول ، ويُعيد له ، يعني أبا طالب ، وكذا نقله القاضي رحمه اللَّه عن جميع الأصُول والشُّيوخ . ... . وأمَّا قَوله : (قال أبو طالب آخِرَ ما كلَّمهم به هو على مِلَّة عبد المُطَّلب) فهذا من أحسن الآداب والتصرُّفات ، وهو أنَّ مَن حكى قول غيره القبيح أتى به بضمير الغَيْبَة لِقُبح صُورة لفظه الواقع ، وأمَّا قَوله ﷺ : (أَمْ واللَّهِ لأسْتَغْفِرَنَّ لَكَ) فهكذا ضبطناه أَمْ مِن غَير ألف بعد الميم ، وفي كثير من الأصُول أو أكثرها أمَا واللَّه ، بألف بعد الميم ، وكِلاهما صحيح. ... . وفيه جَوَاز الحَلْف مِن غَير استحلاف ، وكان الحَلْف هُنا لِتَوكيد العزم على الاستغفار ، وتطييبًا لِنَفْس أبي طالب ، وكانت وفاة أبي طالب بمكة قبل الهِجرة بقليل . قال ابن فارس : مات أبو طالب ولرسول اللَّه ﷺ تِسع وأربعون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يومًا ، وتُوُفِّيَتْ خديجة أُمُّ المؤمنين رضي اللَّهُ عنها بعد مَوت أبي طالب بثلاثة أيَّام ، وأمَّا قَول اللَّه تعالى : ﴿ ما كانَ للنَّبِيِّ والذينَ آمَنُوا أن يَسْتَغْفِرُوا للمُشْرِكِينَ ﴾ ، فقال المُفسِّرون وأهلُ المعاني : معناه: ما يَنبغي لهم، قالوا: وهو نَهْي، والواو في قَوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كانوا أُولِي قُرْبَى ﴾ واو الحال ، واللَّهُ أعْلَم)) .

والعقلية العشائرية الجاهلية تتَّضح بصورة مباشرة في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه (١/ ٥٥) : عن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ لِعَمِّه : ((قُل : لا إلهَ إلا اللَّه ، أشهدُ لَكَ بها يوم القيامة))، قال : لَوْلا أن تُعَيِّرَني قُرَيش ، يقولون : إنَّما حَمَلَه على ذلك الجَزَعُ، لأقْرَرْتُ بها عَيْنَك . فأنزلَ اللَّهُ ﴿ إنَّكَ لا تَهْدي مَنْ أحْبَبْتَ ولكِنَّ اللَّهَ يَهْدي مَن يَشاءُ ﴾ [القَصَص : ٥٦] .

عِندما حانت وَفَاةُ أبي طالب ، وحَضَرَتْهُ علاماتُ المَوت ، جاءه النبيُّ ﷺ طامعًا في إسلامه ، وطَلَبَ مِنه أن يَنطِق كلمةَ التَّوحيد (لا إله إلا اللَّه) . يُريد مِنه أن يؤمن باللَّه تعالى ، ويَعْصِم بتِلك الكلمةَ نَفْسَه من عذاب اللَّه في الآخرة ، ولهذا قال : " أشهدُ لَكَ بها يوم القيامة " ، أي : إنْ قُلْتَها صِرْتَ مُسْلِمًا ، فأستطيع أن أشفعَ لَك ، وكُلُّ ذلك ترغيب لأبي طالب ، وحِرْص على نَجَاته، فَرَفَضَ أبو طالب ذلك ، وقال : لَوْلا أن تُعَيِّرَني قُرَيش ، أي : يَلْحَقَني العارُ والسَّبُّ مِنهم .

وقُرَيش هي قبيلة أبي طالب والنبيِّ ﷺ ، يقولون : إنَّما حَمَلَه على الدُّخول في الإسلام عِند مَوته الجَزَعُ ، وهو الضَّعْف والخَوْفُ مِن المَوت . ومعنى : لأقررتُ بها عَيْنَك ، أي : لأفرحتُكَ وحَقَّقْتُ أُمْنِيَّتَكَ بِقَولها . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١/ ٢١٦ و٢١٧) : ((وأمَّا قَوله : لأقررتُ بها عَيْنَك، فأحسن ما يُقَال فيه ما قاله أبو العباس ثعلب قال : معنى أَقَرَّ اللَّهُ عَيْنَه ، أي : بلَّغه اللَّهُ أُمْنِيَّتَه حتَّى تَرضى نَفْسُه ، وتَقَر عَيْنُه ، فلا تستشرف لِشَيء . وقال الأصمعي : معناه : أَبْرَدَ اللَّهُ دَمْعَتَه ، لأنَّ دَمعة الفرح باردة ، وقِيل : معناه : أراه اللَّهُ ما يَسُرُّه ، واللَّهُ أعلم)) .

وكان أبو طالب يَعرِف صِدْقَ النبيِّ ﷺ في كُلِّ ما يقوله ، ولكنَّه لَم يَدخل في الإسلام ، ولَم يتلفَّظ بالشَّهَادَتَيْن، ولَم يَزَلْ على ذلك حتى مات مُشْرِكًا، فأنزلَ اللَّهُ تعالى: ﴿ إنَّكَ لا تَهْدي مَنْ أحْبَبْتَ ولَكِنَّ اللَّهَ يَهْدي مَن يَشاءُ ﴾ .

إنَّكَ يا مُحمَّد لا تَهْدي مَن أحببتَ هِدايته أو أحْبَبْتَهُ لِقَرَابته ، ولا تَقْدِر على إدخال الإيمان في قلبه، مَهْما حاولتَ وبذلتَ مِن جُهود . ومُهمتك مَحصورة في تبليغ الرسالة الإلهية . وَحْدَهُ اللَّهُ هو القادر على هِداية الناس ، فاعتمِدْ عليه في كُل شُؤونك ، وتَوَكَّلْ عليه ، فهو أعلمُ بأهل الإيمان والسعادة ، وأهلِ الكُفر والشَّقاء . يَهدي مَن يَشاء ، وله الحِكمة البالغة والحُجَّة الواضحة .

واللَّهُ أعْلَمُ بالقابلين للهِداية ، المُستعدين لها. يَعْلَم مَن يستحقها ومَن لا يَستحقها. واللَّهُ أعْلَم بِمَن يختار الهِداية وَيَقْبلها ، ويتَّعظ بالآياتِ والمواعظ ، ويَخضع للحُجَج والبراهين .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٣/ ٢٤١) : ((والآية حُجَّة على المُعتزلة ، لأنهم يقولون : الهُدى هو البيان ، قَد هَدى الناسَ أجمع ، ولكنهم لَم يَهتدوا بِسُوء اختيارهم ، فَدَلَّ أنَّ وراء البيان ما يُسمَّى هِداية ، وهو خَلْق الاهتداء ، وإعطاء التوفيق والقُدرة)) .

وقد نزلت الآية في أبي طالب ، وكان النبيُّ ﷺ حريصًا على إسلام عمِّه ، لكنَّه لَم يُسلِم ، وماتَ على الكُفر.وقَدَّرَ اللَّهُ وما شاءَ فَعل. ومعَ أنَّ الآية نزلت في أبي طالب إلا أنها عامَّة شاملة ، لأنَّ العِبرة بِعُموم اللفظ لا بِخُصوص السبب . وهِدايةُ القلوب بيد اللَّه وَحْدَه . واللَّهُ أعْلَمُ بالمُهتدين ، أي : بِمَن قَدَّرَ له الهُدى .

لقد كان أبو طالب يُحبُّ النبيَّ ﷺ لأنه ابنُ أخيه ، ويُدافع عنه ويَحميه لاعتبارات عائلية ، وبدافع الحَمِيَّة والعصبية القَبَلِيَّة.وقد حاولَ النبيُّ ﷺ بكل ما أُوتِيَ مِن قُوَّة أن يَهْدِيَ عَمَّه أبا طالب إلى الإسلام ، لكنَّه لَم يَستطع ، وماتَ أبو طالب كافرًا ، ورَفض الإسلامَ عِندَ مَوْته، خَوْفًا أن تُعيِّره قُرَيش بذلك ، وتقول إنَّه جَبَان، خافَ مِن المَوت، وأصابه الرُّعْب والجَزَع ، فأسلمَ بدافع الخَوف،

وليس عن قناعة ويقين ، وتُصبح قِصَّتُه منتشرة بين قبائل العرب ، وتصير فضيحةً على كُلِّ لسان ، ووصمة عار في تاريخه الشخصيِّ _حَسَب تفكيره ورُؤيته _ . ومِن هُنا تنبع خُطورة الإفرازات السلبية للقبيلة وسُلطتها المُقدَّسة في توجيه مَسَار الأفراد نَحْو الالتزام بالمظاهر الزائفة ، والعصبية للعائلة بِغَض النظر عن الصواب أو الخطأ . وفي واقع الأمر إنَّ القبيلة تُمارس سُلطةً كهنوتية على الأفراد ، بحيث تَغسل أدمغتهم ، وتَقودهم إلى حيث شاءت ، ولا أحد يَملِك شرعيةَ السؤال أو النقد، لأنَّ قداسة القَبيلة (الصَّنم) أكثر أهمية من قداسة الحق . وهذه الفلسفة الجاهلية لَخَّصها أحدُ الشُّعراء حِينَ قال :

وَهَلْ أنَا إلا مِنْ غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وَإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أرْشُدِ

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٢٣) : ((وقد كان يَحُوطُه، ويَنصرُه ، ويَقوم في صَفِّه ، ويُحِبُّه حُبًّا شديدًا طَبْعِيًّا لا شَرْعِيًّا ، فلمَّا حَضرَتْهُ الوَفاةُ ، وحانَ أجلُه ، دعاه رسولُ اللَّه ﷺ إلى الإيمان والدخول في الإسلام، فَسَبَقَ القَدَرُ فيه ، واخْتُطِفَ مِن يده ، فاستمر على ما كان عليه من الكُفْر ، ولِلَّهِ الحِكمة التَّامَّة)) .

والحديثُ يدلُّ على حِرْص النبيِّ ﷺ على الدَّعوة إلى الإسلام ، وإنقاذِ الناس من عذاب النار الشديد ، وضرورة عِيادة الكافر لِدَعوته إلى الإسلام ، وخُطورة تقديم كلام الناس على الحق ، إذْ إنَّ مُرَاعَاة كلام الناس وخَشيتهم تتسبَّب أحيانًا في منع الخَير عن الإنسان ، وتَصُدُّه عن الإيمان .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الذِينَ يَلُونَكُم مِنَ الكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً واعْلَمُوا أنَّ اللَّهَ مَعَ المُتَّقِين ﴾ [التَّوبة : ١٢٣] [٨٢]. يا أيُّها الذين صَدَّقوا بوَحدانية اللَّه ، وأقَرُّوا بِنُبُوَّةِ مُحَمَّد ﷺ ، قَاتِلُوا القريبين مِنكُم ، ثُمَّ انتقِلُوا إلى البعيدين . وهذا إرشادٌ إلهيٌّ عظيم إلى

---

٨٢ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٥١٨) : ((قَوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الذِينَ يَلُونَكُم مِنَ الكُفَّارِ ﴾ ، قد أَمَرَ بقتال الكفار على العُموم ، وإنما يبتدأ بالأقرب فالأقرب . وفي الْمُراد بمن يَلِيهم خمسة أقوال : أحدها أنهم الرُّوم ، قاله ابن عُمر ، والثاني قُرَيظة والنَّضير وخَيْبَر وفَدَك ، قاله ابن عباس ، والثالث الدَّيْلَم (جيل مِن العَجَم كانوا يَسكُنون نواحي أذْرَبيجان) ، قاله الحسن ، والرابع العرب ، قاله ابن زيد ، والخامس أنه عام في قتال الأقرب فالأقرب ، قاله قَتادة . وقال الزَّجاج : في هذه الآية دليل على أنَّه ينبغي أن يُقَاتِل أهلُ كُلِّ ثَغْر الذين يَلُونهم . قال : وقِيل : كان النبيُّ ﷺ رُبَّما تخطَّى في حَرْبه الذين يَلُونه مِن الأعداء ، ليكون ذلك أهْيَبَ له ، فَأُمِرَ بقتال مَن يَلِيه لِيُسْتَنَّ بذلك)) .

الطريق الأصوب والأصلح في القتال . أمرَ اللَّهُ بالبَدْء في قتال الأقرب فالأقرب إلى المؤمنين في الدَّار والنَّسَب، ولهذا بدأ النبيُّ ﷺ بقتال مُشركي العرب، فلمَّا فَرَغَ مِنهُم قَصَدَ الرُّومَ، وكانوا سُكَّانَ الشَّام ، وكانت الشام أقرب إلى المدينة مِن العراق . وأمرَ اللَّهُ المؤمنين _ أيضًا _ بإظهار الشَّجاعة والشِّدة والصَّبْر على قتال الأعداء. واعْلَمُوا أنَّ مَن التزمَ أوامرَ اللَّه ، واجتنبَ نَوَاهيه ، كانَ اللَّهُ معه بالنَّصْر والعَوْن والتأييد . ومَن كان اللَّهُ معه لَم يَقُمْ له شيء .

وقد أُمِرَ النبيُّ ﷺ أوَّلًا بإنذار عَشيرته الأقربين. فالأقربُ هو الأحق بالرَّحمة والرِّعاية والنَّصيحة.

والمقصود في الآية هُم الكُفَّار المُحَارِبون الذين ينبغي قَتلهم فَوْرًا لتطهير المجتمع الإنسانيِّ مِنهُم ، والآيةُ ذات سِياق تاريخي مُحدَّد، وهي أيضًا عامَّة لِمُواجهة الأعداء المُحَارِبين في كُلِّ زمان ومكان، وهذا هو العدل المُطْلَق. ففي هذه الآية لا يوجد دعوة للقتل العبثي ، أو إبادة الآخرين ، أو ممارسة العنف الهمجي، بل هي مُوَجَّهةٌ ضِد مَن تُسَوِّل له نَفْسُه أن يُحَارِب الإسلامَ والمسلمين.

وكُلُّ دَولة في العَالَم تقوم بحماية شعبها من الأعداء ، وقتلهم للحفاظ على حياة شعبها . والدَّولةُ الإسلامية هي التي تُطَبِّق تعاليمَ اللَّه لا التعاليمَ الوضعية ، وهي تقوم بواجبها لحماية الناس من أولئك الذين رَمَوا القيمةَ الإنسانية للحياة وراء لمعان سيوفهم المرفوعة في وجوه الأبرياء ، وبالتالي كان لِزَامًا التدخل لإنهاء هذا الفساد في الأرض .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٥١٧) : ((يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنين به وبرسوله : يا أيُّها الذين صدَّقوا اللَّهَ ورسولَه ، قَاتِلوا مَن وَلِيَكم مِن الكُفَّار دُون مَن بَعُدَ مِنهُم ، يقول لهم : ابْدَؤُوا بقتال الأقرب فالأقرب إليكم دارًا دُون الأبعد فالأبعد . وكان الذين يَلُون المُخَاطَبِين بهذه الآية يَومئذ الرُّوم ، لأنَّهم كانوا سُكَّانَ الشَّأم يَومئذ ، والشأم كانت أقرب إلى المدينة من العراق ، فأمَّا بعد أن فَتَحَ اللَّهُ على المؤمنين البلادَ ، فإنَّ الفرض على أهل كُل ناحية قِتال مَن وَلِيَهم من الأعداء دُون الأبعد مِنهم ما لَم يضطر إليهم أهل ناحية أخرى من نواحي بلاد الإسلام ، فإن اضطروا إليهم لَزِمهم عَوْنُهم ونصرُهم ، لأنَّ المسلمين يد على مَن سِوَاهم ، وَلِصِحَّة كَوْن ذلك كذلك تأوَّلَ كُلُّ مَن تأوَّلَ هذه الآيةَ أن معناها إيجاب الفَرْض على أهل كُل ناحية قتال مَن وَلِيَهم من الأعداء. ... . وأمَّا قَوله : ﴿ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ ، فإنَّ معناه: وَلْيَجِدْ هؤلاء الكُفَّار الذين تُقَاتِلونهم ﴿ فِيكُمْ ﴾ أي : مِنكُم شِدَّة عَلَيهم ، ﴿ واعْلَمُوا أنَّ اللَّهَ مَعَ المُتَّقِين ﴾ ، يقول : وأيْقِنُوا عِند قِتالكم إيَّاهم أنَّ اللَّه معكم ، وهو ناصركم عَلَيهم ، فإن اتَّقَيْتُم اللَّهَ وخِفتموه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ، فإن اللَّه ناصر مَن اتَّقَاه ومُعِينه)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٢٨) : ((أمرَ اللَّهُ تعالى المؤمنين أن يُقَاتِلُوا الكُفَّارَ أوَّلًا فأوَّلًا ، الأقرب فالأقرب إلى حَوْزَة الإسلام ، ولهذا بدأ رسولُ اللَّه ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب ، فلمَّا فَرَغَ مِنهُم ، وفَتَحَ اللَّهُ عليه مَكَّةَ والمدينة والطائف واليمن واليَمَامة وهَجَر وخَيْبَر وحَضْرَمَوْت وغَير ذلك من أقاليم جزيرة العرب ، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دِين اللَّه أفواجًا ، شَرَعَ في قتال أهل الكتاب ، فتجهَّز لِغَزْو الرُّوم الذين هُم أقرب الناس إلى جزيرة العرب ، وأَوْلَى الناس بالدَّعوة إلى الإسلام ، لأنَّهُم أهل الكتاب ، فَبَلَغَ تَبُوك ، ثُمَّ رجع لأجل جَهْد الناس وجَدْب البلاد وضِيق الحال ، وذلك سنة تِسع مِن هِجرته عليه السلام ، ثُمَّ اشتغلَ في السَّنة العاشرة بِحَجَّة الوَدَاع ، ثُمَّ عاجلته المَنِيَّةُ صَلَوَات اللَّه وسلامه عليه بعد حَجَّته بأحد وثمانين يومًا ، فاختاره اللَّهُ لِمَا عِنده ، وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر الصِّديق رضي اللَّهُ عنه ، وقد مالَ الدِّينُ مَيْلَةً كاد أن يَنجفل ، فَثَبَّتَه اللَّهُ تعالى به ، فوطَّد القواعدَ ، وثبَّت الدعائمَ ، ورَدَّ شاردَ الدِّين وهو راغم ، ورَدَّ أهلَ الرِّدَّة إلى الإسلام ، وأخذَ الزكاةَ مِمَّن مَنَعَها مِن الطُّغَاة ، وبيَّن الحَقَّ لِمَن جَهِلَه ، وأدَّى عن الرسول ما حَمَلَه ، ثُمَّ شَرَعَ في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الرُّوم عَبَدَة الصُّلْبَان ، وإلى الفُرْس عَبَدَة النِّيران ، فَفَتَحَ اللَّهُ بِبَرَكَة سِفَارته البلاد ، _ السِّفَارة : الإصلاح بين الناس _، وأرغمَ أنفَ كِسْرَى وقَيْصَر ، ومَن أطاعهما مِن العِباد ، وأنفقَ كُنوزهما في سبيل اللَّه، كما أخبرَ بذلك رسول اللَّه . وكان تَمَام الأمر على يَدَي وَصِيِّه مِن بَعْده ، ووليِّ عَهْده الفاروق الأوَّاب شهيد المِحراب أبي حَفْص عُمر بن الخطاب _ رضي اللَّهُ عنه _ فأرغمَ اللَّهُ به أُنُوفَ الكَفَرَة المُلْحِدِين ، وقَمَعَ الطُّغَاةَ والمُنافقين ، واسْتَوْلَى على الممالك شَرْقًا وغَرْبًا ، وحُمِلَتْ إليه خزائن الأموال مِن سائر الأقاليم بُعْدًا وقُرْبًا ، ففرَّقها على الوَجْه الشرعي ، والسَّبيل المَرْضِيِّ ، ثُمَّ لمَّا مات شهيدًا ، وقد عاش حميدًا ، أجمعَ الصحابة من المهاجرين والأنصار على خِلافة أمير المؤمنين عُثمان بن عَفَّان _ رضي اللَّهُ عنه _ شهيد الدار ، فكسى الإسلامَ بجَلاله رِيَاسَةَ حُلَّةٍ سابغةً ، وامتدَّت في سائر الأقاليم على رقاب العباد حُجَّة اللَّه البالغة ، فَظَهَرَ الإسلامُ في مَشَارق الأرض ومَغَاربها، وَعَلَتْ كلمةُ اللَّه ، وظَهَرَ دِينُه ، وبَلَغَت المِلَّةُ الحنيفيةُ مِن أعداء اللَّه غاية مَآرِبها، وكُلَّمَا عَلَوْا أُمَّةً انتقلوا إلى مَن بَعْدَهم ، ثُمَّ الذين يَلُونهم مِن العُتَّاة الفُجَّار امتثالًا لِقَوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الذِينَ يَلُونَكُم مِنَ الكُفَّارِ ﴾ ، وقَوله تعالى : ﴿ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ ، أي: وَلْيَجِد الكُفَّارُ مِنكُم غِلْظَةً عليهم في قِتالكم لهم ، فإنَّ المُؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقًا لأخيه المؤمن ، غليظًا على عَدُوِّه الكافر ،كما قالَ تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يأتي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُم وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ

على المؤمنينَ أعِزَّةٍ عَلى الكافرينَ ﴾ [المائدة : ٥٤]، وقَوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رسولُ اللَّهِ وَالذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفَتْح: ٢٩] ، وقَوله تعالى : ﴿ يا أيُّها النبيُّ جَاهِدِ الكُفارَ والمُنافقينَ واغْلُظْ عَليهم ﴾ [التَّوبة : ٧٣]، وفي الحديث : أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : " أنا الضَّحُوكُ القَتَّالُ " [٨٣] ، يعني أنه ضَحُوك في وجه وَلِيِّه ، قَتَّال لِهَامَة عَدُوِّه ، وقَوله : ﴿ واعْلَمُوا أنَّ اللَّهَ مَعَ المُتَّقِين ﴾ ، أي : قَاتِلُوا الكُفَّارَ ، وتَوَكَّلُوا على اللَّه ، واعْلَمُوا أنَّ اللَّه معكم إذا اتَّقَيْتُمُوه وأطعتموه ، وهكذا الأمر لمَّا كانت القُرون الثلاثة الذين هُم خَير هذه الأُمَّة في غاية الاستقامة ، والقِيام بطاعة اللَّه تعالى ، لَم يَزالوا ظاهرين على عَدُوِّهم ، ولَم تَزَل الفُتوحات كثيرة ، ولَم تزل الأعداءُ في سَفَال وخَسَار ، ثُمَّ لمَّا وقعت الفِتَن والأهواء والاختلافات بين الملوك ، طَمِعَ الأعداءُ في أطراف البلاد ، وتقدَّموا إليها ، فلَم يُمَانِعُوا لِشُغْل الملوكِ بَعْضِهم ببعض ، ثُمَّ تقدَّموا إلى حَوزة الإسلام ، فأخذوا مِن الأطراف بُلدانًا كثيرة ، ثُمَّ لَم يَزَالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام ، وللَّهِ الأمرُ مِن قَبْل وَمِن بَعْد ، فكُلَّمَا قام مَلِك مِن مُلوك الإسلام ، وأطاع أوامرَ اللَّه ، وتوكَّلَ على اللَّه ، فَتَحَ اللَّهُ عليه من البلاد ، واسترجعَ مِن الأعداء بِحَسَبِه ، وَبِقَدْرِ ما فيه مِن وِلاية اللَّه ، واللَّهُ المسؤولُ المأمولُ أن يُمكِّن المسلمين مِنَ نَوَاصي أعدائه الكافرين ، وأن يُعْلِيَ كَلِمَتَهُم في سائر الأقاليم ، إنَّه جَوَاد كريم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا للكافرين ﴾ [القَصَص : ٨٦] .

الخِطَابُ للنبيِّ ﷺ ، والمُراد أُمَّته ، لأنَّ النبيَّ ﷺ مَعصوم . لا تَكُن يا مُحَمَّد عَوْنًا للكافرين على نَشْر دِينهم، ولا نصيرًا لهم في باطلهم، ولا مُساعدًا لهم في ضلالهم، بِمُداراتهم ومُجاملتهم ، والخضوع لآرائهم ، والاستجابة لرغباتهم ، واتِّباع أهوائهم .ولكن فَارِقْهم وخَالِفْهم ، واكْشِفْ باطلَهم وضلالَهم ، وحَذِّر الناسَ مِنهُم ، وواصِلْ نَشْرَ الدَّعوة المُحَمَّدية الإسلامية بِكُلِّ إصرار وثبات. وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٦/ ٢٥١):((﴿ فلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا للكافرين ﴾ ، أي : عَوْنًا لهم على دِينهم ، وذلك أنهم دَعَوْهُ إلى دِين آبائه ، فَأُمِرَ بالاحتراز مِنهم ، والخِطاب بهذا وأمثاله له ، والمُراد أهل دِينه ، لِئَلا يُظَاهِرُوا الكُفَّارَ ، ولا يُوافقوهم)) .

لا تَكُن يا مُحَمَّد نصيرًا للكافرين ومُسَاعِدًا لهم على الكفر والضلال ، بَلْ خَالِفْهم وواجِهْهم ، ولا تُجامِلْهم ، ولا تَستجِبْ لباطلهم .

---

٨٣ حديث باطل . ورد في كتب بعض المتقدمين ، وليس له تخريج .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٢٢٧): ((﴿ فلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا للكافرين ﴾ ، أي: مُعِينًا لهم على دِينهم.قال مُقاتل : وذلك حِين دُعِيَ إلى دِين آبائه ، فَذَكَرَ اللَّهُ نِعَمَه ، ونَهَاه عَن مُظَاهرتهم على ما هُم عليه)) .

وقال اللَّهُ تعالى:﴿ فَإذا لَقِيتُمُ الذينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إذا أَثْخَنتُمُوهُم فَشُدُّوا الوَثَاقَ فَإمَّا مَنًّا بَعْدُ وإمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ والذينَ قُتِلُوا في سَبيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أعْمَالَهُم ﴾ [مُحَمَّد : ٤] .

الخِطَابُ الإلهيُّ للمُؤمنين المُصَدِّقين بِوَحدانية اللَّه ونُبُوَّةِ مُحَمَّد ﷺ ، لتعليمهم وإرشادهم إلى كيفية التعامل في حُروبهم معَ المشركين ، فإذا أدركتم وواجهتم الذين أنكَروا وَحدانيةَ اللَّه ، وجَحدوا نُبُوَّةَ مُحَمَّد ﷺ ، فاقتلوهم ، واحصدوهم حَصْدًا بالسُّيوف . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٢١) : ((والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وَقْعة بَدْر ، فإنَّ اللَّه _ سُبحانه وتعالى _ عاتبَ المؤمنين على الاستكثار مِن الأُسَارى يومئذ ليأخذوا منهم الفِداء ، والتقليل من القتل يومئذ)) .

وخُصَّ الرِّقَاب بالذِّكر ، لأن القتل أكثر ما يكون بقطعها . حتى إذا غلبتموهم وهزمتموهم وأهلكتموهم قَتْلًا ، وبالغتم في حصادهم ، وانهارت قوتهم وعزيمتهم ، وصاروا عاجزين عن المقاومة ، فَأْسِرُوا مَن بَقِيَ على قَيْد الحياة ، واحفظوهم ، لكيلا يَقتلوكم أو يُفْلِتوا مِنكم . والوَثَاقُ ما يُوثَق بِه الأسرى ويُربَطون به ، كالحبل وغَيره . والأَسْرُ إنما يكون بعد المبالغة في القتل .

وفي تفسير القرطبي (١٦/ ١٩٢): ((قال الزَّجاج : أي : فاضربوا الرِّقاب ضَرْبًا ، وخُصَّ الرِّقاب بالذِّكر، لأن القتل أكثر ما يكون بها . وقِيل : نُصِب على الإغراء . قال أبو عُبَيدة : هو كَقَولك: يا نَفْس صَبْرًا ، وقِيل: التقدير: اقْصِدُوا ضَرْبَ الرِّقَاب . وقال : ﴿ فَضَرْبَ الرِّقاب ﴾ ولَم يَقُل : فاقتلوهم ، لأن في العبارة بِضَرْب الرِّقاب مِن الغِلظة والشِّدة ما ليس في لفظ القتل ، لِمَا فيه من تصوير القتل بأشنع صورة ، وهو حَز العُنق وإطارة العُضْو الذي هو رأس البدن وعُلُوُّه وأوجه أعضائه)) .

﴿ فإمَّا مَنًّا بَعْدُ وإمَّا فِداءً ﴾ . إن المؤمنين مُخيَّرون بعد أَسْر الكفار ، إمَّا أن تَمَنُّوا عليهم بإطلاق سَرَاحهم بِغَير عِوَض ولا فِدية ولا مال ، يعني مَجَّانًا ، وإمَّا أن تأخذوا مِنهم مالًا مُقابل إطلاق سراحهم ، أوْ تُفَادوهم بأسرى مسلمين ، ولكن بعد أن هَزمتموهم وكسرتم شَوْكتهم ، وأهلكتموهم بكثرة القتل والجراح ، وبالغتم في ذلك . والمَنُّ : الإطلاق بغير عِوَض . والفِدَاء : ما يَفْدي به الأسير نَفْسَه مِن الأَسْر ، ولَم يتم ذِكْر القتل هُنا اكتفاءً بما تَقَدَّمَ .

﴿ حتى تضع الحربُ أوزارَها ﴾ . حتى تنقضيَ أحداثُ الحرب ، وتضع أثقالَها وأحمالَها وآلاتِها ، ويُلْقِيَ أهلُ الحربِ السلاحَ ، وتنتهيَ الحربُ بانتصار المسلمين وعُلُوِّ كلمتهم ، وهزيمة الكفار وانكسار كلمتهم . وهذا يعني ظُهور الإسلام على الشِّرْك ، وارتفاع راية التَّوحيد .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٧/ ٣٩٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ فَضَرْبَ الرِّقاب ﴾ إغراء ، والمعنى : فاقتلوهم ، لأن الأغلب في مَوضع القتل ضَرْب العُنق ، ﴿ حتى إذا أَثْخَنتموهم ﴾ أي : أكثرتم فِيهم القتلَ ، ﴿ فَشُدُّوا الوَثَاقَ ﴾ يعني : في الأَسْر ، وإنما يكون الأَسْر بعد المُبَالَغَة في القتل. والوَثَاقُ اسم مِن الإيثاق، تَقول: أَوْثَقته إيثاقًا ووَثَاقًا، إذا شَدَدت أَسْرَه لئلا يُفلِت ، ﴿ فإمَّا مَنًّا بَعْدُ وإمَّا فِداءً ﴾ . قال أبو عُبَيدة: إمَّا أن تَمُنُّوا، وإمَّا أن تُفَادُوا... . وقال الزَّجاج: إمَّا مَنَنْتُم عليهم بعد أن تأسروهم مَنًّا ، وإمَّا أطلقتموهم بِفِداء . فصل : وهذه الآية مُحكَمة عند عامَّة العلماء ، ومِمَّن ذهب إلى أن حُكْم المَنِّ والفِداء باقٍ لَم يُنسَخ، ابن عمر ومجاهد والحسن وابن سيرين وأحمد والشافعي . وذهب قوم إلى نَسْخ المَنِّ والفِداء بِقَوله : ﴿ فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التَّوبة : ٥] . ومِمَّن ذهب إلى هذا ابن جُرَيج والسُّدي وأبو حنيفة . قَوله تعالى : ﴿ حتى تضع الحربُ أوزارَها ﴾ . قال ابن عباس : حتى لا يبقى أحد من المشركين . وقال مجاهد: حتى لا يكون دِين إلا دِين الإسلام . وقال سعيد بن جُبَير: حتى يَخرج المسيح. وقال الفرَّاء: حتى لا يبقى إلا مُسلِم أو مُسالِم . وفي معنى الكلام قَولان : أحدهما حتى يضع أهلُ الحرب سلاحَهم. قال الأعشى: وأعددتُ للحربِ أوزارَها... رِمَاحًا طِوَالًا وخَيْلًا ذُكورا . وأصل الوِزْر ما حَمَلْتَه ، فَسُمِّيَ السِّلاح أوزارًا ، لأنه يُحمَل ، هذا قول ابن قُتَيبة . والثاني حتى تضع حَرْبُكم وقتالُكم أوزارَ المُشركين وقبائحَ أعمالهم بأن يُسلِموا ، ولا يَعبدوا إلا اللَّه ، ذَكَرَه الواحدي)) .

لقد دَعَت الآيةُ إلى ضَرْب رِقاب الأعداء واستئصالهم بكل قوة،وهذا تعبير أقوى من تعبير القتل . فالصورةُ التي تُوضِّحها الآيةُ تُشير إلى حصاد الرؤوس. وهؤلاء هُم كفارٌ مُحارِبون يرفعون السلاحَ ، فلا مجال للرحمة في مواجهتهم . كما أنَّ المسلمين لَم يعتدوا عليهم أو يظلموهم ، ولا يُمكن الحِوار مع الأعداء المُحَارِبين رافعي الأسلحة أو تقديم الورود لهم ، فلا بُد من قتلهم كَي يَرتدع الآخرون ، وتستقيم حالُ الأرض .

وبعد إهلاكهم بالقتل ، ينبغي أَسْر مَن بَقِيَ على قَيْد الحياة. والمؤمنون مُخيَّرون بين إطلاق سراحهم بدون مُقابل (المَن)، أو أخذ الأموال منهم لقاء إطلاقهم (الفِدية)، حتى تنتهيَ الحربُ بنصر الإيمان وجنوده ، وهزيمةِ الكُفر وجنوده .

والجديرُ بالذِّكر أنَّ المَنَّ قُدِّمَ على الفِدَاء ، لأنَّه مِن مكارم الأخلاق ، وكانت العرب تفتخر بِه في أشعارها وتاريخها [٨٤].

﴿ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ . ذلك الذي ذَكَرْتُ وَبَيَّنْتُ مِن أمر الكُفَّار ، أو افعلوا بهم ذلك ، ولو أرادَ اللَّهُ لأهلكهم وقضى عليهم وانتصرَ مِنهُم بقُوَّته وقُدرته دُون أن يُكلِّفكم أيها المؤمنون بقتالهم . أي : لَوْ شاءَ اللَّهُ لانتقمَ مِن الكافرين بعقوبة وعذاب مِن عِنده بلا قتال .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٣٠٥) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : هذا الذي أمرتكم به أيها المؤمنون مِن قَتْل المُشركين إذا لَقِيتموهم في حَرْب ، وشَدِّهم وَثَاقًا بعد قَهْرهم وأَسْرهم ، والمَنِّ والفِدَاء ، ﴿ حتى تضع الحربُ أوزارها ﴾ ، هو الحق الذي ألزمكم رَبُّكم ، وَلَوْ يشاء رَبُّكم لانتصرَ مِن هؤلاء المشركين الذين بَيَّنَ هذا الحُكْمَ فيهم بِعُقوبة منه لهم عاجلة ، وكَفَاكم ذلك كُلَّه)) .

﴿ وَلَكِن لِيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ . ولكنَّ اللَّه أمركم بجهاد أعدائكم لِيَختبر إيمانَكم ، ويَمتحن ثباتَكم، فَيَظهر حال الصادق في الإيمان مِن غَيْره ، وَلِيَبْتَلِيَ المؤمنين بالكافرين ، والكافرين بالمؤمنين في القتال ، فَيَصير مَن قُتِلَ مِن المؤمنين إلى نعيم الجَنَّة ، ومَن قُتِلَ مِن الكافرين إلى عذاب النار . أي : يُثيب المؤمنَ ويُكْرِمه بالشَّهَادة ، ويُخْزِي الكافرَ بالقتل والعذاب .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٣٠٥) : ((ولكنَّه تعالى ذِكْرُه كَرِهَ الانتصارَ مِنهُم ، وعُقوبتهم عاجلًا إلا بأيديكم أيُّها المؤمنون ، ﴿ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ ، يقول : لِيَختبركم بهم ، فَيَعْلَم المُجاهدين مِنكم والصابرين ، ويَبْلُوَهُم بكم ، فَيُعَاقِب بأيديكم مَن شاء مِنهُم ، ويَتَّعظ مَن شاء مِنهُم بِمَن أهلكَ بأيديكم مَن شاء مِنهُم ، حتى يُنِيب إلى الحق)) .

---

٨٤ قال القرطبي في تفسيره (١٦/ ١٩٢) : ((رُوِيَ عن بعضهم أنه قال : كنتُ واقفًا على رأس الحجَّاج حين أُتِيَ بالأسرى من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث ، وهم أربعة آلاف وثمانمائة ، فَقَتَلَ مِنهم نحو من ثلاثة آلاف ، حتى قَدِمَ إليه رَجل مِن كِندة، فقال: يا حَجَّاج، لا جازاك اللَّهُ عن السُّنَّة والكرم خَيْرًا ! ، قال : وَلِمَ ذلك ؟ ، قال : لأن اللَّه تعالى قال: ﴿ فإذا لقيتُم الذين كفروا فَضَرْبَ الرِّقاب حتى إذا أَثخنتموهم فَشُدُّوا الوَثَاقَ فإمَّا مَنًّا بَعْدُ وإمَّا فِداءً ﴾ في حق الذين كفروا ، فواللَّهِ ما مَنَنْتَ ولا فَدَيْتَ ! ، وقد قال شاعركم فيما وَصف به قَوْمَه من مكارم الأخلاق : ولا نقتل الأسرى ولكن نفكُّهم ... إذا أثقلَ الأعناقَ حَمْلُ المغارمِ .فقال الحجَّاج : أُفٍّ لهذه الجِيَف ! ، أمَا كان فيهم مَن يُحسِن مِثلَ هذا الكلام ؟! ، خَلُّوا سَبيلَ من بَقِيَ ، فَخُلِّيَ يومئذ عن بقية الأسرى ، وهم زُهاء ألفَيْن بِقَوْل ذلك الرَّجل)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٤٣) : ((﴿ وَلَكِن ﴾ أَمَرَكُم بِحَرْبِهم ﴿ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ ، أي : لِيَختبر بعضَكم ببعض ، فَيَعْلَم المُجاهدين في سبيله ، والصابرين على ابتلائه ، ويُجْزِل ثوابَهم ، ويُعذِّب الكُفَّارَ بأيديهم)) .

﴿ والذينَ قُتِلُوا في سَبيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أعْمَالَهُم ﴾ . والذينَ جاهَدوا لإعلاء كَلِمة اللَّه تعالى ، واستشهدوا في سبيله ، فَلَن يُبطِل اللَّهُ عَمَلَهم ، ولَن يُضيعَ أجْرَهم ، بَلْ يُكثِّره ، ويُضاعفه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٢١) : ((أي : لَن يُذهِبها ، بَلْ يُكثِّرها ، ويُنمِّيها ، ويُضاعفها ، ومِنهُم مَن يَجْري عليه عَمَلُه طُولَ بَرْزَخِه)) .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٣٠٥) عن قراءة " والذينَ قَاتَلُوا " : ((والذين قَاتَلُوا مِنكُم أيُّها المؤمنون أعداءَ اللَّه مِن الكُفَّار في دِين اللَّه ، وفي نُصْرةِ ما بَعَثَ به رسولَه مُحَمَّدًا ﷺ مِن الهُدى ، فَجَاهَدُوهُم في ذلك ، ﴿ فَلَن يُضِلَّ أعْمَالَهُم ﴾ ، فَلَن يَجعل اللَّهُ أعمالَهم التي عَمِلوها في الدُّنيا ضَلالًا عليهم ، كما أَضَلَّ أعمالَ الكافرين . ذُكِرَ أنَّ هذه الآية عُنِيَ بها أهل أُحُد)) .

وروى التِّرمذيُّ في سُننه (٤/ ١٨٧) وصحَّحه : عَن المِقْدَامِ بن مَعْدِ يَكْرِب قال : قال رسول اللَّه ﷺ : ((للشَّهيدِ عِندَ اللَّهِ سِتُّ خِصَال: يُغفَر له في أوَّلِ دُفْعَة ، ويُرى مَقْعَدَه مِن الجَنَّة ، ويُجَار من عذاب القبر ، ويَأمَن مِن الفَزَعِ الأكبر ، ويُوضَع على رأسه تاجُ الوَقَار، الياقوتةُ مِنها خَيْرٌ مِن الدُّنيا وما فيها ، ويُزَوَّجُ اثنتينِ وسبعينَ زَوجةً مِنَ الحُورِ العِينِ ، ويُشَفَّعُ في سبعينَ مِن أقاربه)) .

أفضل ما يتقرَّب به المؤمنُ إلى اللَّه عَزَّ وَجَلَّ هو أن يُجَاهِد في سبيله ، حتى يُقْتَل وهو على ذلك.وَلِمَنْ قُتِلَ شهيدًا في سبيل اللَّه فضائلُ كثيرة عظيمة . وهذا الحديثُ يُبيِّن بعضَ فضائله تِلك.

إنَّ المؤمن الذي يُقْتَل في سبيل اللَّه تعالى ، يَخُصُّه اللَّهُ مِن الأجر ما لا يَخُصُّ به غَيْرَه . واللَّهُ يَغفر له ذُنوبَه في أوَّل ما يتدفَّق الدَّمُ مِن جُرْحِه ، ويُريه اللَّهُ مَجْلِسَه ونعيمَه مِن الجَنَّة ، ويَحفظه مِن عذاب القبر ، ويُسلِّمه مِن الفَزَعِ الأكبر ، قِيل : هو عذاب النار ، وقِيل : العَرْض عليها . وذُكِرَتْ أقوال أُخْرَى . ويُلبِسه اللَّهُ تاجًا يُجعَل له مِن العِزَّة والعَظَمَة ، الياقوتة من التاج أفضل من الحصول على نعيم الدُّنيا كُلِّه ، ويُزوِّجه اللَّهُ اثنتين وسبعين زَوجة مِن نِساء أهل الجَنَّة ، ويَقبل اللَّهُ شفاعته في سَبعين من أقاربه ، مِثل : وَالِدَيْه ، وأولاده ، وزَوجاته ، وغَيرهم من الأقارب . والإحسانُ إلى الأقارب أفضل مِنه إلى الأجانب .

وفي تُحفة الأحوذي (٥/ ٢٤٧) : ((قَوله (للشَّهيدِ عِندَ اللَّهِ سِتُّ خِصَال) لا يوجد مَجموعها لأحد غَيره (يُغفَر له) بصيغة المجهول (في أوَّلِ دُفْعَة) بِضَم الدال المهملة وسُكون

الفاء ، هي الدَّفقة مِن الدَّم وغَيره ، قاله المُنذري ، أي : تُمْحَى ذُنوبُه في أوَّل صَبَّة مِن دَمِه . ... . (ويُرى) بِضَم أوَّله على أنَّه من الإراءة ويُفتَح (مَقْعَدَه) منصوب على أنه مفعول ثانٍ والمفعول الأوَّل نائب الفاعل، أوْ على أنه مفعول به وفاعله مُسْتَكِن في يُرى . وقَوْلُه (مِن الجَنَّة) مُتَعَلِّق به. قال القارئ : وينبغي أن يُحمَل قَوله : " ويُرى مَقْعَدَه " على أنَّه عَطْفُ تفسيرٍ لِقَوله : " يُغفَر له " لِئلا تَزيد الخِصَال على سِت ، ولئلا يَلزَم التَّكرار في قَوله (ويُجَار مِن عذاب القبر) أي يُحفَظ ويُؤَمَّن ، إذ الإجارة مُندرجة في المغفرة إذا حُمِلَتْ على ظاهرها. (يَأمَن مِن الفَزَع الأكبر) قال القارئ : فيه إشارة إلى قَوله تعالى : ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأكبرُ ﴾ [الأنبياء : ١٠٣] ، قِيل : هو عذاب النار ، وقِيل : العَرْض عليها ، وقِيل : هو وَقْت يُؤْمَر أهل النار بِدُخولها، وقِيل: ذَبح المَوت فييأس الكُفَّار مِن التخلُّص من النار بالمَوت ، وقِيل: وقت إطباق النار على الكُفَّار، وقِيل: النَّفخة الأخيرة ، لِقَوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ في الصُّورِ فَفَزِعَ مَن في السَّمَاوَاتِ ومَن في الأرضِ إلا مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾ [النَّمْل : ٨٧] ، انتهى (ويُوضَع على رأسه تاجُ الوَقَار) أي: تاج هو سبب العِزَّة والعَظَمَة . وفي النهاية : التَّاج ما يُصَاغ للمُلوك من الذهب والجواهر (الياقوتة منها) أي مِن التاج والتأنيث باعتبار أنَّه علامة العِز والشَّرف ، أوْ باعتبار أنَّه مجموع من الجواهر وغَيرها (ويُزَوَّج) أي يُعْطَى بطريق الزَّوْجِيَّة (اثنتينِ وسبعينَ زَوجةً) في التقييد بالثنتين والسبعين إشارة إلى أنَّ المُرَاد به التحديد لا التكثير ، ويُحمَل على أنَّ هذا أقل ما يُعْطَى ، ولا مانع مِن التَّفَضُّل بالزيادة عليها ، قاله القارىء (مِن الحُور العين) أي : نِساء الجَنَّة ، واحدتها حَوراء ، وهي الشديدة بَيَاض العَيْن الشَّديدة سَوَادها ، والعِين جَمْع عَيْناء وهي الواسعة العَيْن (ويُشَفَّع) ... أي : تُقْبَل شَفَاعَتُه)) .

وفي شرح النووي على صحيح مسلم (٢/١٦٣ و١٦٤): ((فالشهيد، قال النَّضْر بن شُمَيل: سُمِّيَ بذلك لأنَّه حَي، لأنَّ أرواحهم شَهِدَتْ دارَ السلام ، وأرواح غَيرهم لا تَشهَدها إلا يوم القيامة. وقال ابن الأنباري : لأنَّ اللَّه تعالى وملائكته عليهم السلام يَشهَدون له بالجَنَّة ، فمعنى شهيد: مَشهود له . وقِيل : سُمِّيَ شهيدًا ، لأنَّه يَشهَد عِند خُروج روحه ما له مِن الثواب والكرامة ، وقِيل : لأنَّ ملائكة الرحمة يَشهَدونه فيأخذون رُوحَه ، وقِيل : لأنَّه شُهِدَ له بالإيمان وخَاتِمة الخَير بظاهر حاله، وقِيل : لأنَّ عليه شاهدًا يَشهَد بِكَونه شهيدًا ، وهو دمه ، فإنَّه يُبعَث وجُرْحُه يَثْعَب (يَجْري) دمًا . وحكى الأزهريُّ وغَيْرُه قَوْلًا آخر أنَّه سُمِّيَ شهيدًا ، لِكَوْنه مِمَّن يَشهَد يوم القيامة على الأُمَم، وعلى هذا القَول لا اختصاص له بهذا السبب ، واعْلَمْ أن الشهيد ثلاثة أقسام : أحدها المَقتول في حَرْب الكُفَّار بسبب مِن أسباب القتال ، فهذا له حُكْم الشُّهَداء في ثواب الآخرة ، وفي أحكام

الدُّنيا ، وهو أنَّه لا يُغَسَّل ولا يُصَلَّى عليه . والثاني شهيد في الثواب دُون أحكام الدُّنيا ، وهو المَبطون والمَطعون وصاحب الهَدْم ، ومَن قُتِلَ دُون ماله ، وغَيرهم مِمَّن جاءت الأحاديث الصحيحة بتسميته شهيدًا ، فهذا يُغسَّل ويُصلَّى عليه ، وله فى الآخرة ثواب الشهداء ، ولا يَلزَم أن يَكُون مِثل ثواب الأول ، والثالث مَن غَلَّ (خانَ) في الغنيمة ، وشَبَهه مِمَّن وردت الآثار بِنَفْي تَسميته شهيدًا إذا قُتِلَ في حرب الكفار ، فهذا له حُكْم الشهداء في الدُّنيا، فلا يُغسَّل ولا يُصلَّى عليه ، ولَيس له ثوابهم الكامل في الآخرة ، واللَّهُ أعْلَم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ والذينَ كَفروا فَتَعْسًا لهم وأضلَّ أعمالَهُم ﴾ [مُحَمَّد : ٨] .

والذينَ أنكَروا وَحدانيةَ اللَّه ، وكذَّبوا بآياته ، وجَحَدُوا نُبُوَّةَ مُحَمَّد ﷺ ، فَخِزْيًا بِهم ، وهَلاكًا لهم،وهو دُعاء عليهم بالهلاك والشقاء.وأبطلَ اللَّهُ أعمالَهم وأفْسَدَها ، لأنها كانت في طاعة الشَّيطان .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٣١٠) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : ﴿ والذينَ كَفروا ﴾ باللَّه ، فَجَحَدُوا توحيدَه ﴿ فَتَعْسًا لهم﴾ يقول: فَخِزْيًا بهم وشَقَاءً وبَلاءً. ... .وقَوله: ﴿ وأضلَّ أعمالَهُم ﴾، يقول : وَجَعَلَ أعمالَهم مَعمولةً على غَير هُدى ولا استقامة ، لأنَّها عُمِلَتْ في طاعة الشَّيطان لا في طاعة الرَّحمن)) .

وقال القُرطبي في تفسيره (١٦/ ١٩٨): ((﴿ فَتَعْسًا لهم ﴾كأنَّه قال : أُتْعِسَ الذين كفروا. وتَعْسًا لهم ، نُصِب على المصدر بسبيل الدُّعاء ، قاله الفَرَّاء ... . وفيه عَشَرَة أقوال : الأول بُعْدًا لهم ، قاله ابن عباس وابن جُرَيج . الثاني : حُزْنًا لهم ، قاله السُّدي . الثالث : شقاءً لهم، قاله ابن زيد. الرابع: شَتْمًا لهم مِن اللَّه ، قاله الحسن. الخامس : هلاكًا لهم، قاله ثعلب.السادس: خَيْبَةً لهم، قاله الضَّحاك وابن زيد . السابع : قُبْحًا لهم ، حكاه النَّقاش. الثامن : رَغْمًا لهم ، قاله الضَّحاك أيضًا. التاسع: شَرًّا لهم ، قاله ثعلب أيضًا. العاشر : شِقْوَةً لهم ، قاله أبو العالية . وقيل : إنَّ التَّعْسَ الانحطاط والعِثَار. قال ابن السِّكِّيت: التَّعْسُ أن يَخِرَّ على وجهه ، والنَّكْسُ أن يَخِرَّ على رأسه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ ورَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الذينَ مِن قَبْلِهِم وقَدْ أنزَلْنا آياتٍ بَيِّناتٍ وللكافرينَ عَذابٌ مُهين ﴾ [المُجادِلة : ٥] .

إنَّ الذين يُعَادُون اللَّهَ ورسولَه ﷺ ، ويُخالِفون أوامرَهما ، ويَرفُضون الشريعةَ الإلهية ، خُذِلُوا وأُهِينوا ولُعِنوا وأُخْزُوا وأُهْلِكُوا ، كَمَا فُعِلَ بأشباههم مِن المُنافقين والكُفَّار، الذين حَادُّوا اللَّهَ ورُسُلَه

مِن الأُمَم الماضية والأقوام الغابرين . وقد أنزلَ اللَّهُ آياتٍ واضحات ، تشتمل على الأحكام والشرائع، والفرائض، والحلال والحرام، والترغيب والترهيب،والوعد والوعيد،والبراهين التي تدلُّ على وَحدانيةِ اللَّه تعالى، وصِدْقِ مُحَمَّد ﷺ، وصِحَّة ما جاء به. وهذه الآياتُ الواضحات الباهرات، لا يَرفضها إلا كافر، ولا يُعاندها إلا ضَال. وللكافرين الذين أنكَروا وَحدانيةَ اللَّه ، وكذَّبوا بآياته ، وجَحَدُوا نُبُوَّةَ مُحَمَّد ﷺ ، عذابٌ شديد يُخزيهم ويُهينهم ويُذِلُّهم ويُحطِّم غُرورَهم واستكبارَهم .

وقد أخزاهم اللَّهُ يوم الخَندق بالهزيمة والانكسار والاندحار ، كما أخزى مَن قَبْلهم مِن كُفَّار الأُمَم الماضية .

وقال الصاوي في حاشيته على الجَلالَيْن(٤/ ١٨١): ((وقد نزلت هذه الآية في كُفَّار مَكَّة يَوم الأحزاب، حِين أرادوا التَّحَزُّبَ على رسول اللَّه ﷺ، والمقصودُ بها تَسلية رسول اللَّه ﷺ،وبِشارته معَ المؤمنين ، بأن أعداءهم المُتَحَزِّبين سَيُذَلُّون ، ويُخذَلون ، ويُفَرَّق جَمْعُهم ، فلا تَخْشَوْا بَأسَهم)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٢٦٢) : ((لَمَّا ذَكَرَ سُبحانَه المؤمنين الواقفين عند حُدوده ، ذَكَرَ المُحَادِّين . والمُحَادَّةُ : المُشَاقَّة والمُعَادَاة والمُخَالَفَة ، ومِثْله قَوله : ﴿ إنَّ الذينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ ورَسُولَهُ ﴾ . قال الزَّجاج : المُحَادَّة أن تكون في حَد يُخَالِف صاحبَك . وأصلها المُمَانَعَة ، ومِنه الحديد ، ومِنه الحَدَّاد للبَوَّاب ، ﴿كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الذينَ مِن قَبْلِهِم ﴾ ، أي : أُذِلُّوا وأُخْزُوا. يُقال: كَبَتَ اللَّهُ فُلانًا، إذا أذَلَّه.والمَردود بالذُّل يُقَال له مَكبوت. قال المُقَاتِلان _ يعني مُقاتِل بن حَيَّان ومُقاتِل بن سُلَيمان _ : أُخْزُوا كَمَا أُخْزِيَ الذين مِن قَبْلِهم مِن أهل الشِّرْك ، وكذا قال قَتادة . وقال أبو عُبَيدة والأخفش : أُهْلِكُوا.وقال ابن زَيد: عُذِّبُوا. وقال السُّدي: لُعِنُوا. وقال الفَرَّاء: أُغِيظوا. والمُراد بِمَن قَبْلهم : كُفَّار الأُمَم الماضية المُعَادِين لِرُسُل اللَّه. وعبَّر عن المُستقبل بلفظ الماضي تنبيهًا على تحقُّق وُقوعه. وقِيل: المعنى:على الماضي، وذلك ما وقع للمُشركين يوم بَدْر، فإنَّ اللَّه كَبَتَهُم بالقَتْل والأسْر والقَهْر ، وجُملة ﴿ وَقَدْ أنزَلْنا آياتٍ بَيِّناتٍ ﴾ في مَحَل نَصْب على الحَال مِن الواو في ﴿ كُبِتُوا ﴾ أي: والحال أنَّا قد أنزَلْنا آياتٍ واضحات فِيمَن حَادَّ اللَّهَ ورُسُلَه مِن الأُمَم المُتقدِّمة . وقيل : المُراد الفرائض التي أنزلها اللَّهُ سُبحانَه . وقِيل : هي المُعجِزات . ﴿وللكافرينَ عَذابٌ مُهِين﴾ ، أي : للكافرين بكُل ما يجب الإيمان به ، فتدخل الآيات المذكورة هنا دُخولًا أوَّلِيًّا . والعَذاب المُهين : الذي يُهين صاحبَه ويُذِلُّه ، ويَذهب بِعِزِّه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤمنونَ باللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَن حَادَّ اللَّهَ ورسولَهُ وَلَوْ كانوا آباءَهُم أوْ أبناءَهُم أوْ إخوانَهُم أوْ عَشِيرَتَهُم ﴾ [المُجَادِلة : ٢٢] .

لا تجد يا مُحَمَّد جماعةً يُصدِّقون بِوحَدانية اللَّه ، ويُقِرُّون بالبَعْث واليومِ الآخِر ، يُحِبُّون أعداءَ اللَّهِ ورسولِه ، ويُوالونهم ويُناصرونهم .

ولا يُعقَل أن يجتمع في قلب إنسان محبةُ اللَّه ومحبةُ أعدائه ، فالضِّدانُ لا يَجتمعان ، والنَّقيضان لا يَلْتَقيان . والحُبُّ الحقيقيُّ للَّه يتجلَّى في مُوَالاة مَن وَالاه ، ومُعَاداة مَن عاداه .

وقال الفخر الرازي في التفسير الكبير (٢٧٦/٢٩): ((المعنى أنَّه لا يجتمع الإيمان مع حُب أعداء اللَّه ، وذلك لأنَّ مَن أحبَّ أحدًا امتنعَ أن يُحب عَدُوَّه، لأنهما لا يَجتمعان في القلب ، فإذا حصل في القلب مَوَدَّة أعداء اللَّه ، لَم يَحصُل فيه الإيمان)) .

ولو كانَ أعداءُ اللَّهِ ورسولِه مِن أقرب الناس إليهم،كآبائهم أو أبنائهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، فرابطةُ الدِّين أقوى من رابطة الدم . والإيمان باللَّه يستلزم مُعاداة أعداء اللَّه وبُغضهم ومُحاربتهم .

ومَن أحبَّ أولياءَ اللَّهِ ونَاصَرَهم وعَاوَنَهم ووَالاهم ، فقد أحبَّ اللَّهَ وأطاعه ، ومَن أحبَّ أعداءَ اللَّه ونَاصَرَهم وعَاوَنَهم ووالاهم ، فقد أبغضَ اللَّهَ وحَارَبَه . ومُوَالاة الكافرين تُفْسِد الإيمانَ . والمُؤمِنُ يتبرَّأ مِن أعداء اللَّه ، ولا يُوالي الكافرين ، وَلَوْ كانوا مِن أقرب المُقرَّبين إلَيه .

والآيةُ تَنهى عَن مُوالاة الكافرين ومحبتهم ومُعاونتهم ، وتُحذِّر مِن هذا الإثم العظيم ، الذي يُؤدِّي إلى الكفر والضلال والمعاصي.كما تُوضِّح الآيةُ أن المؤمن لا يُوالي الكافرَ مهما كان قريبًا منه. ويجب على المؤمن الابتعاد عن أعداء اللَّه ، والحَذَر مِن مُخالطتهم ، ومُعاملتهم كأعداء .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٨ / ١٩٩): ((وهذه الآية قد بَيَّنَتْ أنَّ مَوَدَّة الكفار تَقْدَح في صِحَّة الإيمان، وأنَّ مَن كان مؤمنًا لَم يُوالِ كافرًا، وإنْ كان أباه أو ابْنَه أوْ أحدًا مِن عشيرته)) اهـ . وقال أبو حَيَّان في البحر المحيط (٨/ ٢٣٩) : ((بدأ بالآباء ، لأن طاعتهم واجبة على الأولاد ، ثُمَّ بالأبناء لأنهم أعْلَق بالقلوب ، ثُمَّ بالإخوان لأنَّ بهم التَّعَاضُد ، ثُمَّ بالعشيرة لأنَّ بهم التناصُر والمُقَاتَلَة والتغلُّب على الأعداء ،كما قال القائل :

لا يَسألونَ أخاهم حِينَ يَندُبُهم ... في النائباتِ على ما قالَ بُرهانا)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٢١): ((وقد قال سعيد بن عبد العزيز وغَيره : أُنْزِلَتْ هذه الآية : ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤمنونَ باللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ ﴾ إلى آخِرها ، في أبي عُبَيدة عامر بن عبد اللَّه ابن الجَرَّاح ، حِين قَتَلَ أباه يوم بَدْر ، ولهذا قال عُمر بن الخطاب _ رضي اللَّهُ عنه _ حِين جَعَلَ الأمرَ شُورى بَعْده في أُولئك السِّتة _ رضي اللَّهُ عنهم _ : وَلَوْ كان أبو عُبَيدة حَيًّا لاسْتَخْلَفْتُه .

وقِيل في قَوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كانوا آباءَهُم ﴾ : نزلت في أبي عُبَيدة ، قَتَلَ أباه يوم بَدْر ، ﴿ أوْ أبناءَهُم ﴾ في الصِّديق، هَمَّ يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن ، ﴿ أوْ إخوانَهُم ﴾ في مُصعَب بن عُمَير ، قَتَلَ أخاه عُبَيد بن عُمَير يومئذ ، ﴿ أوْ عَشِيرَتَهُم ﴾ في عُمَر ، قَتَلَ قريبًا له يومئذ أيضًا . وفي حمزة وعلي وعُبَيدة بن الحارث ، قَتَلوا عُتْبَةَ وشَيْبة والوليد بن عُتْبة يومئذ ، فاللَّهُ أعلم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وعَدُوَّكُم أولياءَ تُلْقُونَ إلَيْهِم بالمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفروا بِمَا جَاءَكُم مِنَ الحَق ﴾ [المُمْتَحَنَة : ١] .

يا أيُّهَا الذين صَدَّقْتُم بِوَحدانية اللَّه ، وأقررتم بِنُبُوَّة مُحَمَّد ﷺ ، لا تتَّخذوا الكفارَ (أعداء اللَّه وأعداءكم) أنصارًا وأحبابًا وأعوانًا . تُحِبُّونهم وتُوَادُّونهم وتُصادقونهم ، وهُم أعداء لكم ، وخطر عليكم.وقد كذَّبوا بآيات اللَّه،وجَحدوا نُبُوَّةَ مُحَمَّد ﷺ. أي إنَّهم رَفضوا الإسلامَ، وأنكَروا القُرآنَ .

والآيةُ تنهى عَن مُوَالاة الكفار. لذلك يجب على المسلم ألا يتَّخذ أعداءَ اللَّه أصدقاء وأحبابًا، يُحِبُّهم ، ويَكشف أسرارَ المسلمين لهم . ولا شَكَّ أنَّ كراهيةَ أعداءِ اللَّه وبُغْضَهم مُؤشِّر واضح على الإيمان . أمَّا محبتهم وصداقتهم فدليل على الضَّلال والانحراف. وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٨ / ٢٣٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ تُلْقُونَ إلَيْهِم بالمَوَدَّةِ ﴾، وفِيه قَولان: أحدهما أن الباء زائدة، والمعنى: تُلْقُون إليهم المَوَدَّةَ ... ، هذا قول الفرَّاء وأبي عُبَيدة وابن قُتَيبة والجمهور. والثاني تُلْقُون إليهم أخبارَ النبيِّ ﷺ وسِرَّه بالمَوَدَّة التي بَينكم وبَينهم ، قاله الزَّجاج)) .

وعن عليٍّ _ رضي اللَّهُ عنه_ قال: بعثني رسول اللَّه ﷺ أنا والزُّبَير والمِقداد، فقال: ((انطَلِقُوا حتى تأتوا رَوْضةَ خاخ، فإن بها ظَعينةً معها كتاب فخذوه منها)). قال : فانطلقنا تَعَادَى بنا خَيْلُنا، حتى أتَيْنا الرَّوضة ، فإذا نحن بالظعينة ، قُلنا لها : أَخْرِجِي الكتابَ . قالت : ما معي كتاب.فقُلنا : لَتُخْرِجِنَّ الكتابَ أو لِنُلْقِيَنَّ الثيابَ. قال: فَأخْرَجَتْهُ مِن عِقَاصها _يعني خُصَلات شَعْرها الملتوية _. فأتَيْنا رسولَ اللَّه ﷺ ، فإذا فيه مِن حَاطب بن أبي بَلتعة إلى ناس بمكة من المشركين ، يُخبرهم ببعض أمر رسول اللَّه ﷺ . فقال رسول اللَّه ﷺ : ((يا حاطب ، ما هذا ؟)). قال: يا رسول اللَّه ، لا تَعْجَلْ عليَّ ، إنِّي كُنْتُ امْرَءًا مُلْصَقًا في قُرَيْش . يقول : كُنتُ حَليفًا ولَم أكن من أنفُسِها . _ المعنى : كانَ حليفًا لِقُرَيش ، وليس له في القَوم أصلٌ ولا عشيرةٌ _ . وكان مَن معك مِن المُهاجرين مَن لهم قَرَابات يَحْمُونَ أهليهم وأموالهم، فأحببتُ إذْ فاتني ذلك مِن النَّسَب فيهم ، أن أتَّخِذَ عِندهم يَدًا يَحْمُونَ قَرَابتي . ولَم أفْعَلْه ارتدادًا عَن دِيني ، ولا رِضا بالكُفرِ بعد الإسلام. فقال رسول اللَّه ﷺ : ((أمَا إنَّه قد صَدَقَكم)). فقال عُمر : يا رسول اللَّه ، دَعْني أضْرِبْ عُنُقَ هذا

المُنافق . فقال : ((إنَّه قد شَهِدَ بَدْرًا ، وما يُدريك لَعَلَّ اللَّهَ قد اطَّلَعَ على مَن شَهِدَ بَدْرًا ، فقال : اعْمَلُوا ما شِئتم ، فقد غَفَرْتُ لكم)) . فأنزلَ اللَّهُ السُّورةَ : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وعَدُوَّكُم أولياءَ تُلْقُونَ إلَيْهِم بالمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفروا بِمَا جَاءَكُم مِنَ الحَق ﴾ إلى قَوله : ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [٨٥].

هناك دُروس عديدة مُستفادة من هذه القصة :

١ــ الخطأ والتقصير صِفة مُلازِمة لجميع البشر ، إلا مَن عَصَمَهم اللَّهُ مِن أنبيائه ورُسُلِه . وينبغي التماس الأعذار للصالحين وأصحاب سابقات الخَير ، وهذه مِن صِفَات الكِرَام والمُنْصِفِين.

٢ــ إنَّ النَّبِيَّ ﷺ مُؤيَّد بالوَحْي، والوَحْيُ قد أخبرَه بهذا الأمر الغَيْبي (وجود المرأة في منطقة "روضة خاخ" وهي بين مكة والمدينة) . وهذا دليلٌ على صِدْقِ مُحَمَّد ﷺ ، وصِحَّةِ نُبُوَّته ورسالته.

٣ــ استجابةُ الصحابةِ السريعةُ لأمر النبيِّ ﷺ ، والانطلاق على الخيول التي تَعدو بِشِدَّة من أجل اللحاق بهذه الظعينة (المرأة التي تَحمل الرسالة) .

٤ــ التَّشديد على هذه المرأة المُدانة ، والتعامل معها بِحَزْم وقوة . فإمَّا أن تُخرج الكتابَ ، أو تتم تعريتها للحصول على هذا الكتاب . وهنا تبرز مشروعية اتخاذ أي قرار من شأنه حماية الإسلام والمسلمين من الأخطار ، وهذا الأمر يُقَدَّر بِقَدْره ، ويُوضَع في ميزان المنفعة والمفسدة .

٥ــ مَن أرشدَ العَدُوَّ إلى عَوْرات المسلمين وأسرارهم ، لا يُحْكَم عليه بالكُفر إذا كان مُتَأوِّلًا وصاحبَ عُذْر ، وفِعْلُه من أجل مَنفعة دُنيوية مع سلامة قَلبه مِن الرِّدة والخِيانة . وهذا يدل على أن مَن أتى بمعصية كبيرة أوْ صغيرة ، وجاءَ بِعُذْر ، وقَدَّمَ ما يَحتمل التأويل ، فإنَّ كلامَه يُعْتَمَد ، وإن كان غالبُ الظَّن خِلافَه [٨٦].

---

٨٥ متفق عليه. البخاري (٤/ ١٥٥٧) برقم (٤٠٢٥) ، ومسلم (٤/ ١٩٤١) برقم (٢٤٩٤) .

٨٦ قال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٤٦): ((إذا قُلنا: لا يَكون بذلك كافرًا.فهل يُقْتَل بذلك حَدًّا أَمْ لا؟. اختلف الناس فيه.فقال مالك وابن القاسم وأشهب:يَجتهد في ذلك الإمام.وقال عبد المَلِك : إذا كانت عادته قُتِلَ لأنَّه جاسوس.وقد قال مالك بِقَتل الجاسوس، وهو الصحيح،لإضراره بالمسلمين وسَعيه بالفساد في الأرض، ولعلَّ ابن الماجُشُون إنما اتخذ التَّكرار في هذا، لأن حاطبًا أُخِذَ في أول فِعْله . واللَّهُ أعلم ... . فإنْ كان الجاسوس كافرًا، فقال الأوزاعي: يكون نَقْضًا لعَهده . وقال أصْبَغ : الجاسوس الحربي يُقْتَل، والجاسوس المسلم والذِّمي يُعَاقَبَان ، إلا إنْ تظاهرا على الإسلام فَيُقْتَلان)) .

٦_ كان عُمَر بن الخطاب _ رضي اللَّهُ عنه _ قَوِيًّا في الدِّين ، ومُبْغِضًا للمُنافقين ، لذلك طلب من النبيِّ ﷺ أن يَسمح له بقتل حَاطِب باعتباره مُنافقًا لِكَوْنه أبطنَ خِلافَ ما أظهرَ ، معَ أنَّ النبيَّ ﷺ نَفَى عَنه النِّفَاقَ . وقد عَذَرَ النبيُّ ﷺ عُمَرَ ، لأنَّه كان مُتَأَوِّلًا ، ولَم يَسمح له بقتل حَاطِب _ رضي اللَّهُ عنه _ ، وبيَّن العِلَّةَ في تَرْك قَتْله ، وهو أنَّه شَهِدَ بدرًا ، وقد غَفَرَ اللَّهُ لأهل بَدْر . وقَوْلُ النبيِّ ﷺ : ((إنَّه قد شَهِدَ بَدْرًا ، وما يُدريك لَعَلَّ اللَّهَ قد اطَّلَعَ على مَن شَهِدَ بَدْرًا ، فقال : اعْمَلُوا ما شِئتم ، فقد غَفَرْتُ لكم)) . وهذا خِطَاب تَشريف وإكرام . و " اعْمَلُوا ما شِئتم " ، أي: في المستقبل ، فقد غَفَرْتُ لكم ، والمُرَاد الغُفران لهم في الآخرة ، وعبَّر عمَّا سَيَأتي في الآخرة بالفِعل الماضي مُبَالَغَةً في تَحَقُّقه ، وتأكيدًا لِوُقوعه .

٧_ لقد وَصَفَهم اللَّهُ بالإيمان في الآية ، وهذا دليلٌ على أنَّ الإتيان بالكبيرة لا يُنَافي أصلَ الإيمان . والجديرُ بالذِّكْر أنَّ الآية نَزَلَتْ عِتَابًا لِحَاطِب بن أبي بَلْتَعَة ، وتَوبيخًا له ، وتحذيرًا للمؤمنين مِن القيام بِفِعْله . ومعَ هذا ، فالآيةُ تَحْمِل تشريفًا له ، وتكريمًا ما بَعْده تكريم ، لأنَّ اللَّه شَهِدَ له بالإيمان في قَوله : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا ﴾ ، ولَم يَحكُم عليه بالكفر ولا النِّفاق . وَشَهادةُ اللَّه صادقة لا تُرَد .

وفي كثير من الدُّوَل تَكون الخِيانة العُظمى عُقوبتها الإعدام . وهذه الدُّوَلُ تَفعل ذلك لحماية وجودها ومصالحها وشعوبها . لذلك تَقوم بإعدام الجواسيس والخَوَنَة ، ومَن يتعاون مع الأعداء ، ومَن يقوم بإفشاء الأسرار الحَسَّاسة ، التي تُشكِّل خطرًا على وجود الدَّولة ومصالحها العُليا . وكُلُّ الدُّوَل والأنظمة السياسية تضع تشريعات لحفظ كِيَاناتها ووجودها ومصالحها.وهذا أمرٌ مُنتشر في كُلِّ العَالَم ، ولَيس غريبًا .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ٥٥ و٥٦) : ((وأمَّا رَوْضة خَاخ ، فَبَيْن مكة والمدينة بِقُرْب المدينة . ... . قَوله ﷺ : (فإنَّ بها ظَعِينةً مَعَهَا كِتاب) الظعينة هنا الجارية ، وأصلها الهَوْدَج ، وسُمِّيَتْ بها الجارية لأنها تكون فيه ، واسم هذه الظعينة سَارَة مَوْلاة لِعِمْرَان ابن أبي صَيفي القُرَشي . وفي هذا مُعجِزة ظاهرة لرسول اللَّه ﷺ ، وفيه هَتْك أستار الجواسيس بقراءة كُتبهم ، سواءٌ كان رَجُلًا أو امرأة ، وفيه هَتْك سِتْر المَفْسَدَة إذا كان فيه مَصلحة ، أوْ كان في السَّتْر مَفْسَدَة ، وإنَّما يُندَب السَّتْر إذا لَم يكن فيه مَفْسَدَة ، ولا يَفُوت به مصلحة . وعلى هذا تُحمَل الأحاديث الواردة في النَّدْب إلى السَّتْر ، وفيه أن الجاسوس وغَيره مِن أصحاب الذُّنُوب الكبائر لا يَكْفُرُون بذلك،وهذا الجِنس كبيرة قطعًا،لأنَّه يتضمَّن إيذاءَ النبيِّ ﷺ، وهو كبيرة بلا شك،

لِقَوله تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ يُؤذُونَ اللَّهَ ورَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ الآية. وفِيه أنَّه لا يُحَدُّ العاصي، ولا يُعَزَّر إلا بإذن الإمام ، وفيه إشارة جُلَساء الإمام والحاكم بِمَا يَرَوْنَه ، كما أشار عُمَر بِضَرْب عُنُق حَاطِب. ومذهب الشافعي وطائفة أنَّ الجاسوس المُسْلِم يُعَزَّر ، ولا يَجُوز قَتْلُه . وقال بعضُ المالكية : يُقْتَل إلا أن يَتُوب ، وبعضهم : يُقْتَل وإنْ تاب . وقال مالك : يَجتهد فيه الإمام . قَوله (تَعَادَى بنا خَيْلُنا) هو بفتح التاء ، أي : تَجْري . قَوله : (فأخْرَجَتْه مِن عِقَاصها) هو بكسر العَين ، أي : شَعْرها المضفور ، وهو جَمْع عَقِيصة . قَوله ﷺ : (لعلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ على أهل بَدْر فقال : اعْمَلُوا ما شِئتم فقد غَفَرْتُ لكم) . قال العُلَماء : معناه : الغُفْرَان لهم في الآخرة ، وإلا فإن تَوَجَّهَ على أحد مِنهُم حَد أوْ غَيره ، أُقِيمَ عليه في الدُّنيا . ونَقَلَ القاضي عِيَاض الإجماعَ على إقامة الحَد . وأقامه عُمَر على بعضهم . قال : وَضَرَبَ النبيُّ ﷺ مِسْطَحًا الحَدَّ ، وكان بَدْرِيًّا)) .

وعن فُرَات بن حَيَّان _ رضي اللَّهُ عنه_ أنَّ رسول اللَّه ﷺ أَمَرَ بِقَتْله، وكان عَيْنًا لأبي سُفيان، فَمَرَّ بمجلس الأنصار ، فقال : إنِّي مُسْلِم . فذهبوا به إلى رسول اللَّه ﷺ ، فقالوا : إنَّه يَزْعُم أنَّه مُسْلِم . فقال : ((إنَّ مِنكُم رِجَالًا نَكِلُهم إلى إيمانهم ، مِنهم فُرَاتُ بنُ حَيَّان)) [٨٧].

أمرَ النبيُّ ﷺ بقتل فُرَات بَن حَيَّان قبل أن يُسْلِم ، وذلك لأنَّه كان جاسوسًا على المُسلمين ، لأبي سُفيان بن حَرْب ، وكان مِن زُعَمَاء قُرَيش آنذاك قبل إسلامه ، فَمَرَّ فُرَات بن حَيَّان بِمُجتمَع مِن الأنصار فقال إنَّه مُسْلِم ، فذهبوا به إلى النبيِّ ﷺ ، فقالوا : إنَّه يَزعُم أنَّه مُسْلِم مَاكِرًا بها ، ولَم يَقُلْها صِدْقًا ، فبيَّن النبيُّ ﷺ أنَّ مِنهُم رِجَالًا يتم جَعْل ذِمَّتهم إلى ما يَقُولون وما يُظْهِرون ، ما داموا لَم يَفعلوا ما يُكَذِّب قَوْلَهم ، ومِن هؤلاء الرِّجال: فُرَات بن حَيَّان ، فَحَمَاه الإسلامُ مِن القتل.

إنَّ الذِّمي إذا صارَ جاسوسًا للكُفَّار، فإنَّه يكون قد نَقَضَ عَهْدَه بذلك، ويَحِلُّ قَتْلُه. والنبيُّ ﷺ لَم يَقتل فُرات بن حَيَّان معَ أنه كانَ عَيْنًا (جاسوسًا) لأبي سُفيان ، يَنقل أخبارَ المسلمين وأسرارَهم ، لأنَّ النبيَّ ﷺ حَكَمَ عليه وَفْق الظاهر ، واعتبرَ فُرَاتًا مُسْلِمًا لأنه قال إنَّه مُسْلِم ، فَتَمَّ إجراء الحُكْم على الظاهر ، وَوَكَلَهُ النبيُّ ﷺ إلى إيمانه . واللَّهُ أعلمُ بالظاهرِ والباطنِ .

والحديثُ يُوضِّح عَظَمَةَ الإسلام ورحمته ، حَيث إنَّ مَن أسلمَ تَسقُط الأحكامُ التي قد كانت صَدَرَتْ عليه حالَ كُفْره ، كما يُوضِّح ضرورة الحُكْم بالظاهر ، وعدم البحث عمَّا سِوى ذلك ، فإنَّ الظاهر للناس ، والباطن عِلْمُه إلى اللَّه تعالى .

---

٨٧ رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ١٢٦) برقم (٢٥٤٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقالَ اللّهُ تعالى : ﴿ إن يَثْقَفُوكُم يَكُونوا لكم أعداءً ويَبْسُطُوا إلَيْكُم أيْدِيَهُم وألْسِنَتَهُم بالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُون ﴾ [المُمْتَحَنَة : ٢] .

إن يَقْدِرُوا عليكم ، ويتمكّنوا مِنكُم ، يُظْهِرُوا لكم ما في قلوبهم مِن الحِقد والحسد والعداوة الشديدة لكم، ويَمُدُّوا إلَيكم أيديَهم بالضرب والأسْر والقتل ، وألسنتهم بالشَّتم والسَّب ، وتَمَنَّوْا أن تَكْفروا لِتَكونوا مِثْلَهم. فلا تُنَاصِحُوهم، فإنهم لا يُناصحونكم ولا يُحِبُّونكم،ولا يُريدون الخير لكم . والآيةُ تدل على أن الكافرين قد تَرْجَمُوا عداوتهم للمؤمنين إلى واقع عملي ملموس ، ولَم تكن عداوتهم مُجرَّد مشاعر قلبية أو أحاسيس داخلية . وهذا الأمر في غاية الخطورة .

وقال الزمخشري في الكشّاف (٤/ ٢٩٥) : ((وإنما أورده بِذِكر الماضي ﴿ وَوَدُّوا ﴾ بعد أن ذَكَرَ جواب الشَّرط بلفظ المضارع ﴿ لَوْ تَكْفُرُون ﴾ ، لأنهم أرادوا كُفرهم قبل كُل شيء)) .

إنَّهم حريصون أشدَّ الحِرص على مَنع وصول الخير إلَيكم ، ويُريدون الشَّر والفساد لكم ، ولا يوجد أسوأ مِن الكُفر ، لذلك تَمَنَّوْا أن ترتدوا عن الإسلام ، وتَرجعوا إلى الكُفْر لِتُصبحوا مِثْلَهم .

وهذا يدل على شِدَّة عداوتهم لكم، وهي عداوة مُتجذرة في قلوبهم، وظاهرة على جوارحهم ، وقد حوَّلوها إلى تطبيق على أرض الواقع . فلا يُعقَل أن تُحِبُّوهم وتُوالوهم . وهذا حَض للمؤمنين على إظهار العداوة لهم ، والحَذَر مِنهم . ولا فائدة مِن مُداراتهم أو التقرُّب إليهم .

والجديرُ بالذِّكر أنَّ سلوك الإنسان مُنْعَكِس عن العقيدة التي يَعتنقها ، ويَحْمِلها في قَلْبه .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٨/ ٢٣٣) : ((... ثُمَّ أخبرَ بعداوة الكفار، فقال تعالى : ﴿ إن يَثْقَفُوكُم ﴾ أي : يَظْفَرُوا بِكم ﴿ يَكُونوا لكم أعداءً ﴾ لا مُوَالين ، ﴿ ويَبْسُطُوا إلَيْكُم أيْدِيَهُم ﴾ بالضرب والقتل، ﴿ وألْسِنَتَهُم بالسُّوءِ ﴾ وهو الشَّتْم، ﴿ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُون ﴾ فترجعون إلى دِينهم. والمعنى أنَّه لا يَنفعكم التقرُّب إلَيهم بنقل أخبار رسول اللَّه ﷺ)) .

وقالَ اللّهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِم قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَما يَئِسَ الكُفَّارُ مِن أصحابِ القُبورِ ﴾ [المُمْتَحَنَة: ١٣]. يَنهى اللّهُ عن مُوالاة الكافرين واتِّخاذهم أحبابًا وأصدقاء.يا أيُّها الذين صدَّقوا بوَحدانيةِ اللّه ، وأقَرُّوا بِنُبُوَّةِ مُحَمَّد ﷺ ، لا تُصَادِقُوا الكافرين أعداء الإسلام ، ولا تتَّخذوهم أولياء وأحِبَّاء ، فإنَّهُم قَوم غَضِبَ اللّهُ عليهم ، وطَرَدَهم مِن رحمته . أُولئك الكافرون الفُجَّار قَد يَئِسُوا مِن ثواب الآخرة ونعيمها (أي إنَّهُم لا يؤمنون بالآخرة بسبب كُفرهم) كما يَئِسَ الكافرون المُكذِّبون بالبَعْث والنُّشُور مِن عَودة أمواتهم إلى الحياة مَرَّةً ثانية . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٥٧) : ((قال تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا

غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ ، يعني اليهود والنصارى ، وسائر الكُفَّار ، مِمَّن غَضِبَ اللَّهُ عليه ، ولَعَنَه ، واستحق مِن اللّه الطرد والإبعاد ، فكيف تُوالونهم وتتَّخذونهم أصدقاء وأخِلَّاء وقد يَئِسُوا مِن الآخرة ؟ ، أي : مِن ثواب الآخِرة ونعيمها في حُكْم اللّه عَزَّ وَجَلَّ . وقَوْلُه تعالى : ﴿ كَما يَئِسَ الكُفَّارُ مِن أصحابِ القُبورِ ﴾ ، فِيه قَولان : أحدهما كَمَا يَئِسَ الكُفَّارُ الأحياءُ مِن قَرَاباتهم الذين في القُبور أن يَجتمعوا بهم بَعْد ذلك ، لأنَّهم لا يعتقدون بَعْثًا ولا نُشُورًا ، فقد انقطعَ رجاؤهم منهم فِيما يَعتقدونه.قال العَوفي عن ابن عباس: ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ إلى آخِرِ السُّورة ، يعني مَن مات مِن الذين كفروا ، فقد يَئِسَ الأحياءُ مِن الذين كفروا أن يَرجعوا إلَيهم أوْ يَبعثهم اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ . وقال الحَسَن البَصْري : ﴿ كَما يَئِسَ الكُفَّارُ مِن أصحابِ القُبورِ ﴾ ، قال : الكُفَّار الأحياء قد يَئِسُوا مِن الأموات. وقال قَتادة:كَمَا يَئِسَ الكفارُ أن يَرجع إليهم أصحابُ القُبور الذين ماتوا، وكذا قال الضَّحاك، رواهُنَّ ابن جرير.والقول الثاني معناه:كَمَا يَئِسَ الكفارُ الذين هُم في القُبور مِن كُل خَير. قال الأعمش عن أبي الضُّحى عن مسروق عن ابن مسعود: ﴿ كَما يَئِسَ الكُفَّارُ مِن أصحابِ القُبورِ ﴾ ، قال: كَمَا يَئِسَ هذا الكافرُ إذا ماتَ وعَايَنَ ثَوَابَه واطَّلَعَ عليه، وهذا قَول مُجاهد وعِكرمة ومُقاتل وابن زَيد والكلبي ومَنصور ، وهو اختيار ابن جرير رحمه اللَّهُ)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٨/ ٢٤٧ و٢٤٨) : ((﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ ، وهُم اليهود ، وذلك أنَّ ناسًا مِن فُقراء المسلمين كانوا يُخبِرون اليهودَ أخبارَ المسلمين ، يتقرَّبون إلَيهم بذلك لِيُصيبوا مِن ثِمارهم وطَعامهم ، فنزلت هذه الآية . قَوْلُه تعالى : ﴿ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ ﴾ ، وذلك أنَّ اليهود بتكذيبهم مُحَمَّدًا ، وهُم يَعرِفون صِدْقَه ، قد يَئِسُوا مِن أن يكون لهم في الآخرة خَير. والمعنى: قَد يَئِسُوا مِن ثواب الآخرة، هذا قول الجمهور، وهو الصحيح . وقال قَتادة : قد يَئِسُوا أن يُبْعَثُوا ، ﴿ كَما يَئِسَ الكُفَّارُ ﴾ ، فِيه قَولان : أحدهما كَمَا يَئِسَ الكُفَّارُ مِن بَعْثِ مَن في القُبور ، قاله ابن عباس . والثاني كما يَئِسَ الكُفَّارُ الذين ماتوا مِن ثواب الآخرة ، لأنَّهُم أيْقَنُوا بالعذاب ، قاله مُجاهد)) .

وعن عبد اللَّه بن مسعود في قَوله: ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ ﴾ ، فلا يؤمنوا بها، ولا يُؤْجَرُوا، هذا الكافر إذا ماتَ، وَعَايَنَ ثَوَابَه ، واطَّلَعَ عَلَيه [٨٨].

٨٨ رواه الطبراني (٩/ ٢١٨) . وقال الهيثمي في المجمع(٧/ ٢٦٣): ((رواه الطبراني عن شيخه عبد اللّه ابن محمد بن سعيد بن أبي مريم ، وهو ضعيف)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَلا تُطِعِ المُكَذِّبين ﴾ [القَلَم : ٨] .

فلا تُطِعِ يا مُحَمَّد رؤساءَ الكُفْرِ والضَّلالِ الذين كذَّبوا بالقُرآن ورسالتك ، فيما يَدْعُونك إلَيه ، فإنَّهُم كانوا يَدْعُونه إلى دِين آبائه ، فنَهَاه اللَّهُ أن يُطيعهم ، وهذا مِن اللَّه تَهييج للتَّصميم على مُعارضتهم ، والتَّشَدُّد في مُخالفتهم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٣٧٥) : ((﴿ فَلا تُطِعِ المُكَذِّبين ﴾ ، نَهَاه سُبحانَه عن مُمَايَلَة المُشركين ، وهُم رُؤساء كُفَّار مَكَّة ، لأنَّهم كانوا يَدْعُونه إلى دِين آبائه ، فنهاه اللَّهُ عن طاعتهم ، أوْ هو تعريض بِغَيره عن أن يُطيع الكُفَّارَ ، أو المُراد بالطاعة مُجَرَّد المُدَاراة بإظهار خِلاف ما في الضمير)) .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٤/ ٢٦٨) : ((﴿ فَلا تُطِعِ المُكَذِّبين ﴾ تهييج للتصميم على مُعَاصَاتهم ، وقد أرادوا أن يَعبد اللَّهَ مُدَّةً ، وآلهتهم مُدَّةً ، ويَكُفُّوا عنه غوائلهم _ الدواهي _)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُون ﴾ [القَلَم : ٩] .

تمنَّى الكُفَّارُ لَوْ تَلِين لهم يا مُحَمَّد ، بأن تَدَعَ نَهْيَهم عن الشِّرْك ، أوْ تُوَافقهم فيه أحيانًا، فَيَلِينوا لَكَ بترك الطَّعْنِ والمُوَافَقَة . والمُدَاهَنَةُ هي المُلايَنَة والمُدَارَاة فيما لا يَجوز . وقد رُوِيَ أنَّ مُشركي مَكَّة قالوا للنبيِّ ﷺ : لَوْ عَبَدْتَ آلِهَتَنا لَعَبَدْنَا إلَهَكَ ، فنزلت الآية .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٨/ ٣٣٠ و٣٣١) : ((﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُون ﴾ ، فيه سبعة أقوال : أحدها لَوْ تُرَخِّص فَيُرَخِّصُون ، قاله ابن عباس . والثاني لَوْ تُصَانِعُهم في دِينك فَيُصَانِعُون في دِينهم ، قاله الحسن . والثالث لَوْ تَكْفُر فَيَكْفُرون ، قاله عطيَّة والضَّحاك ومُقاتل . والرابع لَوْ تَلِين فَيَلِينون لك ، قاله ابن السائب . والخامس لَوْ تُنَافِق وتُرَائي فَيُنافقون وَيُرَاؤون ، قاله زيد بن أسلم . والسادس وَدُّوا لَوْ تُدَاهِن في دِينك فَيُدَاهِنُون في أديانهم . وكانوا أرادوه على أن يَعبد آلهتهم مُدَّةً ، ويَعْبُدوا اللَّهَ مُدَّةً ، قاله ابن قُتَيبة . وقال أبو عُبَيدة : هو مِن المُدَاهَنَة . والسابع لَوْ تُقَاربهم فَيُقَاربونك ، قاله ابن كَيسان)) .

وقال الثعالبي في تفسيره (٤/ ٣٢٦): ((قوله تعالى: ﴿ فَلا تُطِعِ المُكَذِّبين ﴾ يَعْنِي قُرَيْشًا، وذلك أنَّهُم قالوا في بعض الأوقات للنبيِّ ﷺ : لَوْ عَبَدْتَ آلِهَتَنا وعظَّمتها لَعَبَدْنا إلَهَكَ وعَظَّمناه ، وَوَدُّوا أن يُدَاهنهم النبيُّ ﷺ ، ويَمِيل إلى ما قالوا ، فَيَمِيلوا هُم أيضًا إلى قَوله ودِينه . والإدهان : المُلايَنَة فِيما لا يَحِل ، والمُدَارَاة : المُلايَنَة فِيما يَحِل . وقَوله : ﴿ فَيُدْهِنُون ﴾ مَعطوف ، وليس بجواب ، لأنَّه لَوْ كَانَ لَنُصِبَ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وقالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلى الأرضِ مِنَ الكافرينَ دَيَّارًا ﴾ [نُوح : ٢٦] .

هذا دُعاء النبيِّ نُوح ﷺ بعدما أَيِسَ مِن إيمان قَومه ، وأدركَ أن الكفر مُسيطر على قلوبهم ، وقد أعلمه اللَّهُ وأوحى إلَيه بعدم وُجود مؤمنين جُدُد ، ولَن يُؤْمِن مِن قَوم نُوح إلا مَن قد آمَنَ .

رَبِّ ، لا تترك أحدًا على وجه الأرض من الكافرين . والدَّيَّارُ هو مَن يَسكُن الدِّيَار . وهو الذي يَدُور في الأرض فيذهب ويجيء . ودُعاء الأنبياء مُستجاب . وقد استجابَ اللَّهُ له ، فأهلكَ جميع الكافرين على وجه الأرض ، وأغرقَ أُمَّته ، حتى وَلَد نُوح لِصُلْبِه الذي اعتزلَ عن أبيه .

و" دَيَّار" مِن الأسماء المُستعملة في النَّفْي العام، يُقَال : ما في الدار دَيَّار، أي: ما فيها أحد .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٤٢٢) : ((﴿ وقالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلى الأرضِ مِنَ الكافرينَ دَيَّارًا ﴾ مَعطوف على ﴿ قالَ نُوحٌ رَبِّ إنَّهُم عَصَوْني ﴾ [نُوح : ٢١]. لمَّا أَيِسَ نُوح عليه السلام مِن إيمانهم ، وإقلاعهم عن الكفر ، دَعا عليهم بالهَلاك . قال قَتَادة : دعا عليهم بعد أن أُوحِيَ إلَيه ﴿ أنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إلا مَن قَدْ آمَنَ ﴾ [هُود : ٣٦]، فأجابَ اللَّهُ دَعوته ، وأغرقهم . وقال محمد بن كعب ومُقاتل والربيع بن أنس وابن زَيد وعطيَّة : إنَّما قال هذا حِين أخرجَ اللَّهُ كُلَّ مؤمن مِن أصلابهم وأرحام نسائهم ، وأعقمَ أرحامَ النساء وأصلاب الآباء قبل العذاب بسبعين سنة ، وقِيل : بأربعين . قال قَتادة : لَم يكن فيهم صَبي وقت العذاب . وقال : الحسن وأبو العالية : لَوْ أهلكَ اللَّهُ أطفالَهم مَعَهم كان عذابًا مِن اللَّه لهم ، وعَدْلًا فيهم ، ولكن أهلكَ ذُرِّيتهم وأطفالهم بغير عذاب ، ثُمَّ أهلكهم بالعذاب . ومعنى ﴿ دَيَّارًا ﴾ : مَن يَسكُن الدِّيَارَ ، ... ، والمعنى : لا تَدَعْ أحدًا مِنهُم إلا أَهْلَكْتَه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ إنَّكَ إن تَذَرْهُم يُضِلُّوا عِبَادَكَ ولا يَلِدُوا إلا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نُوح : ٢٧] .

هذا توضيح مِن النبيِّ نُوح ﷺ لسبب الدعاء ، وتعليل له . إنَّكَ يا رَب ، إنْ تترك الكافرين على وَجه الأرض بلا عذاب،يُضِلُّوا عبادك عن طريق الحق،ويُبعدوهم عَن سبيل الهدى ، ويَدعوهم إلى الضلال، ولا يَخْرُج مِن أصلابهم إلا كُل فاجر وكافر .وقد أخبره اللَّهُ أنهم لا يَلِدُون مُؤمنًا .

أدركَ النبيُّ نُوح ﷺ بسبب خِبرته الطويلة في التعامل معَ قَومه ، ومعرفة صفاتهم وطِباعهم، ومُكوثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ، أنَّ الكُفْر مُسيطر على قُلوبهم ، وأنَّ اللَّه إذا تَرَكَهم أحياءً على وَجْه الأرض بدون عذاب، وأبقى مِنهم أحدًا ، أضَلُّوا العبادَ (الأجيال القادمة) ، وقادوهم إلى الكفر والضلال ، ولَن يَلِدُوا إلا فاجرًا في الأعمال ، تاركًا للعبادة والطاعة ، كافرَ القلب، جاحدًا للوَحْي والنُّبُوَّة ، كَفَّارًا للنِّعَم الإلهية ، وغَير مُعترِف بفضل اللَّه وكَرَمه ورِزْقه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٤٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ إنَّكَ إن تَذَرْهُم يُضِلُّوا عِبَادَكَ ﴾ أي : إنَّكَ إنْ أبْقَيْتَ مِنهُم أحدًا أضَلُّوا عِبادَك ، أي : الذين تَخلُقهم بَعْدَهم ، ﴿ ولا يَلِدُوا إلا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ ، أي : فاجرًا في الأعمال ، كافرَ القلب ، وذلك لِخبرته بهم ، ومُكْثِه بَين أظْهُرهم ألف سنة إلا خمسين عامًا)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٤٢٢) : ((﴿ إنَّكَ إن تَذَرْهُم يُضِلُّوا عِبَادَكَ ﴾ ، أي : إنْ تَتركهم على الأرض يُضِلُّوا عِبادَكَ عن طريق الحق ، ﴿ ولا يَلِدُوا إلا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ ، أي : إلا فاجرًا بترك طاعتك ، كَفَّارًا لِنعمتك ، أي : كثير الكُفْرَان لها، والمعنى : إلا مَن سَيَفْجُر ويَكْفُر)).

وقال الفخر الرازي في التفسير الكبير: ((فإنْ قِيل: كيف عرف نُوح ذلك ؟، قُلنا بالاستقراء، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ، فعرفَ طِباعهم وجرَّبهم . وكان الرَّجل ينطلق بابنه إليه ويقول : يا بُنَيَّ، احذر هذا، فإنه كذَّاب ، وإن أبي أوصاني بمثل هذه الوصية ، فيموت الكبير ، وينشأ الصغير على ذلك ، فلذلك قال : ﴿ ولا يَلِدُوا إلا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾)) .

*

سادسًا : التساهل مع الكفار المسالمين

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِن أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِن بَعْدِ إيمَانِكُم كُفَّارًا حَسَدًا مِن عِندِ أَنفُسِهِم مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ فَاعْفُوا واصْفَحُوا حَتَّى يَأتِيَ اللَّهُ بِأمْرِهِ إنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير ﴾ [البقرة : ١٠٩] [٨٩].

هذا تحذيرٌ إلهيٌّ للمؤمنين مِن اليهود ، وبيان لعداوتهم ، وحسدهم للمؤمنين ، معَ عِلْمهم بأنهم على الحق ، وأن محمدًا نبيٌّ صادق ، ورسول مِن عند اللَّه . والآيةُ تشتمل على توبيخ شديد لليهود ، فقد ظَهَرَ لهم الحقُّ ، وأُقِيمت عليهم الحُجَّة ، وانقطعَ عُذرُهم ، وعرفوا أن الإسلام حق ، وأن محمدًا عبد اللَّه ورسوله . وبعد كُل هذا ، اختاروا الكفرَ على الإيمان عنادًا وحسدًا . ولَم يَكتفوا بهذا، بَلْ إنَّ اليهود يَتَمَنَّوْنَ زوالَ نِعمة الإيمان عن المؤمنين . وهذا يدل على شِدَّة العداوة والحِقد والحسد والبغضاء .

ومحبةُ اليهود لكُفر المؤمنين نابعة من شهوات أنفسهم وأهوائهم،لا أن اليهود يَملِكون الحق ، ويَحرِصون عليه . واليهودُ لم يكونوا جُهَّالًا أو ساذَجين ، بَل كانوا على عِلْم ومعرفة ، وكُفْرُهم مبنيٌّ عَلى عِلْم لا جَهْل ، وهذا أسوأ أنواع الكُفر على الإطلاق .

فَإن كُنتَ لا تدري فَتِلْكَ مُصيبةٌ وإن كُنتَ تَدري فالمُصيبةُ أعظمُ

تَمَنَّى اليهودُ لَوْ يَرُدُّون المؤمنين إلى الكفر والضلال ، حسدًا نابعًا مِن أصل أنفسهم ، واتِّباعًا لأهوائهم ومصالحهم وشهواتهم ، وليس التزامًا بالدِّين ، أو بحثًا عن الحق واليقين، ولَم يأمرهم اللَّهُ بذلك ، مِن بعد ما ظَهَرَ لليهود الحقُّ في التَّوراة ، التي تشتمل على صِفة مُحَمَّد ﷺ ، وتُوضِّح أن الإسلام حَق ، ومحمدًا نبيٌّ صادق . والحسدُ مُتجذِّر في قلوب اليهود السَّوداء ، وقد تَمَنَّوْا أن يَرتد المؤمنون عن الإسلام، ويَعودوا إلى الكفر، وسَعَوْا في ذلك مُستخدمين كل الوسائل المُمكنة ،

٨٩ قال ابن الجوزي في زاد المسير(١/ ١٣١):((في سبب نزولها ثلاثة أقوال:أحدها أن حُيَي بن أَخْطَب وأبا ياسر كانا جاهدَيْن في رد الناس عن الإسلام، فَنَزلت هذه الآية، قاله ابن عباس.والثاني أن كَعْب ابن الأشرف كان يَهجو النبيَّ ، ويُحرِّض عليه كُفارَ قُرَيْش في شِعْره ، وكان المشركون واليهود من أهل المدينة يُؤذون رسولَ اللَّه حِينَ قَدِمَها ، فأمرَ النبيُّ بالصَّفْح عنهم،فَنَزلت هذه الآية ، قاله عبد اللَّه بن كعب ابن مالك،والثالث أن نَفَرًا من اليهود دَعَوْا حُذَيفةَ وعمَّارًا إلى دِينهم فأبَيَا ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله مُقاتِل)).

وخطَّطوا للمؤامرات والمكائد ، ولكنهم فَشِلُوا . ثُمَّ بعد ذلك ، أعلنَ المؤمنون عليهم الجهادَ ، وانتصروا عليهم ، وخَسِرَ كثيرٌ مِن اليهود حياتهم ، وضاعت مُمتلكاتهم . وعلى الباغي تَدُور الدوائر . ومَن سَلَّ سَيْفَ البَغْي صُرِعَ بِه .

والحَسَدُ مِن أسوأ الصفات على الإطلاق ، وهو تمنِّي زوال النِّعمة عن المَحسود ، وإنْ لَم يَصِرْ للحاسد مِثْلُها . أمَّا الغِبْطة فهي تمنِّي النِّعمة بدون حُب زوالها عن المَغبوط . وكُل شخص يُمكن أن يَرضى إلا الحاسد ، فإنه لا يَرضى إلا بزوال النِّعمة عَن غَيره . وقلبُ الحاسد مُحترق ، وعقله تائه ، وحُزنه دائم ، وتعاسته مُستمرة . والحاسدُ يَحرِق نَفْسَه بِنَفْسِه ، ولا أحد يَشعر به .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢١٢) : ((يُحذِّر تعالى عبادَه المؤمنين عن سُلوك طريق الكُفار من أهل الكتاب ، ويُعْلِمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر ، وما هُم مُشتملون عليه مِن الحسد للمؤمنين معَ عِلْمهم بفضلهم وفضل نَبِيِّهم ... . عن ابن عباس قال : كان حُيَي بن أخْطَب وأبو ياسر بن أخْطَب مِن أشد يهود للعرب حسدًا ، إذْ خَصَّهم اللَّهُ برسوله ﷺ ، وكانا جَاهِدَيْن في رَد الناس عن الإسلام ما استطاعا ، فأنزلَ اللَّهُ فيهما : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِن أَهْلِ الكِتَابِ لَو يَرُدُّونَكُم ﴾ الآية ... . وقال الضَّحاك : عن ابن عباس : أنَّ رَسولًا أُمِّيًّا يُخبِرهم بما في أيديهم مِن الكُتب والرُّسُل والآيات ، ثُمَّ يُصدِّق بذلك كُلِّه مِثل تصديقهم ، ولكنهم جَحدوا ذلك كُفْرًا وحسدًا وبَغْيًا. وكذلك قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ كُفَّارًا حَسَدًا مِن عِندِ أَنفُسِهِم مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ ﴾ . يقول : مِن بَعد ما أضاءَ لهم الحقُّ ، لَم يَجهَلوا مِنه شيئًا ، ولكن الحسد حَمَلَهم على الجُحود ، فعيَّرهم ، ووبَّخهم ، ولامهم أشد المَلامة ، وشَرَعَ لِنَبِيِّه ﷺ وللمؤمنين ما هُم عليه مِن التصديق ، والإيمان ، والإقرار بما أنزلَ اللَّهُ عليهم ، وما أنزل مِن قَبْلهم ، بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم . وقال الربيع بن أنس : ﴿ مِن عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ مِن قِبَلِ أنفسهم . وقال أبو العالية : ﴿ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ ﴾ مِن بعد ما تَبَيَّنَ أنَّ مُحَمَّدًا رسول اللَّه ، يَجدونه مَكتوبًا عندهم في التَّوراة والإنجيل ، فكفروا به حسدًا وبَغْيًا ، إذْ كان مِن غَيرهم ، وكذا قال قَتادة والربيع بن أنس)) .

إنَّ صُدورَ اليهود تمتلئ بالحسد تجاه المؤمنين . وهُم مُتَلَبِّسون بالحسدِ بسبب قلوبهم المريضة وحُبِّها لِما هو قبيحٌ وكُرهها للحق. واليهودُ كانوا شديدي الحِرص على إرجاع المسلمين إلى عوالم الجاهلية والكفر . وهذا مرجعه إلى الحسد . فهم لا يريدون للآخرين أن يتمتعوا بِنِعمة الإيمان ، بل يَتَمَنَّوْنَ زوالَ هذه النِّعمة. وهذه الخَصْلَة الذميمة سببها كراهية الإنسان كإنسان، وتمنِّي زوال النِّعمة عنه ، وهذا اتجاه مُضاد للأُخُوَّة بين البشر بوصفهم من أصل واحد .

والحسد كسياسة منهجية هدفها تجريد الخصم من كل فضيلة ، والاستحواذ على النِّعم كاملةً لِيَسْهُل القضاء على الخصوم . وقد قادَ الحسدُ اليهودَ إلى الكفر بالنبيِّ محمد ﷺ ، بعد معرفتهم اليقينية بِصِدْقِه وصِحَّةِ نُبُوَّته [٩٠] . وروى الطبري في تفسيره (١/ ٤٥٤) عن ابن زَيد أنه قال : ((كانت يهود يَسْتَفْتِحُون على كُفار العرب يقولون : أمَا واللَّهِ لَوْ قد جاء النبيُّ _ الذي بشَّر به موسى وعيسى _ أحمدُ ، لكان لنا عليكم ! ، وكانوا يظنون أنه منهم ، والعرب حَوْلَهم ، وكانوا يستفتحون عليهم به، ويستنصرون به ، فلمَّا جاءهم ما عَرَفوا كَفروا به ، وحسدوه)) .

هذا يعكس خطورة اتِّباع الهوى المُضاد لاعتناق الحق، كما يدل على أن الحسد الذي يسيطر على اليهود في كل مراحل وجودهم يساهم بشكل فعَّال في صَرْفهم عن الحق . وهُم سعيدون بهذا طمعًا في تحقيق مصالح شخصية ، والحفاظ على مناصبهم . وهذا أبعدَهم عن البناء الحضاريِّ ، فاليهودُ لا يَمْلكون أيَّةَ حضارة ، وليس لهم أي دَور إيجابي في تاريخ البشرية . ومَن يُعارِض هذا الكلام عليه أن يُرِيَنا " آثار الحضارة اليهودية " كَي نَزورها ونستفيد منها ! . واليهودُ يَسْتَوْلُون على التُّرَاث الفلسطيني ومعالم الحضارة العربية الإسلامية ، ويُسَجِّلونها باسمهم في المنظمات الدولية لأنهم لا يَملكون حضارةً،لذلك يَخترعون حَضارةً وهمية لهم عَبر الاستيلاء على إنجازات الآخرين.

إنَّ المشكلة الأساسية في عُقول اليهود ، هي اعتبار أنفسهم الأحق بالنُّبُوَّة من العرب ، وأنهم أَرْقى من العرب ، وأعلى منهم شأنًا . وتفكيرُ اليهود يتشابه إلى حد بعيد مع تفكير إبليس، حيث إنَّ إبليس اعتبر نَفْسَه أفضل من آدم ﷺ ، وينبغي أن يَحصل على امتيازات خاصة متناسبة مع هذه الأفضلية المزعومة . واليهودُ اعتبروا أنفسهم أفضل من العرب، ويجب أن يَحصلوا على النُّبُوَّة ليتناسب ذلك مع مكانتهم الرفيعة المزعومة .

---

٩٠ الحسد نَوْعان : مذموم ومحمود. أمَّا المذموم فهو تمنِّي زوال النِّعمة عن المسلم . وهذا النَّوعُ حرامٌ بالإجماع. وقد ذمَّه اللَّهُ ووبَّخَ أصحابَه، فقال تعالى: ﴿ أم يَحْسُدون الناسَ على ما آتاهم اللَّهُ من فضله ﴾ [النساء : ٥٤]. والحسدُ المذموم اعتراض على إرادة اللَّه تعالى ، وطعنٌ في حِكْمته ، واتِّهامٌ له سُبحانَه بأنه يُعطي النِّعمة لغير المستحِق . أمَّا الحسدُ المحمود فهو الوارد في الحديث ، قال النبيُّ ﷺ : ((لا حَسَدَ إلا في اثنتَيْن : رَجُلٌ آتاه اللَّهُ القرآنَ فهو يتلوه آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ ، ورَجُلٌ آتاه اللَّهُ مالًا فهو يُنفقه آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ)) [متفق عليه . البخاري (٦/ ٢٧٣٧) ، ومسلم (١/ ٥٥٨)] . وهذا الحسدُ المحمود إنما هو الغِبْطة ، أي أن يتمنى المرءُ النِّعمةَ التي على غَيره ، مِن غَير زوالها عن صاحبها .

وبما أن الأمور قد تَمَّتْ ، وظَهَرَت النُّبُوَّةُ في العرب بعد أن شَرَّف اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بها، لَم يجد اليهود وزعماؤهم غَيْرَ الحسد الذي يستلزم زوال النِّعمة عن الآخرين ، وحِياكة المؤامرات ، والتخطيط للمكائد ، وبذل الجُهود من أجل رَد الناس عن الإسلام . وقد صارت هذه الأفعال الدنيئة هي الغاية من وجود اليهود الذين أخذوا على عاتقهم محاربة الإسلام بكل الوسائل . وقد نصَّبوا أنفسهم أعوانًا للشيطان، وأعداءً للرحمن . وهذا يدل على الحِقد الدفين الذي يَحرق قلوبَ اليهود ، ونار الحسد المُتأجِّجة في صدورهم . وقد صدق القائلُ :

كُلُّ العَداوةِ قد تُرْتجى إمَاتَتُها ... إلا عَداوةَ مَن عَاداكَ مِن حَسَدِ

فإنَّ في القلبِ مِنهَا عُقْدَةً عُقِدَتْ ... وليس يَفتحُها راقٍ إلى الأبدِ

وقال الغزالي في الإحياء (٣/ ١٨٩) : ((اعْلَمْ أنَّه لا حسد إلا على نِعمة، فإذا أنعمَ اللَّهُ على أخيك بنِعمة فلك فيها حالتان : إحداهما أن تكره تلك النِّعمة وتُحِب زوالها ، وهذه الحالة تُسمَّى حسدًا . فالحسدُ حَدُّه كراهة النِّعمة وحُب زوالها عن المُنعَم عليه . الحالة الثانية : أن لا تحب زوالها ولا تكره وجودها ودوامها ، ولكن تشتهي لِنَفْسِك مِثلها ، وهذه تُسَمَّى غِبْطة)) .

وقد قال أحد الحكماء: ما رأيتُ أعدلَ من الحسد، بدأ بصاحبه فقضى عليه .وصدقَ القائلُ :

اصْبِرْ على حَسَدِ الحَسُودِ ... فإنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُه

كالنارِ تأكلُ بَعْضَها ... إنْ لَم تَجِدْ ما تأكُلُه

وفي الحديث أن رسولَ اللَّه ﷺ قال : ((إنَّ اليَهُودَ قَوْمٌ سَئِمُوا دِينَهُم ، وَهُم قَوْمٌ حُسَّد ، وَلَم يَحْسُدُوا المُسلمينَ على أفضلَ مِن ثلاث : رَدِّ السَّلام ، وإقامةِ الصُّفوف ، وقَوْلِهِم خَلْفَ إمامهم في المَكتوبة : آمِين)) [٩١].

إنَّ اليهود مَلُّوا مِن دِينهم القائم على الأهواء والخُرافات والمصالح الشخصية والمنافع المادية، والحسد يحرق قلوبَهم ، ويُدمِّر حياتهم . وهُم يَحسُدون المسلمين على مظاهر وَحْدتهم وأُلفتهم التي تتجلَّى في شعائر دِينهم وصلاتهم .

واليهودُ يَتَمَنَّوْنَ زوالَ النِّعمة عن المُسلمين ، لأنهم يَعلمون أن المسلمين على الحق ، لذلك يَحسُدونهم على رد السلام ، لأن فيه دَلالة واضحة على تماسك المجتمع الإسلاميِّ ، ومَتانة

---

٩١ رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٥/ ١٤٦) برقم (٤٩١٠) . وحسَّنه المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ١٩٤) . ووافقه الهيثمي في المجمع (٢/ ٢٨٨) .

العلاقة بين المسلمين ، ووَحدة صَفِّهم . ويَحسُدونهم على إقامة الصُّفوف في الصلاة ، لأنه دليل الإيمان والانضباط والقُوَّة والوَحْدة والتماسك والتعاون . ويَحسُدونهم على قَولهم خلف الإمام في الصلاة المفروضة : آمِين ، لأن كلمة " آمِين " دُعاء خالص للَّه تعالى بالاستجابة بعد قراءة سُورة الفاتحة أعظم سُورة في القرآن ، والتي لَم يَنْزِل مِثْلُها في كُلِّ الكُتب السماوية السابقة .

ورفضُ الدِّين هو المُحرِّك الأساسيُّ للحسد . وهذا يدل على أن اليهود يعيشون بلا وازع ديني ولا رادع أخلاقي . وحسدهم عام وشاملٌ إلا أنه يتمحور بشكل خاص حول ثلاثة أمور وضَّحها الحديثُ ، تُشكِّل ظواهرَ الوَحدة والتماسك والتكافل في المجتمع الإسلاميِّ المترابط . وهذا يُشير إلى حِرص اليهود على تفريق المسلمين وتشتيتهم وتمزيق مُجتمعهم،وَفْق قاعدة "فَرِّقْ تَسُدْ"، كي تَخْلُوَ لهم السَّاحة، ويعيثوا في الأرضِ فسادًا دون حساب أو عقاب ، حَسَب رؤيتهم القاصرة.

وعن عائشة : عن النبيِّ ﷺ قال : ((ما حسدتكم اليهودُ على شَيء ما حسدتكم على السلام والتأمين)) [٩٢].

هذا يدل على أن اليهود يَحسُدون المسلمين على شعائر دِينهم ، وخُصوصيات المسلمين . إنَّهُم يَحسُدونهم على إفشاء السلام فيما بينهم ، وذلك لِمَا فيه مِن إظهار المحبَّة ، والوُد بين المسلمين بعضِهم البعض ، والرِّفْق فيما بَينهم ، والسَّلامُ تحيَّةُ أهل الجَنَّة . ويَحسُدونهم أيضًا على التأمين ، أي : قَول المُسلمين : آمِين ، خَلْف الإمام ، ومعناها : اللهُمَّ اسْتَجِبْ ، لِمَا عَلِمُوا مِن فَضْلها وبَرَكَتها.وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٤):((وهو يدلُّ على أنَّه شُرِعَ لهذه الأُمَّة دُونَهم)).

والحديثُ يُوضِّح أنَّ اللَّه خَصَّ الأُمَّةَ المُحمَّدية الإسلامية بخصائص تميَّزت بها عن غَيرها مِن الأُمم في الخَير والأجر ، ويُبيِّن ضرورةَ الحَث على الإكثار مِن السلام والتأمين ، ويدلُّ على أن اليهود يُدرِكون أن اليهودية ديانة أرضية وضعية بشرية باطلة ، وأن الإسلامَ هو الحَقُّ ، والدِّينُ السماويُّ الوحيد . وفي حديث آخَر أنَّ النبيَّ ﷺ قال عن اليهود: ((إنَّهُم لا يَحسُدونا على شَيء، كما يَحسُدونا على يوم الجُمُعة ، التي هدانا اللَّهُ لها وضَلُّوا عنها ، وعلى القِبْلة التي هدانا اللَّهُ لها، وضَلُّوا عنها ، وعلى قَولنا خَلْفَ الإمام : آمِين)) [٩٣].

---

٩٢ رواه ابن ماجة في سُننه (١/ ٢٧٨) ، وقال في الزوائد : ((هذا إسناد صحيح ، ورجاله ثقات)) .

٩٣ رواه أحمد في مُسنده (٦/ ١٣٤).وقال المُناوي في فَيض القدير (٥/ ٤٤١) : ((قال العراقي : هذا حديث صحيح)) .

إنَّ اللَّه فَرَضَ على اليهود يَوْمَ الجُمُعة، فاختلفوا فيه ، وتركوه ، واختاروا السَّبْت . وقد خَذَلَهم اللَّهُ ، وهدى المسلمين إلى يوم الجُمُعة ، الذي ضَلَّ عنه اليهود . وفَرَضَ اللَّهُ على اليهود التَّوَجُّهَ إلى الكعبة ، فتركوها ، وضَلُّوا عنها، وهدى اللَّهُ المسلمين لها . واليهودُ قد اختاروا بَيْتَ المَقْدِس قِبلةً لهم ، والكعبةُ أفضل . واختصَّ اللَّهُ المسلمين (الأُمَّة المُحمَّدية) بقول : آمِين ، خَلْف الإمام ، ولَم يَمنح هذا الشرف لليهود المغضوب عليهم . وقَوْلُ المسلمين خَلْف الإمام : آمِين ، فيه فضل عظيم ، وثواب جَزيل ، وغُفران للذُّنُوب ، والتأمين على ما قَرَأه الإمامُ مِن سُورة الفاتحة. واليهودُ يَحسُدون المسلمين على هذه الأُمُور الثلاثة التي تُوحِّد المسلمين ، وتُعْلي شَأنَهم وقَدْرَهم.

إنَّ الأُمَّة المُحمَّدية الإسلامية آخِر الأُمَم زمنيًّا ، لكنَّها الأُمَّة الأُولَى يوم القيامة ، وسابقة لجميع الأمم الماضية . وقد حازت قَصَبَ السَّبْق ، بأن حصلت على فضيلة يوم الجُمُعة السابق للسَّبْت (عيد اليهود) والأحد (عيد النصارى) . كما أنها سابقة إلى طاعة اللَّه التي حُرِمَ منها اليهودُ والنصارى . وقد هَدى اللَّهُ الأُمَّةَ المُحمَّدية إلى يوم الجُمُعة مع تأخُّرها في الزمن ، في حِين أن اليهود والنصارى ضَلُّوا عنه ، معَ أنهم سابقون زمنيًّا . والطريقُ لِمَن صَدَقَ لا لِمَن سَبَق .

والأُمَّةُ المُحمَّدية حَصَلَتْ على فضل التَّوَجُّه إلى الكعبة (القِبلة التي تُوحِّد المسلمين في المشارق والمغارب) ، في حِين أن اليهود والنصارى حُرِمُوا مِن هذا الفضل ، ولم يُمنَحوا هذا الشرف . والأُمَّة المُحمَّدية تقول خلف الإمام : آمِين (اللهُمَّ اسْتَجِبْ) . وهذا الفضل حُرِمَ مِنه اليهود والنصارى . وفي هذا دَلالة واضحة على تفوُّق الأُمَّة المُحمَّدية على سائر الأُمم بلا استثناء. والأُمَّة المُحمَّدية حصلت على هذا الفضل العظيم والشرف الجليل ، لأنها قَبِلَتْ كلامَ اللَّه ، بلا تحريف ولا تبديل ولا تغيير ولا تلاعب ، وسارعت إلى عبادة اللَّه وَحْدَه لا شريك له، وأقبلت على طاعة اللَّه ، والتزمت أوامرَه ، واجتنبت نَوَاهيه ، فكافأها اللَّهُ ، وعظَّم قَدْرَها ، وشرَّف مكانتها ، وأعلى شأنها في الدُّنيا والآخرة ، وَطَرَدَ اليهودَ والنصارى مِن رحمته ، ولعنهم ، لأنهم حرَّفوا التَّوراةَ والإنجيلَ ، وأشرَكوا باللَّه تعالى، واختاروا الكفرَ على الإيمان ، واعتنقوا الضلال ، ورفضوا الهداية.

وعن سَلَمَة بن سلامة بن وَقْش _ وكان من أصحاب بَدْر _ قال : كان لنا جارٌ مِن يَهُودَ في بني عبد الأشْهَل ، قال : فَخَرَجَ عَلَينا يَوْمًا مِن بَيته قَبْلَ مَبْعَث النبيِّ ﷺ بيسير ، فوقفَ على مجلس عبد الأشهل ، قال سَلَمة : وأنا يومئذٍ أحدثُ مَن فيه سِنًّا عليَّ بُرْدة مُضْطَجِعًا فيها بِفِناء أهلي ، فَذَكَرَ البعثَ والقيامة والحساب والميزان والجنة والنار ... فقال ذلك لِقَوْمٍ أهل شِرْك أصحاب أوثان ، لا يَرَوْنَ أن بَعْثًا كائن بعد الموت ، فقالوا له : وَيْحَكَ يا فُلان ، تَرى هذا كائنًا

أن الناس يُبْعثون بعد مَوْتهم إلى دار فيها جنة ونار يُجْزَوْنَ فيها بأعمالهم ؟، قال : نعم ، والذي يُحْلَف به ، لَوَدَّ أنَّ له بحَظِّه من تلك النار أعظمَ تَنُّور في الدنيا يُحمونه ثم يُدخلونه إيَّاه فَيُطْبَق به عليه ، وأنْ يَنجوَ من تلك النار غدًا . قالوا له : وَيْحَك، وما آيةُ ذلك ؟، قال: نبيٌّ يُبعَث مِن نَحْوِ هذه البلاد ، وأشارَ بيده نحو مكة واليمن ، قالوا : ومتى تراه ؟ ، قال : فَنَظَرَ إلَيَّ وأنا مِن أحْدَثِهم سِنًّا ، فقال : إنْ يَسْتَنْفِدْ هذا الغلامُ عُمُرَه يُدْرِكْه . قال سَلَمة : فواللَّهِ ما ذَهَبَ الليلُ والنهارُ حتى بَعَثَ اللَّهُ تعالى رسولَه ﷺ ، وهو حَيٌّ بين أظْهُرِنا ، فآمَنَّا بِه، وكَفَرَ به بَغْيًا وحَسَدًا ، فَقُلْنا : وَيْلَكَ يا فُلان ، ألستَ بالذي قُلْتَ لنا فيه ما قُلْتَ ، قال : بلى ، ولَيْسَ به [٩٤].

هذا يدل على أن اليهود كان لَدَيهم عِلْم ومعرفة بالنبيِّ محمد ﷺ قبل ظُهوره ، إذْ إنَّ صِفته موجودة في كُتبهم الدينية ، وهُم على اطِّلاع عليها . ولكنهم كانوا يَأمُلُون أن يكون مِنهم ، وليس مِن غَيرهم ، فلمَّا ظَهَرَ مِن العرب كفروا بِه ، وجَحدوا نُبُوَّتَه ورسالته ، بَغْيًا وحَسَدًا .

واليهودُ كانوا يَنظرون إلى العرب باعتبارهم جماعات بدوية مُتخلِّفة وبدائية وهمجية ، وكانوا يَعتبرون أنفسَهم شعب اللَّه المُختار ، وصَفوة اللَّه مِن خَلْقه، والأحَق بالنُّبُوَّة والرسالة وتلقِّي وَحْي السماء . لذلك ، أنكَروا كُلَّ فضيلة للعرب ، وكفروا بالنبيِّ محمد ﷺ لأنه عربيٌّ ، وليس مِن بني إسرائيل ، معَ عِلْمهم التام بصِدْقه وصِحَّة نُبُوَّته . وكُفْرُ اليهود قائم على العِلْم والمعرفة ، وَلَم يَكونوا جُهَّالًا أو ساذَجين، ولكنَّ الحَسَد حَمَلَهم على الكفر والضلال وتكذيب آيات اللَّه ، وجَحْد نُبُوَّة مُحَمَّد ﷺ .

((وروى يعقوب بن سُفيان بإسناد حسن عن عائشة ، قالت : كان يهوديٌّ قد سكن مكة ، فلمَّا كانت الليلةُ التي وُلِدَ فيها النبيُّ ﷺ قال : يا مَعْشَرَ قُرَيْش ، هل وُلِدَ فيكم الليلةَ مَوْلود ؟ ، قالوا : لا نَعْلَم ، قال : فَإنَّهُ وُلِدَ في هذه الليلة نبيُّ هذه الأُمَّة ، بَيْنَ كَتِفَيْهِ عَلامة ، لا يَرضع لَيْلَتَيْن لأنَّ عِفْريتًا مِنَ الجِنِّ وَضَعَ يده على فمه، فانصرَفوا فسألوا، فقِيل لهم : قد وُلِد لعبد اللَّه بن عبد المُطَّلب غُلامٌ ، فذهبَ اليهوديُّ معهم إلى أُمِّه فأخْرَجَتْهُ لهم ، فلمَّا رأى اليهوديُّ العَلامَةَ خَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْه ، وقال : ذَهَبَت النُّبُوَّةُ مِن بني إسرائيل، يا مَعْشَرَ قُرَيْش، أمَا واللَّهِ لَيَسْطُوَنَّ بكم سَطْوَةً يَخرج خَبَرُها مِن المَشرِق والمَغرِب)) [٩٥].

---

٩٤ رواه أحمد في مسنده(٣/٤٦٧) . قال الحافظ في الفتح(٦/٥٨٣):((صحَّحه ابن حِبَّان من طريقه)).

٩٥ أورده الحافظ في الفتح (٦/ ٥٨٣) .

كان اليهودُ على عِلْم ومعرفة بمَبعَث النبيِّ مُحَمَّد ﷺ ، وكانوا يَنتظرون أن يَخرُج مِن بني إسرائيل، فلمَّا خَرَجَ مِن العرب، أُسْقِطَ في أيديهم، واحترقت قلوبُهم بالحِقد والحسد ، وهذا سبب كُفرهم . وإذا كان اليهودُ قَد قَتلوا كثيرًا مِن أنبياء بني إسرائيل ، فماذا سَيَفعلون معَ النبيِّ العربي ؟.

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قُلْ أتُحَاجُّونَنَا في اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا ورَبُّكُم وَلَنَا أعْمَالُنا وَلَكُم أعْمَالُكم وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُون ﴾ [البقرة : ١٣٩] .

قُل يا مُحمَّد لليهود والنَّصارى : أتُجادلوننا في دِين اللَّه لإقامة الحُجَّة عَلَينا ؟ . وقد قالوا إنَّ الأنبياء كانوا مِنهُم ، وعلى دِينهم ، لذلك هُم أوْلَى باللَّه وأقرب إليه مِن المُسلمين . واللَّهُ خالقُ جميعِ الناس وإلهُهم وربُّهم، وكُلُّهم عبيدُه ، فكيفَ تقولون إنكم أَوْلَى باللَّه ، وتُخاصموننا في ذلك، ولكُل عَبْدٍ جَزَاءُ عمله ، ولا يتحمَّل أحدٌ ذَنْبَ غَيْرِه ، ولنا أعمالُنا الحسنة الموافقة لأمر اللَّه ، ولكم أعمالكم السَّيئة المُخالفة لأمر اللَّه . والعِبرة بالعمل لأنه أساس الأمر ، ومِعيار التفاضُل ، ونحن وَحَّدْنا اللَّهَ، وأخْلَصْنا الدِّينَ والعملَ للَّه وحده لا شريك له ، وأنتم تُشركون به . فنحنُ أوْلَى باللَّه وأقرب إليه مِنكُم ، وأحق بالاصطفاء ، لأنَّ الإخلاص سبب الشَّرَف والكرامة . وهذا توبيخٌ شديدٌ لهم . والهمزة في ﴿ أتُحَاجُّونَنَا ﴾ للإنكار .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ٢٣٠) : ((وقَوله : ﴿ قُلْ أتُحَاجُّونَنَا في اللَّهِ ﴾ ، أي : أتجادلوننا في اللَّه ، أي : في دِينه ، والقُرب مِنه ، والحَظْوَة عِنده ، وذلك كَقَوْلهم : ﴿ نَحْنُ أَبنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾. وقَوله: ﴿ وَهُوَ رَبُّنَا ورَبُّكُم ﴾ ، أي: نَشترك نَحْنُ وأنتم في رُبوبيته لنا، وعُبوديتنا له، فكيف تَدَّعون أنكم أَوْلَى به مِنَّا وتُحَاجُّوننا في ذلك ؟ . وقوله : ﴿ وَلَنَا أعْمَالُنا وَلَكُم أعْمَالُكم ﴾ ، أي: لنا أعمال ، ولكم أعمال ، فَلَسْتُم بأوْلَى باللَّه مِنَّا ، وهو مِثْل قَوله تعالى : ﴿ فَقُل لي عَمَلي وَلَكُم عَمَلُكُم أنتُم بَرِيئونَ مِمَّا أعْمَلُ وأنا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُون ﴾ . وقوله : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُون ﴾ ، أي : نَحْنُ أهل الإخلاص للعبادة دُونَكم ، وهو المِعيار الذي يكون به التفاضُل ، والخَصْلَة التي يكون صاحبها أَوْلَى باللَّه سُبحانَه مِن غَيره،فكيف تَدَّعون لأنفسكم ما نَحْن أَوْلَى به مِنكُم وأحق ؟. وفيه تَوبيخ لهم ، وقَطْع لِمَا جاؤوا به مِن المُجَادَلَة والمُنَاظَرَة)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (١/ ١٥٢): ((قَوله تعالى: ﴿ أتُحَاجُّونَنَا في اللَّهِ ﴾ . قال ابن عباس: يُريد يهود المدينة ، ونصارى نَجْران . والمُحَاجَّة : المُخَاصَمَة في الدِّين ، فإن اليهود قالت : نَحْن أهل الكتاب الأوَّل . وقِيل : ظاهرت اليهودُ عَبَدَةَ الأوثان، فقِيل لهم:تَزْعُمون أنَّكم مُوحِّدون،ونَحْن نُوحِّد،فَلِمَ ظاهرتم مَن لا يُوحِّد ؟!)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجهيَ للَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل للذينَ أُوتُوا الكِتَابَ والأُمِّيِّينَ أأسْلَمْتُمْ فَإنْ أسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وإن تَوَلَّوْا فإنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ واللَّهُ بَصِيرٌ بالعِبَادِ ﴾ [آل عِمران : ٢٠] . فَإن جَادَلَكَ الكفارُ يا مُحَمَّد بالشُّبهاتِ الباطلة ، والأهواء المنحرِفة ، والأقاويل المُزَوَّرة ، بعدما أقمتَ عليهم الحُجَّةَ ، وخاصموكَ في الدِّين بالباطل والجهل والعِناد، فَقُل لهم إظهارًا للإيمان وتبليغًا لهم : استسلمتُ للَّه ، وأخلصتُ له العبادة وَحْدَه ، لا شريك له، ولا نِد ، ولا صاحبة ، ولا ولد . وانقادَ له قلبي ولساني وجوارحي ، وخضعتُ لأمره وحُكمه . وهذا هو الإسلام دِين التَّوحيد،القائم على الهدى والنُّور والحُجَج والبراهين والأدلة،وهو دِين جميع الأنبياء، جاؤوا بِه لنشره بين الناس ، وَدَعَتْ إليه الآياتُ . وإسلامُ الوَجْه للَّه يعني تسليم الذات لأمرِ اللَّه ونَهْيه ، والامتثال الكامل لشرائعه وأحكامه . أنا وأتباعي المؤمنون على دِين الإسلام، خاضعون للَّه، ومُستسلمون له، نُوحِّده ، ولا نُشرِك بِه شَيْئًا . وهذا يدلُّ على أنَّ النبيَّ ﷺ هو قائد المسلمين وزعيمهم ، يَقودهم إلى بَر الأمان في الدنيا، والنجاةِ في الآخرة، وهُم سائرون على خُطاه. يتَّبعونه لأنهم واثقون بِه، ومُؤمنون باللَّه الذي أرسله . و﴿ وَجهيَ ﴾ معناه : ذاتي . أي : استسلمتُ للَّه بِكُلِّيتي . وتَمَّ تخصيص الوجه بالذِّكر لأنَّه أكرم جوارح الإنسان ، وأجمعها للحواس، وهو مَجْمَع الجمال والبهاء. وإذا خضع الوجهُ للَّه تعظيمًا له ، واستسلامًا لأمره ، فإنَّ باقي أجزاء الإنسان ستخضع للَّه تعالى، لأنها دُون الوجه في المكانة والشرف والكرامة. إنَّ خُضوع الوجه (العُضو الأكرم والأشرف) يعني خُضوع جميع الجوارح بلا استثناء .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٢٠) : ((قَولُه تعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ ﴾ ، أي : خَاصَمُوكَ يا مُحَمَّد في الدِّين ، وذلك أنَّ اليهود والنصارى قالوا : لَسْنَا على ما سَمَّيْتَنَا به يا مُحَمَّد ، إنَّمَا اليهودية والنَّصرانية نَسَب ، والدِّين هو الاسلام ، ونحن عليه ، فقال اللَّهُ تعالى : ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجهيَ للَّهِ ﴾ ، أي : انْقَدْتُ للَّه وَحْدَه بقلبي ولِسَاني وجميع جوارحي ، وإنَّما خصَّ الوجه لأنه أكرم الجوارح مِن الإنسان ، وفيه بهاؤه ، فإذا خضع وجهُه للشيء ، خضع له جميعُ جوارحه ، وقال الفَرَّاء : معناه : أخلصتُ عملي للَّه ، ﴿ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ ، أي : وَمَن اتَّبَعني أسلمَ كما أسلمتُ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(١/ ٣٦٣) : ((قَوْله تعالى : ﴿ فإن حاجُّوكَ ﴾ ، أي : جادلوكَ وخاصموكَ . قال مُقاتل : يعني اليهود . وقال ابن جرير : يعني نَصَارى نَجْرَان في أمر عيسى . وقال غَيرهما : اليهود والنصارى . ﴿ فَقُل أسلمتُ وَجهيَ للَّهِ ﴾ ، قال الفَرَّاء : معناه أخْلَصْتُ عملي . وقال الزَّجاج : قَصَدْتُ بعبادتي إلى اللَّه)) .

وعن بَهْز بن حكيم : عن أبيه عَن جَدِّه أنَّه قال للنبيِّ ﷺ : فإنِّي أسألك بوجه اللَّه ، بِمَ بَعَثَكَ رَبُّنا ؟. قال : ((بالإسلام)) ، قال : قلتُ : يا نبيَّ اللَّه ، وما آية الإسلام ؟، قال : ((أن تقولَ : أسْلَمْتُ وَجْهِيَ للَّه ، وتُقيمَ الصلاة ، وتُؤتِيَ الزكاة)) [٩٦].

إنَّ هذا الصحابي قد سَأل النبيَّ ﷺ بوجه اللَّه ، أي بذات اللَّه، وهذا يدل على أهمية السؤال. والسؤال يتناول مضمون البَعْثَة وهدفها . بِمَ بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ؟ ، ما هو الدِّينُ الذي أرسلَ اللَّهُ به مُحَمَّدًا ؟ . مِمَّا يُشير إلى رَجَاحة عقل هذا الصحابي، وحِرصه على التعلم والمعرفة،والخروج مِن ظُلمات الجهل إلى نُور العِلْم . وكان النبيُّ ﷺ صادقًا وواضحًا ، ولَم يَكتُم العِلْمَ والوَحْيَ . وأخبره بأن اللَّه بَعَثَه بالإسلام . لَم يَكتفِ الصحابي بهذا السؤال ، بَل سأل أيضًا عن علامة الإسلام المُمَيِّزة له . ووضَّح النبيُّ ﷺ هذه العلامة ، وهي إسلام الوجه للَّه ، أي : جَعْل جميع أجزاء الجِسْم مُنقادةً لِحُكْمِه تعالى ، والمعنى: عبادة اللَّه وَحْدَه ، لا شريك له . وإقامة الصلاة على وقتها معَ الالتزام بشروطها وأركانها وسُننها . والصلاةُ عُمود الإسلام ، وأشرف العبادات البدنية ، وإيتاء الزكاة المفروضة بشروطها إذا وَجَبَتْ وتَمَّ امتلاك النِّصَاب ، على الوجه الذي يُرْضِي اللَّهَ . والزكاةُ هي أشرف العبادات المالية . والحديثُ يدلُّ على حِرْص الصحابة _ رضي اللَّهُ عنهم _ على المجيء إلى النبيِّ ﷺ ، وتعلُّم مِنه أُمور دِينهم ودُنياهم .

﴿ وَقُل للذينَ أُوتُوا الكِتَابَ والأُمِّيِّينَ أَأسْلَمْتُمْ فَإنْ أسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وإن تَوَلَّوْا فإنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ واللَّهُ بَصِيرٌ بالعِبَادِ ﴾ . هذه الآيةُ وأمثالها تدلُّ على عُموم بَعثة النبيِّ ﷺ إلى جميع الخَلْق ، وهذا مَعلوم مِن الدِّين بالضَّرورة .

وقُلْ يا مُحَمَّد لليهود (الذين لَدَيهم التَّوراة) والنصارى (الذين لَدَيهم الإنجيل) ومُشركي العرب الوثنيين (الذين لَيس لهم كتاب) : هل أسلمتم أَمْ أنتم باقون على كُفركم بعد قيام الحُجَّة عليكم وانقطاع أعذاركم ؟، وقد أتاهم مِن البَيِّنات ما يُوجِب إسلامَهم. فإنْ أسْلَمُوا فقد نَفعوا أنفسَهم بِخُروجهم مِن الضَّلال إلى الهُدى ، ومِن ظُلَمَات الجهل إلى نُور العِلْم . وإنْ أعْرَضُوا عَن الحَق والهُدى ، فَلَن يَضُرُّوكَ يا مُحَمَّد ، فإنَّما عَلَيْكَ تبليغ الرِّسَالة، ولَيس عليك هُدَاهُم. والغَرَضُ تَسلية النبيِّ ﷺ ، وإزالة هَمِّه ، ورَفْع مَعنوياته . وعلى اللَّه حِسَابُهم ، وإليه مَرجعهم ، وهو سُبحانَه يَهْدِي مَن يشاء ، ويُضِل مَن يشاء، وله الحِكمة البالغة ، والحُجَّة الدامغة .

---

٩٦ رواه الحاكم في المستدرَك (٤/ ٦٤٣) برقم (٨٧٧٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

واللَّـهُ عَـالِم بِمَـن يسـتحق الهِدايـة ، ومَـن يسـتحق الضَّـلالة ، وعَـالِم بجميـع أحـوال عِبَـاده ، وسَيُجازيهم عَلَيها ، إنْ خيرًا فخير ، وإنْ شَرًّا فَشَر . والآيةُ ﴿ واللَّهُ بَصِيرٌ بالعِبَادِ ﴾ وعد ووعيد .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٢١٤) : ((يَعني بذلك جَلَّ ثناؤه : ﴿ وَقُل ﴾ يا مُحَمَّد ﴿ للذينَ أُوتُوا الكِتَابَ﴾ مِن اليهود والنصارى ﴿والأُمِّيِّينَ﴾الذين لا كتاب لهم مِن مُشركي العرب: ﴿أأسْلَمْتُمْ﴾ يقول : قُل لهم : هل أفردتم التَّوحيدَ ، وأخلصتم العِبادةَ والأُلوهةَ لِرَب العَالَمين دُون سائر الأنداد والأشراك التي تُشركونها معه في عِبادتكم إيَّاهم ، وإقراركم بِرُبوبيتهم ، وأنتم تَعْلَمُون أنَّه لا رَبَّ غَيْـرُه ، ولا إله سِوَاه ؟ ، ﴿ فَإنْ أسْـلَمُوا ﴾ ، يقـول : فـإن انقـادوا لإفـراد الوَحدانيـة للَّـه ، وإخـلاص العبادة والأُلوهة له ، ﴿ فَقَدِ اهْتَدَوا ﴾ ، يَعني : فقد أصابوا سبيلَ الحَق، وسَلَكُوا مَحَجَّةَ الرُّشْد . فإنْ قال قائل : وكيف قِيل : ﴿ فَإنْ أسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ﴾ عَقِيب الاستفهام ؟ ، وهل يجوز على هذا في الكلام أن يُقَال لِرَجُل : هل تقوم ؟ ، فإنْ تَقُمْ أُكْرِمك ؟ ، قِيل : ذلك جائز إذا كان الكلام مُرَادًا به الأمر ، وإنْ خَرَجَ مَخْرَجَ الاستفهام . ... . القَول في تأويل قَوله تعالى : ﴿ وإن تَوَلَّوْا فإنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ واللَّهُ بَصِيرٌ بالعِبَادِ ﴾ . يعني جَلَّ ثناؤه بِقَوْله : ﴿ وإن تَوَلَّوْا ﴾ وإن أدْبَـرُوا مُعْرِضِين عمَّـا تَـدعوهم إليـه مـن الإسـلام ، وإخـلاص التوحيـد للَّـه رَب العَـالَمِين ، فإنَّمـا أنـتَ رسـول مُبَلِّـغ ، وليس عليك غَير إبلاغ الرِّسالة إلى مَن أرسلتك إليه مِن خَلْقي، وأداء ما كلَّفتك مِن طاعتي ﴿ واللَّهُ بَصِيرٌ بالعِبَادِ ﴾ يعني بذلك : واللَّه ذُو عِلْم بِمَن يَقْبَل مِن عباده ما أرسلتك به إليه ، فَيُطيعك بالإسلام ، وَبِمَن يتولَّى مِنهُم عنه مُعْرِضًا،فيرد عليك ما أرسلتك به إليه فَيَعصيك بإبائه الإسلام)) .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٢٠) : ((قَوله : ﴿ وَقُل للذينَ أُوتُوا الكِتَابَ والأُمِّيِّينَ ﴾ يعني العرب ﴿ أأسْلَمْتُمْ ﴾ لفظه استفهام ، ومعناه أمر ، أي: أسْلِمُوا . ... . ﴿ فَإنْ أسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ﴾ فقرأ رسولُ اللَّه ﷺ هذه الآية ، فقال أهلُ الكتاب : أسْلَمْنَا ، فقال لليهود : " أتشهدون أنَّ عيسى كَلِمةُ اللَّهِ وعبدُه ورسولُه ؟ " ، فقالوا : مَعَاذَ اللَّه . وقال للنصارى : " أتشهدون أنَّ عيسى عبدُ اللَّهِ ورسولُه ؟ " ، قالوا : مَعَاذَ اللَّه أن يكون عيسى عبدًا ، فقال اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وإن تَوَلَّوْا فإنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ ﴾ ، أي : تَبليغ الرسالة ، ولَيس عَلَيك الهِدَاية ، ﴿ واللَّهُ بَصِيرٌ بالعِبَادِ ﴾ عَالِم بِمَن يُؤْمِن وَبِمَن لا يُؤْمِن)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم ألا نَعْبُدَ إلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ فَإن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأنَّا مُسْلِمُون ﴾ [آل عِمران : ٦٤] .

يُقَدِّمُ القُرآنُ الحُجَجَ الدامغةَ، والبراهين الباهرة . فقد دعا أهلَ الكتاب (اليهود والنصارى) إلى كَلِمَةٍ عَدْلٍ يستوي أمامها الجميعُ بلا تمييز أو مُجامَلة . وهذه الكلمة التي ينبغي الاتفاق عليها من كل البشر _على اختلاف أديانهم وأجناسهم_ هي عبادة اللَّه وَحْدَه ، وعدم الشِّرْك به ، وعدم اتخاذ البشر أربابًا مِن دُون اللَّه تعالى . فلا أحد يملك حقَّ التشريع والتحليل والتحريم سِوى اللَّه تعالى . وكُلُّ ما عُبِدَ مِن دُون اللَّه تعالى هُم آلهة باطلة ، لا يَملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضَرًّا ، فلا مَعبودَ بحق إلا اللَّه . وللأسف ، فقد عَبَد اليهودُ عُزَيْرًا ، وعَبَدَ النصارى المسيحَ ، واتَّخذوا أحبارَهُم ورُهبانهم أربابًا مِن دُون اللَّه تعالى ، أحَلُّوا لهم الحرامَ ، وحرَّموا عليهم الحلالَ .

ومَن يتفكر في هذه الدعوة العظيمة سيجد أنها مُنصِفة لا ظُلْمَ فيها ، ولا تغليب لأُناس على آخرين . فاللَّهُ تعالى هو خالق كُلِّ الناس ، فعليهم أن يَعبدوه وَحْدَه ، وألا يُشركوا به . فلا يجوز عبادة محمد أو موسى أو عيسى _ عليهم الصلاة والسلام _، بل يتوجب عبادة الذي أرسلهم. والالتزامُ بهذا المبدأ الراقي سَيُوحِّد الناسَ على الحق ، ولا فضل لإنسان على إنسان إلا بالتقوى ، والتقوى سِرٌّ بين العبد وربِّه . وهذه الدعوة عالمية لأنها لا تختص بقَوم دون قَوم . فهي لا تُجَامِل المسلمين على حساب أهل الكتاب ، لأنَّ اللَّهَ خالقُ الجميع لا المسلمين وَحْدَهم. ولا تُنقِص من قَدْر التوراة والإنجيل، لأنهما كتابان سماويان_ في الأصل_ يُؤَيِّدان القرآنَ مِثلما القُرآن يؤيِّدهما ، ولا تحطُّ من مَنْزلة موسى وعيسى _ عليهما الصلاة والسلام _ ، لأن الأنبياءَ كُلَّهم دِينهم واحد ، يتشرفون بعبادة اللَّه الذي أرسلهم لإخراج الناس من ظُلمات الجهل والكفر إلى نُور العِلم والإيمان. ولو كان مُحَمَّد ﷺ كاذبًا لدعا الناس إلى عبادته مِثل فِرْعَوْن ، أوْ طعن في موسى وعيسى لإعلاء مَنْزلته عليهما ، أو طعن في التوراة والإنجيل لبيان تفوُّق الكتاب الذي جاء به . لكن هذه الأمور لَم تحدث ، فقد كان النبيُّ مُحَمَّد ﷺ أشد المدافعين عن التوراة والإنجيل وموسى وعيسى _ عليهما السلام _. ولا يُقبَل الإسلام من أحد إلا إذا آمَنَ بالكُتب السماوية كُلِّها والأنبياءِ كُلِّهم . وهذا هو الأساس للدعوة الإسلامية العالمية الكَوْنية الشاملة لكل زمان ومكان .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم ﴾ . الخطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ . قُل يا محمد لليهود والنصارى(أهل التَّوراة والإنجيل) : يا أهل الكتاب ، هَلُمُّوا إلى كلمة عادلة واضحة مستقيمة بيننا وبينكم ، فيها إنصاف من بعضنا لبعض ، ولا يَختلف فيها الرُّسُل والكُتب السماوية.

﴿ ألا نَعْبُدَ إلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ . أن نَعبد اللَّهَ وَحْدَه،بلا شريك، ولا نِد، ولا صاحبة ، ولا ولد.وهذه هي الكلمة العادلة التي لا ظُلم فيها ولا جَوْر. و﴿ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ ﴾ هي كلمة التَّوحيد.

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٩٤) : ((هذا الخِطاب يَعُمُّ أهلَ الكتاب من اليهود والنصارى ومَن جَرَى مَجْرَاهم ﴿ قُل يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمة ﴾ والكلمة تُطلَق على الجُملة المفيدة كما قال هَهُنا ، ثم وصفها بقوله : ﴿ سواء بيننا وبينكم ﴾ ، أي عَدْل ونَصَف _ يعني إنصاف _ ، نستوي نحن وأنتم فيها ، ثم فسَّرها بقوله : ﴿ ألا نعبد إلا اللَّهَ ولا نشرك به شيئًا ﴾ ، لا وثنًا ولا صليبًا ولا صنمًا ولا طاغوتًا ولا نارًا ولا شيئًا ، بل نُفْرِد العبادةَ للَّه وَحْدَه لا شريك له ، وهذه دَعوة جميع الرُّسُل)) .

﴿ وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ . ولا يُطيع بعضُنا بعضًا في معصية اللَّه ، ولا يَسجد بعضُنا لبعض ، ولا يَعبد بعضُنا بعضًا ، كما عَبد اليهود عُزَيرًا ، وعبدَ النصارى المسيحَ ، وأطاعوا أحبارَهم ورُهبانَهم في تحليل الحرام ، وتحريم الحلال . فالتحليلُ والتحريم للَّه وَحْدَه ، وهُما من خصائص الأُلوهية، ولا علاقة للبشر بهما. والآيةُ توبيخ شديد لليهود الذين عبدوا عُزَيرًا ، والنصارى الذين عبدوا المسيحَ ، وكلاهما بشر ، يأكل ويشرب ويقضي حاجته وينام . وأيضًا ، توبيخ شديد لِمَن أطاعَ الرجالَ في دِين اللَّه ، فَحَلَّلَ ما حَلَّلوه من الحرام ، وحرَّم ما حرَّموه مِن الحلال ، بلا دليل نقلي ، ولا حُجَّة عقلية . ومَن فَعَلَ هذا ، فقد اتَّخَذَ مَن قَلَّدَه إلَهًا وربًّا ومعبودًا مِن دُون اللَّه تعالى .

والجديرُ بالذِّكر أن مظاهر العبودية لا يجوز صَرْفها لأحد من المخلوقين . واتخاذُ الناس بعضهم بعضًا أربابًا مِن دُون اللَّه ، يحتمل عِدَّة مَعَانٍ . فاتِّباع عِلْية القوم (الأمراء والعلماء) في التحليل والتحريم بلا دليل هو نوع من عبادتهم، لأن تشريع الحلال والحرام بيد اللَّه وَحْدَه . وهناك معنى مشهور مِثل عبادة النصارى للمسيح ﷺ ، فقد اتخذوه إلهًا ، وذلك لجهلهم وتحريفِ الإنجيل ، حيث دخلت فيه العوامل البشرية . ولا يَخفى أن سُوء تأويل النصوص الدينية أدَّى إلى كوارث عَقَدية ، وانحرافات أخلاقية .

وقد أمرَ اللَّهُ أهلَ الكتاب (اليهود والنصارى) في التَّوراة والإنجيل ، أن يَعبدوا اللَّهَ وَحْدَه ، لا شريك له . لكنهم خالفوا الأمرَ الإلهيَّ ، فَحَرَّفوا التَّوراةَ والإنجيلَ ، وأشركوا باللَّه تعالى . فقد اعتبرَ اليهودُ عُزَيْرًا ابنَ اللَّه ، واعتبرَ النصارى عيسى ابنَ اللَّه.وجَحَدَ أهلُ الكتابِ نُبُوَّةَ مُحَمَّدﷺ، وعَبدوا أحبارَهم ورُهبانَهم. كما قالَ اللَّهُ عنهم: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُم وَرُهْبَانَهُم أَرْبَابًا من دُونِ اللَّهِ ﴾ [التَّوبة : ٣١] . أي إنَّهم أطاعوهم كما يُطاع الرَّبُّ تعالى ، فأحَلُّوا لهم الحرام ، وحرَّموا عليهم الحلال .

وعن عَدِيِّ بنِ حَاتِم قال : أتَيْتُ النبيَّ ﷺ وفي عُنُقي صَليبٌ مِن ذَهَب ، فقال : ((يا عَدِيُّ ، اطْرَحْ عَنكَ هذا الوَثَنَ)) ، وسَمِعْتُه يَقرأ في سُورة بَرَاءة : ﴿ اتَّخَذُوا أحْبَارَهُم وَرُهْبَانَهُم أرْبَابًا من دُونِ اللَّهِ ﴾ ، قال : ((أمَا إنَّهُم لَم يَكونوا يَعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحَلُّوا لهم شيئًا اسْتَحَلُّوه ، وإذا حَرَّموا عَليهم شيئًا حَرَّموه)) [٩٧].

لقد دَعا النبيُّ ﷺ أصحابَه إلى ترك عادات الجاهليَّة وأوثانها ، وكان ﷺ يَنهاهم عن التَّشَبُّه بالمُشركين أو اليهود أو النصارى .

كان عَدِيُّ بن حاتم نصرانيًّا ، وجاءَ إلى النبيِّ ﷺ كَي يُسْلِمَ ، وقد علَّق في عُنُقه سلسلةً فيها صليب من ذهب ، والصليب شِعَار النصارى ، فأمره النبيُّ ﷺ أن يَنْزِعَ عنه هذا الصليبَ ويُلْقِيَه ، والوَثَنُ هو الصَّنَم، وكُلُّ ما جَسَّدَ شيئًا فهو وَثَن، سواءٌ كان مِن طِين أوْ حِجارة أوْ خَشب أو حديد . وسمع عَدِيُّ بن حاتم النبيَّ ﷺ يقرأ الآية الموجودة في سُورة التَّوبة : ﴿ اتَّخَذُوا أحْبَارَهُم وَرُهْبَانَهُم أرْبَابًا من دُونِ اللَّهِ ﴾ ، أي : إنَّ اليهود اتَّخَذَتْ أحبارَهم ، والنصارى اتَّخَذَتْ رُهبانَهم، آلهةً مِن دُون اللَّه تعالى . وبيَّن النبيُّ ﷺ المُراد بالآية ، فاليهود والنصارى لَم يَكونوا يَعبدون أحبارَهم ورُهبانَهم ، ولكن اليهود والنصارى كانوا إذا أحلَّ لهم الأحبارُ والرُّهبانُ شيئًا استحلَّه أتباعُهم ، وإذا حرَّموا شيئًا امتنعَ عنه أتباعُهم . وكأنهم بذلك اتَّخذوا أحبارَهم ورُهبانَهم آلهةً مَعبودةً مِن دُون اللَّه تعالى . يُحِلُّون لهم ، ويُحرِّمون عليهم . والحديثُ يُوضِّح أن التحليل والتحريم من خصائص اللَّه وَحْدَه لا شريك له ، وأنَّ مَن اتَّبَعَ أحدًا في ذلك ، فقد اتَّخذه إلهًا مِن دُون اللَّه تعالى .

إنَّ قضية التحليل والتحريم لا أحدٌ يَمْلِكُها إلا اللَّه تعالى ، فهي تشريعٌ إلهيٌّ لا علاقة للمخلوقات به . والشخصُ الذي يقوم بالتحليل والتحريم إنَّما هو يُنازِع اللَّهَ تعالى ، ويعتدي على

---

٩٧ رواه التِّرمذيُّ في سُنَنه (٥/ ٢٧٨) برقم (٣٠٩٥) ، والبَيهقي في سُننه الكبرى (١٠/ ١١٦) برقم (٢٠١٣٧) ، والطبراني (١٧/ ٩٢) برقم (٢١٨) .

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٠١) : ((فالجَهَلة مِن الأحبار والرُّهبان ومشايخ الضَّلال يَدخلون في هذا الذم والتَّوبيخ ، بخلاف الرُّسُل وأتباعهم من العلماء العاملين ، فإنهم إنما يأمرون بما يأمر اللَّهُ به ، وبَلَّغتهم إيَّاه رُسُله الكرام ، وإنما يَنْهَوْنَهم عمَّا نَهاهم اللَّهُ عنه ، وبَلَّغتهم إيَّاه رُسُله الكرام ، فالرُّسُلُ ــ صَلَوَات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين ــ هُم السُّفَراء بين اللَّه وبين خَلْقه في أداء ما حَمَلوه مِن الرسالة ، وإبلاغ الأمانة ، فقاموا بذلك أتم القيام ، ونصحوا الخَلْقَ ، وبَلَّغوهم الحقَّ)) .

شريعة السماء ، ويَجعل عقلَه الناقص المحدود مُسَاوِيًا لِعِلْمِ اللَّهِ المُطْلَقِ ، وقُدرته اللامحدودة . وإطاعة ذلك الشخص إنَّما هي استسلام له ، وخُضوع لأفكاره ، وعبادة له مِن دُون اللَّه تعالى .

وأهلُ الكتاب (اليهود والنصارى) _ للأسف_ مُعتادون على عبادة الأشخاص وتقديسهم ، وتقديم كلام عُلمائهم على نصوص التَّوراة والإنجيل .

إنَّ العلماء الفاسدين قد ضَلُّوا وأضَلُّوا ، وذلك لأنهم رؤوس الناس ومَرجعياتهم ، وإذا فَسَدَ الرأسُ انتهى الجَسَدُ . وهؤلاء العلماء كالحِمَار يَحْمِل أسفارًا ، يَحفظون الكتبَ ، ويَملكون ناصيةَ اللغة، وفَصْلَ الخِطَاب، ويُتقنون الخَطَابةَ ، ويمتازون بالبلاغة والفصاحة وحُسْن البيان ، ومع هذا لَم يستفيدوا شيئًا مِن عِلْمهم ، فكان عِلْمُهم حُجَّةً عليهم لا لهم ، لأنَّهم اتَّخذوا العِلْمَ طريقًا لتحقيق مصالح شخصية ومكاسب مادية ، وليس ابتغاءَ وجه اللَّه تعالى . وهؤلاء يَنظرون إلى الدِّين بوصفه مشروعًا تجارِيًّا استثمارِيًّا يُدِرُّ أرباحًا وفيرة، ويَضمن ولاءَ الناس وتبعيتهم، ويَحشد الجماهير. وهكذا صار علماءُ السُّوء دُعاةً على أبواب النار ، مَن أطاعهم قَذَفُوه فيها .

وكما قال ابن المُبَارَك :

وهل أفسدَ الدِّينَ إلا المُلُوكُ ... وأحبارُ سَوْءٍ ورُهبانُها

فباعُوا النُّفوسَ وَلَم يَرْبَحُوا ... وَلَم تَغْلُ في البَيعِ أثمانُها

وقال القاضي الجُرْجانيُّ :

لَوْ أنَّ أهلَ العِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُم ... وَلَوْ عَظَّمُوهُ في النُّفُوسِ لَعُظِّمَا

ولكن أهانوه فَهَانُوا وَدَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بالأطماعِ حَتَّى تَجَهَّمَا

وقال المباركفوري في تُحفة الأحوذي (٨/ ٣٩١ و٣٩٢) : ((قَوله: (وفي عُنُقي صليب) هو كُل ما كان على شكل خَطَّيْن مُتقاطعَيْن . وقال في المجمع : هو المربع من الخشب للنصارى يدَّعون أن عيسى عليه السلام صُلِبَ على خَشَبَة على تلك الصُّورة (اطْرَحْ عَنك) أي : أَلْقِ عَن عُنُقك (هذا الوثن) هو كل ما له جُثة معمولة من جواهر الأرض أو من الخشب والحجارة ، كصورة الآدمي، والصنم : الصُّورة بلا جُثة . وقِيل : هُمَا سَوَاء ، وقد يُطلَق الوثن على غَير الصورة. ومنه حديث عَدِيٍّ: قَدِمْتُ عليه ﷺ وفي عُنُقي صليب مِن ذَهَب ، فقال : " أَلْقِ هذا الوَثَنَ عَنْكَ "، قاله في المجمع . (اتَّخذوا أحبارَهم) أي: عُلَماء اليهود (ورُهبانهم) أي: عُبَّاد النصارى (أربابًا مِن دُون اللَّه) حيث اتَّبَعُوهم في تحليل ما حرَّم اللَّهُ ، وتحريم ما أَحَلَّ اللَّهُ.قال أي النبيُّ ﷺ: (أمَا)

بالتخفيف حرف التنبيه (إذا أحَلُّوا لهم شيئًا) أي: جَعلوا لهم حَلالًا وهو مِمَّا حرَّمه اللَّهُ تعالى (اسْتَحَلُّوه) أي اعتقدوه حَلالًا (وإذا حرَّموا عليهم شيئًا) أي: وهو مِمَّا أَحَلَّه اللَّهُ (حرَّموه) أي: اعتقدوه حَرَامًا . قال في فتح البيان : في هذه الآية ما يَزجُر مَن كان له قلب أوْ ألقى السَّمْعَ وهو شهيد عن التقليد في دِين اللَّه،وتأثير ما يقوله الأسلاف على ما في الكتاب العزيز والسُّنَّة المُطَهَّرة، فإنَّ طاعة المُتَمَذهِب لِمَن يَقتدي بِقَوْله ويَسْتَن بِسُنَّته مِن عُلماء هذه الأُمَّة معَ مُخالفته لِمَا جاءت به النُّصُوص ، وقامت به حُجَج اللَّه وبراهينه ، هو كاتِّخاذ اليهود والنصارى للأحبار والرُّهبان أربابًا مِن دُون اللَّه ، للقطع بأنَّهم لَم يَعبدوهم ، بل أطاعوهم وحرَّموا ما حرَّموا ، وحلَّلوا ما حلَّلوا ، وهذا هو صَنِيع المُقَلِّدين مِن هذه الأُمَّة ، وهو أشبه به مَن شبَّه البَيضة بالبَيضة ، والتَّمرة بالتمرة ، والماء بالماء . فيا عِبَادَ اللَّه ، ما بالكم تركتم الكتابَ والسُّنَّةَ جانبًا ، وعَمَدْتُم إلى رجال هُم مِثْلُكم في تعبُّد اللَّهِ لهم بهما ، وطلبه للعمل مِنهم بما دَلَّا عليه وأفاداه ، فعملتم بما جاؤوا به مِن الآراء التي لَم تُعَمَّدْ بِعِمَاد الحَق ، ولَم تُعَضَّدْ بِعَضُد الدِّين ، ونُصوص الكتاب والسُّنَّة تُنَادي بأبلغ نداء ، وتُصوِّت بأعلى صَوت بما يُخالف ذلك ويُبَاينه، فأعرتموها آذانًا صُمًّا، وقُلُوبًا غُلْفًا ، وأذهانًا كليلة، وخواطر عليلة ، وأنشدتم بلسان الحال :

وما أنا إلا مِن غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ   غَوَيْتُ وإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشُدِ . انتهى .

وقال الرازي في تفسيره : قال شَيْخُنا ومَولانا خاتمة المُحقِّقين والمُجتهدين رضي اللَّهُ عنه : قد شاهدتُ جماعةً مِن مُقلِّدة الفقهاء ، قرأتُ عليهم آياتٍ كثيرة مِن كتاب اللَّه تعالى في بعض المسائل ، فكانت مذاهبهم بِخِلاف تلك الآيات، فَلَم يَقْبَلُوا تلك الآيات، ولَم يَلتفتوا إليها، وبَقُوا ينظرون إليَّ كالمُتعجِّب ، يعني : كيف يُمكن العمل بظواهر هذه الآيات معَ أنَّ الرِّواية عَن سَلَفنا وَرَدَتْ إلى خِلافها ، وَلَوْ تأمَّلْتَ حَقَّ التأمُّل ، وَجَدْتَ هذا الداءَ ساريًا في عُروق الأكثرين من أهل الدُّنيا)) .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُون ﴾ . فإن رفضوا تَوحيدَ اللَّه ، وأعرَضوا عن هذه الدَّعوة العادلة المستقيمة المُنصِفة ، فأشهدوهم أنكم مُوحِّدون مُسلمون ، ثابتون على الإسلام (الدين السماوي الوحيد)، ومُتمسِّكون به ، ومُقِرُّون للَّه بالوَحدانية والأُلوهية والرُّبوبية ، ومُخلِصون له الدِّين والعبادة والطاعة ، ومُنقادون لشريعة اللَّه وأحكامه وأوامره ونَوَاهيه . وقد قامت عليهم الحُجَّة ، ولَزِمَتهم البَيِّنة ، وانقطعَ عُذرهم . والآيةُ تَدفع الجِدَالَ والمُحَاجَجَة ، وتُثبِت أن النبيَّ محمدًا ﷺ وأصحابه على الطريق المستقيم ، ودِينهم هو اليقين الكامل الذي لا يَقبل الشَّك .

وقال القرطبي في تفسيره (٤/ ١٠٥): ((قَوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ أي : أعرَضوا عمَّا دُعُوا إليه ، ﴿ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ ، أي : مُتَّصفون بدين الإسلام ، مُنقادون لأحكامه ، مُعترفون بما للَّه علينا في ذلك من المِنَن والإنعام ، غير مُتَّخذين أحدًا ربًّا ، لا عيسى ولا عُزَير ولا الملائكة ، لأنهم بشر مِثْلُنا ، مُحْدَث كَحُدوثنا ، ولا نَقبل مِن الرُّهبان شيئًا بتحريمهم عَلَينا ما لَم يُحرِّمه اللَّهُ علينا ، فنكون قد اتَّخذناهم أربابًا)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٠٠ و٤٠١ و٤٠٢): ((قَوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها أنهم اليهود ، قاله قتادة وابن جُرَيج والربيع بن أنس . والثاني وفد نَجْران الذين حَاجُّوا في عيسى ، قاله السُّدي ومُقاتل. والثالث أهل الكتابَيْن جميعًا ، قاله الحسن. وقال ابن عباس: نزلت في القِسِّيسين والرُّهبان ، فبعثَ بها النبيُّ ﷺ إلى جعفر وأصحابه بالحَبَشَة ، فقرأها جعفر والنَّجاشي جالس وأشراف الحبشة ، فأمَّا الكلمة فقال المُفسِّرون : هي " لا إله إلا اللَّه " . فإن قِيل : فهذه كلمات ، فَلِمَ قال : ﴿ كَلِمَةٍ ﴾ ؟ ، فعنه جوابان : أحدهما أن الكلمة تُعبِّر عن ألفاظ وكلمات. قال اللغويون: ومعنى" كلمة " كلام فيه شرح قصة وإنْ طال ... . والثاني أنَّ المُرَاد بالكَلِمَة كَلِمَات ، فاكتفى بالكلمة مِن كلمات. قَوله تعالى:﴿ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم ﴾ قال الزَّجاج : يعني بالسَّوَاء العَدْل ، وهو من استواء الشيء. ويُقَال للعَدْل: سَواء وسُواء وسِواء ... قَوله تعالى : ﴿ وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها أن سُجود بعضهم لبعض ، قاله عِكرمة . والثاني لا يُطيع بعضُنا بعضًا في معصية اللَّه ، قاله ابن جُرَيج . والثالث أن نجعل غير اللَّه ربًّا ، كما قالت النصارى في المسيح ، قاله مقاتل والزَّجاج)) .

إن القاعدة الأساسية العالمية هي عبادة اللَّه وَحْدَه ، وعدم الإشراك به . ومَن تَفَكَّرَ في هذه القاعدة الذهبية سيجد أنها منطقية ، ومتوافقة مع العقلِ والفِطْرة الإنسانية معًا . والمخلوقات كلها عاجزة مفتقرة إلى خالقها الذي أوجدها . إذن ، فالعبادةُ ينبغي أن تتوجَّه إلى الخالق العظيم الذي صَنَعَ الموجودات ، وليس إلى الموجودات. ولو جئنا إلى الحياة العامة لوجدنا أن مِن غَير المنطقي أن يتساوى الكرسي مع النَّجار الذي صنعه ، أو يتعادل الحديد مع الحدَّاد الذي شكَّله ، أو تتساوى اللوحة مع الفنان الذي رسمها . وهذه الأشياء كلها محصورة في عالم المخلوقات الناقصة العاجزة ، فكيف يتساوى المخلوقُ المصنوعُ مع الخالق الصانع ؟ . وكيف يُصبح المخلوقُ إلهًا وهو لا يَملك من أمره شيئًا ؟! . وكيف يصبح المخلوقُ ربًّا وهو لا يَقْدِر على حماية نفْسه من الموت ؟! . وإذا كانت هذه الآلهة لا تَستطيع حماية نفْسها ، فكيف ستحمي المؤمنين بها ؟! .

ومن الأمثلة الواضحة في هذا السياق اعتقاد النصارى أن المسيحَ إلهٌ وقد تمَّ صَلْبُه . فإذا كان هذا الإله _ حَسَبَ اعتقاد النصارى _ لَم يَقْدِر على حماية نَفْسه مِن الصَّلْب والإهانة والمَوت ، فكيف سيحمي المؤمنين به ويدافع عنهم ؟! .

وفي تفسير البَغَوي (١/ ٤٩) : ((قال المُفسِّرون : [قَدِمَ وفدُ نَجْران المدينةَ فالْتَقَوْا معَ اليهود ، فاختصموا في إبراهيم _ عليه السلام _ فزعمت النصارى أنه كان نصرانيًّا ، وهُم على دِينه وأَوْلَى الناس به ، وقالت اليهود : بل كان يهوديًّا ، وهُم على دِينه وأَوْلَى الناس به ، فقال رسول اللَّه ﷺ: ((كِلا الفريقين بريء من إبراهيم ودِينه ، بل كان إبراهيم حنيفًا مُسلمًا ، وأنا على دِينه ، فاتَّبِعُوا دِينَه دِينَ الإسلام)) ، فقالت اليهود : يا مُحَمَّد ، ما تريد إلا أن نتَّخذك رَبًّا كما اتخذت النصارى عيسى رَبًّا ، وقالت النصارى : يا مُحَمَّد ، ما تريد إلا أن نقول فيك ما قالت اليهود في عُزَيْر ، فأنزلَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قُل يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمة ﴾ _ الآية _])) .

والصراعُ بين اليهود والنصارى قديمٌ جدًّا . وعندما التقى وفد نَجْران (النصارى) مع اليهود تجادلوا بشأن إبراهيم ﷺ ، فهو أبو الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ ، وكُلُّ طرف يحاول تقديم إبراهيم ﷺ مُمَثِّلًا لعقيدته ، وذلك من أجل نَيْل الشرعية الدينية ، والمشروعية الأخلاقية . وقد زعم النصارى أن إبراهيم ﷺ كان نصرانيًّا ، وأنَّه منهم ، وهُم سائرون على عقيدته ، ويَحملون ميراثه النبويَّ ، وهم أحق الناس به لأنه يَدِين بالنَّصرانية _ حَسَب اعتقادهم _ . وزعمَ اليهودُ _ كرَدَّة فِعْل _ أن إبراهيم ﷺ كان يهوديًّا ، وهُم تابعون له ، وهُم أوْلَى الناس به .

وهذه المزاعم العريضة لا أساس لها من الصحة ، وهي مُضحكة ومُبكية في آنٍ معًا . إذْ إنَّ إبراهيم ﷺ وُجد قبل موسى وعيسى _ عليهما الصلاة والسلام _ . وقد أُنزلت التوراةُ والإنجيل بعد إبراهيم ﷺ ، فكيف يَدِين إبراهيم باليهودية أو النصرانية ؟! . المَنطق يقول إنَّ اللاحق تابعٌ للسابق ، وليس السابقُ تابعًا للاحق . وقد رَدَّ عليهم النبيُّ ﷺ ، وبيَّن لهم أن إبراهيمَ ﷺ كان حنيفًا مُسْلِمًا يَدين بالتَّوحيد ، ويَعبد اللَّه وَحْدَه بلا شريك ولا نِد . وكُلُّ الأنبياء مُسلمون ، لأن الدِّين عند اللَّه الإسلام ، فالدِّينُ السماويُّ واحدٌ لا يتعدَّد ، أمَّا الشرائع فهي مختلفة باختلاف الزمان والمكان وطبيعة الناس.ومَن أرادَ السَّيْرَ على منهاج إبراهيمﷺ فَلْيَتَّبع الإسلامَ، دينَ جميع الأنبياء ، والدِّينَ السماوي الوحيد .

وبما أن اليهود والنصارى يَفتقدون إلى البراهين ، ولا يَملكون حُجَّةً . فقد أخذوا يُلْقُون التُّهَمَ بلا دليل . فادَّعت اليهود أنَّ مُحَمَّدًا يُريد أن يتَّخذه اليهودُ ربًّا، كما اتَّخذت النصارى عيسى رَبًّا .

وزَعمَ النصارى (كَرَدَّة فِعل) أنَّ مُحَمَّدًا يُريد أن يتَّخذه النصارى ابنًا للَّه تعالى ، وهذا ما قاله اليهود في عُزَيْر ، فقد قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وقالت اليهودُ عُزَيْرٌ ابنُ اللَّه ﴾[التَّوبة : ٣٠] . وهذه التُّهَم العريضة نابعة من الأهواء الشخصية لا المنهج العِلمي . إذْ إنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَم يَدْعُ الناسَ إلى عبادته ، أو اتخاذه شريكًا للَّه تعالى . ونصوصُ القُرآن والسُّنة ظاهرة للجميع، وغير سِرِّية ، ويمكن للجميع أن يَطَّلع عليها . ولا يوجد فيها أي نَص يدعو إلى تأليه مُحَمَّد أوْ أي مخلوق آخَر .

والدَّعْوَةُ المُحمَّدية الإسلامية قائمة بالأساس على التَّوحيد، أي: عبادة اللَّه وَحْدَه، بلا شريك ، ولا نِد ، ولا صاحبة، ولا ولد. وبدون التوحيد، لا معنى لرسالات الأنبياء كُلِّها . ومَن عَبَدَ مُحَمَّدًا ، أو اتَّخذه إلَهًا ، فهو كافر ، وخالد في النار إنْ ماتَ على ذلك ، وهو مُكذِّب بالقُرآن والسُّنة .

لقد دعا النبيُّ مُحَمَّد ﷺ الناسَ جميعًا إلى توحيد اللَّه (عبادته وَحْدَه بلا شريك) ، وأرسلَ الرسائل إلى المُلوك والحُكَّام والقادة. ومِن تلك الرسائل النبوية الشريفة الخالدة، رسالة النبيِّ ﷺ إلى هِرَقْل . وقد جاء فيها : ((بسم اللَّه الرحمن الرحيم ، مِن مُحَمَّد عبد اللَّه ورسوله ، إلى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّوم ، سلامٌ على مَن اتَّبَعَ الهُدى . أمَّا بَعْد ، فإنِّي أدعوكَ بِدِعَايةِ الإسلام . أَسْلِمْ تَسْلَمْ ، وأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أجركَ مَرَّتَيْن ، فإنْ تَوَلَّيْتَ ، فَعَلَيْكَ إثمُ الأريسيين . و﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم ألا نَعْبُدَ إلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ فَإن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأنَّا مُسْلِمُون ﴾))[٩٨] .

هذه الرسالة النبوية العظيمة تدلُّ على سُلطة النبيِّ ﷺ ، ومكانته الجليلة ، فهو المُتَحَدِّث باسم اللَّه ، وهو عبد اللَّه ورسوله ، يُخاطِب المُلوكَ والحُكَّامَ والزعماء ، بِكُلِّ إيمان وثِقَة ، وبلا خَوف ولا تردُّد، ويَدعوهم إلى الإسلام (دِين التَّوحيد) . وجَّه النبيُّ ﷺ التَّحِيَّةَ إلى هِرَقْلَ عظيمَ الرُّوم (المُعَظَّم عِندهم) بِقَوله : " سلامٌ عَلى مَن اتَّبَعَ الهُدى " ، وهي صِيغة للتَّحِيَّة في مُخَاطَبَة الكُفَّار، ودَعَاه بِدِعاية الإسلام، أي : بِدَعْوته التي أمرَ اللَّهُ بها ، وهي كَلِمَة الشَّهَادة ، التي يُدعَى إليها أهل المِلَل الكافرة. والتَّوحيدُ هو أصل الإسلام وأساسه وعُنوانه. والإسلامُ هو الدِّين السماويُّ الوحيد ، ولا يَقْبَلِ اللَّهُ غَيْرَه . " أَسْلِمْ تَسْلَمْ " في الدُّنيا بالنَّجَاة مِن الحرب والجِزْية ، وفي الآخرة بالنَّجَاة مِن النار . وهذه العبارة النبوية : " أَسْلِمْ تَسْلَمْ " في نهاية الاختصار ، وغاية الإيجاز ، والبَلاغة ، وجَمْع المعاني .

---

٩٨ متفق عليه. البخاري (٣/ ١٠٧٤) برقم (٢٧٨٢) ، ومسلم (٣/ ١٣٩٣) برقم (١٧٧٣) .

وإذا أسلمَ هِرَقْلُ فلهُ أجْرَان، مَرَّةً على إيمانه بالنبيِّ عيسى ﷺ ، ومَرَّةً على إسلامه ، واللَّهُ يُضَاعِف أجْرَه بعدد أفراد شَعبه الذين سَيَقْتَدُون به في اعتناق الإسلام ، ويَسِيرون على خُطاه. وإنْ أعرضَ هِرَقْلُ عن الإسلام ، ورفضَ الدَّعوة النبوية ، فهو يتحمَّل المسؤولية في الدنيا والآخرة ، وعليه إثم استمرار أتباعه وشعبه ورَعَاياه على الكفر والضلال والباطل ، لأنهم تابعون له ، وخاضعون لأمره ، ومُقتدون به، فهو سيِّدهم وزعيمهم وقائدهم، وقد حالَ بَينهم وبَين الإسلام(دِين اللَّه) .

و﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم ﴾ ، أي : نَسْتَوي فيها جميعًا ، لأنَّها تتَّفق عليها الكُتُبُ السماويةُ الثلاثة : القُرآن والتَّوراة والإنجيل ، ﴿ ألا نَعْبُدَ إلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُون ﴾ ، أي : فقد لَزِمَتْكُم الحُجَّةُ ، فَاعْتَرِفُوا بأنَّا مُسْلِمُون دُونكم ، وأنَّكم كافرون باللَّه تعالى .

وفي الحديث فوائد عظيمة ومُتعددة ، مِنها :

١ــ مُكَاتَبَة الكُفَّار بالدَّعوة إلى الإسلام ، ومُلاطَفَة المَكتوب إليه ، وتقديرُه التقديرَ اللائق المُناسب ، الذي لا يتجاوز حُدودَ الشريعة الإسلامية .

٢ــ الكِتَابيُّ (اليهودي أو النَّصراني) إذا أسلمَ له أجْرَان، أجر الإيمان بِنَبِيِّه مُوسى أوْ عيسى عليهما الصلاة والسلام ، وأجر إيمانه بِمُحَمَّد ﷺ نبيِّ الإسلام .

٣ــ صِدق النبيِّ مُحَمَّد ﷺ كان معلومًا لأهل الكتاب عِلْمًا قطعيًّا ، وإنَّما تَرَكَ الإيمانَ به مَن تَرَكَه منهم عِنَادًا أوْ حَسَدًا ، أوْ خَوْفًا على مصالحهم ومناصبهم في الدُّنيا ، ونَحْو ذلك .

٤ــ مَن كان رئيسًا مَتبوعًا مَسموعًا يَكون عليه إثم الكُفر ، وإثم مَن عَمِلَه واتَّبَعَه ، وكذا مَن كان سببًا لِضَلالة أوْ مَنْع هِدَاية .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢/ ١٠٧ــ ١١٠) ــ معَ بعض التصرُّف ــ : ((في هذا الكِتَاب (يعني رسالة النبيِّ ﷺ إلى هِرَقْل) جُمَل من القواعد وأنواع من الفوائد مِنها :
١ــ دُعاء الكفار إلى الإسلام قبل قتالهم ، وهذا الدعاء واجب ، والقتال قَبْله حرام ، إنْ لَم تكن بَلَغَتهم دَعوة الإسلام، وإنْ كانت بَلَغَتهم ، فالدُّعاء مُستحب ، هذا مذهبنا . وفيه خِلاف للسَّلَف .
٢ــ وجوب العمل بخبر الواحد، وإلا فَلَم يكن في بَعْثه معَ دِحْية فائدة، وهذا إجماع مَن يُعْتَد بِه .
٣ــ استحباب تصدير الكتاب ببسم اللَّه الرحمن الرحيم ، وإنْ كان المبعوث إليه كافرًا . ٤ــ يجوز أن يُسافر إلى أرض العدو بالآية والآيتين ونَحْوهما، وأن يَبعث بذلك إلى الكفار ، وإنَّما نهى عن

المُسَافَرَة بالقرآن إلى أرض العدو أي بِكُلِّه ، أوْ بِجُملة مِنه ، وذلك أيضًا محمول على ما إذا خِيف وقوعه في أيدي الكفار. ٥_ يجوز للمُحْدِث والكافر مَس آية أو آيات يسيرة مع غَير القرآن. ٦_ إنَّ السُّنَّة في المُكَاتَبَة والرسائل بين الناس أن يبدأ الكاتب بِنَفْسِه، فيقول: مِن زَيد إلى عمرو . ٧_ التَّوَقِّي في المُكَاتَبَة ، واستعمال الوَرَع فيها فلا يَفْرُط ولا يُفَرِّط. ولهذا قال النبيُّ ﷺ : " إلى هِرَقْلَ عَظيمِ الرُّوم " ، فَلَم يَقُلْ : مَلِك الرُّوم ، لأنَّه لا مُلْك له ولا لِغَيره إلا بحُكْم دِين الإسلام ، ولا سُلطان لأحد إلا لِمَن وَلَّاه رسول اللّٰه ﷺ ، أوْ وَلَّاه مَن أَذِنَ له رسول اللّٰه ﷺ بشرط. ولَم يَقُل : إلى هِرَقْل فقط ، بل أتى بنوع مِن المُلاطَفَة ، فقال : عظيم الروم . أي الذي يُعظِّمونه ويُقَدِّمونه . وقد أمرَ اللّٰهُ تعالى بإلانة القَول لِمَن يُدعَى إلى الإسلام . ٨ _ استحباب البلاغة والإيجاز ، وتَحَرِّي الألفاظ الجَزْلة في المُكَاتَبَة ، فإنَّ قَوله ﷺ : " أَسْلِمْ تَسْلَمْ " في نهاية من الاختصار ، وغاية من الإيجاز والبلاغة وجمع المعاني ، معَ ما فيه من بديع التجنيس ، وشُموله لسلامته مِن خِزْي الدنيا بالحرب والسَّبْي والقتل وأخذ الديار والأموال ، ومن عذاب الآخرة ... . ٩_ إنَّ مَن أدركَ مِن أهل الكتاب نَبِيَّنا ﷺ ، فآمنَ به فله أجران كما صَرَّحَ به هُنا . ١٠_ البيان الواضح أنَّ مَن كان سببًا لضلالة أو سبب منع مِن هداية كان آثمًا،لِقَوله ﷺ:"وإن تَوَلَّيْتَ فإن عليك إثم الأريسيين"(رواية مسلم). ١١_استحباب " أمَّا بَعْد" في الخُطَب والمُكَاتَبَات. قَوله ﷺ: " وإن تَوَلَّيْتَ فإنَّ عَلَيْكَ إثمَ الأريسيين " . واخْتَلَفوا في المُرَاد بهم على أقوال ، أصَحُّها وأشهرها أنهم الأكَّارون ، أي : الفلاحون والزَّراعون . ومعناه : أن عليك إثم رعاياك الذين يتَّبعونك ، وينقادون بانقيادك. ونبَّه بهؤلاء على جميع الرعايا، لأنهم الأغلب، ولأنهم أسرع انقيادًا، فإذا أسلمَ أسْلَمُوا ، وإذا امتنعَ امْتَنَعُوا . وهذا القَول هو الصحيح . قال أبو عُبَيد : ليس المراد بالفلاحين الزَّراعين خاصَّة ، بل المُراد بهم جميع أهل مَملكته . الثاني أنهم اليهود والنصارى وهُم أتباع عبد اللّٰه ابن أريس الذي تُنسَب إليه الأروسية من النصارى ، ولهم مقالة في كُتب المقالات ويقال لهم الأروسيون.الثالث أنهم الملوك الذين يقودون الناس إلى المذاهب الفاسدة،ويأمرونهم بها. قَوله ﷺ: " أدعوك بِدِعَاية الإسلام"،وهو بكسر الدال. أي : بِدَعوته ، وهي كلمة التوحيد . قَوله ﷺ: " سلامٌ على مَن اتَّبَعَ الهُدى". هذا دليل لِمَن يقول : لا يُبْتَدَأ الكافر بالسلام. وفي المسألة خِلاف، فمذهب الشافعي وجمهور أصحابه وأكثر العلماء أنه لا يجوز للمسلم أن يَبتدئ كافرًا بالسلام، وأجازه كثيرون مِن السَّلَف . وهذا مردود بالأحاديث الصحيحة في النَّهْي عن ذلك . وجوَّزه آخرون لاستئلاف ، أو لحاجة إليه ، أو نَحْو ذلك)) .

إنَّ هذه الرسالةُ النبوية الشريفة تعكس حِرْصَ النبيِّ ﷺ على تبليغ الدعوة الإسلامية كاملةً غَير منقوصة لكل الناس ، على اختلاف أجناسهم وأعراقهم ومكانتهم الاجتماعية. كما تُشير إلى حُسن الأسلوب في الدَّعوة ، حيث اللين والرِّفق ، بلا تطرُّف ولا خشونة في التعامل .

وتُشير الرسالةُ أيضًا إلى حِرص النبيِّ ﷺ على دَعوة عِلْية القَوم وزعماء الناس،إذْ إنَّ إسلامهم يعني إسلامَ أقوامهم وأتباعهم، ودخولهم جميعًا في دِين اللَّه ورحمته ورِضوانه.والنبيُّ ﷺ لَم يَسْعَ لمُخاطبة الحُكَّام والقادة والملوك من أجل مصلحة شخصية، أو وجاهة اجتماعية،أو إبراز نَفْسه في عالم الرِّياء والشُّهرة والمجتمعات المخملية الراقية ، لأنه ﷺ كان ينظر إلى نعيم الآخرة الباقي ، ولا ينخدع بِحُطام الدنيا الفاني .

والنصارى غرقوا في عقائد التَّثليث الباطلة ، ورفضوا شريعة المسيح القائمة على تَوحيد اللَّه ، وعبادته وَحْدَه ، بلا شريك ، ولا نِد ، ولا صاحبة ، ولا ولد . وسببُ كفرهم وضلالهم هو الإنجيل البشري المُحرَّف ، الذي تغلغلت فيه العقائد الوثنية ، والانحرافات الدينية والفكرية والأخلاقية .

قال حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ١٧٥) : ((الإنجيل : كتاب أنزله اللَّهُ سُبحانَه وتعالى ، على عيسى بن مريم عليهما السلام . وذكر في (المواهب) : أنه أُنزِل باللغة السِّريانية ، وقُرِئ على سبع عشرة لغة. وفي (البخاري) في قصة وَرَقَة بن نَوْفَل ما يدل على أنه كان بالعِبرانية. وعن وَهْب بن مُنبِّه : أُنزِل الإنجيل على عيسى عليه السلام لثلاث عشرة ليلة من رمضان ، على ما في (الكشَّاف). وقِيل : لثمان عشرة ليلة خَلَتْ مِنه ، بعد الزَّبُور بألف عام ومائتي عام . واخْتُلِف في أنَّه هل نَسَخَ حُكْمَ التوراة ؟ . فقِيل : إن عيسى عليه السلام لَم يكن صاحب شريعة لمَّا جاء لتبديل شرع موسى عليه السلام بل لتكميله . لكن في (أنوار التنزيل) ما يدل على أن شَرْعه ناسخ لشرع موسى عليه السلام ، لأنَّه أتى بما لَم يأته موسى عليه السلام . وأول الإنجيل: (باسم الأب والابن ... إلخ) . والذي بأيديهم : إنما هو سيرة المسيح ، جمعها أربعة ، وهُم : مَتَّى ، ومَرْقُس ، ولُوقَا ، ويُوحَنَّا . قال صاحب (تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب) : وهؤلاء الذين أفسدوا دِينَ عيسى عليه السلام ، وزادوا ونقصوا ، ولَيسوا مِن الحواريين الذين أثنى اللَّهُ تعالى عليهم في القرآن . أمَّا مَتَّى : فما أدركَ عيسى ولا رآه قَط ، إلا في العام الذي رفعه اللَّهُ تعالى إليه . وبعد أن رُفِعَ، كَتب مَتَّى الإنجيلَ بِخَطِّه في مدينة الإسكندرية ، وأخبر فيه بمولد عيسى عليه السلام وسيرته ، وغَيره لَم يَذكر ما ذَكَرَه . وأمَّا مَرْقُس فما رأى عيسى عليه السلام قَط ، وكان تَنَصُّره بعد الرَّفْع ، وتَنَصَّرَ على يد بترو الحواري ، وأخذ عنه الإنجيل بمدينة رومة ، وخالف

أصحابه الثلاثة في مسائل جَمّة . وأمَّا لُوقَا فلم يُدرِك عيسى عليه السلام ، ولا رآه البَتَّة ، وإنما تَنَصَّرَ بَعْدَه على يد بُولُس ، مُعرَّب : باولوس الإسرائيلي ، وهو أيضًا لَم يُدرك عيسى عليه السلام ، بل تَنَصَّرَ على يد أنانيا ... . وأمَّا يُوحَنَّا [٩٩]، فهو ابن خالة عيسى عليه السلام ، وزعم النصارى أن عيسى عليه السلام حَضَرَ عُرْسَ يُوحَنَّا ، وأراه تَحَوُّلَ الماء خمرًا ، وهو أول معجزة ظهرت له ، فلمَّا رآه ، ترك زوجته وتبع عيسى عليه السلام في دِينه وسياحته ، وهو الرابع مِمَّن كتب الإنجيل ، لكنه كَتبه بالقلم اليوناني في مدينة أفَسُوس . وهؤلاء الأربعة الذين جعلوا الإنجيل أربعة وحرَّفوها وبدَّلوها وكذبوا فيها . وأمَّا الذي جاء به عيسى عليه السلام إلا إنجيل واحد ، لا تدافُع فيه ، ولا اختلاف ، وهؤلاء كذبوا على اللَّه سُبحانَه وتعالى، وعلى نَبِيِّه عيسى عليه السلام ، وما هو معلوم ، والنصارى على إنكاره . فأمَّا كذبهم : فمنه ما قال مَرْقُس في الفصل الأول من إنجيله : أن في كتاب إشَعْيا النبيِّ عن اللَّه تعالى يقول : إنِّي بَعَثْتُ مَلِكي أمام وجهك ، يريد وجه عيسى عليه السلام . وهذا الكلام لا يوجد في كتاب إشَعْيا ، وإنما هو في كتب ملخيا النبيِّ . ومنه ما حكى مَتَّى في الفصل الأول ، بل الثالث عشر من إنجيله : أن عيسى عليه السلام قال : يكون جسدي في بطن الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال بعد مَوْتي ، كما لبث يُونُس في بطن الحوت ، وهو من صريح الكذب ، لأنه وافق أصحابه الثلاثة : أن عيسى عليه السلام مات في الساعة السادسة من يوم الجُمُعة ، ودُفِن في أول ساعة من ليلة السبت ، وقام من بين الموتى في صبيحة يوم الأحد ، فَبَقِيَ في بطن الأرض يومًا واحدًا وليلتين . ولا شك في كذب هؤلاء الذين كتبوا الأناجيل في هذه المسألة ، لأن عيسى عليه السلام لَم يُخبِر عن نَفْسه، ولا أخبرَ اللَّهُ سُبحانَه وتعالى عنه في إنجيله بأنه يُقتَل ويُدفَن ، بل هو كما أخبر اللَّهُ سُبحانَه وتعالى في كتابه العزيز أنهم : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُم وَإنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنهُ مَا لَهُم بِهِ مِن عِلْمٍ إلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إلَيهِ ﴾ . فلعنة اللَّه على الكاذبين . ولذلك اختلف النصارى بعده وتفرَّقوا فِرَقًا ، وعقائدهم كُلها كذب وكفر وحماقة عظيمة . وفي أناجيلهم من تبكيتهم : ما هو

٩٩ كان الرأي المعتمد في العصور الماضية ، هو اعتبار يُوحَنَّا (صاحب إنجيل يُوحَنَّا) ابن خالة عيسى عليه السلام.وهذا الإنجيلُ المزوَّر نَسَبَتْهُ الكنيسةُ إلى يُوحَنَّا بن زَبَدي. وبحسَب التقليد النصراني(المسيحي) فإنه كاتب إنجيل يُوحَنَّا ، لذلك يُلقَّب بالإنجيلي ، وكاتب الرسائل الثلاث التي تُنسَب إليه ، وأخيرًا كاتب سِفْر الرُّؤيا .

مذكور في (تحفة الأريب) . وأيضًا القواعد التي لا يرغب عنها منهم إلا القليل ، وعليها إجماع جمعهم الغفير ، وهي التغطيس ، والإيمان بالتثليث ، واعتقاد التحام أُقنوم الابن في بطن مَرْيم ، والإيمان بالفطيرة ، والإقرار بجميع الذنوب للقِسِّيس ، وهي خمس قواعد بُنِيَت النصرانية عليها ، كلها كذب وفساد وجهل ، عَصَمَنا اللَّهُ تعالى عنها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ لَيسوا سَواءً مِن أهل الكتاب أُمَّةٌ قائمة يتلون آياتِ اللَّهِ آناءَ الليل وهُم يَسجُدون ﴾ [آل عِمران : ١١٣] .

إنَّ هناك فِئةً مِن أهل الكتاب ، يُؤْمنون باللَّه تعالى ، ولا يُشرِكون بِه ، وهُم سائرون على الصراط المستقيم (طريق الأنبياء) ، ولا يَنْحَرِفون عنه . وهؤلاء المؤمنون يَقومون الليلَ ويَتلون القُرآنَ في صَلَوَاتهم . وقد أشادَ بِهم القُرآنُ ، وأعطاهم حَقَّهم ، وخَلَّدَ ذِكْرَهم إلى الأبد . وهنا تَبْرُز منهجيةُ الإنصاف في القُرآن بِلا مُجامَلات أو محسوبيات .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٨٠) : ((يَتْلُونَ القُرآنَ في تَهَجُّدِهم . عَبَّرَ عَنهُ بالتِّلاوة في ساعات الليل معَ السُّجود ، لِيَكونَ أبْيَنَ وأبلغَ في المدح . وقِيل : المراد صلاة العِشاء ، لأن أهل الكتاب لَيُصَلُّونها)) .

إنَّ أهلَ الكتاب والأُمَّةَ المُحمَّدية الإسلامية لَيسوا سَواء ، فلا يمكن المساواة بينهم ، لأن الإيمان والكفر ضِدَّان لا يجتمعان . والأُمَّةُ المُحمَّدية الإسلامية هي الحاملة للشريعة السماوية المحفوظة ، وإذا ذَهَبَتْ فإن اللَّه تعالى لن يُعبَد في الأرض ، لذلك هي مستمرة وثابتة حتى يوم القيامة رغم حالات الضعف التي تمر فيها بين الحِين والآخَر .

وروى ابن حِبَّان في صحيحه (٤/ ٣٩٧) : عن ابن مسعود _ رضي اللَّهُ عنه _ قال : أَخَّرَ رسولُ اللَّه ﷺ صلاةَ العِشاء ، ثم خرج إلى المسجد والناس ينتظرون الصلاة ، فقال : ((أمَا إنَّه ليس من أهل الأديان أحَدٌ يَذكر اللَّهَ هذه الساعة غَيْرُكم)) ، ثم نزلت عليه : ﴿ لَيسوا سواءً مِن أهل الكتاب أُمَّةٌ قائمة يتلون آياتِ اللَّه آناءَ الليل وهم يسجدون ﴾ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٤١و٤٤٢) : ((في سبب نزولها قَوْلان : أحدهما أن النبيَّ ﷺ احتبسَ عن صلاة العشاء لَيْلةً حتى ذهب ثُلُثُ الليل ، ثم جاء فبشَّرهم ، فقال : " إنه لا يُصلِّي هذه الصلاةَ أحَدٌ من أهل الكتاب " ، فَنَزلت هذه الآية، قاله ابن مسعود . والثاني أنه لَمَّا أسلمَ ابنُ سَلَام في جماعة من اليهود، قال أحبارُهم: ما آمَنَ بمحمد إلا أشرارُنا، فَنَزلت هذه الآية، قاله ابن عباس ومُقاتِل)) .

وعن ابن عباس ـ رضي اللَّهُ عنهما ـ قال : لَمَّا أسْلَمَ عبد اللَّه بن سَلَام ، وثَعْلَبة بن شُعْبة ، وأسد بن عُبَيد ، ومَن أسلمَ مِن يهود ، فآمَنوا وصَدَّقوا ورَغِبوا في الإسلام ، قالت أحبارُ يهودٍ أهلُ الكفر : ما آمَنَ بمحمد ولا تَبِعَه إلا شِرارُنا ، ولَوْ كانوا مِن خِيارنا ما تَرَكوا دِينَ آبائهم ، فأنزلَ اللَّهُ ـعَزَّ وجَلَّـ في ذلك مِن قَوْلِهم:﴿ليسوا سواءً مِن أهل الكتاب﴾ إلى قَوْله:﴿ مِنَ الصالحين ﴾ [100].

أهلُ الكتاب مُتفاوِتون ، ولَيْسوا في إطار واحد، ففيهم المؤمن والكافر، والبَر والفاجر. فَمِن أهل الكتاب مَن هو مُتمسِّك بالشريعة الإلهية ، يُطبِّق التعاليم الدينية ، ولا ينحرف عنها . وهذه الفئةُ تتلو آيات اللَّه تعالى ، وتقوم الليلَ ، وتُكثِر التَّهَجُّدَ .

و﴿ ليسوا سواءً ﴾ جُملة مُسْتَأنَفَة لتوضيح الصِّفات الطَّيبة لمؤمني أهل الكتاب . ولا شَكَّ أن الإشادة بمؤمني أهل الكتاب ، وذِكْر محاسنهم ، وتخليد فضائلهم ، مِن شأنه تشجيع الآخرين على اعتناق الإسلام الذي يَرْفَع الناسَ .

والتفاوُتُ سُنَّةٌ إلهية ثابتة. فالناس مختلفون في قدراتهم العقلية، وإمكانياتهم الجسمية، ومستواهم المادي . وأهلُ الكتاب يَجري عليهم ما يَجري على الآخرين ، فلا يمكن وضعهم في سَلَّة واحدة. ففيهم المؤمن والكافر، والصالح والفاسد. والقرآنُ الكريم مُنصِفٌ في أحكامه ، فهو يُبرِز مكانةَ أهل الخَير ويُشيد بهم ، ويُخلِّد أفعالهم الطَّيبة ، ويَذكر أهلَ الشَّر ويَذُمُّهم ويَفضح باطلَهم .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٣٩٧) : ((ليس فريقا أهلِ الكتاب أهل الإيمان منهم والكفر سواء ، يعني بذلك : أنهم غير متساوين ، يقول : لَيسوا متعادلين ولكنهم مُتفاوِتون في الصلاح والفساد ، والخير والشر)) .

أمرَ اللَّهُ العلماءَ بأن يأمروا بالمعروف ، ويَنْهَوْا عن المُنكَر ، وألا يقفوا صامتين مُتفرجين . ويجب عليهم إرشاد الناس إلى الحق ، وتوجيههم إلى الصواب ، وعدم التعامل بسلبية مع الأحداث، وإنما التفاعل معها وإخضاعها للشرعِ الحنيف .

وهُرُوبُ قادة الفكر والرأي إلى قلاعهم البعيدة وأبراجهم العاجية ، سيجعل من المجتمع قاعدةً للجُهَّال، ومُستنقعًا للحمقى ، وتَكَتُّلًا للرَّعاع الفوضويين ، الذين لا يُدرِكون أبعادَ الأمور ، ولا يَعرفون كيف يتعاملون مع تفاصيل الحياة ، مِمَّا يُنذِر بانهيار المجتمع على جميع الأصعدة .

---

١٠٠ رواه الطبراني في الكبير (٢/ ٨٧) . وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٥٠) : ((رجاله ثقات)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وإنَّ مِنْ أهْلِ الكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ باللَّهِ وما أُنزِلَ إلَيْكُمْ وما أُنزِلَ إلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للَّهِ لا يَشْتَرُونَ بآياتِ اللَّهِ ثَمَنًا قليلًا أُولئكَ لَهُمْ أجْرُهُمْ عِندَ ربِّهِم إنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ [آل عِمران : ١٩٩] .

هذه الآية إخبار عن إيمان بعض أهل الكتاب . مِن اليهود والنصارى فريق يؤمنون باللَّه حَقَّ الإيمان ، ويؤمنون بما أُنزِلَ إلَيكم ، وهو القُرآن ، وبما أُنزِلَ إلَيهم وهو التَّوراة والإنجيل ، أي : يؤمنون بما أُنزِلَ على مُحَمَّد ﷺ معَ ما هُم مؤمنون به مِن الكُتُب المُتَقَدِّمَة ، كعبد اللَّه بن سَلَام وأصحابه ، والنَّجَاشي وأتباعه ، مُطيعين خاضعين للَّه ، مُتَذَلِّلِين بَين يَدَيه ، لا يُحرِّفون وَصْفَ مُحَمَّد ﷺ ولا يَكتمون أحكامَ الشريعة الموجودة في كُتبهم ، كما فعل الأحبار والرُّهبان ، مِن أجل الحُصول على مصالح شخصية زائلة ومنافع مادية تافهة ، وخَوْفًا على الرئاسة والزعامة والمناصب.

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٥٥٩) : ((﴿ لا يَشْتَرُونَ بآياتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَليلًا ﴾ ، يقول : لا يُحرِّفون ما أُنزِلَ إليهم في كُتُبه مِن نَعْت مُحَمَّد ﷺ فَيُبَدِّلُونه ، ولا غَير ذلك مِن أحكامه وحُجَجه فيه ، لِعَرَض مِن الدُّنيا خسيس ، يُعْطَوْنَه على ذلك التبديل ، وابتغاء الرِّياسة على الجُهَّال ، ولكن ينقادون للحق، فَيَعْمَلُون بما أمَرَهم اللَّهُ به فِيما أُنزِلَ إلَيهم مِن كُتُبه، ويَنْتَهُون عمَّا نَهَاهم عنه فيها، ويُؤْثِرُون أمرَ اللَّه تعالى على هَوَى أنفسهم)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٨٨) : ((﴿ لا يَشْتَرُونَ بآياتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَليلًا ﴾ ، أي : لا يَكتمون ما بأيديهم مِن البِشَارَات بِمُحَمَّد ﷺ ، وذِكْر صِفته ونَعْته ومَبْعَثه وصِفَة أُمَّته ، وهؤلاء هُم خَيْرَةُ أهلِ الكتاب وصَفْوَتهم ، سَوَاءٌ كانوا هُودًا أوْ نصارى)) .

أُولئك لهم أجر إيمانهم وثواب أعمالهم يُعْطَوْنَهُ مُضَاعَفًا ، أي : يُؤْتَوْنَهُ مَرَّتَيْن ، إذْ إنَّ الرَّجُل مِن أهل الكتاب إذا آمنَ بِنَبِيِّه (مُوسى أوْ عيسى) ، ثُمَّ أدركَ النبيَّ مُحَمَّدًا ﷺ ، فآمن به ، واتَّبَعَه، وصَدَّقَه ، فله أجْرَان [١٠١] .

---

١٠١ قال النبيَّ ﷺ : ((ثلاثةٌ يُؤْتَوْنَ أجْرَهُم مَرَّتَيْن : رَجُلٌ مِن أهل الكتاب آمنَ بِنَبِيِّه ، وأدركَ النبيَّ ﷺ ، فآمنَ به ، واتَّبَعَه ، وصَدَّقَه ، فَلَهُ أجْرَان ، ...))[رواه مسلم (١/ ١٣٤) واللفظ له ، والبخاري (٣/ ١٠٩٦)]. هذا الرَّجُل من أهل الكتاب (اليهود والنصارى) ، آمنَ بِنَبِيِّه الذي أُرْسِلَ إليه سابقًا ، وهو مُوسى أوْ عيسى عليهما الصلاة والسلام . وآمنَ بمُحَمَّد ﷺ عندما بلغته دَعوته ، فله أجْرَان ، أجر على إيمانه بموسى أوْ عيسى، وأجر على إيمانه بمُحَمَّد ﷺ. وهذا يدلُّ على رحمة اللَّه بعباده، وإحسانه إليهم ،=

إنَّ حِسَابَ اللَّهِ سريعٌ ، لِعِلْمِه بِكُلِّ شيء ، ولا يَخفى عليه شيء ، ويَعْلَم ما لِكُلِّ واحد مِن الثواب والعِقاب . وسُرعةُ الحساب تَستدعي سُرعةَ الجَزَاء . وقد ورد أنَّ اللَّه يُحَاسِب الخَلْقَ في قَدْر نَصْف نهار مِن أيَّام الدُّنيا .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٥٥٩) : ((وسُرعة حِسابه تعالى ذِكْرُه : أنَّه لا يَخفى عليه شيء من أعمالهم قَبل أن يَعْمَلُوها وبَعْدما عَمِلوها ، فلا حاجة به إلى إحصاء عدد ذلك فيقع في الإحصاء إبطاء)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (١/ ٥٣٢ و٥٣٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ وإنَّ مِنْ أهْلِ الكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ باللَّهِ ﴾ ، اختَلَفُوا فِيمَن نزلت على أربعة أقوال: أحدها أنَّهَا نَزلت في النَّجَاشي، لأنَّه لمَّا مات صَلَّى عليه النبيُّ ﷺ ، فقال قائل : يُصَلِّي على هذا العِلْج النَّصْرَاني وهو في أرضه؟!، فنزلت هذه الآية ، هذا قول جابر بن عبد اللَّه وابن عباس وأنس . وقال الحَسَن وقَتَادة : فيه وفي أصحابه . والثاني أنها نزلت في مُؤمني أهل الكتاب مِن اليهود والنصارى ، روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال مُجاهد . والثالث في عبد اللَّه بن سَلَام وأصحابه ، قاله ابن جُرَيج وابن زيد ومُقاتل . والرابع في أربعين مِن أهل نَجْرَان ، وثلاثين مِن الحَبَشَة ، وثمانية مِن الرُّوم ، كانوا على دِين عِيسى ، فآمنوا بالنبيِّ ﷺ ، قاله عطاء . قَوله تعالى : ﴿ وما أُنزِلَ إلَيْكُمْ ﴾ يعني : القُرآن ، ﴿ وما أُنزِلَ إلَيْهِمْ ﴾ يعني : كتابهم ، والخاشع : الذليل . ﴿ لا يَشْتَرُونَ بآياتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَليلًا ﴾ ، أي : عَرَضًا مِن الدُّنيا كما فَعَلَ رُؤساءُ اليهود)) .

وعن أنس قال : لمَّا جاء نَعْيُ النَّجَاشي ، قال رسول اللَّه ﷺ : ((صَلُّوا عَلَيه)) ، قالوا : يا رسول اللَّه ، نُصَلِّي على عَبْدٍ حَبَشِيٍّ ؟ ، فأنزلَ اللَّهُ : ﴿ وإنَّ مِنْ أهْلِ الكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ باللَّهِ وما أُنزِلَ إلَيْكُمْ ﴾ [١٠٢].

= وفضله عليهم ، حيث ضاعفَ الأجورَ على الأعمال . وقد كان النبيُّ ﷺ يحثُّ الناسَ على فِعل الطاعات، وأنواعِ البِر ببيان أجور الأعمال الصالحة وتوضيح أنواعها . وفي الحديث : عظيم فضل اللَّه وكَرَمه على الْمُطيعين ، وفيه دليل على أنَّ مَن أحسنَ في مَعْنَيَيْن مِن أيِّ فِعل كان مِن أفعال البِر ، فله أجره مَرَّتَيْن ، واللَّهُ يُضَاعِف لِمَن يشاء .

١٠٢ رواه الطبراني في الأوسط (٥/ ٢٢٣) . وقال الهيثمي في المجمع (٣ / ١٤٩) : ((رواه البَزَّار ، والطبراني في الأوسط ، ورجال الطبراني ثِقَات)) .

وعن أبي هُرَيرة _ رضي اللَّهُ عنه _ أنَّ رسول اللَّه ﷺ نَعَى لهم النَّجَاشِيَّ صَاحِبَ الحَبَشَةِ ، في اليَوْمِ الذي ماتَ فيه ، وقال : ((اسْتَغْفِرُوا لأخيكم)) [١٠٣].

أخبرَ النبيُّ ﷺ أصحابَه ، وأعلمهم بِمَوت النَّجَاشيِّ ، وهو لقب لِكُلِّ مَلِك مِن مُلوك الحَبَشَة، واسم هذا النجاشي هو أَصْحَمَة بن أَبْجَر . وقد أخبرهم النبيُّ ﷺ بِمَوته في اليوم الذي مات فيه ، معَ بُعْد ما بين الحَبَشَة والمدينة . والإخبارُ بهذا الأمر الغَيبي مِن مُعجزاته ﷺ ودلائل نُبُوَّته ، ثُمَّ أمرَهم بالدُّعاء بأن يَغفِر اللَّهُ له ، وهذا يُشير إلى إسلام النجاشي ومَوته على الإسلام .

وعن أبي هريرة أنَّ رسول اللَّه ﷺ نعى للناس النَّجَاشِيَّ في اليوم الذي مات فيه ، فَخَرَجَ بهم إلى المُصَلَّى ، وكَبَّرَ أربعَ تَكبيرات [١٠٤].

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ٢١) : ((فيه إثبات الصَّلاة على المَيِّت ، وأجْمَعُوا على أنَّها فَرْض كِفاية ، والصحيح عِند أصحابنا أنَّ فَرْضها يَسقط بصلاة رَجُل واحد ، وقِيل : يُشْتَرَط اثنان ، وقِيل : ثلاثة ، وقِيل : أربعة . وفيه أنَّ تَكبيرات الجِنازة أربع ، وهو مذهبنا ومذهب الجمهور ، وفيه دليل للشافعي ومُوافقيه في الصَّلاة على المَيِّت الغائب ، وفيه مُعجِزة ظاهرة لرسول اللَّه ﷺ لإعلامه بِمَوت النَّجاشي ، وهو في الحَبَشَة ، في اليوم الذي مات فيه ، وفيه استحباب الإعلام بالمَيِّت لا على صُورة نَعْي الجاهلية ، بَلْ مُجَرَّد إعلام الصلاة عليه ، وتَشييعه ، وقضاء حَقِّه في ذلك . والذي جاء مِن النَّهْي عَن النَّعْي لَيس المُرَاد به هذا ، وإنَّمَا المُرَاد نَعْي الجاهلية المُشتمل على ذِكْر المَفَاخِر وغَيرها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بالحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أنزلَ اللَّهُ ولا تَتَّبِعْ أهواءَهُم عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنكُم شِرْعةً ومِنهاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُم أُمَّةً واحدةً وَلَكِن لِيَبْلُوَكُم في ما آتاكُم فاسْتَبِقُوا الخَيْراتِ إلى اللَّهِ مَرْجِعُكُم جَميعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُم فِيهِ تَخْتَلِفُون ﴾ [المائدة : ٤٨] .

يُخَاطِب اللَّهُ النبيَّ ﷺ : وأنزَلْنَا إِلَيْكَ يا مُحَمَّد القُرآنَ بالعَدْل والصِّدق ، فلا شَكَّ فِيه ولا شُبهة، والقُرآنُ كلامُ اللَّه حَقًّا وصِدقًا ، يُصدِّق الكُتبَ السماوية السابقة ، وأمينًا وشاهدًا وحاكمًا عليها . والقرآنُ هو الرَّقيبُ على الكتب السماوية السابقة ، ويَحكُم عَلَيها .

---

١٠٣ متفق عليه . البخاري (٣/ ١٤٠٨) برقم (٣٦٦٧) ، ومسلم (٢/ ٦٥٦) برقم (٩٥١) .

١٠٤ متفق عليه . مسلم (٢/ ٦٥٦) برقم (٩٥١)، والبخاري (١/ ٤٤٧) برقم (١٢٦٨) .

إنَّ القُرآن هُوَ المرجعيةُ العُليا،وهُوَ الحَكَمُ الحاكِمُ الذي يَحْكُمُ ، ولا يُحْكَمُ عَلَيه ، والنبيُّ مُحَمَّد ﷺ مُؤْتَمَن على القُرآن . وما وَافقَ القُرآنَ كانَ حقًّا ، ومَا خَالَفَهُ كانَ باطلًا . وذلك لأن القرآن هو الكتاب السماويُّ الوحيد المحفوظ من التغيير ، زيادةً أوْ نُقْصانًا ، وهو الكتابُ السماويُّ الوحيد الباقي إلى يوم القيامة ، حيث يَشتمل على الأمر والنَّهْي ، والوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب، والبِشارة والنِّذارة ، وأحوال الدنيا والآخرة ، يَدعو إلى كُلِّ خَير ، ويَنهى عَن كُلِّ شَر . وبِفَضْلِ القُرآنِ الكريم ،كانت الشريعةُ المُحمَّديةُ الإسلاميةُ ناسخةً لِمَا قَبْلَها .

وصدقَ القائل :

إنَّ الكِتابَ مُهَيْمِنٌ لِنَبِيِّنا   والحقُّ يَعْرِفُهُ ذَوُو الألبابِ

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٦٠٦) : ((﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ ، يقول : أنزَلْنا الكتابَ الذي أنزَلْناه إلَيك يا مُحَمَّد ، مُصَدِّقًا للكُتب قَبْلَه ، وشَهيدًا عَلَيها أنها حَق مِن عِندِ اللَّه ، أمينًا عَلَيها ، حَافظًا لها)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٩٠) : ((فَإنَّ اسم المُهَيْمِن يَتضمَّن هذا كُلَّه ، فهو أمين وشاهد وحاكم على كُلِّ كتاب قَبْله . جَعَلَ اللَّهُ هذا الكتابَ العظيم الذي أنزله آخِرَ الكتب ، وخَاتِمَها ، وأشملَها ، وأعظمَها ، وأكملَها ، حيث جَمع فيه مَحاسنَ ما قَبْله ، وزَاده من الكمالات ما ليس في غَيْره ، فلهذا جَعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عَلَيها كُلِّها ، وتَكَفَّلَ تعالى بِحِفْظه بِنَفْسِه ، فقال تعالى : ﴿ إنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وإنَّا لَهُ لَحَافِظُون ﴾ [الحِجْر : ٩])) .

﴿ فاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أنزلَ اللَّهُ ﴾ . فاحْكُم يا مُحَمَّد بين الناس بأحكامِ اللَّه التي أنزلها في القُرآن، فهو الكتابُ الخالدُ الذي يشتمل على الأحكام النافعة ، والتعاليم الراقية ، ومصالح العباد في الدنيا والآخِرة ، وهو كتابٌ سماويٌّ مَعصوم وكامل ، لا خطأ فِيه ، ولا زِيادة فِيه ، ولا نُقصان .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٩٠) : ((أي : فاحْكُم يا مُحَمَّد بين الناس عَرَبِهم وعَجَمِهم ، أُمِّيهم وكِتَابِيِّهم ، بما أنزلَ اللَّهُ إلَيك في هذا الكتاب العظيم ، وبِما قَرَّره لك مِن حُكْم مَن كان قَبْلك من الأنبياء ، ولَم يَنْسَخْهُ في شَرْعك ، هكذا وَجَّهه ابن جرير بمعناه)) .

﴿ ولا تَتَّبِعْ أهواءَهُم عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحقِّ ﴾ . لا تَعمل بأهواء الكافرين وأفكارهم المُنحرِفة . والمعنى : لا تَترُك أحكامَ اللَّه وهي الحق الواضح ، وتَعمل بأحكام الكافرين الباطلة النابعة من الأهواء الشخصية والجهل والعِناد والمصالح المادية الضَّيِّقة . لا تَتَّبع أهواءهم مائلًا عن الحق .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٩٠) : ((وقَوْلُه : ﴿ ولا تَتَّبِعْ أهواءَهُم ﴾ أي : آراءَهم التي اصْطَلَحوا عَلَيها ، وتركوا بسببها ما أنزلَ اللَّهُ على رُسُله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولا تَتَّبِعْ أهواءَهُم عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحقِّ ﴾ ، أي : لا تنصرف عن الحق الذي أمَرَكَ اللَّهُ به إلى أهواء هؤلاء الجَهَلة الأشقياء)) .

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنكُم شِرْعةً ومِنهاجًا ﴾ [١٠٥]. لقد بَعَثَ اللَّهُ الرُّسُلَ بشرائع مُختلفة لاختلاف الزمان والمكان وطبائع الناس، وهذه الشرائع مُختلفة في الفروع، ومُتَّفقة في الأصول كَتَوحيد اللَّه ، والبعث ، والجنة ، والنار . وقد يَكون الشَّيء في هذه الشريعة حرامًا ، ثُمَّ يُصبح في الشريعة الأخرى حلالًا ، وبالعكس. وهذا الأمر يَجري على مُقتضى حِكمة اللَّه البليغة. والشريعةُ المُحمَّديةُ الإسلاميةُ قَد نَسَخَتْ كُلَّ الشرائع قَبْلها . ولا شِرعة ولا مِنهاج إلا ما جاء بِه مُحَمَّد ﷺ . والآيةُ دليلٌ على أنَّ المسلمين غَير مُتعبَّدين بشرائع الأنبياء السابقين .

إنَّ الآية تتحدَّث عن اختلاف الأُمم والشعوب دِينيًّا . واللَّهُ جَعَلَ لِكُلِّ أُمَّةٍ شَريعةً ومِنهاجًا . والشريعةُ هي ما شَرَعَ اللَّهُ لعباده من الدِّين . وهذه البُنية الدينية تتناسب مع إمكانيات كُل أُمّة وثقافتها وطبيعتها الاجتماعية . ولا شَكَّ أن الأُمم مُتفاوِتة في الإمكانيات الجِسمية والعقلية ، ومُختلفة في القُدرات الرُّوحية والمادية . وقال القرطبي في تفسيره (٦/ ١٩٨) : ((يدلُّ على عدم التعلق بشرائع الأوَّلين . الشِّرْعة والشريعة الطريقة الظاهرة التي يُتوصَّل بها إلى النجاة)) .

---

١٠٥ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٧٢) : ((قال مجاهد : الشِّرْعة السُّنَّة ، والمنهاج الطريق . وقال ابن قُتَيبة : الشِّرْعة والشريعة واحد ، والمنهاج الطريق الواضح . فَإنْ قِيل : كيف نَسَقَ المنهاجَ على الشِّرْعة ، وكلاهما بمعنى واحد . فعَنه جوابان : أحدهما أن بينهما فَرْقًا من وَجْهين : أحدهما أن الشِّرْعة ابتداء الطريق ، والمنهاج الطريق المستمر ، قاله الْمُبَرِّد . والثاني أن الشِّرْعة الطريق الذي ربما كان واضحًا وربما كان غير واضح ، والمنهاج الطريق الذي لا يكون إلا واضحًا ، ذَكَره ابن الأنباري. فلمَّا وَقَعَ الاختلاف بين الشِّرْعة والمنهاج حَسُنَ نَسْق أحدهما على الآخر . والثاني أنَّ الشِّرْعة والمنهاج بمعنى واحد ، وإنما نَسَقَ أحدهما على الآخر لاختلاف اللفظَيْن . قال الحُطَيئة : ألا حَبَّذا هِند وأرض بها هند ... وهند أتى مِن دُونها النأي والبُعْدُ. فَنَسَقَ البُعدَ على النأي لَمَّاخالفه في اللفظ ، وإنْ كان مُوافقًا له في المعنى ، ذَكَره ابن الأنباري . وأجاب عنه أرباب القَوْل الأول ، فقالوا : النأي كُلُّ ما قَلَّ بُعْدُه أوْ كَثُرَ كأنه الْمُفَارَقة ، والبُعْدُ إنما يُسْتَعْمَل فيما كَثُرَتْ مسافة مُفارَقته)) .

وأُمَّةُ مُوسىﷺ لها شريعة، وأُمَّةُ عِيسىﷺ لها شريعة، وأُمَّةُ مُحَمَّدﷺ لها شريعة. أمَّا الدِّينُ فواحد. لقد جعل اللَّهُ التوراةَ لأهْلها ، والإنجيلَ لأهْله ، والقُرآنَ لأهْله ، معَ أنَّ الأصل واحد ، وهو توحيد اللَّه تعالى . والقُرآنُ آخِرُ الكتب السماوية نُزُولًا ، وهو ناسخٌ لِمَا قَبْلَه . فالشَّرائعُ مُتعدِّدة ، لكنَّ الدِّينَ واحدٌ وهو الإسلام (دِين جميع الأنبياء بلا استثناء) . قال اللهُ تعالى : ﴿ إن الدِّين عند اللَّه الإسلام ﴾ [آل عِمران : ١٩] .

وهذا يُشير إلى وَحْدانية الخالق تعالى ، ووحدانية الدِّين الصحيح (الإسلام) . وما سِواه هي إسهامات بشرية تمَّ تجميعها على شكل أديان في الشرق والغرب، وهذه الأديان البشرية الأرضية الوضعية كالنصرانية واليهودية والبوذية والهندوسية ... إلخ ، هي تياراتٌ فكرية وفلسفية اختلط فيها الحابل بالنابل دون وُجهة صحيحة لأن البُوصلة مفقودة . ومِن الخطأ الشَّنيع استخدام عبارة " الأديان السماوية". فالإسلام هو الدِّينُ السماوي الوحيد . وباقي الأديان أرضية وَضْعية . أمَّا الشَّرائع فمتعددة ومختلفة باختلاف الزمان والمكان. قال اللَّهُ تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ . فهناك شرائع سماوية ، وكُتب سماوية ، ولكن لا توجد أديان سماوية .

وعن أبي هريرة _ رضي اللَّهُ عنه _ قال : قال رسولُ اللَّه ﷺ : ((أنا أَوْلَى الناس بعيسى ابنِ مَرْيَمَ في الدنيا والآخرة ، والأنبياءُ إخْوَةٌ لِعَلَّات ، أُمَّهَاتُهُم شَتَّى ، ودِينهم واحد)) [١٠٦].

إنَّ النبيَّ مُحَمَّدًا ﷺ أخصُّ الناس بالنبيِّ عِيسى ﷺ، وأقربهم إلَيه،لأنَّ عيسى بشَّر بِنُبُوَّة مُحَمَّد، كما أخبرَ اللَّهُ في القُرآن الكريم: ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصَّف: ٦]، فلَم يكن بينهما نبيٌّ مِن الأنبياء . ووضَّح النبيُّ مُحَمَّد ﷺ أنَّ الأنبياء مِثْل أولاد عَلَّات ، وهُم الإخوة لأب واحد مِن أُمَّهَات مُختلفات . والمعنى أنَّهُم مُتَّفِقُون فيما يتعلَّق بالاعتقاديَّات (أُصُول

١٠٦ متفق عليه.واللفظ للبخاري(٣/ ١٢٧٠)برقم(٣٢٥٩).ومسلم (٤/ ١٨٣٧) برقم (٢٣٦٥). قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١١٩/١٥):((قال العلماء: أولاد العَلَّات_ بفتح العَين الْمُهْمَلَة وتشديد اللام _ هُم الإخوة لأب مِن أُمَّهَات شَتَّى ، وأمَّا الإخوة مِن الأبَوَيْن ، فَيُقَال لهم : أولاد الأعيان)) اهـ . وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٨٩) : ((هو أَوْلى الناس بعيسى، وذاك من جهة قوة الاقتداء به، وهذا من جهة قوة قُرب العهد به... والعَلَّات_ بفتح الْمُهْمَلَة _ الضرائر ، وأصله أن مَن تزوَّج امرأةً ثم تزوَّج أخرى كأنه عَلَّ مِنها ، والعَلَلُ الشُّرب بعد الشُّرب. وأولاد العَلَّات الإخوة من الأب وأمهاتهم شتى ...ومعنى الحديث: أن أصل دِينهم واحد، وهو التوحيد، وإن اختلفت فروع الشرائع)) .

الأديان) ، كالتَّوحيد ، والإيمان ، مُختلِفون فِيما يتعلَّق بالعمليَّات ، وهي الفِقْهِيَّات ، كما أنَّ أولاد العَلَّات أبوهم واحد ، وإنْ كانت أُمَّهاتهم شَتَّى . وهذا يدلُّ على أنَّ أنبياء اللَّه تعالى وإن اختلفت شرائعُهم ، إلا إنَّهُم إخوة في الدِّين ، فَدِين اللَّه واحد ، وهو الإسلام . والأنبياءُ _ عليهم الصلاة والسلام _ يَنطلقون مِن مَصْدَر واحد (الوَحْي السَّمَاوِيّ) وَفْق منهج واحد (التَّوحيد)، يُبلِّغون دِينًا واحدًا (الإسلام) . وبالتالي فلا تعارض بينهم ولا تضاد . فهم إخوةٌ مُتحابون يتصدَّرون الوُجُودَ البشري، إذْ إنَّهم القادة الذين اختارهم اللَّهُ لإخراج الناس مِن ظُلُمَات الجهل والكُفر إلى نُور العِلْم والإيمان . لكنَّ شرائعهم مختلفة بسبب اختلاف الزمان والمكان وطبيعة الأُمَم المُتَلَقِّيَة للبَلاغ الإلهيِّ المشتمل على التَّرغيب (البِشارة) والتَّرهيب (الإنذار) .

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُم أُمَّةً واحدةً ﴾ . وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَ الأُمَمَ والشعوبَ على دِينٍ واحدٍ (الإسلام)، وشَريعةٍ واحدةٍ غير قابلة للنَّسْخ. والمعنى : لَوْ شاءَ اللَّهُ لأجبرَ الناسَ كُلَّهم على اعتناق الإسلام . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٩٠) : ((هذا خِطاب لجميع الأمم ، وإخبار عن قُدرته تعالى العظيمة التي لَوْ شاء لَجَمَعَ الناسَ كُلَّهم على دِين واحد ، وشريعة واحدة ، لا يُنسَخ شيء منها ، ولكنه تعالى شَرَعَ لكل رسول شريعة على حِدَة ، ثُمَّ نَسَخَها أو بَعْضَها برسالة الآخَر الذي بعده ، حتى نَسخ الجميعَ بِما بَعث به عَبْدَه ورسولَه مُحَمَّدًا ﷺ الذي ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة ، وجَعَله خَاتَمَ الأنبياء كُلِّهم)) .

﴿وَلَكِن لِيَبْلُوَكُم في ما آتاكُم ﴾ . إنَّ الحِكمة الإلهية في جَعْل الشرائع مُختلفة ومُتعدِّدة ، هو اختبارُ الناس وامتحانهم، هَل يُطيعون اللَّهَ أَمْ يَعْصُونه ؟ . لقد أرادَ اللَّهُ اختبارَ الناسَ فيما أعطاهم مِن الكُتب والشرائع .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٣١): ((﴿وَلَكِن لِيَبْلُوَكُم في ما آتاكُم ﴾ مِن الشرائع المختلفة المُناسبة لِكُلِّ عَصْر وقَرْن ، هل تَعْمَلون بها مُذعِنين لها ، مُعتقِدين أنَّ اختلافها بِمُقتضَى الحِكمة الإلهية أَمْ تَزيغون عن الحق وتُفرِّطون في العمل ؟)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٢ / ٣٧٤) : ((فإنْ قِيل : إذا كان المعنى بِقَوله : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنكُم شِرْعةً ومنهاجًا ﴾ ، نَبِيَّنا مُحَمَّدًا مع سائر الأنبياء قَبْلَه ، فَمَن المُخَاطَب بِقَوله: ﴿ لِيَبْلُوَكُم ﴾ ؟ ، فالجواب أنَّه خِطَاب لِنَبِيِّنا ، والمُراد به سائر الأنبياء والأُمَم . قال ابن جرير : والعرب مِن شأنها إذا خَاطَبَتْ غائبًا فأرادت الخبرَ عنه أن تُغلِّب المُخَاطَب، فَتُخرِج الخَبَرَ عَنهما على وجه الخِطَاب)) .

﴿ فاسْتَبِقُوا الخَيْراتِ ﴾. سَارِعوا إلى طاعة اللَّه ، والالتزام بالشريعة المُحمَّدية الإسلامية الناسخة لِمَا قَبْلَها ، وسَابِقوا إلى الأعمال الصالحة قبل الموت . والآيةُ دليلٌ على أن تقديم الواجبات أفضل من تأخيرها .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٣١):((﴿ فاسْتَبِقُوا الخَيْراتِ﴾ فابْتَدِرُوها انتهازًا للفُرصة ، وحِيازةً لِفَضْل السَّبْق والتقدم)) .

﴿ إلى اللَّهِ مَرْجِعُكُم جَميعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُم فِيهِ تَخْتَلِفُون ﴾ . مَصيرُكم أيُّهَا الناسُ إلى اللَّه يوم القيامة ، فَيُخبِرُكم بما اختلفتم فيه مِن أمر الدِّين ، فَيَظهر اليقينُ ، ويَزول الشَّكُّ ، ويَجْزِي كُلًّا مِنكم بعمله . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٩٠) : ((أي : فَيُخبِرُكم بما اختلفتم فِيه من الحق فَيَجزي الصادقين بِصِدْقهم، ويُعذِّب الكافرين الجاحدين، المُكذِّبين بالحق، العادلين عنه إلى غَيره، بلا دليل ولا برهان ، بَل هُم مُعانِدون للبراهين القاطعة ، والحُجَجِ البالغة ، والأدلةِ الدامغة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وإذا رَأيْتَ الذينَ يَخُوضُونَ في آيَاتِنا فأعْرِضْ عَنْهُم حتى يَخُوضوا في حَديثٍ غَيْرِهِ وإمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيطانُ فلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكرى مَعَ القَوْمِ الظالمين ﴾ [الأنعام : ٦٨] .

الخِطَابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ ، والمؤمنون داخلون في الخِطَاب ، لأنَّ عِلَّة النَّهْي عن مُجالسة المُكذِّبين بآيات اللَّه تَشمل النبيَّ ﷺ والمؤمنين .

وإذا رَأيتَ يا مُحَمَّد المُشركين يُكذِّبون بالآيات التي أنزلها اللَّهُ عليك ، ويَستهزئون بها ، ويَسْخَرون مِنها ، ويَطعنون فيها ، ويَشتمونها ، فلا تُجالسهم، وقُمْ عنهم، واتركهم، ولا تجلس معهم، حتى يتكلموا في حديث آخر غَير الاستهزاء بآيات اللَّه والطعن فيها . وهذا تأديبٌ للمشركين ، وإشعار بوقاحتهم وجهلهم وضلالهم ، كي يُغيِّروا موضوع الحديث . وقد كانت قُرَيش في أنديتها ومجالسها تَطعن في آيات اللَّه وتَسْخَر مِنها، وتُكذِّبها.وإذا كان المؤمنون ممنوعين مِن مُجالسة الكافرين في حال تكذيبهم بآيات اللَّه والطعن فيها، فما بَالُكَ بِمُوالاة الكافرين ومحبتهم ونُصرتهم والافتخار بهم ؟!. والضَّمير في ﴿ غَيْرِهِ ﴾ يعود على القُرآن ، لأنَّه يَضُمُّ الآيات .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ١٨٥) : ((وفي هذه الآية موعظة عظيمة لِمَن يتسمَّح بِمُجالسة المُبتدِعة الذين يُحرِّفون كلامَ اللَّه ، ويتلاعبون بكتابه وسُنَّة رسوله ، ويرد ذلك إلى أهوائهم المُضِلة وبِدعهم الفاسدة ، فإنَّه إذا لَم يُنكِر عليهم ويُغيِّر ما هُم فيه ، فأقل الأحوال أن يترك مُجالستهم ، وذلك يسير عليه غير عسير، وقد يجعلون حضوره معهم مع تَنَزُّهه عمَّا يتلبَّسون به شُبهة يُشبِّهون بها على العامَّة، فيكون في حُضوره مفسدة زائدة على مُجَرَّد سَماع المُنكَر.وقد

شاهدنا من هذه المجالس الملعونة ما لا يأتي عليه الحصر ، وقُمنا في نُصرة الحق ودفع الباطل بما قَدَرْنا عليه ، وبَلَغَتْ إليه طاقتنا ، ومَن عَرَفَ هذه الشريعةَ المُطهَّرة حَقَّ معرفتها ، عَلِمَ أن مُجالسة أهل البِدع المُضِلة فيها من المفسدة أضعاف أضعاف ما في مُجالسة مَن يَعصي اللَّهَ بفعل شيء من المُحرَّمات ، ولا سِيَّما لِمَن كان غير راسخ القدم في عِلم الكتاب والسُّنَّة ، فإنَّه رُبَّما يتَّفق عليه مِن كَذِباتهم وهذيانهم ما هو من البُطلان بأوضح مكان، فينقدح في قلبه ما يَصْعُب علاجُه ، ويَعْسُر دَفْعُه ، فيعمل بذلك مُدَّة عُمره ، ويلقى اللَّهَ به مُعْتَقِدًا أنَّه مِن الحَق ، وهو مِن أبْطَل الباطل ، وأنكَر المُنكَر)) .

وإن أنساكَ الشَّيطانُ النَّهْيَ عن الجلوس معهم ، والإعراضِ عنهم ، بالوَسْوَسة ، وإشغال الذهن بأمور أُخرى ، ثم ذَكَرْتَ ذلك ، فَقُم عنهم ، وغادِرْ مَجلسهم ، ولا تقعد بعد تَذَكُّرك مع القَوْم الذين ظَلَموا أنفسَهم ، باختيارهم الكفر على الإيمان، وحِرصهم على تكذيب الآيات الإلهية، والاستهزاء بها ، والتطاول عليها ، وشتمها . والظلمُ هو وضع الشَّيء في غَير مَوضعه .

واللَّهُ لَم يَقُلْ : مَعَهُم ، وإنَّما قال : ﴿ مَعَ القَوْمِ الظالمين ﴾ . ووضعُ الظاهر مَوْضِع المُضْمَر ، لإدانتهم والتَّسجيل عليهم بالظُّلْم ، فقد ظَلَموا أنفسَهم ، وقادوها إلى الهلاك والعذاب ، بتكذيبهم لآيات اللَّه ، والاستهانة بها . والمفروض أن يُصدِّقوا بها ، ويتفكروا فيها ، ويُعظِّموها .

والآيةُ دليل على أن اللَّه لا يُؤَاخِذ بالنِّسْيَان ، وأنَّ النسيان مَعْفُوٌّ عنه ، ولكن يُؤَاخِذ بالمعرفة والتَّذَكُّر. والأحكامُ الشرعية قائمة على التذكر والقصد والإرادة، ولا تقوم على الخطأ أو النسيان أو الإكراه.والنِّسيانُ في حق النبيِّ ﷺ جائز، بِحُكم طبيعته البشرية، وهذا لا يُقَلِّل من شأنه العظيم.

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٣/ ٦٢) : ((قَوله تعالى: ﴿ وإذا رَأيْتَ الذينَ يَخُوضُونَ في آيَاتِنا ﴾ . فِيمَن أُرِيدَ بهذه الآية ، ثلاثة أقوال : أحدها المشركون، والثاني اليهود، والثالث أصحاب الأهواء . والآيات القُرآن . وخَوض المشركين فيه تكذيبهم به ، واستهزاؤهم ، ويُقاربه خَوض اليهود وخَوض أهل الأهواء بالمِرَاء والخُصُومات . قَوله تعالى : ﴿ فأعْرِضْ عَنْهُم ﴾ أي : فاترك مُجالستهم حتى يكون خَوْضُهم في غَير القرآن ، ﴿ وإمَّا يُنسِيَنَّكَ ﴾ . والمعنى : إذا أنساكَ الشيطانُ فقعدتَ معهم ناسيًا نَهْيَنا لك ، ﴿ فلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكرى ﴾ ، والذِّكر والذِّكرى واحد . قال ابن عباس : قُم إذا ذَكَرْتَه . والظالمون المشركون)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وإن كانَ طَائِفَةٌ مِنكُمْ آمَنُوا بالذي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِين ﴾ [الأعراف : ٨٧] .

هذا كلام النبيِّ شُعَيب ﷺ لِقومه : وإذا كانَ فريق مِنكُم صدَّقوني فيما جِئتهم به مِن الأحكام التي شَرَعَها اللَّهُ لكم ، وفريق لَم يُصَدِّقوني ، فاصْبِرُوا حتى يَفصِل اللَّهُ بِحُكْمِه العادل بَيننا ، وهو خَير الفاصلين . ولا مُعَقِّب لِحُكْمِه ، وحُكْمُ اللَّه حق وعدل ، لا ظُلْمَ فيه . وهذا تهديدٌ أكيد ووعيد شديد ، ولَيس أمرًا بالصَّبْر على الكُفْر .

واللَّهُ سَيَجعل العاقبةَ للمُتَّقين ، والدَّمَارَ على الكافرين ، حيث إنَّه سُبحانَه سَيَنصر المُحِقِّين على المُبْطِلِين ، وهذا وعد للمؤمنين ، ووعيد للكافرين .

وقال أبو حَيَّان في البحر المُحيط (٤/ ٣٤٠) عن الآية : ((هذا الكلام مِن أحسن ما تلطَّف به في المُحَاوَرَة ، إذْ بَرَزَ المُتَحَقِّق في صُورة المَشكوك ، وهو مِن بارِع التقسيم ، فيكون وعدًا للمُؤمنين بالنصر ، ووعيدًا للكافرين بالعُقوبة والخَسَار)) .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٥٤٥) : ((يعني بِقَوْلِه تعالى ذِكْرُه : ﴿ وإن كانَ طَائِفَةٌ مِنكُمْ ﴾ وإن كانت جماعة مِنكُم ، وفِرْقَة ﴿ آمَنُوا ﴾ ، يقول : صدَّقوا بالذي أُرْسِلْتُ به من إخلاص العبادة للَّه ، وتَرْك مَعَاصيه ، وظُلْمِ الناس، وبَخْسِهم في المَكَاييل والمَوَازين، فَاتَّبَعُوني على ذلك ﴿ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾ ، يقول : وجماعة أُخرى لَم يُصَدِّقُوا بذلك ولَم يَتَّبِعُوني عليه ، ﴿ فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ﴾ ، يقول : فَاحْتَبِسُوا على قضاء اللَّه الفاصل بَيْننا وبَينكم ، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِين ﴾ ، يقول : واللَّهُ خَير مَن يَفْصِل ، وأعْدَل مَن يَقْضِي ، لأنَّه لا يقع في حُكْمه مَيْل إلى أحد، ولا مُحَابَاة لأحد)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنسَكًا هُم ناسِكُوهُ فلا يُنازِعُنَّكَ في الأمرِ وادْعُ إلى رَبِّكَ إنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُستقيمٍ ﴾ [الحج : ٦٧] [١٠٧].

جَعَلَ اللَّهُ تعالى لِكُلِّ أُمَّةٍ شَريعةً ، هُم عاملون بِها ، ويَعبدون اللَّهَ وَفْقَها . وهذه الشريعةُ هي مِنهاجهم الحياتي ، ولا بُدَّ أن يتمسَّكوا بِها ، ويَسيرون حَسَبَ مُقتضاها . والشريعةُ هي مِنهاجٌ سماويٌّ لا وَضْعيٌّ . فَلِكُلِّ نبيٍّ من الأنبياء، وَلِكُلِّ قَوْم من الأقوام السابقة، كان لهم شريعة يَعبدونَ

---

١٠٧ قال الطبري في تفسيره (١ / ٦٠٢): ((وأصل الْمَنسَك في كلام العرب : الموضع الْمُعتاد الذي يعتاده الرَّجل ، ويألفه . يُقَال : لِفُلان مَنسَك ، وذلك إذا كان له موضع يَعتاده ، لخير أوْ شر . ولذلك ، سُميت المناسك مناسك ، لأنها تُعتاد ، ويُتَرَدَّد إليها بالحج والعُمرة ، وبالأعمال التي يُتَقَرَّب بها إلى اللَّه . وقد قِيل : إنَّ معنى النُّسُك : عبادة اللَّه ، وأنَّ الناسك إنما سُمي ناسكًا بعبادة رَبِّه)) .

اللَّهَ وَفْقَها ، فلا يُنازِعُكَ المشركون يا مُحمَّد في شريعتك ، فإن الشَّرائع كانت مَوجودة في كل العصور . والمقصودُ : لا تُنازِعْهم أنتَ يا مُحَمَّد . وهؤلاء المشرِكون غارقون في الجُحود والعِناد ، ولا يَبحثون عن الحق . بَل يَبحثون عن وسائل للطعن في الإسلام ، وإيقاف الدَّعوة المُحمَّدية الإسلامية، وتشكيك المؤمنين بِدِينهم ، والتَّشويش عليهم ، وتفتيت الروابط الاجتماعية في المجتمع الإسلاميّ . والمعنى العام : لا يَجوز مُنازَعة النبيِّ ﷺ في الشريعة والتشريع ، لأنَّ الحق ظاهر ، والأمور مَحسومة . والجاهلُ لا يَحكُم على العَالِم . ومَن يَعْلَم حُجَّةٌ عَلى مَن لا يَعْلَم .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٣٩) : ((﴿ فلا يُنازِعُنَّكَ ﴾ سائر أرباب المِلَل ، ﴿ في الأمر ﴾ في أمر الدِّين أو النَّسائك ، لأنهم بين جُهَّال وأهل عِناد ، أوْ لأنَّ أمر دِينك أظهر من أن يَقبل النِّزاع . وقِيل: المُراد نَهْي الرسول ﷺ عن الالتفات إلى قَوْلهم وتمكينهم مِن المُناظَرة المُؤدِّية إلى نِزاعهم ، فإنها إنما تنفع طالب الحق ، وهؤلاء أهْلُ مِرَاء)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٥/ ٤٤٨و٤٤٩) : ((﴿ فلا يُنازِعُنَّكَ في الأمر ﴾ ، أي: في الذبائح ، وذلك أن كفار قُرَيْش وخُزاعة، خاصَموا رسولَ اللَّه ﷺ في أمر الذبيحة ، فقالوا : كيف تأكلون ما قتلتُم ، ولا تأكلون ما قَتَلَه اللَّهُ _ يَعْنُون المَيْتَة _ ؟)) .

وعن عليّ بن الحُسَين _ رضي اللَّهُ عنهما _ : في قَوْله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنسَكًا هُم ناسِكُوهُ ﴾ ، قال : ((ذَبْحٌ هُم ذَابِحُوه)) [١٠٨].

وَفْقَ هذا الحديث ، فإنَّ معنى المَنْسَك مرتبط بالذبح وتقديم القرابين للَّه تعالى .

﴿ وادْعُ إلى رَبِّكَ إنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُستقيمٍ ﴾ .

وادْعُ يا مُحَمَّد الناسَ إلى تَوحيد رَبِّكَ وعبادته ، وأرْشِدْهم إلى شريعته الكاملة ، إنَّكَ على طريقٍ واضحٍ لا عِوَج فِيه ولا لَبْس ، وهو طريقُ الحقِّ والإيمانِ المُوصِل إلى الجَنَّة . طريقٌ واضحٌ مُعتدل ، لا إفراطٌ فيه ولا تفريط . لا غُلُوٌّ فيه ولا تقصير .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٦٦٩) : ((﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنسَكًا ﴾ ، أي: لِكُلِّ قَرْن مِن القُرون الماضية وَضَعْنا شريعةً خاصَّة ، بحيث لا تتخطَّى أُمَّةٌ مِنهُم شريعتها المُعَيَّنَة لها إلى الأخرى . وجُملة ﴿ هُم ناسِكُوهُ ﴾ صِفَة لِ ﴿ مَنسَكًا ﴾ ، والضمير ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ ، أي: تِلك الأُمَّة

---

١٠٨ رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٢٥) برقم (٣٤٧٨) وصحَّحه ، وقال الذهبي عَن رَجُلَيْن في السند : ((زهير ذو مناكير، وابن عقيل ليس بالقوي)) .

هي العاملة به لا غَيرها، فكانت التوراة مَنسَك الأُمَّة التي كانت مِن مَبعَث مُوسى إلى مَبعَث عِيسى، والإنجيل مَنسَك الأُمَّة التي مِن مَبعَث عِيسى إلى مَبعَث مُحَمَّد ﷺ ، والقُرآن مَنسَك المُسلمين. والمَنسَك : مَصدَر لا اسم مكان ، كما يدلُّ عليه ﴿ هُم ناسِكُوهُ ﴾ ، ولَم يَقُلْ : ناسكون فيه ، وقِيل : المَنسَك : مَوضِع أداء الطاعة ، وقِيل : هو الذبائح ، ولا وجه للتخصيص ، ولا اعتبار بخصوص السبب . والفَاء في قَوله : ﴿ فلا يُنازِعُنَّكَ في الأمرِ ﴾ لترتيب النَّهْي على ما قَبْلَه ، والضمير راجع إلى الأُمَم الباقية آثارهم ، أي : قَد عَيَّنا لِكُلِّ أُمَّة شريعةً ، ومِن جُملة الأُمَم هذه الأُمَّة المُحَمَّدية ، وذلك مُوجِب لعدم مُنَازَعَة مَن بَقِيَ مِنهُم لرسول اللَّه ﷺ ، ومُسْتَلْزِم لطاعتهم إيَّاه في أمر الدِّين ، والنَّهْي إمَّا على حقيقته ، أوْ كِناية عن نَهْيه ﷺ عن الالتفات إلى نزاعهم له . قال الزَّجاج : إنَّه نَهْي له ﷺ عَن مُنازعتهم ، أي : لا تُنَازِعْهُم أنتَ ، كما تقول : لا يُخَاصِمْكَ فُلان ، أي : لا تُخَاصِمْهُ ، ... . ﴿ وادْعُ إلى رَبِّكَ ﴾ ، أي : وادْعُ هؤلاء المُنَازِعين ، أو ادْعُ الناسَ على العُموم إلى دِين اللَّه ، وتَوحيده ، والإيمان به ، ﴿ إنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُستقيمٍ ﴾ ، أي : طريق مستقيم لا اعْوِجَاج فيه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وإن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُون ﴾ [الحج : ٦٨] .

وإنْ خَاصَمَكَ وجَادَلَكَ المُشركون يا مُحَمَّد في أمر الدِّين ، بباطلهم ، عِنَادًا وتَعَنُّتًا، بعد ظُهور الحَق أمامهم ، وقِيام الحُجَّة عليهم ، وانقطاع أعذارهم ، فَقُلْ لهم : اللَّه أعلم بأعمالكم القبيحة ، وبما تستحقون عليها من الجزاء ، وهذا وعيدٌ وإنذار .

والآيةُ تشتمل على أمر إلهيٍّ للنبيِّ ﷺ بأن يَكِلَ أمورَهم إلى اللَّه تعالى .

وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٨٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ وإن جَادَلُوكَ ﴾ ، أي : خاصموك يا مُحَمَّد ، يُريد مُشركي مَكَّة ، ﴿ فَقُلِ اللَّهُ أعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُون ﴾ ، يُريد مِن تكذيبهم مُحَمَّدًا ﷺ ، عن ابن عباس. وقال مُقاتل: هذه الآية نزلت على النبيِّ ﷺ لَيلة الإسراء، وهو في السماء السابعة، لَمَّا رأى مِن آيات رَبِّه الكُبرى ، فأوحى اللَّهُ إليه : ﴿ وإن جَادَلُوكَ ﴾ بالباطل ، فَدَافِعْهُم بِقَوْلِك : ﴿ اللَّهُ أعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُون ﴾ مِن الكفر والتكذيب ، فأمَرَه اللَّهُ تعالى بالإعراض عَن مُماراتهم ، صِيانةً له عن الاشتغال بِتَعَنُّتِهِم ، ولا جواب لصاحب العِناد)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُون ﴾ [الحج : ٦٩].

اللَّهُ يَفْصِل في الآخرة بين المؤمنين والكافرين ، فِيما كانوا فيه يَختلفون مِن أمر الدِّين ، فَيَعرفون حينئذ الحَق مِن الباطل، والمُحِق مِن المُبطِل . وهذا أدب حَسَن علَّمه اللَّهُ عِبَادَه ، لِيَرُدُّوا

به مَن جَادَلَ على سبيل التَّعَنُّت ، ولا يُجيبوه ، ولا يُناظروه . والاختلاف : ذَهَاب كُلِّ واحد مِن الخَصْمَيْن إلى خِلاف ما ذَهَبَ إليه الآخر .

والآيةُ خِطَاب مِن اللَّه للمؤمنين والكافرين ، أي : يَفْصِل بَينكم بالثواب والعِقاب ، وتَسلية للنبيِّ ﷺ مِمَّا كان يَلقى مِن الكافرين مِن التكذيب والجُحُود والسُّخرية والاستهزاء .

وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٨٨) : ((﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ ، يُريد : بَين النبيِّ ﷺ وَقَوْمِه ﴿ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُون ﴾ ، يُريد : في خِلافكم آياتي ، فَتَعرفون حينئذ الحَق مِن الباطل . مسألة : في هذه الآية أدب حَسَن علَّمه اللَّهُ عِبَادَه في الرَّد على مَن جَادَلَ تَعَنُّتًا ومِرَاءً ، ألا يُجَاب ولا يُنَاظَر ، ويَدفع بهذا القَول الذي علَّمه اللَّهُ لِنَبِيِّه ﷺ)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٣٩) : ((﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ ، يَفْصِل بَين المؤمنين مِنكم والكافرين بالثواب والعقاب ﴿ يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ ، كَمَا فَصَلَ في الدُّنيا بالحُجَج والآيات ﴿ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُون ﴾ مِن أمر الدِّين)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ ولا تُجادِلوا أهلَ الكتابِ إلا بالتي هِيَ أحسنُ إلا الذينَ ظَلَمُوا مِنهُم وقولوا آمَنَّا بالذي أُنزِلَ إلَيْنا وأُنزِلَ إلَيْكُم وإلَهُنا وإلَهُكُم واحدٌ ونحنُ لَهُ مُسلِمون ﴾[العنكبوت : ٤٦] .

الخِطابُ للمؤمنين . لا تُناقِشوا وتُحاوِرُوا أهلَ الكتاب (اليهود والنصارى) إلا بالأسلوب الحسن، والطريقةِ اللطيفة، والحُجَّةِ الدامغة، وبيانِ وجوه القُصور في عقائدهم الباطلة . ينبغي دَعوتهم إلى الإسلام بالحوار الهادئ والنِّقَاش الطَّيب ، وتوضيح آياتِ اللَّه وحُجَجه ، وإظهار تماسك العقيدة الإسلامية دون إكراه أو غِلْظة . أمَّا المُحَارِبون مِن أهل الكتاب الذين يُنَاصِبونكم العَدَاءَ، ولا يُؤمنون بالحِوار،فهؤلاء لا يُحَاوَرون إلا بالسَّيف والشِّدة ، ولا يُعَامَلُون إلا بالجهاد والغِلظة . وفي الدُّر المَنثور للسُّيوطي (٦/ ٤٦٨) : ((عن مُجاهد في قَوْلِه : ﴿ ولا تجادِلوا أهلَ الكتاب إلا بالتي هِيَ أحسن ﴾ ، قال : إنْ قالوا شَرًّا فقولوا خَيْرًا ، إلا الذين ظَلموا منهم فانتصِروا مِنهم)) .

وقال الفخر الرازي في التفسير الكبير (٢٥/ ٧٥) : ((إنَّ المُشْرِك لَمَّا جاء بالمُنكَر الفظيع، كان اللائق أن يُجَادَل بالأخشَن ، ويُبالَغ في تَوْهين شُبَهه وتهجين مذهبه ، وأمَّا أهلُ الكتاب فإنهم آمَنوا بإنزال الكتب وإرسال الرُّسُل، إلا الاعتراف بالنبيِّ عليه السلام ، فَلِمُقَابَلة إحسانهم يُجَادَلون بالأحسَن ، إلا الذين ظَلَموا مِنهم بإثبات الولد للَّه ، والقَوْل بثالث ثلاثة، فإنهم يُجادَلون بالأخشَن مِن تهجين مقالتهم ، وتبيين جهالتهم)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٦/ ٢٧٥) : ((في التي هي أحسن ثلاثة أقوال ، أحدها أنها لا إله إلا اللّه ، رواه الضَّحاك عن ابن عباس ، والثاني أنها الكَفُّ عنهم إذا بَذَلوا الجِزْيَةَ، فإن أبَوْا قُوتِلوا ، قاله مجاهد ، والثالث أنها القرآن والدعاء إلى اللّه بالآياتِ والحُجَجِ . قَوْله تعالى : ﴿ إلا الذين ظَلموا مِنهم ﴾ ، وهُم الذين نَصَبوا الحَرْبَ، وأبَوْا أن يُؤَدُّوا الجِزْيةَ، فَجَادِلوا هؤلاء بالسَّيف ، حتى يُسلِموا أوْ يُعْطُوا الجِزْيَةَ)) .

﴿ وقولوا آمَنَّا بالذي أُنزِلَ إلَيْنا وأُنزِلَ إلَيْكُم ﴾ . وقولوا لهم : صَدَّقْنا بالقُرآن الذي أُنزِل إلَيْنا، وصَدَّقْنا بالتوراة والإنجيل التي أُنزلت إلَيكم . وهذا مِنَ المُجَادَلة بالتي هِيَ أحسن .

والكُتب السماوية يُصدِّق بعضُها بعضًا ، لأن مصدرها واحد، وهو السماء . والقُرآنُ وَحْدَه هو الكتاب السماويُّ المحفوظ مِن التحريف والتغيير والتبديل، أمَّا التوراة والإنجيل ، فتمَّ التلاعب بهما ، وهُما كتابان سماويان _ في الأصل _، ولكن طرأ عليهما التحريف والتغيير والتبديل .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٥١) : ((وقوله تعالى : ﴿ وقولوا آمَنَّا بالذي أُنزِلَ إلَيْنا وأُنزِلَ إلَيْكُم ﴾ يعني : إذا أَخْبَرُوا بِما لا نَعْلَم صِدْقَه ولا كَذِبَه ، فهذا لا نُقْدِم على تكذيبه ، لأنَّه قد يكون حَقًّا ، ولا تصديقه فَلَعَلَّه أن يكون باطلًا ، ولكن نُؤْمِن به إيمانًا مُجْمَلًا مُعَلَّقًا على شَرْط، وهو أن يكون مُنَزَّلًا ، لا مُبَدَّلًا ، ولا مُؤَوَّلًا)) .

﴿ وإلَهُنا وإلَهُكُم واحدٌ ونحنُ لَهُ مُسلِمون ﴾ . ورَبُّنا ورَبُّكم واحد، لا شريك له، ونحن نَعبده وَحْدَه، ومُستسلمون له، وخاضعون لأمره ، ومُذْعِنُون لِحُكمه ، نُطيعه ولا نَعصيه ، نلتزم أوامرَه ، ونَجتنب نَوَاهيه.وهذا مِن جِنس المُجَادَلة بالتي هِيَ أحسن.وقال البيضاوي في تفسيره(١/ ٣١٨): ((مُطِيعون له خاصَّة . وفيه تعريض باتخاذهم أحبارهم ورُهبانهم أربابًا مِن دُون اللّه)) .

وفي صحيح البخاري (٦/ ٢٦٧٩) : عن أبي هريرة قال : كانَ أهلُ الكتاب يَقْرَؤُون التَّوراةَ بالعِبرانية ، ويُفَسِّرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول اللّه ﷺ : ((لا تُصَدِّقُوا أهلَ الكتاب ، ولا تُكذِّبوهم ، ﴿ وقولوا آمَنَّا باللّهِ وما أُنزِلَ إلَيْنَا ﴾ _ [البقرة : ١٣٦] الآيَةَ _)) .

يُحذِّر النبيُّ ﷺ أُمَّتَه من الاغترار بما يَرويه أهلُ الكتاب مِن كُتبهم . وقد كان اليهود على عهد النبيِّ ﷺ يَقرؤون التَّوراة باللغة العِبرية (لغة اليهود) ، ويُفَسِّرونها ، ويُترجمونها للمُسلمين باللغة العربية ، فأمرَ النبيُّ ﷺ بعدم تَصديقهم ولا تَكذيبهم ، وهذا فِيما لا يُعرَف صِدْقُه مِن كَذِبه ، وذلك لأنَّ اللّه أمرَ المُسلمين بالإيمان بما أُنزِلَ إلَيهم مِن القُرآن، وما أُنزِلَ على اليهود والنصارى (التَّوراة والإنجيل) . ولا يَستطيع المُسلمون أن يَعْلَمُوا صحيحَ ما يَحْكُونه عن تِلك الكُتُب مِن سَقِيمه ،

إذا لَم يَرِدْ في الشريعة المُحمَّدية الإسلامية ما يُوضِّح صِدْقَه مِن كَذِبه ، فيجب التوقف ، وعدم تصديقهم ، لئلا يَكون المُسلمون شُركاء مع أهل الكتاب فِيما حرَّفوه مِنه ، ولا يَجوز تكذيبهم ، فلعلَّه يكون صحيحًا ، فيكون المُسلمون مُنكِرين لِمَا أُمِرُوا بالإيمان به . أمَّا ما عُلِمَ كَذِبُه مِمَّا أخبرَ به اليهودُ والنصارى _ كافترائهم على اللَّه ورسوله _ ، فيجب على المسلم تكذيبهم فِيما قالوا .

والحديثُ يُشير إلى أنَّ المُسلِم _ مِن حَيث الإجمال _ يؤمن بما جاء به أنبياءُ اللَّه جميعًا ، ولا يُصدِّق إلا ما جاءَ مُوَافِقًا للقُرآن والسُّنَّة .

لقد أنزلَ اللَّهُ القُرآنَ حَاكِمًا على ما سَبَقَه مِن كُتُب وشرائع ، فشريعته وأحكامه قاضية على كُلِّ ما سَبَقَه مِن شرائع . وقد طالت أيدي التحريف ما سَبَقَه مِن كُتُب سماويَّة، فَحَرَّفَ اليهودُ التَّوراةَ ، وحرَّف النصارى الإنجيلَ ، وزادوا التَّوراةَ تحريفًا .

إنَّ القُرآن هُوَ الحاكم على التَّوراة والإنجيل ، لأنَّ القُرآن وَحْدَه هو الكتاب السماويُّ المحفوظ من التحريف . وما وافقَ القُرآن كانَ حَقًّا،وما خالفه كانَ باطلًا. وإذا أخبرَ أهلُ الكتاب بشيء لَم يُبَيِّنْهُ القُرآن، فينبغي التوقف ، وعدم التَّصديق ، فقد يكون باطلًا . وأيضًا ، عدم التكذيب ، فقد يكون حَقًّا . ولا يَجوز تصديق الباطل ، ولا تكذيب الحق . وهذا يدلُّ على أهمية الابتعاد عن المشكلات والقضايا الصعبة ، وعدم الخَوض فِيها بالظن والاحتمال .

إنَّ اليهودَ كانوا يَقرؤون التَّوراةَ بِلُغتهم، ويُوضِّحون ما فِيها باللغة العربية للمسلمين . وهذا الأمرُ شديد الخطورة، لأن اليهودَ أهلُ حِقْدٍ ومَكْرٍ وخُبث، ولَيْسُوا أهْلًا للثِّقة ، فَرُبَّما يَدُسُّون السُّمَّ في العسل ، ويَنقلون للمسلمين أفكارًا دينية مُحرَّفة ، ولا شَكَّ أن اليهودَ لَدَيهم خِبرة عريضة في تحريف كلامِ اللَّه ، والتلاعب بِه ، ولَوْي أعناق النُّصوص ، وإدخال المصالح الشخصية في النُّصوص الدِّينية ، لذلك ينبغي عدم اعتماد أقوالهم وتفسيراتهم ، لأن الدليل إذا تَطَرَّقَ إلَيه الاحتمالُ ، سَقَطَ بِه الاستدلالُ . فإذا صَدَّقهم المُسْلِمُ فَرُبَّما صَدَّقَ بالباطل ، وإذا كَذَّبَهم فَرُبَّمَا كَذَّبَ بالحق . وعندئذٍ يَقع المُسْلِمُ في الضَّلال والحَرَج .

والمسلمُ يَبني دِينه على اليقين الذي لا يتسلَّل إلَيه الشَّك ، ولا تُصيبه الشُّبُهَات ، ولا تَطرأ عَلَيه الاحتمالاتُ وأنصافُ الحُلُول . واليقينُ هو اعتمادُ القُرآن ، وهذا يتضمَّن الإيمانَ بما أُنزِلَ على الرُّسُل السابقين _ عليهم الصلاة والسلام _ بلا استثناء . وما وافقَ القُرآنَ كانَ حَقًّا وصِدْقًا ، وما خالفَ القُرآنَ كان باطلًا وكَذِبًا . وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٣٣٥) : ((فالمُراد بأهل الكتاب اليهود ، لكنَّ الحُكْمَ عام فيتناول النصارى)) .

وبشكل عام ، إن أخبار أهل الكتاب (اليهود والنصارى) لها ثلاث حالات : الأُولَى _ إذا وافقتْ أخبارُهم القُرآنَ، فهي أخبار صحيحة نُصَدِّق بِها. والثانية_ إذا عارَضتْ أخبارُهم القُرآنَ ، فهي أخبار باطلة نُكذِّب بِها . والثالثة _ إذا كانت أخبارُهم مِمَّا سَكَتَ عنه القُرآنُ ، فهي أخبارٌ نتوقَّف عِندَها ، ولا نَحكُم عليها ، ولا نُصدِّقها ، ولا نُكذِّبها . وتَجوز رِوايتُها .

وقال الحافظ في الفتح (٨/ ١٧٠) : ((قَوله : " لا تُصَدِّقُوا أهل الكتاب ، ولا تُكذِّبوهم " أي : إذا كان ما يُخبرونكم به مُحْتَمَلًا ، لئلا يكون في نَفْس الأمر صِدْقًا فَتُكذِّبوه ، أوْ كَذِبًا فَتُصَدِّقُوه ، فَتَقَعُوا في الحَرَج ، ولَم يَرِد النَّهْيُ عَن تكذيبهم فِيما وَرَدَ شَرْعُنا بِخِلافه ، ولا عَن تصديقهم فِيما وَرَدَ شَرْعُنا بِوِفاقه . نبَّه على ذلك الشافعي رحمه اللَّه ، ويُؤْخَذ مِن هذا الحديث التَّوَقُّف عَن الخَوض في المُشكلات ، والجَزْم فيها بما يقع في الظن ، وعلى هذا يُحمَل ما جاء عن السَّلَف مِن ذلك)) .

وفي صحيح البخاري (٣/ ١٢٧٥) عن عبد اللَّه بن عمرو _ رضي اللَّهُ عنه _ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيةً ، وَحَدِّثوا عَن بَني إسرائيلَ ولا حَرَجَ ، ومَن كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النار)) .

حثَّت الشريعةُ الإسلامية على تبليغ ما جاء به النبيُّ ﷺ ، كُلٌّ بِحَسَبِ استطاعته وعِلْمِه ، بشرط تَحَرِّي الصِّحة والصِّدق فيما يُبلِّغ عن اللَّه تعالى ونَبِيِّه ﷺ .

أمرَ النبيُّ ﷺ بإخبار الناس وتعليمهم ما جاء عنه وبلَّغهم به ، مِن قُرآن وسُنَّة ، واقْتُصِرَ هُنا على الآية ، لِيُسَارِعَ كُلُّ سامع إلى تبليغ ما يَعْلَمه مِن الآيات والعِلْم ، وَلَوْ كان قليلًا ، وَلَوْ آية واحدة ، بشرط أن يُبلِّغ الآيةَ صحيحةً . وقَوله : " آية " يَشمل القُرآنَ والحديثَ النبويَّ ، لأن الحديث في حُكْم الآية القُرآنية ، مِن حَيث إنَّه وَحْيٌ إلهيٌّ . قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وما آتاكُمُ الرَّسولُ فَخُذُوهُ وما نَهَاكُم عَنْهُ فانتَهُوا ﴾ [الحَشْر : ٧] .

" وَحَدِّثوا عَن بَني إسرائيلَ " ، أي : وأخْبِرُوا بما حدَّثكم به بَنو إسرائيل ، واسْمَعُوا لِمَا يُحدِّثونكم به مِمَّا لا يتعارض مع الشرع ، وبما لا تَعْلَمُون كَذِبَه . " ولا حَرَجَ " ، أي: لا يَقع عليكم شيء مِن الإثم والذَّنْب في الحديث عنهم . ولَيس المقصود إباحة الكذب في أخبارهم ، ورفع الإثم عن نَقْل الكذب عنهم ، فالكذبُ مُحرَّم دائمًا وأبدًا ، ولكنَّ هذا ترخيص في الحديث عنهم على البَلاغ ، وإنْ لَم يتحقَّق ذلك بنقل الإسناد ، لِتَعَذُّره بِطُول المُدَّة الزمنية ، بِخِلاف أحكام شريعة الإسلام ، فإن الأصل فيها التحديث بالاتِّصَال .

" ومَن كَذَبَ عَلَيَّ مُتعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النار " : ومَن قَصَدَ الكَذِبَ على النبيِّ ﷺ وتَعَمَّدَ ذلك ، لا مَن أخطأ ، فَلْيَتَهَيَّأْ وَلْيَسْتَعِد إلى دُخوله النار ، وإلى مَقعده الذي فيها ، الذي أوجبه على نَفْسِه بِكَذِبه على النبيِّ ﷺ عَامِدًا مُتَعَمِّدًا . وهذا وعيد شديد يدلُّ على كِبَر هذه المعصية .

وخَصَّ النبيُّ ﷺ الكَذِبَ عليه بالتحذير _ وإنْ كان الكَذِبُ كُلُّه حرامًا _ ، لأنَّه كلامه ﷺ تشريع ، وكلام غَيره لَيس كذلك ، فالكَذِب على النبيِّ ﷺ أعظم مَضَرَّةً ، وأكبر إثمًا .

يجب على المُسلِم أن يَنشر الإسلامَ في كُلِّ زمان ومكان، ويُبلِّغ آياتِ القُرآن الكريم ، ويَنشر السُّنَّةَ النبوية الشريفة . فالدَّعوةُ إلى الإسلام لَيست وظيفةً حُكوميةً أوْ شهادةً جامعية ، إنَّ الدَّعوةَ منهجُ حياة لكل مُسلِم ، وكُل مسلم يجب أن يَكون داعيةً بأسلوب لطيف ، وحَسَبَ إمكانياته .

والحديثُ يدل على جَواز ذِكْر أخبار بني إسرائيل بلا أسانيد بسبب المُدَّة الزمنية الطويلة التي تَفْصِل المسلمين عن بَني إسرائيل ، فيجوز الحديث عَن قَصَص بني إسرائيل وأمورِهم العجيبة ، كَنُزول النار من السماء لتأكل القُربانَ ، وَلَوْ كان بلا سَند . ولا إثمَ على المسلمين في التحديث بهذا الأمر وغَيْرِه بِشَرْط عدم الكَذِب . فلا يَجوز الكَذِبُ على أيِّ شخص ، مُسْلِمًا كانَ أمْ كافرًا .

أمَّا حديثُ النبيِّ ﷺ فلا بُدَّ من الأسانيد ، لأن الكَذِبَ عَلَيه بشكل مُتعَمَّد يُؤدي إلى الهلاك الحتميِّ، ودُخولِ النار.فالنبيُّ مُشَرِّعٌ بأمرِ اللَّه تعالى، والكذبُ عَلَيه يعني تلويثَ الشَّريعة وتشويهَها، والإساءةَ إليها عن طريق إدخال الأكاذيب إلى الدِّين الإسلاميِّ الحق.وهذا يُشَوِّهُ صُورةَ الإسلامِ، ويُؤدي إلى إفساد المسلمين، وتَنفيرِ الناس مِنَ الإسلام .

والجديرُ بالذِّكْر أنَّ أخبار أهل الكتاب (اليهود والنصارى) على ثلاثة أقسام : الأوَّل _ ما عَلِمْنا صِحَّته بما دَلَّ عليه الدليل مِن القُرآن والسُّنَّة . الثاني _ ما عَلِمْنا كَذِبَه بما دَلَّ على خِلافه مِن القُرآن والسُّنَّة . الثالث_ ما هو مَسكوت عنه ، فهو المأذون في روايته بِقَوله ﷺ : " وَحَدِّثوا عَن بَني إسرائيلَ ولا حَرَجَ "، وهو الذي لا يُصَدَّق ولا يُكَذَّب لِقَوْلِه : " لا تُصَدِّقُوا أهل الكتاب ، ولا تُكذِّبوهم " .

وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٩٨و٤٩٩) : ((قَوله : " بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً ". قال المُعَافَى النَّهْرَوَاني في كتاب (الجليس له) : الآية في اللغة تُطلَق على ثلاثة مَعَانٍ : العلامة الفاصلة ، والأُعجوبة الحاصلة ، والبَلِيَّة النازلة . فَمِن الأوَّل قَوله تعالى : ﴿ آيَتُكَ ألا تُكَلِّمَ الناسَ ثلاثةَ أيَّامٍ إلا رَمْزًا ﴾ [آل عِمران : ٤١] ، ومِن الثاني ﴿ إنَّ في ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ [الشُّعَراء : ١٩٠] . ومِن الثالث : جَعَلَ الأميرُ فُلانًا اليومَ آيَةً . ويُجمَع بين هذه المعاني الثلاثة أنَّه قِيل لها : آية ، لِدَلالتها

وفَصْلها وإبانتها . وقال في الحديث : " وَلَوْ آية " ، أي : واحدة ، لِيُسَارِعَ كُلُّ سامع إلى تبليغ ما وَقَعَ له مِن الآيِ ، وَلَوْ قَلَّ، لِيَتَّصِلَ بذلك نقل جميع ما جاء به ﷺ . اهـ كلامُه . " وَحَدِّثوا عَن بَني إسرائيل ولا حَرَجَ " أي : لا ضِيق علَيكم في الحديث عنهم ، لأنَّه كان تقدَّم مِنه ﷺ الزَّجْر عن الأخذ عنهم ، والنظر في كتبهم ، ثُمَّ حصل التَّوَسُّع في ذلك ، وكأنَّ النَّهْي وَقَعَ قبل استقرار الأحكام الإسلامية والقواعد الدينية ، خَشيةَ الفِتنة ، ثُمَّ لَمَّا زال المحذور وقع الإذن في ذلك لِمَا في سماع الأخبار التي كانت في زمانهم من الاعتبار . وقِيل : معنى قَوْله " لا حَرَجَ " لا تَضِيق صُدورُكم بما تسمعونه عنهم من الأعاجيب ، فإن ذلك وقع لهم كثيرًا . وقِيل : لا حَرَجَ في أن لا تُحَدِّثوا عنهم ، لأنَّ قَوْلَه أوَّلًا " حَدِّثوا " صِيغة أمر تقتضي الوجوب ، فأشار إلى عدم الوجوب ، وأنَّ الأمر فيه للإباحة بِقَوْله : " ولا حَرَجَ " أي : في ترك التحديث عنهم . وقِيل : المُراد رفع الحَرَج عن حاكي ذلك ، لِمَا في أخبارهم من الألفاظ الشنيعة نَحْوَ قَوْلِهم : اذهبْ أنتَ ورَبُّكَ فَقَاتِلا ، وقَوْلِهم : اجْعَلْ لنا إلَهًا . وقِيل : المُراد ببني إسرائيل أولاد إسرائيل نَفْسِه ، وهُم أولاد يعقوب ، والمُراد : حَدِّثوا عنهم بقصتهم معَ أخيهم يُوسُف ، وهذا أبعد الأوْجُه . وقال مالك : المُراد جَوَاز التحدُّث عنهم بِما كان من أمر حسن ، أمَّا مَا عُلِمَ كَذِبُه فلا . وقِيل : المعنى حَدِّثوا عنهم بِمِثْل ما ورد في القرآن والحديث الصحيح . وقِيل : المُراد جَوَاز التحدث عنهم بأيِّ صورة وَقَعت من انقطاع أو بلاغ ، لِتَعَذُّر الاتصال في التحدث عنهم ، بِخِلاف الأحكام الإسلامية ، فإنَّ الأصل في التحدث بها الاتصال ، ولا يتعذر ذلك لِقُرْب العهد . وقال الشافعيُّ : مِنَ المعلوم أن النبيَّ ﷺ لا يُجيز التحدثَ بالكذب ، فالمعنى : حَدِّثوا عن بني إسرائيل بما لا تَعْلَمون كَذِبَه ، وأمَّا ما تُجَوِّزونه ، فلا حَرَجَ علَيكم في التحدث به عنهم ، وهو نظير قَوْلِه : " إذا حَدَّثكم أهلُ الكتاب فلا تُصدِّقوهم ولا تُكذِّبوهم " ، ولَم يُرِد الإذْنَ ولا المنعَ مِنَ التَّحدث بما يُقْطَع بِصِدْقه . قَوله: " ومَن كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا ". ... . وقد اتَّفَقَ العلماء على تغليظ الكذب على رسول اللَّه ﷺ، وأنَّه من الكبائر ، حتَّى بالغَ الشيخُ أبو محمد الجُوَيني ، فَحَكَمَ بِكُفْر مَن وَقَعَ مِنه ذلك ، وكلام القاضي أبي بكر بن العربي يَميل إليه . وجَهِلَ مَن قال مِنَ الكَرَّامية وبعض المُتَزَهِّدة إنَّ الكَذِب على النبيِّ ﷺ يَجوز فيما يتعلَّق بتقوية أمر الدِّين ، وطريقةِ أهل السُّنَّة ، والترغيبِ والترهيب . واعتلُّوا بأن الوعيد ورد في حق مَن كَذَبَ عَلَيه ، لا في الكذب له ، وهو اعتلال باطل ، لأنَّ المُراد بالوعيد مَن نَقَلَ عنه الكذبَ ، سَواءٌ كان له أوْ عَلَيه ، والدِّينُ بِحَمد اللَّه كامل، غَير مُحتاج إلى تَقويته بالكَذِب)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٣/ ٢٠٦ و٢٠٧) : (((بَلِّغُوا عَنِّي) أي : انقُلُوا عَنِّي ما أمكنكم لِيَتَّصِل بالأُمَّة نقل ما جِئْتُ به (وَلَوْ) أي: وَلَوْ كان الإنسان إنَّمَا يُبلِّغه مِنِّي أوْ عَنِّي (آيةً) واحدة مِن القُرآن . وخَصَّها لأنها أقل ما يُفيد في باب التبليغ ، وَلَم يَقُلْ : وَلَوْ حديثًا ، إمَّا لِشِدَّة اهتمامه بنقل الآيات ، لأنها المُعجِزة الباقية مِن بَين سائر المُعجِزات ، ولأنَّ حاجة القرآن إلى الضبط والتبليغ أشد ، إذْ لا مَندوحة عن تواتر ألفاظه ، وإمَّا للدَّلالة على تأكُّد الأمر بتبليغ الحديث ، فإنَّ الآيات معَ كثرة حَمَلَتها واشتهارها ، وتكفُّل حِفظ اللَّه لها عن التحريف واجبة التبليغ ، فكيف بالأحاديث فإنَّها قليلة الرُّواة قابلة للإخفاء والتغيُّر ؟ ، ذَكَرَه القاضي البَيضاوي . وقال الطيبي : بِقَوله : " بَلِّغُوا عَنِّي " يُحْتَمَل أن يُراد باتِّصال السَّند بنقل عَدْل ثِقة عن مِثله إلى مُنتهاه ، لأنَّ التَّبليغ مِن البُلوغ ، وهو انتهاء الشيء إلى غايته ، وأن يُراد أداء اللفظ كما سمعه مِن غَير تغيير، والمطلوب بالحديث كِلا الوجهين ، لِوُقوع قَوله : " بَلِّغُوا عَنِّي " مُقَابِلًا لِقَوله الآن : " حَدِّثُوا عَن بني إسرائيلَ ولا حَرَجَ " ، إذْ ليس في التحديث ما في التبليغ من الحَرَج والضِّيق ، ويُعضِّد هذا التأويل آية : ﴿ يا أيُّها الرَّسولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إلَيْكَ مِن رَبِّكَ وإن لَم تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [المائدة : ٦٧] ، أي : وإنْ لَم تُبَلِّغْ لِمَا هو حَقُّه ، فما بَلَّغْتَ ما أُمِرْتَ به ، وحديث : " نَضَّرَ اللَّهُ عبدًا سَمِعَ مَقَالتي فَحَفِظَهَا " الحديث ، وقَوله : " وَلَوْ آية " ، أي : علامة تتميم ومُبَالَغَة ، أي : وَلَوْ كان المُبَلَّغ فِعْلًا ، أوْ إشارة بِنَحْو يد أو أُصبع ، فإنَّه يجب تبليغه حِفْظًا للشريعة . وفي صحيح ابن حِبَّان : فيه دليل على أنَّ السُّنَن يُقَال لها : آي . قال في التنقيح : وفيه نظر ، إذْ لَم يَنحصر التبليغ عنه في السُّنَن بَل القُرآن مِمَّا بُلِّغَ ، وفيه جَوَاز تبليغ بعض الحديث. قال الطيبي : ولا بأس به للعَالِم وإباحة الكتابة والتقييد ، لأنَّ النِّسيان مِن طَبْع الإنسان ، ومَن اعتمدَ على حِفظه لا يُؤْمَن عليه الغَلَط في التبليغ ، فَتَرْك التقييد يُؤَدِّي إلى سُقوط أكثر الحديث ، وتعذُّر تبليغه ، ذَكَرَه في شَرْح السُّنَّة . ... . (وَحَدِّثُوا عن بني إسرائيل) بما بَلَغَكُم عنهم مِمَّا وَقَعَ لهم من الأعاجيب ، وإن استحالَ مِثْلُها في هذه الأُمَّة ،كنزول النار من السماء لأكل القُربان ، وَلَوْ كان بلا سند ، لِتَعَذُّر الاتِّصال في التحديث عَنهم لِبُعْدِ الزمان ، بِخِلاف الأحكام المُحَمَّدية (ولا حَرَجَ) لا ضِيق عليكم في التحديث به ، إلا أن يُعْلَم أنَّه كَذِب ، أوْ لا حَرَجَ أن لا تُحَدِّثوا ، وعَلَيه فزاده دفعًا لِتَوَهُّم وُجوب التحديث مِن صُورة صُدور الأمر به . قال الطيبي: ولا مُنَافاة بين إذْنه هُنا ونَهْيه في خَبَر آخَر عن التحديث ، وفي آخَر عن النظر في كُتبهم، لأنَّه أراد هُنا التحديث بِقَصَصِهم ، نَحْو قَتل أنفسهم لِتَوْبتهم ، وبالنَّهْي العمل بالأحكام لِنَسْخها

بِشَرْعه ، أو النَّهْي في صدر الإسلام قبل استقرار الأحكام الدينية والقواعد الإسلامية ، فلمَّا استقرَّت أَذِنَ لأمْنِ المَحذور (ومَن كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا) يعني: ومَن لَم يُبَلِّغْ حَقَّ التبليغ،ولَم يَحْفَظْ في الأداء ، ولَم يُرَاعِ صِحَّةَ الإسناد (فَلْيَتَبَوَّأْ) بِسُكون اللام: فَلْيَتَّخِذْ (مَقْعَدَه مِن النار) أي : فَلْيَدْخُلْ في زُمرة الكاذبين نارَ جهنَّم ، والأمر بالتَّبَوُّئ تهكُّم ، كما مَرَّ ، وقد استفدنا وُجوب تبليغ العِلْم على حامليه ، وهو المِيثاق الذي أخذه اللَّهُ على العلماء . قال البَغَوي : ولهذا الحديث كَرِهَ قَوم مِن الصَّحْب والتابعين إكثار الحديث عن المُصْطَفَى ﷺ خَوْفًا مِن الزِّيادة والنُّقْصَان والغَلَط ، حتى إنَّ مِن التابعين مَن كان يَهَاب رَفْع المَرفوع ، فَيَقِفه على الصحابي)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ولا تُطِعِ الكافرينَ والمُنافقينَ وَدَعْ أذاهُم وَتَوَكَّلْ على اللَّهِ وكَفَى باللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٤٨] .

الخِطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ : ولا تُطِع الكافرين والمُنافقين فِيما يَطلبونه مِنَ المُدَاهَنَة في الدِّين والمُلايَنة ، والمُسَامَحَة في الإنذار،ولا تَسْتَجِبْ لهم فِيما يُخالف الشريعةَ.والمقصودُ تقوية النبيِّ ﷺ في مُواجهتهم ، وتثبيته على مواقفه . والمعنى : دَاوِمْ يا مُحَمَّد على دَعوتك ، واثبُتْ على الوَحْي ، وبَلِّغْهُ كاملًا غَير مَنقوص ، ولا تتراجع . وهذا تَهييج للنبيِّ ﷺ على ما هو عليه مِن مُخالفتهم .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٣٠٧) : ((قَوله : ﴿ ولا تُطِعِ الكافرينَ والمُنافقينَ ﴾ ، يقول : ولا تُطِعْ لِقَول كافر ولا مُنافق ، فتسمع منه دُعاءه إيَّاك إلى التقصير في تبليغ رسالات اللَّه إلى مَن أرسلكَ بها إليه مِن خَلْقِه)) .

لقد نَهَى اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ عن طاعة أعداء الدِّين ، والخُضوع لأهوائهم. والخِطابُ للنبيِّ ﷺ ، والمقصود أُمَّته ، فالنبيُّ ﷺ مَعصوم عن الاستجابة لرغبات الكافرين السَّيئة ، وأفكارهم المنحرفة ، وعقائدهم الباطلة [١٠٩]. وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٤١٠) : ((نَهَاه سُبحانَه عن طاعة أعداء الدِّين، فقال : ﴿ ولا تُطِعِ الكافرينَ والمُنافقينَ ﴾ ، أي : لا تُطِعْهُم فِيما يُشيرون عليك به مِن المُدَاهَنَة في الدِّين . وفي الآية تَعريض لِغَيْره مِن أُمَّتِه ، لأنَّه ﷺ مَعصوم عن طاعتهم في شيء مِمَّا يُريدونه ، ويُشيرون به عليه)) .

---

١٠٩ قال القرطبي في تفسيره (١٤/ ١٧٩) : ((﴿ الكافرين ﴾ أبي سُفيان وعِكرمة وأبي الأعور السُّلَمي ، قالوا : يا محمد ، لا تَذْكُرْ آلهتنا بِسُوء نتَّبعك . ﴿ المنافقين ﴾ عبد اللَّه بن أُبَي وعبد اللَّه ابن سعد وطُعمة بن أُبَيْرِق ، حَثُّوا النبيَّ ﷺ على إجابتهم بِتَعِلَّة المصلحة)) اهـ . والتَّعِلةُ : ما يُتَعَلَّل به .

وأَعْرِضْ يا مُحَمَّد عَن أذاهم لَك ، واصْبِرْ عليه ، ولا تَعْبَأ به ، ولا تهتم له ، ولا تُبالِ بأذيتهم لك بسبب دَعوتك وإنذارك . أو : لا تُؤْذِ المُشركين مُجازاةً لهم على إيذائك ، واصْفَحْ عَنهم ، وتَجَاوَزْ عنهم ، ولا تُعاقبهم ، وكِلْ أمرَهم إلى اللَّه تعالى .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٣٠٧) : ((﴿ وَدَعْ أذاهُم ﴾ يقول: وأَعْرِضْ عَن أذاهم لَكَ ، واصْبِرْ عَلَيه ، ولا يَمنعك ذلك عن القيام بأمر اللَّه في عباده ، والنفوذ لِمَا كلَّفك)) .

واعْتَمِدْ على اللَّه في كُلِّ شُؤونك وأحوالك ، وتَوَكَّلْ عليه ، فإنه يَكفيك ما أهَمَّكَ مِن أُمُور الدُّنيا والآخرة . والآيةُ تُشير إلى عَظَمَة التَّوَكُّل على اللَّه ، وأنَّه رُكْن من أركان الدِّين ، فَمَن تَوَكَّلَ على اللَّه كَفَاه أُمورَ دِينه ودُنياه ، وحَمَاه مِن كُلِّ الشُّرور والأخطار. وكفى باللَّه مُفَوَّضًا إلَيه الأمور الصغيرة والكبيرة . والوكيل الحافظ القائم على الأمر .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٣٠٧) : ((قَوْلُه : ﴿ وَتَوَكَّلْ على اللَّهِ ﴾ يقول : وَفَوِّضْ إلى اللَّه أُمُورَك ، وَثِقْ بِه ، فإنَّه كافِيك جميع مَن دُونَه حتى يَأتِيَكَ أمرُه وقضاؤه . ﴿ وكَفَى باللَّهِ وَكيلًا ﴾ يقول : وحَسْبُكَ باللَّه قَيِّمًا بأُمُورك ، وحافظًا لك)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٤١٠) : ((﴿ وكَفَى باللَّهِ وَكيلًا ﴾ تُوكَل إلَيه الأمور ، وتُفوَّض إلَيه الشُّؤون.فَمَن فَوَّضَ إلَيه أُمُورَه كَفَاه، ومَن وَكَلَ إلَيه أحوالَه لَم يَحْتَجْ فِيها إلى سِواه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ واسْتَقِمْ كما أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أهْوَاءَهُم وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزلَ اللَّهُ مِن كِتابٍ وأُمِرْتُ لأعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنا وَرَبُّكُم لَنا أعمالُنا ولَكُم أعمالُكم لا حُجَّةَ بَيْنَنا وبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا وإلَيْهِ المَصِيرُ ﴾ [الشُّورى : ١٥] [١١٠].

ادْعُ إلى الإسلامِ يا مُحَمَّد ، فهو دِينُ كُلِّ الأنبياءِ ، وَلَن يَقْبَلَ اللَّهُ غَيْرَهُ . واثبُتْ على الدِّين الذي أمرَكَ اللَّهُ باتِّباعه ، ولا تَتَّبِعْ أهواءَ الكافرين وأمزجتهم وعقائدهم المتناقضة ، وكُن مُؤمنًا

---

١١٠ قال القرطبي في تفسيره (١٦/ ١٤): ((قِيل : إنَّ هذه الآية نزلت في الوليد بن الْمُغيرة وشَيبة ابن رَبيعة ، وقد سألا رسولَ اللَّه ﷺ أن يَرجع عن دَعوته ودِينه إلى دِين قُرَيش ، على أن يُعْطِيَه الوليد نِصْفَ ماله، ويُزَوِّجَه شَيبة بابنته)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢٧٩) : ((وفي هذه الآية قَولان: أحدهما أنها اقتضت الاقتصار على الإنذار ، وذلك قبل القتال ، ثُمَّ نزلت آية السَّيف فَنَسختها ، قاله الأكثرون. والثاني أن معناها إنَّ الكلام بَعْدَ ظُهور الحُجَج والبراهين قد سقط بَيْنَنا ، فعلى هذا هي مُحْكَمَة ، حكاه شيخنا عليُّ بن عُبَيد اللَّه عن طائفة من المفسِّرين)) .

بِكُتب اللَّه كُلِّها ، واعْدِلْ بين الناس في جميع الأحوال والقضايا . إنَّ اللَّه إلهٌ واحدٌ ، وهو رَبُّ كُلِّ شَيء . وللمسلمين أعمالُهم ، وللكافرين أعمالُهم ، اتَّضَحَ الحَقُّ وظَهَرَ ، فلا مَعنى للجِدال ، ولَم يَبْقَ إلا العِنَاد والمُكَابَرَة ، واللَّهُ يَجمع بين الناسِ يوم القيامة ، ويَقضي بينهم ، وعِندَ اللَّه تجتمع الخُصوم .

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ ﴾ . بسبب التَّفرق الذي حَصَلَ عِند أهل الكتاب ، ادْعُ يا مُحَمَّد إلى الإسلامِ دِينِ كُلِّ الأنبياء . وكُلُّ الأديان سِواه باطلة . والإسلامُ هُوَ الحاكمُ على كُلِّ الأديان ، لأنَّه الدِّين الوحيد المحفوظ مِنَ التَّحريف والتَّغيير والتلاعب . وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ١٤) : ((لَمَّا جَازَ أن يَكون الشَّك لليهود والنصارى أو لِقُرَيش قِيل له: ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ ﴾ ، أي: فَتَبَيَّنْتَ شَكَّهم، فادْعُ إلى اللَّه ، أي : إلى ذلك الدِّين الذي شَرَعَه اللَّهُ للأنبياء)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٧/ ٢٧٨) : ((قَولِه تعالى : ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ ﴾ ، قال الفَرَّاء : المعنى : فإلى ذلك ، تَقُول : دَعَوْتُ إلى فُلان ، وَدَعَوْتُ لِفُلان ، وذلك بمعنى هذا . وللمُفسِّرين قَولان : أحدهما أنَّه القُرآن ، قاله ابن السائب . والثاني أنه التَّوحيد ، قاله مُقاتِل)) .

﴿ واسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ ﴾ . اسْتَقِمْ على العملِ بالإسلام ، واجعله واقعًا عمليًّا ، وتَمَسَّكْ بِه كما أمركَ اللَّهُ تعالى . وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ١٤) : ((﴿ واسْتَقِمْ ﴾ خِطاب لَهُ عَلَيه السَّلام. قال قَتادة: أي اسْتَقِمْ على أمر اللَّه . وقال سُفيان: أي اسْتَقِمْ على القُرآن. وقال الضَّحاك : اسْتَقِمْ على تبليغ الرِّسالة)) .

﴿ وَلا تَتَّبِعْ أهْوَاءَهُم ﴾ . ولا تَتَّبِعْ أهواءَ الكافرين الذين بَنَوْا دِينَهم على التناقض والشُّكوك والأكاذيب ، فغابَ عنهم اليقين ، وغرقوا في مُستنقع الشُّكوك والأهواء والشُّبُهَات والشَّهَوَات . وارفض دعوتهم لِتَرك دِين التَّوحيد . ولا تَعْبأ بِخِلافهم ، ولا تَتأثَّر بِعَداوتهم ، ولا تَلتفِتْ إلى طَعْنهم في الحق ، فأهواؤهم باطلة ، وأمزجتهم فاسدة ، وأحكامهم جائرة، وعقائدهم مُنحرِفة .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٧ / ٢٧٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَلا تَتَّبِعْ أهْوَاءَهُم ﴾ يعني : أهل الكتاب ، لأنَّهم دَعَوْهُ إلى دِينهم)) .

﴿ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزلَ اللَّهُ مِن كِتابٍ ﴾ . قُل: آمنتُ بكل الكتب السَّماوية بلا استثناء . آمنتُ بالتَّوراة والإنجيل والزَّبُور وصُحُف إبراهيم وموسى . والجديرُ بالذِّكر أنَّ أهل الكتاب (اليهود والنصارى) قد تَفرَّقوا في دِينهم، فآمَنوا بِبَعْضٍ ، وكَفروا بِبَعْضٍ ، لأنَّ عقائدهم مَبنية على الأهواء ، والشُّكوك ، والمصالح الشخصية ، والمنافع المادية .

﴿ وأُمِرْتُ لأعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ . لقد أَمَرَهُ اللَّهُ أن يَعْدِلَ بينهم في الحُكْمِ إذا تَخاصَموا إلَيه . والنبيُّ ﷺ عادلٌ في الحُكْمِ بَيْنَهم بالحق والإنصاف ، بِلا مُجامَلة ولا ظُلْم ، كما أنَّه ﷺ عادلٌ في تَبليغ الرِّسالة ، يُؤْمِن بجميع الكُتب السَّماوية بلا استثناء، ويُؤْمِن بجميع الأنبياء دُون تَفرقة بَيْنَهم.

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٧٥٥) : ((﴿ وأُمِرْتُ لأعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ في أحكام اللَّه إذا ترافعتم إلَيَّ ، ولا أَحِيف عليكم بزيادة على ما شَرَعَه اللَّهُ ، أوْ بِنُقصان مِنه ، وأُبلِّغ إليكم ما أمَرَني اللَّهُ بتبليغه)) .

﴿ اللَّهُ رَبُّنا وَرَبُّكُم ﴾ . اللَّهُ هو المعبود بحقٍّ ، وَحْدَهُ لا شَريك له . وَهُوَ رَبُّ المؤمنين والكافرين . وكُلُّ شخصٍ _ مَهْما كانت عقيدته _ هو خاضعٌ للَّه ، إمَّا أن يَكون ذلك بإرادته أو رَغم أنفه . واللَّهُ خالقُ الناس جميعًا ، مؤمنهم وكافرهم ، وهو رَبُّ كُلِّ شَيء ، فيجب تَوحيده ، ورفض الشِّرْك .

﴿ لَنا أعمالُنا ولَكُم أعمالُكم ﴾ . نَحْنُ بريئون مِمَّا تعمَلون ، وأنتم بَريئون مِمَّا نَعمَل . كُلُّ إنسان يَتحمَّل نتيجةَ عمله ، سواءٌ كان ذلك خَيرًا أَمْ شَرًّا . وكُلُّ شخص مسؤول عن أعماله ، ولا علاقة له بأعمال الآخرين .

﴿ لا حُجَّةَ بَيْنَنا وبَيْنَكُمُ ﴾ . لا جَدَلَ بَيْنَنا ولا خُصومة ، فقد اتَّضحَ الصَّوابُ ، وبانَ الصِّراطُ المستقيم ، وظَهَرَ الحقُّ ، وَزَهَقَ الباطلُ . ولَم يَبْقَ إلا العِناد والتَّبَجُّح والمُكَابَرة . والكُفرُ عِناد .

﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا ﴾ . اللَّهُ يَجمع الناسَ يوم القيامة لِيُحَاسِبَهم ، فَمَن عَمِلَ خَيرًا وَجَدَ خَيرًا ، وَمَن عَمِلَ شَرًّا ، وَجَدَ جَزاءَ عمله .

﴿ وإلَيْهِ المَصِيرُ ﴾ . إلى اللَّه المَرجِع ، ولا أحد يَهرب مِنهُ سُبحانَه ، وهو القاضي العادلُ الذي لا يَظلم ، ولا يُجامِل ، وعِندَ اللَّه تَجتمع الخُصُوم ، واللَّهُ يَحكم على الإنسانِ ، أوْ يَحكُم لَه . ولا مُعقِّب لِحُكْمِه ، ولا رَاد لأمره . وكُلُّ إنسان سَيَذهب بَعْدَ مَوته إلى اللَّه تعالى ، لكنَّ السَّعيد مَن يَذهب في حياته إلى اللَّه تعالى .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٢٥) : ((﴿ فَلِذَلِكَ ﴾ فلأجْلِ ذلك التَّفرق أو الكتاب أو العِلم الذي أُوتِيتَهُ ﴿ فَادْعُ ﴾ إلى الاتفاق على المِلَّة الحنيفية ، أو الاتِّباع لِمَا أُوتِيتَ، وعلى هذا يجوز أن تكون اللام في مَوضع " إلى " لإفادة الصِّلة والتَّعليل . ﴿ واسْتَقِمْ كما أُمِرْتَ ﴾ واسْتَقِمْ على الدَّعوة كما أمَرَكَ اللَّهُ تعالى . ﴿ وَلا تَتَّبِعْ أهْوَاءَهُم ﴾ الباطلةَ . ﴿ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزلَ اللَّهُ مِن كِتابٍ ﴾ يعني جميع الكُتب المُنْزَلة لا كالكُفَّار الذين آمَنوا بِبَعْضٍ وكَفروا بِبَعْضٍ . ﴿ وأُمِرْتُ

لأعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ في تَبليغ الشَّرائع والحكومات ، والأول إشارة إلى كَمال القوة النظرية ، وهذا إشارة إلى كمال القوة العملية . ﴿ اللَّهُ رَبُّنا وَرَبُّكُم ﴾ خالق الكُل وَمُتَوَلِّي أمْرِه . ﴿ لَنا أعمالُنا ولَكُم أعمالُكم ﴾ وكُلٌّ مُجَازَى بعمله . ﴿ لا حُجَّةَ بَيْنَنا وبَيْنَكُمُ ﴾ ولا حِجَاج ، بمعنى لا خُصومة ، إذ الحق قد ظَهَرَ ، ولَم يَبْقَ للمُحَاجَّة مجال ، ولا للخِلاف مبدأ سِوى العِناد . ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا ﴾ يَوْمَ القِيامة . ﴿ وإلَيْهِ المَصِيرُ ﴾ مَرْجِع الكُل لِفَصْلِ القَضاء . وليس في الآية ما يَدُلُّ على مُتارَكة الكفار رَأسًا حتى تكون مَنسوخة بآية القتال)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قُل للذينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا للذينَ لا يَرْجُونَ أيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كانوا يَكْسِبُون ﴾ [الجاثية : ١٤] [١١١].

يُعلِّم اللَّهُ عِبادَه المؤمنين فضائلَ الأخلاق ، ومحاسنَ الأفعال . قُلْ يا مُحَمَّد للذين أقَرُّوا بِوَحدانية اللَّه ، وصَدَّقُوا بِنُبُوَّتِك ، واتَّبَعُوكَ ، يَعْفُوا ويَصْفَحُوا عن الكُفَّار ، ويتجاوزوا عمَّا يَصدُر عَنهُم مِن الأذى والأفعال السَّيئة . وهؤلاء الكفار لا يَخافون عذابَ اللَّهِ وعِقَابَه ، لأنَّهُم لا يُؤمنون بالآخرة ، ولا يُصدِّقون بلقاء اللَّه تعالى . وبعبارة أُخرى ، لا يَخافون وقائعَ اللَّه في الأُمَم الخالية ، لأنَّهُم لا يؤمنون به ، فلا يَخافون عِقَابَه .

---

١١١ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٣٥٧ و٣٥٨) : ((قوله تعالى : ﴿ قُل للذينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا ﴾ الآية. في سبب نزولها أربعة أقوال : أحدها أنهم نَزَلُوا في غَزَاة بني الْمُصْطَلِق على بِئْر يُقَال لها : الْمُرَيْسِيع، فأرسلَ عبدُ اللَّه بن أُبَي غلامَه لِيَسْتَقِيَ الماءَ ، فأبطأ عليه ، فلمَّا أتاه قال له : ما حَبَسَكَ ؟، قال : غُلام عُمَر ، ما تَرَكَ أحدًا يَستقي حتى ملأ قُرَبَ النبيِّ ﷺ ، وقُرَبَ أبي بَكْر ، ومَلأ لِمَوْلاه ، فقال عبد اللَّه : ما مَثَلُنا ومَثَلُ هؤلاء إلا كما قِيل : سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ ، فَبَلَغَ قَوْلُه عُمَرَ ، فاشتملَ سَيْفَه يُريد التَّوَجُّه إليه ، فنزلت هذه الآية ، رواه عطاء عن ابن عباس . والثاني أنها لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ مَن ذَا الذي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [البقرة : ٢٤٥] ، قال يهوديٌّ بالمدينة يُقَال له فَنْحَاص : احتاجَ رَبُّ محمَّد ، فلمَّا سمع بذلك عُمَر اشتمل على سَيفه، وخَرَجَ في طَلَبه ، فَنَزَلَ جِبريل عليه السلام بهذه الآية، فَبَعَثَ النبيُّ ﷺ في طَلَب عُمَر ، فلمَّا جاء قال : " يا عُمَر ، ضَعْ سَيْفَكَ " ، وتلا عليه الآية ، رواه مَيمون بن مِهران عن ابن عباس. والثالث أنَّ ناسًا مِن أصحاب رسول اللَّه ﷺ مِن أهل مكة كانوا في أذى شديد من المشركين قَبْل أن يُؤْمَرُوا بالقتال ، فَشَكَوْا ذلك إلى رسول اللَّه ﷺ ، فنزلت هذه الآية، قاله القُرَظي والسُّدي . والرابع أنَّ رَجُلًا مِن كُفَّار قُرَيش شَتَمَ عُمَرَ بن الخطاب ، فَهَمَّ عُمَر أن يَبْطِشَ به، فنزلت هذه الآية، قاله مُقاتل)).

﴿ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كانوا يَكْسِبُون ﴾ ، لِيُجَازِيَ الكُفَّارَ بما ارتكبوه مِن الآثام والجرائم . وهذا وعيدٌ شديد، وتهديد أكيد . والتَّنكيرُ في ﴿ قَوْمًا ﴾ للتحقير . والآيةُ نزلت قبل الأمر بقتال الكُفَّار.

وجُمهور المُفسِّرين على أنَّ هذه الآية منسوخة ، لأنها تَضَمَّنَت الأمرَ بالإعراض عن المُشركين.

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٢٥٦) : ((يقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه مُحَمَّد ﷺ : قُلْ يا مُحَمَّد للذين صَدَّقُوا اللَّهَ ، واتَّبَعُوكَ ، يَغْفِرُوا للذين لا يَخافون بأسَ اللَّهِ ووقائعَه ونِقَمَه ، إذا هُم نالوهم بالأذى والمكروه ، ﴿ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كانوا يَكْسِبُون ﴾ ، يَقُول : لِيَجْزِيَ اللَّهُ هؤلاء الذين يُؤْذُونهم مِن المُشركين في الآخرة ، فَيُصيبهم عذابُه بما كانوا في الدُّنيا يَكسِبون مِن الإثم ، ثُمَّ بأذاهم أهل الإيمان باللَّه)) اهـ . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٩٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ قُل للذينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا للذينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ ، أي : لِيَصْفَحُوا عَنهُم ، ويتحمَّلوا الأذى مِنهُم ، وكان هذا في ابتداء الإسلام، أُمِرُوا أن يَصبِروا على أذى المشركين وأهل الكِتاب ، لِيَكُون ذلك كالتأليف لهم ، ثُمَّ لمَّا أَصَرُّوا على العِنَاد ، شَرَعَ اللَّهُ للمُؤمنين الجِلاد والجِهاد ، هكذا رُوِيَ عن ابن عباس رضي اللَّهُ عنهما وقَتادة . وقال مُجاهد : ﴿ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ ، لا يَنالُون نِعَمَ اللَّه تعالى . وقَوله تباركَ وتعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كانوا يَكْسِبُون ﴾ ، أي : إذا صَفَحُوا عنهم في الدُّنيا ، فإنَّ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ مُجَازيهم بأعمالهم السَّيئة في الآخرة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ لا يَنهاكم اللَّهُ عَنِ الذينَ لَم يُقَاتِلُوكم في الدِّينِ ولم يُخرِجُوكم مِن دِيارِكُم أن تَبَرُّوهُم وتُقسِطوا إليهم إن اللَّه يُحب المُقسطين ﴾ [المُمْتَحَنة : ٨] [١١٢].

---

١١٢ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٢٣٦ و٢٣٧): ((اختلَفوا فيمن نزلت على خمسة أقوال : أحدها أنها في أسماء بنت أبي بَكْر ، وذلك أنَّ أُمَّهَا قُتَيلة بنت عبد العُزَّى قَدِمَتْ عليها المدينة بهدايا فَلَم تَقبل هداياها،ولَم تُدخلها مَنْزِلَها،فسألتْ لها عائشة رسولَ اللَّه ﷺ، فَنَزلت هذه الآية.فأمَرَها رسول اللَّه ﷺ أن تُدخلها مَنْزِلَها ، وتَقبل هَدِيَّتَهَا وتُكرمها وتُحسِن إليها ، قاله عبد اللَّه بن الزُّبَير. والثاني أنها نزلت في خُزاعة وبني مُدْلِج، وكانوا صَالَحُوا رسولَ اللَّه ﷺ على أن لا يُقَاتلوه ولا يُعينوا عليه أحدًا، قاله ابن عباس . ورُوِيَ عن الحسن البَصْري أنها نزلت في خُزاعة وبني الحارث بن عبد مَناف،وكان بينهم وبين رسول اللَّه ﷺ عهد فداموا على الوفاء به. والثالث نزلت في قَوم من بني هاشم مِنهم العباس، قاله عطية العَوفي . والرابع أنها عامَّة في جميع الكفار ، وهي مَنسوخة بقَوْله تعالى:﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتموهُمْ ﴾ [التَّوبة: ٥]، قاله قتادة. والخامس نزلتْ في النساء والصِّبيان، حكاه الزَّجاج)) .

لا يَنهاكم اللَّهُ عن الإحسان إلى الكفار الذين لَم يُقَاتلوكم لأجل دِينكم ، ولَم يُخرجوكم مِن دِياركم . لا يَمنعكم اللَّهُ مِن إكرامهم ، والإحسان إلَيهم ، ومُعاملتهم بالعدل والاحترام ، ما داموا لَم يُحاربوكم ، ولَم يُؤْذُوكم ، خُصُوصًا إذا كانوا مِن أقاربكم وأرحامكم .

وهذه الآيةُ الكريمة رُخصة في صِلَة الكُفَّار غَير المُحَارِبين ، والإحسان إلَيهم ، رغمَ انقطاع المُوالاة مِنهم .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٦٢) : ((يقول تعالى ذِكْرُه: ﴿ لا يَنهاكم اللَّهُ عَنِ الذينَ لَم يُقَاتِلُوكم في الدِّينِ ﴾ مِن أهل مكة ، ﴿ ولم يُخرِجُوكم مِن دِيارِكُم أن تَبَرُّوهُم وتُقسِطوا إليهم ﴾ . يقول : تعدلوا فيهم بإحسانكم إليهم ، وبِرِّكم بهم)) .

وعن عبد اللَّه بن الزُّبَير ــ رضي اللَّهُ عنه ــ قال : قَدِمَتْ قُتَيلة بنت عبد العُزَّى بنت أسعد من بني مالك بن حِسْل على ابنتها أسماء بنت أبي بَكْر الصِّديق ــ رضي اللَّه عنهما ــ، وكان أبو بكر طَلَّقها في الجاهلية ، فَقَدِمَتْ على ابنتها بهدايا : ضِبابًا وسَمْنًا وأَقِطًا [113]، فأبَتْ أسماءُ أن تأخذَ مِنها وتَقبلَ مِنها وتُدْخِلَها مَنْزِلَها ، حتى أرسلتْ إلى عائشة أن سَلِي عن هذا رسولَ اللَّه ﷺ ، فأخبرَتْهُ ، فأمرَها أن تَقبلَ هداياها ، وتُدْخِلَها مَنْزِلَها . فأنزلَ اللَّهُ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ : ﴿ لا يَنهاكم اللَّهُ عَنِ الذينَ لَم يُقَاتِلُوكم في الدِّينِ ولم يُخرِجُوكم مِن دِيارِكُم أن تَبَرُّوهُم ﴾ [114].

قَدَّمَتْ أسماءُ بنت أبي بكر رابطةَ الدِّين على رابطة الدَّم ، فَرَفضت إكرامَ أُمِّها الكافرة رغم ما بينهما من القَرابة ، خَوْفًا أن يَكون هذا الفِعْل طَعْنًا في الدِّين . وهذا يُشير إلى تَقْواها. ومِن تَقْواها كذلك أنها حَرِصَتْ على سؤال النبيِّ ﷺ ، وأخذِ فَتوى نبوية بخصوص هذا الأمر . وما كانَ مِن النبيِّ ﷺ إلا أن أمرَها بالإحسان إلى أُمِّها والبِر بها . وهذا يُشير إلى الأخلاق الإسلامية الرفيعة .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إنما يَنهاكم اللَّهُ عَنِ الذينَ قاتلوكُم في الدِّينِ وأخرَجُوكُم مِن دِيارِكُم وظَاهَرُوا على إخراجِكُم أن تَوَلَّوْهُم ومَن يَتولَّهُم فأُولئكَ هُمُ الظالمون ﴾ [المُمْتَحَنة : ٩] .

إنَّما يَنهاكم اللَّهُ عن مُوالاة ومَحَبَّة الكُفَّار المُحَارِبين الذينَ قاتلوكم لأجل دِينكم ، وأخرَجُوكم مِن دياركم، وأعانوا أعداءكم على إخراجكم مِن دياركم ، أن تَتَوَلَّوْهُم وتتَّخذوهم أنصارًا وأحبابًا وأعوانًا . ومَن يتَّخذ أعداءَ اللَّه أولياءَ ويحبهم ويُناصرهم ويُعينهم ، فأُولئك هُم الظالمون لأنفسهم ،

---

١١٣ الضِّباب (جَمْع ضَب) . والأَقِط هو لبن مُجَفَّف يابس يُطبَخ بِه .

١١٤ رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٢٧) برقم (٣٨٠٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

لأنهم عرَّضوها لعذاب اللَّه وعقوبته، وذلك بسبب وَضْعهم الوَلاية في غَير مَوْضعها ، واتخاذِ أعداء اللَّه أولياء . ولا يخفى أن هذا الأمر يَطعن في العقيدة ، ويُشكِّل خطرًا حقيقيًّا على الإسلام والمسلمين. يَمنعكم اللَّهُ مِن مُوالاتهم ومَوَدَّتهم واتِّخاذهم أحبابًا وأنصارًا . وهؤلاء لَيس لهم إلا السَّيف، وتجب عداوتهم ومُحَارَبتهم. ومَن يتولَّهم فهو غارق في الإثم الكبير ، والمعصية العظيمة، والخيانة الكُبرى . وقد ظَلَمَ نَفْسَه أشدَّ الظُّلْم ، لأنه تَوَلَّى أعداءَ اللَّه ، وقاد نَفْسَه إلى الهلاك الأكيد والعذاب الشديد .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٦٣): ((يقول تعالى ذِكْرُه: ﴿ إنما يَنهاكم اللَّهُ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ عَنِ الذينَ قاتلوكُم في الدِّينِ ﴾ مِن كُفار أهل مكة ، ﴿ وأخرَجُوكُم مِن دِيارِكُم وظَاهَرُوا على إخراجِكُم أن تَوَلَّوْهُم ﴾ . يقول: وَعَاوَنوا مَن أخرجكم مِن دياركم على إخراجكم، أن تَوَلَّوْهُم ، فتكونوا لهم أولياء ونُصَراء . ﴿ ومَن يَتولَّهُم ﴾ . يقول : ومَن يَجعلهم مِنكم أوْ مِن غَيركم أولياء ، ﴿ فأُولئكَ هُمُ الظالمون ﴾ . يقول : فأُولئك هُم الذين تَوَلَّوْا غَير الذي يَجوز لهم أن يَتَوَلَّوْهُم ، ووضعوا وَلايتهم في غَير مَوضعها ، وخالفوا أمرَ اللَّه في ذلك)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ واصْبِرْ على ما يَقولونَ واهْجُرْهُم هَجْرًا جَميلًا ﴾[المُزَّمِّل : ١٠] .

اصْبِرْ يا مُحَمَّد على أذى المشركين (كفار مكة) وسُخريتهم وشَتْمهم ، واتِّهاماتهم الباطلة لَكَ (ساحر ، كاهن ، مجنون، شاعر) ، ولا تَيْأس مِن دَعوتهم ، ولا تَمتنع عن إرشادهم ، ولا تتعرَّض لهم بأذًى ولا شتيمة ، وجَانِبْهُم بقلبك ، وقُم بِمُداراتهم ، واترُكْ أمرَهم إلى اللَّه ، فإنَّ اللَّه كَافِيكَ ما أهَمَّكَ ، وناصرُك عَلَيهم . وكان هذا قبل الأمر بالقتال . وهذه الآية مَنسوخة بآية السَّيف .

والهجرُ الجميلُ هو الذي لا جَزَع فِيه ولا عِتاب . وفي الهجر الجميل تتجلى المُدَارَاةُ ، واللينُ ، وعدمُ الصِّدام .

وفي صَفوة التفاسير (١٩/ ٥٨) : ((قال المُفسِّرون : ... وقد كان هذا قبل أن يُؤْمَر بالقتال كما قال سُبحانَه : ﴿ وإذا رَأيتَ الذينَ يَخوضونَ في آياتِنا فأعْرِضْ عَنهُم ﴾ [الأنعام : ٦٨] . ثُمَّ أُمِرَ ﷺ بقتالهم وقَتْلهم . والحِكمة في هذا أن المؤمنين كانوا بمكة قِلَّةً مُسْتَضْعَفِين ، فَأُمِرُوا بالصبر والمُجَاهَدة الليلية ، حتى يُعِدُّوا أنفسَهم بهذه التربية الروحية على مُناجَزة الأعداء ، وحتى يَكْثُر عددُهم فَيَقِفُوا في وجه الطُّغيان ، أمَّا قبل الوصول إلى هذه المرحلة فينبغي الصبر والاقتصار على الدَّعوة باللسان)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قُلْ يا أيُّهَا الكافرون ﴾ [الكافرون : ١] [١١٥].

الخِطَابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ . قُلْ يا مُحَمَّد لهؤلاء الكُفَّار الذين يَدعونك إلى عبادهم آلهتهم العاجزة وأصنامهم الباطلة : يا أيُّها الكافرون باللَّه .

إنَّهُم كافرون لأنَّهُم جَحَدُوا وَحدانيةَ اللَّه ، وأنكَروا نُبُوَّةَ مُحَمَّد ﷺ .

وفي قَول اللَّه تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ دليل على أنَّ النبيَّ ﷺ عبدٌ مأمور بذلك مِن عِند اللَّه الذي أرسله . والخِطَابُ بالوَصْف : ﴿ يا أيُّهَا الكافرون ﴾ للتَّوبيخ والتَّشنيع على مُشركي مَكَّة . ونِسبتهم إلى الكُفْر ــ والنبيُّ ﷺ يَعْلَم أنهم يَغضبون مِن أن يُنسَبوا إلى ذلك ــ دليلٌ على أنَّ النبيَّ ﷺ مَحروس مِن عِند اللَّه تعالى، واللَّهُ يَحفظه مِن كُلِّ شر، ويَعصِمه مِن كُلِّ أذى، ويَحْمِيه مِن كُلِّ سُوء. لذلك ، لا يَعْبَأ النبيُّ ﷺ بالكُفَّار ، ولا يُبَالي بهم ، ولا يهتم لآلهتهم الساقطة وأوثانهم الوهمية .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٧٢٧) : ((يقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه مُحَمَّد ﷺ ، وكان المُشركون مِن قَوْمه فِيما ذُكِرَ عَرَضُوا عليه أن يَعبدوا اللَّهَ سَنَةً ، على أن يَعبد نبيُّ اللَّه ﷺ آلهتهم سَنَةً ، فأنزلَ اللَّهُ مُعَرِّفَه جَوَابَهَم في ذلك : ﴿ قُلْ ﴾ يا مُحَمَّد لهؤلاء المُشركين الذين سألوكَ عِبَادَةَ آلهتهم سَنَةً على أن يَعبدوا إلَهَكَ سَنَةً ﴿ يا أيُّهَا الكافرون ﴾ باللَّه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ لا أعْبُدُ ما تَعْبُدُون ﴾ [الكافرون : ٢] . لا أعبد هذه الأصنامَ والأوثان التي تَعْبدونها، فأنا بريء مِن آلهتكم الباطلة التي لا تَضُرُّ ولا تَنفع . وقال الطبري في تفسيره(١٢/ ٧٢٧) : ((وقَوله : ﴿ لا أعْبُدُ ما تَعْبُدُون ﴾ مِن الآلهة والأوثان الآن)) .

---

١١٥ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٢٥٢ و٢٥٣) : ((ذِكْر سبب نزولها ــ نزول السُّورة ــ اختلفوا على ثلاثة أقوال : أحدها أنَّ رَهْطًا مِن قُرَيش ، مِنهم الوليد بن الْمُغيرة والعاص بن وائل والأسْوَد ابن عبد يَغُوث ، لَقُوا العباس بن عبد الْمُطَّلِب ، فقالوا : يا أبا الفضل ، لَوْ أنَّ ابن أخيك استلمَ بعضَ آلهتنا لَصَدَّقْنَاه بما يقول ، ولآمَنَّا بإلهه ، فأتاه العباس فأخبره ، فنزلت هذه السُّورة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني أنَّ عُتبة بن ربيعة وأُمَيَّة بن خَلَف لَقِيَا رسولَ اللَّه ﷺ ، فقالا : يا محمد ، لا نَدَعُكَ حتى تَتَّبع دِيننا ونَتَّبع دِينَك ، فإنْ كان أمرُنا رَشَدًا كُنْتَ قد أخذتَ بِحَظِّكَ مِنه ، وإنْ كان أمرُك رَشَدًا كُنَّا قد أخَذْنا بِحَظِّنا مِنه ، فنزلت هذه السورة ، قاله عُبَيد بن عُمَير . والثالث أنَّ قُرَيْشًا قالوا للنبيِّ ﷺ : إنْ سَرَّكَ أن نَتَّبع دِينَك عامًا ، وترجع إلى دِيننا عامًا ، فنزلت هذه السُّورة ، قاله وَهْب . قال مُقاتل في آخرين : نزلت هذه السُّورة في أبي جَهْل وفي الْمُستهزئين ، ولَم يَبْقَ مِن الذين نزلت فيهم أَحَد)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ولا أنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ [الكافرون : ٣] .

ولا أنتم أيُّها الكافرون عابدون إلهي الحَقَّ الذي أعْبُدُه ، وهو اللَّه وَحْدَه. والنبيُّ ﷺ يَعبد اللَّهَ، ولا مَعبود بحق سِوَاه ، أمَّا الكافرون (المُشركون) فَيَعبدون الأصنامَ والحجارةَ ، وهي آلهة باطلة ، ولا مُقارنة بين عبادة الرَّحمن وعبادة الأوثان . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٧٢١) : ((﴿ولا أنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أي:ولا أنتم فاعلون في المستقبل ما أطلب مِنكم من عبادة إلهي)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ولا أنا عَابِدٌ مَا عَبَدتم ﴾ [الكافرون : ٤] .

تأكيد لِمَا سَبَقَ مِن البراءة مِن عبادة الأصنام والحجارة،وقَطْع لأطماع الكُفَّار.كأنَّه قال:لا أعْبُد هذه الأصنام في الحال ولا في الاستقبال . فأنا لا أعْبُد ما تَعْبُدونه أبدًا ما عِشْتُ . لا أعْبُد أصنامَكم الآن ، ولا فيما يُسْتَقْبَل مِن الزمان .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٧٢١) : ((﴿ ولا أنا عَابِدٌ مَا عَبَدتم ﴾ أي : ولا أنا قَط فِيما سَلَف عابد ما عبدتم فيه ، والمعنى : أنَّه لَم يُعْهَدْ مِنِّي ذلك)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ولا أنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ [الكافرون : ٥] .

ولَسْتُم أنتم في المستقبل بعابدين إلهي الحَقَّ الذي أعْبُده . وهذا خِطَاب لِمَن سَبَقَ في عِلْم اللَّه أنَّهم لا يؤمنون . وقد نَفَى النبيُّ ﷺ عن الكُفَّار عبادةَ اللَّه في الحال والمُسْتَقْبَل ، وَنَفَى عَن نَفْسِه عبادةَ الأصنام في الحال والمُسْتَقْبَل ، وكَي يَيأس الكُفَّار في ذلك ، وتَنقطع أطماعُهم .

وإطلاق " ما " على اللَّه على وَجْه المُقَابَلَة ، حيث جُعِلَت ﴿ ولا أنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ [الكافرون: ٥] وهو اللَّه ، مُقَابِلًا لِ ﴿ ولا أنا عَابِدٌ مَا عَبَدتم ﴾ [الكافرون : ٤]، وهي الأصنام.

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٧٢٧) : ((قَوله : ﴿ ولا أنتُمْ عَابِدُونَ ﴾ فِيما تَستقبلون أبدًا ﴿مَا أَعْبُدُ ﴾ أنا الآن،وفِيما أستقبل.وإنَّما قِيل ذلك كذلك لأنَّ الخِطاب مِن اللَّه كان لرسول اللَّه ﷺ في أشخاص بأعيانهم مِن المُشركين ، قَد عَلِمَ أنَّهُم لا يؤمنون أبدًا ، وسَبَقَ لهم ذلك في السابق مِن عِلْمِه ، فَأَمَرَ نَبِيَّه ﷺ أن يُؤَيِّسَهم مِن الذي طَمِعُوا فيه ، وحَدَّثوا به أنفسَهم ، وأنَّ ذلك غَير كائن مِنه ولا مِنهم ، في وقت من الأوقات . وآيَسَ نبيَّ اللَّه ﷺ من الطمع في إيمانهم ، ومِن أن يُفْلِحوا أبدًا ، فكانوا كذلك ، لَم يُفْلِحوا ، ولَم يَنجحوا ، إلى أن قُتِلَ بعضُهم يَوم بَدْر بالسَّيْف ، وهَلَكَ بَعْضٌ قَبل ذلك كافرًا)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٩/ ٢٥٣ و٢٥٤) : ((وفي تَكرار الكلام قَولان : أحدهما لتأكيد الأمر ، وحَسْم أطماعهم فيه ، قاله الفَرَّاء . ... . والثاني أنَّ المَعنى ﴿ لا أَعْبُدُ ما

تَعْبُدُون ﴾ في حالي هذه ، ﴿ ولا أنتُمْ ﴾ في حالكم هذه ﴿ عَابِدُونَ مَا أعْبُدُ (٣) ولا أنا عَابِدٌ مَا عَبَدتم (٤) ﴾ فِيما أستقبل ، وكذلك أنتم . فَنَفَى عنه وعَنهم ذلك في الحال والاستقبال ، وهذا في قَوم بأعيانهم ، أعلمه اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أنهم لا يؤمنون ، كَمَا ذَكَرْنا عن مُقَاتِل ، فلا يكون حيئذ تَكرارًا ، هذا قَول ثَعلب والزَّجاج)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون : ٦] .

لكم شِرْكُكم القائم على عبادة الأصنام ، ولي دِين الإسلام القائم على التَّوحيد (عبادة اللَّه وَحْدَه) . وهذا غاية في التَّبَرُّؤ مِن عبادة الكُفَّار ، والتأكيد على عبادة اللَّه بلا شريك ولا نِد .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٧٢٨) : ((يقول تعالى ذِكْرُه: لكم دينكم ، فلا تتركونه أبدًا، لأنَّه قد خُتِمَ عليكم ، وقُضِيَ أن لا تنفكوا عنه ، وأنكم تَمُوتون عليه ، ولي ديني الذي أنا عليه لا أتركه أبدًا ، لأنَّه قد مضى في سَابِق عِلْم اللَّه أنِّي لا أنتقل عنه إلى غَيره)) .

والجديرُ بالذِّكْر أنَّ مَعنى الآيَتَيْن الأوَّلَتَيْن ﴿ لا أعْبُدُ ما تَعْبُدُون ﴾ [الكافرون: ٢]، ﴿ ولا أنتُمْ عَابِدُونَ مَا أعْبُدُ ﴾ [الكافرون : ٣] : الاختلاف التام في المعبود ، فآلهة المُشركين الأصنام، وإله مُحَمَّد هو اللَّه وَحْدَه . والمُقَابَلَةُ بَين هَاتَيْن الآيَتَيْن ، أي : في الحال .

ومعنى الآيَتَيْن الآخِرَتَيْن ﴿ ولا أنا عَابِدٌ مَا عَبَدتم ﴾ [الكافرون : ٤] ، ﴿ ولا أنتُمْ عَابِدُونَ مَا أعْبُدُ ﴾ [الكافرون : ٥] : الاختلاف التام في العبادة ، كأنَّه قال : لا مَعبودنا واحد ، ولا عبادتنا واحدة . والمُقَابَلَةُ بَين هَاتَيْن الآيَتَيْن ، أي : في الاستقبال .

وفي هذه المُقَابَلَة نَفْي لعبادة الأصنام في الحال والاستقبال .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٧٢٦) : ((هذه السُّورة سُورة البراءة من العمل الذي يَعمله المُشركون ، وهي آمِرة بالإخلاص فِيه ، فقَوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أيُّهَا الكافرون ﴾ يَشمل كُلَّ كافر على وجه الأرض ، ولكنَّ المُوَاجَهِين بهذا الخِطاب هُم كُفَّار قُرَيش ، وقِيل: إنَّهُم مِن جَهْلهم دَعَوْا رسولَ اللَّه ﷺ إلى عبادة أوثانهم سَنَةً ، ويَعبدون مَعبودَه سَنَةً، فأنزلَ اللَّهُ هذه السُّورةَ،وأمرَ رسولَه ﷺ فيها أن يَتَبَرَّأ مِن دِينهم بالكُلِّية ، فقال : ﴿ لا أعْبُدُ ما تَعْبُدُون ﴾ يعني: مِن الأصنام والأنداد ﴿ ولا أنتُمْ عَابِدُونَ مَا أعْبُدُ ﴾ ، وهو اللَّه وَحْدَه ، لا شريك له ، فَـ " ما " هَهُنا بمعنى " مَن " ، ثُمَّ قال : ﴿ ولا أنا عَابِدٌ مَا عَبَدتم (٤) ولا أنتُمْ عَابِدُونَ مَا أعْبُدُ (٥) ﴾ ، أي : ولا أعْبُد عبادتكم ، أي : لا أسْلُكها ، ولا أقتدي بها ، وإنَّما أعْبُد اللَّهَ على الوجه الذي يُحِبُّه ويَرْضَاه ، ولهذا قال : ﴿ ولا أنتُمْ عَابِدُونَ مَا أعْبُدُ ﴾ ، أي : لا تَقْتَدُون بأوامر اللَّه وشَرْعه في عبادته ، بَل قد اخترعتم شيئًا مِن تِلقاء

أنفسكم ، ... . فَتَبَرَّأ منهم في جميع ما هُم فيه ، فإنَّ العابد لا بُدَّ له مِن مَعبود يَعْبُده ، وعبادة يَسْلُكها إليه، فالرسول ﷺ وأتباعه يَعبدون اللَّهَ بما شَرَعَه ، ولهذا كان كَلِمَةُ الإسلام: لا إله إلا اللَّه، مُحَمَّد رسول اللَّه ، أي : لا مَعبود إلا اللَّه ، ولا طريق إليه إلا ما جاء به الرسول ﷺ . والمُشركون يَعبدون غَيْرَ اللَّه عبادةً لَم يَأْذَنْ بها اللَّهُ ، ولهذا قال لهم الرسول ﷺ : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ ، ... . وقال البُخاري : يُقَال : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ الكُفْر ، ﴿ وَلِيَ دِينِ ﴾ الإسلام ، ولَم يَقُلْ : دِيني ، لأن الآيات بالنُّون ، فحذف الياء . ... . وقال غَيْرُه : لا أعْبُد ما تَعبدون الآن ، ولا أُجِيبكم فِيما بَقِيَ مِن عُمري ، ولا أنتم عابدون ما أعْبُد . ... . ونقل ابن جرير عن بعض أهل العربية أنَّ ذلك من باب التأكيد ، ... . وحكاه بعضهم كابن الجَوزي وغَيره عن ابن قُتَيبة ، فاللَّهُ أعْلَم . ... . وقد استدلَّ الإمامُ أبو عبد اللَّه الشافعي وغَيْرُه بهذه الآية الكريمة : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ على أنَّ الكُفْر مِلَّة واحدة ، فَوَرَّثَ اليهودَ مِن النصارى ، وبالعكس ، إذا كان بينهما نَسَب أوْ سَبَب يُتَوَارَث به ، لأنَّ الأديان ما عدا الإسلام كُلُّها كالشيء الواحد في البُطْلان . وذهب أحمد بن حنبل ومَن وَافَقَه إلى عدم تَوريث النصارى من اليهود ، وبالعكس ، لحديث عمرو بن شُعَيب عن أبيه عن جَدِّه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : " لا يتوارث أهلُ مِلَّتَيْنِ شَتَّى ")) .

وفي صحيح مسلم (١/ ٥٠٢) عن أبي هريرة أنَّ رسول اللَّه ﷺ قَرَأَ في رَكْعَتَي الفَجْرِ: ﴿ قُلْ يا أيُّهَا الكافرون ﴾ ، و﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

قرأ النبيُّ ﷺ في سُنَّة الفَجْر (الرَّكْعَتَيْن بين الأذان والإقامة) سُورةَ الكافرون وسُورةَ الإخلاص. وهذا يدلُّ على أنَّ مِن شأن النبيِّ ﷺ تخفيف هاتَيْن الرَّكعتين .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٦ / ٥ و٦) : ((هذا دليل لمذهبنا ومذهب الجمهور أنَّه يُسْتَحَب أن يقرأ فيهما بعد الفاتحة سُورةً ، ويُستحب أن يكون هاتان السُّورتان، ... . _ هذه سُنَّة _ . وقال مالك وجُمهور أصحابه : لا يَقرأ غَيْرَ الفاتحة . وقال بعضُ السَّلَف : لا يَقرأ شيئًا كما سَبَقَ ، وكِلاهما خِلاف هذه السُّنَّة الصحيحة التي لا مُعَارِض لها)) .

وعن فَروة بن نَوفل الأشجعي عن أبيه : أنَّه قال للنبيِّ ﷺ : مُرْني بشيء أَقُوله ، فقال : ((إذا أَوَيْتَ إلى مَضْجَعِكَ فَاقْرَأْ ﴿ قُلْ يا أيُّهَا الكافرون ﴾ إلى خَاتِمَتِهَا ، فإنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشِّرْك)) [١١٦].

هذا الحديثُ يدلُّ على عَظَمَة سُورة الكافرون ، وفَضْلها الجليل ، ومَنزلتها الرفيعة .

---

١١٦ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٨٧) برقم (٣٩٨٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

كان الصحابةُ _ رضي اللَّهُ عنهم _ أحرصَ الناس على سؤال النبيِّ ﷺ عمَّا يَنفعهم في دُنياهم وآخِرتهم . والصحابيُّ فَروة بن نَوفل سأل النبيَّ ﷺ عن شيء يَقوله كَي يَنتفع به في آخِرته ، فأرشده النبيُّ ﷺ إلى قراءة سُورة الكافرون عند اضطجاعه على جَنْبِه الأيمن لِيَنام في فِرَاشه ، فإنَّ هذه السُّورة تُسلِّم صاحبَها مِن الشِّرْك باللَّه مُفِيدةً للتَّوحيد ، وذلك لأنَّها اشتملت على نَفْي عبادة ما يَعْبُده المُشركون بأبلغ عبارة ، وأوفى تأكيد .

وقال المُناوي في فيض القدير (١/ ٢٥١) _ عن رواية أُخرى للحديث_: (((إذا أخذتَ) أي : أَتَيْتَ كما في خَبَر البَرَاء (مَضْجَعِكَ) بفتح الجيم وكَسْرها ، مَحَل نَوْمِك ، والمَضْجَع : مَوضِع الضُّجُوع ، يعني : وَضَعْتَ جَنْبَكَ بالأرض لتنام (مِن الليل) بيان لزمن الاضطجاع ، وذِكْره للغالب ، فالنهار كذلك فيما أظن ، بَلْ يَظهر أنَّه لَوْ أراد النَّوْمَ قاعدًا كان كذلك (فاقرأ) نَدْبًا سُورة (﴿ قُلْ يا أيُّهَا الكافرون ﴾) أي : السُّورة التي أوَّلُها كذلك (ثُمَّ نَمْ على خَاتِمَتِهَا) أي : نَمْ على خَاتِمَة قراءتك لها ، أو اجعلها خَاتِمَةَ كلامك ثُمَّ نَمْ (فإنَّها) أي السُّورة المَذكورة (بَرَاءة مِن الشِّرْك) أي : مُتَضَمِّنَة للبراءة مِن الشِّرْك ، وهو عبادة الأوثان ، لأنَّ الجُمْلَتَيْن الأوَّلَتَيْن لِنَفْي عِبادة غَير اللَّه تعالى حَالًا ، والأخِيرَتَيْن لِنَفْي العبادة مَآلًا عِند البَغَوي ، وعاكسه القاضي ، وأطالَ أبو حَيَّان في الانتصار للأوَّل)) .

تَمَّ الكِتَابُ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالى

فِهْرِس

مقدمة........ 5

الفصل الأول : وُجوب الدَّعوة [7]

تمهيد........ 8

أوَّلًا : أهمية نشر الدَّعوة في كُل زمان ومكان........ 9

ثانيًا : خُطورة التقصير في الدَّعوة........ 56

ثالثًا : مُهِمَّة الرُّسُل........ 63

الفصل الثاني : الحِكمة في الدَّعوة [91]

تمهيد........ 92

أوَّلًا : وجوب التزام الحِكمة........ 93

ثانيًا : الدَّعوة بلسان القَوم وبما يَفهمونه........ 105

ثالثًا : المُجَادَلَة بالتي هي أحسن........ 111

رابعًا : دَفْع السَّيئة بالحَسَنَة........ 117

خامسًا : ضَرْب المَثَل........ 123

سادسًا : الامتناع عن إثارة الخَصْم........ 129

الفصل الثالث : حُدود الدَّعوة [133]

تمهيد........ 134

أوَّلًا : لا إكراه في الدِّين........ 135

ثانيًا : لا غُلُو في الدِّين........ 142

ثالثًا : الاضطهاد بسبب العقيدة ظُلْم لا يجوز........ 150

رابعًا : عدم التَّعَصُّب........ 183

خامسًا : التَّشَدُّد معَ الكُفَّار المُقَاتِلين........ 190

سادسًا : التساهل معَ الكُفَّار المُسَالِمين........ 246

فِهْرِس........ 303

صدر للمؤلف........ 304

صَدَرَ للمؤلف

الدراسات الدينية :

١ـ حقيقة القرآن . ٢ـ أركان الإسلام . ٣ـ أركان الإيمان . ٤ـ النبيُّ مُحمَّد ، صَلَّى اللَّهُ عليه وآلِه وسَلَّم. ٥ـ دراسات منهجية في القرآن والسُّنَّة. ٦ـ العُلوم والفُنون في القُرآن. ٧ـ العمل في القُرآن . ٨ـ الدَّعوة الإسلامية . ٩ ـ دراسات منهجية في القُرآن والتوراة والإنجيل . ١٠ـ الإنسان والعلاقات الاجتماعية. ١١ـ بحوث في الفكر الإسلاميِّ . ١٢ـ منهج الكافرين في القرآن. ١٣ـ التناقض في التوراة والإنجيل. ١٤ـ صورة اليهود في القرآن والسُّنَّة والإنجيل . ١٥ـ عقائد العرب في الجاهلية .

الأدب والثقافة والفكر :

١٦ـ فلسفة المُعلَّقات العَشْر. ١٧ـ النظام الاجتماعي في القصيدة (المأزق الاجتماعي للثقافة. كلام في فلسفة الشِّعْر) . ١٨ـ صرخة الأزمنة (سِفر الاعتراف) . ١٩ـ مشكلات الحضارة الأمريكية . ٢٠ـ حياة الأدباء والفلاسفة العالميين .

الشِّعر :

٢١ـ الأعمال الشعرية الكاملة (مجلد واحد)

الرواية :

٢٢ـ أشباح الميناء المهجور

٢٣ـ جبل النظيف